سلسلة الرسائل الجامعية المحكمة (١٣)

تاريخ الخلفاء الراشدين

دراسة جديدة تتضمن تحقيقاً لمواقف الصحابة وفق منهج المحدثين

تأليف

د. محمد بن إبراهيم بن صالح أبا الخيل

أستاذ التاريخ الإسلامي المشارك بجامعة القصيم

دار الهدي النبوي
مصر

دار الفضيلة
السعودية

الطبعة الأولى لدار الفضيلة

١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م

الناشر

دار الفضيلة للنشر والتوزيع

الرياض ١١٥٤٣ - ص.ب ٥١١٤٢

تليفاكس ٢٣٣٣٠٦٣

توزيع

دار الهدي النبوي للنشر والتوزيع

جمهورية مصر العربية - المنصورة

تليفون: ٢٣٢٣١٧٥ / ٠٥٠ - جوال: ٧١٤٥٦٨١ / ٠١٢



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الجديدة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على إمام المتقين ، نبينا محمد الصادق الأمين ، وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين .. أما بعد :

الحمد لله لا أحصي ثناءً عليه حظي هذا الكتاب - تاريخ الخلفاء الراشدين - بقبول حسن لدى القراء من المتخصصين وغيرهم ، وقد وصلتني من أساتذة فضلاء ، وأخوة أعزاء ملحوظات استفد منها في تصحيح هذه الطبعة ، وأحب أن أعقب على ملحوظتين هما :

• عبارة (دراسة جديدة تتضمن تحقيقاً لمواقف الصحابة وفق منهج المحدثين) التي وضعتُها تحت عنوان الكتاب - رأى بعضهم الاستغناء عنها ، بينما رأى آخرون بقاءها ، وعلل أصحاب الرأي الثاني أن بقاءها ضرورة للفت النظر إلى ما يحويه الكتاب من تحقيقات لقضايا شائكة تواجه من يدرس تاريخ الخلفاء الراشدين ، وهذا يتوافق مع رأيي حين وضعتها ، ولذا ما زلت أرى ضرورة وجودها تحت العنوان الرئيس .

• يرى بعضهم أني اختصرت في بعض الأحداث الواردة في هذا الكتاب ، ولا شك أن الاختصار والتفصيل في أحداث عصر الخلفاء الراشدين يخضع لمنهج الكاتب وخطته في الكتابة عن هذا العصر ، ورؤيته لتلك الأحداث ومدى أهميتها ، فلكل منا منهجه وخطته ورؤيته ، فما أرى الاختصار فيه قد يرى غيري التفصيل فيه ، وما أرى تفصيله يرى آخر اختصاره .

على أي حال فبالإضافة إلى تصحيح الكتاب على ضوء كثير مما وردتني من ملحوظات فقد صححت ما وجدته بنفسي فيه من أخطاء ، كما أضفت إليه إضافات جديدة في مواضع قليلة .

أشكر كل من قدم لي ملحوظة أو رأياً ، وأدعو الله أن يجزيهم الجزاء الأوفى ، أنه واسع الفضل والعطاء ، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم .

المقدمـــة

الحمد لله رب العلمين ، والصلاة والسلام على خاتم النبيين ، وعلى آله وصحبه أجمعين .. أما بعد :

يعد عصر الخلفاء الراشدين الذي يمتد حوالي ثلاثين عاماً غرةَ التاريخ الإسلامي بعد عصر الرسالة ، إذ عاش فيه معظم من صحبوا رسول الله ﷺ ، وتلقوا عنه ، وتربوا على يديه .

كذلك تولى الخلافة فيه أربعة من كبار الصحابة الذين طبقوا بكل صدق وإخلاص وشفافية أحكام الإسلام في شؤون الدولة الإسلامية الناشئة ، كما كتب للإسلام خلال ذلك العصر الانتشار في كثير من الأقطار خارج الجزيرة العربية بعد حركة فتوحات واسعة ، جرت فيها مواجهات عسكرية كبرى مع القوتين العظميين في ذلك الزمان ، إمبراطورتي الفرس والروم .

فهو إذن عصر متميز سواء في نوعية الرجال الذين عاشوا فيه أو حكموا ، أو فيما تمخض عنه من تجارب إسلامية واقعية صافية ثرة في الشؤون الإدارية والسياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية .

ولقد كُتب في تاريخ الخلفاء الراشدين في العصر الحديث عشرات المؤلفات ، سواء في كتب تاريخية عامة ، أو في كتب خاصة بهذا العصر ، أو على شكل كتب تخص كل خليفة على حدة .

والمؤمل من الكُتاب الذين ينتمون إلى أهل السنة أن تكون عقيدة أهل السنة والجماعة في الصحابة ﷺ حاضرة في أذهانهم عند كتابتهم في تاريخ الخلفاء الراشدين ، فيعرفون للصحابة حقهم المقرر ، ومنـزلتهم المتميزة ، وتاريخهم الصحيح .

ولكن المطلع على المتداول بين الناس وطلاب الجامعات من المؤلفات الخاصة بالخلفاء الراشدين يجدها لا تخلو من هنات أو مزالق ، تتفاوت قلةً أوكثرةً من مؤلَف إلى آخر .

والمؤسف أن بعض ما جاء في هذه المؤلفات من لمز أو قدح في بعض الصحابة

ليس مرده إلى عدم إحسان الكاتب الظن بالصحابة في حدث جرى منهم بالفعل ، وإنما هو راجع إلى شيء لم يحدث أصلاً ، سواء كان عمدته في ذلك رواية غير صحيحة ، أو أنه أطلق العنان لخياله في التحليل حتى وصل إلى تلك النتيجة ، رغم أن منهج أهل السنة والجماعة قد نص على إحسان الظن بالصحابة فيما صح من أفعال صدرت منهم قد يراها بعض الناس لا تتوافق مع ما عُهِدَ عنهم من التزام وانضباط ، فكيف بمن ينسب إليهم تصرفات لم يقارفوها مطلقاً ! .

ولعلي أضع بين يدي القاريء نقولاً يسيرة مما نحن بصدد الإشارة إليه مما ورد في بعض كتب متداولة في تاريخ الخلفاء الراشدين ، **وهي مراجع معتبرة لدى المتخصصين في تاريخ ذلك العصر** ، فهم يرجعون إليها ، ويعتمدون عليها في محاضراتهم ودراساتهم . **وانبه أنني سأكتفي بالنقل دون تعليق** .

من ذلك أن أحدهم نقل رواية تزعم أن أبا بكر ﷺ بعث عمر بن الخطاب ﷺ لبيت فاطمة رضي الله عنها ليخرج علياً ﷺ ومن معه للبيعة ، وحمل معه شيئاً من النار ليضرم به البيت إن رفض ... إلخ . ثم عقب على هذه الرواية بقوله « هذه الفقرة تعطينا تأكيداً ودليلاً على أن عمر بن الخطاب ذهب إلى بيت فاطمة الزهراء ، وأخرج علياً ومن معه من بني هاشم ، وأجبرهم على الدخول فيما دخل فيه الناس ، وإعطاء البيعة لأبي بكر ، بعد أن هددهم بحرق البيت إن لم يستجيبوا إلى إجماع المسلمين».

ووصف أحدهم أمير المؤمنين عثمان ﷺ بقوله « كان ﷺ ليناً في غير مواضع اللين». وبقوله « وكان ضعيف الإرادة ، منقاداً لابن عمه مروان بن الحكم الذي ما كان يشير عليه في الغالب بما فيه المصلحة العامة » .

وورد في كتاب عن عصر الخلفاء الراشدين ما نصه « وقد أشير على الصديق ﷺ أن يقتل سعد بن عبادة إلا أنه كان حريصاً في معاملته للأنصار ، وآثر أن يتغاضى عن موقف الشيخ المريض ، علَّ الله أن يهديه ويعيده إلى طريق الجماعة».

وقال كاتب في تاريخ الخلفاء الراشدين معللاً خروج عائشة وطلحة والزبير ﷺ إلى البصرة ما نصه « ورأى الذين اعتزلوا الفتنة ، واستقروا في مكة أن جوها غير مناسب لهم ، وأن طلب الرزق غير متوفر ، والتجارة التي اعتادوا عليها قد انقضت أيامها ،

وقطع بينهم وبينها الزمن ، ووجدوا أن البصرة أكثر ملاءمة ، لهذا فقد قرروا السير إليها ، وأقنعوا أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بالخروج معهم » .

وجاء في كتاب عن عصر الخلفاء الراشدين قول أحدهم عن خروج عائشة رضي الله عنها إلى العراق « لاشك أن أم المؤمنين رضي الله عنها قد ركبت في خروجها مركباً صعباً لا يذلله لها من خرج معها مهما كانت شخصياتهم ، ومهما كان عددهم ، ولقد كان الأليق بها ، والأوفق لمكانتها أن تلزم ما التزم به غيرها ، وأن تقر في بيتها كما أمرها الله عز وجل في قوله ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُن﴾ » .

ولما ذكر في موضع آخر أنها وصلت البصرة وحصلت مواجهة بين أتباعها وجماعة من أهل البصرة ـ قال « ثم قامت أم المؤمنين فحرضت الناس ، وحثت على الحرب والقتال » . هذه نقول قليلة من كتب حديثة تعد من أفضل ما يُتداول اليوم في تاريخ الخلفاء الراشدين ، فكيف بما دونها ؟ ! وهي كثيرة جداً .

لقد كنت منذ زمن بعيد ـ يعود إلى مرحلة البكالوريوس ـ اتطلع إلى كتاب تاريخي عن الخلفاء الراشدين تتجلى في صفحاته عقيدة أهل السنة والجماعة في الصحابة ﷺ ، ويقوم في الوقت نفسه على منهج التأليف الحديث من حيث التبويب والتنظيم والتحليل، وسلاسة العبارات ، وسهولة الأسلوب ، وتكون عدد صفحاته في حدود المعقول.

وقد بقيت هذه الرغبة في نفسي بمرور السنين ، وقد شعرت أن من واجبي - بما لأصحاب رسول الله ﷺ من حق علينا ، وبصفتي متخصصاً في التاريخ الإسلامي - أن انفذ هذه الرغبة الملحة ، لاسيما بعد أن قمت بتدريس هذه المادة في الجامعة سنين عددا .

ثم إني رأيت أن مهمتي لن تكون عسيرة بدرجة كبيرة في معالجة كثير من القضايا الشائكة في تاريخ هذا العصر حين درسها وحققها عدد من الباحثين جزاهم الله خيراً في رسائل للماجستير أو الدكتوراه منها المنشور ، ومنها غير المنشور . وبالفعل فقد بدأت ـ على مهل ـ في الكتابة في هذا المشروع منذ سنوات مستفيداً مما تيسر من مصادر ومراجع وأبحاث ، وما زلت اكتب فيه وأطالع كل جديد يكتب حوله حتى مَنَّ الله علي بالانتهاء منه ، فله الحمد المبارك الجزيل ، والثناء الحسن الجميل .

لقد كان منهجي الذي سرت عليه في الكتابة هو الحرص على التثبت من صحة

الروايات التي تتصل بأمور العقيدة أو التي تنبني عليها أحكام شرعية ، أما ما يتعلق ببعض أخبار الخلفاء الشخصية ، وأخبار سير الفتوحات وبعض الأعمال العمرانية والإدارية والاقتصادية ونحو ذلك فيُكتفى فيه باستخدام منهج البحث التاريخي المعروف لدى الباحثين .

ثم إني كنت حريصاً في ثنايا الكتاب على الرد ـ بطريق غير مباشر ـ على الشبهات التي تُثار حول بعض القضايا الواردة في تاريخ هذا العصر ، معتمداً في ذلك على أقوال العلماء وتحقيقات الباحثين .

وقد رأيت أن ادرس كل خليفة على حدة ، لأن هذا هو الأفضل ـ من وجهة نظري ـ في حق الخلفاء الراشدين ، وذلك كي تبرز بشكل واضح الجهود العظيمة لكل واحد منهم في خدمة دينه وأمته ؛ لاسيما وأن هناك تميزاً في أعمالهم ، واختلافاً في القضايا التي واجهوها .

وعلى العموم فالخطة التي سرت عليها في عرض تاريخ كل خليفة من هؤلاء الخلفاء الأربعة تبدأ بالتعريف بنسبه ومولده وحياته قبل الإسلام .

ثم إسلامه وجهوده في سبيل الإسلام قبل ولايته الخلافة ، ثم فضائله وعلمه ، ثم مبايعته بالخلافة.

وبعد ذلك عرض لأعماله واحداً بعد الآخر . ثم وقفة عامة عند سيرته ومنهجه في أثناء حكمه للمسلمين ، ثم في الأخير وفاته .

ولا يفوتني هنا أن اسجل شكري الوفير لجامعتي الفتية جامعة القصيم التي فرغتني سنة دراسية كاملة (١٤٢٥ هـ / ١٤٢٦ هـ) استطعت خلالها ـ بفضل الله تعالى ـ أن أركز جهدي ، واحصر همي في العمل بهذا الكتاب ، فجزى الله خيراً كلَ من كان له يد في حصولي هذا التفرغ العلمي .

كما يطيب لي أن أشكر أخي الصديق الدكتور خالد بن محمد الغيث أستاذ التاريخ المساعد بجامعة أم القرى على تفضله بقراءة هذا الكتاب قبل دفعه إلى المطبعة ، وإبدائه ملحوظات قيمة أخذت بكثير منها .

وفي الختام اسأل الله سبحانه أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه ، ومقرباً إلى رضوانه ، اللهم كما عايشتُ هؤلاء الصحابة الأربعة وغيرهم ممن وردت أسماؤهم في هذا الكتاب ـ اللهم كما عايشتهم زمناً ، وأنا اكتب عنهم محبة لهم ، ونشراً لفضائلهم ، وذباً عنهم ـ اللهم اجمعني ووالديّ وزوجتي وأولادي وأحبابي والمسلمين بهم في جنات النعيم ، إنك جواد كريم ، بر رحيم . وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

قبل قراءة تاريخ الخلفاء الراشدين

الصحابة في التاريخ

الحديث عن الصحابة ﵃[1] يمتزج بسيرة الرسول ﷺ ، فالحياة المعتبرة لأي واحد منهم تبتدي باتصاله بالنبي ﷺ وتستمر حتى الوفاة .

فعصرهم على وجه العموم ـ إذن ـ يبدأ بعصر الرسول ﷺ ثم يستمر من بعده زمناً يمتد إلى النصف الثاني من القرن الأول الهجري ؛ حيث انتهت حياة كثيرين منهم .

وعلى هذا فالحقبة الزمنية التي عاش فيها الصحابة تشمل ـ حسب تقسيم المؤرخين ـ عصر النبي ﷺ وعصر الخلفاء الراشدين وبعض عصر بني أمية .

إن الصحابة هم أولئك الجيل الذين آمنوا بالرسول ﷺ وصدقوا بما أنزل عليه من الحق ، وعزروه ونصروه وجاهدوا معه ، وساروا في حياتهم وفق ما شرعه لهم ، ورباهم عليه في عبادتهم لله تعالى ، وتعاملهم مع الناس ، ونظرتهم للكون والحياة . فكان الصحابة جميعا بلا استثناء – على رأي جماعة من المفسرين – هم المعنيين بقوله تعالى: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ﴾(الفتح ، آية ٢٩)[2].

ولقد نعتهم نبيهم ﷺ الذي عاشرهم وعرفهم – وهو لا ينطق عن ميل ولا هوى– بأنهم خير الناس ، فقال في الحديث الصحيح لما سئل عن (**أي الناس خير ؟ قال : قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم .. . الحديث**)[3] .

فهم جيل متميز في التاريخ الإسلامي ، فكانوا –كما وصفهم عبد الله بن مسعود

---

(١) قال ابن حجر في تعريف الصحابي « وأصح ما وقفت عليه من ذلك أن الصحابي من لقي النبي ﷺ مؤمناً به ، ومات على الإسلام ؛ فيدخل فيمن لقيه من طالت مجالسته له أو قصرت ، ومن روى عنه أو لم يرو ، ومن غزا معه أو لم يغزُ ، ومن رآه رؤية ولو لم يجالسه ، ومن لم يره لعارض كالعمى ... » (الإصابة في تمييز الصحابة ، جـ١ ، ص ٦) .

(٢) محمد شفيع : مقام الصحابة وعلم التاريخ ، ترجمة سمير عبد الحميد إبراهيم ، ص ٤٨ .

(٣) البخاري : الصحيح ، تحقيق مصطفى ديب البغا ؛ مسلم : الصحيح ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، جـ ٤ ، ص١٩٦٣ .

رضي الله عنه- « أفضل هذه الأمة ، وأبرها قلوباً ، وأعمقها علماً ، وأقلها تكلفاً ، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه ، وإقامة دينه»[(١)].

بل إنهم جيل متميز في التاريخ الإنساني عامة ، إذ لا يعرف التاريخ جماعة تحلت بمثل أخلاقهم وصفاتهم ، ونهضت بمثل أعمالهم وجهادهم ، وهي موفورة العدد كعددهم في مكان واحد وفي زمن واحد .

ولقد كان للصحابة ﷺ – بعد انتقال النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى – جهودهم المشهودة في نصرة الإسلام وتثبيت أركانه ، ونشره غضاً طرياً بين شعوب كثيرة .

ففي مطلع عصر الخلفاء الراشدين وقفوا وقفة حاسمة في وجه حركة الردة التي ظهرت عند وفاة الرسول ﷺ فقضوا عليها ، وأرسوا قواعد الإسلام في أرجاء الجزيرة العربية .

ثم خرجت جموع كبيرة منهم للجهاد في سبيل الله خارج جزيرتهم ، فكانوا على رأس جيوش المسلمين الذين هزموا في آن واحد جيوش القوتين العظميين حينذاك (الفرس والروم)، فأسقطوا الدولة الفارسية الساسانية ، وسيطروا على أراضيها ، ثم تجاوزوها شرقاً إلى بلاد الترك .

كما قضوا على الوجود الرومي في الشام ومصر وأجزاء واسعة من الشمال الإفريقي ، فضلاً عن الحوض الشرقي للبحر المتوسط ، فأصبحت السيادة في هذه الأنحاء كلها للدولة الإسلامية .

كل ذلك تمّ في سنوات معدودات من العصر الراشدي وقد صاحب هذا الفتح العسكري فتحاً للقلوب ، فانتشر الدين الإسلامي بين الشعوب ، ثم ما لبثت بقاع عديدة من البلاد المفتوحة أن تحولت إلى بلاد عربية .

ولا ريب أن من أهم عوامل سرعة تقبل أهل تلك البلاد للإسلام والمسلمين وعدم المقاومة لهم هو ما شهدوه من سمت أصحاب الرسول ﷺ وحسن أخلاقهم ، وتقيدهم التام بما ورد في الكتاب والسنة في معاملة غير المسلمين ، قال مالك رحمه الله : **«بلغني أن النصارى كانوا إذا رأوا الصحابة ﷺ الذين فتحوا الشام يقولون ؛ والله لهؤلاء خير**

---

(١) ابن تيمية : منهاج السنة ، جـ ٦ ، ص ٨١ ؛ ابن أبي العز الحنفي : شرح العقيدة الطحاوية ، جـ ٢ ، ص ٥٤٦ .

من الحواريين فيما بلغنا »[١].

فالصحابة ﷺ – كما علق ابن كثير رحمه الله– « خلصت نياتهم ، وحسنت أعمالهم ، فكل من نظر إليهم أعجبوه في سمتهم وهديهم » . ولم يتوقف نشاط الصحابة ﷺ في الفتح عند عصر الخلفاء الراشدين ، بل شارك أعداد منهم في حركة الفتح الإسلامي خلال الشطر الأول من العصر الأموي في كافة الجبهات التي توجهت إليها الجيوش الإسلامية[٢] .

ومما ينبغي التأكيد عليه في الحديث عن أثر الصحابة ﷺ في مسيرة التاريخ هو اقتفاؤهم نهج الرسول ﷺ في تطبيق أحكام الإسلام وشعائره ، فقد طبق الخلفاء الراشدون بمشاركة إخوانهم من الصحابة تعاليم الإسلام في كافة مناحي الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية ، فصارت تجاربهم تلك أمثلة حية واقعية احتذاها من أتى بعدهم في سلامة تطبيقه لأحكام الدين الإسلامي وشعائره .

وشيء عظيم اقترن بصحابة رسول الله ﷺ واختصوا به من دون العالمين وهو أن الله تعالى الذي قضى بحفظ الوحي المنزل على رسوله محمد ﷺ قد جعل حفظه على أيديهم ، فصانوه من الضياع ، وأدوه بأمانة إلى من حمله بعدهم .

فبالنسبة للقرآن الكريم فقد حفظه كثير منهم عن ظهر قلب ، كما قاموا في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه بجمعه كاملاً بوثائقه التي كتب عليها في عهد النبي ﷺ ، ثم نسخوه في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه في مصحف واحد ، وبُعث بنسخ منه إلى الأمصار الإسلامية الكبرى .

فتحقق بهذا العمل الجليل – بعد إرادة الله – حفظ للكتاب من التحريف ، وضمان لعدم الاختلاف فيه ، وانتشار واسع له بين الناس .

ومن ناحية أخرى كان الصحابة الكرام – أيضاً – نقلةً لأقوال الرسول ﷺ وأفعاله وتقريراته ، فجاء ذلك في مئات الألوف من الأحاديث النبوية التي كأنك تعيش معه إذا قرأتها أو سمعتها ، ويكفي أن تقلب النظر في المصنفات الخاصة بسنته ﷺ وأخباره لتدرك الجهد الضخم الذي أداه هؤلاء الأصحاب ﷺ في نقل الهدي النبوي للذين من بعدهم .

---

(١) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ، تحقيق عبد الرزاق المهدي ، جـ ٥ ، ص ٦٤١ .

(٢) المصدر نفسه ، الصفحة نفسها .

الصحابة في عقيدة أهل السنة والجماعة

ونظراً لمقام الصحابة ﷺ المحمود في الإسلام ، وصحبتهم الشريفة للرسول ﷺ ومؤازرتهم ونصرتهم له فقد احتلوا باباً من أبواب العقيدة عند أهل السنة والجماعة[١]، ولذلك لا تجد كتاباً صُنف في عقيدة أهل السنة والجماعة إلا عرج فيه صاحبه على الاعتقاد المقرر في الصحابة ، بل بلغ الاهتمام به أن أئمة السنة إذا أراد الواحد منهم أن يذكر عقيدته ولو في ورقة واحدة أو أقل فإنه «لابد أن يشير إلى موضوع الصحابة ، إما من جهة فضلهم ، أو فضل الخلفاء الراشدين ، أو من جهة عدالتهم والنهي عن سبهم والطعن فيهم ، أو الإشارة إلى الكف والإمساك عما شجر بينهم »[٢].

ومما ورد عن اعتقاد أهل السنة في الصحابة قول أبي جعفر الطحاوي (ت ٣٢١هـ) «ونحب أصحاب رسول الله ﷺ ، ولا نُفْرط في حب أحد منهم ، ولا نتبرأ من أحد منهم ، ونبغض من يبغضهم وبغير الخير يذكرهم ، ولا نذكرهم إلا بخير ، وحبهم دين وإيمان وإحسان ، وبغضهم كفر ونفاق وطغيان »[٣].

وقول ابن تيمية[٤](ت ٧٢٨ هـ) « ومن أصول أهل السنة والجماعة سلامة قلوبهم وألسنتهم لأصحاب رسول الله ﷺ كما وصفهم الله به في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴾ (الحشر ، آية ١٠) ، وطاعة النبي ﷺ في قوله **(لا تسبوا أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أن أحدَكم أنفق مثلَ أُحدٍ ذهباً ما بلغ مُدَّ أحدِهم ولا نصيفَه)** .

ويقبلون ما جاء به الكتاب والسنة والإجماع من فضائلهم ومراتبهم ويفضلون من أنفق من قبل الفتح ... وقاتل على من أنفق من بعدُ وقاتل ، ويقدمون المهاجرين على الأنصار ... ويشهدون بالجنة لمن شهد له رسول الله ﷺ ...

(١) محمد شفيع : مقام الصحابة ، ص ٤٤ .
(٢) محمد بن عبد الله الوهيبي : اعتقاد أهل السنة في الصحابة ، ص ٣-٤ .
(٣) ابن أبي العز الحنفي : شرح العقيدة الطحاوية ، جـ ٢ ، ص ٦٨٩ .
(٤) العقيدة الواسطية (منشورة مع كتاب آداب المشي إلى الصلاة لمحمد بن عبد الوهاب)، ص ٦٠-٦٣ .

ويقرون بما تواتر به النقل عن أمير المؤمنين على بن أبي طالب ﷺ وغيره من أن خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ، ثم عمر ، ويثلثون بعثمان ، ويربعون بعلي ﷺ ، كما دلت عليه الآثار ، وكما أجمع الصحابة على تقديم عثمان في البيعة ...

ويحبون أهل بيت رسول الله ويتولونهم ويحفظون فيهم وصية رسول الله ﷺ ... ويتولون أزواج رسول الله ﷺ أمهات المؤمنين ، ويؤمنون بأنهن أزواجه في الآخرة ...

ويتبرءون من طريقة الروافض الذين يبغضون الصحابة ويسبونهم[١]، وطريقة النواصب الذين يؤذون أهل البيت بقول أو عمل ، ويمسكون عما شجر من الصحابة[٢].

ويقولون : إن هذه الآثار المروية في مساويهم منها ما هو كذب ، ومنها ما قد زيد فيه ونقص وغُيِّر عن وجهه ، والصحيح منه هم فيه معذورون ؛ إما مجتهدون مصيبون ، وإما مجتهدون مخطئون.

وهم مع ذلك لا يعتقدون أن كل واحد من الصحابة معصوم عن كبائر الإثم وصغائره ، بل يجوز عليهم الذنوب في الجملة ولهم من السوابق والفضائل ما يوجب مغفرة ما يصدر عنهم ـ إن صدر ـ ... ومن نظر في سيرة القوم بعلم وبصيرة ، وما من الله عليهم به من الفضائل علم يقيناً أنهم خير الخلق بعد الأنبياء ، لا كان ولا يكون مثلهم[٣]، وأنهم الصفوة من قرون هذه الأمة التي هي خير الأمم وأكرمها على الله » .

---

(١) وسب الصحابة دركات بعضها شر من بعض ، ومما تطفح به كتب التاريخ المعاصرة إتهام بعض الصحابة بقلة المعرفة بالسياسة ، وسذاجة الرأي ، وضعف الشخصية والغفلة ، وحب الدنيا ونحو ذلك (الوهيبي : اعتقاد أهل السنة ، ص ٣٧ ، ٥٤) قال ابن تيمية « و أما من سبهم سباً لا يقدح في عدالتهم ولا في دينهم ـ مثل وصف بعضهم بالبخل ، أو الجبن ، أو قلة العلم ، أو عدم الزهد ونحو ذلك ـ فهذا هو الذي يستحق التأديب والتعزير»(الصارم المسلول على شاتم الرسول ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، جـ ١ ، ص ٥٨٦) .

(٢) « لكن إذا ظهر مبتدع يقدح فيهم بالباطل فلا بد من الذب عنهم ، وذكر ما يُبطل حجته بعلم وعدل » (ابن تيمية: منهاج السنة النبوية ، جـ ٦ ، ص ٢٥٤) .

(٣) روي أن رجلاً سأل المعافى بن عمران فقال « أين عمر بن عبد العزيز من معاوية بن أبي سفيان ؟ فغضب ... غضباً شديداً ، وقال: لا يُقاس بأصحاب رسول الله ﷺ أحد ... » ، وفي رواية « تجعل رجلاً من أصحاب محمد ﷺ مثل رجل من التابعين ! » ، وفي رواية « سبحان الله أأجعل من رأى رسول الله ﷺ كمن لم يره ؟ ! قالها ثلاثا» . وقد سئل عبد الله ابن المبارك عن معاوية ﷺ فقال «ما أقول فى رجل قال رسول الله ﷺ سمع الله لمن حمده ، فقال خلفه : ربنا ولك الحمد » (ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق ، جـ ٥٩ ، ص ٢٠٧ ، ٢٠٨) راجع ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ ٨ ، ص ١٣٩ .

مصادر تاريخ الصحابة

إن عصر الصحابة ﷺ يبدأ ـ كما سلف ـ مع العصر النبوي ويمتد تقريباً حتى النصف الثاني من القرن الأول الهجري . وإذا أردنا أن نُلم بتاريخ هؤلاء الصفوة ، ونعرف فضائلهم ، ونتتبع تفاصيل حياتهم ، ونقف على أثرهم في الأحداث التي شهدوها ، والمواقف التي عايشوها ، ونطَلع على ما نهضوا به من أعمال ، وما حققوه من منجزات فإن المصادر التاريخية وكتب التراجم لن تكون كافية في تغطية ذلك كله ؛ لأن غالب ما يرد فيها بخصوصهم يركز على الأحداث السياسية.

ولذا فلابد من الرجوع معها إلى المصادر الأخرى التي وردت فيها أخبار ومعلومات تتعلق بهم ، سواء كانت محددة في أبواب أو فصول ، أو جاءت مبثوثة هنا وهناك في ثناياها .

ففي مصنفات الحديث ـ مثلاً ـ أبواب خاصة بفضائل الصحابة ، وثمة معلومات مبعثرة عنهم في الأبواب المخصصة لمغازي النبي ﷺ ، وفوق ذلك فإن المتأمل في ثنايا الأحاديث الواردة داخل هذه المصنفات يقف على كثير من المعلومات والأخبار التي تعرض لحياة الصحابة وأعمالهم .

وأيضاً في كتب تفسير القرآن وأسباب النزول روايات جمة تشير إلى وقائع حدثت للصحابة رضي الله عنهم تكشف جانباً من حياتهم في عهد الرسول ﷺ .

كما أن في كتب الأموال والخراج والأحكام السلطانية والكتب الفقهية أحاديثَ وآثاراً يمكن الإفادة منها في دراسة تاريخ الصحابة ، لاسيما مشاركتهم في الفتوحات الإسلامية وأثرهم في ميدان الحكم والإدارة والقضاء .

ثم إن كتب الأدب تحوي في فصولها قصصاً متنوعة ، وأخباراً متفرقة تعود إلى عصر الصحابة رضوان الله عليهم .

كيف وصل إلينا تاريخ الصحابة ؟

واضح مما سبق أن الأحاديث والآثار والأخبار والمرويات المتعلقة بالصحابة ﷺ متوزعة بين مصادر عديدة من مصادر العلوم الإسلامية ، وتَتَبعُ نشأةِ تدوينها في هذه المصادر جميعها يتطلب ـ لا ريب ـ شرحاً مطولاً ، ولعل الوقوف عند المصادر التاريخية ـ وهي الأكثر تعلقاً بتاريخهم ، وأوعب مادة تتكلم عنهم ـ يغني عن الوقوف عند البقية .

بالنظر إلى فهارس المؤلفات والمدونات القديمة نجد أن التأليف في تاريخ الصحابة رضي الله عنهم على شكل رسائل تاريخية مفردة تختص بحوادث وقعت لهم في عصر الخلفاء الراشدين بدأ في الظهور بصورة واضحة خلال القرن الثاني الهجري.

ولكن ذلك لا يعني أبداً أن جميع الأخبار المسجلة فيها بقيت متداولة شفوياً ، تتقاذفها ألسنة الرواة حتى استقر بها المقام في تلك الرسائل كما يروج لذلك عن بداية تدوين العلوم الإسلامية جميعها نفر من المستشرقين ومن تبعهم من المستغربين.

ذاك أن جزءاً من المعلومات المتصلة بحياة الصحابة اُهتم بها عند إنشاء ديوان العطاء في عهد عمر بن الخطاب ﷺ الذي جعل أساس التوزيع فيه القرابة من الرسول ﷺ والسابقة في الإسلام[١]؛ بل ورد أن عمر رضي الله عنه كلف بعض نسابي قريش بإعداد جدول بالأنساب[٢].

وفي أثناء فتوح البلدان في العصر الراشدي والأموي كان الخلفاء يتبادلون مع القادة رسائل مكتوبة تشرح حال الجيش الإسلامي وخططه ، وأخبار المجاهدين ونشاطاتهم .

ثم احتيج بعد ذلك إلى العناية بأخبار الفتح لأغراض شرعية كالتمييز بين ما فُتح عُنوة وما فتح صلحاً ، والتفريق بين أهل العهد من سكان تلك البلاد وبين أهل الذمة منهم ، ولا ريب أن في تلك المدونات المبكرة أخباراً متفرقة تخص حياة الصحابة أو تخص

---

(١) محمد بن صامل السلمي : منهج كتابة التاريخ الإسلامي ، ص ٢٧٨ .

(٢) فؤاد سزكين : تاريخ التراث العربي ، عربه محمود فهمي حجازي ، م١ ، جـ٢ ، ص ١٤.

عصرهم[١] .

ولقد كان من عادة بعض الصحابة ﷺ وتلامذتهم تدوين طائفة من الأحاديث والأخبار ليس بغرض نشرها مكتوبة بين الناس وإنما بهدف إتقان حفظها ، والرجوع إليها وقت الحاجة .

فهذه الصحف وإن أوصى بعض أصحابها بإتلافها بعد موتهم أو محوها في حياتهم[٢] فإنها وسيلة من الوسائل المهمة في حفظ أخبار الصدر الأول ، سواء ظلت تلك الأحاديث والأخبار تحت نظر كاتبيها ، أو بقيت على حالها مكتوبة بعد إفلاتها من يد الإتلاف أو المحو عقب موت صاحبها ، فتداولها أبناؤهم وأحفادهم ، وقد ثبت أن بعض مؤلفي الكتب التاريخية في القرنين الثاني والثالث الهجريين نقلوا منها مباشرة[٣] .

ولا ننسى أن السنة التي اعتني بها في عصر النبي ﷺ وكتب بعضها في حياته ﷺ وتوالى الاهتمام بها من بعده قد تضمنت روايات وأخباراً تمس من قريب أو بعيد حياة الصحابة ، بل وجدت تآليف في المغازي النبوية في القرن الأول للطبقة الأولى من كُتاب هذا الضرب من التأليف كأبان بن عثمان وعروة بن الزبير والشعبي[٤] وغيرهم ممن عايشوا الصحابة ، وتعلموا على أيديهم ، ونقلوا منهم . ولا يخفى ما تتخلله المغازي من إشارات وأخبار تتصل بالصحابة .

وتوحي مصنفات في الشعر ككتاب « أشعار الأنصار » المؤلف في عهد عمر بن الخطاب ﷺ[٥] بأن أشعار الصحابة احتفي بها في وقت مبكر من التاريخ الإسلامي ، فسجلت في الصحف وكثير منهم على قيد الحياة ، ولابد أنه دوّن معها أخبار تاريخية لفهم ما تقتضيه الضرورة منها .

بقي الإشارة إلى أن تدوين التاريخ عموماً في رسائل تاريخية مستقلة صغيرة كالرسائل الخاصة بحوادث وقعت للصحابة قد سبقته مرحلة التدوين الشخصي ، حيث

---

(١) السلمي : منهج كتابة التاريخ ، ص ٢٧٨ .
(٢) المرجع نفسه ، ص ٢٨٤ .
(٣) سزكين : تاريخ التراث ، م ١ ، جـ ٢ ، ص ٢٠، ٢١ ، ٢٢ .
(٤) السلمي : منهج كتابة التاريخ ، ص ٢٩٦، ٢٩٧ .
(٥) سزكين : تاريخ التراث ، م ١ ، جـ ٢ ، ص ١٦.

كان الإخباري أو المؤرخ يسجل ما شهده من أحداث ، وكذلك ما يسمعه من أفواه الرواة الذين شاهدوا الأحداث السالفة ، أو سمعوه ممن حضرها ـ يدون كل ذلك في صحف دون تبويب أو ترتيب ، فيكون في الصحيفة الواحدة ـ مثلاً ـ خبر من السيرة ، وقصيدة شعرية ، وقائمة بالنسب ونحو ذلك.

فظلت المرويات والأخبار التاريخية مدونة مع سواها حتى فصلها الأخباريون والمؤرخون ، وأخرجوها في رسائل ذات عناوين خاصة ، وقد لا تتجاوز الرسالة منها بضع صفحات . وامتدت هذه المرحلة القرن الثاني الهجري كله تقريباً [١].

وفي الأخير ننبه إلى أن بعض الباحثين أثبت بأن المصادر التي زودتنا بمواد أخبارية تتعلق بالقرن الأول والثاني اعتماداً على الإسناد إنما هي كتب مجموعة من مصادر مدونة تعود بدورها إلى مصادر مدونة أقدم منها ، فالأسماء الواردة في الأسانيد تعطي في مجموعها أو معظمها أسماء المؤلفين أو أسماء عدد من الرواة والمؤلفين ، بل بلغ بأحدهم إلى الجزم بأن مصادر الطبري (ت ٣١٠ هـ) ـ مثلاً ـ « لم تكن سوى كتب مدونة دون غيرها » [٢] .

وهكذا يتبين أن كثيراً من الروايات والأخبار الخاصة بالصحابة وعصرهم قد دونت بأساليب مختلفة منذ وقت مبكر ، ثم تهيأت لها وسائل الحفظ والبقاء حتى وصلت إلى المصادر المتوافرة بين أيدينا . لكن ذلك لا يمنع وجود طائفة أخرى من تلك الروايات والأخبار ظلت بين الرواة يتناقلونها واحداً بعد الآخر إلى أن أُذن لها بالتدوين في المصادر بعد مضي زمن قصير أو طويل على وقوع حوادث ذلك العصر ، ومثل هذه الروايات الشفوية غير مستغرب وجوده في المدونات التاريخية سواء في تاريخ المسلمين أو تواريخ الأمم الأخرى .

---

(١) السلمي : منهج كتابة التاريخ ، ص٢٨٧،٢٨٦.
(٢) سزكين : تاريخ التراث ، م١، جـ٢،ص ٤ .

الفصل الأول

الخليفة أبو بكر الصديق رضي الله عنه

الخليفة أبو بكر الصديق ﷺ

اسمه ونسبه وألقابه : هو عبد الله بن أبي قحافة (عثمان) بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب . فهو يلتقي في نسبه مع الرسول ﷺ في مرة بن كعب الجد السادس له ﷺ [١] . وتيم بن مرة من البطون القرشية غير الكبيرة ، فلا تضارع في شهرتها - مثلاً - بني هاشم أو بني أمية . وكان من رهط أبي بكر ﷺ عبد الله بن جدعان[٢] الذي عقد في بيته حلف الفضول .

ويقال أن اسمه في الجاهلية عبد الكعبة ، فسماه النبي ﷺ عبد الله[٣] .

ومن ألقابه المشهورة العتيق والصدّيق[٤].

مولده ونشأته: ولد أبو بكر ﷺ في السنة الثانية أو الثالثة من عام الفيل[٥] ، فكان مولده بعد مولد النبي ﷺ بسنتين وستة أشهر[٦] . نشأ في مكة ، واشتغل بالتجارة ، فكانت أكثر تجارته في البز (الثياب) ، وقد بلغت أمواله قبل الإسلام أربعين ألف دينار في رواية[٧] ، وأربعين ألف درهم في رواية أخرى[٨] .

كان عالماً في الأنساب حتى عد فرد زمانه في هذا الفن[٩] ، لاسيما في أنساب

---

(١) ابن قتيبة : المعارف ، ص ١٦٧ ؛ السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ٢٩ .

(٢) ابن قتيبة : المعارف ، ص ١٧٥ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ١٦٧ ؛ المحب الطبري : الرياض النضرة ، جـ ١ ، ص ٤٠١ . وقد ذكر أحمد الشامي أنه يسمى عبد اللات أوعبد العزى (الخلفاء الراشدون ، ص ١٢٥) ولا يوجد في المصادر التي بين أيدينا ما يقول بذلك.

(٤) ابن سعد : الطبقات ، جـ ٣ ، ص ١٧٠ . وقد لخص ابن حجر ماقيل في سبب تلقيب أبي بكر ﷺ بهذين اللقبين فقال « وكان يسمى أيضاً عتيقاً ، واختلف هل هو اسم له أصلي ، أو قيل له ذلك لأنه ليس في نسبه ما يعاب به ، أو لقدمه في الخير وسبقه إلى الإسلام ، أو قيل له ذلك لحسنه ، أو لأن أمه كان لا يعيش لها ولد ، فلما ولد استقبلت به البيت ، فقالت : اللهم هذا عتيقك من الموت ، أو لأن النبي ﷺ بشره بأن الله أعتقه من النار ... ولقب الصديق لسبقه إلى تصديق النبي ﷺ ، وقيل كان ابتداء تسميته بذلك صبيحة الإسراء » (فتح الباري ، جـ ٧ ، ص٩ ؛ اليحيى : الخلافة الراشدة والخلافة الأموية من فتح الباري ، ص ١٢٧) انظر شرح ذلك مطولاً في (المحب الطبري : الرياض النضرة ، جـ ١ ، ص ٤٠١-٤٠٩) .

(٥) الأمين عوض الله : الخلفاء الراشدون ، ص ٢٠ .

(٦) ابن حجر : الإصابة ، جـ ٤ ، ص ١٦٩ .

(٧) ابن الأثير : أسد الغابة ، جـ ٢ ، ص ٤٢١

(٨) السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ٣٩ .

(٩) السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ١٧ .

قريش، حيث كان « أنسب قريش لقريش ، وأعلمهم بما كان فيها من خير أو شر». وكان رجلاً محبوباً في قومه ، يألفونه لعلمه وتجاربه وحسن مجالسته[١] . وقد كانت إليه الأشناق في الجاهلية ، وهي الديات ، فإذا احتمل شيئاً من ذلك أمضوا حمالته ، وأثنوا عليه خيراً ، وإذا احتملها غيره لم يصدقوه وخذلوه[٢] .

شب ﷺ على مكارم الأخلاق ، فلم يؤثر عنه الكذب ، وكان سخياً كريماً ، كثير البذل والعطاء ، وكان يتبرم في الجاهلية من الأصنام ، فلم ينقل عنه عبادتها أو التقرب إليها[٣] . ومن المشهور عنه عزوفه عن شرب الخمر قبل الإسلام ، وروي أنه لما سُئل « هل شربت الخمر ؟ قال : أعوذ بالله . فقيل : ولِمَ ؟ قال كنت أصون عرضي ، واحفظ مروءتي ؛ فإن من شرب الخمر كان مضيعاً في عرضه ومروءته »[٤] .

كان ﷺ قبل الإسلام صديقاً حميماً للنبي ﷺ ، والظاهر أن عمق الصداقة بينهما حصلت بسبب التقارب في المظهر وحسن السلوك ، فلقد ثبت أن سيد القارة ابن الدغنّة وصفه في أول الإسلام بوصف قريب مما وصفت به خديجةُ رضي الله عنها رسولَ الله ﷺ عند بدء الوحي ، فقال ابن الدغنة ـ وهو على شركه ـ حينما عزم أبو بكر ﷺ على الهجرة إلى الحبشة « إن مثلك لا يَخرج ولا يُخرج ، فإنك تكسب المعدوم ، وتصل الرحم ، وتحمل الكَل ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق »[٥] .

قال ابن حجر[٦] أن ابن الدغنة «وصفه بنظير ما وصفت به خديجة النبي ﷺ لما بُعث ، فتواردا فيهما على نعت واحد من غير أن يتواطآ على ذلك ، وهذه غاية في مدحه ، لأن صفات النبي ﷺ منذ أن نشأ كانت أكمل الصفات ».

صفته الخَلْقية : جاء في صفة عائشة رضي الله عنها لأبيها أبي بكر ﷺ أنه رجل أبيض ، يخالطه صفرة ، حسن القامة ، خفيف العارضين ، أقنى ، أجنى لا يستمسك

(١) ابن حجر : الإصابة ، جـ ٤ ، ص ١٧١ .
(٢) المصدر نفسه ، ص ١٧٤ .
(٣) أمين القضاة : الخلفاء الراشدون ، ص ١٥ . راجع الصفوري : مختصر المحاسن المجتمعة في فضائل الخلفاء الأربعة، ص ٦٤-٦٥ .
(٤) السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ٢٣ .
(٥) البخاري : الصحيح ، جـ ٣ ، ص ١٤١٧ .
(٦) فتح الباري ، جـ ٤ ، ص ١٧٤-١٧٥ .

إزاره ، يسترخي عن خصره ، معروق الوجه [قليل لحم الوجه] ، غائر العينين ، ناتيء الجبهة ، عاري الأشاجع [أصول الأصابع] ، دقيق الساقين ، ممحوص الفخذين ، يخضب بالحناء والكتم [١] .

أولاده وزوجاته : كان لأبي بكر ﷺ ستة من الولد ؛ ثلاثة من الذكور ، وثلاث من الإناث ، وهم من أربع نسوة .

فقتيلة بنت عبد العزى ولدت له : عبد الله ، وأسماء .

وأم رومان ـ دعد بنت عامر ـ ولدت له : عبد الرحمن ، وعائشة .

ومن أسماء بنت عميس ولد له : محمد .

وحبيبة بنت خارجة بن زيد الأنصارية ولدت له بعد وفاته أم كلثوم[٢].

إسلامه : ثبت عن أبي الدرداء ﷺ أن رسول الله ﷺ قال حين خاصم بعض الصحابة أبا بكر ﷺ « **إن الله بعثني إليكم فقلتم : كذبتَ ، وقال أبو بكر : صدقَ ...** »[٣]. ففي هذا الحديث الصحيح دلالة على مبادرته ﷺ بالإسلام دون تردد.

ولذا يُروى أنه ﷺ قال « **ما دعوتُ أحداً إلى الإسلام إلا كان فيه عنده كبوة ونظر وتردد إلا ما كان من أبي بكر بن أبي قحافة ما عكم [أي تلبث] عنه حين ذكرته وما تردد فيه** »[٤].

ولقد ذكر بعض المؤرخين أن أول من أسلم من هذه الأمة أبو بكر الصديق ، وقد «سئل ابن عباس ﷺ : من أول من آمن ؟ فقال أبو بكر الصديق» ، ثم احتج بأبيات لحسان بن ثابت ﷺ منها قوله في أبي بكر ﷺ :

خير البرية أوفاها وأعدله بعد النبي وأولاها بما حملا

(١) أحمد الشامي : الخلفاء الراشدون ، ص ١٢٥-١٢٦ .
(٢) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٤٢٥-٤٢٦ ؛ ابن الأثير : الكامل ، جـ ٢ ، ص ٤٢٠ . راجع لمعرفة عقب أولاد أبي بكر ﷺ ما كتبه المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، ص ٣٠٦-٣٠٧ ؛ المحب الطبري : الرياض النضرة ، جـ ٢ ، ص ٢٥٥-٢٥٨ .
(٣) البخاري : الصحيح ، جـ ٣ ، ص ١٣٣٩ .
(٤) ابن هشام : السيرة النبوية ، جـ ١ ، ص ٣١٨ .

والتالي الثاني المحمود مشهـــده   وأول الناس منهم صدق الرسلا[١]

وخروجاً من الخلاف الدائر بين الإخباريين حول أول من أسلم من النـاس بـالنبي ﷺ جمع بين الأقوال فجعل أبو بكر ﷺ أول من أسلم من الرجال الأحرار البالغين ، ولما عدد ابن كثير[٢] من اختلف بأسبقيتهم للإسلام وهـم خـديجة وعلـي وزيـد ﷺ ، قـال «وإسلامه كان أنفع من إسلام من تقدم ذكرهم ، إذ كان صدراً معظماً ، ورئيساً في قريش مكرماً ، وصاحب مال ، وداعية للإسلام ، وكان محبباً متآلفـاً ، يبـذل المـال في طاعـة الله ورسوله » .

جهوده في سبيل الإسلام إبان حياة النبي ﷺ : ظهر أبو بكر ﷺ - منذ أول يـوم أسلم - كأنصح ما يكون مؤمن لربه ولنبيّـه ولدينـه ، فظـل ملازمـاً للـنبيّ ﷺ في مختلـف مراحل الدعوة ، يتعاون معه ، ويتحمل الأذى ، ويدافع عنه ، ويواسيه بـالنفس والمـال ، فاستحق أن يكون عند رسول الله ﷺ بمنزلة السمع والبصر . وفيما يلي نسرد أهم مواقفه مع النبيّ ﷺ وجهوده في سبيل الإسلام في العهد المكي والمدني :

. **في العهد المكي :** بمجرد أن أسلم أبو بكر ﷺ أخذ يدعو بهمةٍ عاليةٍ إلى الإسلام في وسط أقاربه ومواليه وأصدقائه القريبين ، فكُتب لدعوتـه القبـول ، إذ كـان ذا خلـق وفضل ومعروف ، فأسلم على يديه عثمان بن عفان ، والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله، وسعد بن أبي وقاص ، وعبد الرحمن بن عوف ، ثم عثمان بن مضعون ، وأبو عبيدة ابن الجراح ، وأبو سلمة بن عبد الأسد ، والأرقم بن أبي الأرقم ، واسلم بإسلام هـؤلاء آخرين كبلال وصهيب وعمار ووالده ياسر وأمه سمية رضيَّ الله عنهم أجمعين[٣] .

ولما أخذ المشركون يعذبون المسلمين الأرقاء سعى أبو بكر ﷺ إلى تخليـصهم مـن العذاب ، بشرائهم من مواليهم ، ثم إعتاقهم ابتغاء وجه الله ، فكان من عتقاء أبي بكـر ﷺ بلال بن رباح ، وعامر بن فهيرة ، وأم عبيس ، وزنيرة ، والنهدية وبناتها ، وجاريـة بني مؤمل رضيَّ الله عنهم أجمعين ، ولما لامه والده أبو قحافة في كونه اعتق رقاباً ضـعافاً

(١) ابن كثير : السيرة ، جـ ١ ، ص ٤٣٥ .
(٢) السيرة النبوية ، جـ ١ ، ص ٤٣٢ .
(٣) ابن هشام : السيرة ، جـ ١ ، ص ٣١٧-٣١٩ .

لا يمنعونه ولا يقومون دونه ، رد عليه بقوله «يا أبتِ إنما أُريد ما أريد لله عز وجلّ »[(١)].

ولقد نال أبو بكر ﷺ نفسه في سبيل الدعوة الإسلامية الأذى من المشركين ، فيروى أن أبا بكر ﷺ ألح على النبيّ ﷺ في الظهور أمام الناس ، فوافقه النبيّ ﷺ ، فقام أبو بكر خطيباً في المسجد «فكان أول خطيب دعا إلى الله وإلى رسوله ﷺ » ، فثار المشركون فوطئ أبو بكر وضُربَ ضرباً شديداً ، فجعل عتبة بن ربيعة يضربه بنعلين مخصوفين ، ويحرفهما لوجهه ، ونزا على بطنه حتى ما يعرف وجهه من أنفه . فحمله قومه بنو تيم وهم لا يشكون في موته . فلما أفاق في آخر النهار كان سؤاله الأول عن حال رسول الله ﷺ ، فلم يذق شراباً ولا طعاماً حتى ذهب إلى النبيّ ﷺ متكأً على غيره بسبب ما لحقه من أذى ، فاطمأن عليه بنفسه[(٢)].

وحين أمر النبيّ ﷺ المسلمين بالهجرة إلى الحبشة استأذنه أبو بكر ﷺ فأذن له ، فخرج مهاجراً فلما قطع مسافة خمس ليال جنوباً من مكة لقيه في بَرْك الغِماد ابن الدَغِنَّةَ (سيد القارة) فسأله عن قصده ، فرد عليه أبو بكر بقوله « أخرجني قومي فأنا أريد أن أسيح في الأرض وأعبد ربي » ، وبعد أن أثنى أبن الدغنة على أبي بكر بخلاله المعروفة عنه ، عرض عليه أن يدخل في جواره في مكة ، واشترط عليه أن يعبد الله في داره .

فعاد أبو بكر إلى مكة ، فما مضى وقت حتى أخذ أبو بكر ﷺ في الجهر بالقراءة ، فاصبح الناس يستمعون إلى قراءته ، الأمر الذي أفزع قريشاً ، فطلبوا من ابن الدغنة أن يكفه ، فخير أبا بكر بين الإسرار في عبادته أو أن يرد عليه جواره ، فرد أبو بكر ﷺ عليه جواره قائلاً « أنى أرد إليك جوارك وأرضى بجوار الله » [(٣)].

ولقد دافع أبو بكر ﷺ عن النبي ﷺ بالقول والفعل ، من ذلك أن عقبة بن أبي معيط أتى النبيّ ﷺ وهو يصلي في الحِجْر ، فوضع ثوبه في عنقه فخنقه خنقاً شديداً ، فأقبل أبو بكر ﷺ حتى أخذ بمنكبه ودفعه عن النبيّ ﷺ وقال « **أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله**»[(٤)].

(١) مهدي رزق الله أحمد : السيرة النبوية ، ص ١٩١ .
(٢) ابن كثير : السيرة ، جـ ١ ، ص ٤٣٩ - ٤٤١ .
(٣) البخاري : الصحيح ، جـ ٣ ، ص ١٤١٧-١٤١٨ .
(٤) المصدر نفسه ، ص ١٤٠٠ .

ثم إن أبا بكر ﷺ لما أثار المشركون من بلبلةٍ وتشكيك في حادثة الإسراء والمعراج ، وأخبروه بذلك قال « والله لئن كان قاله فقد صدق ، وما يعجبكم من ذلك ! فوالله إنه ليخبرني أن الخبر ليأتيه من السماء إلى الأرض في ساعة من ليل أو نهار ، فهذا أبعد مما تعجبون منه » .

وليثبت صدق النبيّ ﷺ أنه رسول الله حقاً أقبل يسأل عن وصف بيت المقدس أمام الملأ الذين فيهم من زاره ، فكان كلما ذكر شيئاً قال صدقت ، أشهد أنك رسول الله . فقال النبيّ ﷺ « **وأنت يا أبا بكر الصديق** » ، فيومئذ سماه الصديق [(١)] .

ولقد كان لأبي بكر ﷺ أثره المشهود في هجرة النبيّ ﷺ إلى المدينة ، فما إن اختاره ﷺ رفيقاً له . حتى استعد أيما استعداد ، فجهز راحلتين واتفق مع عبد الله بن أُريقط ليكون دليلاً لهما ، ثم كانت الانطلاقة من بيته فكان يمشي بين يدي النبيّ ﷺ مرة وخلفه مره، لخشيته عليه ﷺ من الرصد والطلب ، فلما وصلا غار ثور تفقده قبل أن يدخله الرسول ﷺ .

ثم رتب مع ابنه عبد الله لنقل الأخبار ، ومع ابنته أسماء لجلب الطعام ، ومع مولاه عامر بن فهيره لرعي الأغنام حول الغار للشرب من لبنها والأكل منها ، وإزالة أثر أقدام عبد الله وأسماء .

وبعد انقضاء ثلاثة أيام في الغار حمل معه كل ماله ، وأمر مولاه عامر بن فهيرة أن يصحبهما ليخدمهما [(٢)] . وفي الطريق إلى المدينة حرص أبو بكر على بذل كل ما يطيق لإراحة النبيّ ﷺ ، وإبعاد الخطر عنه .

. في العهد المدني : استمرت صحبة أبى بكر ﷺ للرسول ﷺ في المدينة إلى وفاته ﷺ ، فلم يفارقه سفراً ولا حضراً ، إلا فيما أذن له ﷺ في الخروج فيه من غزو أو حج ، فشهد معه المشاهد كلها ، وقام بنصره في غير موضع[(٣)] ، وهاك بعضاً من مواقفه مع النبي ﷺ في هذا العهد :

---

(١) مهدي رزق الله أحمد : السيرة النبوية ، ص ٢٣٧ .
(٢) مهدي رزق الله أحمد : السيرة النبوية ، ص ٢٦٨-٢٦٩ .
(٣) السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ٣٦ .

ففي غزوة بدر حينما استكمل النبي ﷺ استعداداته في ليلة المعركة يتضرع إلى الله تضرعاً شديداً أن ينصره على أعدائه ، حتى سقط رداؤه عن منكبيه أشفق عليه أبو بكر ﷺ ، فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه ، ثم التزمه من ورائه ، ثم راح يطمئنه ويثبته ، فقال « يا نبيّ الله كفاك [وفي رواية : كذاك] مناشدتَك ربك ، فإنه سينجز لك ما وعدك ».

وفي نهاية الغزوة وافق رأيه رأي النبي ﷺ بشأن أسرى المشركين ، حيث أشار أبو بكر ﷺ بأخذ الفدية ليتقوى المسلمون اقتصادياً على الكفار أولاً وقد يهديهم الله تعالى في المستقبل القريب إلى الإسلام ثانياً[١].

ولما رأى بعض الصحابة في بنود صلح الحديبية هضماً لحقوق المسلمين أمام المشركين كان أبو بكر ﷺ مطمئناً تمام الاطمئنان أن ما فعله النبي ﷺ هو عين الخير للإسلام والمسلمين ، فكانت كلماته التي اسمعها عمر بن الخطاب ﷺ حين أتاه معبراً عن استغرابه للرضا بتلك الشروط ـ كانت تتطابق مع كلمات الرسول ﷺ فكان مما قاله لعمر «إنه رسول الله ﷺ ، وليس يعصي ربه ، وهو ناصره » ، ثم وجه الكلام لعمر بقوله «فاستمسك بغرزه ، فوالله إنه على الحق »[٢].

ومثلما كان ﷺ سباقاً إلى بذل ماله لنصرة النبي ﷺ ودينه في مكة فقد كان سباقاً إلى ذلك في المدينة[٣] ، حتى قال النبي ﷺ ـ كما ورد بسند صحيح « ما نفعني مال قط [في رواية : مال] ما نفعني مالُ أبي بكر »[٤]. ومن الأمثلة التي سارع فيها إلى الإنفاق أن النبي ﷺ ندب المسلمين إلى النفقة ، فجاء أبو بكر ﷺ بماله كله ، فقال رسول الله ﷺ « **يا أبا بكر ما أبقيتَ لأهلك ؟ قال : أبقيتُ لهم الله ورسولَه** »[٥]. وقد كان ذلك ـ فيما يُرجح ـ في

---

(١) أحمد : المسند ، تحقيق أحمد شاكر ، جـ ١ ، ص ٢٤٤-٢٤٥ ؛ مسلم : الصحيح ، جـ ٣ ، ص ١٣٨٤-١٣٨٥ .

(٢) البخاري : الصحيح ، جـ ٢ ، ص ٩٧٨ ؛ ابن بلبان : صحيح ابن حبان ، جـ ١١ ، ٢٢٤ .

(٣) انظر ما روي في مقدار المال الذي أنفقه أبو بكر ﷺ في سبيل نصر الإسلام في الصفوري : مختصر المحاسن المجتمعة، ص ٦٦-٦٧ .

(٤) ابن بلبان : صحيح ابن حبان ، جـ ١٥ ، ص ٢٧٣-٢٧٤ ؛ المحب الطبري : الرياض النضرة ، جـ ٢ ، ص ١٦، ١٩ .

(٥) الترمذي : السنن (مع عارضة الأحوذي) ، جـ ١٠ ، ص ١٥٤ ؛ الحاكم : المستدرك ، جـ ٢ ، ص ٥٨٤ ؛ المحب الطبري : الرياض النضرة ، جـ ١ ، ص ٣٥٥ . وفي كلام ابن قدامة المقدسي عن صدقة التطوع عند إنفاق أبي بكر ﷺ ماله كله فقال « فهذا كان فضيلة في حق أبي بكر الصديق ﷺ لقوة يقينه ، وكمال إيمانه ، وكان أيضاً تاجراً ذا مكسب ... فإن لم يوجد في المتصدق أحد هذين كره ... » [أي كره له إنفاق ماله كله] (المغني ، جـ ٤ ، ص٣٢١) .

غزوة تبوك[١].

ولقد عُرف عن أبي بكر ﷺ ثباته مع النبي ﷺ في المواقع التي قَلَّ فيها الثابتون من الناس كأُحد وحنين[٢]. وكان النبي ﷺ يكلفه بحمل اللواء أو الراية في بعض الغزوات، فقد حمل راية المسلمين اليومين الأولين في غزوة خيبر، وذلك عند حصار حصن ناعم فيها[٣]. كما كلفه ﷺ بحمل اللواء الأعظم في غزوة تبوك[٤].

وكان أبو بكر ﷺ قد خرج في الصحابة والذين بعثهم رسول الله ﷺ بقيادة أبي عبيدة بن الجراح ﷺ مدداً لعمرو بن العاص ﷺ في ذات السلاسل عام ٨ هـ[٥]. ومن جانب آخر فقد تولى أبو بكر ﷺ قيادة سرايا وجهت إلى بعض العرب، فلقد أمره ﷺ في عام ٧ هـ على سرية إلى فزارة[٦]، أو إلى بني كلاب بنجد بناحية ضرية[٧]. ثم إنه ﷺ سنة ٩ هـ اختاره أميراً على الحج، فحج بالناس[٨].

شيء من فضائله وعلمه: أجمع أهل السنة أن أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي ﷺ[٩]. وكان أبو بكر ﷺ أحب الصحابة إلى النبي ﷺ، فقد ورد في الصحيحين أن عمرو بن العاص ﷺ قال للرسول الله ﷺ (**أي الناس أحب إليك؟ قال: عائشة، قلت: من الرجال؟ قال: أبوها ...**)[١٠].

---

(١) مهدي رزق الله أحمد: السيرة النبوية، ص ٦١٦، حاشية ٢٥؛ القضاة: الخلفاء الراشدون، ص ٢٠. وراجع عبد القادر حبيب الله السندي: الذهب المسبوك في تحقيق روايات غزوة تبوك، ص ١٨٩، حاشية ١.

(٢) السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص ٣٧. انظر ما روي في مقدار المال الذي أنفقه أبو بكر ﷺ في سبيل نصر الإسلام في الصفوري: مختصر المحاسن المجتمعة، ص ٦٦-٦٧.

(٣) ابن هشام: السيرة النبوية، جـ ٣، ص ٤٦٥. راجع مهدي رزق الله أحمد: السيرة النبوية، ص ٥٠٢، حاشية١٨.

(٤) ابن سعد: الطبقات، جـ ٣، ص ١٧٥. راجع السندي: الذهب المسبوك، ص ١٨٣، حاشية.

(٥) ابن هشام: السيرة النبوية، جـ ٤، ص ٣٦٠. راجع مهدي رزق الله أحمد: السيرة النبوية، ص ٥٥٢، حاشية٣.

(٦) مسلم: الصحيح، جـ ٣، ص ١٣٧٥؛

(٧) ابن سعد: الطبقات، جـ ٢، ص ١١٧. وهذه السرية ذكرها ابن حجر على أنها سريتان قادهما أبو بكر ﷺ، واحدة إلى بني فزارة، والأخرى إلى بني كلاب (فتح الباري، جـ ٧، ص ٥١٨؛ اليحيى: الخلافة الراشدة والدولة الأموية من فتح الباري، ص ١٦٤).

(٨) ابن هشام: السيرة النبوية، جـ ٤، ص ٢٥٣؛ خليفة بن خياط: تاريخه، ص ٩٣.

(٩) ابن أبي العز الحنفي: شرح العقيدة الطحاوية، جـ ٢، ص ٧٢٧؛ السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص ٤٤.

(١٠) البخاري: الصحيح، جـ ٣، ص ١٣٣٩، جـ ٤، ص ١٥٨٤؛ مسلم: الصحيح، جـ ٤، ص ١٨٥٦.

ولقد نوه ﷺ بصحبة أبي بكر ﷺ وفضله من بين أصحابه ، فقال فيما صح عنه (**إن من أمَنِّ الناس عليَّ في صحبته وماله أبا بكر ، ولو كنت متخذاً خليلاً غير ربي لاتخذت أبا بكر ، ولكن أخوة الإسلام**)[١] . وقد أجمع المسلمون أن أبا بكر هو الصاحب المذكور في قوله تعالى: ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ (التوبة ، آية ٤٠)[٢]. وروي عن ابن عيينة قوله « عاتب الله المسلمين كلهم في رسول الله ﷺ إلا أبا بكر وحده فإنه خرج من المعاتبة ، ثم قرأ ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ ﴾ (التوبة ، آية٤٠)[٣] .

ولقد أثنى الصحابة على أبي بكر ، فروي عن عمر ﷺ أنه قال « **لو وُزِنَ إيمان أبي بكر بإيمان أهل الأرض لرجح بهم** »[٤]، وروي عن علي ﷺ أنه قال في أبي بكر ﷺ «والذي نفسي بيده ما استبقنا إلى خير قط إلا سبقنا إليه أبو بكر »[٥].

وكان أبو بكر ﷺ من أعلم الصحابة في القرآن ، وقد جزم النووي بأنه أحد الصحابة الذين حفظوا القرآن كله[٦]. كما كان من أعلمهم بالسنة ، وقد رجع إليه الصحابة في غير ما مرة حول بعض القضايا ، فتميز عليهم بنقل سنن عن النبي ﷺ لم تكن عندهم يحفظها ويستحضرها ، وهذا ليس بمستغرب ، إذ واضب على صحبة الرسول ﷺ من أول البعثة إلى الوفاة .

أما كونه لم يروَ عنه من الأحاديث المسندة إلا القليل ، فلقصر مدة حياته التي عاشها بعد النبي ﷺ ، كما أن الصحابة في زمانه لا يحتاج أحد منهم أن ينقل عنه ما قد

---

(١) البخاري : الصحيح ، جـ ٣ ، ص ١٣٣٧ ، ١٤١٧ ، جـ ١ ، ص ١٧٧ .
(٢) السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ٤٨ .
(٣) المصدر نفسه ، ص ٤٩ . راجع الصفوري : مختصر المحاسن المجتمعة في فضائل الخلفاء الأربعة ، ص ٤٣-٤٤ .
(٤) أحمد : فضائل الصحابة ، جـ ١ ، ص ٤١٨ . قال المحقق : إسناده ضعيف جداً . انظر أيضاً ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق ، جـ ٣٠ ، ص ١٢٧ ؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء ، جـ ٨ ، ص ٤٠٥ ؛ السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ٥٧ .
(٥) الهيثمي : مجمع الزوائد ، جـ ٩ ، ص ٤٦ ، السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ٥٨ .
(٦)السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ٤٤ .

شاركه هو في روايته ، فكانوا ينقلون عنه ما ليس عندهم[١]، فضلاً عن كون وفاته تقدمت « قبل انتشار الأحاديث ، واعتناء التابعين بسماعها وتحصيلها وحفظها »[٢]، وقد روي له من الأحاديث عن النبي ﷺ ثلاثة وأربعون ومائة حديث[٣].

ومن ناحية أخرى كان أبو بكر أحد الذين يتصدرون للفتوى في حياة الرسول ﷺ[٤]. كما عرف عنه تعبير الرؤيا حتى قال عنه محمد بن سيرين «كان أبو بكر أعبر هذه الأمة بعد النبي ﷺ »[٥]. وقد سبق أنه كان عالماً بالأنساب منذ الجاهلية .

موقف أبي بكر ﷺ عند وفاة الرسول ﷺ:

توفي الرسول ﷺ على القول المشهور في ضحى الاثنين الثاني عشر من ربيع الأول من السنة الهجرية الحادية عشرة[٦] ، وقد عبر أنس بن مالك ﷺ عن وقع هذه الحادثة في مشاعر المسلمين ونفسياتهم بقوله « **لما كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة أضاء منها كل شيء ، فلما كان اليوم الذي مات فيه أظلم منها كل شيء ...** »[٧].

وهول المصيبة في تلك الساعة لم يصدق بعض المسلمين وفاته ﷺ[٨] كما حصل من عمر بن الخطاب ﷺ الذي أخذ يكذِّبُ موته ؛ بل آل به الأمر أن يهدد بالسيف كل من سمعه يقول إن الرسول ﷺ مات[٩].

كان أبو بكر قد خرج إلى مسكنه في السُّنْح بالعوالي شرقي المدينة على بعد ميل من منزل النبي ﷺ[١٠]، وذلك حين اطمأن بعد صلاة الفجر على النبي ﷺ وقال لعائشة

---

(١) المصدر نفسه ، ص ٤٢ .
(٢) المصدر نفسه ، ص ٨٠ . راجع الصفوري : مختصر المحاسن المجتمعة ، ص ٩٨ .
(٣) المروزي : مسند أبي بكر الصديق ، تحقيق شعيب الأرناؤوط ، ص ١٧٧ .
(٤) المحب الطبري : الرياض النضرة ، جـ ٢ ، ص ٦١ ، السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ٥٢ .
(٥) السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ٤٣ ، ١٠١ . راجع الذهبي : عهد الخلفاء الراشدين ، ص ١١٤ . انظر أمثلة لتعبير أبي بكر ﷺ عدداً من الرؤى في محمد رواس قلعه جي : موسوعة فقه أبي بكر الصديق ، ص ١١٤-١١٥ .
(٦) ابن حجر : فتح الباري ، جـ ٨ ، ص ١٢٩ ؛ وانظر الأقوال في تاريخ وفاته في الذهبي : السيرة النبوية ، ص٥٦٨ - ٥٧١ .
(٧) الترمذي : مختصر الشمائل المحمدية ، ص ١٩٧ .
(٨) الذهبي : السيرة النبوية ، ص ٥٦٧ .
(٩) الترمذي : مختصر الشمائل المحمدية ، ص ١٩٩-٢٠٠ .
(١٠) ياقوت : معجم البلدان ، جـ ٣ ، ص ٢٦٥ ؛ ابن كثير : خلافة أبي بكر ، ص ٥٢ .

ابنته لما رآه « قد أصبح رسول الله ﷺ مُفِيقاً ، وأرجو أن يكون الله قد شفاه ، ثم ركب فلحق بأهله بالسنح ، وهنالك امرأته حبيبة بنت خارجة بن زيد الأنصاري »[(١)].

ولكن لما علم بخبر وفاته ﷺ عن طريق سالم بن عبيد الأشجعي ﷺ[(٢)] أتى فدخل عليه في بيت عائشة رضي الله عنها ، « فتيمم النبي ﷺ وهو مُسجَى بِبُرْد حِبَرَة[(٣)] ، فكشف عن وجهه ، ثم أكب عليه فقبَّله[(٤)] ، ثم بكى فقال : **بأبي أنت يا نبي الله ! لا يجمع الله عليك موتتين ، أما الموتة التي كتبت عليك فقد مُتَّها** »[(٥)] .

فلما خرج مر بعمر ﷺ وهو ينكر موته ﷺ فقال « أيها الرجل ! أربع على نفسك ، فإن رسول الله قد مات ، ألم تسمع الله يقول: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ (الزمر ، آية ٣٠) وقال: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴾ (الانبياء ، آية ٣٤) ، ثم أتى المنبر فصعده فحمد الله وأثنى عليه »[(٦)]، فكان مما قاله « أما بعد ! من كان منكم يعبد محمداً ﷺ فإن محمداً قد مات ، ومن كان منكم يعبد الله فإن الله حي لايموت ، قال الله: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾(آل عمران ، آية ١٤٤) »[(٧)].

ولقد كان لكلمات أبي بكر هذه ، وتوفيقه بما استشهد به من آيات قرآنية أثر فاعل في سامعيه ، إذ أعاد برد اليقين إلى النفوس ، وثبت الإيمان في القلوب ، وأزال عن الأبصار ما خيم عليها من غشاوة ، وما أحاط بها من حيرة .

وقد وصف ذلك المشهد عدد من الصحابة ، فقال عبد الله بن عمر ﷺ « فوالذي

---

(١) الذهبي : السيرة النبوية ، ص ٥٦٦ .
(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٠٠ ؛ ابن كثير : خلافة أبي بكر ، ص ٥٢ .
(٣) في رواية : وهو مغشى بثوب حبرة (البخاري : الصحيح ، جـ ٤ ، ص ١٦١٨) .
(٤) عند الإمام أحمد : أنه قبل جبهته (ابن كثير : خلافة أبي بكر ، ص ٤٩) وعند البلاذري أنه قبل ما بين عينيه (الذهبي : السيرة النبوية ، ص ٥٦٤)
(٥) البخاري : الصحيح ، جـ ١ ، ص ٤١٩ ، جـ ٤ ، ص ١٦١٨ .
(٦) ابن أبي شيبة : المغازي ، ص ٤١٠ .
(٧) البخاري : الصحيح ، جـ ١ ، ص ٤١٩ ، جـ ٤ ، ص ١٦١٨ . راجع الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٢٠٠ .

نفسي بيده لكأنما كانت على وجوهنا أغطية فكشفت »[١].

وقال ابن عباس رضي الله عنه حاكياً شعور المسلمين حين سمعوا الآية التي ساقها أبو بكر «والله لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر ، فتلقاها منه الناس كلهم ، فما أسمع بشراً من الناس إلا يتلوها » ، وعبر عمر رضي الله عنه عن شعوره لما سمع من أبي بكر الصديق الآية بقوله « والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها ففرِقْت أو قال فعَقَرْتُ حتى ما تقلني رجلاي ، وحتى إني أهويت إلى الأرض ، وعرفت حين تلاها أن رسول الله ﷺ قد مات »[٢].

وبهذا عرفنا ما تحلى به أبو بكر رضي الله عنه عند مصاب الأمة في نبيها ﷺ من رباطة جأش ، ورسوخ إيمان ، وقوة يقين ، وثبات عند المصيبة ، مع أنه خرج مِنْ عنده في الصباح ـ كما مر ـ وقد رآه خَفَّ مرضُه ، ثم ما لبث أن فوجيء بوفاته قبل الظهر ، بل أنه لم يتمالك نفسه عن البكاء حين أبصره ميتاً .

ولايته الخلافة : لما استفاق المسلمون من ذهولهم ، وثابوا إلى يقينهم بعد الذي عقلوه من أبي بكر الصديق رضي الله عنه تداعوا على جناح السرعة[٣] للبحث فيمن يخلف رسول الله ﷺ حيث « اجتمع المهاجرون يتشاورون »[٤]، في أمر الخلافة ، وكان اجتماعهم إلى أبي بكر رضي الله عنه[٥] ، ويظهر أن ذلك كان في المسجد . بينما اجتمع الأنصار إلى سعد بن عبادة رضي الله عنه في سقيفة بني ساعدة[٦]، التي كانت مكاناً عاماً لاجتماعاتهم .

مبادرة الصحابة إلى البت في أمر الخلافة قبل دفن النبي ﷺ : ومما يلفت النظر أن الصحابة سواء المهاجرين أو الأنصار رضي الله عنهم بادروا إلى بحث أمر خلافة النبي ﷺ قبل تجهيز جنازته ودفنه ، الأمر الذي حدا ببعض الكتاب إلى رميهم بالتهارش على السلطة وتنافسهم فيها ، فضلاً عن إهمالهم للرسول المسجّى في بيته . ولاشك أن الذي يتسرب

---

(١) ابن أبي شيبة : المغازي ، ص ٤١٠-٤١١ .
(٢) البخاري : الصحيح ، جـ ٤ ، ص ١٦١٨ .
(٣) مما يدل على السرعة فيها قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه في وصفه لبيعة أبي بكر رضي الله عنه أنها كانت ((فَلْتَة)) (البخاري: الصحيح ، جـ ٦ ، ص ٢٥٠٣ ، ٢٥٠٥ ؛ ابن حجر : فتح الباري ، حـ ١٢ ، ص ١٤٧ ، ١٥٠) .
(٤) الترمذي : مختصر الشمائل ، ص ٢٠٠
(٥) البخاري : الصحيح ، جـ ٦ ، ص ٢٥٠٥ .
(٦) المصدر نفسه ، الصفحة نفسها . وسقيفة بني ساعدة ظلة كانوا يجلسون تحتها عند بئر بضاعة (الفيروز آبادري : المغانم المطابة في معالم طابة ، جـ ٢ ، ص ٨٤٢) .

إلى نفسه مثل هذا التفكير ، دع عنك مَنْ يعتقده ـ قد جهل بالصحابة الكرام وبالدين الذي يحملونه جهلاً عظيماً .

إن المُدرك لنظام السلطة عند العرب زمن البعثة النبوية ، وكذلك الدارس لسيرة النبي ﷺ ، المتأمل في الدين الإسلامي الذي اجتهد هؤلاء الصفوة رضي الله عنهم في تطبيق كل حرف منه لن يخفى عليه سر مسارعة المهاجرين والأنصار إلى البت في شأن الخلافة قبل تجهيز النبي ﷺ ودفنه .

ففي المجتمع العربي قبل البعثة كان من التقاليد السياسية العتيدة إقامة رئيس لكل قبيلة أو جماعة يقال له السيد أو شيخ القبيلة يعمل على لم شعثها ، وحفظ وحدتها ، وتصريف شؤونها ، ويقودها في الحروب ، ويستقبل الوفود ، ويعقد الصلح والمعاهدات ، فإذا ما مات انتقلت السيادة إلى آخر يقوم مقامه[1] .

فالحرص على إقامة حاكم يرعى شؤون الناس كان من التقاليد السياسية المتأصلة عند العرب قبل البعثة ، فلما قامت الدولة الإسلامية في المدينة رأى المسلمون من الرسول ﷺ عناية كبيرة في هذا الجانب ، فلقد كان يحرص على تأمير واحد من الصحابة إذا أخرجهم في سرية ، وإن قلّ عددهم ، وقصرت مدة خروجهم ، بل إنه لما خشي أن يحصل للمسلمين في غزوة مؤتة مكروه ـ وهم في أرض بعيدة ـ عمد إلى تقليد ثلاثة من الأمراء ، يتولى واحداً بعد الآخر إمارة الجيش . كما أنه ﷺ اعتاد أن لا يترك المدينة أبداً دون أمير إذا خرج عنها ولو لزمن وجيز . وفوق ذلك ورد على لسانه ﷺ التأكيد على ضرورة تأمير الثلاثة واحداً منهم إذا خرجوا في سفر[2] .

إن مثل هذه التدابير التي صدرت من الرسول ﷺ أثناء قيادته للدولة في حالات قد تكون ثانوية أو غير مصيرية لتؤكد على صحابته وجوب المبادرة في أمر يعد من أخطر القضايا في شؤون الدولة الوليدة ، وهو تنصيب والٍ لأمور المسلمين في حالة وفاته .

ومن جانب آخر إذا تأملنا وضع المدينة عاصمة الإسلام حين وفاة النبي ﷺ تكشف لنا ـ ربما ـ أهم الدوافع التي حركت الصحابة رضي الله عنهم إلى سرعة حسم موضوع

---

(١) الشريف : مكة والمدينة ، ص ٣٦-٣٧ ، ٤٠ .

(٢) السيد عمر : الدور السياسي للصفوة في صدر الإسلام ، ص ٢٠ .

الخلافة قبل تجهيزه ﷺ ؛ فالمدينة لم تكن في مأمن من هجمات الأعراب الذين لم يطيعوا الطاعة الواجبة ، كما بدأت النذر من خطر بعض المتنبئين الذين أطلوا برؤوسهم في أنحاءٍ من الجزيرة في أواخر حياة النبي ﷺ كالأسود العنسي في اليمن ، ومسيلمة الكذاب في اليمامة.

ثم لا ننسى الخطر الرومي النصراني الذي أخذ يهدد المسلمين وعاصمتهم للحد الذي جعل الرسول في أيامه الأخيرة يجهز جيشاً بقيادة أسامه بن زيد رضي الله عنهما لدرئه ، وعلاوة على ذلك فإن المدينة نفسها لا تخلو من المنافقين الذين يتربصون الدوائر بالمسلمين .

إذن فأي تباطىء في مسألة خلافة النبي ﷺ ـ في ظل الظروف الآنفة الذكر ـ سيفتح المجال واسعاً لمثل هذه القوى المعادية لتلعب دورها في الكيد للدولة الإسلامية والانقضاض عليها وتخريبها .

وبعد أن عرفنا أسباب مسارعة الصحابة الكرام إلى البت في شأن الخلافة نتساءل عن شيء آخر ، وهو : لماذا بادر الأنصار إلى الاجتماع وحدهم في سقيفة بني ساعدة ؟

لعل ذلك يعود إلى عدة أمور ؛ منها أنهم يرون أنفسهم أهل المدينة الأصليين الذين قدم عليهم الرسول ﷺ ومن معه من المسلمين من مكة مهاجرين ، فآووهم ونصروهم ، فنشأت دولة الإسلام في بلدهم(١)، وكان الحمل الأكبر في نشأتها ـ بعد توفيق الله تعالى ـ قد وقع على أكتافهم ، حيث بذلوا أنفسهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً ، إضافة إلى أن نسبتهم تفوق نسبة المهاجرين(٢).

وعلى هذا فإن أمن المدينة ، وحمايتها من الأعداء منوطة بهم بالدرجة الأولى ، فلا غرابة أن يجتمعوا في سقيفتهم لوحدهم لمناقشة خلافة النبي ﷺ . ولا يستبعد أن يكون بعض الأنصار تصور أن المهاجرين سيعودون إلى بلدهم مكة بعد وفاة الرسول ﷺ ، لاسيما وأن مثل هذا الخاطر قد جال في نفوسهم عن النبي ﷺ ذاته بعد فتح مكة كما هو

(١) الشريف : دراسات في الحضارة الإسلامية ، ص ٢١٤ ؛ العمري : عصر الخلافة الراشدة ، ص ٤٠ .

(٢) يتضح هذا التصور لدى الأنصار في قول أحدهم عند ذكر أحقيتهم بالخلافة «أما بعد فنحن أنصار الله ، وكتيبة الإسلام ، وأنتم معشر المهاجرين رهط ... » (البخاري : الصحيح ، جـ ٦ ، ص ٢٥٠٦) .

معلوم . ثم إن زعيمهم سعد بن عبادة ﷺ هو الزعيم البارز الباقي للأنصار ـ بعد وفاة صنوه سعد بن معاذ ﷺ ـ الذي كان النبي ﷺ يحرص على أخذ رأيه واستشارته ، خاصة إذا كان الأمر يتصل بشؤون المدينة ، فلا عجب من توجههم بأنظارهم إليه .

وعلى كل حال بلغ المهاجرين خبر اجتماع الأنصار في السقيفة ، فانطلقوا إليهم بعد إقرارهم أن لهم حقاً في أمر الخلافة ؛ حيث قالوا لبعضهم « انطلقوا بنا إلى إخواننا من الأنصار ، فإن لهم في هذا الحق نصيباً »[(١)].

ولقد حرص المهاجرون وعلى رأسهم أبو بكر وعمر رضي الله عنهما على الذهاب إلى السقيفة ، ورغم أن رجلين من صالحي الأنصار هما عويم بن ساعدة، ومعن ابن عدي رضي الله عنهما أشارا عليهم وهم في طريقهم إلى السقيفة بأن يقضوا في خلافة النبي ﷺ دون الرجوع إلى المجتمعين من الأنصار إلا أن أبا بكر ﷺ ومن معه أصروا على المسير نحو مقصدهم ، وحضور ذلك الاجتماع[(٢)].

ولا ريب أن هذا الإصرار دافعه الحرص الشديد على وحدة كلمة المسلمين ، وترابط صفوفهم ، وإبعادهم عن التنازع في أخطر قضية ينبني عليها مستقبل الإسلام والمسلمين بعد الرسول ﷺ كقضية الخلافة ، فضلاً عما يجب من السرعة في حسمها ، ومحاصرة أي سبب ـ مهما كان نوعه وحجمه ـ قد يضعف المسلمين ، ويذهب ريحهم .

ومن المؤكد أن جمعاً من المهاجرين وصلوا السقيفة غير أبي بكر وعمر وأبي عبيدة رضي الله عنهم الذين نصت الروايات على أسمائهم[(٣)]، حيث أنه في نهاية الاجتماع يأتي النص عليهم بالبيعة لأبي بكر قبل الأنصار[(٤)]. والظاهر أن أبا بكر وصاحبيه رضي الله عنهم وصلوا أولاً ، ثم تلاحق بهم المهاجرون الآخرون الذين كان عددهم ـ فيما يبدو ـ محدوداً[(٥)].

---

(١) الطبراني : المعجم الكبير ، جـ ٧ ، ص ٥٦ ؛ البيهقي : السنن الكبرى ، جـ ٨ ، ص ١٤٥ ؛ العمري : عصر الخلافة الراشدة ، ص ٤٠

(٢) البخاري : الصحيح ، جـ ٤ ، ص ١٤٧٥ ، جـ ٦ ، ص ٢٥٠٥ .

(٣) المصدر نفسه ، جـ ٦ ، ص ٢٥٠٥-٢٥٠٦ .

(٤) المصدر نفسه ، جـ ٦ ، ص ٢٥٠٧ .

(٥) العمري : عصر الخلافة الراشدة ، ص ٤١ .

وحين وصل المهاجرون وجدوا سعد بن عبادة ﷺ بين ظهراني الأنصار مزملاً (أي ملففاً) على سرير لما كان يحصل لـه ساعتئذ من وعك، وهو ـ فيما يتوقع ـ «الحمى بنافض»[1]، وبعد جلوس المهاجرين بقليل ابتدأ الحوار بينهم وبين الأنصار في شأن الخلافة، فكان مما صح أن الأنصار تكلموا في البداية، فبينوا أحقيتهم بها، لما لهم من دور في نصرة هذا الدين، والدفاع عن حياضه، وأنهم أكثر عدداً من إخوانهم المهاجرين.

فرد عليهم أبو بكر ﷺ بحلم ووقار وبديهة، فكان مما ثبت أنه قاله ـ بعد ثنائه على الأنصار، وأن ما ذكروه عن أنفسهم حق لا يُنكر ـ إن هذا الأمر لن يعرف «إلا لهذا الحي من قريش»، وعلل ذلك بقوله «هم أوسط العرب نسباً وداراً»[2]، وفي رواية أنه قال «ولكنكم قد عرفتم أن هذا الحي من قريش بمنزلة من العرب ليس بها غيرهم، وأن العرب لن تجتمع إلا على رجل منهم»[3].

ثم بيّن رأيه في منزلة كل فريق من الدولة الناشئة لكي تستقيم شؤونها فقال «فنحن الأمراء وأنتم الوزراء»، ثم خوف الأنصار بالله بقوله «فاتقوا الله ولا تصدعوا الإسلام، ولا تكونوا أول من أحدث في الإسلام»[4].

وهكذا نظر الأنصار إلى الخلافة من زاوية قريبة لا تتجاوز ظروف مجتمع المدينة، والعلاقة التأريخية بينهم وبين إخوانهم المهاجرين[5]، بينما نظر أبو بكر رضي الله عنه إليها نظرة أوسع تتصل بالدولة وظروفها السياسية المحيطة بها، والعناصر العربية الخاضعة لها من غير الأنصار والمهاجرين التي كانت حديثة عهد بالإسلام، حيث أنه ببعد نظره، ووعيه السياسي نبه إلى مكانة قريش لدى العرب الذين لا يعرفون الرياسة لأحد غيرها من قديم، فالقرشيون هم أهل الحرم، والقائمون على رعاية البيت الحرام محج العرب، ومهوى نفوسهم، فكانت زعامتهم في الجاهلية يقر بها جميع العرب، ولما جاء

(١) ابن حجر: فتح الباري، جـ ١٢، ص ١٥١.
(٢) البخاري: الصحيح، جـ ٦، ص ٢٥٠٦.
(٣) ابن أبي شيبة: المغازي، ص ٤٢٤.
(٤) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
(٥) العمري: عصر الخلافة الراشدة، ص ٤٢.

الإسلام زادت هذه المكانة[١].

ولما قال أبو بكر ﷺ كلامه الآنف الذكر طرح رأيه فيمن يراه صالحاً للخلافة من قريش ، فاقترح عمر أو أبا عبيدة[٢]، وقال « فأيهما بايعتم ، فهو لكم ثقة »[٣]. وفي تلك الأثناء قال قائل الأنصار «**منا أمير ، ومنكم أمير** ... »[٤] ، ولقد صح أيضاً أن مثل هذه الفكرة عُرضت من جانب الأنصار قبل أن يتكلم أبو بكر ﷺ بشيء[٥]. وعلى أي حال فقد ثبت أن عمر ﷺ رد على ذلك بقوله ـ في رواية ـ « سيفان في غمد واحد ؛ إذاً لا يصلحان »[٦].

وفي رواية أخرى أنه خاطب الأنصار ، فقال « ألستم تعلمون أن رسول الله ﷺ أمر أبا بكر أن يصلي بالناس ؟ قالوا : بلى ، قال : فأيكم تطيب نفسه أن يتقدم أبا بكر ؟ فقالوا : نعوذ بالله أن نتقدم أبا بكر »[٧] .

وفي رواية ثالثة أنه رد عليهم متحدثاً عن فضل أبي بكر بقوله « مَن له مثل هذه الثلاثة « **ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا) من هما ؟**»[٨].

والظاهر أن عمر ﷺ قد قال هذه الأقوال جميعاً ـ وقد يكون قال غيرها مما لم يُنقل ـ في معرض تداوله الآراء مع الأنصار ، إذ صح أن اللغط كثر ، والأصوات تعالت عقب قولهم « منا أمير ، ومنكم أمير »[٩].

---

(١) الشريف : دور الحجاز في الحياة السياسية ، ص ١١٢ .
(٢) ابن أبي شيبة : المغازي ، ص ٤٢٤ ؛ البخاري : الصحيح ، جـ ٦ ، ص ٢٥٠٦ .
(٣) ابن أبي شيبة : المغازي ، ص ٤٢٤ .
(٤) البخاري : الصحيح ، جـ ٦ ، ص ٢٥٠٦ . ولقد ورد أن خطباء الأنصار قاموا « فجعل الرجل منهم يقول : يا معشر المهاجرين إن رسول الله ﷺ كان إذا استعمل رجلاً منكم قرن معه رجلاً منا ، فنرى أن يلي هذا الأمر رجلان ؛ أحدهما منكم ، والآخر منا » (ابن أبي شيبة : المغازي ، ص ٤٢٠) .
(٥) ابن أبي شيبة : المغازي ، ص ٤٢٤ .
(٦) النسائي : السنن الكبرى ، جـ ٥ ، ص ٣٧ ؛ البيهقي : السنن الكبرى ، جـ ٨ ، ص ١٤٤ ؛ العمري : عصر الخلافة الراشدة ، ص ٤٢ ؛ اليحيى : مرويات أبي مخنف ، ص ١١٦ .
(٧) ابن أبي شيبة : المغازي ، ص ٤٢٥ ؛ أحمد : المسند ، تحقيق شاكر ، جـ ١ ، ص ٢١٤ ، فضائل الصحابة ، جـ ١ ، ص ١٨٢ ؛ الحاكم : المستدرك ، تحقيق حمدي الدمرداش أحمد ، جـ ٥ ، ١٦٧١ ؛ ابن حجر : فتح الباري ، جـ١٢ ، ص ١٥٣ .
(٨) الترمذي : مختصر الشمائل المحمديه ، ص ٢٠١ .
(٩) البخاري : الصحيح ، جـ ٦ ، ص ٢٥٠٦ .

ولقد بين عمر ﷺ في عبارته الأولى أن إقامة رئيسين متضارعين للجماعة المسلمة سيولد الاختلاف المنهي عنه ، كما نبه في الثانية إلى أمر ربما يكون قد غفل عنه المجتمعون في السقيفة وهو تقديم الرسول ﷺ أثناء مرضه الأخير لأبي بكر ﷺ في الصلاة بالمسلمين.

وقد ثبت أن النبي ﷺ أبى أن يصلي بالناس غير أبي بكر في تلك الأيام[١]، وقد فهم منها عمر وغيره أن النبي ﷺ يفضل أبا بكر على من سواه لأن يصبح خليفته على المسلمين من بعده .

ولذلك ما أن تساءل أيهم تطيب نفسه التقدم على أبي بكر بعد تقديم الرسول ﷺ له عليهم في الصلاة نراهم يتعوذون بالله أن يفعلوا ذلك ، مما يعني إقرارهم بفهم عمر للقضية .

أما في الرواية الثالثة فقد أثار عمر ﷺ منزلة أبي بكر بالنسبة للنبي ﷺ التي لاتدانيها منزلة ، ولا يمكن أن يحضى بها أحد آخر من الناس .

أن أقوال عمر ﷺ وقبلها ما تكلم به أبو بكر ﷺ بشأن خلافة النبي ﷺ صارت له أصداؤه الطيبة في نفوس الأنصار ، فزال الالتباس الذي كان قائماً لديهم حول أحقيتهم في الخلافة أكثر من إخوانهم المهاجرين ، ثم استيقنوا هم ومن في السقيفة جميعاً ـ من خلال ما جرى من مداولات ـ أن الحقيق بخلافة المسلمين بعد نبيهم ﷺ إنما هو أبو بكر الصديق ولا أحد سواه ، ولذلك نهض أحد رجالهم البارزين وهو زيد بن ثابت ﷺ الذي كان ينتمي إلى الخزرج قبيلة سعد بن عبادة ﷺ مرشح الأنصار معبراً عن هذه القناعة بقوله «إن رسول الله ﷺ كان من المهاجرين ، وإن الإمام إنما يكون من المهاجرين ، ونحن أنصاره كما كنا أنصار رسول الله »[٢].

بعد أن انكشف الأمر للمجتمعين في السقيفة ، وأقروا بفضل أبي بكر ﷺ طلب عمر ﷺ منه أن يبسط يده ، فلما بسطها بايعه ، ثم بايعه المهاجرون ، ثم الأنصار[٣]، وفي

(١) البخاري : الصحيح ، جـ ١ ، ص ٢٣٦ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ؛ مسلم : الصحيح ، جـ ١ ، ص ٣١١ ، ٣١٥ ، ٣١٦ .
(٢) ابن أبي شيبة : المغازي ، ص ٤٢٠ ؛ أحمد : المسند ، تحقيق شعيب الأرنؤوط ، جـ ٥ ، ص١٨٥ ؛ الحاكم: المستدرك ، جـ ٥ ، ص ١٦٨٢ . وكون هذا الموقف صدر من الخزرج فإن ذلك ينفي ما زعمه أبو مخنف من أن تراجع الأنصار عن رأيهم في الخلافة كان بسبب عدم رغبة الأوس في تولي الخزرج الخلافة (العمري : عصر الخلافة الراشدة ، ص ٤٣) .
(٣) البخاري : الصحيح ، جـ ٦ ، ص ٢٥٠٧ .

رواية أخرى أن رجلاً من الأنصار بادر لبيعة أبي بكر ﷺ قبل عمر ﷺ ، إذ يقول عمر ﷺ أنه حين أخذ بيد أبي بكر « بادرني رجل من الأنصار ، فضرب على يده قبل أن أضرب على يده ، ثم ضربت على يده ، وتتابع الناس »[١]، ومن شدة حماسهم لبيعته تدافعوا نحوه حتى نزوا على سعد بن عبادة ﷺ المسجى بينهم[٢]، الأمر الذي جعل بعضهم يقول « قُتل سعد »[٣].

وهكذا تم انتخاب أبي بكر ﷺ في سقيفة بني ساعدة خليفة للمسلمين بعد الرسول ﷺ في جو من الكلام الصريح ، والنقاش الواعي ، والجدال المثمر ، قال أبو العباس القرطبي[٤] (ت ٦٥٦ هـ) عما حدث بين الصحابة في السقيفة « وقد جرى بينهم في هذا المجلس من المحاورة والمكالمة والإنصاف ما يدل على معرفة بعضهم بفضل بعض ، وأن قلوبهم متفقة على احترام بعضهم لبعض ، ومحبة بعضهم لبعض ... » .

ويقول أحد الباحثين « من استعراض الروايات الصحيحة لاجتماع السقيفة ، ومبايعة أبي بكر خليفة يتبين أن الاجتماع لم يدم طويلاً ، ولم تجرِ فيه مناقشات طويلة بين المهاجرين والأنصار ، أوتنافس وصراع على تولي الخلافة ، أو حدة في الكلام أو تهديدات ، أو عراك بالأيدي بين المجتمعين ، وهذا كله مما صورته بعض الروايات الضعيفة ... التي تناقلها المؤلفون المعاصرون ، فشوهوا الصورة الوضاءة لذلك الاجتماع التأريخي الرفيع ... الذي قرر مصير الخلافة والدولة الإسلامية بحزم وترفع وإحساس كبير بالمسؤولية يستعلي على التفاهات والأهواء »[٥].

ولقد جسّد أبو بكر ﷺ ذلك حين عبر عن قيمة الإمارة في نفسه ، والسبب الذي حداه لقبولها ، ثم نظرته إلى تبعاتها بقوله ـ وهو الصادق ـ كما صح بسند جيد « والله ما كنت حريصاً على الإمارة يوماً ولا ليلة قط ، ولا كنت راغباً فيها ، ولا سألتها الله عز

(١) ابن أبي شيبة : المغازي ، ص ٤٢٥ .
(٢) البخاري : الصحيح ، جـ ٦ ، ص ٢٥٠٧ .
(٣) ابن أبي شيبة : المغازي ، ص ٤٢٥ .
(٤) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم ، تحقيق محيي الدين مستو وزملائه ، جـ ٣ ، ص ٥٧٠ - ٥٧١ .
(٥) العمري : عصر الخلافة الراشدة ، ص ٤٤ (نقلاً عن عبد العزيز بن سليمان المقبل : خلافة أبي بكر الصديق ، ص ٤٢) .

وجل في سر ولا علانية ، ولكني أشفقت من الفتنة ، ومالي في الإمارة من راحة ، ولكن قُلدت أمراً عظيماً مالي به من طاقة ولا يد إلا بتقوية الله عز وجل ، ولوددت أن أقوى الناس عليها مكاني اليوم »(١).

إذن تمت البيعة لأبي بكر ﷺ في السقيفة في اليوم الذي توفي فيه النبي ﷺ ، وذلك على أشهر الأقوال يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الأول سنة ١١ هـ(٢)، وفي اليوم التالي يوم الثلاثاء تجمع الناس في المسجد ، فقام عمر ﷺ واعتذر عما جرى منه بالأمس حول وفاة النبي ﷺ ، ثم قال وإن « الله قد جمع أمركم على خيركم ، صاحب رسول الله ﷺ وثاني اثنين إذ هما بالغار ، فقوموا فبايعوه»(٣).

وفي تلك اللحظات سأل عمر أبا بكر صعود المنبر لتلقي البيعة ، فلم يصعده إلا بعد إلحاح من عمر ، ثم أخذ الناس يبايعونه(٤)؛ حيث يجتمع العصابة عليه فيقول لهم ـ كما ورد بسند حسن ـ «بايعوني على السمع والطاعة لله ولكتابه ثم للأمير »(٥). وهذه البيعة هي التي عُرفت بالبيعة العامة(٦).

موقف سعد بن عبادة وعلي بن أبي طالب من البيعة لأبي بكر الصديق :

لايتجاوز بعض المؤرخين البيعة لأبي بكر ﷺ بالخلافة دون أن يعرجوا على موقف سعد بن عبادة وعلي رضي الله عنهما منها ، فينقلوا دون تدقيق مما ورد في بعض المصادر بأنهما عارضا مع أفرادٍ آخرين البيعة له ؛ حيث أن سعداً ﷺ ـ على حد زعمهم ـ رفض تلك البيعة ، فلم يعترف بخلافة أبي بكر ﷺ ، وترك الصلاة خلفه والحج معه(٧).

أما علي ﷺ فقد زعموا أنه امتنع عن البيعة بحجة أن أبا بكر اغتصب حقه في

(١) الحاكم : المستدرك ، جـ ٥ ، ص ١٦٧٠ ؛ ابن كثير : خلافة أبي بكر ، ص ٦٣ . العمري : عصر الخلافة الراشدة ، ص ٤٤ – ٤٥ .
(٢) خليفة بن خياط : تاريخه ، ص ٩٤ ؛ الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٢١٧ .
(٣) ابن هشام : السيرة النبوية ، جـ ٤ ، ص ٤١٣ ؛ ابن كثير : خلافة أبي بكر الصديق ، ص ٦٠ .
(٤) البخاري : الصحيح ، جـ ٦ ، ص ٢٦٣٩ .
(٥) عبد الرزاق : المصنف ، جـ ١١ ، ص ٣٣١ ؛ البيهقي : السنن الكبرى ، جـ ٨ ، ص ١٤٦ ؛ العمري : عصر الخلافة الراشدة ، ص ٤٥ – ٤٦ .
(٦) ابن هشام : السيرة النبوية ، جـ ٤ ، ص ٤١٣ ؛ البخاري : الصحيح ، جـ ٦ ، ص ٢٦٣٩ .
(٧) انظر على سبيل المثال : فتحية النبراوي : عصر الخلفاء الراشدين ، ص ٥٠ .

خلافة النبي ﷺ ، وأن بعض الصحابة حاولوا إرغامه بالقوة ليبايع أبا بكر ﷺ ... الخ[١] .

وبالتأمل في مصادر هؤلاء يتبين أن ما أشيع عن موقف سعد بن عبادة ﷺ من البيعة لأبي بكر الصديق مدار روايته على الراوي الإخباري أبي مخنف (ت ١٥٧ هـ) المشهور بتشيعه[٢] . أما ما يتعلق بموقف علي ﷺ فمصدره الأساس كتاب الإمامة والسياسة المنسوب خطأً لابن قتيبة ، وهو كتاب « **مشحون بالجهل والغباوة والركة والكذب والتزوير** »[٣] ، وقد قال ابن العربي[٤] (ت ٥٤٣ هـ) عن صاحبه إنه « لم يُبقِ ولم يذر للصحابة رسماً » .

وقبل أن نتعرف على حقيقة موقف هذين الصحابيين من خلافة أبي بكر ﷺ نتقل كلاماً مفيداً لشيخ الإسلام ابن تيمية[٥] يشرح فيه أن الخلافة انعقدت لأبي بكر ببيعة جمهور الصحابة له ، وأنه لا يؤثر في صحتها تخلف أفراد منهم ، يقول رحمه الله في حديثه عن إمامة أبي بكر « ولو قدر أن عمر وطائفة معه بايعوه ، وامتنع سائر الصحابة عن البيعة لم يَصِرْ إماماً بذلك ، وإنما صار إماماً بمبايعة جمهور الصحابة الذين هم أهل القدرة والشوكة . ولهذا لم يضر تخلف سعد بن عبادة ، لأن ذلك لا يقدح في مقصود

(١) انظر مثلاً : السيد عبد العزيز سالم : تاريخ الدولة العربية ، ص ٤٣١ - ٤٣٢ .

(٢) اليحيى : مرويات أبي مخنف في تاريخ الطبري ، ص ١٢٥ - ١٢٦ . وأبو مخنف : هو لوط بن يحيى بن سعيد بن مخنف الأزدي ، كان أسلافه ممن شهدوا مع علي ﷺ الجمل وصفين ، نشأ أبو مخنف في الكوفة ، وتوفي سنة ١٥٧هـ (اليحيى : مرويات أبي مخنف ، ص ٢٧ ، ٢٨ ، ٣٠ ، ٤١) وقد صنف مصنفات كثيرة بلغ عددها في حدود سبع وأربعين كتاباً ، أكثرها في تاريخ العراق ، منها : الردة ، فتوح العراق ، مقتل عثمان ، الجمل ، صفين ، الخوارج (ابن النديم : الفهرست ، ص ١٣٦ - ١٣٧) وتشيع أبي مخنف مشهور ، قال ابن عدي عنه « حدث بأخبار من تقدم من السلف الصالحين ، ولا يبعد منه أن يتناولهم ، وهو شيعي محترق صاحب أخبارهم » (الكامل في ضعفاء الرجال ، جـ ٦ ، ص٩٣) وقال الذهبي عنه « أخباري تالف ، لا يوثق به ، تركه أبوحاتم وغيره » (ميزان الاعتدال في نقد الرجال ، جـ ٥ ، ص ٥٠٨) .

(٣) ابن العربي : العواصم من القواصم في تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبي ﷺ ، تحقيق محب الدين الخطيب ، وخرج أحاديثه محمود الإستانبولي ، حاشية ٤٩٢ ، ص ٢٦١ - ٢٦٢ . ولمعرفة حقيقة كتاب الإمامة انظر (عبد الله عسيلان : كتاب الإمامة والسياسة في ميزان التحقيق العلمي) وقد أثبت الباحث علي بن نفيع العلياني بأدلة قاطعة أن مؤلف هذا الكتاب إنما هو من الرافضة، ورجح أن يكون من رافضة المغرب بالذات (عقيدة الإمام ابن قتيبة ، ص ٩٠ ـ ٩٣) .

(٤) العواصم من القواصم ، ص ٢٦١ .

(٥) منهاج السنة ، جـ ١ ، ص ٥٣٠-٥٣١ ؛ أبو بكر الصديق (مستخرج من كتاب منهاج السنة) ، جمع وتعليق محمد مال الله ، ص ٩٦ - ٩٧ .

الولاية ، فإن المقصود حصول القدرة والسلطان اللذين بهما تحصل مصالح الإمامة ، وذلك قد حصل بموافقة الجمهور على ذلك».

ثم أكد أن تخلف أفراد عن البيعة لا يؤثر على صحة انعقادها فقال « كما أن من ظن أن تخلف الواحد أو الاثنين والعشرة يضر فقد غلط ، فأبو بكر بايعه المهاجرون والأنصار الذين هم بطانة رسول الله ﷺ والذين بهم صار للإسلام قوة وعزة ... فجمهور الذين بايعوا رسول الله ﷺ هم الذين بايعوا أبا بكر ... ولو قدر أن بعض الناس كان كارها للبيعة لم يقدح ذلك في مقصودها ، فإن نفس الاستحقاق لها ثابت بالأدلة الشرعية الدالة على أنه أحقهم بها ، ومع قيام الأدلة الشرعية لا يضر من خالفها » .

أما عن موقف سعد ﷺ من أبي بكر ﷺ فثمة رواية صححها بعض العلماء تفيد أن أبا بكر ﷺ لما تحدث في السقيفة وذكر مناقب الأنصار وجه كلامه في الأخير مخاطباً سعد بن عبادة ﷺ بقوله « **ولقد علمت يا سعد أن رسول الله ﷺ قال ـ وأنت قاعد ـ : قريش ولاة هذا الأمر ، فبرُ الناس تبعٌ لبرهم ، وفاجرُهم تبعٌ لفاجرهم ، فقال له سعد: صدقت ، نحن الوزراء وأنتم الأمراء** »[١] .

قال ابن تيمية[٢] عن هذا الحديث « وفيه فائدة جليلة جداً ، وهي أن سعد بن عبادة نزل عن مقامه الأول في دعوى الإمارة ، وأذعن للصديق بالإمارة » . وقد فهم أحد الباحثين من هذه الرواية ومن الروايات الأخرى التي تعرضنا لشيء منها عند البيعة لأبي بكر ﷺ أن سعداً ﷺ قد بايع في السقيفة التي لم يبقَ فيها أحد من المهاجرين والأنصار لم يبايعه[٣] .

وعلى فرض أنه تخلف عن بيعة أبي بكر فهو معذور لأن الأنصار « كانوا قد عينوه

---

(١) أحمد : المسند ، تحقيق أحمد شاكر ، جـ ١ ، ص ١٦٤ ؛ ابن كثير : خلافة أبي بكر الصديق ، ص ٥٨ . قال ابن تيمية عن هذا الحديث « فهذا مرسل حسن » ، ثم قال عن راويه ـ حميد بن عبد الرحمن ـ « ولعل حميداً أخذه عن بعض الصحابة الذين شهدوا ذلك » (منهاج السنة ، جـ ١ ، ص ٥٣٦) وقد صححه الألباني ، وقال إن له شاهداً من حديث جابر وحديث أبي هريرة المخرجين في الصحيحين وغيرهما بلفظ (الناس تبع لقريش ...) (سلسلة الأحاديث الصحيحة ، ص ١٤٦ ، ٦ - ٧) .

(٢) منهاج السنة ، جـ ١ ، ص ٥٣٦-٥٣٧ ؛ أبو بكر الصديق ، ص ١٠١ .

(٣) اليحيى : مرويات أبي مخنف ، ص ١٢٥ .

للإمارة ، فبقي في نفسه ما يبقى في نفوس البشر ، ولكن هو مع هذا ﷺ لم يعارض ، ولم يدفع حقاً ، ولا أعان على باطل »[١].

وقد اشتهر أن قومه الأنصار لم يترددوا لحظة واحدة حين دعاهم أبو بكر ﷺ إلى الجهاد ، سواء جهاد المرتدين داخل الجزيرة العربية ، أو جهاد الفرس والروم خارجها ، بل سارعوا إلى ذلك بكل عزم وصدق وإخلاص ، ثم أبلوا في عرصاته بلاءً حسناً .

أما على بن أبي طالب ﷺ فقد ثبتت مبايعته لأبي بكر ﷺ في خبر قال عنه الإمام مسلم بن الحجاج لما كتبه لـه ابن خزيمة وقرأه عليه « هذا حديث يسوى بدنة ... بل هو يسوى بَدْرَة » ، وفيه أن أبا بكر لما صعد المنبر بعد بيعة المهاجرين والأنصار لـه نظر في وجوه القوم ، فكان علي ﷺ أحد الذين لم يرهم ، ولذا دعاه ولامه ، فرد عليه علي ﷺ «**لا تثريب يا خليفة رسول الله ﷺ فبايعه** »[٢].

وعلق ابن كثير[٣] على هذا قائلاً « وفي هذا الخبر فائدة جليلة ، وهي مبايعة علي ابن أبي طالب إما في أول يوم ، أو في اليوم الثاني من الوفاة » ثم عقّب على تعليقه هذا

(١) ابن تيمية : منهاج السنة ، جـ ١ ، ص ٥٣٦ ؛ أبو بكر الصديق ، ص ١٠٠ .

(٢) الحاكم : المستدرك ، جـ ٥ ، ص١٦٨٣ ؛ البيهقي : السنن الكبرى ، جـ ٨ ، ص ١٤٣ ؛ ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق ، جـ ٣٠ ، ص ٢٧٧ ؛ ابن كثير : خلافة أبي بكر الصديق ، ص ٦١ . وهو من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ ، وقد ذكر ابن كثير طريقاً آخر لهذا الحديث ، ثم قال « وهذا إسناد صحيح »(المصدر نفسه ، ص ٦٢ ؛ الذهبي : عهد الخلفاء الراشدين ص ١٠) وقال ابن حجر « صححه ابن حبان وغيره من حديث أبي سعيد الخدري وغيره أن علياً بايع أبا بكر في أول الأمر »(فتح الباري ، جـ ٧ ، ص ٤٩٥ . وانظر اليحيى : الخلافة الراشدة والدولة الأموية من فتح الباري ، ص ١٨٦) وذكر ابن كثير خبراً ـ قال عن إسناده جيد ـ كشف فيه على بن أبي طالب سبب تباطئه قليلاً في البيعة ، ثم نظرته لأبي بكر فقال « **ما غضبنا إلا لأنا أُخرنا عن المشورة ، وإنا نرى أن أبا بكر أحق الناس بها ، وإنه لصاحب الغار ، وإنا لنعرف شرفه وخيره ، ولقد أمره رسول الله ﷺ أن يصلي بالناس وهو حي**»(خلافة أبي بكر ، ص ٦٣) وقد روي أن علياً لما علم بجلوس أبي بكر للبيعة خرج في قميص كراهية أن يبطيء عنها حتى بايعه (الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٢٠٧ ، وهي رواية عن سيف بن عمر التميمي) . ويروى أنه «**لما توفي رسول الله ﷺ أقسم علي أن لا يرتدي برداء إلا لجمعة حتى يجمع القرآن في مصحف ، ففعل ، فأرسل إليه أبو بكر بعد أيام ، أكرهت إمارتي يا أبا الحسن ؟ فقال : لا والله ، إلا أني أقسمت أن لا أرتدي برداء إلا لجمعة ، فبايعه ، ثم رجع**»(ابن أبي داود : المصاحف ، جـ ١ ، ص ١٦٩-١٧٠) قال المحقق عن هذا الخبر إسناده ضعيف . وقد جاءت هذه الرواية باختلاف يسير في (الذهبي : عهد الخلفاء الراشدين ، ص ٦٣٧ ؛ السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ١٦٣) .

(٣) خلافة أبي بكر الصديق ، ص ٦٢ .

بقوله « وهذا حق ، فإن علي بن أبي طالب لم يفارق الصديق في وقت من الأوقات ، ولم ينقطع في صلاة من الصلوات خلفه ... وخرج معه إلى ذي القصة[١] لما خرج الصديق شاهراً سيفه يريد قتال أهل الردة » ؛ حيث كان علي ﷺ يقود راحلة أبي بكر ﷺ ، ثم إنه كان أحد الصحابة الذين أشاروا على أبي بكر ﷺ أن يرجع إلى المدينة ويبعث ألوية لقتال المرتدين ، فأخذ برأيهم[٢].

وقبل ذلك كان الصديق بعد استخلافه مباشرة قد جعل علي بن أبي طالب أميراً من أمراء الحرس الذين باتوا على أنقاب المدينة يحرسونها لما طمع الأعراب بها ، وتوثبوا لمهاجمتها ، وذلك حين تناقصت أعداد المسلمين فيها عند خروج جيش أسامة بن زيد ﷺ الذي بادر أبو بكر الصديق بإنفاذه[٣].

وهناك رواية صحيحة تجسد صفاء العلاقة ، وتبادل الود بين الصديق وعلي بعد أيام من البيعة لأبي بكر ، يقول عقبة بن الحارث ﷺ «خرجت مع أبي بكر بعد وفاة النبي ﷺ بليالٍ وعلي يمشي إلى جنبه ، فمر بحسن بن علي وهو يلعب مع غلمان ، فاحتمله على رقبته وجعل يقول :

بأبي شَبِيهُ بالنبي　　　　ليسَ بِشبيهٍ بعلي

وعلي ﷺ يضحك[٤].

وبعد أن تجلت لنا مبايعة علي بن أبي طالب لأبي بكر الصديق بالخلافة في الأيام الأولى عبر ما أوردناه آنفاً من آثار صحيحة[٥]، وقرائن واقعية فإنه لابد من الوقوف عند رواية جاءت في الصحيح تنص على أن بيعة علي لأبي بكر كانت بعد ستة أشهر من

(١) اسم مكان على بعد ٢٤ ميلاً شرق المدينة (الشريف : دور الحجاز في الحياة السياسية ، ص ١٥٣) .
(٢) ابن كثير : خلافة أبي بكر الصديق ، ص ٨٩ .
(٣) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٢٤٥ ؛ ابن كثير : أبو بكر ، ص ٨٢ .
(٤) المروزي : مسند أبي بكر الصديق ، ص ١٤٤ - ١٤٥ ؛ ابن كثير :خلافة أبي بكر ، ص ٧٥ .
(٥) ولقد روى الحسن أن علياً ﷺ قال « **قدّم رسول الله ﷺ أبا بكر ﷺ يصلي بالناس ، وقد رأى مكاني وما كنت غائباً ولا مريضاً ، ولو أراد أن يقدمني لقدمني ، فرضينا لدنيانا من رضيه رسول الله ﷺ لديننا** » (الآجري : الشريعة ، تحقيق عبد الله بن عمر الدميجي ، جـ ٤ ، ص ١٧٢٢) وقد حكم عليه المحقق بالضعف الشديد .

وفاة النبي ﷺ ، وذلك حين توفيت فاطمة رضي الله عنها ، وكانت هذه البيعة في المسجد[١] .

وقد جمع بعض العلماء بين هذه الرواية وخبر مبايعته في أول الأمر بأن الثانية مؤكدة للأولى[٢] ، حيث أن زوجه فاطمة رضي الله عنها كانت متوهمة أنها تستحق ميراث رسول الله ﷺ فحجبها أبو بكر ﷺ وغيرها من أزواجه وعمه العباس رضي الله عن الجميع محتجاً بقوله ﷺ « **لا نورث ما تركنا صدقة** » ، ثم لم يجبها في سؤالها له أن ينظر زوجها علي ﷺ في صدقة الأرض التي في خيبر وفَدَك ، لأنه رأى أن حقاً عليه أن يقوم في جميع ما كان يتولاه رسول الله ﷺ وهو الصادق البار الراشد التابع للحق ـ لما فعل أبو بكر ﷺ ذلك حصل لها رضي الله عنها ، وهي امرأة من البشر ليست معصومة عتب عليه ، فاحتاج « علي أن يراعي خاطرها بعض الشي ، فلما ماتت بعد ستة أشهر من وفاة أبيها ﷺ رأى علي أن يجدد البيعة مع أبي بكر ﷺ »[٣] .

خطبة أبي بكر ﷺ بعد البيعة له با لخلافة : عقب البيعة العامة التي تمت لأبي بكر ﷺ في المسجد خطب في المسلمين الحاضرين خطبة ـ رُويت بإسناد صحيح ـ قال فيها بعد أن حمد الله وأثنى عليه بما هو أهله « أما بعد أيها الناس ؛ فإني قد وليتُ عليكم ولستُ بخيركم ، فإن أحسنتُ فأعينوني ، وإن أسأتُ فقوموني . الصدق أمانة ، والكذب خيانة . والضعيف فيكم قويٌّ عندي حتى أُريح عليه حقه إن شاء الله ، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ منه الحق إن شاء الله . لا يَدَعُ قومُ الجهادَ في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذُّل ، ولا تشيعُ الفاحشةُ في قوم قط إلا عَمَّهم الله بالبلاء . أطيعوني ما أطعتُ الله ورسوله ، فإذا عصيتُ الله ورسوله فلا طاعةَ لي عليكم ...»[٤] .

---

(١) ابن حجر : فتح الباري ، جـ ٧ ، ص ٤٩٣ .
(٢) ابن حجر : فتح الباري ، جـ ٧ ، ص ٤٩٥ . انظر ابن العربي : العواصم من القواصم ، ص ٥٦ ، حاشية .
(٣) ابن كثير : خلافة أبي بكر ، ص ٦٢ - ٦٣ .
(٤) عبد الرزاق : المصنف ، جـ ١١ ، ص ٣٣٦ ؛ ابن هشام : السيرة النبوية ، جـ ٤ ، ص ٤١٤ ؛ ابن كثير : خلافة أبي بكر ، ص ٦٠ .

إن أبا بكر ﷺ في هذه الخطبة ـ بناءً على علمه بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، واستيعابه لأحكامهما ـ قد عبر عن فهمه للخلافة وما يتعلق بها من حقوق والتزامات ، فالخليفة في فهمه رجل من المسلمين ولي الخلافة من بينهم ليرعى مصالحهم ، فمن واجبهم مراقبته في عمله ، فيعينوه إن أحسن ، ويقوموه إذا هو أساء ، وقد أكد بعدها أن الصدق أمانة ، والكذب خيانة ، فكأنه أراد التنبيه على أن المراقبة ومن ثَّم الإعانة أو التقويم لن يقعا موقعهما ، ويحققا غاياتهما إلا إذا اُستعمل فيهما الصدق ، واُبتعدا بهما عن الكذب .

ثم بين أن من واجبات الخليفة إقامة العدل في الرعية ، فلا يُفرق بين قوي ولا ضعيف منهم إلا بالحق ، ثم كشف أن ترك الأمة الجهاد في سبيل الله يفضي بها إلى الذلة ، وأن شيوع الفاحشة فيها وسيلة إلى الانحلال ، ومعنى ذلك أن من مهام ولي أمر المسلمين رفع علم الجهاد في سبيل الله ، والعمل على تنقية المجتمع الإسلامي من كل ما قد يدنسه طهره ، ويكدر نظافته . ثم ختم ذلك كله بأن طاعة الخليفة مقيدة بطاعة الله ورسوله ﷺ ، فإن عصى الله ورسوله فلا ينبغي للأمة الالتفات إلى أمره ولا إلى نهيه .

المنجزات في عهد أبي بكر ﷺ: لما جُهز النبي ﷺ أخذ المسلمون يدخلون عليه زمراً زمراً ، ويصلون عليه دون أن يؤمهم أمام[١]، ثم دفنوه ليلة الأربعاء[٢]. وكانوا قبلاً قد تحيروا في مكان مواراته ، فأرشدهم في ذلك أبو بكر ﷺ ؛ حيث توجهوا إليه فقالوا «يا صاحب رسول الله ؛ أيدفن رسول الله ﷺ ؟ قال : نعم . قالوا : أين ؟ قال : في المكان الذي قبض الله فيه روحه ، فإن الله لم يقبض روحه إلا في مكان طيب »[٣]، وبهذا كانت قضية تجهيز النبي ﷺ والصلاة عليه ومواراته الثرى أول عمل تم في عهد أبي بكر ﷺ .

ثم حفل بعد ذلك عهده الذي لم يتجاوز سنتين وثلاثة أشهر بجليل الأعمال التي ثبتت الإسلام في النفوس ، وأرست دعائم الدولة الإسلامية الوليدة ، وفرضت قوة المسلمين بين القوى المعاصرة .

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ، جـ ٤ ، ص ٤١٨ ؛ ابن أبي شيبه : المغازي ، ص ٤١٢ ، ٤١٣ ، ٤٢١ .
(٢) ابن هشام : السيرة النبوية ، جـ ٤ ، ص ٤١٨ ؛ الترمذي : مختصر الشمائل المحمدية ، ص ١٩٨ .
(٣) الترمذي : مختصر الشمائل المحمدية ، ص ٢٠٠ .

وقد اشتهر من أعماله أربعة ؛ اثنان منهما باشرهما فور تسلمه مقاليد الخلافة ، وهما :

إنفاذ بعث أسامة بن زيد ﷺ إلى الشام ، وقمع حركة الردة في الجزيرة العربية .

والآخران جاءا بَعْدُ ، وهما : جمع القرآن الكريم ، ورفع علم الجهاد في سبيل الله خارج نطاق جزيرة العرب .

أولاً – إنفاذ جيش أسامة بن زيد ﷺ إلى الشام : كان النبي ﷺ في أواخر صفر من العام الحادي عشر ندب الناس لغزو الروم في البلقاء والداروم من أرض فلسطين ، وأَمّر عليهم أسامة بن زيد ﷺ الذي كان حينذاك ابن ثماني عشرة سنة ، وكان ﷺ قد وجد تباطئاً من المسلمين فخرج إليهم ـ وقد حل به الوجع الذي توفي فيه ـ فحثهم على الخروج ، وكان مما قاله « اَنِفذوا بعثَ أسامة » ، فتجمع جيش قُدر بثلاثة آلاف فيه كبار المهاجرين والأنصار كعمر بن الخطاب وأبي عبيدة بن الجراح وسعد بن أبي وقاص وغيرهم ، ونزل في الجُرْف شمال المدينة على بعد فرسخ (ثلاثة أميال) منها ، إلا أن المرض ثقل على النبي ﷺ الأمر الذي جعل أسامة ومن معه ينتظرون[١] ، فتوفي ﷺ بعد يومين من تجمع ذلك الجيش في معسكره (الجرف)[٢] .

ولقد كان من الطبيعي أن يدخل المسلمون المعسكرون في الجرف المدينةَ حال سماعهم نبأ وفاة الرسول ﷺ[٣] ، لكن أبا بكر ﷺ حين تمت له البيعة أمرهم بالخروج إلى معسكرهم للاستعداد للغزو ، وقد قيل إنه « نادى منادي أبي بكر من بعد الغد من متوفَّى رسول الله ﷺ : ليتم بعث أسامة ، ألا لا يبقينَّ بالمدينة أحد من جند أسامة إلا خرج إلى عسكره بالجرف »[٤] .

ونظراً لاشتداد الحال بالمدينة بوفاة النبي ﷺ وما صاحب ذلك من نجوم النفاق فيها ، ثم بما وصل من أخبار ارتداد قبائل من العرب فقد أشار جمع من الصحابة أن لاينفذ جيش أسامة ، فالنبي ﷺ حين جهزه كان في حال السلامة ، أما الآن فالمسلمون

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ، جـ ٤ ، ص ٣٣٧ ، ٣٩٦ ؛ مهدي رزق الله أحمد : السيرة النبوية ، ص ٦٨٥ .
(٢) الواقدي : المغازي ، جـ ٣ ، ص ١١١٩ ـ ١١٢٠ .
(٣) المصدر نفسه ، ص ١١٢٠ .
(٤) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٢٢٣ ؛ ابن كثير : خلافة أبي بكر ، ص ٧٨ .

بحاجة إليه ، وقد نقل رأيهم هذا إلى أبي بكر ﷺ عمر بن الخطاب ﷺ . وفي رواية أن أسامة نفسه عرض على أبي بكر أن لا يعجل في إنفاذه حتى يتبين له موقف العرب الذين يتخوف كفرهم ، إذ في جيشه سروات الناس وخيارهم .

بيد أن أبا بكر أبى أشد الإباء ، وكان مما قاله في الرد عليهم «والله الذي لا إله إلا هو لو جَرَّت الكلاب بأرجل أزواج النبي ﷺ ما رددت جيشاً جهزه رسول الله ﷺ ولا حللت لواءً عقده رسول الله ﷺ»(١) . وفي رواية أنه رد عليهم بقوله « والذي نفس أبي بكر بيده لو ظننت أن السباع تخطفني لأنفذت بعث أسامة كما أمر رسول الله ﷺ ولو لم يبقَ في القرى غيري لأنفذته »(٢) .

والحاصل أن الصديق ﷺ أصر على إنفاذ جيش أسامة(٣) إلى الوجهة التي أراد النبي ﷺ غزوها من أرض الشام حتى روي أنه قال « لن أُتي بأحد أبطأ عن الخروج معه إلا ألحقته به ماشياً »(٤) .

ثم نهض بنفسه حتى أتاهم بالجرف ، فاستعرض الجيش ثم أمرهم بالمسير ، وشيعهم ماشياً وأسامة راكباً ، فقال أسامة له « يا خليفة رسول الله ، والله لتَركبنّ أو لأَنزلنّ ، فقال : والله لا تنزل والله لا أركب ، وما عليّ أن أغبر قدمي في سبيل الله ساعة ... » ، ثم طلب من أسامة أن يأذن له بتخلف عمر عن الخروج مع الجيش لحاجته إلى بقائه عنده في المدينة ، فأذن له بذلك . وحال انطلاقهم وقف الصديق ﷺ في الناس

---

(١) المحب الطبري : الرياض النضرة في مناقب العشرة ، تحقيق عيسى بن عبد الله الحميري ، جـ ٢ ، ص ٤٧ ؛ السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ٧٤ .
(٢) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٢٢٥ .
(٣) روي سيف بن عمر التميمي بسنده إلى الحسن بن أبي الحسن البصري أن الأنصار رغبوا إلى أبي بكر إذا أصر على إنفاذ الجيش أن يولي عليه رجلاً أسن من أسامة ، وقد نقل رغبتهم عمر بن الخطاب ، فوثب أبو بكر وأخذ بلحية عمر ، وقال له « **ثكلتك أمك وعدمتك يا ابن الخطاب ، استعمله رسول الله ﷺ وتأمرني أن أنزعه ...** » (الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٢٢٦ ؛ ابن كثير : خلافة أبي بكر ، ص ٨١) فإن كان هذا حدث فلا يعد طعناً في أسامة ، ولا مخالفة لأمر النبي ﷺ ؛ ذاك أن النبي ﷺ حينما قلد أسامة أمر الجيش كانت الأمور مستتبة بعكس حالتها في مطلع عهد أبي بكر ، هذا من جانب . ومن جانب آخر فإن هؤلاء الصحابة الذين طلبوا من أبي بكر استبدال أسامة إنما طلبوها منه بحكم أنه حل محل النبي ﷺ في تدبير شؤون المسلمين الدنيوية التي يُراعى فيها مصلحتهم طبقاً للمتغيرات والظروف التي يواجهونها .
(٤) الواقدي : المغازي ، جـ ٣ ، ص ١١٢٢ .

وأوصاهم بعشر وصايا كلها تتعلق بوجوب الالتزام بضوابط الإسلام وآدابه أثناء الحرب[١]، كما أوصى أسامة خاصة بأن يتقيد بما أمره به النبي ﷺ ، ولا يقصر في شيء من ذلك ، ثم زوده بخطة الغزو[٢].

وقد سار الجيش في آخر شهر ربيع الأول سنة ١١ هـ نحو مقصده[٣]، فوطِىء بلاداً هادئة لم تخرج عن الإسلام كبلاد جهينة وقضاعة وغيرها ، ثم نزل بوادي القرى ومنه تحرك سريعاً إلى جنوبي الشام بعد أن أطمأن قائده أسامة ﷺ من سلامة الطريق بواسطة عين بعثه لتحقيق هذا الهدف ، فما زال يسير حتى بلغ قرية أُبْـنَى[٤]من مؤتة بأرض فلسطين[٥]، فقام المسلمون بالغارة عليها [٦]. كما ذُكر أنهم هاجموا أيضاً بلد آبِل في الأردن[٧].

وقد أحرزوا في ذلك كله النصر ، وغنموا الغنائم ، ثم كر الجيش سالماً إلى المدينة وقد غاب مدة خمسة وثلاثين يوماً ، فأخذ عشرين في ذهابه ، وخمسة عشر في قفوله[٨]. وقيل إن مدة غيابه استغرقت أربعين يوماً [٩].

وهكذا نفذ هذا البعث مهمته التي أرسل من أجلها ، فأمن المسلمين في تخومهم مع الإمبراطورية الرومية ، ورفع هيبتهم في قلوب حكامها إلى درجة أنهم أمروا بحامية دائمة ترابط في منطقة البلقاء التي غزاها أسامة[١٠]، كما حقق غاية أخرى عارضة لعلها لم تغب

---

(١) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٢٢٦ ـ ٢٢٧ .

(٢) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٢٢٧ .

(٣) خليفة بن خياط : تاريخه ، ص ١٠١ ؛ الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٢٤٠

(٤) الواقدي : المغازي ، جـ ٣ ، ص ١١٢٣ ؛ ابن سيد الناس : عيون الأثر ، جـ ٢ ، ص ٣٧٠ .

(٥) ياقوت : معجم البلدان ، جـ ١ ، ص ٧٩ .

(٦) الواقدي : المغازي ، جـ ٣ ، ص ١١٢٣ ـ ١١٢٤ .

(٧) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٢٢٧ ، ياقوت : معجم البلدان ، جـ ١ ، ص ٥٠ .

(٨) الواقدي : المغازي ، جـ ٣ ، ص ١١٢٤ ـ ١١٢٥ .

(٩) خليفة بن خياط : تاريخه ، ص ١٠١ . وهناك رواية تشير إلى أنه مكث سبعين يوماً (الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٢٤١) وقد فهم بعضهم أن السبعين يوماً هي مدة غيابه عن المدينة ، بينما الأربعون يوماً كانت مدة بقائه في بلاد الغزو (هاشم الملاح : الوسيط في السيرة النبوية والخلافة الراشدة ، ص ٣٣٨) لكن ما قيدناه في المتن هو الأقرب إلى الصحة ؛ لأن ما جاء فيه من تفصيل عن زمن حركة الجيش في ذهابه وإيابه يتوافق مع المسافة بين المدينة وجنوبي الشام ؛ ثم أن تحركات ذلك الجيش غلب عليها طابع السرعة .

(١٠) الواقدي : المغازي ، جـ ٣ ، ص ١١٢٤ ؛ ابن سيد الناس : عيون الأثر ، جـ ٢ ، ص ٣٧١ .

عن ذهن أبي بكر ﷺ وهي إظهار قوة دولة الإسلام عند القبائل العربية لاسيما القاطنة شمال المدينة[١]، فكان المسلمون في هذا الجيش « لا يمرون بحي من أحياء العرب إلا أرعبوا منهم ، وقالوا ما خرج هؤلاء من قوم إلا وبهم منعة شديدة »[٢]، فكان ذلك سبباً في كف أهل تلك النواحي عن كثير مما كانوا يريدون أن يفعلوه من الفتنة العصيان[٣]؛ حيث ساد الهدوء جهة الشمال إلى حد كبير في الوقت الذي انتشرت فيه الردة في جهات الجزيرة العربية ، ولذا فالصديق ﷺ فيما بعد لم يوجه إليها سوى لوائين فقط من الألوية الأحد عشر التي جندها لإخماد حركة الردة ، وفوق ذلك لما حلا فيها لم تتعدَ مهمتهما دور المراقبة والاستطلاع .

ثانياً- حركة الردة وقضاء أبي بكر ﷺ عليها : جابه أبو بكر ﷺ في غرة عهده حركة خطيرة كادت أن تعصف بدولة الإسلام في المدينة ، وهذه الحركة هي التي عُرفت في التاريخ بحركة الردة ، وقد صورت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ـ فيما صح عنها ـ مبلغ خطرها بقولها « **توفي رسول الله ﷺ فنزل بأبي بكر ما لو نزل بالجبال لهاضها ، اشرأب النفاق بالمدينة ، وارتدت العرب ...** »[٤] .

ومن المعلوم أن هذه الحركة بدت نذرها في أواخر حياة النبي ﷺ بظهور عدد من مدعي النبوة كمسيلمة بن حبيب الحنفي في اليمامة ، والأسود العنسي في اليمن[٥]، ثم طليحة الأسدي بأعالي نجد[٦]، ولكن بوفاته ﷺ اتسع نطاق الردة ، واشتد أوارها ، وانتشر لهيبها في بقاع الجزيرة كلها ، إذ أعلنت كثير من القبائل العربية الخروج على طاعة دولة الإسلام في المدينة ، وذلك بمظاهر مختلفة كطرد العمال ، والامتناع عن دفع الزكاة ، واتباع المتنبئين ، والتجهز لغزو المسلمين ، ولم يثبت على الولاء إلا مثلث رؤوسه المدينة

---

(١) الشريف : دور الحجاز في الحياة السياسية ، ص ١٥١

(٢) ابن كثير : خلافة أبي بكر ، ص ٨٠ .

(٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، جـ ٢ ، ص ٣٣٦ .

(٤) ابن أبي شيبة : المغازي ، ص ٤٣١ – ٤٣٢ ، خليفة بن خياط : تاريخه ، ص ١٠٢ . وانظر : ابن هشام : السيرة النبوية ، جـ ٤ ، ص ٤٢١ .

(٥) البخاري : الصحيح ، جـ ٣ ، ص ١٣٢٥ ، جـ ٤ ، ص ١٥٩٠ ، ١٥٩١ ، جـ ٦ ، ص ٢٥٧٩ ، ٢٥٨٠ ؛ مسلم : الصحيح ، جـ ٤ ، ص ١٧٨١ .

(٦) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ١٤٧ ، ١٨٥ .

ومكة والطائف[١] بجانب قبائل وجماعات وقادة وأفراد تمسكوا بدينهم في كل منطقة من المناطق التي ظهرت فيها الردة [٢].

أقسام المرتدين : ويلاحظ أن الفقهاء اصطلحوا على تعريف الردة بأنه رجوع المسلم عن الإسلام إلى الكفر[٣]، بينما أطلقت في الواقع هذه الكلمة أيام أبي بكر ﷺ على أفراد وفئات عريضة من الناس ، منهم الذي كفر بالإسلام واتبع المتنبئين الكذابين ، ومنهم الممتنع عن دفع الزكاة ، ومنهم الذين نقضوا ما بينهم وبين النبي ﷺ من العهود والمواثيق ، ومنهم المصرون على الشرك الرافضون للإسلام[٤].

وعلى أي حال فيمكننا أن نحصر المرتدين الذين واجههم أبو بكر ﷺ في **فريقين**[٥]:

الأول : فريق منعوا الزكاة زاعمين أن دفعها لا يكون إلا للنبي ﷺ شخصياً ، فإذا

(١) الشريف : دور الحجاز في الحياة السياسية ، ص ١٣٧ ؛ العمري : عصر الخلافة الراشدة ، ص ٣٥٦ ، ٣٦٩ . راجع الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص٢٤٢ . وقد نقل عن بعض أهل العلم المتقدمين تحديد المناطق التي ثبتت على الإسلام في مطلع عهد أبي بكر ﷺ ، فقد نقل ابن كثير عن محمد بن إسحاق قوله « ارتدت العرب عند وفاة رسول الله ﷺ ما خلا أهل المسجدين ؛ مكة والمدينة »(خلافة أبي بكر ، ص ٨٥) وعن قتادة قال « لما مات رسول الله ﷺ ارتدت العرب إلا ثلاثة مساجد ؛ المسجد الحرام ، ومسجد المدينة ، والبحرين » (أحمد : فضائل الصحابة ، جـ ٢ ، ص ٨٢٨) .

(٢) مهدي رزق الله أحمد : الثابتون على الإسلام أيام فتنة الردة في عهد الخليفة أبي بكر الصديق ، ص ٢٠-٧٢ ؛ عبد الله بن محمد السيف : الثابتون على الإسلام في شرق الجزيرة العربية أثناء حركة الردة ، ص ٣١-٣٣ .

(٣) عبد الله أحمد قادري : الردة عن الإسلام وخطرها على العالم الإسلامي ، ص ١٤ .

(٤) الملاح : الوسيط في السيرة ، ص ٣٣٨ ـ ٣٣٩ . وقد شهد التاريخ الإسلامي حوادث ردة عن الإسلام بعد الردة التي حدثت في عهد أبي بكر ﷺ ، فكان من أعنفها الردة التي اكتسحت العالم الإسلامي في العصر الحديث على أثر الغزو الإستعماري العسكري والفكري . راجع (أبو الحسن الندوي : ردة ولا أبا بكر لها ؛ علي العتوم : حركة الردة ، ص ٣٢٤-٣٢٧) والمطلع على ما يكتبه بعضهم من أبناء المسلمين في مجال الفكر والأدب في الصحف والمجلات وغيرها لا يصعب عليه الوقوف على تيار الردة عن الإسلام .

(٥) وللعلماء أقوال في تصنيف المرتدين زمن أبي بكر ﷺ ، منها قول القاضي عياض وغيره «كان أهل الردة ثلاثة أصناف ؛ صنف عادوا إلى عبادة الأوثان ، وصنف تبعوا مسيلمة والأسود العنسي ... [وغيرهما من المتنبئين] ، وصنف ثالث استمروا على الإسلام لكنهم جحدوا الزكاة ، وتأولوا بأنها خاصة بزمن النبي ﷺ ، وهم الذين ناظر عمر أبا بكر في قتالهم» (ابن حجر : فتح الباري ، جـ ١٢ ، ص ٢٧٦) وانظر أيضاً ما نقله عثمان بن منصور في أقسام المرتدين في زمن أبي بكر ﷺ ، وتعليقه على ذلك (فتح الحميد في شرح التوحيد ، جـ ٢ ، ص ١٠١٧- ١٠٢٥) راجع كذلك (علي العتوم : حركة الردة ، ص ٢٠- ٢٥) .

ما توفي أصبحوا في حل من دفعها لمن قام بعده[١]، واحتجوا بقوله سبحانه﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (التوبة ، آية ١٠٣)[٢].

وهذا الفريق لم يعده جمع من الصحابة وعلى رأسهم عمر بن الخطاب ﷺ قد كفر بالإسلام بحجة أن النبي ﷺ قال (**أُمرتُ أن أقاتلَ الناسَ حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فمن قالها فقد عصم مني مالَه ونفسَه إلا بحقه ، وحسابه على الله**) ، لكن أبا بكر ﷺ قال « **والله لأقاتِلَنَّ من فرَّق بين الصلاة والزكاة ، فإن الزكاة حق المال ، والله لو منعوني عناقاً** [في رواية أخرى عقالاً] **كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها** » ، يقول عمر ﷺ « **فوالله ما هو إلا أن قد شرح الله صدر أبي بكر ﷺ ، فعرفت أنه الحق** »[٣].

وثمة جماعات بقيت تقر بفرضية الزكاة ، لكنها امتنعت عن دفعها لأبي بكر ﷺ، فانكرت وجوب دفعها إلى خليفة المسلمين[٤]، يقول قائلهم :

أطعنا رسول الله ما كان بيننا — فيا لعباد الله ما لأبي بكرِ ؟

أيورثها بكراً إذا مات بعده — وتلك لَعَمْرُ الله قاصمةُ الظهرِ[٥]

ومن الواضح أن مانعي الزكاة من القبائل العربية لم يكونوا يدركون ـ لبداوتهم ، وقلة حظهم من المعرفة ـ حقيقة الدين الإسلامي ومدى حدوده ، وقد ينطبق عليهم قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (التوبة ، آية ٩٧) ، ولعل هذا الفريق تمثله بشكل عام القبائل العربية التي كانت قريبة من المدينة في الحجاز وأعالي نجد[٦] .

أما الفريق الثاني فهو القبائل العربية البعيدة عن المدينة ، وجل هذه القبائل لم

---

(١) الشريف : دور الحجاز في الحياة السياسية ، ص ١٤٦ .

(٢) ابن كثير : خلافة أبي بكر ، ص ٨٣ .

(٣) البخاري : الصحيح ، جـ ٢ ، ص ٥٠٧ ، ٥٢٩ ، جـ ٦ ، ص ٢٥٣٨ ، ٢٦٥٧ ، ٢٦٨١ ، جـ ١ ، ص ١٧ ؛ مسلم : الصحيح ، جـ ١ ، ص ٥١ .

(٤) ابن كثير : خلافة أبي بكر ، ص ٨٣ ، راجع السيد عمر : الدور السياسي للصفوة ، ص ٢٥٧ .

(٥) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٢٤٦ .

(٦) الشريف : دور الحجاز في الحياة السياسية ، ص ١٤٦ .

تدخل في الإسلام إلا عن طريق زعمائها الذين وفدوا على النبي ﷺ وعقدوا معه محالفات(١)، ولذا فإن كثيراً من عرب الجزيرة البعيدين عن المدينة لم يدخلوا في هذا الدين أواخر حياة النبي ﷺ إلا بظاهر القول دون أن ينفذ الإيمان إلى قلوبهم ، قال تعالى: ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ (الحجرات، آية ١٤) ، فالرسول ﷺ بالرغم من أنه كان يبعث دعاة لتعليم الناس الإسلام إلا أن المدة كانت قصيرة ما بين اتصاله بهذه القبائل وبين وفاته ، فلم يمضِ من الزمن ما يكفي لأن يؤثر الدين فيهم(٢).

أسباب حركة الردة : لقد ربط كثير من المؤرخين القدامي والمحدثين حركة ارتداد العرب ، ومن ثم اضطراب الأوضاع في أنحاء الجزيرة كلها بموت النبي ﷺ ، مما يعني لديهم أن سبب تلك الحركة يعود إلى موته ﷺ . ولا شك أن وفاة النبي ﷺ كانت حدثاً فاعلاً في قيام العرب بردتهم إلا أن ذلك لا يعدو أن يكون سبباً مباشراً ، فحركة الردة بمقدماتها وأحداثها وتداعياتها ترجع في الحقيقة إلى أسباب عميقة أبعد من موت النبي ﷺ ، فنُذُر الردة ـ كما سبق ـ قد بدت ظاهرة في أواخر حياته . وهذه الأسباب كثيرة ومتنوعة ، ولا شك أن بعضها أشد أثراً من بعض في إشعال تلك الحركة ، لكننا نستطيع بلورتها في ثلاثة أسباب جوهرية(٣) هي :

---

(١) المرجع نفسه ، الصفحة نفسها .

(٢) المرجع نفسه ، ص ١٤٧ .

(٣) الشريف : دور الحجاز في الحياة السياسية ، ص ١٣٧-١٣٨ ؛ العمري : عصر الخلافة الراشدة ، ص ٣٦٠ .
اجتهد عدد من الكتاب المحدثين في الحديث عن أسباب الردة في مطلع عهد أبي بكر ﷺ ، فأطال بعضهم وأوجز آخرون ، ومن أبرز الذين وقفوا عندها وتوسعوا في شرحها الدكتور علي العتوم ، حيث ساق ثمانية أسباب هي :
(١) هول الصدمة بوفاة الرسول ﷺ .
(٢) رقة الدين والسقم في فهمه .
(٣) الحنين إلى الجاهلية ومقارفة موبقاتها .
(٤) التفلت من النظام والخروج على السلطة الشرعية .
(٥) العصبية القبلية .
(٦) الطمع في الملك .
(٧) التكسب بالدين والشح بالمال.
(٨) التحاسد (حركة الردة ، ص ١١١-١٣٧) . وانظر أسباب الردة عند (الأمين عوض الله : الخلفاء الراشدين ، ص ٣٨-٣٩ ؛ السيد عبد العزيز سالم : تاريخ الدولة العربية ، ص ٤٣٤-٤٤١)

أولاً ـ عدم نفاذ سلطان الإسلام في كافة نواحي الجزيرة : لقد كان نفوذ الدين قوياً في الحجاز ، لأن النبي ﷺ عاش بنفسه في هذه المنطقة ، فاتصل بأهلها اتصالاً مباشراً ، فرأوه وأخذوا عنه أخذاً مباشراً ، أو أخذوا عن أصحابه ممن رآه وخالطه وصاحبه .

أما إذا اتجهنا إلى المناطق الأخرى فإننا نجد سلطان الإسلام ونفوذه يقل فيها تدريجياً بصورة عامة كلما ابتعدنا عن الحجاز ، فلم يتصل بها النبي ﷺ مباشرة ، وإنما اتصل بأهلها عن طريق دعاته ، أو بواسطة من وفد عليه من رؤسائها وشيوخ قبائلها ، فهو ﷺ لم يرحل بنفسه ويعش بين ظهراني أهل تلك المناطق البعيدة حتى يتأثروا به تأثر من رآه وسمعه(١) .

ثانياً ـ وجود العصبية القبلية القوية لدى القبائل العربية : ظلت العصبية القبلية تفرض نفسها بين العرب في الجزيرة ، وكانت من القوة بحيث كان لها السلطان الأكبر في حياتهم ، فظل ولاء الفرد لعشيرته وقبيلته أقوى من ولائه لأي شيء آخر ، وبقيت القبيلة تمثل الوحدة السياسية في نظر أبنائها .

وإذا كانت قوة المسلمين استطاعت أن ترغم كثيراً من القبائل في الحجاز والمناطق المجاورة من نجد على الإذعان بالطاعة فإن ذلك كان في حقيقته إسمياً ، فهذه القبائل لم يكن من السهولة أن تتخلى عن سيادتها ، ولذا ظل المسلمون يواصلون الإغارة عليها منذ قيام الدولة الإسلامية في المدينة إلى أواخر حياة الرسول ﷺ .

ولما أحست القبائل العربية بضعفها أمام بأس المسلمين ، لا سيما في غزوة تبوك سنة ٩ هـ التي احتشد فيها تحت راية واحدة أكبر تجمع عسكري شهدته الجزيرة خلال تاريخها الطويل ـ رأت أن من الخير لها أن توفد بعوثها إلى المدينة للتفاهم مع النبي ﷺ.

ولم تكن الشروط التي يفرضها ﷺ ثقيلة ولا صارمة ، فهي لا تزيد عن اتباع فرائض الإسلام ، ولكن الصعوبة التي مثلت أمام تلك القبائل هي الزكاة ، ولم تأتِ صعوبتها من ناحية كونها عبئاً مالياً بقدر ما كانت تعني في نظرها دليلاً على الخضوع ، ولذا كانت تتبرم بها ، أما ما عدا ذلك فإن رؤساء القبائل كانوا يعودون بعد زيارتهم

---

(١) الشريف : دور الحجاز في الحياة السياسية ، ص ١٣٨ .

للمدينة دون أن يفقدوا من استقلالهم شيئاً[١].

ثالثاً .الإعجاب بالنبي ﷺ و تقمص بعض الأشخاص شخصيته ومحاكاة أسلوبه بالدعوة والعمل للوصول إلى مكانته وسلطانه : فرضت شخصية الرسول ﷺ على العرب الإعجاب به والمهابة له[٢]، وأصبح ما وصل إليه من نفوذ وسلطان موضع تقدير وإجلال واحترام وفي الوقت نفسه مثار غِيرة وحسد لكثير من أصحاب الطموح في أنحاء الجزيرة العربية ممن كانوا يحسون بأن وراءهم عصبيات قوية يستطيعون الاعتماد على قوتها ، وقد سعى هؤلاء للوصول إلى شيء مما وصل إليه ، فتوهموا في سذاجة أنهم يستطيعون انتحال الصفة التي أوصلت النبي ﷺ إلى تلك المكانة الرفيعة ، فأعلن عدد من الأشخاص أنهم أنبياء مثل محمد ﷺ ، وأنه يتنزل عليهم الوحي مثل ما يتنزل عليه ، ولم يقتصر الأمر على الرجال ، وإنما شارك في هذا بعض النساء[٣]، حتى قال قائلهم :

أمستْ نبيتُنا أنثى نُطيفُ بها   وأصبحتْ أنبياءُ الناسِ ذُكْرَانا[٤]

وقد ساندتهم عصبياتهم ربما عن غير اقتناع بهم ، ولكن عصبية لهم ورغبة في الوصول إلى السيادة والملك مثلما حصل لقريش .

وإذا تأملنا في حال هؤلاء المتنبئين وجدنا أنهم تركزوا في مضارب القبائل الكبرى ، أو في المناطق التي شهدت من قبل ملكاً ورياسة ، حيث أعلن ثلاثة من أولئك دعواهم في أواخر حياة الرسول ﷺ كما سبق ذكره ، فظهر الأسود العنسي في مذحج باليمن[٥]، ومسيلمة بن حبيب في بني حنيفة باليمامة[٦]، وطليحة بن خويلد في بني أسد

---

(١) المرجع نفسه ،ص ١٣٨-١٤٠ . جون باجوت غلوب : الفتوحات العربية الكبرى ، تعريب خيري حماد ، ص١٨٠، ١٨١ .

(٢) غلوب : الفتوحات العربية الكبرى ، ص ١٨١ .

(٣) الشريف : دور الحجاز في الحياة السياسية ، ص ١٤٠ .

(٤) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٢٧٤ .

(٥) لمعرفة أخبار الأسود راجع البلاذري : فتوح البلدان ، ق ١ ، ص ١٢٥-١٢٧ ؛ الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ١٨٥ ؛ ابن حبيش : الغزوات الضامنة الكاملة والفتوح الجامعة الحافلة الكائنة في أيام الخلفاء الأول الثلاثة ، جـ١ ، ص ١٢٤-١٢٥ ؛ ابن الأثير : الكامل ، جـ ٢ ، ص ٣٣٦-٣٤٨ ؛ ابن كثير : خلافة أبي بكر ، ص ٩٣-٩٨ ؛ العتوم : حركة الردة ، ص ٦٧-٧٠ ، شوقي أبو خليل : حروب الردة ، ص ١٣٨-١٤٦.

(٦) للاطلاع على أخبار مسيلمة انظر الواقدي : الردة ، ص ١١١-١١٢ ؛ الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ١٣٧ ، ١٤٦ ، ٢٨٢-٢٨٦ ، ٢٩٥ ؛ ابن حبيش : غزوات ابن حبيش ، جـ١ ، ص ٥١ ، ٥٤-٥٧ ؛ الكلاعي: الإكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء ، جـ ٣ ، ص ٤٠ ، ٤١ ؛ العتوم : حركة الردة ، ص ٧٠-٧٦ ، شوقي أبو خليل : حروب الردة ، ص ٧٢-٧٧ ، ١٠٢-١٠٦ .

بأعالي نجد[١]، ثم قلدهم غيرهم بعد وفاته ﷺ ، فتنبأ ذو التاج لقيط بن مالك في الأزد بعُمان[٢]، وسَجَاح بنت الحارث التميمية في الجزيرة الفراتية[٣].

ولأن قبائل هؤلاء المتنبئين كانت تمثل كتلاً كبيرة ، وتتطلع كلٍ منها للزعامة السياسية فإنها لم تكن تري لقريش فضلاً عليها إلا بالنبوة ، وبناءً على ذلك فإن كل قبيلة منها التَفتْ حول من تنبأ فيها للوصول إلى تلك الغاية ، فطلب الملك والزعامة نجده صريحاً في أذهان من ادعى النبوة ، فمسيلمة ـ مثلاً ـ يكتب للنبي ﷺ [٤].

ويقول « من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله ، سلام عليك ، فإني أُشركت في الأمر معك ، وإن لنا نصف الأرض ولقريش نصف الأرض ، ولكن قريشاً قوم يعتدون » [٥]، كما وردت مثل هذه الأقوال في كلام طليحة وسجاح والأسود .

كما أن غرض القبائل في التفافها حول هؤلاء المتنبئين كان ـ أيضاً ـ رغبة في الملك والزعامة[٦] ، فطلحة النمري ـ مثلاً ـ حينما ناقش مسيلمة قال له«أشهد أنك كذّاب ، وأن محمداً صادق ، ولكن كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر »[٧].

على أنه يلاحظ على هؤلاء المتنبئين أمران هما :

١ـ أنهم لم ينكروا رسالة النبي ﷺ ، بل هم يقلدونها ويعترفون بها اعترافاً صريحاً وضمنياً ، والاعتراف الصريح واضح ـ مثلاً ـ في كتاب مسيلمة إلى النبي ﷺ الذي أشرنا إليه آنفاً ، كما اتخذ له مؤذناً فيشهد في الأذان بأن محمداً رسول الله ، وأن مسيلمة رسول الله أيضاً ، كما أنه قلده فيما يسمع من أخباره . والشيء نفسه فعله طليحة ، حيث زعم

---

(١) للاطلاع على أخبار طليحة انظر الواقدي : الردة ، ص ٨٧-٩٢ ؛ الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص١٨٦ ، ٢٦٠-٢٦١ ؛ العتوم : حركة الردة ، ص ٧٦-٧٨ .
(٢) للاطلاع على أخبار ذي التاج انظر الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٣١٤ ؛ ابن كثير : خلافة أبي بكر ، ص ١٢١ .
(٣) للاطلاع على أخبار سجاح انظر الواقدي : الردة ، ص ١١١-١١٢ ؛ الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٢٦٩-٢٧٥ ؛ ابن حبيش : غزوات ابن حبيش ، جـ١ ، ص ٥٦ ، ٥٧ ؛ ابن الأثير : الكامل ، جـ ٢ ، ص٣٥٤-٣٥٧ ؛ ابن كثير : خلافة أبي بكر ، ص ١٠٦-١٠٧ ؛ شوقي أبو خليل : حروب الردة ، ص ٦٢-٦٧ .
(٤) الشريف : دور الحجاز في الحياة السياسية ، ص ١٤١-١٤٢ .
(٥) ابن هشام : السيرة النبوية ، جـ ٤ ، ص ٣٢٩ ؛ الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ١٤٦ .
(٦) الشريف : دور الحجاز في الحياة السياسية ، ص ١٤٣ .
(٧) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٢٨٦ .

أن جبريل عليه السلام يأتيه بالوحي كما يأتي الرسول ﷺ ، كما فرض الصلاة على أتباعه ولكنه أعفاهم من السجود فيها [١] .

٢ـ أن هؤلاء المتنبئين لم يقل أحد منهم بالرجوع إلى أديان العرب القديمة ، فلم يعد للوثنية مكان بعد أن حطم الإسلام مراكزها ، وكسر أصنامها [٢] .

القضاء على المرتدين مباشرة أبي بكر رضي الله عنه لقتال المرتدين بنفسه :

بينما كان جيش أسامة بن زيد رضي الله عنه في طريقه إلى الشام كانت الردة منتشرة في أرجاء الجزيرة العربية ، وقد بعثت القبائل القريبة من المدينة كعبس وذبيان ومن انضم إليهم من بني كنانة ومن فزارة وغيرهم ـ بعثت جموعاً منها أقامت حول المدينة في الوقت التي أرسلت فيه وفودها إلى أبي بكر رضي الله عنه تفاوض في الامتناع عن دفع الزكاة . وحينما صمم أبو بكر رضي الله عنه على قتال مانعيها ، ووافقه الصحابة عادت تلك الوفود بعد أن رصدت عورات المدينة ، ورأت قلة المسلمين فيها عقب سفر بعث أسامة رضي الله عنه ، ولذا توقع أبو بكر رضي الله عنه أن يهاجم المرتدون المدينة في أي لحظة من ليل أو نهار ، فدعا المسلمين للاستعداد الدائم ، كما أقام نفراً من الصحابة على مداخل المدينة لإنذار الناس في حالة قدوم المهاجمين ، وصدق حدس أبي بكر رضي الله عنه ؛ فلم تلبث جموع مانعي الزكاة إلا ثلاثاً حتى زحفت على المدينة ، فأنذر بهم الحرس ، فخرج أبو بكر رضي الله عنه بالمسلمين بسرعة نحوهم ، فانهزم المغيرون ، وولوا الأدبار ، فطاردهم حتى ذي الحسى الذي كان هؤلاء المغيرون قد اتخذوه قاعدة لهم . وحيث أن المسلمين لم يستأصلوا تماماً شأفة المهاجمين فقد نهد إليهم أبو بكر رضي الله عنه بجيشه في أواخر الليل ، ولم يأتِ إلا وكان العدو قد انهزم ، فاستمر الجيش الإسلامي بملاحقة الفلول المنهزمة إلى ذي القَصَّة[٣] على بعد ٣٥ كم شرق المدينة[٤] .

---

(١) الشريف : دور الحجاز في الحياة السياسية ، ص ١٤٤ ؛ السيد عمر : الدور السياسي للصفوة ، ص ٢٠ .

(٢) الشريف : دور الحجاز في الحياة السياسية ، ص ١٤٤ .

(٣) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٢٤٤- ٢٤٦ ؛ ابن الأثير : الكامل ، جـ ٢ ، ص ٣٤٤- ٣٤٥ ؛ ابن كثير : خلافة أبي بكر ، ص ٨٦ - ٨٧ .

(٤) محمود شاكر : التاريخ الإسلامي ، جـ ٣ ، ص ٦٤ حاشية ٤ ؛ الشريف : دور الحجاز في الحياة السياسية ، ص ١٥٣ .

على أثر هذه الانتصارات هرع المسلمون في جمع من القبائل يؤدون الزكاة لأبي بكر ﷺ ، ويرجون عنده النصرة ، وقد عاد جيش أسامة ، واشتد بعودته ساعد الحكومة الإسلامية ، وبينما ترك أبو بكر ﷺ أفراد الجيش العائد يستريحون من وعثاء السفر ، وفي الوقت عينه يحمون المدينة ـ خرج هو في الناس ، وباغت عبساً وذبيان وبني بكر فأجلاهم عن مواقعهم ، وبذلك أصبحت المدينة في أمن من أعدائها [(١)] .

توزيع أبي بكر ﷺ الألوية لجهاد المرتدين[(٢)]: ولما أراح أسامة ﷺ وجنده ظهورهم ، وانهزم مانعو الزكاة من القبائل القريبة من المدينة ، بدأ الخليفة أبو بكر ﷺ يرتب لقتال المرتدين حرباً عامة في كل مكان ، فخرج إلى ذي القصة ، فوزع الجند أحد عشر لواءً ، جعل على كل لواء منها قائداً.

فاللواء الأول: بقيادة خالد بن الوليد ، ويتوجه لقتال طليحة بن خويلد في بني أسد ومن لف لفهم ، فإذا فرغ سار إلى مالك بن نويرة زعيم بني تميم في البطاح .

والثاني: تحت قيادة عكرمة بن أبي جهل ويسير نحو مسيلمة الكذاب في اليمامة ، ويعاونه في ذلك صاحب اللواء الثالث شرحبيل بن حسنة .

أما الرابع: فكان تحت إمرة المهاجر بن أبي أمية ووجهته إلى المرتدين في اليمن .

والخامس: قاده العلاء بن الحضرمي لقتال مرتدي البحرين .

والسادس: وعليه حذيفة بن مِحْصَن يتوجه لقتال ذي التاج المتنبيء في عمان .

والسابع: بقيادة عرفجة بن هرثمة كانت وجهته إلى مهرة .

والثامن: يقوده سويد بن مُقَرِّن نحو تهامة اليمن .

---

(١) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٢٤٧-٢٤٨ ؛ ابن الأثير : الكامل ، جـ ٢ ، ص ٣٤٥ .

(٢) بعد أن ساق السيد عمر عدداً من الإجراءات السياسية التي استخدمها أبو بكر ﷺ لمعالجة حركات المرتدين قال «وأخيراً فإن المعالجة السالفة تظهر أن السياسية هي التي سوت معظم جوانب أزمة الردة ، وأن الحرب كانت إجراءً ثانوياً محدوداً للغاية ، بحيث لا يصدق وضع عنوان لمعالجة الصفوة بقيادة أبي بكر على نحو ما جرى عليه العرف من إطلاق (حرب الردة) عليها ، والأرجح في ضوء كل ما سبق تسميتها (جهاد أهل الردة) أو (التسوية السياسية لأزمة الردة) ، فلم يكن الأمر يعدو استخدام مجموعة من الإجراءات تصل إلى الحرب عند الضرورة ... فجهاد الردة في الواقع يمثل استراتيجية شاملة تضمنت التحرك عبر محاور سياسية ونفسية واقتصادية على المستويين الفردي والجماعي لتحقيق هدف سياسي يتمثل في حفظ الدين وحفظ وحدة الصف الإسلامي تماماً كما كان الحال في حياة الرسول » (الدور السياسي للصفوة ، ص ٢٧٤-٢٧٥) .

وطريفة بن حاجز صاحب اللواء التاسع يتجه إلى بني سليم ومن معهم من هوازن .

ومن الملاحظ أن كل هذه الألوية قد اتجهت إلى الشرق وإلى الجنوب من المدينة أما الشمال فقد وجه إليه الصديق لوائين على أحدهما عمرو بن العاص إلى قضاعة ، والآخر عليه خالد بن سعيد إلى مشارف الشام(١) .

وقد يبدو لأول وهلة أن في توزيع أبي بكر ﷺ لجيشه على أحد عشر لواءً ـ أن فيه بعثرة لقوة المسلمين أمام المرتدين ، لكن المتأمل في أحوال أولئك المرتدين يجدهم ـ على كثرتهم ـ قوى صغيرة متفرقة غير متعاونة مع بعضها بعضاً ، فضلاً عن أن ثمة جماعات في أوساطهم بقيت على إسلامها ، فأبو بكر ﷺ في توزيع جيشه على تلك الألوية أراد أن يُطْبِق على المرتدين في الجزيرة العربية في وقت واحد ، وأن يسارع في مواجهتهم قبل أن يستفحل خطرهم ، وتشتد سواعدهم ، ويتطلعوا إلى التحالف فيما بينهم ، أو يطلبوا المساعدة مع قوى خارجية .

ولقد جعل الخليفة هذه الألوية تتناسب في قوتها مع قوة من وُجهت إليه ، كما زود كل قائد بنسخة من كتاب يُتلى على أهل المناطق المرتدة يعلنهم بالإسلام ، ويدعوهم إليه ، فمن أجاب قُبل منه وكُف عنه ، ومن أبى قوتل أعنف قتال ، وجعل العلامة الأذان . كما أصدر أمره إلى القادة جميعاً بأن يستنفروا من يمرون بهم من المسلمين(٢)، وقد سبق أن أشرنا أن هناك جموعاً من الناس ظلوا متمسكين بدينهم في عدد من مناطق الجزيرة .

القضاء على حركة طليحة الأسدي : سارت هذه القوات تجاه غاياتها بعزم شديد ، فتوجه خالد بن الوليد ﷺ إلى طليحة الأسدي الذي كان قد ادعى النبوة ـ كما سبق ـ في قبيلته أسد واجتمعت عليه معها غطفان وطيء ، واتخذ سَمِيراء مركزاً له ، وكان قد بعث أخاه حِبال للهجوم على المدينة مع عبس وذبيان وغيرهما ، فلما هزمها أبو بكر ﷺ

---

(١) ابن كثير : خلافة ابي بكر ، ص ٨٩-٩٠.

(٢) الشريف : دور الحجاز في الحياة السياسية ، ص ١٥٥ .

وقتل حبال هذا انحازت هذه القبائل إلى طليحة ، فانسحب بهم من سميراء إلى بُزَاخة[١] .

ولذا فإن خالد بن الوليد ﷺ قصد بزاخة ، ولكنه في الطريق إليها تظاهر بالتوجه إلى خيبر لارباك طليحة ، ثم لإعطاء عدي بن حاتم ﷺ فرصة التخذيل عنه في قبيلته طيء ، وقد نجح عدي ﷺ في مهمته حتى لحق بالمسلمين ألف راكب عادوا إلى الإسلام ، وقبل اللقاء بطليحة بعث خالد ﷺ عكاشة بن محصن ﷺ وثابت بن أقرم ﷺ طليعة فقتلهما طليحة ، ومن مضارب طيء تحرك خالد ﷺ بجيشه ، واشتبك مع جيش طليحة في بزاخة ، فاقتتل الفريقان قتالاً شديداً .

ويقال إن عيينة بن حصن الفزاري الذي كان من أكبر أتباع طليحة صار يتردد عليه خلال المعركة ، ويسأله إن كان جبريل ﷺ أتاه ! فيرد عليه بالنفي ، وفي الأخير زعم أن جبريل ﷺ قال له « إن لك رحاً كرحاه ، وحديثاً لا تنساه ، فقال عيينة : قد علم الله أنه سيكون حديث لا تنساه ، انصرفوا يا بني فزارة فإنه كذاب»، فانصرفوا وانهزم الناس ، وفر طليحة على فرسه وحمل معه امرأته ، ولحق بالشام[٢] .

أما القبائل المنهزمة معه فما لبثت أن عادت إلى الطاعة معلنة الإسلام ، ثم إن طليحة نفسه أسلم بعد ذلك من جديد[٣] .

القضاء على حركة مالك بن نويرة : توجه خالد بن الوليد ﷺ بعد ذلك كما أمره أبو بكر ﷺ إلى البُطاح [أعالي نجد] ، حيث يقيم مالك بن نويرة زعيم بني تميم الذي كان قد امتنع عن دفع الزكاة لأبي بكر ﷺ ، ثم صانع مدعية النبوة سجاح قبل اتصالها بمسيلمة الكذاب ، ثم ندم على ذلك بعد عودتها إلى بلادها الجزيرة الفراتية .

فلما وصل خالد ﷺ بجيشه البُطاح استقبله أمراء بني تميم بالسمع والطاعة ، وبذلوا زكواتهم له إلا ما كان من ابن نويرة الذي بقي متخفياً عن الأنظار حتى عثرت عليه سرايا المسلمين ، فأسرته ومن معه وقدمت به إلى خالد ﷺ ، «فأنبه على ما صدر منه من متابعة سَجاح ، وعلى منعه الزكاة ، وقال : ألم تعلم أنها قرينة الصلاة ؟ فقال مالك : إن

---

(١) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٢٤٤- ٢٤٨ .

(٢) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٢٥٣-٢٥٦ ؛ ابن الأثير : الكامل ، جـ ٢ ، ص ٣٤٦-٣٤٨ .

(٣) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٢٦١ ، ٢٦٢ ؛ ابن الأثير : الكامل ، جـ ٢ ، ص ٣٤٨ ، ٣٥٠ .

صاحبكم كان يزعم ذلك ، فقال : أهو صاحبنا وليس بصاحبك ؟ » ، ثم أمر ضرار بن الأزور بضرب عنقه[1] .

مسألة قتل خالد بن الوليد ﷺ لمالك بن نويرة وزواجه بامرأته : وقبل أن نتجاوز خبر مالك بن نويرة نشير إلى أن ثمة روايات عن بعض الإخباريين ساقتها المصادر القديمة ونقلتها كثير من المراجع الحديثة ـ تنال من خالد بن الوليد ﷺ عند معالجته لردة هذا الرجل ، ملخص ما اشتهر منها ما نقله الطبري[2] عن سيف بن عمر التميمي في أكثر من رواية .

أن خالداً ﷺ بث سراياه في البطاح ، وأمر بأن يؤتى بكل من لم يستجب ، فجاءت سرية بمالك بن نويرة ونفر من قومه ، وحين اختلف أفراد السرية فيهم ما بين قائل إنهم قد أَذَّنوا وَصَلوا وبين منكر لذلك أمر خالد ﷺ فحبسوا حتى يتحقق من حالهم .

وصادف أن كانت ليلة باردة فزادت برودة فنادى خالد ﷺ « أدفئوا أسراكم » ، وكانت كلمة أدفئوا في لغة كنانة أي اقتلوا ، فظن القوم أنه أراد القتل ـ وهو لم يرد إلا الدفء ـ فقتلوهم ، فقتل ضرار بن الأزور مالكاً .

وسمع خالد ﷺ جلبة وأصواتاً فخرج وقد فرغوا منهم ، فقال : إذا أراد الله أمراً أصابه ، ثم ما لبث خالد ﷺ أن تزوج أم تميم امرأة مالك بعد طهرها.

وكان أبو قتادة الأنصاري ﷺ أحد أفراد السرية الذين شهدوا بأن أصحاب مالك أذنوا وصلوا فتلاحى مع خالد ﷺ في قتلهم ، فقدم إلى أبي بكر ﷺ بالخبر .

فقال عمر ﷺ لأبي بكر ﷺ إن في سيف خالد رهقاً ، فقال « هيه يا عمر ! تأول فأخطأ ، فارفع لسانك عن خالد ، وودى مالكاً وكتب إلى خالد أن يقدم عليه ، ففعل ، فأخبره خبره فعذره وقَبِلَ منه»، في رواية أخرى لسيف أن أبا بكر ﷺ رد على عمر ﷺ بقوله « لم أكن لأشيم سيفاً سله الله على الكافرين».

---

(١) ابن كثير : خلافة أبي بكر ، ص ١٠٦ ، ص ١٠٨- ١٠٩ .

(٢) تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٢٧٧- ٢٧٩ . ونقل روايات سيف أبو الفرج الأصفهاني : الأغاني ، جـ ١٥ ، ص ٣٠٠-٣٠٢ .

الرد على هذا الخبر أنه من رواية سيف بن عمر التميمي[1] (ت حوالي ١٨٠ هـ) ، فإذا كان يعتمد على سيف في التاريخ فإنه لا يعول عليه في الحديث ، يقول عنه ابن حجر « ضعيف في الحديث ، عمدة في التاريخ » .

والقاعدة المعروفة عند المحققين أنه لا بأس من الاعتماد على الروايات التاريخية الضعيفة في أخبار الصدر الأول إذا كانت مقبولة حسب منهج البحث التاريخي ما لم تتناقض مع شيء مما يتصل بالعقيدة أو بأحكام الشريعة .

أما إذا ما ورد في ثناياها ما يمس شيئاً من ذلك فإنها لا يؤخذ بها ، ولا يعتمد عليها.

وبالنظر في الخبر الذي نحن بصدد مناقشة صحته مما رواه سيف سواء في سياقه المذكور آنفاً ، أو مما لم نستعرضه ـ نراه يتضمن قدحاً بخالد ﷺ[2] وبأبي بكر ﷺ أيضاً ـ وهذا ما سيتضح لنا بشكل أوسع بعد قليل ـ والقدح بمثل هؤلاء الصحابة يخل بالعقيدة كما هو مقرر في أصول أهل السنة والجماعة . ومن جانب آخر فإننا لا نستبعد أن يكون

---

(١) وسيف بن عمر التميمي (ت. حوالي سنة ١٨٠ هـ)صاحب كتاب الردة والفتوح وغيره ، تكلم فيه أهل الحديث ، وحكموا عليه بالضعف (المزي : تهذيب الكمال في أسماء الرجال ، جـ ١٢ ، ص ٣٢٤-٣٢٦) أما اتهامه بالزندقة فلا دليل عليه (ابن حجر : تقريب التهذيب ، ص ٤٢٨) أما ما لوحظ عليه في مواضع قليلة من تناول لبعض الصحابة فيرجح أن سببه يعود إلى شيوخ سيف الذين روى عنهم ، حيث أنه تتلمذ على عدد من الرواة ذوي العقائد الفاسدة الذين لا يقيمون للصحابة حرمة (الغيث : استشهاد عثمان ﷺ ، ص ٣٤) .

(٢) ومما روي من الأخبار الساقطة ما رواه الواقدي في قصة قتل مالك بن نويرة أنه نظر إلى امرأته حين أراد خالد ﷺ قتله وقال « يا خالد ! بهذا تقتلني»(كتاب الردة ، ص ١٠٧) والواقدي انعقد الإجماع « على أنه ليس بحجة ، وأن حديثه في عداد الواهي » (الذهبي : سير أعلام النبلاء ، جـ ٩ ، ص ٤٦٩) ومن الغريب أن ينقل ما رواه الواقدي في هذه القصة أو معناه بعض العلماء دون تعقيب (الذهبي : عهد الخلفاء الراشدين ، ص٣٤ ؛ ابن حجر: الإصابة ، جـ ٥ ، ص ٧٥٦) ومما زاده أبو الفرج الأصبهاني عند حديثه عن زواج خالد ﷺ بأرملة مالك قوله « وقد كان يقال إنه يهواها في الجاهلية ! ، واتهم لذلك أنه قتله مسلماً ليتزوج امرأته بعده !! » (الأغاني ، جـ ١٥ ، ص ٢٩٨) بل إن الكاتب الرافضي ابن المطهر الحلي اتهم خالداً بزواجه من أرملة مالك ليلة قتله (ابن تيمية : منهاج السنة ، جـ ٥ ، ص ٥١٤) لكن الحقيقة من مجموع الروايات تدل على أن امرأة مالك أخذت سبياً ، حيث أن خالداً ﷺ ـ كما يقول ابن تيمية ـ «قتل مالك بن نويرة لأنه رآه مرتداً ، فإذا كان لم يدخل بامرأته فلا عدة عليها عند عامة العلماء ، وإن كان قد دخل بها فإنه يجب عليها استبراء بحيضة ، لا بعدة كاملة في أحد قوليهم ، وفي الآخر بثلاث حيض ، وإن كان كافراً أصلياً فليس على امرأته عدة وفاة في أحد قوليهم ، وإذا كان الواجب استبراء بحيضة ، فقد تكون حاضت ، ومن الفقهاء من يجعل بعض الحيضة استبراء ، فإذا كانت في آخر الحيض جعل ذلك استبراء لدلالته على براءة الرحم » (منهاج السنة ، جـ ٥ ، ص ٥٢٠) .

لانتماء سيف إلى قبيلة تميم أثر في مادة هذا الخبر ، فمالك بن نويرة زعيم من زعماء تميم ، وسيف أخذ أخباره من رجال قبيلته الذين تناقلوها خلفاً عن سلف ، فلا يؤمن أن تكون العصبية فعلت فعلها في إضفاء شيء من الزيادات والمحسنات على خبر مالك مع خالد ﷺ ، فنقلها سيف كما سمعها دون تمحيص[١] . هذا ما يتعلق بالراوي .

أما ما يتصل بنص الرواية نفسها فيلاحظ في ألفاظها ومطاويها الصناعة المتكلفة ، والتلفيق المتعمد ، فهي أشبه أن تكون « من خيالات الأدباء وفكاهاتهم »[٢]، وبطلانها ظاهر من أولها ، فهي تبدأ بأن السرية التي قبضت على مالك وأصحابه اختلفت بين مثبت ومنكر أنهم أذنوا وصلوا [٣].

ومعلوم أن قضية مالك بن نويرة كانت محددة لخالد ﷺ منذ أن وجهه أبو بكر ﷺ إليه ، فهو ممن منع الزكاة وتعاون مع سَجاح مدعية النبوة ، فقضيته أخص من يطبق

---

(١) من روايات سيف المنكرة في حديثه عن ردة مالك بن نويرة أن جند خالد ﷺ جعل رؤوس القتلى أثافي لقدورهم ، وأن رأس مالك كان كثيف الشعر ، فنضج ما في القدر قبل أن تصل النار بشرة رأسه (الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٢٧٩) وقد روى قريباً من هذه الرواية محمد بن إسحاق والزبير بن بكار عن محمد بن فليح عن موسى بن عقبة عن ابن شهاب الزهري (ابو الفرج الأصبهاني : الأغاني ، جـ ١٥ ، ص ٣٠٣ ؛ ابن حجر : الإصابة ، جـ ٥ ، ص ٧٥٦) وهي من مقطوعات الزهري كما ترى ، ومراسيله شبه الريح عند يحيى بن سعيد بن القطان وغيره ، ولم يصح سماع ابن عقبة منه ، ومحمد بن فليح ليس بثقة ، والزبير بن بكار كثير المناكير (محمد زاهد الكوثري : مقالات الكوثري ، ص ٤٠٥) .

(٢) أحمد شاكر : جمهرة مقالاته ، جمعها واعتنى بها عبد الرحمن بن عبد العزيز العقل ، جـ ١ ، ص ٢٤٤ . وانظر في نقد هذه الرواية الكوثري : مقالات الكوثري ، ص ٤٠٢-٤٠٣ ؛ صادق عرجون : خالد بن الوليد ، ص ١٥٢-١٦٠ . ويلاحظ أن نقد هؤلاء الثلاثة كلهم انصب على نص الرواية دون النظر في سندها .

(٣) وهناك رواية أوردها الطبري ملخصها أن أبا قتادة الأنصاري ﷺ كان ممن شهد لمالك بالإسلام ، وأن خالداً ﷺ كان يعتذر في قتل مالك « أنه قال له وهو يراجعه : ما أخال صاحبكم إلا وقد كان يقول كذا وكذا ، قال : أو ما تعده لك صاحباً » ، فتكلم عمر بن الخطاب ﷺ في قتل خالد ﷺ لمالك عند أبي بكر ﷺ فأكثر ، ولما قدم خالد ﷺ المدينة ودخل المسجد معتجراً بعمامة له قد غرز فيها أسهماً ـ قام إليه عمر ﷺ فانتزع الأسهم من رأسه فحطمها ، ثم قال «قتلت امرأ مسلماً ، ثم نزوت على امرأته ، والله لأرجمنك بأحجارك ، ولا يكلمه خالد بن الوليد ، ولا يظن إلا أن رأي أبي بكر على مثل رأي عمر فيه حتى دخل على أبي بكر ، فلما أن دخل عليه أخبره الخبر ، واعتذر إليه فعذره أبو بكر ، وتجاوز عنه ما كان في حربه تلك ... » (تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٢٧٩-٢٨٠) وسند هذه الرواية هو « حدثنا ابن حميد ، قال : حدثنا سلمة ، قال : حدثنا محمد بن إسحاق عن طلحة بن عبدالله بن عبدالرحمن بن أبي بكر الصديق » فهي منقطعة السند فراويها طلحة بن عبد الله من الطبقة الثالثة (ابن حجر : تقريب التهذيب ، ص ٤٦٤) فيكون بينه وبين الحادثة زمن طويل ، ثم إن ابن اسحاق لم يصرح بالتحديث عنه ، والذي يروي عنه ابن إسحاق هو محمد ولد طلحة هذا (المزي : تهذيب الكمال ، جـ ٢٥ ، ص٤١٣) .

عليها التوجيه العام القاضي بالكف عمن أذن وصلى .

ثم ما الذي جعل خالداً ﷺ يلجأ في أمره لتدفئة الأسرى من البرد ـ شفقة عليهم ورحمة بهم ـ إلى كلمة (أدفئوا) التي معناها عنده وعند رجاله القتل ؟

ثم هل كان خالد ﷺ يريد باستخدام هذه الكلمة أن يربك رجاله الذين هم أعرف الناس بلغته حتى يخطؤوا فيزهقوا أرواحاً بريئة دون حق ؟

أم هل أراد خالد ﷺ أن تكون المسألة أحاجي وألغازاً ؟

ثم لنا أن نتساءل هل يعقل أن تهون الدماء إلى هذه الدرجة عند خالد ﷺ ومن معه من المسلمين ـ وهم صفوة الأمة وأكثر الناس التزاماً بدين الله الذي يحرم قتل الأنفس إلا بالحق ؟

ثم شيء آخر في أواخر الرواية يتناقض مع ما ورد في أوائلها ، وهو قول أبي بكر ﷺ لعمر ﷺ ـ حسب ما جاء فيها ـ حينما كلمه في شأن خالد ﷺ « تأول فأخطأ» فهل يعد قتلهم بسبب كلمة أدفئوا من قبيل التأول ، أم أنه من قبيل القتل الخطأ ، أو إن شئت فقل من قبيل التشابه بالألفاظ ؟!

ثم إن تعبير الصديق ﷺ بـ « تأول » يحمل في معناه أن خالداً ﷺ ما قتل مالكاً إلا بعد مساءلة وتحقيق .

ثم لماذا ـ أن كان الحال كما ساقت الرواية ـ لماذا لم يعتذر خالد ﷺ لأبي بكر ﷺ ويبريء نفسه بعد أن قابله بأن قتلهم كان بسبب فَهْمِ رجالِه من كلمة أدفئوا أي اقتلوا ؟

وأخيراً فإن أبا بكر ﷺ أفضل هذه الأمة بعد نبيها ﷺ ، ومن أشد الناس قياماً بأحكام الله وشرعه فلا يمكن مهما كانت الأحوال أن يداهن أحداً على حساب دين الله ، فيستعين بخالد ﷺ وقد اقترف مثل هذا الفعل في مالك بن نويرة وأصحابه ، إذ المعروف أن أبا بكر ﷺ أمضى القيادة لخالد ﷺ بعد هذه الحادثة ، ولما انتهى من القضاء على المرتدين ولاه في العراق قيادة جيش المسلمين .

القضاء على حركة مسيلمة الكذاب : وبعد أن انتهى خالد بن الوليد ﷺ من مالك ابن نويرة كان عليه أن يتوجه إلى مسيلمة الكذاب في اليمامة الذي كان عكرمة بن أبي

جهل ﷺ قد سار إليه حسب خطة قتال المرتدين التي وضعها أبو بكر ﷺ ، واستعجل في قتاله ، فهزمه مسيلمة ، فقرعه أبو بكر ﷺ وكتب إليه « لا أرينك ولا تراني على حالها ، لا ترجع فتوهن الناس »[(١)]، وأمره أن يسير إلى قتال أهل عمان ومهرة .

سار خالد ﷺ إلى اليمامة بجموع المهاجرين والأنصار ، وكان مسيلمة قد استغلظ أمره ، وتجمع حوله حوالي أربعين ألف مقاتل ، وقبل وصول خالد ﷺ تعجل شرحبيل ابن حسنة ﷺ الذي كان قد بعثه أبو بكر ﷺ لمساعدة عكرمة ﷺ ـ تعجل في الهجوم على أهل اليمامة ، فهزم هو الآخر ، ولامه خالد ﷺ على فعله .

وحين بلغ مسيلمة اقتراب خالد ﷺ بجيشه ضرب معسكره في مكان يسمى عقرباء (في أعلى وادي حنيفة ، وتسمى اليوم الجبيلة) ، فاستعد العسكران للقتال ، ثم جرت بينهما معركة عنيفة لم يُسمع بأشد منها في حروب الردة ، فكان القتال سجالاً بين الطرفين ، وفيها تجلت قوة إيمان المسلمين ، وأبلوا فيها بلاء حسناً [(٢)].

ثم أعاد خالد ﷺ تنظيم جيشه وشد على مسيلمة وجنده حتى ألجأهم إلى حديقة هناك عرفت بحديقة الموت ، فأغلقوا على أنفسهم فيها ، فتقدم البراء بن مالك ﷺ ، وطلب من المسلمين أن يلقوه فيها من فوق الجدار ، فاقتحمها وقاتل حتى فتح الباب.

ودخل المسلمون وقاتلوا أشد قتال ، ولم يزالوا كذلك إلى أن قتل مسيلمة على يد وحشي مولى جبير بن مطعم[(٣)]، وقيل شاركه في قتله عبد الله بن زيد بن عاصم الأنصاري[(٤)].

وقد قدر القتلى من بني حنيفة قريباً من عشرة آلاف ، وقيل أكثر من عشرين

---

(١) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٢٨١ .

(٢) كان شعار المسلمين في هذه الوقعة « يا أصحاب سورة البقرة » (البلاذري : فتوح البلدان ، ق ١ ، ص ١٠٨)

(٣) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٢٨١ ، ٢٨٦-٢٩٧ ؛ ابن الأثير : الكامل ، جـ ٢ ، ص ٣٦٠-٣٦٥ .

(٤) خليفة بن خياط : تاريخه ، ص ١١٠ ؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء ، جـ ٢ ، ص ٣٧٧ . وقد ساق البلاذري عدة أقوال في تحديد قاتل مسيلمة ، قال « فبنو عامر بن لؤي بن غالب يقولون : قتله خداش بن بشير بن الأصم ... وبعض الأنصار يقولون : قتله عبد الله بن زيد بن ثعلبة أحد بني الحارث بن الخزرج ... وبعضهم يقول : قتله أبو دجانة ، سماك بن خرشة ، ثم استشهد ، وقال بعضهم : بل قتله عبد الله بن زيد بن عاصم أخو حبيب بن زيد ... من بني النجار ، وقد كان مسيلمة قطع يدي حبيب ورجليه ، وكان وحشي بن حرب الحبشي قاتل حمزة ﷺ يدعي قتله ، ويقول : قتلت خير الناس وشر الناس ، وقال قوم : إن هؤلاء جميعاً شركوا في قتله ، وكان معاوية بن أبي سفيان يَدعي أنه قتله ، ويدعي ذلك له بنو أمية » (فتوح البلدان ، ق ١ ، ص ١٠٧) .

ألفاً[(١)].

أما الذين استشهدوا من المسلمين فقد كانوا أربعمائة وخمسين رجلاً ، وقيل خمسمائة[(٢)]، وقيل ستمائة[(٣)]، نذكر منهم ثابت بن قيس[(٤)]، وزيد بن الخطاب ، وأبا حذيفة بن عتبة ومولاه سالم ، وأبا دجانة ، وعباد بن بشر ، والطفيل بن عمرو ، وعبد الله بن أبي بكر ، وعبد الله بن عبد الله بن أُبي بن سلول رضي الله عن الجميع وأرضاهم[(٥)]. وكانت وقعة اليمامة في أواخر سنة ١١ هـ وأوائل سنة ١٢ هـ[(٦)] . وبعد أن انتهت هذه الوقعة دعا خالد ﷺ بني حنيفة « إلى الإسلام ، والبراءة مما كانوا عليه ، فأسلم سائرهم»[(٧)].

القضاء على بقية المرتدين : وبجانب ما قام به خالد بن الوليد ﷺ من جهود في قمع حركة الردة فقد قام القادة الآخرون الذين وجههم أبو بكر ﷺ إلى بقية مناطق المرتدين ـ قاموا بمهامهم خير قيام ، فالعلاء الحضرمي ﷺ [(٨)] مكث شهراً يقاتل زعيم

---

(١) ابن كثير : خلافة أبي بكر ، ص ١١٤ .

(٢) خليفة بن خياط : تاريخه ، ص ١١١ .

(٣) ابن كثير : خلافة أبي بكر ، ص ١١٤ . ويذكر المسعودي أنه قتل من المسلمين (١٢٠٠) ألف ومئتا رجل (التنبيه والإشراف ، ص ٢٦٤ . أما الواقدي فيذكر أنهم كانوا ألفين ومائتي رجل (الردة ، ص ١٤٠)

(٤) وقد روي أنه لما استشهد ثابت بن قيس ﷺ كان عليه درع نفيسه ، فمر به أحدهم فأخذها ، فأتى ثابت ﷺ رجلاً من المسلمين في المنام ، فقال « إني أوصيك بوصية ، فإياك أن تقول هذا حلم ، فتضيعه ، إني لما قتلت أخذ درعي فلان ، ومنزله في أقصى الناس ، وعند خبائه فرس تستن ، وقد كفأ على الدرع برمة ، وفوقها رحل ، فائت خالداً فمره فليأخذها ، وليقل لأبي بكر إن علي من الدين كذا وكذا ، وفلان عتيق ، فاستيقظ الرجل فأتى خالداً فأخبره ، فبعث إلى الدرع فأتي بها ، وحدث أبا بكر برؤياه فأجاز وصيته » وقد قيل « ولا نعلم أحدا أجيزت وصيته بعد موته غير ثابت بن قيس ﷺ » (ابن عبد البر : الاستيعاب ، ق ١ ، ص ٦١ ؛ ابن حجر : الإصابة في تمييز الصحابة ، جـ١ ، ص ٣٩٥) .

(٥) خليفة بن خياط : تاريخه ، ص ١١١-١١٥ ؛ البلاذري : فتوح البلدان ، ق ١ ، ص ١٠٩-١١٠ ؛ ابن الأثير : الكامل ، جـ ٢ ، ص ٣٦٦-٣٦٧ . يقول خير الدين الزركلي (ت ١٣٩٦ هـ) « ولاتزال إلى اليوم آثار قبور الشهداء من الصحابة ظاهرة في قرية الجبيلة ، حيث كانت الواقعة ، وقد أكل السيل من أطرافها حتى أن الجالس في أسفل الوادي يرى على أرتفاع خمسة عشر متراً تقريباً داخل القبور ولحدها » (الأعلام ، جـ ٧ ، ص ٢٢٦) .

(٦) الذهبي : عهد الخلفاء ، ص ٤١ ؛ ابن كثير : خلافة أبي بكر ، ص ١١٥ .

(٧) الذهبي : عهد الخلفاء ، ص ٤٠ .

(٨) روي أنه في الطريق إلى البحرين ـ في الدهناء ـ نفرت أبل المسلمين التي عليها زادهم وشرابهم ، فشكى الناس إلى العلاء ﷺ فقال « أيها الناس ! لا تراعوا ، ألستم مسلمين ؟ ألستم في سبيل الله ؟ ألستم أنصار الله ؟ قالوا : بلى ، قال : فأبشروا ، فوالله لا يخذل الله من كان في مثل حالكم »، ثم لما صلى الصبح توجه إلى الله تعالى بالدعاء ومعه

الردة في البحرين الحطم بن ضبيعة ، وقد تمكن ـ بمساعدة الجارود بن المعلى العبدي سيد بني عبد القيس الذي كان قد ثبت على الإسلام وتمركز في مدينة جواثـى ـ تمكن من قتل الحطم وتشتيت أتباعه[١].

وبالنسبة لعكرمة بن أبي جهل ﷺ فإنه لما هـزم في اليمامـة ، وألحقـه أبـو بكـر ﷺ بعرفجة بن هرثمة المتجه إلى مهرة ، وحذيفة بن محصن المتجه إلى عمان ـ كما سبق ذكره ـ جعل القيادة لـه عليهما [٢]، فاستطاع عكرمة أن يقضي على لقيط بن مالـك المتـنبيء في عمان ، وذلك بالتعاون مع جيفر بن الجُلَنْدَا مـن ناحيـة ، وبمـدد بـني عبـد القـيس أهـل البحرين من ناحية أخرى ، ثم اتجه إلى مهرة فأخضعها [٣].

ثم سار عكرمة بعد هذا إلى اليمن وحضرموت لإخماد الردة فيهما مع القائد الموجه إلى هناك المهاجر بن أبي أمية . وكان اليمن قد وقعـت فيـه اضـطرابات بفعـل قـيس بـن يغوث وعمرو بن معديكرب اللذين ارتدا بعد وفـاة الرسـول ﷺ واتحـدا مـع بعـضهما ، وتعاونا مع أتباع الأسود العنسي .

فلما قدم عكرمة قام مع المهاجر بتطهير اليمن من المرتـدين ، وتمكنـا مـن القـبض على قيس وعمرو زعيمي الردة ، ثم بعثا بهما إلى الصديق ﷺ الذي اسـتتابهما ثـم عفـا عنهما [٤].

أما حضرموت فقد واجه الردة فيها أولاً عامل المسلمين زياد بن لبيـد ، ونجـح إلى حد كبير ، ثم أمده أبو بكر بالمهاجر ﷺ وعكرمة ﷺ لمواجهة كندة بزعامـة الأشـعث بـن قيس ، وقد تمكن المسلمون بعد معارك طويلة من هزيمتها وأسر زعيمهـا الأشـعث ، ثـم

المسلمون يدعون ، فأوجد الله لهم غديراً من الماء ، فأخذوا يشربون منه ، وعـادت إلـيهم أبلـهم . راجـع القـصة بالتفصيل في (ابن سعد : الطبقات ، جـ ٤ ، ص ٣٦٣ ، الطبري : تـاريخ الأمـم والملـوك ، جــ ٣ ، ص ٣٠٦-٣٠٨ ؛ ابن كثير : خلافة أبي بكر ، ص ١١٨- ١١٩) وللعلاء ﷺ كرامة أخرى في عبور البحر . انظر (ابن كثير: خلافة أبي بكر ، ص ١٢٠-١٢١) .

(١) البلاذري : فتوح البلدان ، ق ١ ، ص ١٠١-١٠٣ ؛ الطبري : تاريخ الأمم والملـوك ، جــ ٣ ، ص ٣٠٨- ٣٠٩ ؛ ابن الأثير : الكامل ، جـ ٢ ، ص ٣٦٨-٣٧٠ .

(٢) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٢٨١ .

(٣) البلاذري : فتوح البلدان ، ق ١ ، ص ٩٢-٩٣ ، الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جــ ٣ ، ص ٣١٥-٣١٧ ؛ ابـن الأثير : الكامل ، جـ ٢ ، ص ٣٧٢-٣٧٣ .

(٤) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٣٢٩-٣٣٠ ؛ ابن الأثير : الكامل ، جـ ٢ ، ص ٣٧٥- ٣٧٨ .

بُعث به إلى المدينة ، حيث أعلن رجوعه إلى الإسلام[١] .

هذه أهم المناطق التي وقعت فيها مواجهات قتالية حاسمة بين المسلمين والمرتدين . وعلى العموم فقد حققت جميع الألوية التي بعثها أبو بكر ﷺ أهدافها ، فقضت على حركات المتنبئين والمرتدين في بقاع الجزيرة بأجمعها ، وأعادت إلى الدولة الإسلامية سابق وحدتها .

ومن ناحية أخرى فقد استغرقت الردة وقمعها عاماً واحداً تقريباً[٢] ، وقد تمخض عن ذلك نتائج متعددة ، منها أن دولة الخلافة بقيادة الصديق ﷺ برهنت ـ من خلال هذه المحنة التي مر بها المسلمون ـ على رسوخ بنيانها ، وثبات أركانها ، وقوة بأسها .

ومنها أن المسلمين اكتسبوا فيها مزيداً من الخبرات القتالية ، والتدريبات العسكرية ، وقد برز خلالها قادة صار لهم أثر كبير في قيادة حركة الفتح الإسلامي فيما بعد[٣] .

ومن النتائج المهمة أن تحركات المسلمين العسكرية في أرجاء الجزيرة أفسحت الفرصة لهم لاستبراء الناس من الدين الوثني كما جاء في سورة التوبة ، حيث لم يتح لهم من قبل تطبيق مثل هذا الاستبراء[٤] .

ثالثاً ـ جمع القرآن الكريم : القرآن كتاب الله الذي يتعبد به المسلمون ، والدستور الذي تقوم عليه حياتهم ، ويستمدون منه ـ بجانب سنة الرسول ﷺ ـ أحكام دينهم ودنياهم ، والتمسك به مع السنة أمان من الزيغ ، وعصمة من الضلال ، ولذا فإن الأمر بجمعه من قبل أبي بكر الصديق ﷺ يعد عملاً جليلاً متميزاً حُفظ به بعد إرادة الله تعالى هذا الكتاب العزيز من التلف والضياع .

وقد كان السبب المباشر الذي دفع أبا بكر ﷺ إلى ذلك استشهاد عدد كبير من الصحابة الكرام في حروب الردة ، لاسيما في قتال مسيلمة الكذاب في اليمامة ، حيث

---

(١) البلاذري : فتوح البلدان ، ق ١ ، ص ١٢١ ؛ الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٣٣٣- ٣٣٩ ؛ ابن الأثير : الكامل ، جـ ٢ ، ص ٣٧٩-٣٨٢ .
(٢) غلوب : الفتوحات العربية ، ص ٢٠٧ ؛ الشريف : دور الحجاز في الحياة السياسية ، ص ١٥٧ .
(٣) العمري : عصر الخلافة الراشدة ، ص ٣٧٦ ، وانظر أحمد عادل كمال : الطريق إلى المدائن ، ص ١٨١ – ١٨٥ .
(٤) الشريف : دور الحجاز ، ص ١٥٦ – ١٥٧ .

جاءه عمر بن الخطاب ﷺ ـ كما ثبت في الصحيح وغيره ـ فقال لـه «إن القتل قد اسْتَحَرَّ [أي أشتد وكثر] يوم اليمامة بالناس ، وإني أخشى أن يستحر القتل بالقراء في المواطن فيذهب كثير من القرآن إلا أن تجمعوه ، وإنـي لأرى أن تجمع القـرآن » ، فتسـاءل أبـو بكـر ﷺ « كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ ؟ فقال عمر : هو والله خير » فلم يزل عمر ﷺ يراجع الصديق في هذا الأمر حتى شرح الله لـه صدره .

وعندئذ وقع اختياره على كاتب الوحي زيد بن ثابت ﷺ فاستدعاه واطلعـه على ما دار بينه وبين عمر ﷺ الذي كان جالساً عنده ، ثم قال لـه « إنك رجـل شـاب عاقـل ولا نتهمك كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ ، فتتبع القرآن فاجمعه»[١].

ومقولة أبي بكر هذه تكشف أسباب اختياره زيداً بالذات لجمع القـرآن ، فـصرح أنه تتوفر فيه صفات تؤهله للقيام بهذه المهمة خير قيام ؛ فهو في سن الشباب ، ويتـصف برجاحة العقل ، وكونه موثوقاً ، ناهيك عن كونه قـد حظـي بثقـة الـنبي ﷺ بإسـناده لـه كتابة الوحي ، بل بتميزه بملازمته للنبي ﷺ في ذلك أكثر من بقية كتاب الوحي . وعـلاوة على ذلك كان أحد الذين منَّ الله عليهم بحفظ كتابه كاملاً[٢].

ومن جانبه فقد استشعر زيد ﷺ ثقل المسؤولية الـتي كُلـف بهـا ، فقـال عـن أمـر الصديق له بذلك « فو الله لو كلفني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علي مما أمرنـي بـه من جمع القرآن » ، بل إنه فوق ذلك أبدى تحرجه من الإقدام على مثل هذا العمـل كمـا فعل أبو بكر من قبل ، فقـال لأبي بكـر وعـمـر «كيـف تفعـلان شـيئاً لم يفعلـه رسـول الله ﷺ؟ » ، فقال أبو بكر ﷺ لـه كما قال عمر ﷺ من قبل « هـو والله خـير»، فلـم يـزل يراجعه حتى شرح الله صدره للذي شرح الله لـه صدرهما[٣].

وحين وَافَق أَمَرَه أبو بكر ﷺ أن يقعـد مـع عمـر ﷺ علـى بـاب المـسجد ؛ فمـن جاءهما بشاهدين على شيء من كتـاب الله قـبلاه ، فأقبـل النـاس بمـا كـان معهـم وبمـا عندهم[٤].

---

(١) البخاري : الصحيح ، جـ ٤ ، ص ١٧٢٠ .

(٢) صفوان عدنان داوودي : زيد بن ثابت كاتب الوحي وجامع القرآن ، ص ٩٢ –٩٤ .

(٣) البخاري : الصحيح ، جـ ٤ ، ص ١٧٢٠ .

(٤) ابن حجر : فتح الباري ، جـ ٩ ، ص ١٤ ؛ اليحيى : الخلافة الراشدة ، ص ٢٠٩ ، ٢١٠ .

ثم أخذ زيد يتتبع القرآن يجمعه من الرقاع والأكتاف واللُخُاف [الحجارة الرقاق] والعسب وصدور الرجال حتى وجد الآيتين الأخيرتين من سورة التوبة مع خزيمة الأنصاري في رواية ، وخزيمة بن ثابت في رواية أخرى[(١)] .

مما سلف يتضح أن زيد بن ثابت ﷺ لا يثبت شيئاً من القرآن إلا بأمرين ؛ **أحدهما**: أن يكون مكتوباً بين يدي الرسول ﷺ ، ويشهد على ذلك شاهدان ، وهذا ما جمعه من الرقاع والأكتاف ... إلخ .

والآخر أن يكون محفوظاً عن ظهر قلب من جانب الصحابة ، وهذا ما ورد النص أنه جمعه من صدور الرجال ، فكان لا يكتفي بالحفظ دون الكتابة خشية أن يكون في الحفظ وهم أو خطأ[(٢)] .

ومن الحقائق التي ينبغي الانتباه إليها أن القرآن كان قد كتب جميعه في حياة النبي ﷺ على الأدوات المتيسرة في ذلك الزمن والتي مر ذكرها قبل قليل ، ولكنه لم يكن مجموعاً كله في موضع واحد .

ويرى بعض الكتاب أن مهمة زيد كانت جمع وثائق آيات الكتاب العزيز المسجلة بأمر الرسول ﷺ التي كانت متناثرة بين أناس كثيرين يحتفظون بها لأنفسهم ، وضم بعضها إلى بعض ، ثم تنسيقها وترتيبها ترتيباً يوافق المحفوظ في صدور الرجال ليكون من تلك الأصول المكتوبة مصحف واحد ، تحفظه الدولة[(٣)] .

مما يفهم أن زيداً ـ طبقاً لهذا الرأي ـ لم يقم بكتابة القرآن وقتذاك ، وينسخه بيده في مصحف واحد ، وإنما كان دوره فقط جمع تلك الأدوات التي كتب عليها القرآن ، ثم التنسيق والترتيب على حسب ما حفظه هو وبقية الحفظة من الصحابة . بيد أن هناك ما يفيد أن زيد بن ثابت ﷺ باشر بنفسه كتابة القرآن حينذاك ، وأخرج مصحفاً بخط يده ،

---

(١) البخاري : الصحيح ، جـ ٤ ، ص ١٧٢٠ – ١٧٢١ ، ١٩٠٧، جـ ٦ ، ٢٦٢٩ ؛ ابن حبان : صحيح ابن حبان ، جـ ١٠ ، ص ٣٦٠ ، الترمذي : السنن ، جـ ٥ ، ص ٢٨٣ .

(٢) صفوان عدنان داوودي : زيد بن ثابت كاتب الوحي وجامع القرآن ، ص ٩٦ . وانظر : ابن حجر : فتح الباري ، جـ ٩ ، ص ١٥ .

(٣) محمد الغزالي : نظرات في القرآن ، ص ٣٢ ، ٣٤ .

مثل قوله « فأمرني أبو بكر ، فكتبت في قطع الأديم والعسب »[١]، وكذلك ما ورد في الروايات من أن كتاب الله «جمع على عهد أبي بكر في الورق ، فكان أبو بكر أول من جمع القرآن في الصحف » .

ولا يمنع أن يكون زيد كتب نسخة من القرآن بالطريقة المار ذكرها حيث كتبها من المكتوب الموافق للمحفوظ[٢]، مع الاحتفاظ بالأصول التي تم جمعها من الناس ، وقد تيسر الحصول عليها بلا استثناء كما هو ظاهر في خبر أبي خزيمة أوخزيمة الأنصاري المشار إليه في أول الحديث ، إذ قال زيد « فتتبعت القرآن أجمعه ... حتى وجدت آخر سورة التوبة مع خزيمة الأنصاري لم أجدها مع أحد غيره »[٣].

والمراد بالنفي نفي وجودها مكتوبة ، لا نفي كونها محفوظة ، فهو مثلما تقدم لا يكتفي بالحفظ دون الكتابة[٤]. إضافة إلى ذلك لم يأتِ شيء من الأخبار يشير أدنى إشارة إلى التفريط فيها أو إتلافها ، بل على العكس جاء في بعض الروايات ما يفيد بالحفاظ عليها كقول زيد ﷺ « **وكانت الصحف عند أبي بكر حياته حتى توفاه الله عز وجل** »[٥]، فالصحف بإطلاق قد تعني المصحف الذي كتبه زيد في عهد أبي بكر ، وكذلك الأدوات المجموعة من الناس التي كان القرآن قد كتب عليها في حياة النبي ﷺ .

وفي الأخير نوضح أن كتابة القرآن وحدها لا تكفي في تعلمه وتعليمه ، ذاك أن ضبط الأداء كما جاء عن الرسول ﷺ نفسه لا يكون إلا مشافهة ، وهذا ما تظاهر المسلمون على حفظ القرآن به ، وإن جاءت الكتابة إلى جانبه سياجاً بعد سياج . وإذا كان استشهاد جماعة كبيرة من القراء أيام أبي بكر ﷺ لا يضر بالقرآن شيئاً في يومه القريب لأن حُفّاظه أربى من ذلك وأغزر إلا أن المعارك المتوقعة بين المسلمين وأعدائهم قد تظل مشتعلة الأوار عصراً بعد عصر ، وقد تكون مسارعة هؤلاء الحُفّاظ إلى خوضها سبباً في ضياع التواتر الذي انفرد به هذا القرآن ، ومن ثم يجب جمع القرآن المكتوب ،

(١) ابن حجر : فتح الباري ، جـ ٩ ، ص ١٦ ؛ اليحيى : الخلافة الراشدة ، ص ٢١١ .
(٢) ابن حجر : فتح الباري ، جـ ٩ ، ص ١٥ .
(٣) البخاري : الصحيح ، جـ ٤ ، ص ١٩٠٧ .
(٤) ابن حجر : فتح الباري ، جـ ٩ ، ص ١٥ .
(٥) البخاري : الصحيح ، جـ ٦ ، ص ٢٦٢٩ .

وإيداعه في حرز بيد الدولة تسكيناً لهذا الاحتمال ، وإن كانت الأيام لن تتمخض عنه ولا حتى اقتربت منه ، إذ الحُفّاظ لكتاب الله ـ على مر التاريخ ـ كلما حصدت المعارك منهم نفراً نبت مكانهم مثلهم أو أضعافهم[١].

رابعاً – الفتوحات الإسلامية في العراق والشام : كان للصديق ﷺ قصب السبق في الفتح المنظم خارج الجزيرة العربية ، فهو الذي بدأ بتوجيه الجيوش الإسلامية نحو العراق والشام لفتحهما فتحاً دائماً ، ومن ثم ضمهما إلى دولة الإسلام ، وقد اقتضى ذلك مواجهة دولتي الفرس والروم في آن واحد ، فتطلب منه جهوداً جبارة لحشد الحشود الكافية ، ووضع الخطط الفاعلة لتنفيذ هذا المشروع الطموح ، فهاتان الدولتان كانتا أكبر دولتين في عالم ذلك الزمان ، وكانت العرب تسميهما « الأسدين »[٢]، فكان لهما من الهيبة والسلطان ما يجعل الإقدام على الاشتباك مع أحدهما مخاطرة ، دع عنك الاشتباك معهما في وقت واحد .

وقفة حول دوافع المسلمين في الفتوحات خارج الجزيرة العربية : وقبل الخوض فيما حدث من فتوحات إبان عهد الصديق ﷺ نشير إلى أن عدداً من الكتاب والمؤرخين سواء من المسلمين أو من غير المسلمين اختلفوا في تعليلهم لدوافع المسلمين حينما خرجوا من جزيرتهم فاتحين لما يليهم من بلاد.

فمنهم من علل ذلك بالظروف الاقتصادية ، فليس الفتح عندهم إلا هجرة جماعية قام بها العرب إلى البلاد الخصيبة المجاورة بسبب ما حل بهم من جوع وحرمان .

وآخرون قالوا بأن الضرورة السياسية هي التي أملت على أبي بكر ﷺ أن يدفع بالقبائل العربية للمجال الخارجي لكي يقضي على روح التمرد لديها .

ومنهم من قال بأن خروج العرب من الجزيرة إنما كان لدوافع قومية وسياسية في المقام الأول ، فالحروب التي وقعت بينهم وبين دولتي الفرس والروم بدأت ـ حسب هذا الرأي ـ حرب تحرير قصد بها تحرير المناطق العربية الواقعة على تخوم تلك الدولتين ، ثم تحولت بعد انتصار العرب فيها إلى حرب شاملة تهدف إلى الدعوة للإسلام .

(١) الغزالي : نظرات في القرآن ، ص ٣٢ – ٣٣ .
(٢) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٣٦٥ .

وفريق رابع جنح إلى ما يمكن أن نسميه التفسير التبريري للفتح الإسلامي ، فالمسلمون ـ طبقاً لرأي هذا الفريق ـ استخدموا الهجوم على البلاد المجاورة للدفاع عن دولتهم أمام خصومها الأقوياء فتم لهم فتح تلك البلاد ، فحركة الفتح في نظرهم ذات صبغة دفاعية . ولقد طفق كل فريق من هؤلاء يدلل على صدق استنتاجه ، ووجاهة تفسيره بآراء عقلية ، أو روايات تاريخية ثانوية ، أو أحداث فردية خاصة .

إن هذه التعليلات التي جعلها هؤلاء المؤرخون والكتاب دوافعَ للفتح الإسلامي تبدو ضعيفة ومتهافتة أمام واقع تاريخ صدر الإسلام ، فسيرة الرسول ﷺ وسيرة أصحابه الذين طبقوا ما ورد في كتابهم وسنة رسولهم ﷺ تنقض تلك التعليلات . فالذي لاشك فيه أن الذي حرك المسلمين ودفعهم إلى المجال الخارجي إنما هو الاستجابة لنداء الجهاد في سبيل الله تعالى ، رغبة في إعلاء كلمة الله ، ونشر دينه بين الناس ، وهذه غاية سامية جاءت فرضيتها ، وكذلك الحض عليها في الكتاب والسنة ، فطبقها رسول الله ﷺ وبعده أصحابه ، فجاهدوا في سبيل الله بأنفسهم وأموالهم ، فلم تحركهم الظروف الاقتصادية كما قيل ؛ حيث لم يثبت حدوث تطورات اقتصادية جديدة في الجزيرة العربية عند ظهور الإسلام تُجبر على الهجرة ، وإذا كان بعض المقاتلين قد حفزتهم الغنائم على المشاركة في حركة الفتح فإن ذلك لا يمثل سوى مواقف فردية لا تعكس مطلقاً تفكير القيادة وعامة المجاهدين الذين حرصوا دائماً على هداية الناس في وقائع عديدة ولو فاتت عليهم الغنائم الكثيرة .

أما تفسير حركة الفتح الإسلامي بالتخلص من روح التمرد لدى بعض القبائل العربية فغير مقبول ، ويكفي للرد على ذلك القول بأن أبا بكر ﷺ الذي وجه الجيوش على الجبهتين الفارسية والرومية منع القبائل التي سبق ارتدادها من المشاركة في الفتح ، لأنها لا تصلح أن تمثل طلائع الفاتحين ، فهي في نظره لم تستكمل بعد مقومات الشخصية الإسلامية تصوراً وسلوكاً [1] .

ثم إن الفتح الإسلامي لم يأتِ ارتجالاً أو قفزة في هواء كما يقال ، أو استجابة

---

(١) راجع أكرم ضياء العمري : السيرة النبوية الصحيحة ، جـ ٢ ، ص ٣٤٠-٣٤٣ ؛ جميل عبد الله المصري : دواعي الفتوحات الإسلامية ودعاوى المستشرقين ، ص ٣٢-٣٨ ، ٥٥-٧٢ ، ٧٧-٨٩ .

لحماس عربي قومي مثلما قرر بعضهم ، أو استغلالاً تلقائياً لانتصارات غير متوقعة على الفرس والروم جاءت في بدايتها دفاعاً عن النفس ، وإنما كان وفق خطة مرسومة يستشعر القائمون على تنفيذها بأن واجبهم تبليغ رسالة الإسلام للناس كافة بلا تمييز بين جنس وآخر ، وتحطيم أي قوة تحول بينهم وبين ذلك ، وقد خرجوا يحدوهم النصر أو الشهادة وهم في الوقت عينه على ثقة تامة بما بشرهم به الصادق المصدوق ﷺ من الفتح والتمكين في الأرض في كثير من الأحاديث ، حتى روي عن أبي هريرة ﷺ قوله ((افتحوا ما بدا لكم فوالذي نفس أبي هريرة بيده ، ما افتتحتم من مدينة ولا تفتتحوها إلى يوم القيامة إلا أعطى الله سبحانه محمداً ﷺ مفاتيحها قبل ذلك))[١] .

ومن المفيد هنا الإشارة إلى أن نشر الدين الإسلامي خارج الجزيرة بدأ بدعوته ﷺ الملوك والأمراء وشيوخ القبائل المعاصرين ، ثم كان الجهاد العسكري في الأطراف الشمالية للجزيرة العربية ، حيث يمتد نفوذ الروم النصارى ، وبعد وفاته ﷺ أتم مسيرة الجهاد خلفاؤه رضي الله عنهم ، فواجهوا الروم والفرس المجوس ومن خلفهم من الأمم .

أ – الفتوحات الإسلامية في العراق (الجبهة الفارسية) : كان المثنى بن حارثة الشيباني يغير على الفرس في نواحي الكوفة وسوادها ، وهو مستمسك بالإسلام[٢]، فبلغت أخباره أبا بكر ﷺ ، فولاه على قومه ، وندبه لقتال الفرس[٣]، وقيل إن المبادرة كانت من المثنى نفسه ، حيث قدم المدينة وقابل أبا بكر شخصياً ، وسأله أن يوليه على قومه في جنوبي العراق ، ثم يأذن له بمقاتلة الفرس ، فحقق له الصديق ما أراد[٤] . فأخذ بالإغارة على أهل فارس وأرض السواد حولاً ، ثم بعث يطلب المدد ، فأشار عمر ابن الخطاب ﷺ على الخليفة أن يوجه إليه خالد بن الوليد ﷺ الذي كان قد فرغ من أمر الردة في اليمامة[٥]، وكان ذلك في المحرم من سنة ١٢ هـ[١] .

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ، جـ ٣ ، ص ٣٠٦ .

(٢) رُوي أن المثنى وفد على النبي ﷺ في جماعة من قومه وتحدث بكلام أعجب النبي ﷺ (ابن حبان : السيرة النبوية ، ص ٩٣ – ١٠١ ؛ الكلاعي : الإكتفاء ، جـ ١ ، ص ٣٠٧ – ٣٠٩)

(٣) الواقدي : الردة ، ص ٢١٧ .

(٤) البلاذري : فتوح البلدان ، ق ٢ ، ص ٢٩٥ .

(٥) الكلاعي : الإكتفاء ، جـ ٤ ، ص ٦٩ – ٧٠ .

كتب أبو بكر ﷺ إلى خالد بن الوليد ﷺ يأمره بالسير نحو العراق ، وأن يدخله من أسفله (أي من الجنوب) ، وفي الوقت نفسه كتب إلى عياض بن غَنْم وهو بالعراض (موضع بين الحجاز والعراق) يأمره أيضاً بالتوجه إلى العراق ، على أن يدخله من أعلاه ، وأن يتوغل فيه حتى يلتقي بخالد ، وأن يستبقا إلى الحيرة ، فأيهما سبق إليها فهو أمير على صاحبه[٢] .

فأبو بكر ﷺ خطط بهذا لجعل قوات الفرس في غربي الفرات بين فكي كماشة ، بحيث تواجه أحد الجيشين وهي مهددة من خلفها بالآخر ، فتقع في ارتباك وعدم اطمئنان . أما فائدته للمسلمين فإن تقسيم مسؤولية الفتح إلى حملتين يخلق بينهما منافسة فاضلة تستثير الحماسة ، وتحفز الهمم ؛ فضلاً عن أن فيه تخفيفاً على الطريق الواحد الذي سيسلكه الجيشان معاً نحو الهدف بمياهه المحدودة وكلئه القليل الذي لا قد يغطي حاجاتهما مجتمعة[٣] .

كان أبو بكر ﷺ قد كتب إلى خالد بن الوليد ﷺ أن يستنفر من قاتل أهل الردة ومن ثبت على الإسلام ، ولا يغزون معه أحد سبقت ردته . فخرج خالد إلى العراق بألفين من المسلمين ، فانضم إليه المثنى بن حارثة ومن معه من القادة والجند هناك بأمر من الخليفة حتى صار عدد جيشه حوالي ثمانية عشر ألفاً[٤] ، فكان أول لقاء بينه وبين الفرس في منطقة الحفير قرب الخليج العربي ، فانتصر عليهم ، وتمكن من قتل قائدهم هُرْمُز . وقد سميت هذه المعركة بـ « **ذات السلاسل** » لأن الفرس فيها ربطوا جندهم بالسلاسل ، كما سميت أيضاً بـ « **كاظمة** »[٥] نسبة إلى القرية التي دارت المعركة قربها (تبعد عن البصرة بـ ٨٨ كم)[٦] . وكان قد وقع في أيدي المسلمين أثناء هذه الموقعة (فيلاً) فبعثه خالد مع الأخماس إلى المدينة[٧] .

---

(١) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٣٤٣ .
(٢) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٣٤٧ .
(٣) أحمد كمال : الطريق إلى المدائن ، ص ٢٠٧ – ٢٠٨ .
(٤) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٣٤٧ .
(٥) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٣٤٨ .
(٦) كمال : الطريق إلى المدائن ، ص ٢١٦ ؛ العمري : عصر الخلافة الراشدة ، ص ٣٢٥ .
(٧) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٣٥٠ .

تقدم خالد بن الوليد ﷺ بعد ذلك إلى منطقة **الأبُلَّة** (البصرة) التي كان سويد بن قطبة الذهلي في جماعة من قومه يكثر الغارات عليها مثلما كان يفعل المثنى بن حارثة في الحيرة وما حولها[١] . والأبلة تشكل أهمية اقتصادية واستراتيجية آنذاك ، إذ كانت أكبر الثغور البحرية الفارسية ، ومدخل السفن إلى نهري دجلة والفرات ، والطريق المائي الوحيد الذي يصل العاصمة الفارسية (المدائن) مباشرة بالهند والصين . وفي الوقت عينه يمكن للمسلمين الانطلاق منها إلى الحيرة هدفهم المحدد عن طريق الفرات[٢] .

عمد خالد مع سويد بن قطبة إلى استدراج الفرس المرابطين في الأبلة حتى إذا خرجوا منها حمل عليهم فهزمهم ، ثم وجه المثنى وعدداً من القادة لفتح الحصون التابعة لها[٣] .

ولقد كان القائد الفارسي هرمز المقتول في ذات السلاسل قد طلب المدد من أردشير حاكم الفرس ، فأرسل إليه قوة بقيادة قارن بن قريانس الذي لم يكد يصل إلى منطقة **المذار** الواقعة على الضفة الشرقية لنهر دجلة حتى بلغته هزيمة صاحبه ، فتلقى الفلول المنهزمة ، وضمهم إلى جيشه ، وأخذ يستعد لمواجهة المسلمين . وحينما علم خالد ابن الوليد به سار إليه ، فدارت بين الجانبين معركة عنيفة انجلت عن هزيمة ماحقة للفرس بعد أن قُتل منهم ما قدره بعض المؤرخين بثلاثين ألفاً[٤] .

عقب وقعة المذار بعث أردشير بجيش جعل قيادته للأندرزغر والي خراسان الذي كان أصله من سواد العراق ، ثم أتبعه بآخر بقيادة بهمن جاذويه أحد كبار القادة الفرس ، فحل الأندرزغر بجيشه في كسكر بين النهرين ، ثم جاوزه إلى **الولجة** شمال غرب المذار (في الضفة الغربية لنهر الفرات)[٥] ، وهنا انضم إليه العرب النصارى الذين يقعون تحت النفوذ الفارسي خاصة بكر بن وائل ، وحين كثر جمعه عزم على مواجهة المسلمين دون انتظار بهمن .

---

(١) البلاذري : فتوح البلدان ، ق ٢ ، ص ٢٩٥ .
(٢) كمال : الطريق إلى المدائن ، ص ٢١٢ ، ٢٢٦ . انظر غلوب : الفتوحات العربية ، ص ٢٢١ .
(٣) البلاذري : فتوح البلدان ، ق ٢ ، ص ٢٩٦ .
(٤) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٣٥١-٣٥٢ .
(٥) كمال : الطريق إلى المدائن ، ص ٢٢٣ ، ٢٢٨ .

كانت هذه الأخبار قد انتهت إلى خالد فتحرك من المذار وترك حاميات في المناطق المفتوحة لاسيما الأبلة ، فحل على الفرس في الولجة ، ثم قسم جيشه إلى ثلاثة قوى ؛ هاجم بواحدة منها العدو ، بينما أخفى القوتين الأخريين على يمينه وشماله ، فلما انهك عدوه أطلق تلك القوتين ، فدارتا من خلف الجيش الفارسي ، فأذهلت المفاجأة الفرس الذين كانوا ينتظرون وصول جيش القائد الآخر بهمن من تلك الجهة ، وعندئذ اضطربت صفوفهم ، وفروا من ميدان المعركة حتى مات قائدهم الأندرزغر هائماً على وجهه في الصحراء(١) .

لما قُتل بعض زعماء العرب النصارى من بكر بن وائل في المعركة السابقة التي شاركوا فيها غضبوا على المسلمين ، فكاتبوا الفرس واجتمعوا معهم في **أُلَّيْس** على الضفة الغربية لنهر الفرات(٢)، فأمر كسرى (أردشير) بهمن بالتوجه نحوهم ، فأرسل هذا الأخير مقدمته بسرعة وعليها جابان ، وأوصاه بعدم قتال المسلمين حتى يلحق به .

علم خالد ﷺ بتجمع الفرس وحلفائهم العرب فسار إليهم وعاجلهم قبل أن يصل قائدهم بهمن ، فبارز أحد قادة العرب (مالك بن قيس) وقتله ، ثم زحف عليهم وقد جلسوا للغداء ، فاشتبك معهم في قتال مرير ، ورغم اشتداد مقاومة الفرس لما كانوا ينتظرونه من وصول بهمن(٣) ـ الذي ترك الميدان وعاد إلى العاصمة الفارسية بسبب مرض كسرى ومن ثم وفاته(٤) ـ إلا أن المسلمين تمكنوا أخيراً من هزيمتهم وقتلهم شر قتله إلى حد أن النهر المجاور تغير لونه من الدم فسميت معركة (**نهر الدم**)(٥) .

توجه خالد بعدها إلى بلدة **أَمغِيشيا** (على بعد ٤٠ كم شمال أليس) التي كان أهلها قد شاركوا في وقعة أليس فقتل كثير منهم ، فلما وصلها الجيش الإسلامي فر من

---

(١) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٣٥٣-٣٥٤ .
(٢) غلوب : الفتوحات العربية ، ص ٢٢٣ .
(٣)الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٣٥٥-٢٥٦ .
(٤) العمري : عصر الخلافة الراشدة ، ص ٣٢٦ .
(٥) البلاذري : فتوح البلدان ، ق ٢ ، ص ٢٩٧ ؛ الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٢٥٦-٢٥٧ . وروي أنه لما دخل المسلمون معسكر الفرس بعد الهزيمة « وقف خالد على الطعام فقال : قد نفَّلْتُكموه ، فهو لكم ، وقال: كان رسول الله ﷺ إذا أتى على طعام مصنوع نفَّله ، فقعد عليه المسلمون لعشائهم بالليل ، وجعل من لم ير الأرياف ، ولا يعرف الرقاق يقول : ما هذه الرقاق البيض ؟ وجعل مَن قد عرفها يجيبهم ويقول لهم ـ مازحا ـ : هل سمعتم برقيق العيش ؟ فيقولون : نعم ، فيقول : هو هذا ! فسمي الرقاق ، وكانت العرب تسميه القرى» (الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٣٥٧) .

بقي من أهلها ، فدخلها المسلمون دون مقاومة في ٢٨ صفر سنة ١٣ هـ ، فأصابوا غنائم كثيرة لم يصيبوا مثلها من قبل[١] . وحين ورد خبر تلك الانتصارات إلى الصديق ﷺ قال «عَجَزَت النساء أن يلدن مثل خالد »[٢] .

بفتح أمغيشيا صار المجال مفتوحاً أمام المسلمين للانطلاق تجاه **الحيرة** عاصمة المناذرة[٣] التي كانت الهدف الرئيس في خطة أبي بكر ﷺ لفتح العراق ، ونظراً لكون الامبراطور الفارسي توفي حينذاك فقد أراد خالد ﷺ أن يستثمر انشغال الفرس بذلك عن الجبهة للوصول إلى تلك المدينة بسرعة[٤]، وحيث أنه قد حل فصل الربيع ففاضت المياه على جانبي النهرين ، فصار الطريق إليها موحلاً يصعب السير فيه[٥] .

فقد جمع خالد ﷺ السفن وحمل عليها جيشه ، ولكن ما أن شرع في مسيره حتى قلّ منسوب الماء في النهر فتوقفت السفن ، فأخبره الملاحون من أهل البلاد أن المياه قد صرفت عن النهر ، حينئذ قصد خالد ﷺ الذين صرفوا مياه النهر وقتلهم ، ثم أمر بردم تلك الفتحات المحدثة في النهر ، فاستأنف المسلمون بعدها سيرهم في السفن مرة أُخرى[٦]، ووصلوا الحيرة في ربيع الأول سنة ١٢ هـ وقد فرّ حاكمها خائفاً على نفسه لا سيما بعد أن علم بمقتل ابنه الذي أرسله لصرف مياه النهر ، وكذلك موت أردشير الإمبراطور الفارسي .

فقام المسلمون بحصار المدينة بعد أن رفض أهلها من النصارى العرب ما عُرض عليهم ؛ إما الإسلام أو الجزية ، ثم دار بين الجانبين قتال شديد انتهى بتسليم المدينة للمسلمين صلحاً بدفع جزية مقدارها مائة وتسعون ألف درهم . وبفتح الحيرة قدم عدد من زعماء القرى التابعة لها ، وصالحوا المسلمين[٧] .

(١) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٣٥٨ ؛ كمال : الطريق إلى المدائن ، ص ٢٣٨ .
(٢) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٢ ، ص ٣٨٩ .
(٣) لمعرفة نظام الحكم في الحيرة انظر محمد بيومي مهران : دراسات في تاريخ العرب القديم ، ص ٥٩٦-٥٩٧ ؛ كمال: الطريق إلى المدائن ، ص ٢٤٧-٢٤٨ .
(٤) العمري : عصر الخلافة الراشدة ، ص ٣٢٦ .
(٥) كمال : الطريق إلى المدائن ، ص٢٤١-٢٤٢ .
(٦) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٣٥٩ .
(٧) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٢ ، ص ٣٩٠-٣٩٢ . ويروي الطبري عن سيف بن عمر التميمي أنه خلال المفاوضات

تقدم خالد ﷺ بعد ذلك إلى **الأنبار** فوجدها قد أُحيطت بخندق ، فضرب عليها الحصار ، وأمر المسلمين باستخدام الرماح والسهام لحرب أهلها ، وقد صوبوها إلى عيون أعدائهم ، فأصابوا ألف عين ، فسميت تلك الوقعة بذات العيون ، ثم تمكن من اقتحام الخندق مع أضيق مكان ، وعندئذ اضطر حاكمها شيرزاد الفارسي إلى قبول الصلح مع المسلمين ومغادرة المدينة(١).

توجه بعدها المسلمون إلى **عين التمر** القريبة من الأنبار ، وكانت بها جموع من الفرس ونصارى العرب ، فقاتلهم المسلمون وقد استمات نصارى العرب في القتال أكثر من الفرس إلا أن خالداً في النهاية هزمهم ، ودخل حصن المدينة بعد أن نزل أهله على حكمه ، وقد سبى من كان في ذلك الحصن ، فكان من هؤلاء السبي : سيرين والد محمد بن سيرين مفسر الأحلام المعروف ، ونصير والد موسى بن نصير قائد الفتح الإسلامي في المغرب والأندلس ، وحمران مولى عثمان بن عفان ﷺ(٢)، ويسار جد محمد بن إسحاق صاحب السيرة(٣).

فتح دومة الجندل : بقيَ عياض بن غَنْم ﷺ سنة محاصراً لدومة الجندل ، إذ أن أهلها وحلفاءهم من نصارى العرب تمكنوا من ضرب الحصار إلى جيشه ، ولذا استعان

مع أهل الحيرة قابل خالد ﷺ رجل منهم اسمه عمرو بن عبد المسيح ، ويسمى ابن بقيلة ، وكان معه سم يريد به قتل نفسه إن لزم الأمر عند دخول المسلمين الحيرة ، فأخذ خالد ﷺ السم وقال « إنها لن تموت نفس حتى تأتي على أجلها ، وقال : بسم الله خير الأسماء ، رب الأرض ورب السماء ، الذي ليس يضر مع اسمه داء ، الرحمن الرحيم ، فأهووا إليه ليمنعوه منه ، وبادرهم فابتلعه ، فقال عمرو : والله يا معشر العرب لتملكن ما أردتم ما دام منكم أحد أيها القَرْن »(تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٣٦٣) وقد روى بإسناد صحيح عن قيس بن أبي حازم قال « رأيت خالد بن الوليد أتي بسم ، فقال : ما هذا ؟ قالوا : سم ، فقال : بسم الله ، وشربه ... قال عبد الله بن الزبير الحميدي [أحد رواه الخبر] وذلك بالحيرة » (ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق ، جـ ١٦ ، ص٢٥٢؛ ابن العديم ، بغية الطلب في تاريخ حلب ، تحقيق سهيل زكار ، جـ ٧ ، ص ٣١٥٢ ؛ ابن كثير : خلافة أبي بكر ، ص ١٣٦ ، حاشية ٢) وراجع روايات أخرى في (أحمد : فضائل الصحابة ، جـ ٢ ، ص ٨١٥-٨١٦) وأورد ابن حجر القصة وقد جاء في مطلعها « لما قدم خالد بن الوليد الحرة ... » (الإصابة ، جـ ٢، ص ٢٥٤) ولا شك أن قوله الحرة تصحيف ، والصحيح الحيرة كما الروايات الأخرى .

(١) البلاذري : فتوح البلدان ، ق ٢ ، ص ٣٠١ ؛ الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٣٧٣-٣٧٥ ؛ ابن الأثير : الكامل ، جـ ٢ ، ص ٣٩٤ .

(٢) البلاذري : فتوح البلدان ، ق ٢ ، ص ٣٠٢-٣٠٣ ؛ الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٣٧٦-٣٧٧ ؛ ابن الأثير : الكامل ، جـ ٢ ، ص ٣٩٤-٣٩٥ .

(٣) خليفة بن خياط : تاريخه ، ص ١١٨ .

بخالد بعد فتحه عين التمر[١]، فكتب خالد إليه أوجز رسالة «من خالد إلى عياض إياك أريد». ثم توجه نحوه ، فلما علم أكيد بن عبد الملك زعيم دومة الجندل بذلك أُسقط في يده وخاف ، فحاول أن يثني قومه عن المقاومة ، ولكنهم لم يطاوعوه ، وحلما وصل خالد ﷺ اشترك مع عياض ﷺ في قتال أهل دومة الجندل وحلفائهم حتى تمكنا من فتح المدينة عنوة بعد معارك عديدة ، وكان خالد ﷺ قد أسر زعيمهم أكيد قبل القتال وقتله[٢].

وبفتح المسلمين لهذه المدينة سيطروا على موقع استراتيجي في شمالي الجزيرة العربية ، إذ كانت ملتقى الطرق من ثلاث جهات ؛ فإلى جنوبها تقع الجزيرة العربية ، وإلى شمالها الشرقي يقع العراق ، وإلى شمالها الغربي يقع الشام[٣]، فهي بهذا تشكل للفاتحين المسلمين مفتاحاً رئيساً لبلاد الشام والعراق .

عقب فتح دومة الجندل عاد خالد بن الوليد ﷺ إلى العراق ، وأخذ يثبت أقدام المسلمين في المناطق المفتوحة سابقاً التي حاول بعض أهلها الخروج عن الطاعة بعد مغادرته إلى دومة الجندل ، وتمكن أيضاً من فتح مواقع جديدة .

ثم قصد الفِراض الواقعة بين العراق و الشام والجزيرة الفراتية ، كانت حشود متحالفة من الفرس والروم والعرب قد تجمعت فيها ، فاصطدم بهم في معركةٍ عنيفة انتهت بهزيمة ساحقةٍ لهم ، وقد قدر بعض المؤرخين قتلاهم بمائة ألف . وبعدها عاد خالد إلى الحيرة في آخر سنة ١٢ هـ ، وبقي فيها حتى جاءه الأمر من أ بي بكر ﷺ بالتوجه إلى الشام[٤] .

---

(١) كان الوليد بن عقبة هو الذي اقترح على عياض ﷺ طلب المدد من خالد ﷺ ، وكان أبو بكر ﷺ قد ألحقه بعياض ﷺ لمساعدته في دومة الجندل بعد أن قدم بغنائم فتح العراق إلى المدينة من خالد ﷺ (الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٣٧٧ ؛ ابن كثير : خلافة أبي بكر ، ص ١٤١-١٤٢)

(٢) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٣٧٧-٣٩٧ ؛ ابن الأثير : الكامل ، جـ ٢ ، ص ٣٩٥-٣٩٦ . راجع البلاذري : فتوح البلدان ، ق ١ ، ص ٧٤ .

(٣) الشامي : الخلفاء الراشدون ، ص ١٠٤ .

(٤) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٣٧٩-٣٨٤ ؛ ابن الأثير : الكامل ، جـ ٢ ، ص ٣٩٦-٤٠٠ ؛ ابن كثير : خلافة أبي بكر ، ص ١٤٣- ١٤٦ . يذكر أن خالد بن الوليد ﷺ خرج إلى الحج مع نفر قليل من أصحابه ، فأدى الحج ثم عاد مرة أخرى إلى الحيرة (الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص٣٨٤) .

نتائج وملحوظات :

ـ هزم خالد بن الوليد ﷺ الفرس في عدد من المعارك القوية التى قادها عدد من كبار قاداتهم ، وقد اعتمد في حركته تلك بعد الله على السرعة والمباغتة .

ـ تمكن المسلمون خلال ثلاثة عشر شهراً بقيادة خالد بن الوليد ﷺ من فتح الحوض الغربي الجنوبي من الفرات الممتد من الأبلة جنوباً حتى الفراض شمالاً[1].

ـ يلاحظ أن جموعاً من القبائل العربية النصرانية شاركت الفرس في معاركهم مع المسلمين ، وقد استماتوا في بعضها أكثر من حلفائهم الفرس .

ـ ثار بعض سكان البلاد المفتوحة ـ وخاصة نصارى العرب ـ على المسلمين أكثر من مرة ، وهذا يفسر تغير شروط الصلح مراتٍ عديدةٍ في مناطق السواد[2].

ـ لم يُشرك الصديق ﷺ أحداً من المرتدين الذين عادوا ثانية الى الإسلام ـ لم يشركهم في الفتوح ، بل جردهم من السلاح ، إذ لم يأمنهم لحداثة عهدهم بالردة ، كما أراد أن يعاقبهم على فعلهم ويظهر الاستغناء عنهم[3].

ب ـ الفتوحات الإسلامية في الشام (الجبهة الرومية البيزنطية) : كانت بدايات الاحتكاك مع الروم وحلفائهم من العرب المتنصرة في الشام قد حصلت في أواخر حياة النبي ﷺ ، وقد تمثل ذلك في سرية مؤته عام ٨ هـ ، ثم غزوة تبوك عام ٩ هـ. وكان النبي قبيل وفاته قد جهز بعثة أسامه بن زيد ﷺ لغزو الروم[4]، وقد مر أنه توفي قبل أن يسير أسامة ﷺ إلى هدفه ، فأنفذه أبو بكر ﷺ بعد ولايته الخلافة على الفور ، وحقق نتائج ذكرناها سابقاً .

ولما فرغ أبو بكر ﷺ من أمر الردة رأى توجيه الجيوش إلى الشام[5] لجهاد الروم

(١) الشامي : الخلفاء الراشدون ، ص ١٠٨ .
(٢) العمري : عصر الخلافة الراشدة ، ص ٣٢٨ .
(٣) المرجع نفسه ، الصفحة نفسها .
(٤) عبد العزيز العمري : الفتوح الإسلامية عبر العصور ، ص ١١٤ ؛ العمري : عصر الخلافة الراشدة ، ص ٣٤٢ .
(٥) البلاذري : فتوح البلدان ، ق ١ ، ص ١٢٨ . وقد روى أن تفكير أبي بكر ﷺ بفتح الشام بدأ عندما قص عليه شرحبيل بن حسنة ﷺ رؤيا رآها في منامه ، فأولها أبو بكر ﷺ فتح الشام . انظر تفاصيل الرؤيا وتعبير أبي بكر ﷺ لها في (الأزدي : تاريخ فتوح الشام ، ص ١٤-١٥) ويرجح أن شرحبيل بن حسنة ﷺ قدم من العراق على أبي بكر ﷺ مبشراً له بالفتح ، وذلك في ربيع الأول سنة ١٢ هـ (أحمد عادل كمال : الطريق إلى دمشق ، ص ١٥٩-١٦٠)

مثلما وجهها إلى العراق لجهاد الفرس ، حيث جمع كبار الصحابة واستشارهم في ذلك ، فأيدوه في رأيه مع إبداء عدد منهم الطريقة التي يرونها مناسبة للبدء في فتوح هذه الجهة[١].

دعا أبو بكر ﷺ الناس إلى الجهاد ، ثم بعثهم إلى الشام بقيادة خالد بن سعيد بن العاص الذي عسكر أولاً في تيماء ، ثم تحرك شمالاً وتوغل في بلاد الشام ، وأمده أبو بكر ﷺ بالوليد بن عقبة ، ثم بعكرمة بن أبي جهل ، ولقد تظاهر القائد الرومي (باهان) بالتراجع إلى دمشق ، فأستدرج خالد بن سعيد إلى مرج الصُّفَّر (شرقي بحيرة طبرية ، بين دمشق والجولان[٢]) ، ثم طوقه وقاتله ، ففر خالد بن سعيد والوليد بن عقبة ، وتراجع عكرمة بالجيش الإسلامي إلى الجنوب ينتظر توجيهات الخليفة[٣].

وكان أبو بكر ﷺ قد أخذ في استنفار المسلمين من الحجاز ونجد واليمن للجهاد[٤]، وقد بعث بأنس بن مالك ﷺ برسالة إلى اليمن لهذا الغرض[٥]، فتدافعت الحشود نحو المدينة من كل حدب وصوب[٦] ، وحينئذ رأى أبو بكر ﷺ أن ينظم قوات المسلمين الموجهة إلى الشام لبدء مرحلة جهادية قوية ، فبعث عقب عودته من حج عام ١٢ هـ بأربعة جيوش ، أخرجها واحداً تلو الآخر في أوائل سنة ١٣ هـ ، وقد أسند قيادتها لأربعة من كبار الصحابة ، وفيما يلي أعداد هذه الجيوش ، وأسماء قادتها ، والمناطق التي وجهوا إليها[٧]، نوردها مرتبة حسب تحركها إلى الشام بتحقيق بعض الباحثين المحدثين :

الأول : بلغ عدد أفراده حوالي ٧٠٠٠ (سبعة آلاف) رجل[٨] بقيادة يزيد بن أبي

(١) الأزدي : تاريخ فتوح الشام ، ص ١-٤ ؛ ابن حبيش : الغزوات الضامنة ، جـ ١ ، ص ١٤٣-١٤٥ ؛ الكلاعي : الإكتفاء ، جـ ٣ ، ص ١١٠- ١١٢ .

(٢) الشامي : الخلفاء الراشدون ، ص ١١٣ ، ٢٠٩ .

(٣) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٣٨٨-٣٨٩ ، ٣٩١ ؛ ابن كثير : خلافة أبي بكر ، ص ١٥٢-١٥٣ .

(٤) البلاذري : فتوح البلدان ، ق ١ ، ص ١٢٨ .

(٥) الأزدي : تاريخ فتوح الشام ، ص ٨-٩ .

(٦) الأزدي : تاريخ فتوح الشام ، ص ١٠ ؛ البلاذري : فتوح البلدان ، ق ١ ، ص ١٢٨ .

(٧) ابن كثير : خلافة أبي بكر ، ص ١٥٤ ؛ البداية والنهاية ، جـ ٧ ، ص ٣ . انظر أيضاً خليفة بن خياط : تاريخه ، ١١٩ ؛ البلاذري : فتوح البلدان ، ق ١ ، ص ١٢٨ ، ١٢٩ ؛ الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٣٨٧ ؛ الذهبي : عهد الخلفاء ، ص ٨١ .

(٨) يحسن التنبيه هنا إلى أن كل جيش من هذه الجيوش الأربعة لم يبلغ عدده المحدد هنا حال خروجه ، وإنما ظل الخليفة أبو بكر ﷺ كلما تجمع عنده جماعة من المجاهدين في المدينة ألحقهم بهذا الجيش أو ذلك حتى بلغت أعدادها ما ذكرناه بالمتن .

سفيان رضي الله عنه ، ووجهته دمشق ، وحدد طريقه بـ تبوك ـ البلقاء ـ دمشق .

الثاني : خرج بعد الأول بثلاثة أو أربعة أيام ، وعدده كالسابق بقيادة شرحبيل بن حسنة رضي الله عنه ، ووجهته الأردن ، وحدد له طريق تبوك ـ الأردن ، ومدينة بصرى بالتحديد .

الثالث : خرج بعد الثاني بحوالي عشرة أيام ، وعدده تقريباً كالسابق ، بقيادة أبى عبيدة أبن الجراح رضي الله عنه ، ووجهته حمص ، وطريقه تبوك ـ الجابية (جنوب دمشق) ـ دمشق .

الرابع : خرج بعد مدة وجيزة من خروج الثالث بقيادة عمرو بن العاص رضي الله عنه ، وكان عدده ما بين ٢٠٠٠ - ٣٠٠٠ (ألفين إلى ثلاثة آلاف) رجل ، ووجهته فلسطين ، وطريقه أيلة ـ فلسطين[١] .

ولقد أمر أبو بكر رضي الله عنه كل قائد من هؤلاء أن يسلك بجيشه طريقاً غير طريق الآخر[٢] ، فتباعدت طرقها نسبياً من حين خروجها حتى دخولها أراضى الشام ، ثم أخذ كل جيش يسعى للوصول إلى غايته المحددة ، فكانت في حركتها على شكل رؤوس حراب ، أو على شكل مروحة (حركة الانتشار في الجيوش الحديثة) ، وهذا يضمن بإذن الله وصولها إلى وجهاتها سالمة ، ويفوت على الروم الترصد لها ، فالجيش حينما يسلك طريقاً مغايراً للجيش الذى سبقه يضرب على نفسه ستاراً من الأمان لتعمية خصمه عن وجهته[٣] .

أما توجيهه الجيوش إلى تلك المناطق بالذات فيبدو أن أبا بكر رضي الله عنه أخذ في اعتباره تقسيمات الروم لبلاد الشام ، إذ كانوا قد قسموها إلى مناطق عسكرية أربع ، كانت كل واحد مستقلة عن الأخرى كما أن في توجيه الجيوش إلى أكثر من جهة تشتيتاً لقوى الروم في الشام[٤] . على أن الأمور لم تجر حسب ما خطط له كما سنرى .

(١) الشامي : الخلفاء الراشدون ، ص ١١٤-١١٧ ؛ كمال : الطريق إلى دمشق ، ص ١٧٦ ، ١٨٢ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٩١ ، ٢١٨- ٢٢١ ، ٢٢٤ ؛ محسن محمد صالح : الطريق إلى القدس ، ص ٦١-٦٢ .
(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ ٧ ، ص ٣ .
(٣) الشامي : الخلفاء الراشدون ، ص ١١٧ .
(٤) حسين مؤنس : أطلس تاريخ الإسلام ، ص ١٢٦ .

ومن ناحية أخرى فقد أكد أبو بكر ﷺ على أن تكون القيادة العامة للجيوش في الشام في حالة اجتماعها لأبي عبيدة ﷺ، فقال « فإن جمعتكم حرب فأميركم أبو عبيدة بن الجراح »(١)، كما زود كل قائد من هؤلاء القادة بنصيحة خاصة، وكانت هذه النصائح في مجملها تحث على التقوى والرفق بالجند ومشاورتهم، وعدم قتل الشيوخ والأطفال والنساء، وإكرام الرسل والإخلاص والصدق، والحذر والشجاعة، ومسالمة المسالمين ... إلخ(٢).

وفي الوقت الذي أخذت فيه هذه الجيوش الإسلامية الأربعة بالزحف لفتح الشام كان هرقل إمبراطور الروم البيزنطيين في أنطاكية يعد الجيوش لملاقاة المسلمين، وقد بلغ أباعبيدة ﷺ ويزيد بن أبي سفيان ﷺ كثرة الحشود الرومية فكتبا إلى أبي بكر ﷺ يخبراه بذلك، فرد عليهما أبو بكر ﷺ بأن تلك الحشود لابد أن تجتمع للدفاع عن بلادها، وأن المسلمين المجاهدين الصادقين الذين معهما سيتصدون لها، وأن عليهما ألا يستوحشا مما سمعا، وأن يتذكرا بأن النصر للمسلمين، وتعهد لهما بإرسال المدد(٣).

وخلال تلك الأيام حدثت أول معركة مع الروم في هذه المرحلة، حيث بعث يزيد بن أبي سفيان ﷺ سرية من المسلمين بقيادة أبي أمامة الباهلي ﷺ إلى ثلاثة آلاف من

---

(١) الأزدي : تاريخ فتوح الشام، ص ٤٨ .

(٢) الأزدي : تاريخ فتوح الشام، ص ١٢، ١٥، ١٨ ؛ ابن حبيش : الغزوات الضامنة، جـ ١، ص ١٥٠-١٥١، ١٥٢، ١٥٤ ؛ الكلاعي : الإكتفاء، جـ ٣، ص ١١٨، ١٢٠، ١٢١ . انظر مجمل تعليمات أبي بكر ﷺ لقادته في (قلعه جي : موسوعة فقه أبي بكر، ص ٨٩) ومن جانب آخر فقد روي أن أبا بكر ﷺ بعد خروج المجاهدين إلى الشام صار « يدعو في كل يوم غدوة وعشية، في دبر صلاة الغداة وبعد العصر ؛ يقول : اللهم إنك خلقتنا ولم نك شيئاً، ثم بعثت إلينا رسولاً، رحمة منك لنا وفضلا منك علينا، فهديتنا وكنا ضلالاً، وحببت إلينا الإيمان وكنا كفاراً، وكثرتنا وكنا قليلاً، وجمعتنا وكنا أشتاتاً، وقويتنا وكنا ضعافاً، ثم فرضت علينا الجهاد، وأمرتنا بقتال المشركين حتى يقولوا لا إله إلا الله، أويُعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون، اللهم إنا نطلب رضاك ونجاهد أعداك [كذا] مَن عدل بك، وعبد معك آلهاً غيرك . تعاليت عما يقولون علواً كبيراً، اللهم فانصر عبادك المسلمين على عدوك من المشركين، اللهم افتح لهم فتحاً يسيراً، وانصرهم نصراً عزيزاً، واجعل لهم من لدنك سلطاناً نصيراً، اللهم أشجع جبنهم، وثبت أقدامهم، وزلزل بعدوهم، وأدخل الرعب قلوبهم، واستأصل شأفتهم، واقطع دابرهم وأبد خضراءهم، وأورثنا أرضهم وديارهم وأموالهم، وكن لنا ولياً، وبنا حفياً، وأصلح لنا شأننا كله ونياتنا وقضاءنا وتبعاتنا، واجعلنا لأنعمك من الشاكرين، واغفر لنا، المؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات الأحياء منهم والأموات، ثبتنا الله وإياكم بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، إنه بالمؤمنين رؤوف رحيم » (الأزدي : تاريخ فتوح الشام، ص ١٣-١٤) .

(٣) الأزدي : تاريخ فتوح الشام، ص ٢٧-٣٢ ؛ الكلاعي : الإكتفاء، جـ ٣، ص ١٢٦-١٢٩ .

الروم تجمعوا في العَرَبة جنوب البحر الميت ، فالتقت بهم هناك ، فاستطاعت أن تهزمهم ، ثم لاحقتهم في أثناء إنسحابهم ، والتقت بهم مرة أخرى عند الداثنة قرب غزة وهزمتهم أيضاً(١) .

وبعد نزول أبي عبيدة ﷺ في الجابية كتب مرة أخرى للخليفة أبي بكر ﷺ ، يخبره كرة أخرى بتجمع الروم وحلفائهم لحرب المسلمين ، ويسأله أن يبدي رأيه ، ومما جاء في كتابه إليه « أما بعد ، فإن الروم وأهل البلد ومن كان على دينهم من العرب قد أجمعوا على حرب المسلمين ، ونحن نرجو النصر ، وانجاز موعود الرب تبارك وتعالى ، وعادته الحسنى ، وأحببت إعلامك ذلك لترينا رأيك » . فلما قرأ أبو بكر ﷺ الكتاب قال «واللهلأُنسيَن الرومَ وساوسَ الشيطان بخالد بن الوليد »(٢) .

ومثلما كتب أبو عبيدة ﷺ من الجابية لأبي بكر ﷺ بخبر الروم ، فقد كتب عمرو بن العاص ﷺ من فلسطين إليه بخبر تجمعهم أيضاً(٣) ، وحينئذ بعث إلى خالد ﷺ في العراق يأمره بالتوجه سريعاً بنصف جيشه إلى الشام(٤) ، ثم بتولي قيادة الجيوش الشامية حال وصوله(٥) .

ونظراً لخطورة الموقف فقد سعى خالد ﷺ للوصول إلى المسلمين في الشام بأسرع وقت ممكن ، فقرر أن يسلك طريقاً مختصراً ، ويجتمع بالمسلمين هناك دون أن تعترض له القوات الرومية ، فاستعان بدليل اسمه رافع بن عميرة الطائي ، وسار برجاله الذين يبلغ عددهم تسعة آلاف وخمسمائة (٩٥٠٠) رجل مجتازاً صحراء السماوة في طريق يندر فيه الماء ، وكان قد خصص مجموعة من الجِمال السمان(٦) ، ظمأهن ثم أوردهن الماء ،

---

(١) الأزدي : تاريخ فتوح الشام ، ص ٥٢ ؛ البلاذري : فتوح البلدان ، ق ١ ، ص ١٣٠ ؛ الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٤٠٦ ؛ كمال : الطريق إلى دمشق ، ص ٢٠٨-٢١١ ؛ العمري : عصر الخلافة الراشدة ، ص ٣٤٢ .

(٢) ابن حبيش : الغزوات الضامنة ، جـ ١ ، ص ١٨١ ؛ الكلاعي : الإكتفاء ، جـ ٣ ،ص ١٤٢-١٤٣ .

(٣) البلاذري : فتوح البلدان ، ق ١ ، ص ١٢٩ .

(٤) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٢ ، ص ٤٠٧ .

(٥) الأزدي : تاريخ فتوح الشام ، ص ٦٨ ؛ الكلاعي : الإكتفاء ، جـ ٣ ، ص ١٤٣ .

(٦) في رواية أنها عشرون (الأزدي : تاريخ فتوح الشام ، ص ٧٤ ؛ ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق ، جـ ٢ ، ص٨٨) وفي رواية أخرى أنها خمسون (المصدر نفسه ، ٧٩) وفي رواية أنها ثلاثون (فتوح الشام المنسوب للواقدى ، جـ ١ ، ص ١٣) .

وكممهن لئلا يجترن ، وحمل عليهن الماء ، فكان كلما قطعوا مرحلة ، ونزلوا منزلاً نحر منهن ما يكفي الجيش[١] ، وسقى الخيل مافي كروشها من ماء ، وأكل الجند لحومها ، وشربوا مما تحمله من مياه ، وفي اليوم الأخير ـ اليوم الخامس ـ أشرف بعض الجند على الهلاك ، ولكن الله سلم ، فوصلوا الشام في زمن قياسي من مكان لم يتوقعه الأعداء[٢] ، وفوق ذلك فقد تمكن خالد ﷺ في طريقه من فتح بعض المواقع ، منها تدمر وحوران ، ثم بصرى التي كان المسلمون يحاصرونها ، فدفعهم خالد إلى مواجهة أهلها ، وعندئذ طلبوا الصلح[٣] ، فأجابهم على دفع الجزية في ٢٥ ربيع الأول سنة ١٣ هـ[٤] .

موقعة أجنادين : وبينما كان خالد بن الوليد ﷺ وأبو عبيدة بن الجراح ﷺ يقومان ببعض العمليات العسكرية حول دمشق إذجاءت الأخبار بأن الحشود الرومية أخذت بالتجمع في أجنادين[٥] الواقعة في فلسطين بين الرملة وبيت جبرين[٦] (في منتصف الطرق تقريباً بين غزة والقدس) ، وكانت تحت قيادة تَذارق (ثيودريك) شقيق هرقل ، ويقال أن القيادة كانت للقُبُقْلار (الأرطبون)[٧] ، وقد بلغت تلك الحشود حوالي

---

(١) في رواية أنهم كلما ساروا يوماً وليلة ذبحوا أربعة من الأبل (الأزدي : تاريخ فتوح الشام ، ص ٧٤ ؛ ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق ، جـ ٢ ، ص ٨٨) في رواية أخرى عشراً من الأبل (ابن الأثير : الكامل ، جـ ٢ ، ص٤٠٨) .

(٢) اختلف المؤرخون في تحديد الطريق الذي سلكه خالد ﷺ من العراق إلى الشام ، منهم من يقول إنه اتجه من عين التمر إلى دومة الجندل ، ومنها إلى الشام ، فيكون دخلها من جنوبها . ومنهم من يقول إنه خرج من الحيرة إلى عين التمر ثم قراقر ، ومنها عبر صحراء السماوة إلى سُوى ، فيكون دخل الشام من شمالها ، وقد وقف الباحث أحمد عادل كمال عند هذين القولين ، ورأى أن الطريق الأول هو الطريق المعروف بين العراق والشام ، وهو طريق طويل لو سلكه خالد ﷺ لم يوصف في إجتيازه له بالجسارة والجرأة ، ثم أثبت أن القول الثاني هو الأصوب ، وقدر أن تكون المسافة التي قطعها خالد ﷺ في أربعة أيام وبعض الخامس حوالى ٣٦٠ كم ، حيث أن الأبل - حسب رأيه ـ تقطع في اليوم ٤٤ كم في الأحوال العادية ، وقدر أنها في حركة خالد ﷺ سارت في اليوم قدر يومين ، أي قطعت ٨٨ كم في اليوم . ومن ناحية فقد وقف كمال عند الإشارة في إحدى الروايات إلى تحديد الإتجاه بكوكب الصبح (الزهرة) ، وجعلها قرينة لتدعيم رأيه (الطريق إلى المدائن ، ص ٣٢٤-٣٣٣) .

(٣) الأزدي : تاريخ فتوح الشام ، ص ٧٣-٨٢ ؛ البلاذري : فتوح البلدان ، ق ١ ، ص ١٣١-١٣٤؛ ابن الأثير : الكامل ، جـ ٢ ، ص ٣٠٧-٣٠٩ ؛ ابن كثير : خلافة أبي بكر ، ص ١٥٨-١٥٩ .

(٤) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق ، جـ ٢ ، ص ١٠٥ . انظر كمال : الطريق إلى دمشق ، ص ٢٦٠ .

(٥) الأزدي : تاريخ فتوح الشام ، ص ٨٢-٨٤ .

(٦) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٤١٧ ؛ الذهبي : عهد الخلفاء الراشدين ، ص ٨٢ . راجع في تحديدها أيضاً (كمال : الطريق إلى دمشق ، ص ٢٧٣)

(٧) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٤١٧ ؛ ابن الأثير : الكامل ، جـ ٢ ، ص٤١٧ .

١٠٠٠٠٠ (مائة ألف) جندي[(١)] من بينهم جموع من العرب المتنصرة في الشام ، وقد صحبها البطارقة والقسس يحملون الصلبان ليثيروا حماس الجند[(٢)] .

تحرك خالد بن الوليد ﷺ الذي آلت إليه قيادة الجيوش الإسلامية في الشام حسبما أمر الخليفة أبو بكر ﷺ[(٣)] ـ تحرك نحو أجنادين ، وكتب إلى القادة المسلمين لموافاته هناك ، فتوافد المسلمون إلى أجنادين[(٤)] حتى بلغ عددهم حوالي ٣٠٠٠٠ (ثلاثين ألف) رجل[(٥)] .

وفور اكتمال وصولهم قام خالد ﷺ بتنظيمهم للقتال ، فجعل أباعبيدة ﷺ على الرجال ، ومعاذ بن جبل ﷺ على الميمنة ، وسعيد بن عامر بن حذيم ﷺ على الميسرة ، وسعيد بن زيد ﷺ على الخيل[(٦)] .

وفي غداة السبت ٢٧ أو ٢٨ جماد الأولى ١٣هـ[(٧)] / ٦٣٤م ، أخذ خالد ﷺ يتنقل بين المسلمين يحرضهم على القتال ، ويبشرهم بالنصر ، كما فعل الشيء نفسه معاذ بن جبل ﷺ.

ثم أوصى خالد ﷺ المجاهدين أن لا يحملوا على العدو إلا إذا أمرهم بذلك ، كما أمرهم أن يدافعوا عدوهم في أول النهار ، فيؤخروا القتال إلى صلاة الظهر عند مهب الأرواح التي يروى أن الرسول ﷺ يستحب القتال فيها[(٨)] ، والمتوقع أن خالداً ﷺ أراد من خطته تلك إنهاك قوة الروم في الوقت الذي يكون المسلمون محتفظون بقوتهم[(٩)] .

---

(١) البلاذري : فتوح البلدان ، ق ١ ، ص ١٣٥ .

(٢) الشامي : الخلفاء الراشدون ، ص ١٢٢ . وقد أشار خالد ﷺ في رسالته إلى الخليفة أن الروم « رفعوا صلبهم ونشروا كتبهم » (الأزدي : تاريخ فتوح الشام ، ص ٩٣)

(٣) روي «عن سهل بن سعد أن أبابكر كتب إلى أبي عبيدة رضي الله عنهما : أما بعد ، فإني قد وليت خالداً قتال العدو بالشام ، فلا تخالفه ، واسمع له ، وأطع أمره ، فإني لم أبعثه عليك أن لا تكون عندي خيراً منه ، ولكني ظننتُ أن له فطنة في الحرب ليست لك ، أراد الله بنا وبك خيراً ، والسلام » (الكلاعي : الإكتفاء ، جـ ٣ ص١٤٨) وانظر (الأزدي : تاريخ فتوح الشام ، ص ٨٦) .

(٤) الأزدي : تاريخ فتوح الشام ، ص ٨٧-٨٩ ؛ الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٤١٧ .

(٥) الشامي : الخلفاء الراشدون ، ص ١٢٢ ؛ كمال : الطريق إلى دمشق ، ص ٢٧٦ .

(٦) الأزدي : تاريخ فتوح الشام ، ص ٨٩-٩٠ .

(٧) الأزدي : تاريخ فتوح الشام ، ص ٩٣ ، خليفة بن خياط : تاريخه ، ص ١١٩ .

(٨) الأزدي : تاريخ فتوح الشام ، ص ٩٠-٩١ .

(٩) الشامي : الخلفاء الراشدون ، ص ١٢٢ .

كانت المعركة يوماً واحداً فقط ، حيث بدأ الروم من جانبهم القتال ، فحملوا على المسلمين مرتين من قبل الميمنة والميسرة ، ورموهم بالنشاب ، فثبت المسلمون في وجوههم ، ثم مالبثوا أن حملوا على الجيش الرومي حملة صادقة ، فأوقعوا فيه الهزيمة ، وقتلوا منه ثلاثة آلاف[١] ، ويقال إن قائد الروم قال لجنده لما انهزموا « لفو رأسي بثوب ، فقالوا : ولِمَ ؟ قال : يوم البئيس ، لا أحب أن أراه ، ما رأيت في الدنيا يوماً أشد من هذا ، ... فاحتز المسلمون رأسه ، وإنه لملفَّف »[٢].

أما المسلمون فقد استشهد منهم جماعة على رأسهم أبان بن سعيد بن العاص ، وأخوه عمرو بن سعيد ، وعبد الله بن الزبير بن عبد المطلب[٣] ، والفضل بن عباس ، ونعيم بن عبد الله بن النحام رضي الله عن الجميع[٤].

وعلى صعيد آخر فقد فرت الفلول الرومية المنهزمة إلى القدس وقيسارية ودمشق وحمص ، واعتصمت بها[٥] ، أما هرقل فقد قالوا : إنه لما انتهى إليه خبر هذه الوقعة «نُخِبَ قلبه ، وسُقِطَ في يده ، ومُليء رعباً ، فهرب من حمص إلى أنطاكية »[٦].

وهكذا انتصر المسلمون في معركة كبرى ، هي الأولى في حجمها في فتوح الشام ، فحطموا هيبة الروم ، وانطلقوا بثبات وعزيمة ليعدوا العدة لمواجهات أخرى ، حيث اتجهوا بقواتهم شمالاً نحو دمشق ، وعسكروا قريباً منها ، فكانت قوات خالد بن الوليد ﷺ من جهة ، وقوات أبي عبيدة ﷺ من جهة ، وقوات يزيد بن أبي سفيان ﷺ من جهة ثالثة ، وبينما كان يحيطون بدمشق إذ جاءتهم الأخبار بقدوم جيش كبير من الروم فعندئذ تركوها وتراجعوا جنوباً في مرج الصُّفَّر (على بعد ٣٨ كم من دمشق[٧]) ، فالتقوا

---

(١) الأزدي : تاريخ فتوح الشام ، ص ٩١-٩٢ .
(٢) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٤١٨ ؛ الكلاعي : الإكتفاء ، جـ ٣ ، ص ١٥٩ .
(٣) البلاذري : فتوح البلدان ، ق ١ ، ص ١٣٥ .
(٤) خليفة بن خياط : تاريخه ، ص ١٢٠ . راجع الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٤١٨ ؛ ابن الأثير : الكامل ، جـ ٢ ، ص ٤١٨ . وقد ذُكر أن عدد قتلى المسلمين في هذه المعركة بلغ أربعمائة وخمسين شهيداً (فتوح الشام المنسوب للواقدي ، ص ٣٨) .
(٥) الأزدي : تاريخ فتوح الشام ، ص ٩٢ .
(٦) البلاذري : فتوح البلدان ، ق ١ ، ص ١٣٦ .
(٧) كمال : الطريق إلى دمشق ، ص ٢٤٣ .

بذلك الجيش الرومي الذي خرج إليه أهل دمشق والتحق به خلق من أهل حمص ، ولكن المسلمين هزموه ، وشتتوا شمله ، وكان ذلك في ١٨ جمادى الآخرة سنة ١٣هـ ، أي بعد عشرين يوماً من معركة أجنادين[١] . وكان أبو بكر ﷺ في أيامه الأخيرة لما بلغته البشارة بنصر المسلمين في أجنادين[٢] .

ملامح من سيرة أبي بكر ﷺ ومنهجه في الحكم :

كان حازماً في اتخاذ القرارات ، وقد وضح لنا ذلك جلياً في محاربته المرتدين ، وإنفاذ بعث أسامة بن زيد ﷺ رغم ما أبداه كبار الصحابة من اعتراضات .

استخدم في إدارة الدولة الإسلامية وقيادة جيوشها القادرين وذوي الخبرة من الصحابة وغيرهم ، فجعل مثلاً أبا عبيدة بن الجراح ﷺ على بيت المال ، وعمر ﷺ على القضاء فمكث سنة كاملة لا يأتيه متخاصمان[٣]، واستعمل في مكاتباته عثمان بن عفان ﷺ ، وزيد بن ثابت ﷺ وغيرهما ، وأسند قيادة الجيوش إلى أمثال : أبي عبيدة بن الجراح ، وخالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص ، وعكرمة بن أبي جهل رضي الله عنهم أجمعين[٤] .

كان كثيراً ما يستشير الصحابة فيما يستجد من أمور ، فقد روي بسند صحيح عن ميمون بن مهران قوله «كان أبو بكر الصديق إذا ورد عليه أمر نظر كتاب الله ، فإن وجد فيه ما يقضي به قضى بينهم ، وإن علمه من سنة رسول الله ﷺ قضى به ، وإن لم يعلم خرج فسأل المسلمين عن السنة ، فإن أعياه ذلك دعا رؤوس المسلمين وعلماءهم واستشارهم »[٥]. ولقد ظهرت استشاراته للصحابة جلية في معالجته لحركة الردة ، وحركة الفتح الإسلامي خارج الجزيرة العربية .

---

(١) الأزدي : تاريخ فتوح الشام ، ص ٩٤- ٩٦ ؛ الكلاعي : الإكتفاء ، جـ ٣ ، ص ١٦١-١٦٢ . وانظر الذهبي : عهد الخلفاء الراشدين ، ص ٨٤ .

(٢) الذهبي : عهد الخلفاء الراشدين ، ص ٨٢ .

(٣) روى أن عمر ﷺ قال « إلي القضاء ، وقال أبو عبيدة : وإلي الفيء ، قال عمر : فلقد كان يأتي علي الشهر ما يختصم إلي فيه اثنان » (ابن سعد : الطبقات ، جـ ٣ ، ص ١٨٤ ؛ ابن كثير : خلافة أبي بكر ، ص ٣١) .

(٤) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٤٢٦-٤٢٧ ؛ ابن الأثير : الكامل ، جـ ٢ ، ص ٤٢٠-٤٢١

(٥) ابن حجر : فتح الباري ، جـ ١٣ ، ص ٣٤٢ ؛ اليحيى : الخلافة الراشدة والدولة الأموية من فتح الباري ، ص٢١٥ . راجع قلعه جي : موسوعة فقه أبي بكر ، ص ١٥٤-١٥٦ .

- ساوى في العطاء بين السابقين الأولين في الإسلام والمتأخرين وبين الموالي والأشراف[١]، فعن عائشة رضي الله عنها قالت « قسم أبي أول عام الفيء ؛ فأعطى الحر عشرة ، وأعطى المملوك عشرة ، والمرأة عشرة ، وأَمَتها عشرة ، ثم قسم في العام الثاني ، فأعطاهم عشرين عشرين »[٢]، فلما قيل له أن يقدم أهل السابقة على قدر منازلهم قال «إنما أسلموا لله ، ووجب أجرهم عليه ، يوفيهم ذلك في الآخرة ، وإنما هذه الدنيا بلاغ »[٣].

- كان متواضعاً مع المسلمين حتى أنه كان يحلب الغنم لبعض جواري الحي قبل الخلافة ، واستمر على ذلك بعد أن وليها [٤]. وقد ظل يتسابق مع عمر ﷺ في خدمة امرأة عجوز عمياء[٥]. وكان متواضعاً في لباسه ، وقد ذكر أن زعماء اليمن قدموا عليه وعليهم الحلل والتيجان والحبر الموشاة بالذهب ، فلما شاهدوا ما عليه من اللباس (شملة وعباءة) نزعوا ما كان عليهم[٦].

- ظل ﷺ يعيش على ما كان يكسبه من تجارته ستة أشهر بعد توليه الخلافة لا يأخذ من بيت المال شيئاً[٧]، ثم ذهب إلى السوق يحمل أبراداً فلقيه عمر ﷺ فسأله « أين تريد ؟ قال : إلى السوق . قال عمر : تصنع ماذا وقد وليت أمر المسلمين ؟ قال : فمن أين أطعم عيالي ؟ فقال عمر : انطلق يفرض لك أبو عبيدة ، فانطلقا إلى أبي عبيدة ، فقال : أَفرضُ لك قوت رجل من المهاجرين ، ليس بأفضلهم ولا أوكسهم ، وكسوة الشتاء والصيف ، إذا خلقت شيئاً رددته وأخذتَ غيره ، ففرض له كل يوم نصف شاة ،

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٢ ، ص ٤٢١ . عن زيد بن أسلم عن أبيه قال « ولي أبو بكر ﷺ فقسم بين الناس بالسوية ... » (البيهقي : السنن الكبرى ، جـ ٦ ، ص ٣٤٨) .
(٢) ابن سعد : الطبقات ، جـ ٣ ، ص ١٩٣ . راجع العمري : عصر الخلافة الراشدة ، ص ٣١٠ .
(٣) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٢ ، ص ٤٢١ ؛ السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ١٠٢ . روي أنهم قالوا له « لو فضلت المهاجرين والأنصار لسابقتهم ولمكانهم من رسول الله ﷺ ، فقال : أجر أولئك على الله ، إن هذا المعاش الأسوة فيه خير من الأثرة » (ابن أبي شيبة : المصنف ، جـ ٦ ، ص ٤٥٢)
(٤) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق ، جـ ٣٠ ، ص ٣٢٢ ؛ ابن الأثير : الكامل ، جـ ٢ ، ص ٤٢٤ ؛ السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ٧٥ .
(٥) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٢ ، ص ٤٢٢ ؛ السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ٧٥ .
(٦) المسعودي : مروج الذهب ، جـ ٢ ، ص ٣٠٥ .
(٧) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٢ ، ص ٤٢٤ .

وما كساه في الرأس والبطن »[١].

ولقد ظل ﷺ يتورع أن يدخل عليه شيء من بيت مال المسلمين بغير حق ، فقيل أن زوجته اشتهت حلواً ، فقال لها : ليس لنا ما نشتري به ، فرأت أن تقتطع من نفقتهم عدة أيام لتحصيل ثمنه ، فلما اجتمع عندها شيء يسير بعد أيام كثيرة وأخبرت أبا بكر ﷺ ليشتري به ذلك الحلو أخذه فرده إلى بيت المال ، وقال «هذا يفضل عن قوتنا ! وأسقط من نفقته بمقدار ما نقصت كل يوم ، وغرمه لبيت المال من مُلْكٍ كان له »[٢].

ولقد روي أنه في مرضه الذي توفي فيه قال لأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها «أما إنا منذ وَلينا أمرَ المسلمين لم نأكل لهم ديناراً ولا درهماً ، ولكنا قد أكلنا من جَريش طعامهم في بطوننا ، ولبسنا من خشن ثيابهم على ظهورنا ، وليس عندنا من فيء المسلمين قليل ولا كثير إلا هذا العبد الحبشي ، وهذا البعير الناضح ، وجَرْدَ هذه القطيفة ، فإذا مِت فابعثي بهن إلى عمر ، وأبرئي منهن ، ففعلت ، فلما جاء الرسول عمر بكى ... [وطفق] يقول : رحم الله أبا بكر ، لقد أتعب من بعده ، رحم الله أبا بكر لقد أتعب من بعده »[٣].

وقد روي أنه لما حضرته الوفاة أوصى أن تباع أرض له ، ويصرف ثمنها عوض ما أخذه من مال المسلمين[٤] .

وفاة أبي بكر ﷺ: قيل إن أبا بكر ﷺ اغتسل في يوم بارد فأصيب بالحمى ، واستمر يشكو منها خمسة عشر يوماً حتى توفي بين المغرب والعشاء من يوم الاثنين ليلة الثلاثاء ٢٢ جمادى الآخرة سنة ١٣هـ ، فكانت خلافته سنتين وثلاثة أشهر وعشرة أيام [١٠٠ يوم] ، وكان عمره كعمر النبي ﷺ حين توفي ، ثلاث وستون سنة[٥] .

---

(١) السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ٧٣ . وانظر ابن سعد : الطبقات ، جـ ٣ ، ص ١٨٤ ؛
(٢) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٢ ، ص ٤٢٣ . وقد عقب ابن الأثير على هذا الموقف من أبي بكر ﷺ بقوله «هذا والله هو التقوى الذي لا مزيد عليه ، وبحق قدمه الناس رضي الله عنه وأرضاه » .
(٣) ابن سعد : الطبقات ، جـ ٣ ، ص ١٩٦ ؛ ابن الأثير : الكامل ، جـ ٢ ، ص ٤٢٣ . راجع خبراً آخر شبيه بهذا الخبر في السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ٧٣ .
(٤) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٢ ، ص ٤٢٤ .
(٥) ابن سعد : الطبقات ، جـ ٣ ، ص ٢٠٢ ؛ ابن كثير : خلافة أبي بكر ، ص ٣٢ ؛ الذهبي : عهد الخلفاء الراشدين ، ص ١١٥ .

وفي أثناء مرضه كان المسلمون يعودونه في بيته ، ولم يخرج إلى الصلاة في المسجد ، وقد أمر عمر بن الخطاب ﷺ أن يصلي بالناس ، وقد عهد إليه في تلك الأيام بالخلافة من بعده(١).

ولقد ذكر أن أبا بكرﷺ لما اشتد عليه المرض قالوا لـه«ألا ندعو الطبيب ؟ فقال : قد رآني ، فقال : إني فعال لما أريد ! »(٢). وقد روي أن ابنته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها جاءت إليه « وهو يعالج ما يعالج الميتُ ونَفَسُه في صدره ، فتمثلت هذا البيت :

لعمرُك ما يُغني الثراءُ عن الفتى　　　إذا حشرجتْ يوماً وضاق بها الصدرُ

فنظر إليها كالغضبان ، ثم قال : ليس كذاك يا أم المؤمنين ، ولكن: ﴿ وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ ﴾ (ق ، آية ١٩) ... »(٣). ويروى أن آخر ما تكلم به قوله « رب توفني مسلماً وألحقني بالصالحين »(٤).

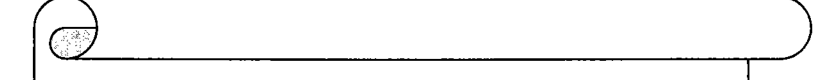
وكان قد أوصى أن تغسله زوجه أسماء بنت عميس رضي الله عنها ، وصلى عليه عمر بن الخطاب ﷺ ، ودفن ليلاً إلى جانب صاحبه ﷺ ، فجعل رأسه بمحاذاة كتفي رسول الله ﷺ(٥). وقد ذكر أنه أوصى ﷺ بخمس ماله ، وقال « آخذ من مالي ما أخذ الله من فيء المسلمين »(٦).

---

(١) ابن سعد : الطبقات ، جـ ٣ ، ص ٢٠٢ ، الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ،ص ٤١٩ ؛ الذهبي : عهد الخلفاء الراشدين ، ص ١١٥ .
(٢) ابن سعد : الطبقات ، جـ ٣ ، ص ١٩٨ ؛ ابن كثير : خلافة أبي بكر ، ص ٣٣ .
(٣) ابن سعد : الطبقات ، جـ ٣ ، ص ١٩٦ . انظر الذهبي : عهد الخلفاء ، ص ١١٩ ؛ ابن كثير : خلافة أبي بكر ، ص ٣٤ . وخرج ابن حبان قال « أخبرنا عبد الله بن محمد الأزدي ، حدثنا إسحاق بن إبراهيم ، أخبرنا المقرىء ، حدثنا سعيد بن أبي أيوب ، حدثني جعفر بن ربيعة ، عن مجاهد بن وردان ، عن عروة : عن عائشة قالت : كنت عند أبي بكر حين حضرته الوفاة فتمثلتُ بهذا البيت :

من لا يزال دمعُه مُقنّعاً　　　يوشك أن يكون مَدْفُوقا

فقال : يا بُنية ! لا تقولي هكذا ، ولكن قولي ﴿ وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ ﴾ قال المحقق : إسناده صحيح ، رجاله رجال الشيخين غير مجاهد بن وردان ، فقد روى له أصحاب السنن ، وهو صدوق (ابن بلبان : صحيح ابن حبان ، جـ ٧ ، ص ٣٠٨ ، حاشية ١) .
(٤) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٤٢٣ .
(٥) ابن سعد : الطبقات ، جـ ٣ ، ص ٢٠٣-٢٠٩ ؛ الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٤٢١-٤٢٢ .
(٦) ابن سعد : الطبقات ، جـ ٣ ، ص ١٩٤ ؛ ابن كثير : خلافة أبي بكر ، ص ٣٣ .



الفصل الثاني

الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه

الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه

اسمه ونسبه وألقابه : هو عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رياح بن عبد الله بن قُرط بن رَزَاح بن عَدِي بن كعب بن لؤي .

يجتمع نسبه مع نسب النبي ﷺ في الجد السابع للنبي ﷺ كعب بن لؤي . والبطن القرشي الذي ينسب إليه عَدي بن كعب ، فيقال : العَدَوي ، وهذا البطن كان قبل البعثة من البطون القرشية العادية ، فلا يصل ـ مثلاً ـ إلى مقام بني هاشم أو بني أمية .

وكان يكنى بأبي حفص ، وهي الغالبة عليه ، كما كان يكنى أيضاً بأبي عبد الله . وله ألقاب من أشهرها الفاروق ، وقد لقب به بعد إسلامه ، وكان ـ أيضاً ـ يلقب بالأصلع[١] .

مولده ونشأته : ولد بعد عام الفيل بثلاث عشرة سنة ، وقيل قبل البعثة النبوية بثلاثين سنة ، أي بعد الفيل بعشر سنين[٢] ، وبذلك يكون بينه وبين الرسول ﷺ من عشر إلى ثلاث عشرة سنة .

كان يخرج بإبل والده الخطاب إلى وادي ضَجْنان على بعد خمسة وعشرين ميلاً من مكة[٣] ليقوم برعيها وكذلك الاحتطاب عليها ، وكان والده فظاً غليظاً عليه[٤] ، يقول عمر عنه « كنت أرعى إبل الخطاب بهذا الوادي في مدرعة صوف ، وكان فظاً يُتعبني إذا عملت، ويضربني إذا قصرت »[٥] .

آلت السفارة إلى عمر بن الخطاب في الجاهلية ، فكانت قريش إذا وقعت بينهم حرب أو بينهم وبين غيرهم بعثوه سفيراً ، وإذا نافرهم منافر ، أو فاخرهم مفاخر بعثوه منافراً ومفاخراً ورضوا به[٦] .

---

(١) ابن قتيبة : المعارف ، ص ١٨٠،١٧٩ ؛ ابن المبرد : محض الصواب ، جـ ١ ، ص ١٣١ ، ٣٢٨ - ٣٢٩ .
(٢) ابن حجر : الإصابة ، جـ ٤ ، ص ٥٨٨ .
(٣) ياقوت : معجم البلدان ، جـ ٣ ، ص ٤٥٣ .
(٤) ابن سعد : الطبقات ، جـ ٣ ، ص ٢٦٦ - ٢٦٧ .
(٥) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ، ص ٢١٩ .
(٦) ابن المبرد : محض الصواب ، جـ ١ ، ص ١٤٢ .

ويرى بعض الكتاب المحدثين أنه لم يكن لعمر من هذا المنصب إلا الاسم ، لأن «قريشاً لم تكن قَبِيلَ حَرْبٍ وقتال ، وأنها لا تحارب إلا في الندرة ، وأنه لا يكاد يجرؤ على مفاخرتها أحد من العرب » [١].

وفي أيام الإسلام الأولى عذب عمر بعض المسلمين قبل أن يسلم ، فقد ثبت أنه كان يوثق أخته وابن عمه سعيد بن زيد رضي الله عنهما اللذين كانا من السابقين إلى الإسلام[٢] ، وقد روي أنه يعذب جارية بني مؤمل ـ حي من بني عدي ـ لتترك الإسلام ، فكان يضربها ، فابتاعها أبو بكر الصديق ﷺ ، فأعتقها [٣].

صفته الخَلْقية : أخرج ابن أبي الدنيا وغيره بسند صحيح عن أبي رجاء العطاردي في وصفه قال « كان عمر بن الخطاب رجلاً طوالاً ، جسيماً أبيض ، شديد حمرة العينين ، في عارضه خفة ، سبلته كثيرة الشعر في أطرافها صُهبة » [٤].

أولاده وزوجاته : تزوج عمر ﷺ في حياته ثماني زوجات ، وخلف من سبع منهن عشرة من الولد ، ستة ذكور ، وأربع إناث ؛ فمن زينب بنت مظعون الجمحي ولد له : عبد الله ، وعبد الرحمن الأكبر ، وحفصة .

ومن مُليكة بنت جرول الخزاعي ولد له : عبيد الله .

ومن أم حكيم بنت الحارث بن هشام المخزومي ولدت له : فاطمة .

ومن جميلة أخت عاصم بن ثابت الأنصاري ولد له : عاصم .

ومن أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب ﷺ ـ وأمها فاطمة بنت رسول الله ﷺ ـ

(١) علي وناجي الطنطاوي : أخبار عمر ، ص ١٠ .
(٢) البخاري : الصحيح ، جـ ٣ ، ص ١٤٠٤ .
(٣) ابن هشام : السيرة ، جـ ١ ، ص ٣٩٤ . ومما اشتهر أن عمر ﷺ ضحك وبكى مرة عند بعض أصحابه ، وحين سُئل عن ذلك خبرهم بأن سبب ضحكه كونه في الجاهلية يعبد صنماً من العجوة ، ثم يأكله إذا جاع ، أما بكاؤه فكان بسبب أن ابنة له وأدها وهي تنفض التراب عن لحيته . وهذه القصة ليس لها وجود في المصادر ، ولكن ذكرها عباس محمود العقاد في كتابه « عبقرية عمر » (عبد السلام بن محسن آل عيسى : دراسة نقدية في المرويات الواردة في شخصية عمر بن الخطاب ﷺ وسياسته الإدارية ، جـ ١ ، ص ١١١-١١٢) . راجع (العقاد : عبقرية عمر ، ص ٥٩٩-٦٠٠) .
(٤) ابن المبرد : محض الصواب ، جـ ١ ، ص ١٣٥ ، ١٣٧ . والسَّبَلَة عند العَرب مُقدَّم اللّحْية وما أسْبَل منها على الصَّدْر (ابن الأثير : النهاية في غريب الحديث ، جـ ٢ ، ص ٣٣٩) والصُّهْبة حمرة يعلوها سواد (المصدر نفسه ، جـ ٣ ، ص ٦٢) .

جاءت : رقية وزيد .

ومن لُهَيَّة ـ امرأة من اليمن ـ ولد لـه : عبد الرحمن الأوسط أو الأصغر .

ومن أم ولد اسمها فُكَيْهة ولدت لـه: زينب ، وهي أصغر ولده[١] .

إسلامه : صح عن النبي ﷺ أنه دعا ربه جل وعز بقوله «اللهم أعز الإسلام بأحب هذين الرجلين إليك ؛ بأبي جهل ، أو بعمر بن الخطاب »[٢]، وفي رواية أخرى « اللهم أعز الإسلام بعمر »[٣].

وقد روي في قصة إسلام عمر ﷺ عدة روايات ، أشهرها قصته مع أخته وزوجها ابن عمه سعيد بن زيد ﷺ ، حين ذهب إلى بيتهما ، واعتدى عليهما بالضرب ، ثم رق قلبه بَعْدُ وقرأ في رقعة القرآن التي كانت معهما ، ثم التقى النبي ﷺ في دار الأرقم بن أبي الأرقم ﷺ ، وأعلن إسلامه[٤] .

إلا أن الذي ثبت بأسانيد حسنة وصحيحة أخبار وأقوال حول إسلام عمر ﷺ ليس فيها حكاية للطريقة التي أسلم بها ، منها تعاطفه مع المسلمين الذين عزموا على الهجرة إلى الحبشة ، فقد مر على ليلى بنت أبي حتمة رضي الله عنها زوج عامر بن ربيعة ﷺ ، وهي تتجهز للرحيل ، فسألها عن وجهتها ، فلما خبرته قال : «صحبكم الله » ، وحين عاد زوجها وصفت ما وجدته من عمر ، وإنها رجت إسلامه ، رد عليها آيساً منه: «لا يسلم حتى يسلم حمار الخطاب » .

ومنها أنه حين أسلم ذهب إلى أنقل القرشيين للأخبار ، وهو جميل بن معمر الجمحي ، وأخبره بإسلامه ، فأخذ هذا على الفور يتنقل في مكة ويردد أن عمرَ قد صبأ ، فكان عمر يرد عليه بأنه أسلم ، وقد أفضى الأمر في النهاية إلى عراك بين عمر والمشركين

---

(١) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ، ص ١٩٨-١٩٩ ؛ ابن الأثير : الكامل ، جـ ٣ ، ص ٥٣-٥٤ .

(٢) المباركفوري : تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي ، جـ ١٠ ، ص ١٦٠ .

(٣) مهدي رزق الله أحمد : السيرة النبوية ، ص ٢١٤ .

(٤) انظر هذه الروايات والحكم على أسانيدها في ابن هشام : السيرة ، جـ ١ ، ص ١٢٣ – ١٢٨ ؛ أحمد : فضائل الصحابة ، تحقيق وصي الله محمد عباس ، جـ ١ ، ص ٢٧٩ – ٢٨٨ ؛ ابن المبرد : محض الصواب ، جـ ١ ، ص ١٤٨ – ١٦١ .

لم ينتهِ إلا بتدخل من العاص بن وائل الذي زجر القوم عنه[١] .

ولقد كان إسلام عمر ﷺ نصراً للإسلام والمسلمين في مكة ، ففي الصحيح أن عبد الله بن مسعود ﷺ قال « **ما زلنا أعزة منذ أن أسلم عمر** »[٢]. وقد حدد بعض أهل السير إسلامه بالسنة السادسة من البعثة النبوية[٣].

جهوده في سبيل الإسلام قبل خلافته : ظل عمر ﷺ منذ إسلامه ملازماً للنبي ﷺ ، وقد أظهر في مواقف كثيرة شدة في الحق ، وقوة في مواجهة الباطل ، وإخلاصاً في نصرة الدين ، ومحضاً في النصح للمسلمين . وقد أنعم الله عليه بعقل وافر ، ورأي صائب ، وفراسة لا تخيب ، فاستثمر ذلك كله في تصديق الرسول ﷺ ، والذود عنه ، وإعزاز الإسلام ، والذب عن حياضه . وفيما يلي نلقي أضواء على مواقف عمر ﷺ في حياة الرسول ﷺ وعهد أبي بكر ﷺ .

في العهد المكي : يروى أن عمر ﷺ ألح على النبي ﷺ أن يَخرج المسلمون معلنين عن أنفسهم في مكة ، فوافق النبي ﷺ على ذلك ، لأنه رأى ـ فيما يبدو ـ أن الوقت يناسب مثل هذا الإعلان ، فخرج المسلمون في صفين ، يتقدم أحدهما عمر ﷺ ، والآخر حمزة ﷺ ، فمازالوا يسيرون إلى أن دخلوا المسجد ، فأصابت المشركين من جراء ذلك كآبة لم يصبهم مثلها[٤].

وعندما أمر الرسول ﷺ بالهجرة إلى المدينة اتفق عمر ﷺ ـ كما ورد بسند حسن ـ مع اثنين من الصحابة على الخروج ، وهما عياش بن أبي ربيعة وهشام بن العاص رضي الله عنهما ، واتعد معهما عند ماء على بعد عشرة أميال من مكة ، فوصل عمر وعياش

---

(١) العمري : السيرة النبوية الصحيحة ، جـ ١ ، ص ١٧٧ – ١٧٩ ؛ مهدي رزق الله أحمد : السيرة النبوية ، ص٢١٣ . وفي البخاري أن عمر حين أسلم خاف على نفسه من الناس الذين تجمعوا عند داره يريدون البطش به ، فما فرقهم إلا العاص بن وائل السهمي (الصحيح ، جـ ٣ ، ص ١٤٠٣) .

(٢) البخاري : الصحيح ، جـ ٣ ، ص ١٣٤٨ ، ١٤٠٣ .

(٣) ابن سعد : الطبقات الكبرى ، جـ ٣ ، ص ٢٦٩ ؛ ابن حجر : فتح الباري ، جـ ٧ ، ص ١٧٨ ، ابن المبرد : محض الصواب ، جـ ١ ، ص ١٦٣ ، ١٦٧ .

(٤) الذهبي : السيرة النبوية ، ص ١٨٠ . وقال الذهبي عن سند هذا الخبر بأنه ضعيف .

فقط وحبس عنهما هشام[١]، فسار الاثنان والتقيا في الطريق - فيما يبدو - بمهاجرين آخرين، فوصل عمر إلى المدينة في عشرين من أصحاب رسول الله ﷺ[٢].

في العهد المدني: شهد عمر ﷺ المشاهد النبوية كلها، فلم يتخلف عن غزوة غزاها النبي ﷺ[٣]، ولقد سجل الرواة عدداً من المواقف التي حدثت لعمر أثناء تلك الأحداث. ففي غزوة بدر كان عمر من الصحابة الذين تكلموا وأحسنوا في كلامهم لما طلب النبي ﷺ المشورة في شأن مواجهة جيش المشركين الزاحف نحو بدر، كما برز من ضمن المقاتلين فيها[٤]، وفي نهايتها استشار الرسول ﷺ أصحابه في أسرى المشركين السبعين، فأبدى عمر رأيه فيهم، فأشار بقتلهم[٥].

وفي غزوة أحد كان من جملة الصحابة الذين ثبتوا مع النبي ﷺ لما حصل للمسلمين فيها ما حصل من الانكسار[٦]، وفي نهاية المعركة رد على أبي سفيان الذي أراد أن يتأكد من صحة ما أشيع من قتل النبي ﷺ وصاحبيه أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، ثم لما افتخر أبو سفيان بآلهته أمر الرسول ﷺ عمر بالرد عليه[٧].

ولقد وقف عمر ﷺ موقفاً صارماً من المنافق عبد الله بن أبي بن سلول في غزوة بني المصطلق الذي استغل ما حدث فيها من شجار بين المهاجرين والأنصار لإثارة الفتنة، حيث أشار عمر ﷺ بقتله[٨].

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية، جـ ٢، ص ١٢٩-١٣١. أما ما يروى من أن عمر ﷺ خرج علانية متحدياً المشركين بقوله «شاهت الوجوه! لا يرغم الله إلا هذه المعاطس، من أراد أن تثكله أمه، ويوتم ولده، ويُرمل زوجته، فليلقني وراء هذا الوادي ...» (ابن الأثير: أسد الغابة، جـ ٤، ص ١٤٤-١٤٥؛ الصفوري: مختصر المحاسن المجتمعة، ص ١٢٣-١٢٤؛ السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص ١٠٩) فهو خبر لا يصح كما حقق ذلك الألباني (دفاع عن الحديث النبوي والسيرة، ص ٤٣).

(٢) البخاري: الصحيح، جـ ٣، ص ١٤٢٨، جـ ٤، ص ١٨٨٦.

(٣) السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص ١٠٩.

(٤) ابن هشام: السيرة النبوية، جـ ٢، ص ٣٠٥، ٣٣٦.

(٥) مسلم: الصحيح، جـ ٣، ص ١٣٨٥؛ ابن كثير: السيرة النبوية، جـ ٢، ص ٤٥٧-٤٦٠.

(٦) ابن هشام: السيرة النبوية، جـ ٣، ص ١٢٠، ١٢١، ١٢٥.

(٧) ابن هشام: السيرة النبوية، جـ ٣، ص ١٣٦؛ البخاري: الصحيح، جـ ٣، ص ١١٠٥-١١٠٦، جـ ٤، ص ١٤٨٦-١٤٨٧.

(٨) ابن هشام: السيرة النبوية، جـ ٣، ص ٤٠٢-٤٠٣؛ البخاري: الصحيح، جـ ٣، ص ١٢٩٦، جـ ٤، ص ١٨٦١-١٨٦٢، ١٨٦٣؛ مسلم: الصحيح، جـ ٤، ص ١٩٩٨-١٩٩٩.

وعند الموافقة على شروط صلح الحديبية مع قريش راجع عمر ﷺ فيها فوراً النبي ﷺ وأبا بكر ﷺ بعده ، إذ رأى أن في ذلك إعطاء للكفار حقوقاً الأجدر ألا يحصلوا عليها ، حيث قال « **فلمَ نعطِي الدنية في ديننا ؟** »[١]، ولم يكن تصرفه هذا شكاً منه في عمل النبي ﷺ بل فعل ما فعل طلباً في « كشف ما خفي عليه ، وحثاً على إذلال الكفار ، لما عرف من قوته في نصرة الدين »[٢].

ولقد كان شديداً على أبي سفيان حين قدم المدينة وسأله أن يشفع له عند النبي ﷺ ليكلمه في تجديد عقد الحديبية بعد خرق قريش المعاهدة بقتالها في صف حلفائها بني بكر ضد خزاعة حلفاء الرسول ﷺ ، إذ روي أنه رد عليه بقوله « **أأنا أشفع لكم عند رسول الله ﷺ ؟ فوالله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به** »[٣].

وعند دخول مكة في الفتح سمع عمر ﷺ أحد الصحابة يقول « اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل الحرمة »، فخبر الرسول ﷺ بذلك ، فأمر ﷺ أن تؤخذ الراية التي بيد ذلك الصحابي وتعطى غيره[٤].

وفي غزوة حنين ثبت عمر ﷺ في النفر الثابتين مع النبي ﷺ لما فاجأت هوازن المسلمين ، وفروا أمامها مدبرين . وحينما حث الرسول ﷺ على النفقة لتجهيز جيش العسرة في غزوة تبوك تصدق عمر ﷺ بمائة أوقية ، وقيل أتى بنصف ما يملك من المال[٥].

ومن ناحية أخرى فقد قاد عمر ﷺ سرية جهزها رسول الله ﷺ إلى هوازن في تربة سنة ٧ هـ ، وعاد عمر بها دون قتال ، لأن القوم تفرقوا عندما علموا بمسيره إليهم[٦]. كما خرج عمر مع أبي عبيدة بن الجراح ﷺ الذي خرج في سنة ٨ هـ مدداً لعمرو بن العاص ﷺ في سرية ذات السلاسل[٧].

وخلاصة القول أن عمر ﷺ حضر الغزوات النبوية جميعها ، كما أسند إليه

---

(١) البخاري : الصحيح ، جـ ٢ ، ص ٩٧٨ .
(٢) الشامي : سبل الهدى والرشاد ، جـ ٥ ، ص ٧٨ .
(٣) ابن هشام : السيرة ، جـ ٤ ، ص ٥٥ .
(٤) ابن هشام : السيرة ، جـ ٤ ، ص ٦٩ .
(٥) عبد القادر السندي : الذهب المسبوك في تحقيق روايات غزوة تبوك ، ص ١٩٣ ، ١٩٧ .
(٦) الواقدي : المغازي ، جـ ٢ ، ص ٥٢٧ .
(٧) ابن هشام : السيرة ، جـ ٤ ، ص ٣٦٠ .

الرسول ﷺ قيادة بعض السرايا ، وخرج مجاهداً في سرايا قادها بعض الصحابة . ونلاحظ من مشاركة عمر ﷺ في تلك الأحداث ما يلي :

ـ شدته ﷺ مع المنافقين كما في موقفه مع عبد الله بن أبي سلول .

ـ سعيه الحثيث في إذلال الكفار وإعزاز المسلمين كما في موقفه في صلح الحديبية .

ـ مشاركته مشاركة فعالة في الرأي والمشورة في زمن الرسول ﷺ .

ـ بذله ما يستطيع من المال لتجهيز جيش المسلمين .

وعلى صعيد آخر فقد وعى عمر ﷺ روح الشريعة الإسلامية وأهدافها ، وتفاعل في عقله وقلبه مع دينه[١] ، فوافق في عديد من آرائه القرآن ، فقد روى بسند حسن عن ابن عمر قوله «ما نزل بالناس أمر قط فقالوا فيه ، وقال فيه ابن الخطاب أو قال عمر ، إلا نزل القرآن فيه على نحو مما قال عمر»[٢] . وقد قال ابن حجر[٣] «وأكثر ما وقفنا عليه منها بالتعيين على خمسة عشر ... » . ونقل السيوطي[٤] أن عمر وافق ربه في أحد وعشرين موضعاً . ولقد صح عن عمر ﷺ أنه قال «**وافقت ربي في ثلاث**[٥] ، فقلت : يا رسول الله ، لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى ، فنزلت: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ (البقرة ، آية ١٢٥) ، **وآية الحجاب** ، قلت : يا رسول الله ، لو أمرت نساءك أن يحتجبن ، فإنه يكلمهن البر والفاجر ، فنزلت آية الحجاب ، واجتمع نساء النبي ﷺ في الغيرة عليه ، فقلت لهن : **عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن** ، فنزلت هذه الآية»[٦] . **ومن أشهر ما وافق** فيه عمر القرآن غير ما ذكر رأيه في أسرى بدر ، والصلاة على المنافقين ، وتحريم الخمر . وغني عن البيان أن عمر ﷺ يعد أحد كبار علماء الصحابة وزهادهم . وقد روى له عن النبي ﷺ خمسمائة وتسع وثلاثون حديثاً[٧] .

---

(١) أمين القضاة : الخلفاء الراشدون ، ص ٤٥ .

(٢) أحمد : فضائل الصحابة ، جـ ١ ، ص ٢٥١ .

(٣) فتح الباري ، جـ ١ ، ص ٥٠٥ .

(٤) تاريخ الخلفاء ، ص ١١٥ .

(٥) قال ابن حجر « وليس في تخصيصه العدد بالثلاث ما ينفي الزيادة عليها ، لأنه حصلت له الموافقة في أشياء غير هذه ... » (فتح الباري ، جـ ١ ، ص ٥٠٥) .

(٦) البخاري : الصحيح ، جـ ١ ، ص ١٥٧ .

(٧) السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ١٠٣ - ١٠٤ .

في خلافة أبي بكر الصديق : كما مر معنا في الحديث عن البيعة لأبي بكر ﷺ لم يتحمل عمر ﷺ مصيبة وفاة النبي ﷺ ، وطفق ينكر أنه مات ، وأخذ يهدد بالسلاح من يقول بموته ، وبقي على تلك الحال حتى خطب أبو بكر ﷺ بالمسلمين مؤكداً وفاة النبي ﷺ مستشهداً بالآيات القرآنية ، فعندئذ ثاب عمر إلى رشده ، وعاد إلى عقله .

وبعد ذلك انطلق مع أبي بكر ﷺ إلى سقيفة بني ساعدة التي اجتمع فيها الأنصار لانتخاب خليفة للرسول ﷺ ، فكان له أثره في لفت نظر الأنصار في أحقية أبي بكر ﷺ دون غيره في خلافة النبي ﷺ ، حيث نبه إلى استخلاف النبي ﷺ له في مرضه بالصلاة ، وأنه قد خصه الله بثلاثة صفات في قوله سبحانه ﴿ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ (التوبة ، آية ٤٠) ، وهي : ثاني اثنين ، والصحبة ، ومعية الله . فكان لكلامه وقع كبير في نفوس الأنصار ، ومن ثم مبايعتهم لأبي بكر ﷺ عن رضى وقناعة .

ولقد ظل عمر ﷺ بجانب أبي بكر ﷺ طوال خلافته يؤيده ويسدي إليه نصحه ، ففي غرة عهده راجعه عمر في عدم قتال الممتنعين عن دفع الزكاة ، فأقنعه أبو بكر بارتدادهم عن الإسلام ، واستحقاقهم القتال حتى يدفعوها [١] .

وحين جمع أبو بكر الصحابة ، واستشارهم في فتح بلاد الشام أيده عمر ﷺ [٢] . وكان عمر هو الذي أشار على أبي بكر في تولية خالد بن الوليد ﷺ قيادة المجاهدين المسلمين في بلاد العراق ، والملاحظ أن جمع القرآن في عهد أبي بكر كان ابتداءً من رأي عمر الذي أشار بذلك حين استحر القتل في أصحاب رسول الله ﷺ في حرب مسيلمة في اليمامة .

من فضائل عمر ﷺ : جاء في وصف عمر ﷺ والثناء عليه عدة أحاديث ، منها إلهام الله سبحانه له وتوفيقه إلى الخير ، فقال ﷺ « **لقد كان فيما قبلكم من الأمم ناس مُحَدَّثُون [أي ملهمون] ، فإن يكُ في أمتي أحد فإنه عمر** » [٣]، وقال ﷺ « **إن الله جعل الحق على**

---

(١) سبق أن تطرقنا إلى هذه المواقف فيما كتبناه عن أبي بكر الصديق .
(٢) الكلاعي : الاكتفاء ، جـ ٣ ، ص ١١١ .
(٣) البخاري : الصحيح ، جـ ٣ ، ص ١٣٤٩ . وانظر مسلم : الصحيح ، جـ ٤ ، ص ١٨٦٤ .

لسان عمر وقلبه»(١).

ومنها فرار الشيطان منه قال ﷺ مخاطباً عمر ﷺ **« إيهاً يا ابن الخطاب ، والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان سالكاً فجاً قط إلا سلك فجاً غير فجك »** (٢).

ومنها تنويهه ﷺ بعلم عمر ، إذ قال **« بينا أنا نائم شربت ــ يعنى اللبن ــ حتى أنظر الري يجري في ظُفُري ، أو في أظفاري ، ثم ناولت عمر ، فقالوا : فما أولته ؟ قال : العلم »** (٣).

ومنها الإشادة بقوة دينه ، حيث قال ﷺ **« بينا أنا نائم ! رأيت الناس عرضوا علي ، وعليهم قُمُص ، فمنها ما يبلغ الثدي ، ومنها ما يبلغ دون ذلك ، وعرض عليّ عمرَ وعليه قميص اجتره ، قالوا : فما أولته يا رسول الله ؟ قال : الدين »** (٤).

ومن ناحية أخرى فقد تحدث جمع من أصحاب النبي ﷺ عما خبروه من صفات عمر ﷺ ، فقد أشاد علي ﷺ بصلاحه ، ونطق السكينة على لسانه ، إذ قال«إذا ذكر الصالحون فحيهلا بعمر ، ما كنا نبعد أن السكينة تنطق على لسان عمر » (٥).

كما شهد له حذيفة ﷺ بقوته في الحق ، فقال «والله ما أعرف رجلاً لا تأخذه في الله لومة لائم إلا عمر » (٦).

واعتبرته عائشة رضي الله عنها في ذكائه وفطنته لا يُماثل ، فقالت عنه «كان والله أحوذياً ، نسيج وحده » (٧).

ونوه ابن عباس ﷺ بحذره فقال «كان كالطير الحذر الذي يرى أن له بكل طريق شَرَكاً يأخذه » (٨).

وأشار معاوية ﷺ إلى زهده في الدنيا فقال «وأما عمر فأرادته الدنيا ولم يردها»(٩).

---

(١) المباركفوري : تحفة الأحوذي ، جـ ١٠ ، ص ١٦١ .
(٢) البخاري : الصحيح ، جـ ٣ ، ص ١٣٤٧ – ١٣٤٨ . وانظر مسلم : الصحيح ، جـ ٤ ، ص ١٨٦٤ .
(٣) البخاري : الصحيح ، جـ ٣ ، ص ١٣٤٦ . وانظر مسلم : الصحيح ، جـ ٤ ، ص ١٨٥٩ - ١٨٦٠ .
(٤) البخاري : الصحيح ، جـ ٣ ، ص ١٣٤٩-١٣٥٠ . وانظر مسلم : الصحيح ، جـ ٤ ، ص ١٨٥٩ .
(٥) السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ١١٣ .
(٦) المصدر نفسه ، الصفحة نفسها .
(٧) المصدر نفسه ، الصفحة نفسها .
(٨) المصدر نفسه ، الصفحة نفسها .
(٩) المصدر نفسه ، الصفحة نفسها .

ولايته الخلافة : كان أبو بكر ﷺ قد أوصى باستخلاف عمر ﷺ من بعده ، فقد روي أنه في مرضه الذي توفي فيه استدعى كبار الصحابة ، وسألهم أن يأمروا بعده واحداً منهم ، لأن ذلك أجدر ألا يختلفوا فيما بينهم بعد وفاته . فشاور بعضهم بعضاً ، ثم عادوا إليه طالبين منه أن يرشح لهم من يراه خليقاً بخلافته . فأخذ عليهم العهد أن يرضوا باختياره ، ثم سألهم أن يمهلوه ، فوقع اختياره على عمر ﷺ [١].

وقد ذكر أنه استشار فيه المهاجرين والأنصار ، فقال عبد الرحمن بن عوف ﷺ عنه: « هو والله أفضل من رأيك فيه». وقال عنه عثمان ﷺ « اللهم علمي به أن سريرته خير من علانيته ، وأنه ليس فينا مثله » ، وقال أسيد بن الحضير ﷺ عنه « الذي يُسر خير من الذي يعلن ، ولن يلي هذا الأمر أحد أقوى عليه منه » .

فلما اطمأن أبو بكر ﷺ من سلامة اختياره ، وتوافق ذلك مع رأي كبار الصحابة دعا عثمان ﷺ وأمره أن يكتب عهداً لعمر ﷺ بالخلافة من بعده ، وهذا نصه «بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما عهد أبو بكر بن أبي قحافة في آخر عهده بالدنيا خارجاً منها ، وعند أول عهده بالآخرة داخلاً فيها ؛ حيث يؤمن الكافر ، ويوقن الفاجر ، ويصدق الكاذب ، إني استخلفتُ عليكم بعدي عمر بن الخطاب ، فاسمعوا له وأطيعوا . وإني لم آلُ الله ورسوله ودينه ونفسي وإياكم خيراً ، فإن عدل فذلك ظني به وعلمي فيه ، وإن بدل فلكل امرىء ما اكتسب ، والخير أردت ، ولا أعلم الغيب ، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » [٢].

ويلاحظ مما سبق أن أبا بكر ﷺ لم ينفرد برأيه في اختيار عمر ﷺ ، إذ أنه خوفاً على المسلمين من الخلاف من بعده سأل الصحابة أولاً أن يعينوا واحداً منهم لخلافته ، وبعد التشاور فيما بينهم رجعوا إليه طالبين منه أن يختار لهم بنفسه من يراه مناسباً ، فوقع اختياره على عمر ، وكان رائده في هذا الاختيار الإخلاص لله ولرسوله ﷺ ولدينه ، وتقديم مصلحة المسلمين على غيرها .

ثم أن أبا بكر لم يكتفِ بذلك ، بل إنه حين اختار عمر عاد ليستشير الصحابة فيه ،

---

(١) العمري : عصر الخلافة الراشدة ، ص ٤٧ - ٤٨ .

(٢) السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ٧٦ - ٧٧ .

فلما أثنوا عليه خيراً ، واطمأن إلى حسن اختياره كتب العهد الذي سقنا نصه قبل قليل . وبهذا تكون الشورى قد تحققت في اختيار عمر لخلافة المسلمين .

وعلى أي حال فإن ما قام به أبو بكر ﷺ مجرد ترشيح قصد منه نصيحة الأمة ، وإرشاد أهل الحل والعقد ، ولا تنعقد به الخلافة ، إذ الخلافة لا تنعقد إلا إذا وافقت الأمة على الترشيح ، وبايعت للمرشح بعد وفاة الخليفة . « وهذا ما تم لعمر بن الخطاب ، حيث بايعه المسلمون في المدينة ، وأخذت له البيعة من أهل البلدان »[١]. وكانت البيعة له في اليوم الذي توفي فيه أبو بكر ﷺ ليلة الثلاثاء ٢٢ جمادى الآخرة ١٣هـ[٢].

خطبته ﷺ عقب البيعة : روي أن أول كلام تكلم به عمر ﷺ حين صعد المنبر بعد ولايته الخلافة هو دعاؤه الله بقوله « اللهم إني شديد فليني ، وإني ضعيف فقوني ، وإني بخيل فسخني » . وقيل إن أول خطبة خطبها عمر ﷺ هي قوله ـ بعد أن حمد الله أثنى عليه ـ «أما بعد فقد ابتليتُ بكم ، وابتليتم بي ، وخلفت فيكم بعد صاحبي ، فمن كان بحضرتنا باشرناه بأنفسنا ، ومن غاب عنا ولينا أمره أهل القوة والأمانة ، فمن يحسن نزده حسناً ، ومن يسيء نعاقبه ، ويغفر الله لنا ولكم »[٣] . ونلاحظ من خلال هذه الخطبة ما يلي :

ـ أن عمر ﷺ وهو في غرة عهده كان ينظر إلى ولايته العظمى على المسلمين بأنها ابتلاء وتكليف ، وليست بمغنم وتشريف .

ـ أنه كشف عن بعض معالم سياسته في الحكم ، فأكد أنه سيباشر بنفسه إدارة شؤون المسلمين الموجودين عنده ، أما بقية المسلمين في الأمصار فسوف يولي أمرهم رجال تتوفر فيهم القوة أولاً ، ثم الأمانة ثانياً . كذلك أوضح أنه سيكافيء المحسنين ، ويضرب بيد من حديد على المسيئين .

لقب أمير المؤمنين : كان أبو بكر ﷺ يدعى خليفة رسول الله ﷺ ، ولما تولى عمر

---

(١) العمري : عصر الخلافة الراشدة ، ص ٤٩ .
(٢) ابن سعد : الطبقات ، جـ ٣ ، ص ٢٧٤ .
(٣) ابن سعد : الطبقات ، جـ ٣ ، ص ٢٧٤ .

ﷺ دعي بخليفة خليفة رسول الله ﷺ ، فكان ذلك لقباً طويلاً ، ثم ما لبث أن لُقّب (أمير المؤمنين) . وقد روي بسند صحيح أن أول من جرى على لسانه تلقيب عمر ﷺ بهذا اللقب لبيد بن ربيعة وعدي بن حاتم الطائي لما قدما من العراق بعيد خلافته ، حيث قالا لعمرو بن العاص ﷺ « استأذن لنا على أمير المؤمنين » ، فقال«أنتما والله أصبتما اسمه ، إنه أمير ، ونحن المؤمنون » . وقد روي عن أن عمر ﷺ سمى نفسه ، فقال « أنتم المؤمنون ، وأنا أميركم »[١].

المنجزات في عهد عمر ﷺ: شهد عهد عمر ﷺ الذي امتد حوالي عشر سنوات كثيراً من المنجزات ، وقد جاءت متنوعة في كافة المجالات العسكرية والإدارية والمالية والاقتصادية والعمرانية والاجتماعية ، حيث واكب عمر ﷺ المتغيرات التي واجهها المسلمون في عصره ، وتفاعل معها بما يتوافق مع روح الإسلام[٢]، والمنجزات التي سوف نستعرضها بالتفصيل هي كالتالي :

- الفتوحات الإسلامية .
- إنشاء ديوان العطاء .
- وضع التقويم الإسلامي (الهجري) .
- إخراج اليهود والنصارى من جزيرة العرب .
- توسعة وعمارة المسجدين الحرام والنبوي .
- إنشاء مدن إسلامية جديدة في البلاد المفتوحة .
- تنظيم القضاء .

أولاً : الفتوحات الإسلامية

أ – فتوحات العراق وفارس : كان أبو بكر ﷺ ـ وهو على فراش الموت ـ قد أوصى خليفته عمر ﷺ بإمداد المثنى بن حارثة قائد المسلمين في العراق الذي كان قد وصل المدينة يطلب المدد لمواجهة الجموع الفارسية ، فلما استلم عمر ﷺ الخلافة بادر

(١) ابن المبرد : محض الصواب ، جـ ١ ، ص ٣١١ = ٣١٢ .
(٢) محمد رواس قلعه جي : موسوعة فقه عمر بن الخطاب ، ص ٨ .

بندب الناس للخروج إلى الجهاد في بلاد العراق ، فتثاقلوا في البداية لسماعهم بشراسة الجيوش الفارسية ، ثم ما لبثوا أن أسرعوا إلى ما ندبهم إليه ، فكان من أوائل من لبى النداء أبو عبيد بن مسعود الثقفي(١) ، فولاه عمر ﷺ قيادة الجيش الذي كان فيه كثير من المهاجرين والأنصار ، وأوصاه بقوله « اسمع من أصحاب النبي ﷺ ، وأشركهم في الأمر، ولا تجيبن مسرعاً حتى تتبين ، فإنها الحرب ، والحرب لا يصلحها إلا الرجل المكيث الذي يعرف الفرصة والكف»(٢). سار أبو عبيد بجيشه حتى وصل العراق ، فانضم إليه المثنى بمن معه من المسلمين .

وكانت الإمبراطورية الفارسية قد تعرضت لاضطرابات في بلاطها استمرت أربع سنوات ، حيث انتقل الحكم في تلك المدة بين تسعة من أفراد الأسرة الساسانية الحاكمة ، وقد ابتدأ مسلسل تلك الاضطرابات بقتل شيرويه والده أبرويز ، ثم قتل شيرويه ، وبعده تعاقب على الحكم عدة حكام من بينهم نساء ، قتل بعضهم وخلع بعضهم حتى استقر الحكم أخيراً لبوران بنت كسرى . وبمجرد أن تولت أطلقت يد القائد الفارسي الشهير رستم في شؤون الدولة والجيش ، فقام على الفور بتنظيم الثورة على المسلمين في السواد ، كما كون ثلاثة من الجيوش لمواجهة القوات الإسلامية ، فتمكن أبو عبيد من هزيمتها واحداً بعد الآخر ، ثم أعاد سلطان المسلمين ثانية إلى السواد(٣).

موقعة الجسر : ساءت هذه الهزائم كثيراً الفرس ، وبخاصة رستم ، فاختار قائداً من قادة الفرس عرف عنه الشدة في محاربة العرب وهو بهمن جاذويه ، وأسند إليه قيادة الجيش ، وزوده بعدد من الفيلة ، وأعطاه راية الفرس المسماة « درفش كابيان » التي كانوا يتيمنون بها ، فنزل بجيشه بقس الناطف على الشاطيء الشرقي لنهر الفرات ، وأقبل الجيش الإسلامي بقيادة أبي عبيد ، ونزل في الشاطيء المقابل في مكان يسمى المروحة ،

---

(١) يعد أبو عبيد بن مسعود الثقفي من الصحابة ، حيث قدم المدينة مع قومه ثقيف بعد عودة الرسول ﷺ من غزوة تبوك ، فأسلم في رمضان سنة ٩ هـ . راجع عن حياته وجهوده في الفتح (محمود شيت خطاب : قادة فتح العراق والجزيرة ، ص ٢٣٨ - ٢٤٧) .

(٢) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٤٤٤- ٤٤٥ .

(٣) العمري : عصر الخلافة ، ص ٣٢٨ - ٣٢٩ . راجع في الأوضاع السياسية للملكة الفرس وقتذاك أرثر كرستنسن: إيران في عهد الساسانيين ، ترجمة يحيى الخشاب ، ص ٤٧٩-٤٨٠ ؛ غلوب : الفتوحات العربية ، ص ٢٢٥-٢٢٦؛ أحمد الشامي : الخلفاء الراشدين ، ص ١٩٨- ١٩٩ .

فخير بهمن المسلمين : إما أن يعبروا النهر إليه ، أو يعبر هو بالفرس إليهم ، فاختار أبو عبيد العبور بجيشه إليه رغم أن جماعة من خيار المسلمين أشاروا عليه بالبقاء في مكانه ، وكان يقول « لا يكونوا أجرأ على الموت منا »(١). وبعبور المسلمين إلى الفرس افتقدوا ميزة انفتاحهم على الصحراء ، وصاروا محصورين بين العدو أمامهم ، والنهر من خلفهم ، فضلاً عما في موقعهم الجديد من مستنقعات .

وفي ٣٢ شعبان سنة ١٣هـ دارت بين الطرفين معركة عنيفة كانت بدايتها في صالح المسلمين ، ثم سرعان ما رجحت كفة الفرس بفعل الفيلة التي آذت المسلمين ، وأرعبت خيلهم ، فترجل أبو عبيد وجماعة من المجاهدين وتصدوا لهذه الفيلة ، ورغم أنهم نجحوا في قطع بُطُنها (أحزمتها) ومن ثم إسقاط ما كانت تحمله من مقاتلين إلا أنهم لم يستطيعوا أن يعطبوا شيئاً من تلك الفيلة أو يقتلوها ، بل إن كبير هذه الفيلة (الفيل الأبيض) هاجم قائد المسلمين أبا عبيد وداسه تحت أقدامه ، ثم قُتل سبعة من قومه ثقيف كلهم حملوا الراية بعده ، فاضطرب الجيش الإسلامي ، وفي تلك اللحظات انكسر الجسر الواصل بين الضفتين ربما لكثرة العابرين عليه من المسلمين ، وقد قيل إنه قطع من قبل أحد المسلمين (عبد الله بن مرثد الثقفي أو عبد الله بن يزيد الخطمي) ، حيث قال «موتوا على ما مات عليه أمراؤكم أو تظفروا» (٢)، وروى ابن أبي شيبة بسند صحيح إن المشركين (الفرس) أنفسهم هم الذي قطعوه ليحولوا بين المسلمين وبين العبور(٣).

على أي حال زاد قطع الجسر من اضطراب المسلمين ، فقتل عدد كبير منهم في الميدان ، ومات منهم كثيرون غرقاً في النهر ، وهنا حمل المثنى بن حارثة الراية واستطاع مع مجموعة من شجعان المسلمين إعادة ربط الجسر من جديد ، فانسحب بمن بقي من الجيش إلى الضفة الغربية من الفرات مع غروب شمس ذلك اليوم . وبينما قتل من الفرس المنتصرين حوالي ستة آلاف فقد استشهد من المسلمين أربعة آلاف ، كان فيهم كثير من الصحابة(٤)، وقد بلغ خبر هذه الوقعة لعمر ﷺ وهو يخطب على المنبر في المدينة

(١) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٤٥٤ .
(٢) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٤٥٧ .
(٣) ابن كثير : خلافة عمر ، ص ٩٠ ، وحاشية ١ .
(٤) راجع قائمة بأسماء من استشهد من الصحابة في أحمد عادل كمال : الطريق إلى المدائن ، ص ٤٠٩ - ٤١٠ حاشية .

عبد الله بن زيد ، فكانت شديدة عليه وعلى المسلمين ، وقد رأى عمر ﷺ شدة جزع من نجا منها من المسلمين حين عادوا إلى المدينة فكان يقول « لا تجزعوا يا معشر المسلمين أنا فئتكم ، إنما انحزتم إلي » .

وكان معاذ القارئ أخو بني النجار ممن شهد معركة الجسر ، فكان إذا قرأ قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ (الأنفال ، آية ١٦) « بكى فيقول له عمر : لا تبك يا معاذ ! أنا فئتك ، وإنما انحزت إلي »[١].

لقد كانت معركة الجسر أول مواجهة كبيرة يخسرها المسلمون أمام الفرس في العراق ، وقد كان سبب هزيمتهم فيها نسيان قائدهم أبي عبيد توجيهات عمر ﷺ له بالتريث ، وكونه عبر بجيشه إلى الفرس معرضاً عن نصائح مستشاريه بعدم العبور ، حيث حشر جيشه في مكان ضيق ، ثم افلت من يده عنصر التعاون بين الأسلحة المختلفة بخروج سلاح الفرسان من المعركة بعد ترجلهم لمواجهة الفيلة ، على أن المدهش في الأمر أن الجنود المسلمين في هذه المعركة ظلوا يقاتلون ببسالة حتى آخر رمق ، ولم يستطع الفرس أن يأسروا أحداً منهم رغم انكسارهم وتراجعهم .

وهنا لا يسع المتأمل « إلا الإعجاب بهذه البطولة من جميع أفراد هذا الجيش ، وفي مقدمتهم أبو عبيد نفسه وآله الذين استشهدوا معه»[٢]. ثم يمتد الإعجاب بقيادة المثنى بن حارثة الذي أنقذ ما أمكنه إنقاذه من الجند المسلمين بعد حالة الاضطراب والفوضى التي حلت بهم ، ولكن « عندما تنزل المحن بالجيوش تظهر الميزات الحقيقية بين القادة الذين يستطيعون أن يخرجوا بجيوشهم من تلك المحن أو الذين يسيرون بها إلى مصير مظلم محتوم» [٣].

موقعة البويب : كان المثنى بن حارثة بعد إصابته بجراح في وقعة الجسر قد انسحب بما بقي من جيش المسلمين إلى الحيرة ثم إلى أُليس جنوباً [٤]، وقد أرسل إلى عمر

---

(١) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٤٥٩ .
(٢) أحمد كمال : الطريق إلى المدائن ، ص ٤١٥ .
(٣) أحمد كمال : الطريق إلى المدائن ، ص ٤١٤ .
(٤) محمود شيت خطاب : قادة فتح العراق ، ص ٤١ .

ﷺ يطلب منه المدد ، فندب عمر ﷺ الناس للجهاد في العراق ، فتوافد على المثنى جموع من الأزد وتميم وطيء ، وقد كان بعضهم يريد التوجه إلى الشام ، فأقنعهم عمر ﷺ بالتوجه إلى العراق ، فكان من أوائل من بعثهم عمر ﷺ إلى هناك جرير بن عبد الله البجلي في رهط من قومه بجيلة[١] . كما أذن عمر ﷺ للذين عادوا إلى الإسلام ، وحسن أسلامهم من أهل الردة بالالتحاق بالمثنى ، ومن ناحية أخرى فقد وفدت على المثنى جموع من القبائل العربية في العراق حين دعاهم للجهاد ، وقد قيل إن فيهم طائفة من النصارى العرب[٢] .

كانت عيون الفرس ترصد أخبار هذه الحشود ، فأدركوا أن ما حصل في موقعة الجسر لم يكن بالنصر الحاسم الذي يوقف خطر المسلمين ، فأمرت بوران ملكة الفرس بنصيحة من كبار قادتها بإخراج جيش غالبه من الفرسان يقوده رجل يعرف العرب ويتكلم لغتهم ، وهو مهران بن باذان الذي كان والده والياً للفرس على اليمن ، فتحرك من المدائن وتوجه نحو الحيرة .

وحين علم المثنى بذلك تحرك نحوه ، وعسكر في البويب وهو مما يلي الكوفة عند نهير يتفرع من الفرات في الضفة الغربية ، وقد بعث المثنى إلى المجاهدين المسلمين بموافاته في هذا المكان ، وعلى جناح السرعة تكاملت جموعهم حتي بلغوا ثمانية آلاف .

أصبح المسلمون بمعسكرهم هذا بإزاء الجيش الفارسي ، لا يفصل بينهما سوى نهر الفرات ، ثم دارت مراسلات بين القائدين ، فأرسل مهران إلى المثنى يقول : « إما أن تعبروا إلينا ، وإما أن نعبر إليكم ، فقال المثنى : اعبروا »[٣] . ولا شك أن المثنى ومن معه من المسلمين قد استفادوا درساً مما حصل لهم في معركة الجسر السابقة بعبورهم إلى الفرس ، وإن كان ذلك العبور ـ كما مر ـ قد جرى برأي من أبي عبيد مخالفاً رأي كثيرين ربما كان المثنى أحدهم .

---

(١) أحمد كمال : الطريق إلى المدائن ، ص ٤١٨ – ٤٢٣ ؛ محمود شيت خطاب : قادة فتح العراق ، ص ٤١ – ٤٢ .

(٢) أحمد الشامي : الخلفاء الراشدون ، ص ١٤٠ . يشكك أحمد عادل كمال في مشاركة نصارى العرب مع المثنى ، ويحتج بكون الذي قيل إنه قائدهم وهو أنس بن هلال النميري كان مسلماً كما ذكر ذلك ابن حجر (الطريق إلى المدائن ، ص ٤٣٠) .

(٣) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٤٦١ .

وبعبور الفرس النهر أخذ المثنى ينظم صفوف المسلمين ، وكان ذلك في رمضان ، قيل في سنة ١٣ هـ ، أي بعد شهر تقريباً من وقعة الجسر[(١)] ، وقيل في السنة التالية ١٤هـ[(٢)] ، فأشار عليهم بالفطر ليقووا على الحرب ، حيث قام فيهم خطيباً ـ كما في رواية سيف بن عمر ـ فقال « إنكم صُوام ، والصوم مَرَقَّة ومضعَفة ، وإني أرى من الرأي أن تفطروا ، ثم تقووا بالطعام على قتال عدوكم . قالوا : نعم . فأفطروا »[(٣)].

أقبل الفرس في اثني عشر ألف مقاتل[(٤)] ، وقسموا أنفسهم في صفوف ثلاثة مع كل صف فيل ، وجعلوا مشاتهم أمام تلك الفيلة . وحينما اقتربوا من المسلمين ركب المثنى فرسه (الشموس) التي لا يركبها إلا عند عزمه على القتال ، وراح يطوف في جيشه ، فيقف على الرايات راية راية ، يحضهم على الجهاد ، ويزودهم بالتوجيهات والأوامر ، ويذكرهم بأحسن ما فيهم ، وكان يقول لأصحاب كل راية : « إني لأرجو ألا تؤتى العرب اليوم من قبلكم ، والله ما يسرني اليوم لنفسي شيء إلا وهو يسرني لعامتكم » ، فكانوا يجيبونه بمثل قوله[(٥)].

فالمثنى بفعله هذا ضرب أروع الأمثلة للقائد المسلم الناجح الذي عرف كيف يرفع معنويات جيشه قبل الالتحام بالعدو ، فهو لم يبق قابعاً في مركز القيادة يصدر الأوامر والتوجيهات مختفياً عن الأنظار ، بل طاف على جنده وهو راكب على فرسه التي عرف إنها لا يركبها إلا لقتال ليطمئن جميعهم بأنه سيباشر القتال معهم ، ثم إن وقوفه بنفسه على كل راية من رايات جيشه يخاطبهم ويحرضهم على القتال ، ويشهد الله أن ما يحبه

---

(١) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٤٧٠ . إن القول بأن معركة الجسر في شعبان سنة ١٣ هـ ، ثم معركة البويب بعدها في رمضان سنة ١٣ هـ غير سائغ ، لأن التجهز للمواجهة يحتاج إلى وقت ، لاسيما في حق المسلمين المهزومين من قبل الفرس في الجسر ، ولكن قد يكون وقوع البويب في رمضان مقبولاً إذا قلنا أنها وقعت في آخره ، وأن القوات الإسلامية التي قدمت العراق ، والتحقت بجيش المثنى لم يكن استنفارها بعد الجسر ، وإنما كانت قد استنفرت للجهاد قبل ذلك ، فكان عمر ﷺ كلما وصله قوم في المدينة بعثهم إلى العراق ، فكانت الحشود التي وصلت للمثنى استمراراً لتلك الجموع المجاهدة التي كانت تخرج تباعاً . راجع (أحمد كمال : الطريق إلى المدائن ، ص ٤٢٣) .

(٢) البلاذري : فتوح البلدان ، ق ٢ ، ص ٣١١ .

(٣) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٤٦١ .

(٤) البلاذري : فتوح البلدان ، ق ٢ ، ص ٣١١ .

(٥) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٤٦٥ .

لنفسه يحبه لهم ـ بجانب أنه تفقد للجند واطلاع على استعداداتهم قبل مواجهة العدو ـ فإن فيه حرصاً منه على أن يتفاعل الجميع للتضحية بأنفسهم في سبيل الله ، لاسيما حين يسمعون منه تلك الكلمات المرغبة في الجهاد بصفته واحداً منهم يحب لهم ما يحب لنفسه .

ولما اطمأن من استعدادهم للقتال قال : « إني مكبر ثلاثاً فتهيؤوا ، ثم احملوا مع الرابعة » . فما أن كبر أول تكبيرة حتى أعجلهم الفرس بالقتال ، فاقتتل الطرفان قتالاً مريراً مدة دون أن يتفوق أحدهما على الآخر ، فعندئذ طلب المثنى من بعض شجعان جنده أن يحملوا معه على قلب الجيش الفارسي ، حيث مهران قائدهم ، فاستطاع أن يزيله عن موقعه ، وقد هب الفرس لحماية قائدهم ، ولكن بعض المسلمين تمكنوا من الوصول إليه وقتله.

وفي غضون ذلك هجمت مجنبتا المسلمين (الميمنة والميسرة) على مجنبتي الجيش الفارسي ، فتراجع الجند الفرس على أعقابهم نحو النهر خوفاً من تطويق المسلمين لهم ، وفي هذه اللحظات العصيبة أخلص المسلمون الدعاء لله أن ينصرهم على عدوهم ، حيث « جعل المثنى والمسلمون في القلب يدعون لهم بالنصر ، ويرسل عليهم من يذمرهم ، ويقول إن المثنى يقول : عاداتكم في أمثالهم ، انصروا الله ينصركم »، فانهزم القوم مدبرين ، وسابقهم المثنى إلى الجسر فسبقهم ، فافترقوا بشاطئ الفرات مصعدين ومصوبين[1] ، فلحقهم المسلمون إلى الليل ، ومن الغد أيضاً إلى الليل حتى قتلوهم شر قتلة ، وقد سميت هذه المعركة يوم الأعشار ، لأن مائة رجل من المسلمين قتل كل واحد منهم يومئذ عشرة من الفرس[2] .

لقد كان لمعركة البويب نتائج عسكرية سريعة لصالح المسلمين ، وقد تحدث عنها الرواة القدامي ، فقد روى سيف عن عطية بن الحارث قال : « لما أهلك الله مهران استمكن المسلمون من الغارة على السواد فيما بينهم وبين دجلة ، فمخروها لا يخافون

(١) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٤٦٧ .
(٢) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٤٦٨ .

كيداً ، ولا يلقون فيها مانعاً ، وانتقضت مسالح [حاميات] العجم ، فرجعت إليهم ... وسرهم أن يتركوا ما وراء دجلة »[١].

فهزيمة الفرس إذن في البويب أدت إلى « انفتاح أبواب العراق من جنوبه إلى شماله أمام قوات المسلمين تجوبه كيف شاءت »[٢].

أما على المستوى النفسي والمعنوي فقد كانت هذه الموقعة « رد اعتبار ممتاز للمسلمين بعد ما أصابهم يوم الجسر ... ولابد أن يكون الفرس قد أصيبوا بدوار شديد بعد أن ظنوا أن في إمكانهم أن يكسبوا من المسلمين معارك ، فإذا المعركة التالية مباشرة ... معركة مفجعة يفقدون فيها ... الألوف من فرسانهم » ، لقد جعلت البويب وقعة الجسر على جسامتها حادثاً عرضياً مر وانتهى ، وبإنتهائه زال أثره ، وعاد المسلمون رغم قلة عددهم يمسكون بزمام المباداه والهجوم[٣] .

معركة القادسية : لقد كان من النتائج المباشرة لوقعة البويب كما مر قبل قليل أن أصبح المسلمون أصحاب النفوذ والسطوة في بلاد العراق ، وبخاصة في حوض نهر الفرات ، وما بينه وبين نهر دجلة ، ونظراً لأن عاصمة الفرس المدائن كانت تقع على الضفة الشرقية لهذا النهر الأخير فإنهم صاروا يشعرون بخطر المسلمين المحدق على دولتهم .

ويبدو أن شعورهم بخطورة الموقف لم يكن يعود فقط إلى هزيمتهم في البويب ، وإنما بدأ قبل ذلك ، فالمسلمون منذ وطئت أقدامهم أرض العراق ألحقوا بالجيوش الفارسية سلسلة من الهزائم ، وقتلوا عدداً من القادة الفرس المشهورين ، سواء حينما كانت القيادة لخالد بن الوليد ﷺ في زمن أبي بكر ﷺ ، أو حينما تولى القيادة أبو عبيد بن مسعود ﷺ في مطلع عهد عمر ﷺ ، فهذا الأخير وإن حلت الهزيمة به في الجسر فإنه كان قبلها قد

---

(١) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٤٧٠ . ويرى ابن كثير أن البويب « بالعراق نظير اليرموك بالشام » (خلافة عمر ، ص٩٣)

(٢) أحمد كمال : الطريق إلى المدائن ، ص ٤٤٨ .

(٣) أحمد كمال : الطريق إلى المدائن ، ص ٤٤٢ .

هزم ثلاثة من الجيوش الفارسية ، وصار المسلمون عقبها يغيرون على قواعد مهمة في البلاد الواقعة بين النهرين .

إذن فالظاهر أن خطر المسلمين ظل يتنامى مع الأيام لدى الفرس فبلغ غايته بعد هزيمتهم في وقعة البويب ، إذ وجدوا المسلمين على إثرها يمخرون السواد لا يردهم أحد .

لقد شخص عقلاء الفرس إخفاقهم أمام المسلمين في سببين رئيسين :

الأول : الاختلاف بين كبار القادة ، وخاصة بين رستم والفيرزان ، فقالوا لهما «أين يُذهب بكما ؟ لم يبرح بكما الاختلاف حتى وهنتما أهل فارس ، وأطمعتما فيهم عدوهم ، وإنه لم يبلغ من خطركما أن يقركما فارس على هذا الرأي ، وأن تعرضاها للهلكة ، ما بعد بغداد وساباط وتكريت إلا المدائن ، والله لتجتمعان أو لنبدأن بكما قبل أن يشمت بنا شامت »[1] .

الثاني : ولاية حكم دولتهم امرأة ، وهي بوران ، وقد قرروا تنحيتها ، وتولية رجل من أسرتها ، فاختاروا يزدجرد بن شهريار (يزدجرد الثالث) الذي كان يعيش بعيداً عن العاصمة المدائن ، فأتوا به ونصبوه وعمره إحدى وعشرون سنة[2] .

اجتمعت كلمة الفرس على يزدجرد واطمأنوا إليه ، وتبارى القادة والعمال إلى طاعته ، فكان أول عمل قام به أن خصص حاميات عسكرية لكل ثغر وبلد كان للفرس في العراق ، «فسمى جند الحيرة والأنبار والمسالح والأبلة » .

ثم ما لبثت أرض السواد أن ثارت على المسلمين الأمر الذي جعل قائدهم المثنى ابن حارثة ينسحب بجنده إلى ذي قار ، وكان قبيل ذلك قد كتب إلى عمر ﷺ يخبره بخبر اجتماع الفرس على يزدجرد ، فكتب عمر ﷺ يأمره بالتنحي بجيشه إلى البر بعيداً عن الفرس ، وفي الوقت نفسه الاستعداد للجهاد بدعوة من حوله من القبائل العربية ، حيث جاء في كتابه « أن تنحَ إلى البر وادعُ من يليك ، وأقمْ منهم قريباً على حدود أرضك

(١) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٤٧٧ .
(٢) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٤٧٧ - ٤٧٨ .

وأرضهم حتى يأتيك أمري »[١].

ثم إن عمر ﷺ كتب إلى عماله يطلب منهم بصورة عاجلة استنفار كل قادر على الجهاد ، فقدم جمع من المجاهدين إلى عمر ﷺ في المدينة ، كما توجه جمع آخر إلى المثنى في العراق[٢].

ولما اجتمع المجاهدون إلى عمر ﷺ في المدينة خرج بهم إلى ماء يعرف بـ «صرار»، وأراد أن يقودهم بنفسه لمواجهة القوات الفارسية[٣]، ولكن ذوي الرأي من كبار الصحابة ووجوه العرب خافوا عليه بصفته خليفة للمسلمين ، فأشاروا عليه بالبقاء في المدينة وإرسال قائد كفؤ منهم يقوم بالمهمة عنه[٤].

وبينما كان يتداول الرأي معهم فيمن يولي قيادة الجيش إذ جاءه كتاب سعد بن أبي وقاص ﷺ الذي كان على صدقات هوازن يرد فيه على الكتاب الذي كان عمر ﷺ قد بعثه إلى عماله باستنفار الناس للجهاد ـ يخبره بتجنيد ألف فارس من خيرة الفرسان ، فعندئذ طُرح اسم سعد ﷺ على عمر ﷺ ، فقد روي أن عبد الرحمن بن عوف ﷺ قال : «وجدته ! قال : من هو ؟ قال : الأسد في براثنه ؛ سعد بن مالك [أبي وقاص] »[٥]، وقد أيده أولو الرأي في طرحه ، فانتهى عمر ﷺ إلى رأيهم[٦]، وأرسل إلى سعد ﷺ يطلب منه القدوم إليه لقيادة الجيش[٧]، فلما جاء أسند إليه القيادة ، ثم وعظه وأوصاه قبل مسيره بالجيش إلى العراق[٨] .

---

(١) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٤٨٢ . وانظر نص كتاب عمر ﷺ في رواية أخرى في (المصدر نفسه ، ص ٤٧٨) .

(٢) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٤٧٩ .

(٣) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٤٨٠ .

(٤) البلاذري : فتوح البلدان ، ق ٢ ، ص ٣١٣ ؛ الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٤٨٠ ، ٤٨١ .

(٥) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٤٨٢ . وقد ورد أنهم قالوا مخاطبين عمر ﷺ : «قد وجدته ، قال فمن ؟ قالوا : الأسد عادياً ، قال : من ؟ قالوا : سعد »(الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٤٨٣) .

(٦) وقد ورد أنه حين وقع الاختيار على سعد ﷺ قال عمر ﷺ عنه « إنه رجل شجاع رامٍ»(البلاذري : فتوح البلدان ، ق ٢ ، ص ٣١٣) .

(٧) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٤٨٣ .

(٨) قال عمر ﷺ له عند قدومه إليه : « يا سعد ، سعد بني وهيب لا يغرنك من الله أن قيل خال رسول الله ، وصاحب رسول الله ، فإن الله عز وجل لا يمحو السيء بالسيىء ، ولكنه يمحو السيء بالحسن ، فإن الله ليس بينه وبين أحد نسب إلا طاعته ، فالناس شريفهم ووضيعهم في ذات الله سواء ، الله ربهم وهم عباده ، يتفاضلون بالعافية ، ويدركون ما عنده بالطاعة ، فانظر الأمر الذي رأيت النبي ﷺ عليه منذ بعث إلى أن فارقنا ، فالزمه =

سار سعد ﷺ بمن كانوا قد تجهزوا للجهاد مع عمر ﷺ ، وكان عددهم أربعة آلاف ، منهم ثلاثة آلاف من أهل اليمن[١] ، ثم لحق بهم أربعة آلاف أخرى ، كما أصدر عمر ﷺ أمره إلى المجاهدين في العراق الموجودين تحت قيادة المثنى بالانضمام إلى جيش سعد ﷺ ، وكان عددهم يقدر بثمانية آلاف[٢] ، وقبيل وصول سعد ﷺ كان المثنى قد توفي متأثراً بجراحه يوم الجسر ، وقد ترك له وصية قيمة لخص فيها أنجع السبل في قتال الفرس ، وذلك بحكم خبرته الطويلة معهم ، ومعرفته بأرض العراق وظروفه[٣] .

أمضى سعد ﷺ أكثر من ثلاثة أشهر في مسيره ، وقد نزل في عدة أماكن حتى حل بأمر من عمر ﷺ في القادسية بين العذيب والكوفة[٤] ، فمما جاء في كتابه إليه أن «القادسية باب فارس في الجاهلية ، وهي أجمع تلك الأبواب لمادتهم ... وهو منزل رغيب خصيب حصين ، دونه قناطر وأنهار ممتنعة ، فتكون مسالحك على أنقابها ، ويكون الناس بين الحجر والمدر ، على حافات الحجر وحافات المدر ، والجِراع بينهما ، ثم الزم مكانك فلا تبرحه ... »[٥] .

= فإنه الأمر . هذه عظتي إياك ، إن تركتها ورغبت عنها حبط عملك ، وكنت من ا لخاسرين ». ولما أراد أن يسيره دعاه فقال : « إني قد وليتيك حرب العراق ، فاحفظ وصيتي ، فإنك تقدم على أمر شديد كريه لا يخلص منه إلا الحق ، فعوّد نفسك ومن معك الخير واستفتح به ، وأعلم أن لك عادة عتاداً ، فعتاد الخير الصبر ، فالصبرَ على ما أصابك أو نابك يجتمع لك خشية الله ، واعلم أن خشية الله تجتمع في أمرين في طاعته واجتناب معصيته ، وإنما أطاعه من أطاعه ببغض الدنيا وحب الآخرة ، وعصاه من عصاه بحب الدنيا وبغض الآخرة . وللقلوب حقائق ينشئها الله إنشاءً ، منها السر ، ومنها العلانية ؛ فأما العلانية فأن يكون حامده وذامه في الحق سواء ، وأما السر فيعرف بظهور الحكمة من قلبه على لسانه ، وبمحبة الناس ، فلا تزهد في التحبب فإن النبيين قد سألوا محبتهم ، وإن الله إذا أحب عبداً حببه ، وإذا أبغض عبداً بغضه ، فاعتبر منزلتك عند الله تعالى بمنزلتك عند الناس ممن يشرع معك في أمرك » (الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٤٨٣ – ٤٨٤) .

(١) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٤٨٥ .

(٢) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٤٨٦ .

(٣) يقول المثنى في وصيته لسعد ﷺ أن « ألا يقاتل عدوه وعدوهم ـ يعني المسلمين ـ من أهل فارس إذا استجمع أمرهم وملؤهم في عقر دارهم ، وأن يقاتلهم على حدود أرضهم ، على أدنى حجر من أرض العرب ، وأدنى مدرة من أرض العجم ، فإن يظهر الله المسلمين عليهم فلهم ما وراءهم ، وإن تكن الأخرى فاءوا إلى فئة ، ثم يكونوا أعلم بسبيلهم ، وأجرأ على أرضهم إلى أن يرد الله الكرة عليهم » (الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ٣ ، ص ٤٩٠) .

(٤) راجع ياقوت : معجم البلدان ، جـ ٤ ، ص ٢٩١ . ويحدد غلوب مكان القادسية بين بلدتي النجف وأبي صخير الحديثتين (الفتوحات العربية ، ص ٣٣٦) .

(٥) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٤٩١ .

عسكر سعد ﷺ بجيشه في القادسية ، وما زال المجاهدون يتوافدون عليه حتى بلغ عدد الجيش بضعاً وثلاثين ألف رجل[١]، كان فيهم ثلاثمائة وبضعة عشر صحابياً ؛ منهم بضعة وسبعون بدرياً ، وكان فيه سبعمائة من أبناء الصحابة ﷺ[٢].

وخلال مقامهم هناك كان سعد ﷺ يبعث بالسرايا هنا وهناك تُغير على المناطق القريبة منهم ، وكان غرضه من ذلك ـ فيما يبدو ـ تحقيق عدة أهداف .

الأول : إعادة سلطان المسلمين إلى القرى والمدن العراقية التي نبذت الطاعة أو الصلح.

الثاني : استطلاع أخبار الفرس مثلما فعل في إرساله عيوناً إلى الحيرة [٣].

الثالث : توفير الإعاشة والتموين للجيش الإسلامي .

الرابع : استنزاف قوة الفرس ، وإجبارهم على الخروج إلى القادسية ، وهو المكان الذي اختاره المسلمون ميداناً للمواجهة معهم[٤] .

ضج أهل البلاد التي كانت هدفاً لغارات المسلمين ، وهي الواقعة بين القادسية والفرات ، وجأروا بالشكوى لحاكم الفرس يزدجرد الثالث ، وهددوا بالتسليم إن ترك نجدتهم ، الأمر الذي أثار غضبه على المسلمين ، وهيجه على حربهم ، فطفق يستعد لذلك بجيش كبير ، واختار لقيادته كبير القادة في دولته ، القائد المشهور رستم ، ورغم أن هذا القائد حاول التملص من القيادة إلا أن يزدجرد أصر على رأيه ، فخرج رستم بالجيش الفارسي الذي قدر عدده في رواية بستين ألفاً ، بينما قدر في رواية أخرى بمائة وعشرين ألفاً ، حيث تحركت أولاً مقدمته بأربعين ألفاً ، ثم خرج بستين ألفاً ، ثم تبعته الساقة بعشرين ألفاً ، وعسكر في ساباط [٥] التي تقع إلى الضفة الغربية لنهر دجلة ، ولا

(١) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٤٨٧ .
(٢) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٤٩٠ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ ٧ ، ص ٣٧ .
(٣) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٤٩٣ – ٤٩٥ .
(٤) أحمد كمال : القادسية ، ص ٥٨ – ٥٩ .
(٥) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٥٠٣ – ٥٠٤ .

تبعد كثيراً عن العاصمة المدائن .

وحين علم سعد ﷺ بأخبار هذه التحركات كتب إلى عمر ﷺ فرد عليه برسالة يأمره بإرسال رجال من ذوي الرأي والهيبة والفصاحة يدعون حاكم الفرس إلى الإسلام ، فاختار سعد ﷺ أربعة عشر رجلاً ، فكان من أشهرهم النعمان بن مقرن ، والمغيرة بن زرارة بن النباش بن حبيب ، والأشعث بن قيس ، وعمرو بن معد يكرب ، وعاصم بن عمرو ، والمغيرة بن شعبة ، والمعنى بن حارثة .

فبعثهم دعاة إلى يزدجرد ، فلما دخلوا عليه بادرهم بالسؤال عن أسماء بعض ما يلبسون ، فتشاءم منها ، ثم سألهم عن سبب غزوهم بلاده ، فرد عليه النعمان بن مقرن ، فحدثه عن بعثة النبي محمد ﷺ ، وجهاده في نشر الرسالة بينهم ، وما تلا ذلك من توحد لكلمتهم بعد معاناة طويلة من العداوة والضيق ، ثم قال « ثم أمرنا أن نبدأ بمن يلينا من الأمم ، فندعوهم إلى الإنصاف ، فنحن ندعوكم إلى ديننا ، وهو دين حسَّن الحسَن ، وقبَّح القبيح كله ، فإن أبيتم فأَمْرٌ من الشر هو أهون من آخر شر منه : الجزاء [الجزية] ، فإن أبيتم فالمناجزة ، فإن أجبتم إلى ديننا خلَّفنا فيكم كتاب الله ، وأقمناكم عليه ، على أن تحكموا بأحكامه ، ونرجع عنكم وشأنكم وبلادكم ، وإن اتقيتمونا بالجزاء [الجزية] قبلنا ومنعناكم ، وإلا قاتلناكم».

فتكلم يزدجرد وأخذ يحقر العرب ، ويحط من شأنهم ، فقام المغيرة بن زرارة ، فاعترف ليزدجرد بسوء حال العرب في المأكل والمسكن والملبس ، وبسوء علاقة بعضهم ببعض ، وبقتلهم أولادهم ، وأنهم بقوا على تلك الحال حتى بعث الله نبياً منهم يعرفونه ، فلما دعاهم إلى التوحيد اتبعوه بعد تردد ، وأن الله أمرهم على لسان نبيه ﷺ أن يبلغوا هذا الدين للناس ، فيعرضوا عليهم إما الإسلام أو الجزية أو القتال ، ثم خاطب يزدجرد بقوله « فاختر إن شئت الجزية عن يد وأنت صاغر ، وإن شئت فالسيف ، أو تسلم فتنجي نفسك » .

فغضب يزدجرد ، فقال : أتستقبلني بمثل هذا ؟ فقال المغيرة « ما استقبلت إلا من كلمني ، ولو كلمني غيرُك لم أستقبلك به ، فقال : لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتكم ، لا شيء لكم عندي » ، ثم أمر بأن يؤتى بوقر من تراب ، فيحمل على أشرفهم ويسوقوه

حتى يخرج من باب المدائن ، وهددهم برستم ، وأنه سينكل بهم ، ويغزوهم في عقر دارهم ، وقد بادر عاصم بن عمرو بحمل التراب متفائلاً بالظفر على الفرس ، فلما وصل إلى معسكر المسلمين قال سعد ﷺ « أبشروا ! فقد والله أعطانا الله أقاليد ملكهم»[١].

على إثر ذلك أمر يزدجرد جيشه المحتشد في ساباط بالتحرك لقتال المسلمين ، ورغم أن رستم حاول التهرب من قيادة الجيش بشتى الأعذار إلا أنه لم يفلح في محاولاته أمام إصرار الملك الفارسي عليه ، فسار بتلك الجموع الكثيفة متباطئاً حتى نزل قريباً من المسلمين في القادسية ، وفي تلك الأثناء أرسل إلى المسلمين يطلب منهم أن يبعثوا إليه برجل يكلمه.

فانتخب سعد ﷺ تسعة من رجاله ، وأمرهم أن يتهيأوا لمقابلة رستم ، ولكن أحدهم وهو ربعي بن عامر رأي أن يُكتفى بإرسال رجل واحد فقط ، فقال مخاطباً سعداً ﷺ «متى نأتهم جميعاً يروا أنا قد احتفلنا بهم ، فلا تزدهم عن رجل»، وحين أيدوه على رأيه ، عرض أن يذهب بنفسه إليهم.

وكان الفرس قد استعدوا لاستقبال وفد المسلمين ، فاظهروا زينتهم ، وبسطوا البسط والنمارق ، وجلس رستم على سريره الذي زُين بالأنماط والوسائد المنسوجة بالذهب.

أما ربعي بن عامر فقد أقبل إليهم مظهراً التبذل في حاله كلها ، سواء في شكل الفرس التي ركبها ، أوفي نوعية السلاح الذي كان يحمله ، أو في هيئته وهندامه.

---

(١) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٤٩٥ - ٥٠١ ، وهي من رواية سيف بن عمر . وفي هذه الحادثة تأكيد على حرص الخليفة عمر ﷺ على دعوة حكام عصره إلى الإسلام قبل الاشباك معهم في قتال ، وفيها حسن عرض الصحابة لدينهم على الناس ، ومنها أن المسلمين كانوا في الصدر الأول يخيرون الناس بين ثلاث خيارات بالترتيب ؛ الإسلام ثم الجزية فإن رفضوا فالقتال ، ومنها ظهورعزة المسلمين وهم يتحدثون عن دينهم أمام عدوهم . وجدير بالذكر أن البلاذري أشار إلى قصة هذا الوفد باختصار (فتوح البلدان ، ق ٢ ، ص ٣١٥ - ٣١٦) . كما ذكرها ابن أعثم ولكن ذكر أن يزدجرد هو الذي طلب من سعد ﷺ أن يبعث إليه وفداً ليعرف ما عند المسلمين ، ثم ساق قصة دخول الوفد على يزدجرد مبرزاً المغيرة بن شعبة ﷺ ، وقد نسب إليه تصرفات غير مستساغة عند الملك الفارسي ، وذكر أن هذا الأخير خاطب الوفد عن طريق ترجمان ، ثم عاد ليقول أنه يتقن العربية (الفتوح ، جـ ١ ، ص ١٩٥ - ٢٠٠) .

فلما وصل مشى بفرسه على أدنى البسط ، ثم نزل عنها وشق وسادتين وربطها بهما.

فقالوا له : ضع سلاحك ، فقال : إني لم آتكم فأضع سلاحي بأمركم ، أنتم دعوتموني ، فإن أبيتم أن آتيكم كما أريد رجعت .

فأخبروا رستم فقال : ائذنوا له ، هل هو إلا رجل واحد ، فأقبل يتوكأ على زج رمحه ، فخرق ما مر عليه من فرش .

فلما دنا من رستم جلس على الأرض ، وركز رمحه بالبسط ، فقالوا : ما حملك على هذا ؟ قال : إنا لا نستحب القعود على زينتكم هذه .

ثم كلمه رستم ، فقال : ما جاء بكم ؟ قال : الله ابتعثنا ، والله جاء بنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام .

فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه ، فمن قبل منا ذلك قبلنا ذلك منه ، ورجعنا عنه وتركناه وأرضه يليها دوننا .

ومن أبى قاتلناه أبداً حتى نفضي إلى موعود الله ، قال : وما موعود الله ؟ قال : الجنة لمن مات على قتال من أبى ، والظفر لمن بقي.

فطلب رستم أن ينظر في الأمر ، فرد عليه ربعي : كم أحب إليكم أيوماً أو يومين؟ قال : لا ! بل حتى نكاتب أهل رأينا ورؤساء قومنا .

فقال : إن مما سن لنا رسول الله ﷺ ، وعمل به أئمتنا ألا نؤجل الأعداء عند اللقاء أكثر من ثلاث ، وعرض عليه إما الإسلام أو الجزية أو المنابذة في اليوم الرابع ، وقال : أنا كفيل لك بذلك على أصحابي وعلى جميع من ترى ، فتعجب رستم منه وقال : أسيدهم أنت؟ قال : لا ، ولكن المسلمين كالجسد ، بعضهم من بعض ، يجير أدناهم على أعلاهم .

وقد أعجب رستم بكلام ربعي وحسن منطقه ، وطلب من سعد ﷺ أن يبعثه إليهم في اليوم التالي ، ولكن سعداً ﷺ بعث بحذيفة بن محصن فأقبل على طريقة صاحبه

بالأمس، وبقي راكباً على فرسه .

ولما سأله رستم عن سبب عدم مجيء ربعي إليهم قال « إن أميرنا يحب أن يعدل بيننا في الشدة والرخاء ، فهذه نوبتي » ، ثم دار بينهما حوار قريباً مما دار بالأمس مع ربعي بن عامر .

وفي اليوم الثالث قدم المغيرة بن شعبة ﷺ على رستم فجلس معه على سريره ، فأنزله الحرس بعنف ، فقال « كانت تبلغنا عنكم الأحلام ، ولا أرى قوماً أسفه منكم ، إنا معشر العرب سواء ، لا يستعبد بعضنا بعضاً إلا أن يكون محارباً لصاحبه ، فظننت أنكم تواسون قومكم كما نتواسى ، وكان أحسن من الذي صنعتم أن تخبروني أن بعضكم أرباب بعض ، وأن هذا الأمر لا يستقيم فيكم فلا نصنعه ، ولم آتكم ولكن دعوتموني ، اليوم علمت أن أمركم مضمحل ، وأنكم مغلوبون ، وأن ملكاً لا يقوم على هذه السيرة ، ولا على هذه العقول».

وقد أخذ رستم يمازح المغيرة ويسخر من سلاحه ، وبعد ذلك تكلم مظهراً قوة دولته وغلبتها على أعدائها ، وفي المقابل سوء حال العرب وحاجتهم للفرس ، وختم كلامه بعرض الأموال النقدية والعينية على جيش المسلمين لينصرفوا عن القتال ، فرد عليه المغيرة معترفاً بحقيقة ما قال ، ولكنه لفت نظره أن أحوال العرب تغيرت جذرياً ببعثة الرسول ﷺ ، ثم عرض عليه الإسلام ، وإن لم يقبل فالجزية ، وإن أبى فالسيف ، وعندئذ استشاط رستم غضباً [١]، وقال « والشمس ! لا يرتفع الضحى غداً حتى أقتلكم أجمعين »[٢]، فانصرف المغيرة ﷺ عنه مكتفياً بالرد عليه بقوله « لا حول ولا قوة إلا بالله»[٣].

ولما عاد إلى معسكر المسلمين قال لسعد ﷺ « استعد للحرب »[٤].

ومما لا ريب فيه أن هؤلاء الرجال الثلاثة استغلوا فرصة لقائهم رستم الذي جرى

---

(١) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٥١٨ - ٥٢٣ . وخبر وفود المسلمين على رستم هي من رواية سيف بن عمر .
(٢) الدينوري : الأخبار الطوال ، تحقيق عبد المنعم عامر ، ص ١٢١ .
(٣) البلاذري : فتوح البلدان ، ق ٢ ، ص ٣١٥ .
(٤) الدينوري : الأخبار الطوال ، ص ١٢١ .

بمبادرة منه ، فأوصلوا الرسالة التي كانوا يتمنون إبلاغها للفرس حكاماً ومحكومين بالأسلوب الذي رأوه مؤثراً فيهم كما اقترحه ربعي بن عامر ، فعرضوا عليهم الإسلام وشيئاً من مبادئه السمحة ، وكشفوا عن أثره في انقلاب أوضاع العرب من التفرق إلى الوحدة ، ومن الذل إلى العزة ، واثبتوا لهم أن زخارف الحياة الدنيا التي يحرص عليها رجال الدولة الفارسية إنما هي مظاهر لا يهتم بها المسلمون.

وقد كان لهذه اللقاءات وما دار فيها من حوار ـ انعكاسات نفسية ، سواء على رستم نفسه أو على ممن هو دونه من القادة وعامة الجنود الفرس ، فأثر ذلك سلباً في معنوياتهم قبل المواجهة العسكرية مع المسلمين(١).

وثمة رواية تشير إلى أن سعداً ﷺ بعث رجالاً بعد المغيرة ﷺ يعرضون عليه الإسلام مجدداً ، ويذكرونه في الوقت نفسه بتبعة ما سيترتب على عدم استجابته لهم ، ولكنه تعنت واستكبر ، وطفق يضرب الأمثال لهم لما سيفعله جيشه الكبير بالمسلمين من بطش وتنكيل(٢).

وبإعلان رستم بدء المعركة مع المسلمين يكون قد مر أربعة أشهر على خروجه بجيشه من المدائن ، فلو قدرنا أنه كان يزحف خلال هذه المدة نحو المسلمين فإن مسيره لن تتجاوز كيلو متر ونصف في اليوم ، إذ المسافة بين المدائن والقادسية تقدر ١٨٥ كم(٣) ، فكان لا يُقدم ولا يقاتل رجاء أن يضجر المسلمون «بمكانهم ، وأن يجهَدوا فينصرفوا ، وكره قتالهم مخافة أن يلقى ما لقي من قبله ، وطاولهم لولا ما جعل الملك [يزدجرد] يستعجله وينهضه ويقدمه حتى أقحمه »(٤).

لما انتهت المراسلات قال رستم للمسلمين «أتعبرون إلينا أم نعبر إليكم » ، قالوا « بل اعبروا إلينا » ، إذ كان نهر العتيق يفصل بين الجانبين ، فبات الفرس ليلتهم يردمون هذا النهر ، ثم عبروا وصاروا بإزاء المسلمين أمام قادس قصر القادسية وحصنها بعدما

(١) راجع أقوال رستم وغيره من الفرس عقب لقاء كل واحد من أولئك الثلاثة (الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ٣ ، ص ٥٢٠ ، ٥٢١ ، ٥٢٢ ، ٥٢٣ ، ٥٢٤) .
(٢) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٥٢٥ – ٥٢٩ .
(٣) كمال : القادسية ، ص ٨٧ . راجع غلوب : الفتوحات العربية ، ص ٣٣١ .
(٤) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٥٠٩ .

ارتفع النهار من اليوم التالي[١].

وقد باشر رستم الذي جلس على سريره تعبئة جيشه ، وترتيب صفوفه ، ونصبت راية الفرس الكبرى « درفش كابيان» التي كانوا يتفاءلون بها ، وكان في الجيش كبار القادة الفرس كالهرمزان وجالنوس ومهران ، كما كان بصحبته ثلاثة وثلاثون فيلاً على ظهورها الصناديق لحمل الجنود ، فوزع رستم هذه الفيلة على الجيش.

فجعل في القلب ثمانية ، وفي الميمنة ثمانية ، وفي الميسرة سبعة ، وقد استحدث الفرس يومذاك وسيلة سريعة للاتصال بالمدائن ، فرتب رجالاً ينقل الواحد منهم الكلام للآخر ، وذلك في صف طويل يمتد من ميدان المعركة حتى إيوان كسرى[٢]، ويقدر عدد الرجال المكلفين بهذه المهمة بألفي رجل (٢٠٠٠) ، والمتوقع أن تصل الكلمة إلى المدائن في ظرف أربع ساعات بينما يصل البريد في ثلاثة أيام[٣] .

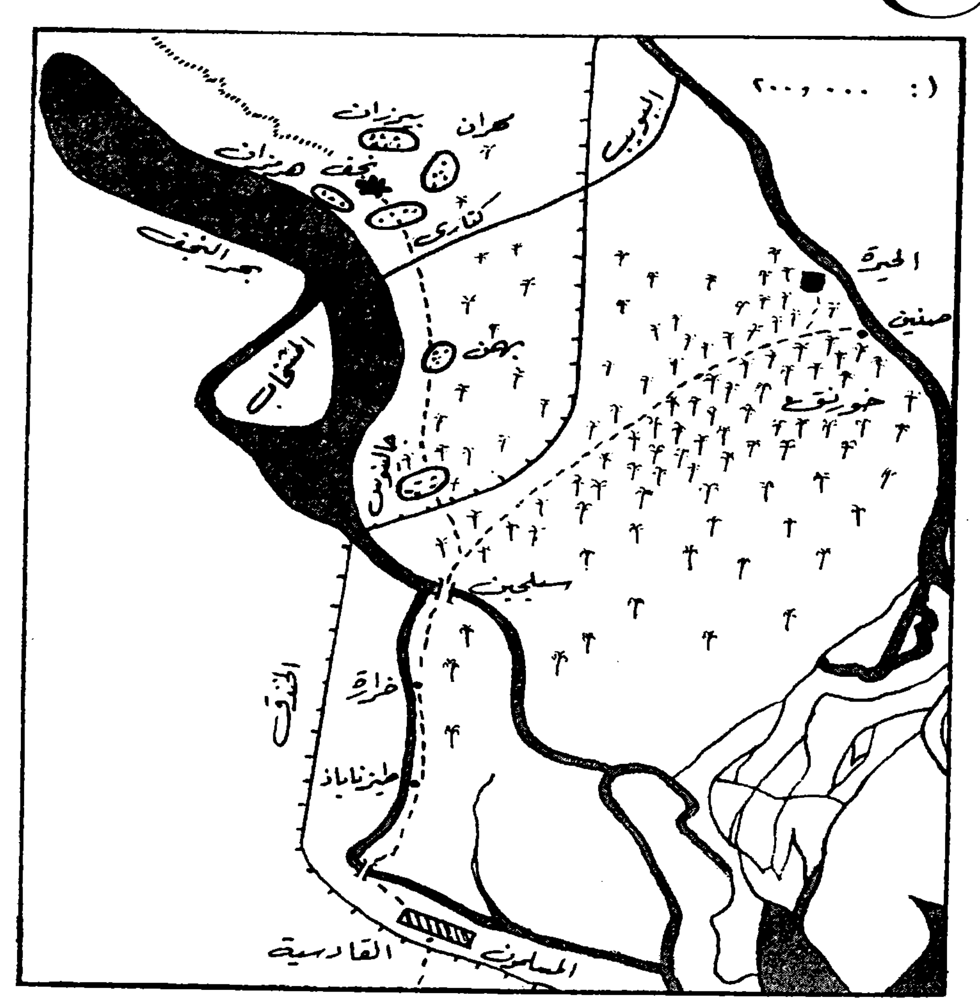
أما المسلمون فقد أخذوا أماكنهم استعداداً للقتال ، حيث قسم الجيش تقسيماته المعهودة ، قلب ومقدمة ومؤخرة وميمنة وميسرة ، وكان سعد ﷺ قد أصيب بعرق النَّسَاء وحبون (دمامل) ، فلم يكن بذلك يستطيع الجلوس أو الركوب ، فبقي في قصر القادسية مشرفاً على الجيش ، وأسند إلى خالد بن عُرْفُطة مهمة نقل تعليماته إلى الجند .

وفي تلك اللحظات أمر سعد ﷺ الوعاظ والشعراء بتذكير الناس وحضهم على الجهاد والثبات[٤]، كما طلب أن تقرأ على الناس سورة الجهاد (الأنفال) .

ثم حدد موعد الاشتباك مع العدو عقب صلاة الظهر بعد أربع تكبيرات تصدر منه[٥]. وكان ذلك في يوم الخميس ١٣ شعبان سنة ١٥ هـ (١٩ سبتمبر ٦٣٦ م) كما حققه أحمد عادل كمال[٦] .

---

(١) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٥٢٩ ؛ كمال : القادسية ، ص ١١٩ .
(٢) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٥٣٠ ، ٥١٦ .
(٣) كمال : القادسية ، ص ١٢٤ - ١٢٥ . قارن أرشد يوسف حميدان : تخطيط الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ لحملة سعد بن أبي وقاص ﷺ إلى العراق ومتابعته لها ، مجلة جامعة الإمام ، ع ٣١ ، رجب ١٤٢١ هـ ، ص ٤٤١ .
(٤) الدينوري : الأخبار الطوال ، ص ١٢١ - ١٢٢ ؛ الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٥٣١ ، ٥٣٢ ، ٥٣٣ .
(٥) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٥٣٥ .
(٦) القادسية ، ص ٢٢٦ - ٢٣١ . قارن أرشد يوسف حميدان : تخطيط الخليفة عمر ﷺ ، ص ٤٤٢ - ٤٤٣ .



مواقع جيشي المسلمين والفرس قبيل بدء القتال في القادسية (أحمد كمال : القادسية ، ص ٩٠)

بدأت المعركة بعد الظهر بالمبارزة بين المسلمين والفرس ، ثم اشتبك الفريقان بالقتال ، فاقتحمت الفيلة صفوف المسلمين ، وأخافت خيلهم ، وأثرت فيهم لاسيما في ميمنتهم التي كانت فيها قبيلة بجيلة ، فأمر سعد ﷺ شجعان المسلمين بالتصدي لتلك الفيلة ، فأخذوا بضربها وقادتها بالنبل ، وعمدوا أيضاً إلى قطع أحزمة الصناديق التي على ظهورها ، ويحمل الواحد منها حوالي عشرة من المقاتلين ، وقد استمر القتال حتى غروب الشمس ، وقد استشهد من المسلمين خمسمائة رجل . وقد سمي هذا اليوم بيوم أرماث . وبتوقف القتال عند الغروب عاد الفريقان إلى مواقعهم ، وهدأوا طوال الليل(١) ،

(١) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٥٣٥ – ٥٤٠ ؛ ابن الأثير : الكامل ، جـ ٢ ، ص ٤٧٠ – ٤٧٢ .

فأُطلق على تلك الليلة ليلة الهدأة [١].

وفي اليوم الثاني وصل مدد من الشام يقدر بستة آلاف رجل ، حيث كان عمر ﷺ قد أمر من بقي من الجيش الذي صحب خالد بن الوليد ﷺ في مسيره إلى الشام في آخر حياة أبي بكر ﷺ بالعودة إلى العراق ، وكان يقود هذا المدد هاشم بن عتبة بن أبي وقاص (ابن أخي سعد بن أبي وقاص) .

فوصلت مقدمته وهم ألف رجل بقيادة القعقاع بن عمرو التميمي في صباح ذلك اليوم ، فنظم القعقاع رجاله أعشاراً ، بحيث يدخل كل عشرة منهم أرض المعركة دفعة واحدة ، فإذا بلغوا مد البصر لحقت بهم العشرة الثانية ، وهكذا استمرت العملية ، فأثاروا الغبار ، وأحدثوا جلبة في وسط الجيش الإسلامي ، مما أرعب الفرس ، وفت في عضدهم ، إذ تخيلوا أن مدداً كبيراً وصل للمسلمين ، وقد سمي هذا اليوم يوم أغواث لوصول هذا المدد .

وقد بدأت معركة أغواث بالمبارزة والمطاردة حتى انتصاف النهار ، ومن بعد الظهر تزاحف الفريقان فاقتتلوا قتالاً شديداً ، وفي الوقت الذي لم تشارك فيه الفيلة مع الفرس في قتال اليوم نظراً لما لحق بها من أضرار بالأمس عمد المسلمون إلى مجموعة من الإبل فجللوها بالأغطية وبرقعوها بالبراقع ، فكانت لا تقابل خيلاً للفرس إلا نفرت منها [٢]، «فلقي الفرس من الإبل أعظم مما لقي المسلمون من الفيلة » [٣].

وقد استمر القتال إلى منتصف الليل ، وسميت هذه الليلة ليلة السواد ، وفي هذا اليوم كثر القتل في الفرس ، وتمكن أبطال المسلمين من التوغل في قلب الجيش الفارسي ، فقتلوا بعض قادته ، وكادوا أن يصلوا إلى رستم نفسه [٤] .

أصبح الفريقان اليوم الثالث يستعدان لجولة جديدة من القتال ، فلجأ المسلمون مرة أخرى إلى نوع من الحرب النفسية لتحطيم معنويات عدوهم ، إذ بات القعقاع بن عمرو ليلته يسرب جماعات من المقاتلين خارج ميدان المعركة ، ثم أمرهم أن يرجعوا إليها

(١) كمال : القادسية ، ص ١٤٦ .
(٢) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٥٤٢ – ٥٤٥ .
(٣) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٢ ، ص ٤٧٤ .
(٤) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٥٤٧ .

في مطلع الصباح مائة بعد مائة ، وكأنهم إمدادات جديدة .

أما الفرس فقد عادوا لاستخدام الفيلة مرة أخرى ، واحتاطوا لحمايتها ، لكن المسلمين ما أن بدأت المعركة حتى وجهوا سهامهم إلى أعينها ، وأخذوا بتوجيه الضربات إلى مشافرها (خراطيمها) ، فاستطاعوا تعطيلها وإخراجها من ساحة القتال قبل الزوال ، ثم اختلط الطرفان في قتال عنيف ، فبقي كل طرف صابراً على مجالدة الآخر ، فكلما كسب المسلمون جولة أحرز الفرس جولة مثلها .

وسمي هذا اليوم (عِماس) لاشتداد القتال فيه ، فيقال : عَمُسَ اليوم إذا اشتد وأظلم ، وقد ظل القتال مستمراً ، ثم امتد طوال الليل ، فسميت تلك الليلة ليلة الهرير لانقطاع الكلام والأصوات فيها إلا من أصوات السلاح التي كانت «كصوت القيون » [الحدادين] على حد تعبير أحد الرواة ، وقد بات قائد المسلمين سعد ﷺ ليلته تلك مقبلاً على دعاء الله بالنصر على الأعداء[(١)] .

وحين تنفس صباح اليوم الرابع كانت الملحمة مازالت دائرة بين الفريقين ، فأصبح الناس متعبين لم يغمض لهم جفن في ليلتهم ، ومع ذلك استمروا في القتال ، ولا شك أن المعركة صارت تقترب من نهايتها ، وستكون لمن يصبر ، ولذا قام القعقاع بن عمرو خطيباً في المسلمين يحثهم على الصبر ساعة ، ويذكرهم بأن النصر مع الصبر ، ثم التف حوله جماعة من الفرسان ، وجعلوا همهم الوصول إلى رستم .

وفي الوقت الذي تراجع فيه الفرس أمام ضغط المسلمين هبت رياح نشطة في اتجاه يحمل غبار المعركة في وجوه الفرس ، ومع حلول وقت الظهر تمكن أحد المسلمين وهو هلال بن عُلّفَة التيمي من العثور على رستم الذي كان قد انكشف سريره بعد اقتلاع الرياح خيمته ، ثم فر من هلال وألقى بنفسه في نهر العتيق ، لكنّ هلالاً لحق به وفلق هامته بالسيف وقتله ، وبإعلان مقتل رستم انهار جيش الفرس وتشتت ، فصار أفراده بين قتيل وجريح وغريق ، وفار لا يلوي على شيء .

وقد أسفرت هذه المعركة بأيامها الأربعة على استشهاد حوالي ثمانية آلاف وخمسمائة من المسلمين ، ستة آلاف منهم استشهدوا في ليلة الهرير واليوم الأخير ، بينما

---

(١) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٥٥١ – ٥٦٢ ؛ ابن الأثير : الكامل ، جـ ٢ ، ص ٤٧٧ – ٤٨٠ .

قتل من الفرس في هذه الليلة وهذا اليوم عشرة آلاف بخلاف الذين قتلوا في الأيام السابقة[(١)] .

وقبل أن نترك أحداث القادسية نعود لنشير إلى شيء من المواقف فيها :

الأول: ما كان من الشاعر أبي محجن بن حبيب الثقفي الذي كان سعد ﷺ سجنه قبيل المعركة ، إما بسبب اعتراضه على تولية خالد بن عرفطة نائباً ميدانياً عن سعد ﷺ حسبما جاء في رواية.

وإما بسبب شربه الخمر في رواية أخرى ، ذاك أنه حين التحم المسلمون بالفرس ـ ويظهر أنه في اليوم الثاني ـ شاقت نفسه للجهاد في سبيل الله ، وتألم أن فاته مثل هذا الفضل الكبير ، فطلب من سلمى زوجة سعد ﷺ أن تطلقه ليقاتل متعهداً لها بالعودة إلى محبسه إن سلم ، وألح عليها في الطلب ، فوافقت وأعطته فرس زوجها سعد ﷺ ، فخرج يقاتل الفرس بضرواة لفتت نظر المسلمين عامة وسعد ﷺ على وجه الخصوص ، ثم عاد إلى محبسه كما وعد ، فكان هذا سبب إطلاق سراحه[(٢)] .

الموقف الثاني: لطليحة بن خويلد الأسدي الذي كان قد تنبأ في زمن أبي بكر ﷺ ثم تاب وحسن إسلامه ، حيث شارك في القادسية مشاركة فعالة ، فقد كان أحد الرجال الذي بعثهم سعد ﷺ لاستطلاع أوضاع الفرس قبل القادسية ، ثم كان من أبرز المقاتلين في المعركة ، وقد أسند إليه سعد ﷺ مع عمرو بن معديكرب أن يتفقدا مخاضة أسفل العسكر خشي سعد ﷺ أن يتسرب منها جند الفرس ، فلم يكتف بذلك ، بل التف ـ دون عمرو بن معدي كرب ـ من خلف الجيش الفارسي وأرعبهم بالتكبير هو ومن معه ، ثم اختفى في جنح الظلام ، وكان ذلك فيما يظهر في أوائل ليلة الهرير[(٣)] .

الموقف الثالث: هو تحريض الشاعرة الخنساء أبناءها الأربعة على القتال في معركة القادسية حتى استشهد الواحد بعد الآخر ، ويرجح أنه كان في اليوم الثاني ، فلما بلغها استشهادهم قالت « الحمد لله الذي شرفني بقتلهم ، وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في

---

(١) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٥٦٤ .

(٢) الينوري : الأخبار الطوال ، ص ١٢٢ ؛ ابن أعثم : الفتوح ، جـ ١ ، ص ٢٠٧ – ٢٠٩ ؛ الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٥٣١ ، ٥٧٣ – ٥٧٥ .

(٣) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٥١١ ، ٥١٢ ، ٥١٤ ، ٥٥٧ – ٥٥٨ .

مستقر رحمته »[١].

وهناك امرأة أخرى لها موقف مشابه لموقف الخنساء ، وهي امرأة من النخع ، حثت أولادها الأربعة على القتال ، ثم دعت الله أن يدفع عنهم ، فانطلقوا يقاتلون ثم عادوا سالمين بعد أن أبلوا بلاءً حسناً[٢].

ونحن نعرض ما ذكرته المصادر عن الخنساء والنخعية من تحريض أبنائهن على القتال فإننا نجزم أن ثمة نماذج كثيرة من النساء فعلن فعلهن ، ثم كان أيضاً للنساء في القادسية ومعهن الصبيان خدمات رائعة للجيش الإسلامي ، فكن يسقين الجرحى ، ويحفرن القبور للقتلى[٣].

ومن جانب آخر فقد كان عمر ﷺ على صلة مستمرة بجيش المسلمين في القادسية ، إذ ظل سعد ﷺ يبعث إليه كل يوم بريداً يوافيه بالأخبار ويعرض عليه الخطط[٤]، ولما انتهت القادسية لصالح المسلمين كتب سعد ﷺ كتاباً لعمر ﷺ يبشره بالنصر[٥]، وأرسله مع سعد بن عميلة الفزاري ، وحين وصوله حدود المدينة قابله عمر ﷺ الذي كان في تلك الأيام يخرج خارج المدينة ميلين أو ثلاثة ، يستخبر الركبان القادمين من العراق عن حال أهل القادسية ، فسأله من أين قدم ، فأخبره أنه قدم من القادسية ، فقال عمر ﷺ « يا عبد الله حدثني ، قال : هزم الله العدو ، وعمر يخب معه ويستخبره ، والآخر يسير على ناقته ولا يعرفه حتى دخل المدينة ، فإذا الناس يسلمون عليه بإمرة المؤمنين ، فقال : فهلا أخبرتني رحمك الله أنك أمير المؤمنين ، وجعل عمر يقول : لاعليك

(١) ابن حجر : الإصابة ، جـ ٧ ، ص ٦١٦ ؛ الصفدي : الوافي بالوفيات ، جـ ١٠ ، ص ٢٤٤ .
(٢) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٥٤٤ .
(٣) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٥٥٠ ، ٥٨١ .
(٤) كمال : القادسية ، ص ١٢٥ .
(٥) وصورة الكتاب هي « أما بعد ، فإن الله نصرنا على أهل فارس ، ومنحنهم سنن من كان قبلهم من أهل دينهم ، بعد قتال طويل ، وزلزال شديد ، وقد لقوا المسلمين بعدة لم ير الراؤون مثل زهائها ، فلم ينفعهم الله بذلك ، بل سلبهموه ، ونقله عنهم إلى المسلمين ، واتبعهم المسلمون على الأنهار وطفوف الآجام وفي الفجاج ، وأصيب من المسلمين سعد بن عبيد القاري ، وفلان وفلان ورجال من المسلمين لا يعلمهم إلا الله ، فإنه بهم عالم ، كانوا يدوون بالقرآن اذا جن عليهم الليل كدوي النحل ، وهم آساد في النهار لا تشبههم الأسود ، ولم يفضل من مضى منهم من بقي إلا بفضل الشهادة إذا لم تكتب لهم » (الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٥٨٣) .

يا أخي »[١].

وبانتصار المسلمين في القادسية على الفرس الذين كانوا قد تجهزوا لها بكافة إمكانياتهم من عدة وعتاد وأفيال وأعداد كثيفة من الجند ، وانتخبوا لها أقدر قادتهم في الحرب والسياسة يكون المسلمون قد أحرزوا نصراً عزيزاً على إحدى القوتين العظميين في ذلك الزمان ؛ الإمبراطورية الفارسية ، فحطموا جيشها ، وكسروا شوكتها كسراً لم ينجبر بعدها أبداً ، فصارت أبواب العراق ومن ثم أبواب فارس مشرعة أمام جيوشهم يتحركون فيها في كل اتجاه . وبهذا أُعتبرت القادسية بحق إحدى المعارك الكبرى الحاسمة في التاريخ الإسلامي .

فتح المدائن : بقي سعد ﷺ بعد المعركة في القادسية يداوي الجرحى ، ويستعد لمواجهات جديدة ، وبعد شهرين جاءته أوامر الخليفة بالمسير إلى المدائن ، فتحرك بجيشه تجاهها ، وخلال مسيره حاول الفرس صده ، ولكن دون جدوى ، ففتح المسلمون عدة قرى ومدن ، منها برس وبابل ، ثم وصلوا إلى مدينة بَهْرُسِير التي كانت ضاحية من ضواحي المدائن ، لا يفصل بينهما إلا نهر دجلة ، وتسمى أحياناً بالمدينة الدنيا أو بالمدائن الغربية ، فحاصروها حصاراً شديداً لمدة شهرين ـ كما يذكر جمهور المؤرخين ـ حتى دخلوها في صفر سنة ١٦ هـ ، وبفتحهم هذه المدينة صاروا في الضفة الغربية للنهر المقابلة تماماً للعاصمة الفارسية ، حيث لاح لهم قصر كسرى الأبيض الذي بشرهم الرسول ﷺ بفتحه[٢] في أثناء حفر الخندق .

وحينما نزل المسلمون بهرسير وأرادوا العبور إلى المدائن (طيسفون) ـ مقر كسرى[٣] ـ وجدوا أن السفن الموجودة في نهر دجلة قد ضمت إلى بره الشرقي ، كما

(١) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٥٨٣ . وانظر الدينوري : الأخبار الطوال ، ص ١٢٣ – ١٢٤ . وهذه الحادثة تصور لنا مدى تواضع حاكم المسلمين آنذاك عمر ﷺ ، إذ يقوم بنفسه في مهمة تقصي أخبار جيشه ، فيخرج كل يوم لاستقبال القادمين من أرض المعركة ، والأعجب من ذلك أن يسير على قدميه يخب السير متحدثاً مع سعد بن عميلة رسول قائد جيش المسلمين الذي كان راكباً على راحلته ، ولم يكن يعرف أنه أمير المؤمنين ، ثم انظر كيف طمأنه عقب اعتذاره من كونه لم يعرفه بقوله « لا عليك يا أخي».

(٢) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٦١٨ – ٦٢٣ ، جـ ٤ ، ص ٥ – ٨ ؛ ابن الأثير : الكامل ، جـ ٢ ، ص ٥٠٥ – ٥١١ ؛ ابن كثير : خلافة عمر ، ص ١١٦ – ١١٩ .

(٣) كان العرب قبل الإسلام وبعده يسمون عاصمة الدولة الفارسية : المدائن ، بينما المدائن في الحقيقة كانت إبان

قطعت الجسور الواصلة بين الضفتين ، وحينئذ بقوا غير قادرين على العبور ، فأخذ قائدهم سعد ﷺ أياماً يفكر في كيفية العبور ، وفي أثناء ذلك رأى في منامه وكأن خيل المسلمين تعبر دجلة وهو في فيضان عظيم ، فحينئذ عزم على العبور فقام في الناس خطيباً وقال « إن عدوكم قد اعتصم منكم بهذا البحر ، فلا تخلصون إليه معه ، وهم يخلصون إليكم إذا شاءوا فيناوِشُونكم في سفنهم ، وليس وراءكم شيء تخافون أن تؤتوا منه ، فقد كفاكموهم أهل الأيام ، وعطلوا ثغورهم ، وأفنوا ذادتهم ، وقد رأيت من الرأي أن تبادروا جهاد العدو بنياتكم قبل أن تحصركم الدنيا ، ألا إني قد عزمت على قطع هذا البحر إليهم » .

فكان ردهم عليه « عزم الله لنا ولك على الرشد ، فافعل »[1]. وفي طريقة عبورهم النهر إلى المدائن روايتان.

الأولى إن أحد الفرس دل سعد ﷺ على مخاضة ضحلة المياه ، فأمر سعد ﷺ المسلمين بالعبور من خلالها [2].

والرواية الثانية تحكي أن سعداً ﷺ حين قرر العبور شكل أولاً كتيبة من الفرسان ، عدد رجالها ستمائة انتخبها من خيرة جنده ، وأسند قيادتها لعاصم بن عمرو ، وكلفها أن تعبر النهر وتكون رأس حربة للجيش ، فاقتحم هؤلاء بخيولهم عوماً في النهر ، وتقاتلوا مع الفرس الذين واجهوهم في وسط النهر ، وانتصروا عليهم ، وقد سميت هذه الكتيبة بكتيبة الأهوال .

ثم أمر سعد ﷺ الجيش عامة بالعبور رغم فيضان النهر وارتفاع منسوب مياهه ، ولكن عند العبور قال لهم قولوا « نستعين بالله ونتوكل عليه ، حسبنا الله ونعم الوكيل ، لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم » ، فخاض المسلمون لجة النهر ، وقد علا

العهد الأخير من عمر هذه الدولة تشكل سبع مدن متلاصقة على ضفتي نهر دجلة الشرقية والغربية ، أشهرها طيسفون مقر الحاكم ، أما الست الباقية فهي سلوقية ، أسبانبر ، بهرسير ، درزنيذان ، بلاش آباد ، ماخوزا ، وكان الرواة يصفون طيسفون وأسبانبر بالمدائن القصوى ، وبهرسير بالمدينة الدنيا . (أحمد عادل كمال : سقوط المدائن ونهاية الدولة الساسانية ، ص ٣١ – ٣٣) .

(١) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ، ص ٨ – ٩ .

(٢) البلاذري : فتوح البلدان ، ق ٢ ، ص ٣٢٣ ؛ الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٥٧٨ .

فيضانه ، وتلاطمت أمواجه ، وأثناء العبور كان سلمان الفارسي ﷺ بجوار سعد ﷺ فكان سعد ﷺ .

يقول «حسبنا الله ونعم الوكيل ، والله لينصرن الله وليه ، وليظهرن الله دينه ، وليهزمن الله عدوه ـ إن لم يكن في الجيش بغي أو ذنوب تغلب الحسنات»، فرد عليه سلمان ﷺ بقوله «الإسلام جديد ، ذللتْ لهم والله البحور كما ذلل لهم البر ، أما والذي نفس سلمان بيده ليَخْرُجُن منه [يقصد النهر] أفواجاً كما دخلوه أفواجاً » . ولقد تمت عملية عبور الجيش كله بسلام كما أقسم سلمان ﷺ ، فلم يفقد أحد من المسلمين[١] .

وقد علق ابن كثير[٢] على هذه الحادثة بعد أن نقل ما ذكره الرواة من أن المسلمين كانوا يسيرون في النهر كما يسيرون على وجه الأرض ، وأنهم كانوا يتحدثون إلى بعضهم بعضاً ـ فقال «وذلك لما حصل لهم من الطمأنينة والأمن .والوثوق بأمر الله ووعده ونصره وتأييده ، ولأن أميرهم سعد بن أبي وقاص أحد العشرة المشهود لهم بالجنة ، وقد توفي رسول الله ﷺ وهو عنه راضٍ ، ودعا له فقال : **اللهم أجب دعوته ، وسدد رميته** ، والمقطوع به أن سعداً دعا لجيشه هذا في هذا اليوم بالسلامة والنصر ، وقد رمى بهم في هذا اليم فسددهم الله وسلمهم ... وكان يوماً عظيماً ، وأمراً هائلاً ، وخطباً جليلاً ، وخارقاً باهراً ، ومعجزة لرسول الله ﷺ خلقها الله لأصحابه ... » .

ومن المعلوم أن شهر صفر سنة ١٦ هـ الذي جرى فيه العبور يصادف شهر مارس سنة ٦٣٧ م ولعله في نصفه الثاني ، فكان منسوب الماء في دجلة تلك الأيام يسمح بوجود مخاضات ، وإن كان على أبواب الفيضان المعتاد الذي يبدأ في الشهر التالي : أبريل ، ويستمر في مايو بعده ، حيث تكثر الأمطار وتذوب الثلوج في منابعه في جبال أرمينيا وكردستان ، غير أن فيضان ذلك العام بَكَّر على غير عادته ، فجاء في شهر مارس الذي عبر فيه المسلمون النهر كما مر قبل قليل[٣] ، ولذا فوجيء الفرس بعبورهم في تلك الأيام ، وأسقط في أيديهم ، فجعلوا يرددون بالفارسية « ديوان آمد » ، يعنى جاءت الشياطين ، وكان بعضهم يقول لبعض « والله ما تقاتلون الأنس ، وما تقاتلون إلا

(١) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ، ص ٩ – ١٢ .
(٢) خلافة عمر ، ص ١٢٢ . راجع البداية والنهاية ، جـ ٦ ، ص ١٦٥ .
(٣) كمال : سقوط المدائن ، ص ٣٦ ، ٣٥ .

الجن»[١]، إذ كانوا يرون أنه في حكم المستحيل عبور المسلمين في وقت فيضان النهر، وكانوا يقدرون ألا يتمكن سعد ﷺ من العبور بجيشه قبل مدة طويلة قد تصل إلى ستة أشهر، وذلك في نهاية أغسطس وبداية سبتمبر حين ينحسر الفيضان[٢].

على أي حال فبمجرد أن عبر المسلمون دجلة اندفعوا إلى المدائن ولم يلقوا أية مقاومة من الفرس إلا من حالات فردية لا تذكر[٣]، ثم سرعان ما تركها الجنود الذين كلفوا بحمايتها، وولوا مدبرين أمام هجوم المسلمين[٤].

أما يزدجرد الثالث فقيل إنه فر من عاصمته وقت عبور المسلمين إليها [٥]، وقيل إنه كان قد تركها قبل عبورهم دجلة، وذلك عقب دخول المسلمين بهرسير مباشرة، وحمل معه ما استطاع من أهله وأمتعته كنوزه وأمواله، ونزل في مدينة حلوان [٦] التي تبعد عن المدائن حوالي ٢٠٠ كم إلى الشرق منها [٧].

ومن عجائب ما يذكره بعض الرواة ويصور في الوقت عينه مبلغ البذخ الذي كان عليه حكام الدولة الفارسية ـ أن هول المفاجأة بوصول المسلمين أربك يزدجرد، فهرب مع حاشيته، «ومعه ألف طباخ، وألف مطرب، وألف فهاد، وألف بازيار فضلاً عمن سواهم، وعنده أنه في خُفٍّ»[٨]، فإذا كانت هذه حاله في الأيام العصيبة فكيف تكون

---

(١) الطبري : تاريخ الأمم والملوك، جـ ٤، ص ١٤ . وفي رواية للدينوري أن الفرس لما رأوا المسلمين يعبرون تنادوا «ديوان آمدند، ديوان آمدند» أي جاءت الشياطين (الأخبار الطوال، ص ١٢٦) .

(٢) كمال : سقوط المدائن، ص ٤٣ .

(٣) الطبري : تاريخ الأمم والملوك، جـ ٤، ص ١١، ١٣، ١٤، ١٥ - ١٦ .

(٤) الدينوري : الأخبار الطوال، ص ١٢٧ .

(٥) الطبري : تاريخ الأمم والملوك، جـ ٤، ص ١٣ ؛ ابن أعثم : الفتوح، جـ ١، ص ٢١٣ .

(٦) البلاذري : فتوح البلدان، ق ٢، ص ٣٢٢ ؛ الدينوري : الأخبار الطوال، ص ١٢٦ ؛ الطبري : تاريخ الأمم والملوك، جـ ٤، ص ١٥ . ويروي البلاذري أن يزدجرد لما دخل المسلمون بهرسير خاف على نفسه إلى درجه أنه دلي في زبيل من قصره الأبيض (فتوح البلدان، ق ٢، ص ٣٢٢) أي أنه لم يجرؤ على الخروج من الباب الرسمي القصر . وقد جعل أحمد كمال هذه الحركة من يزدجرد بعد عبور المسلمين دجلة ودخولهم المدائن (سقوط المدائن ص ٤٤) .

(٧) كمال : سقوط المدائن ص ٤٣ .

(٨) أرثر كريستنسن : إيران في عهد الساسانيين، ص ٤٨٥ (نقلاً عن الثعالبي من كتابه غرر أخبار ملوك الفرس) . راجع أبو الحسن الندوي : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص ٨٣ . وراجع أيضاً المقدسي : البدء والتاريخ، جـ ٥، ص ١٩٧ .

حاله في الأيام العادية .

وفي الوقت الذي خرج يزدجرد هارباً من المدائن بهذه الأبهة التي لا تمثل إلا جزءاً يسيراً من أبهته المعتادة فإنه من الجانب الآخر دخل قائد المسلمين سعد بن أبي وقاص ﷺ مع جنده إيوان كسرى في قصر المدائن الأبيض[١] خاضعاً متذللاً لله ، شاكراً له ، يقرأ قوله سبحانه: ﴿ كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٢٥ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٢٦ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَٰكِهِينَ ۝٢٧ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴾ (الدخان ، آية ٢٥ - ٢٨) ، ثم صلى فيه صلاة الفتح ثماني ركعات مقتدياً برسول الله ﷺ يوم فتح مكة ، ثم اتخذه مسجداً ، وصلى فيه صلاة الجمعة ، كما جعله إضافة إلى صلاة الجمع مصلى للأعياد[٢] .

ولقد غنم المسلمون بفتحهم المدائن غنائم كثيرة لا تُحَد ولا تُوصف ، منها مليار ونصف من الأموال السائلة النقدية ، ويظهر أنها كانت من الدراهم الفارسية ، وهي تمثل الشطر الثاني من أموال كسرى الموجودة في خزائنه التي كانت تقدر بثلاثة آلاف ألف ألف، أي ثلاثة مليارات ، وقد حمل معه نصفها عند هروبه من المدائن ، فبقي نصفها الثاني هذا [٣]، ومما غنموه مجموعة من الأواني الفضية والذهبية ، وتمثال لفرس من ذهب مسرج بسرج من فضة ، وآخر ناقة من فضة عليها مسح من ذهب ، وسيوف الأكاسرة وغيرهم من الملوك التي كانت مخزنة من زمن بعيد ، دع عنك حلية يزدجرد وثيابه وخرزاته ووشاحه ودرعه وتاجه ، كما حصلوا على بساط كسرى (القِطْف) الذي كان ستين ذراعاً في مثلها ، وهو منسوج بالذهب واللآلىء والجواهر الثمينة ، وفيه مصور [خارطة] للبلاد الفارسية ، بأنهارها وزروعها وقلاعها وأقاليمها [٤] .

---

(١) إيوان كسرى يقع في القصر الأبيض أشهر قصور الساسانيين الذي تقدر مساحته بـ ٣٠٠ × ٤٠٠ م٢ ، ويبلغ ارتفاع واجهة هذا الإيوان ٢٨ و٢٩ م ، وفي وسط هذه الواجهة قبة بيضاوية الشكل أبعادها ٢٥ × ٤٣ م ، وعلى جانبيها مجموعة من الأبهاء أقل ارتفاعاً منها ، تعلو كل واحد منها قبة دائرية . وكانت أرضية هذا الإيوان مفروشة بأفخر السجاجيد ، كما أن جدرانه مغطاة بالسجاجيد ولوحات الفسيفساء ، ويقع في أقصى الإيوان أو القاعة خلف ستار - كرسي كسرى (عرشه أو سريره) ، وكان فوق الكرسي التاج الذهبي الذي يزن ٥ و ٩١ كغم معلقاً بسلسة من ذهب مثبتة في سقف القبة ، فكان كسرى يجلس على كرسيه ويدخل رأسه في التاج المعلق ، فيظهر للرائي وكأنه يحمله (كمال : سقوط المدائن ، ص ٥٠ - ٥٤) .

(٢) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ، ص ١٦ .

(٣) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ، ص ١٠ ، ١١ .

(٤) الطبري :تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ، ص ١٧ - ١٩ ، ٢١ . فكان هذا البساط إذا جلس كسرى على =

ولما بعث سعد ﷺ بخمس هذه الغنائم إلى خليفة المسلمين عمر ﷺ في المدينة ، وكان من ضمنها بعض سلاح كسرى وملابسه وكذلك بساطه الآنف الذكر ـ قال لمن حوله لما نظر إليها«إن أقواماً أدوا هذا لذوو أمانة[(١)]! ، فقال علي : إنك عففتَ فعفّتْ الرعية»[(٢)] . وقد روي أن عمر ﷺ استدعى سراقة بن مالك وألبسه سواري كسرى ، وقال «الحمد لله الذي سلبهما كسرى بن هرمز وألبسهما سراقة بن مالك ، أعرابي من بني مدلج »[(٣)].

فتح جلولاء وحلوان وتكريت والموصل وغيرها : ما إن استقر المسلمون في المدائن حتى أتاهم الخبر بأن القائد الفارسي مهران ـ بدعم من يزدجرد ـ قد عسكر في جلولاء على بعد ١٥٠ كم شمال شرقي المدائن ، وأنه تحصن بها وحفر حولها الخنادق . كما بلغهم أن أهل الموصل قدموا بقواتهم إلى تكريت على بعد ٢٢٠ كم شمال المدائن[(٤)]، فكتب سعد ﷺ لعمر ﷺ بذلك ، فجاءه الجواب بتوجيه هاشم بن عتبة بن أبي وقاص إلى جلولاء في اثني عشر ألفاً من جند المسلمين ، وتوجيه عبد الله بن المعتم إلى التجمعات الفارسية في تكريت[(٥)].

= كرسيه ينظر في مملكته واحدة واحدة ، فيسأل عن كل واحدة منها وعن ولاتها ، وما وقع فيها من الأحداث وبذلك كان يتعرف على أحوال بلاده في كل وقت ، فكان هذا البساط بين يديه تذكاراً له بشان الممالك ، ويعقب ابن كثير على هذا العمل « وهذا إصلاح جيد منهم في السياسة » (خلافة عمر ، ص ١٢٦) .

(١) وقد روي أنه حين أخذ المسلمون يجمعون الغنائم جاء رجل بحق فقيل مارأينا مثل هذا قط ، هل أخذت منه شيئاً «فقال : أما والله لولا الله ما أتيتكم به ، فعرفوا أن للرجل شأناً ، فقالوا : من أنت ؟ فقال : لا والله لا أخبركم لتحمدوني ، ولا غيركم ليقرظوني ، ولكني أحمد الله ، وأرضى بثوابه . فأتبعوه رجلاً حتى انتهى إلى أصحابه ، فسأل عنه ، فإذا هو عامر بن عبد قيس (الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ، ص ١٩) .

(٢) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ، ص ٢٠ . وجاءت العبارة عند ابن كثير أن عمر ﷺ قال « إن قوماً أدوا هذا لأمناء ، فقال له علي بن أبي طالب : إنك عففت فعفت رعيتك ، ولو رتعت لرتعت » (خلافة عمر ، ص ١٢٧) . وقد ساق الأبشيهي قصة تحكي سبي بنات يزدجرد ، وجلبهن إلى سوق المدينة للبيع (المستطرف في كل فن مستظرف ، جـ ٢ ، ص ٨٥) وقد ذكر الشعبي أن أمه كانت أحد جواري كسرى (البلاذري : فتوح البلدان ، ق ٢ ، ص ٣٢٣) .

(٣) ابن كثير : خلافة عمر ، ص ١٢٨ ؛ ابن حجر : الإصابة ، جـ ٣ ، ص ٤٢ . والخبر رواته ثقات ، لكنه منقطع ، فقد رواه الحسن البصري (مهدي رزق الله أحمد : السيرة النبوية ، ص ٢٨٠) . وفي الطبري أن عمر استدعى أجسم رجل بالمدينة واسمه محلم ، ودعاه إلى لبس ملابس كسرى ليراها أهل المدينة (تاريخ الأمم والملوك ، جـ٤ ، ص ٢٢ - ٢٣)

(٤) كمال : سقوط المدائن ، ص ٦٩ .

(٥) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ، ص ٢٤ ، ٣٥ ؛ ابن الأثير : الكامل ، جـ ٢ ، ص ٥٢٠ ، ٥٢٣ .

أما بالنسبة لجلولاء فقد تحرك إليها هاشم بجيشه من المدائن فوصلها بعد أربعة أيام ، ثم حاصرها مدة سبعة أشهر أو تزيد ، وكانت الإمدادات تصل المدينة المحاصرة سواء للفرس أو المسلمين .

وقد جرى بين الطرفين خلال الحصار ثمانون زحفاً كان الظفر فيها جميعاً للمسلمين ، وفي اليوم الأخير اقتتلوا من أول النهار قتالاً شديداً ، واستمر القتال حتى أن المسلمين لم يستطيعوا صلاة الظهر إلا إيماءً ، وحين أرخى الليل سدوله وكاد الناس أن يتحاجزوا عن بعضهم بعضاً ـ تسلل القعقاع بن عمرو مع جماعة من الفرسان إلى مدخل خندق المدينة ، وصاح بالمسلمين للدفاع عن قائدهم ، فهبوا عائدين للقتال ، فحملوا على الفرس حملة صادقة حتى هزموهم شر هزيمة ، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، وقد ذكر بعض الرواة أنها سميت جلولاء لكثرة القتلى الذين جللوا وجه الأرض[١]، وقد كان ذلك في ذي القعدة سنة ١٦ هـ .

ولقد تتبع المسلمون بقيادة القعقاع بن عمرو فلول المنهزمين إلى أن أدركوهم في خانقين (موضع بين جلولاء وحلوان) ، فهزموهم مرة أخرى وقتلوا قائدهم مهران ، ثم تابع القعقاع مسيرته بجيشه نحو حلوان ـ وقد فر منها يزدجرد ـ ، وبالقرب منها اصطدم بحاميتها التي سرعان ما انهزمت أمامه ثم دخل المدينة فاتحاً[٢].

وجدير بالذكر أن المسلمين غنموا من جلولاء غنائم كثيرة قُوِّمت بثلاثين مليون درهم[٣] ، وقد بعث سعد ﷺ بالخمس إلى عمر ﷺ ، فلما وصل المدينة أمر عمر ﷺ بإنزاله في صحن المسجد وقال « والله لا يجنه سقف بيت حتى أقسمه » ، ثم كلف بحراسته عبدالرحمن بن عوف ﷺ وعبدالله بن أرقم ﷺ ، وحين أصبح جاء في الناس فكشف عنه ، « فلما نظر إلى ياقوته وزبرجده وجوهره بكى ، فقال له عبدالرحمن : ما يبكيك يا أمير المؤمنين ؟ فوالله إن هذا لموطن شكر ! فقال عمر : والله ما ذاك يبكيني ، وتالله ما أعطى الله هذا قوماً إلا تحاسدوا وتباغضوا ، ولا تحاسدوا إلا أُلقِيَ بأسهم

(١) الدينوري : الأخبار الطوال ، ص ١٢٧ - ١٢٨ ؛ البلاذري : فتوح البلدان ، ق ٢ ، ص ٣٢٤ - ٣٢٥ ؛ الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ، ص ٢٤ - ٢٧ ؛ ابن الأثير : الكامل ، جـ ٢ ، ص ٥١٩ - ٥٢١ .
(٢) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ، ص ٣٤ ؛ ابن الأثير : الكامل ، جـ ٢ ، ص ٥٢١ .
(٣) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ، ص ٢٩ .

بينهم»[١].

أما بالنسبة لتكريت فقد سار إليها عبد الله بن المعتم في خمسة آلاف من المسلمين ، فحاصرها أربعين يوماً ، وقد اشتبك عدة مرات مع المدافعين عنها الذين كانوا من الفرس والروم والعرب ، وفي أثناء ذلك اتصل بالعرب ودعاهم إلى الإسلام فقبلوا ، وعندئذ اتفق معهم على اقتحام المدينة ، فدخلها بمساعدتهم . وعقب فتح تكريت ـ وحسب أوامر الخليفة ـ توجه ربعي بن الأفكل العنزي الذي كان على مقدمة جيش ابن المعتم ـ إلى الحِصْنَين (نينوى والموصل) ، وقد انطلق إليهما مسرعاً ، ففاجأهما بجنده ، ودخلهما صلحاً . وفي الجهة نفسها فتح المسلمون في تلك الأيام : هيت وقرقيسياء[٢].

وعلى صعيد آخر بلغ سعداً ﷺ أن الفرس حشدوا قواتهم في ماسبذان من أرض الجبل بإيران ، فأرسل إليهم ضرار بن الخطاب الفهري ، فانتصر عليهم ، وفتح تلك المدينة[٣].

وفي جنوب العراق كان عمر ﷺ قد وجه عتبة بن غزوان ﷺ إلى الأبلة (البصرة) لإعادة فتحها قبل مسيرة جيش المسلمين إلى المدائن ، وذلك بهدف فتح جبهة أخرى مع الفرس لتشتيت قواتهم ، وقد حاصرها عتبة ﷺ ودخلها في رجب أو شعبان سنة ١٤هـ[٤].

وكان القائد الفارسي الهرمزان قد انسحب بقواته أمام تحركات المسلمين في العراق التي جرت عقب معركة القادسية ، ونزل في منطقة الأهواز (خوزستان) شرقي شط العرب ، أسفل نهر دجلة ، وصار يغير على المسلمين في جنوب العراق ، ولذا كان على

---

(١) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ، ص ٣٠ . كان زياد بن أبيه يدون الناس في جيش سعد ﷺ ، فبعثه بالحساب مع الذين حملوا الخمس الى المدينة ، فلما قدموا على عمر ﷺ كلمه ووصف له ما حدث ، فقال عمر ﷺ: هل تستطيع أن تقوم في الناس بمثل الذي كلمتني به ؟ فقال زياد : والله ما على الأرض شخص أهيب في صدري منك ، فكيف لا أقوى على هذا من غيرك ؟ فقام في الناس خطيباً ، « فقال عمر : هذا الخطيب المصقِع ، فقال : إن جندنا أطلقوا بالفعال لساننا » (الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ، ص ٢٩ – ٣٠) .

(٢) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ، ص ٣٥ – ٣٦ ، ٣٨ ؛ ابن الأثير : الكامل ، جـ ٢ ، ص ٥٢٣ – ٥٢٤ ، ٥٢٥ .

(٣) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ، ص ٣٧ ؛ ابن الأثير : الكامل ، جـ ٢ ، ص ٥٢٥ .

(٤) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٢ ، ص ٤٨٦ – ٤٨٨ . راجع الدينوري : الأخبار الطوال ، ص ١١٦ – ١١٧ .

عتبة بن غزوان ﷺ التصدي له ، فطلب المدد من سعد بن أبي وقاص ﷺ فأمده بقوات من الكوفة ، فاجتمعت مع قوات البصرة وما حولها ـ وكانت الكوفة والبصرة قد جرى إنشاؤهما في ذلك الوقت ليكونا معسكرين للمسلمين في العراق بناء على أوامر من الخليفة عمر ﷺ ـ فشكل عتبة ﷺ من تلك القوات جميعاً جيشاً بلغ عدده خمسة آلاف ، ووجه نحو الهرمزان ، فوقعت معركة بين الجانبين ، انتهت بمصالحة الهرمزان للمسلمين ، ولكنه ما لبث أن نقض الصلح فعاد المسلمون بقيادة حرقوص بن زهير السعدي ﷺ إلى حربه ، فلما هزموه ودخلوا سوق الأهواز سألهم الصلح مرة ثانية ، فأمرهم عمر ﷺ[١] ـ بعد أن كاتبوهم بذلك ـ أن يقبلوا منه[٢].

وفي تلك الأيام عمل يزدجرد حاكم الفرس على إثارة قومه ضد المسلمين ، وجعل مدينة تستر مركزاً لتجمعهم في الجهات الجنوبية ، فانضم إليهم الهرمزان ونكث العهد ، فتحركت القوات الإسلامية نحو تستر بقيادة النعمان بن مقرن ﷺ ، وطوقتها بحصار دام عدة أشهر ، ولما طال حصار المسلمين لها خرج أحد سكانها إلى النعمان ودله على مدخل إليها ، فعندئذ تسلل المسلمون ليلاً منه ، ودخلوا المدينة وفتحوا أبوابها بعد معركة عنيفة مع القوات الفارسية ، ثم حاصروا قلعتها التي تحصن فيها الهرمزان[٣]، وما زالوا يحاصرونها حتى طلب الهرمزان النزول على حكم خليفة المسلمين عمر ﷺ ، فوافقوا على ذلك[٤]، وقد أُختلف في السنة التي فتح فيها المسلمون هذه المدينة فقيل في

---

(١) سياتي فيما بعد الحديث عن بناء هاتين المدينتين .

(٢) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ، ص ٧٢ – ٧٨ ؛ ابن الأثير : الكامل ، جـ ٢ ، ص ٥٤٢ – ٥٤٥ .

(٣) كان البراء بن مالك ﷺ من أبرز الذين قاتلوا يوم تستر حتى استشهد (الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ، ص ٨٥) قال ابن حجر « وروى الترمذي من طريق ثابت وعلي بن زيد عن أنس أن النبي ﷺ قال (رب أشعث أغبر ، لا يؤبه له ، لو أقسم على الله لأبره ، منهم البراء بن مالك) ، فلما كان يوم تستر من بلاد فارس انكشف الناس ، فقال المسلمون : يابراء أقسم على ربك ، فقال : أقسم عليك يا رب لما منحتنا أكتافهم ، وألحقتني بنبيك ، فحمل وحمل الناس معه ، فقتله مرزبان الزارة ، من عظماء الفرس ، وأخذ سلبه ، فانهزم الفرس ، وقتل البراء » (الإصابة جـ ١ ، ص ٢٨١ – ٢٨٢ . انظر الحاكم : المستدرك ، جـ ٥ ، ص ١٩٥٨ ؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء ، جـ ١ ، ص ١٩٧) .

(٤) خليفة بن خياط : تاريخه ، ص ١٤٤ – ١٤٧ ؛ الدينوري : الأخبار الطوال ، ص ١٢٩ – ١٣٢ ؛ الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ، ص ٨٣ – ٨٦ ؛ ابن الأثير : الكامل ، جـ ٢ ، ص ٥٤٦ – ٥٤٨ . راجع ابن أعثم : الفتوح ، جـ ٢ ، ص ٩ – ٢٣ .

سنة ١٧ هـ وقيل في سنة ١٩ هـ ، وقيل في سنة ٢٠ هـ[(١)].

على أي حال فبينما استمر المسلمون في فتح منطقة الأهواز ، ففتحوا السوس وجند سابور صلحاً[(٢)] ـ فقد أُرسل الهرمزان إلى الخليفة مقبوضاً عليه مع وفد من المسلمين ، وكان على رأسهم أنس بن مالك ﷺ والمغيرة بن شعبة ﷺ والأحنف بن قيس ، فلما قربوا من المدينة ألبسوا الهرمزان لباسه المعتاد ليراه الناس على هيئته[(٣)]، ثم اتجهوا إلى بيت عمر ﷺ فلم يجدوه ، فخبرهم صبيان أنه نائم في المسجد.

فانطلق الوفد ومعهم الهرمزان ودخلوا المسجد حتى رأوا عمر ﷺ نائماً لوحده قد توسد برنسه ، وفي يده الدرة ، فجلسوا دونه ، «فقال الهرمزان : أين عمر ؟

فقالوا : هو ذا ! وجعل الوفد يشيرون إلى الناس أن اسكتوا عنه ، وأصغى الهرمزان إلى الوفد فقال :

أين حرسه وحجابه عنه ؟ قالوا : ليس له حارس ولا حاجب ولا كاتب ولا ديوان ، قال : فينبغي له أن يكون نبياً ، فقالوا : بل يعمل عمل الأنبياء . وكثر الناس فاستيقظ عمر بالجلبة ، فاستوى جالساً ، ثم نظر إلى الهرمزان فقال : الهرمزان ؟ قالوا : نعم ، فتأمله ، وتأمل ما عليه ، وقال : أعوذ بالله من النار ، وأستعين الله ، وقال : الحمد لله الذي أذل بالإسلام هذا وأشياعه ، يا معشر المسلمين تمسكوا بهذا الدين ، واهتدوا بهدى نبيكم ، ولا تبطرنكم الدنيا فإنها غرارة .

فقال الوفد : هذا مَلِك الأهواز ، فكلمه ، فقال : لا ، حتى لا يبقى عليه من حليته شيء. فرُمِيَ عنه بكل شيء عليه إلا شيئاً يستره ، وألبسوه ثوباً صفيقاً » ، وعندها تكلم عمر ﷺ معه عن طريق المترجم[(٤)]، وذكره بغدره فرد عليه الهرمزان بقوله « يا عمر إنا وإياكم في الجاهلية ، كان الله قد خلى بيننا وبينكم ، فغلبناكم إذ لم يكن معنا ولا معكم ،

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٢ ، ص ٥٤٦ .

(٢) ابن كثير : خلافة عمر ، ص ١٤٥ . يذكر الرواة أن المسلمين عثروا على جثة دانيال فأمرهم عمر ﷺ بدفنه (الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ، ص ٩٣) .

(٣) الدينوري : الأخبار الطوال ، ص ١٣٢ ؛ الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ، ص ٨٦ – ٨٧ ؛ ابن الأثير : الكامل ، جـ ٢ ، ص ٥٤٨ .

(٤) بدأ المغيرة بن شعبة ﷺ في الترجمة بينهما حتى جاء المترجم ؛ حيث «كان المغيرة يفقه شيئاً من الفارسية »(الطبري: تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ، ص ٨٨) .

فلما كان معكم غلبتمونا ، فقال عمر : إنما غلبتمونا في الجاهلية باجتماعكم وتفرقنا»، ثم واصل عمر ﷺ الحوار معه حتى طلب الهرمزان من عمر ﷺ أن يأمنه ، فأبى عمر ﷺ عليه ذلك إلا أن يسلم ، فأسلم الهرمزان في الأخير[١].

وهكذا من خلال ما مضي يتضح أن المسلمين بعد معركة القادسية نجحوا في مواجهة الدولة الفارسية مواجهة شاملة ، حيث وزعوا عملياتهم العسكرية على ثلاث جبهات ، الجبهة الرئيسة : محور المدائن ـ جلولاء ـ حلوان ، وهي تتبع أثر يزدجرد . ثم جبهة الجنوب وجرى فيها إعادة فتح الأبلة ومناطق أسفل الفرات ودجلة ، وامتدت لضرب التجمع الفارسي في الأهواز . ثم جبهة الشمال ، وقد واجهوا فيها التجمع الفارسي في تكريت وما حولها .

فتح نهاوند (فتح الفتوح) : بجانب التجمع الفارسي في الأهواز الذي تولى قيادته الهرمزان فقد هب يزدجرد الثالث حاكم الفرس الفار من الجيوش الإسلامية يدعو قومه لمقاومة المسلمين وحربهم ، وذلك بالتجمع بشكل أوسع في مدينة نهاوند ، فاستجابوا له من كافة الأقطار الفارسية[٢]، واحتشد فيها من الجند في رواية ستون ألفاً ، وفي رواية أخرى مائة ألف[٣]، وفي رواية ثالثة ـ وهي المشهورة ـ مائة وخمسون ألفاً ، وقد جعل القيادة فيها للفيرزان[٤].

ويبدو أن يزدجرد اختار نهاوند مركزاً لهذه الحشود لأنها تتميز بميزتين :

الأولى : كونها في وسط مملكته المتداعية .

والميزة الثانية : حصانتها ووقوعها على ربوة مرتفعة عما حولها من أراضٍ ، حيث يصل ارتفاعها إلى ٦٠٠٠ قدم فوق سطح البحر[٥].

---

(١) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ، ص ٨٧ – ٨٨ ؛ ابن الأثير : الكامل ، جـ ٢ ، ص ٥٤٨ – ٥٤٩ .
(٢) خليفة بن خياط : تاريخه ، ص ١٤٧ ؛ البلاذري : فتوح البلدان ، ق ٢ ، ص ٣٠٠ ؛ الدينوري : الأخبار الطوال ، ص ١٣٣ – ١٣٤.
(٣) البلاذري : فتوح البلدان ، ق ٢ ، ص ٣٠٠ .
(٤) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ، ص ١٢٢ ؛ ابن الأثير : الكامل ، جـ ٣ ، ص ٧ ؛ ابن كثير : خلافة عمر ، ص ١٤٨ .
(٥) كمال : سقوط المدائن ، ص ١٨٢ .

علم سعد بن أبي قاص ﷺ بأخبار الحشود الفارسية في نهاوند فكتب بذلك إلى عمر ﷺ ، بيد أن وصول كتاب سعد ﷺ بأخبار تلك الحشود وافق وصول شكوى نفر من أهل الكوفة أميرهم سعد ﷺ على عمر ﷺ ، فبادر عمر ﷺ بعزله عن الكوفة(١) خوفاً ـ فيما يبدو ـ من اختلاف الكلمة فيها في مثل هذا الوقت العصيب الذي تجمعت فيه القوى الفارسية بكثافة لحرب المسلمين ، إذ كانت الكوفة يومها القاعدة الأمامية الكبرى للجيوش الإسلامية(٢) ، فرأى عمر ﷺ أن من المصلحة العامة لإبقاء جيوش هذه القاعدة أيامئذ متوحدة عزل سعد ﷺ رغم أنه ثبت لديه عدم صدق ما قيل فيه من تهم ، وقد ألمح ﷺ إلى خوفه أن يكون هؤلاء النفر الذين شكوا سعداً ﷺ في ذلك الوقت بالذات إنما يريدون شق صف المسلمين ، وإشغالهم عن مواجهة أعدائهم ، فقال لهم حين قدموا عليه في المدينة ـ وذلك قبل أن يحقق في صدق شكواهم ـ « إن الدليل على ما عندكم من الشر نهوضكم في هذا الأمر وقد استعد لكم من استعدوا [يقصد الفرس] ، وايم الله لا يمنعني ذلك من النظر فيما لديكم وإن نزلوا بكم »(٣) .

---

(١) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ، ص ١٢٠ - ١٢٢ .

(٢) محمود شيت خطاب : قادة فتح العراق والجزيرة ، ص ٢٧٨ .

(٣) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ، ص ١٢١ . وقد ورد في الصحيح وغيره ما يكشف ظروف عزل عمر ﷺ لسعد ﷺ عن إمارة الكوفة . عن جابر بن سمرة ﷺ قال « شكا أهل الكوفة [وفي رواية لإبي عوانة : ناس من أهل الكوفة] سعداً إلى عمر ﷺ ، فعزله واستعمل عليهم عماراً ؛ فشكوا حتى ذكروا أنه لا يحسن يصلي ، فأرسل إليه فقال : يا أبا إسحاق ، إن هؤلاء يزعمون أنك لا تحسن تصلي ، قال أبو إسحاق : أما أنا ، والله فإني كنت أصلي بهم صلاة رسول الله ﷺ ما أخرم عنها ؛ أصلي صلاة العشاء ، فأركد في الأولين ، وأخف في الأخرين ، قال :ذاك الظن بك يا أبا إسحاق . فأرسل معه رجلاً أو رجالاً إلى الكوفة ، فسأل عنه أهل الكوفة ، ولم يدع مسجداً إلا سأل عنه ويثنون معروفاً ، حتى دخل مسجداً لبني عبس ، فقام رجل منهم ، يقال له أسامة بن قتادة ، يكنى أبا سعدة ، قال : أما إذ نشدتنا ؛ فإن سعداً كان لا يسير بالسرية ، ولا يقسم بالسوية ، ولا يعدل في القضية ، قال سعد : أما والله لأدعون بثلاث ؛ اللهم إن كان عبدك هذا كاذباً ، قام رياء وسمعة ، فأطل عمره ، وأطل فقره ، وعرضه بالفتن . وكان بعد إذا سئل يقول شيخ كبير مفتون أصابتني دعوة سعد ، قال عبد الملك [بن عمير رواي القصة عن جابر بن سمرة] فأنا رأيته بعد قد سقط حاجباه على عينيه من الكبر وإنه ليتعرض للجواري في الطرق يغمزهن » (البخاري : الصحيح ، جـ ١ ، ٢٦٢- ٢٦٣ ، جـ ٣ ، ص ١٣٦٤ . انظر أحمد : المسند ، جـ٣ ، ص ٦١ ، ٧٤ ، ٧٩ ؛ مسلم : الصحيح ، جـ ١ ، ص ٣٣٤ - ٣٣٥ ؛ البيهقي :السنن الكبرى ، جـ ٢ ، ص ٦٥ ، الذهبي : سير أعلام النبلاء ، جـ ١ ، ص ١١٣ ؛ ابن حجر : فتح الباري ، جـ ٢ ، ص ٢٣٧) يتبين من هذا الحديث أن هؤلاء النفر من أهل الكوفة اتهموا سعداً ﷺ بتهم عديدة لا رصيد لها من الواقع ، بدليل قدحهم في صلاته بهم ، وهو الصحابي الجليل الذي أسلم مبكراً ، وعاش مع رسول الله ﷺ ، وصلى معه الصلوات طوال العهد المكي والمدني ، فإذا كانت صلاة سعد ﷺ لم تسلم من قولهم ـ وهي عبادة يُحْسنُ إقامتها العامي =

أقر عمر ﷺ على الكوفة عبد الله بن عبد الله بن عتبان الذي كان قد استخلفه سعد ﷺ قبل قدومه إلى المدينة ، واستمرت أخبار الحشود الفارسية تترى على عمر ﷺ من ابن عتبان وغيره ولذا عزم على التصدي لها ، وكان قبل ذلك قد رأى أهمية الانسياح ببلاد الفرس لاقتناعه بوجوب إزالة ملك حاكمهم يزدجرد الذي لن تنتهي تجمعات الفرس وتحركاتهم ما دام بين ظهرانيهم حسب رأي الأحنف بن قيس(١).

وعليه فقد جمع عمر ﷺ الصحابة واستشارهم فيما يصنع لمواجهة هذه الحشود الفارسية الكثيفة، وعرض عليهم أن يسير إلى العراق بنفسه ليكون ردءاً للمجاهدين المسلمين في نهاوند ، فتكلم كبار الصحابة كعثمان بن عفان، وطلحة بن عبيد الله، والزبير

= من المسلمين ـ فإن اتهامه بما سواها سهل عند هؤلاء ، ولذا رأى عمر ﷺ بثاقب حكمته أن المناقشة معهم لا قيمة لها إذا كانت هذه نوعية شكواهم ، ومن ثم فلا جدى من التوفيق بينه وبينهم ، فسعد ﷺ لا يصلح لهم ، فالأولى أن يعزله في ذلك الظرف الذي يستعد فيه الفرس لحرب المسلمين ، وواضح أن هؤلاء الذين شكوه أفراد ينتمون إلى قبيلة أو قبائل من سكان الكوفة وهم جند من جندها الذين سيمثلون أمام الفرس في المواجهة القريبة ، وليقين عمر ﷺ بمبالغة أولئك الشكاة من أهل الكوفة ، وعدم مصداقية ما ألصقوه بسعد ﷺ نراه غير غاضب عليه ، إذ استدعاه وصارحه بما قالوا ، وكان يحدثه حديث المحب ، ويلقبة بكنيته ، بل ويقر على ولاية الكوفة ابن عتبان الذي استخلفه سعد ﷺ عليها ، وقد قال عنه عمر ﷺ فيما بعد في وصيته لرجال الشورى لما طعن بأنه لم يعزله من عجز ولا خيانة (البخاري : الصحيح ، جـ ٣ ، ص ١٣٥٦) وليطلعه على أبعاد مشكلته معهم جعله يعود إلى الكوفة مع مندوبه إليهم ، ويستمع بنفسه إلى ما يقولونه ، فأثنى عليه أهل الكوفة كلهم سوى بعض أهل مسجد بني عبس الذي قام فيه ذلك الرجل ، وقال كذباً ما قاله عنه . وقد روي أن أهل الكوفة لما ولى عليهم عمر ﷺ عمار بن ياسر ﷺ تكلموا فيه فقال عمر ﷺ « من عذيرى من أهل الكوفة إن استعملت عليهم القوي فجروه ، وإن وليت عليهم الضعيف حقروه » (البلاذري : فتوح البلدان ، ق ٢ ، ص ٣٤٣) . راجع في عزل سعد ﷺ ما قاله ابن حجر : فتح الباري ، جـ ٢ ، ص ٢٣٧- ٢٤٠) . وكان عزل سعد ﷺ عن الكوفة في رواية سنة ٢٠ هـ (ابن كثير : خلافة عمر ، ص ٤٦) وفي رواية أخرى سنة ٢١ هـ (خليفة بن خياط : تاريخه ، ص١٤٩) .

(١) كان عمر ﷺ قد تساءل عن سبب انتقاض أهل فارس على حكم المسلمين بحضور الأحنف بن قيس الذي كان ضمن النفر الذين قدموا بالهرمزان إلى المدينة ، فقال لهؤلاء النفر « لعل المسلمين يفضون إلى أهل الذمة بأذى وبأمور لها ما ينتقضون بكم ! فقالوا : ما نعلم إلا وفاء وحسن ملَكة ، قال : فكيف هذا ؟ فلم يجد عند أحد منهم شيئاً يشفيه ويبصر به مما يقولون إلا ما كان من الأحنف فقال : يا أمير المؤمنين أخبرك أنك نهيتنا عن الانسياح في البلاد ، وأمرتنا بالاقتصار على ما في أيدينا ، وإن مَلِكَ فارس حي بين أظهرهم ، وإنهم لا يزالون يساجلوننا ما دام مَلِكهم فيهم ، ولم يجتمع ملكان فاتفقا حتى يُخرج أحدهما صاحبه ، وقد رأيت أنا لم نأخذ شيئاً بعد شيء إلا بانبعاثهم ، وأن ملكهم هو الذي يبعثهم ، ولا يزال هذا دأبهم حتى تأذن لنا ، فلنسح في بلادهم حتى نزيله عن فارس ، ونخرجه من مملكته ، وعز أمته ، فهنالك ينقطع رجاء أهل فارس ، ويضربون جأشاً [تسكن حركتهم] ، فقال : صدقتني والله ، وشرحت لي الأمر عن حقه »(الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ، ص ٨٩) فالأحنف بن قيس شرح لعمر ﷺ أن وجود ملك الفرس يزدجرد هو السبب في كثرة انتقاض قومه ، وأنه لابد من ملاحقته والقضاء عليه ، وهذا يقتضي الانسياح في بلاده .

بن العوام وعبد الرحمن بن عوف ﷺ وغيرهم ولم يروا خروجه ، ثم قام علي ﷺ وأيد القوم على رأيهم ، وبين أن نصر المسلمين وخذلانهم لا يعود لقلة أو كثرة ، وأن الله منجز وعده ، وناصر جنده ، وأن عمر ﷺ من المسلمين بمنزلة الخيط من الخرز ، يجمعها ويمسكها ، فإن انحل تفرق ما فيه وذهب ، وعليه أن يقيم بالمدينة ويأمر أهل الكوفة والبصرة بالخروج للجهاد ، فأخذ عمر ﷺ برأيهم[١] ، وقرر أن يولي النعمان بن مقرن ﷺ قيادة الجيش ، فكتب إليه كتاباً قال فيه.

«بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى النعمان بن مقرن ، سلام عليك ، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد : فإنه قد بلغني أن جموعاً من الأعاجم كثيرة قد جمعوا لكم بمدينة نهاوند ، فإذا أتاك كتابي هذا فسر بأمر الله ، وبعون الله ، وبنصر الله بمن معك من المسلمين ، ولا توطئهم وعراً فتؤذيهم ، ولا تمنعهم حقهم فتكفرهم ، ولا تدخلنهم غيضة ، فإن رجلاً من المسلمين أحب إلي من مائة ألف دينار ، والسلام عليك »[٢]. وقد ورد في رواية « فإن قتل النعمان فحذيفة ، فإن قتل حذيفة فجرير »[٣].

بعث عمر ﷺ جنداً من المدينة فيهم ابنه عبد الله بن عمر ﷺ ، وكتب إلى أهل الكوفة والبصرة للخروج للجهاد ، فتجمعت تلك القوات جميعاً وقادها النعمان ﷺ

---

(١) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ، ص ١٢٢ - ١٢٤. راجع خليفة بن خياط : تاريخه ، ص ١٤٧ – ١٤٨. وقد ورد في رواية أخرى أن طلحة ﷺ قام وعرض أن يعمل عمر ﷺ ما يراه مناسباً ، ثم قام عثمان ﷺ فرأي أن يستنفر أهل الشام وأهل اليمن وأهل العراق ، ثم يسير بنفسه لقيادة الجيش ، ثم قام علي ﷺ وخالف رأي عثمان ﷺ وبين خطورة خلو اليمن والشام من الجند ، وضرورة بقاء عمر ﷺ في المدينة (الدينوري : الأخبار الطوال ، ص ١٣٤- ١٣٥ ؛ الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ص ١٢٤ - ١٢٥) وقد جاء أن سعد بن أبي وقاص ﷺ حضر هذا المجلس ، وهون من شأن اجتماع الفرس (الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ، ص ١٢٤) .

(٢) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ، ص ١١٤ - ١١٥ . وفي ولاية النعمان ﷺ الجيش أقوال ، منها أن سعد بن أبي وقاص ﷺ بعثه إلى نهاوند بأمر من عمر ﷺ (الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ، ص ١١٤) ومنها أن النعمان ﷺ كتب إلى عمر ﷺ يتشوق إلى الجهاد بعد أن ولي خراج كسكر ، فوصل كتابه عمر ﷺ وهو يستشير فيمن يولي قيادة المسلمين في نهاوند ، فكتب إليه بالقيادة (الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ، ص ١٢٦) ومنها أن النعمان ﷺ كان في المدينة فولاه عمر ﷺ مشافهة (البلاذري : فتوح البلدان ، ق ٢ ، ص ٣٧١ ، ٣٧٢) .

(٣) خليفة بن خياط : تاريخه ، ص ١٤٨ . راجع ابن كثير : خلافة عمر ، ص ١٥١ ، حاشية ١ .

وتوجه بها شطر نهاوند[١]، وقد بلغت أعدادها حوالي ثلاثين ألفاً[٢]، وكان عمر ﷺ قد كتب إلى أمراء الأجناد في الأهواز أن يشاغلوا أهلها من الفرس ليقطع الإمدادات عن أهل نهاوند من ناحية ، ويشغل القوات الفارسية في جبهات متعددة من ناحية أخرى[٣].

ومن طرفه أرسل النعمان ﷺ في أثناء توجهه إلى هدفه رجالاً لتفقد الطريق ، كان منهم طليحة بن خويلد الأسدي الذي عاد مخبراً بعدم وجود قوات معادية ، فواصل الجيش الإسلامي سيره حتى عسكر قريباً من نهاوند التي اعتصم فيها الفرس[٤]، وحفروا حولها الخنادق ، ونشروا في محيطها الحسك[٥]، وهي قطع حادة من الحديد تعيق حركة المهاجمين .

وبمجرد أن استقر الجيش الإسلامي في معسكره اصطدم بالقوات الفارسية ، فكان القتال سجالاً بين الفريقين يومين متتاليين ، ثم بقي المسلمون أمام المدينة مدة يحاصرونها ، ويشتبكون مع جنودها الذين دأبوا على الخروج منها للقتال بين آونة وأخري .

ولما طالت المدة على المسلمين دون أن ينالوا من الفرس شيئاً ، أو يجدوا فرصة لاقتحام المدينة[٦] ـ وبخاصة أن الوقت كان شتاءً[٧] ـ اجتمع النعمان ﷺ بأهل الرأي من رجاله وشاورهم في الطريقة التي يمكن بها منابذة جيش الفرس كله وإنهاء الأمر.

فعرض بعضهم استمرار المحاصرة للمدينة ، فرفضه المجتمعون .

وعرض بعضهم تكثيف الهجوم على التحصينات ، فرفضوه أيضاً.

ثم تكلم طليحة الأسدي ، واقترح أن تتقدم فرقة من فرسان المسلمين وتتحرش بالفرس ، وتغريهم بالمبارزة كراً وفراً ، ثم تتظاهر بالانكسار أمامهم ، وتتراجع إلى أن

---

(١) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ، ص ١١٧ - ١١٨ .
(٢) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٣ ، ص ١٠ .
(٣) محمود شيت خطاب : قادة فتح بلاد فارس ، ص ١٠٣ ؛ الشامي : الخلفاء ، ص ١٧٧ - ١٧٨ .
(٤) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ، ص ١٢٨ .
(٥) ابن أعثم : الفتوح ، جـ ٢ ، ص ٤٥ .
(٦) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ، ص ١٢٩ . حدد العمري حصار المسلمين بشهرين (الفتوح الإسلامية ، ص ١٣٢) بينما لم يأت في المصادر ما ينص على ذلك .
(٧) كمال : سقوط المدائن ، ص ٢٠٠ .

تخرجهم بعيداً عن المدينة ، بينما يأخذ سائر الجيش الإسلامي مواقع خفية في الخلف ، فإذا ما نجحت الخطة في إخراج الفرس من مدينتهم طمعاً في هزيمة المسلمين كر عليهم المسلمون وقاتلوهم .

فوافق المجتمعون على هذه الخطة ، وطبقها النعمان ﷺ ، وكان ذلك في يوم جمعة ، حيث طلب في صدر ذلك اليوم من القعقاعَ بن عمرو قائد فرسان المسلمين إنشاب القتال مع الفرس ، ثم النكوص شيئاً فشيئاً ، فخرج جند الفرس من المدينة يرمون المسلمين حتى أفشوا فيه الجراح ، والمسلمون حسبما أوامر النعمان ﷺ لا يردون عليهم ، حتى جاء بعضهم وقالوا له : ائذن للناس بالقتال ، وألحوا عليه بذلك ، ولكن النعمان ﷺ كان يرى التمهل ، وأن تأتي ساعات الزوال التي كانت أحب إلى رسول الله ﷺ أن يلقى فيها العدو .

ولذا حين حل الزوال ركب برذوناً قصيراً ، وجعل يمر على كل راية يعظهم ويذكرهم ويخبرهم أنه سيكبر ثلاثاً ، وأنه بعد التكبيرة الثالثة سيكون الهجوم ، ثم راح يدعو بقوله «اللهم أعز دينك ، وانصر عبادك ، واجعل النعمان أول شهيد اليوم على إعزاز دينك ونصر عبادك »(١) .

ولا شك أن تأخير النعمان ﷺ للقتال بعد الزوال فوق أنه سنة للرسول ﷺ فإن فيه في هذا الموطن زيادةَ خداع للفرس ، وسحبهم أكثر عن مدينتهم إلى مكان مكشوف ، وتبديداً لطاقاتهم ، وإرهاقاً لقوتهم ، وقد ورد في رواية أن أهل الرأي من المسلمين قد اقترحوا على النعمان ﷺ في حالة خروج الفرس من مدينهم أن يمعن في تضليلهم بتراجع الجيش كله عن مواقعه ، وكأنه منهزم أمامهم(٢) .

طبقت الخطة بحذافيرها ، وبقي الجنود المسلمون ملتزمين بأوامر قائدهم حتى أذن

---

(١) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ، ص ١٢٩ - ١٣٢ . روى زياد بن حدير عن أبيه ـ وكان ممن شهد الوقعة ـ أن النعمان ﷺ قال « والله ما منعني من أن أناجزهم إلا شيء شهدته من رسول الله ﷺ ، إن رسول الله كان إذا غزا فلم يقاتل أول النهار لم يعجل حتى تحضر الصلاة ، وتهب الأرواح ، ويطيب القتال ، فما منعني إلا ذلك . اللهم إني اسألك أن تقر عيني اليوم بفتح يكون فيه عز الإسلام ، وذل يذل به الكفار ، ثم اقبضني إليك بعد ذلك على الشهادة ، أمنوا يرحمكم الله ! فأمنا وبكينا»(الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ، ص ١١٩) .

(٢) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ، ص ١١٥ .

لهم بالرد على الفرس وقتالهم ، وبسرعة مدهشة استدار الجيش الإسلامي وانقض على الجموع الفارسية التي كانت قد أضحت في ميدان مكشوف بعد خروجها في أعقاب المسلمين ظانة هزيمتهم ، فدارت معركة شرسة بين الجانبين ، تجالدوا فيها بالسيوف ، فوقع فيها كثير من القتلى الذين تبعثرت أشلاؤهم ، وسالت دماؤهم في ساحة المعركة.

وقدر للنعمان ﷺ أن يصاب ، فقيل أن ذلك بسبب انزلاق فرسه في تلك الدماء الكثيرة التي جللت الأرض ، وقيل بل أصيب في خاصرته ، فكادت راية المسلمين أن تسقط ، فأخذها أخوه نعيم وقيل سويد وسلمها لخليفته في القيادة حذيفة بن اليمان ﷺ الذي حدد في كتاب عمر ﷺ من قبل.

وتكتم القريبون من النعمان ﷺ على إصابته لكي لا تؤثر على معنويات المقاتلين المسلمين ، وواصل حذيفة ﷺ قيادة المعركة حتى أظلم الليل من ذلك اليوم ، فانهزم الفرس وولوا الأدبار ، فوقع بعضهم في حسك الحديد الذي كانوا قد نشروه حول نهاوند ، وبعضهم أضلوا الطريق عند مطاردة المسلمين لهم ، فسقط منهم كثيرون في واد سحيق[١] ، وقد قيل إنه قتل منهم في هذه المطاردة ثمانون ألفاً ، وفي المعركة ثلاثون ألفاً ، وفر قائدهم الفيرزان في قلة من أصحابه إلى مدينة همدان ، فلحق به بعض المسلمين وقتلوه[٢].

أما النعمان ﷺ فقد استشهد ، وقد روى معقل بن يسار أنه أتاه وبه رمق ، فغسل وجهه من أدواة ماء كانت معه ، « فقال : من أنت ؟ قلت : معقل ، قال : ما صنع المسلمون ؟ قلت : أبشر بفتح الله ونصره ، قال : الحمد لله ، اكتبوا إلى عمر »[٣].

دخل المسلمون نهاوند في رواية بعد هذه المعركة مباشرة ، وحصلوا على غنائم كثيرة[٤] ، وفي رواية أخرى أن المسلمين بقوا يحاصرون المدينة بقيادة قائدهم الجديد

---

(١) جاء أن الفرس كانوا عند سقوطهم في هذا الوادي يقولون بالفارسية ((وايه خُرْد)) ، فسمي ذلك الوادي بعدها بهذا الاسم (الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ، ص ١٣٢)

(٢) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ، ص ١٣١ - ١٣٣ ؛ ابن الأثير : الكامل ، جـ ٣ ، ص ١٢ - ١٤ ؛ ابن كثير : خلافة عمر ، ص ١٥٥ - ١٥٦ .

(٣) البلاذري : فتوح البلدان ، ق ٢ ، ص ٣٧٢ .

(٤) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ، ص ١٣٣ .

حذيفة بن اليمان ﷺ حتى نزل أحد زعمائها وطلب الأمان لأهلها ، فصالحه حذيفة ﷺ ، وكتب لهم بذلك كتاباً ، ففتحت المدينة أبوابها للمسلمين ودخلوها [١]. وكان ذلك في سنة ٢١ هـ على القول المشهور ، ويرى أحمد كمال[٢] على سبيل الظن أن فتح نهاوند كان في ١٦ أو ٢٣ من محرم سنة ١٩ هـ .

وصل خبر انتصار المسلمين إلى عمر ﷺ في المدينة الذي كان كعادته يترقب بتلهف وقلق وتفاؤل أخبار جنوده المجاهدين[٣]، وقد روى أبو عثمان النهدي فقال « أنا ذهبت بالبشارة إلى عمر ، فقال : ما فعل النعمان ؟ قلت : قُتل ، قال : إنا لله وإنا إليه راجعون ، ثم بكى ، فقلت : قتل والله في آخرين لا أعلمهم ، قال : ولكن الله يعلمهم »[٤]. وقد ذكر أن حذيفة ﷺ بعث بنفائس من غنائم نهاوند إلى عمر ﷺ ، بيد أن عمر ﷺ ردها إليه كرة أخرى لتقسيمها على من أفاءها الله عليه من الجيش الفاتح[٥] .

وبهزيمة الفرس في نهاوند انهارت معنوياتهم ، وتشتت وحدتهم ، فلم ينتظم لقيادتهم بعدها اجتماع ، ولم تحتشد تحت راية دولتهم جيوش ، وصار ما بقي من بلادهم في متناول أيدي المسلمين ، فكانت هذه الواقعة تمثل بحق ختام الوقائع الفاصلة بين الطرفين ، ولذلك سماها المسلمون بـ « فتح الفتوح »[٦].

ما بعد نهاوند : كان عمر بن الخطاب ﷺ قد أذن للمسلمين بالانسياح في بلاد الفرس بهدف تقويض أركان الإمبراطورية الفارسية تبعاً لنصيحة الأحنف بن قيس ، فعقد سبعة ألوية لتحقيق هذا الهدف ، وهي كالتالي :

١ - لواء خراسان بقيادة الأحنف بن قيس .

---

(١) البلاذري : فتوح البلدان ، ق ٢ ، ص ٣٧٥ ؛ الدينوري : الأخبار الطوال ، ص ١٣٧ . راجع كتاب الأمان لأهل نهاوند في الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ، ص ١٣٧ .

(٢) سقوط المدائن ، ص ٢١٩ .

(٣) ورد أن خبر فتح نهاوند قد شاع في المدينة قبل أن يأتي رسول حذيفة ﷺ إليها ، وكان ذلك عن طريق عثيم بريد الجن (الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ، ص ١٣٤) راجع ابن تيمية : الدليل والبرهان على صرع الجن للإنسان ، تحقيق محمد بن طاهر الزين ، ص ٥٩ .

(٤) البلاذري : فتوح البلدان ، ق ٢ ، ص ٣٧٣ .

(٥) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ، ص ١٣٥ .

(٦) البلاذري : فتوح البلدان ، ق ٢ ، ص ٣٧٤ ؛ ابن الأثير : الكامل ، جـ ٣ ، ص ١٦ .

٢- لواء أردشيرخره وسابور بقيادة مجاشع بن مسعود السلمي .

٣- لواء إصطخر بقيادة عثمان بن أبي العاص الثقفي .

٤- لواء فسا ودارابجرد بقيادة سارية بن زُنَيم الكناني .

٥- لواء كرمان بقيادة سهيل بن عدي .

٦- لواء سِجستان بقيادة عاصم بن عمرو .

٧- لواء مُكران بقيادة الحكم بن عمير التغلبي .

وكان عقد هذه الألوية قد جرى قبل نهاوند[١] ، ومن الواضح أن هؤلاء القادة لم يباشروا تحركاتهم بشكل فعلي لفتح المناطق التي وجهوا لها إلا بعد وقعة نهاوند[٢] ، فقبلها كان المسلمون بصدد التجمع والاحتشاد للمواجهة مع الجموع الكثيفة في تلك المدينة ، ثم إن غالبية المناطق المحددة لهؤلاء القادة كانت تقع من وراء نهاوند ، بل إن بعضها تبعد عنها بمسافات شاسعة في داخل العمق الفارسي ، ومن المؤكد أن عمر ﷺ قد عقد لألوية أخرى بعد فتح نهاوند انطلقت من البصرة والكوفة لتشارك في فتح بلاد الفرس[٣] .

على أي حال فيلاحظ أن قوات المسلمين بعد نهاوند أخذت بالانتشار في بلاد الفرس ، فانطلق قسم منها لملاحقة الفلول الفارسية المنهزمة من نهاوند ، أو لضرب بعض الحشود التي حاولت التجمع في أكثر من موقع .

أما القسم الآخر من القوات الإسلامية فانطلق ابتداء لفتح مناطق عينها عمر ﷺ في خطته للانسياح .

وفيما يتعلق بالفلول المنهزمة فبعد أن تمكن المسلمون من اللحاق بالفيرزان القائد الفارسي الفار من نهاوند ، ومن ثم قتله ـ كما مر قبل قليل ـ تعقبوا بقايا جيشه التي لجأت إلى مدينة همدان الواقعة إلى الشمال من نهاوند ، فنزلوا عليها ، وطوقوها بالحصار

(١) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ، ص ٩٤ .

(٢) وقد ورد في رواية عند الطبري « أن عمر حين أتاه فتح نهاوند بدا له أن يأذن في الانسياح » (تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ، ص ١٣٨)

(٣) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ، ص ١٣٨ ؛ ابن الأثير : الكامل ، جـ ٣ ، ص ١٨ .

حتى سلمت لهم صلحاً ، وكان ذلك في أواخر سنة ٢١ هـ ، ولكن أهلها ما لبثوا أن نكثوا بعهدهم ، فعاد المسلمون إليها في السنة التالية ودخلوها مرة أخرى صلحاً (١).

وفي تلك الأثناء جاءت الأخبار بأن جموعاً من أهل المناطق الشمالية (الري والديلم وأذربيجان) تجمعوا لحرب المسلمين ، فسار إليهم نعيم بن مقرن بجيشه ، وهزمهم عند مكان يسمى واج روذ (٢).

ثم واصل مسيره تجاه مدينة الري الواقعة إلى الشمال الشرقي من نهاوند ، وقد أمدها أهل المناطق الشمالية (دنباوند وطبرستان وقومس وجرجان) بغية صمودها أمام الجيش الإسلامي(٣)، إذ أن سقوطها يعرضهم للخطر ، فضلاً عن أهميتها الدينية لهم بكثرة بيوت النار فيها (٤).

وحين وصل نعيم مدينة الري جرت بينه وبين الجموع المحتشدة بها معارك طاحنة ، ولكنه في النهاية انتصر عليها ، ودخل المدينة صلحاً (٥).

وبسقوط الري صالح المسلمون أهل قومس ، ثم كاتبوا بعد ذلك أهل جرجان وطبرستان وصالحوهم(٦).

أما أذربيجان فقد نهد إليها عتبة بن فرقد وبكر بن عبد الله بجيش من المسلمين ، فصالحا حاكمها إسفنديار بعد أن تمكنا من أسره ، كما دان للمسلمين أمير الباب (٧).

وبوصول المسلمين إلى هذه المناطق يكون نفوذ الدولة الإسلامية قد تجاوز الحدود الشمالية للمملكة الفارسية المنهارة إلى الممالك المجاورة من بلاد الترك وغيرها .

ومن ناحية أخرى فقد استعد أهل مدينة أصبهان الواقعة إلى الجنوب الشرقي من نهاوند ـ لقتال المسلمين ، وذلك بتحريض من يزدجرد ، فأمر عمر ﷺ أمير الكوفة عبد

(١) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ، ص ١٣٣ ، ١٤٦ - ١٥٠ ؛ ابن الأثير : الكامل ، جـ ٣ ، ص ١٧ ، ٢٢ .

(٢) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ، ص ١٤٨ ؛ ابن الأثير : الكامل ، جـ ٣ ، ص ٢٢ - ٢٣ .

(٣) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ، ص ١٥٠ ؛ ابن الأثير : الكامل ، جـ ٣ ، ص ٢٤ .

(٤) العمري : عصر الخلافة الراشدة ، ص ٣٢٧ .

(٥) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ، ص ١٥٠ ؛ ابن الأثير : الكامل ، جـ ٣ ، ص ٢٤ .

(٦) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ، ص ١٥١ - ١٥٣ ؛ ابن الأثير : الكامل ، جـ ٣ ، ص ٢٥ .

(٧) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٣ ، ص ٢٧ - ٢٨ .

الله بن عبد الله بن عتبان بالتوجه إليهم ، فانضم إليه جيش المسلمين في نهاوند ، ولحق به جند البصرة ، فلما وصل أصبهان اشتبك مع الفرس خارجها وقتل قائدهم ، ثم حاصر المدينة ، فكان الفرس يخرجون لقتال المسلمين ثم يعودون إليها ، فاستمروا مدة على ذلك حتى انتهى الأمر بالصلح بين الطرفين ودخول المسلمين المدينة[١].

وفي المناطق الجنوبية من البلاد الفارسية نهض القادة المسلمون بالمهام التي كلفوا بها من قبل أمير المؤمنين عمر ﷺ ، ففتح مجاشع بن مسعود سابور وأردشير ، وفتح سهيل بن عدي كرمان ، والحكم بن عمرو مكران ، وعاصم بن عمرو سجستان . أما عثمان بن أبي العاص فقد تحرك نحو أصطخر عاصمة إقليم فارس ، ودخلها بالقوة ، ثم اشترك مع أبي موسى الأشعري ﷺ في فتح بقية الإقليم[٢].

ومن القادة الذين وجههم عمر ﷺ لفتح هذه المنطقة سارية بن زنيم كما سبق ، حيث قصد فسا ودارابجرد ففتحهما [٣]، وقد تداول الرواة قصة لسارية حدثت له في أثناء مواجهة مع الفرس ، وهي فيما ورد ـ بسند حسن ـ «عن نافع عن ابن عمر قال : وجه عمر جيشاً ورَأّسَ عليهم رجلاً يدعى سارية ، فبينما عمر يخطب جعل ينادي : يا سارية الجبل ! ـ ثلاثاً ـ ، ثم قدم رسول الجيش فسأله عمر ، فقال : يا أمير المؤمنين هُزمنا ، فبينا نحن كذلك إذ سمعنا صوتاً ينادي : يا سارية الجبل ! ـ ثلاثاً ـ ، فأسندنا ظهرنا إلى الجبل ، فهزمهم الله تعالى ... »[٤].

وفي خراسان شمال شرقي المملكة الفارسية المتداعية قاد الأحنف بن قيس اللواء الذي كان عمر ﷺ قد كلفه بقيادته ، فتوجه إلى هراة وفتحها ، ثم تقدم إلى مرو

---

(١) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ، ص ١٣٩ – ١٤١ ؛ ابن الأثير : الكامل ، جـ ٣ ، ص ١٨ – ١٩ .

(٢) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ، ص ١٧٥ – ١٧٧ ، ١٨٠ – ١٨٢ ؛ ابن الأثير : الكامل ، جـ ٣ ، ص٣٩ – ٤٦ .

(٣) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ، ص ١٧٨ ؛ ابن الأثير : الكامل ، جـ ٣ ، ص ٤٢ .

(٤) ابن حجر : الإصابة ، جـ ٣ ، ص ٦ . راجع الذهبي : عهد الخلفاء الراشدين ، ص ٢٤٩ ؛ ابن كثير : خلافة عمر ، ص ١٧٠ ، حاشية ٢ . وإلهام عمر ﷺ لما حدث لجيش سارية ورد في رواية سيف أنه أري في المنام معركته وحاله مع عدوه في ساعة من النهار ، فلما حلت تلك الساعة قام خطيباً في الناس ، وقال تلك العبارة ، ثم قال : «إن لله جنوداً ، ولعل بعضها أن يبلغهم »، وقد استجيب لعمر ﷺ ، فبلغتهم عبارته (الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ، ص ١٧٨) . وقد ذكر ابن أعثم أن ذلك حدث لسارية في أثناء حصار نهاوند (الفتوح ، جـ٢ ، ص ٥٨) .

الشاهجان ، حيث سمع بوجود يزدجرد فيها ، ولكن ما أن علم هذا الأخير بتحركه إليها حتى غادرها إلى مرو الروذ ، فتابعه الأحنف ، فخرج منها يزدجرد سريعاً إلى بلخ ، فلحقه الأحنف بعد أن جاءته إمدادات من الكوفة ، فتم فتح بلخ التي فر منها يزدجرد إلى سمرقند لائذاً بخاقان الترك ، وهنا سارع بقية أهل خراسان إلى الصلح مع المسلمين.

وفي الوقت عينه وصل كتاب من عمر ﷺ يأمر الأحنف بعدم التجاوز وراء خراسان[١] ، وقد كان حذر عمر ﷺ له ما يبرره ، إذ طالت خطوط مواصلات المسلمين كثيراً ، وتوزعت قواتهم ، فضلاً أن التقدم شرقاً قد يثير الممالك المجاورة [٢] ، وهذا ما حدث فعلاً حين تحرك خاقان الترك وجمع جيشاً للتصدى للمسلمين إن عبروا النهر بعد إن استغاث به يزدجرد ، ولكن ما إن اطمئن إلى عدم عبور المسلمين النهر إلى بلاده حتى تراجع عن حربهم[٣] .

ولعل خير من يصور النتائج التي حققها المسلمون في الجبهة الشرقية هو أمير المؤمنين عمر ﷺ الذي قام خطيباً في الناس عقب قدوم رسول الأحنف إلى المدينة بالفتح والغنائم .

حيث قال « إن الله تبارك وتعالى ذكر رسوله ﷺ وما بعثه به من الهدى ، ووعد على اتِّباعِهِ من عاجل الثواب وآجله خير الدنيا والآخرة ، فقال: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴾ ، فالحمد الله الذي أنجز وعده ، ونصر جنده ، ألا إن الله قد أهلك مُلْك المجوسية ، وفرق شملهم ، فليسوا يملكون من بلادهم شبراً يضر بمسلم ، ألا وإن الله قد أورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأبناءهم لينظر كيف تعملون ، ألا وإن المصرين [أي الكوفة والبصرة] من مسالحها اليوم كأنتم والمصرين فيما مضى من البعد ، وقد وغلوا في البلاد ، والله بالغ

(١) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ، ص ١٦٧ - ١٦٨ ؛ ابن الأثير : الكامل ، جـ ٣ ، ص ٣٣ - ٣٤ . وكتاب عمر ﷺ إلى الأحنف قال فيه « أما بعد فلا تجوزن النهر ، واقتصر على ما دونه ، وقد عرفتم بأي شيء دخلتم على خراسان ، فداوموا على الذي دخلتم به خراسان يدم لكم النصر ، وإياكم أن تعبروا فتفضوا » (الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ، ص ١٦٨) .

(٢) محمد فرج : الفتح العربي للعراق وفارس ، ص ٢٥٠ ؛ خطاب : قادة فتح بلاد فارس ، ص ٢٢٣ .

(٣) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ، ص ١٦٩ - ١٧٠ ؛ ابن الأثير : الكامل ، جـ ٣ ، ص ٣٤ - ٣٦ .

أمره ، ومنجز وعده ، ومُتْبِع آخر ذلك أوله ، فقوموا في أمره على رجل يوفٍّ لكم بعهده ، ويؤتكم وعده ، ولا تبدلوا ولا تغيروا فيستبدل الله بكم غيركم ، فإني لا أخاف على هذه الأمة أن تؤتى إلا من قبلكم »[١].

ب ـ فتوحات الشام : عزل خالد ﷺ عن قيادة الجيش الإسلامي في الشام : كان المسلمون في الشام بقيادة قائدهم العام خالد بن الوليد ﷺ قد انتصروا على الروم في وقعة مرج الصُّفَّر ، وذلك قبل أيام من وفاة أبي بكر الصديق ﷺ ، ولما بويع لعمر بن الخطاب ﷺ بالخلافة أصدر أمره بعزل خالد بن الوليد ﷺ عن قيادة جيوش المسلمين في الشام وتولية أبي عبيدة بن الجراح ﷺ ، حيث كتب إلى أبي عبيدة ﷺ كتاباً جاء فيه ـ بعد إخباره بوفاة أبي بكر ﷺ وترحمه عليه ، وذكره لمحاسنه ـ

« وقد بلغنا حصاركم لأهل دمشق ، وقد وليتك جماعة المسلمين ، فابثث سراياك في نواحي أهل حمص ودمشق وما سواها من أرض الشام ، وانظر في ذلك برأيك ومن حضرك من المسلمين ، ولا يحملنك قولي هذا على أن تغري عسكرك فيطمع فيك عدوك ، ولكن من استغنيت عنه فسيره ، ومن احتجت إليه في حصارك فاحتبسه ، وليكن فيمن يحتبس خالد بن الوليد ، فإنه لا غنى بك عنه »[٢].

وكان عمر ﷺ قد بعث برسالته هذه إلى أبي عبيدة ﷺ مع مولاه يرفأ ، وقد أوصاه أن يسأله عن قادة المسلمين ، فأثنى أبو عبيدة ﷺ عليهم خيراً ، فكان مما قاله عن خالد بن الوليد ﷺ « أما خالد فخير أمير ، أنصحه لأهل الإسلام ، وأشده شفقة عليهم ، وأحسنه نظراً لهم ، وأشده على عدوهم من الكفار ، فجزاه الله عنهم خيراً »[٣].

وحينما عاد يرفأ إلى المدينة حمَّله أبو عبيدة ومعاذ بن جبل رضي الله عنهما رسالة إلى عمر ﷺ يعظانه ويذكرانه فيها ، وكان قد رأيا أن من المصلحة ـ لعلها المواجهة مع الروم التي لم تحسم بعد ـ ألا يظهرا للمسلمين خبر وفاة أبي بكر ﷺ ، لاسيما وأن عمر ﷺ لم يطلب أن تقرأ رسالته على المسلمين .

---

(١) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ، ص ١٧٣ .
(٢) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق ، جـ ٢ ، ص ١٢٥ - ١٢٦ .
(٣) الأزدي : تاريخ فتوح الشام ، ص ٩٩ .

ويظهر أن يرفأ نقل إلى عمر ﷺ عدم مبادرة أبي عبيدة ﷺ باستلام القيادة من خالد بن الوليد ﷺ ، ولذا كتب إليه كتاباً يصف فيه مشاعره حول الموعظة التي وصلت إليه ، ثم يخص أبا عبيدة بكتاب يؤكد عليه وجوب إنفاذ أمره تجاه خالد ﷺ ، وأن لايستحي من الحق ، فمما جاء فيه « وبعد فقد وليتك أمور المسلمين ، فلا تستحي ، فإن الله لا يستحي من الحق ، وإني أوصيك بتقوى الله الذي أخرجك من الكفر إلى الإيمان ، ومن الضلال إلى الهدى ، وقد استعملتك على جند خالد ، فاقبض جنده ، واعزله عن إمارته ... »[1].

وكان خالد ﷺ قد مكث خمس عشرة ليلة يصلي بالناس ، ويأمر بالأمر وما يعلم أن أبا عبيدة ﷺ الأمير ، ولما قرأ أبو عبيدة ﷺ كتاب عمر ﷺ الأخير ، عاتب خالد ﷺ أبا عبيدة فقال له «رحمك الله ! أنت الأمير والوالي علي ولا تعلمني ؟ وأنت تصلي خلفي ، والسلطان سلطانك ، فقال له أبو عبيدة :

ما كنت لأعلمك به أبداً حتى تعلمه من عند غيري ، وما سلطان الدنيا وإمارتها ؟ فإن كل ما ترى يصير إلى زوال ، وإنما نحن أَخَوَان ، فإننا أمة أخوة ، أو أُمِرَ عليه لم يضره ذلك في دينه ولا دنياه ، بل لعل الوالي أن يكون أقربهما إلى الفتنة ، وأوقعهما بالخطيئة ، إلا من عصم الله ، وقليل ما هم »[2].

ولا يسعنا أن نمر على عزل عمر ﷺ خالد بن الوليد ﷺ عن قيادة الجيوش الإسلامية في الشام ونغفل ما يتوقف عنده غالباً جمهرة الكتاب والمؤرخين قديماً وحديثاً ، ألا وهو سبب أو أسباب عزله له ، حيث تعددت في ذلك الأقوال ، واختلفت الآراء ، ولعلنا نبدأ بعرض ما صح ـ حديثياً ـ في هذا الموضوع ، ثم نعود للنظر باختصار في بقية الأقوال والآراء.

فمما صح نقله ما رُوي بسند صحيح عن ناشرة بن سمي اليزني أنه سمع عمر بن الخطاب ﷺ وهو يخطب الناس في الجابية [جنوب دمشق] ويقول « إني أعتذر إليكم من

---

(١) الأزدي : تاريخ فتوح الشام ، ص ١٠٠- ١٠١ .

(٢) الكلاعي : الإكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء ، تحقيق محمد كمال الدين عز الدين علي ، جـ ٣ ، ص ١٧٦ . انظر تعليقاً جيداً على هذا الموقف من أبي عبيدة ﷺ في محسن محمد صالح : الطريق إلى القدس ، ص ٧١ . راجع خطاب : قادة فتح العراق ، ص ١٦١ .

خالد بن الوليد ، فإني أمرته أن يحبس هذا المال على ضَعَفَة المهاجرين فأعطاه ذا البأس وذا الشرف وذا اللسان ، فنزعته وأمرت أبا عبيدة بن الجراح ... »[1]. وتكاد المصادر الحديثية تتفق على عبارات هذه الرواية ، ولكن بالتأمل فيها نلاحظ قول عمر ﷺ «فإني أمرته أن يحبس هذا المال على ضَعَفَة المهاجرين فأعطاه ذا البأس ... ».

ومن المتواتر بين المؤرخين وغيرهم أن عمر ﷺ عزل خالداً ﷺ عقب تسلمه الخلافة مباشرة ، فإذا كان ذلك كذلك فمتى كان أمره له بحبس المال على ضعفة المهاجرين ؟ فإن قيل إن ذلك في عهد أبي بكر ﷺ ، فلنا أن نتساءل : هل كان يحق لعمر ﷺ أن يصدر أمره إليه وأبو بكر ﷺ خليفة للمسلمين ؟ .

ويرى بعض الكتاب المحدثين أن الاعتذار من عزل خالد ﷺ الذي أبداه عمر ﷺ في الجابية بعد سنوات من خلافته لم يكن عن العزل الأول الخاص بالقيادة العامة وإنما كان من عزله عن العمل في الجيش الإسلامي .

ولكن قول عمر ﷺ فيها « فنزعته وأمرت أبا عبيدة بن الجراح » يجعل الاستشهاد بهذه الرواية على العزل الثاني لخالد ﷺ غير دقيق إلا أن يقال أن عمر ﷺ أراد بنزعِ خالدٍ ﷺ تجريدَه من قيادة أي جيش أو سرية إسلامية .

إذ أن أبا عبيدة ﷺ ظل يسند لخالد ﷺ قيادة طلائع الجيوش التي وجهها إلى بعض المدن الشامية[2] ، وهو بهذا ينفذ وصية عمر ﷺ بالاستعانة بخالد ﷺ كما مر معنا في كتاب توليته لأبي عبيدة ﷺ القيادة في الشام ، ومعلوم أن خالداً ﷺ قد غنم من جراء ذلك غنائم كثيرة ، ولعل عمر ﷺ قد أمره ـ حسب اجتهاده ـ بحبس ذلك المال على ضعفة المهاجرين فلم يرَ خالد ﷺ ما رآه عمر ﷺ ، فظل يعطي ذا البأس وذا الشرف وذا اللسان منه ، فعندئذ اضطر عمر ﷺ إلى الأمر بكفه عن القيادة مطلقاً ، ومن ثم جمع الأمور العسكرية والمالية كلها بيد أبي عبيدة ﷺ ، بحيث لا يتصرف فيها أحد غيره .

---

(١) أحمد : المسند ، إعداد محمد سليم سمارة ، جـ ٣ ، ص ٦٢٢ ؛ النسائي : السنن الكبرى ، تحقيق البنداري وسيد كسروي ، جـ ٥ ، ص ٧٧ ؛ الطبراني : المعجم الكبير ، تحقيق حمدي السلفي ، جـ ٢٢ ، ص ٢٩٩ ؛ ابن عساكر: تاريخ دمشق ، جـ ١٦ ، ص ٢٦٤ ؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء ، جـ ١ ص ٣٧٩ ؛ الهيثمي : مجمع الزوائد ، جـ ٦ ، ص ٣ ، جـ ٩ ، ص ٣٤٩ .

(٢) خليفة بن خياط : تاريخه ، ص ١٣٥ ، ١٣٩ ؛ الذهبي : عهد الخلفاء الراشدين ، ص ١٦٢ .

وقبل أن نترك هذه الرواية لابد من توضيح أن ما أمر عمر ﷺ به خالداً ﷺ من حبس المال على ضعفة المهاجرين إنما هو رأي رآه في مصلحة المسلمين ، بينما خالد ﷺ رأى أن إعطاء ذوي البأس والشرف واللسان فيه أيضاً مصلحة للمسلمين ، إذ أن لهؤلاء أثراً كبيراً في الجهاد كل حسب مجاله ، وهذه مصلحة ظاهرة أدركها من خبرته الطويلة في الحروب ، واكتسبها من تجربته الرائدة في قيادة الجيوش .

وعلى أي حال فإن لدينا رواية غير السالفة توضح بشكل جلي سبب إصدار عمر ﷺ قراره بعزل خالد ﷺ ، وهي صحيحة السند إلى محمد بن سيرين يقول فيها «لما وَلِيَ عمرُ قال : لأعزلن خالداً حتى يُعلم أن اللهَ إنما يَنْصُر دينَه »[١]، يعني بغير خالد ﷺ[٢]، ورغم أنها رواية مرسلة للانقطاع بين محمد بن سيرين والحادثة ، إلا أن العلماء يعدون مراسيل ابن سيرين من أصح المراسيل[٣]، ولذا يمكن قبولها ، وهي تكشف أن عمر ﷺ حين بادر بعزل خالد ﷺ لأن المسلمين تعلقوا بشخصه ، وربما اعتقد بعضهم أن النصر لايمكن أن يتحقق إلا تحت قيادته ، فأراد عمر ﷺ أن يزيل هذا الاعتقاد من النفوس ، ويبين أن الله سبحانه وتعالى هو الناصر لدينه سواء بخالد ﷺ أو غيره .

وبجانب هاتين الروايتين ثمة روايات غير صحيحة في أسانيدها ، منكرة في متونها ، دأبت كثير من المصادر القديمة والمراجع الحديثة على تناقلها في سبب عزل عمر ﷺ لخالد ﷺ .

منها ما رواه محمد بن إسحاق بسند منقطع قال « إنما نزع عمر خالداً في كلام كان خالد تكلم به ـ فيما يزعمون ـ ، ولم يزل عمر عليه ساخطاً ، ولأمره كارهاً في زمان أبي بكر كله ؛ لوقعته بابن نويرة ، وما كان يعمل به في حربه ، فلما استُخلف عمر كان أول

(١) خليفة بن خياط : تاريخه ، ص ١٢٢ ؛ ابن عبد البر : الاستيعاب ، ق ٢ ، ص ٧٩٤ ؛ ابن أبي عاصم : الآحاد والمثاني ، جـ ٢ ، ص ٢٧ . وقد روى سيف بن عمر أن عمر ﷺ كتب إلى الأمصار « إني لم أعزل خالداً عن سُخْطة ولا خيانة ، ولكن الناس فُتنوا به ، فخفت أن يوكلوا إليه ، ويبتلوا به ، فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع ، وألا يكونوا بعرض فتنة (الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ، ص ٦٨ ؛ ابن كثير : خلافة عمر ، ص ٣٩) .

(٢) الذهبي : سير أعلام النبلاء ، جـ ١ ، ص ٣٧٨ .

(٣) ابن تيمية : منهاج السنة ، جـ ٦ ، ص ٢٣٧ .

ما تكلم به عزله ، فقال لا يلي لي عملاً أبداً »[١].

ومنها ما رُوي عن الشعبي أنه قال «اصطرع عمر وخالد وهما غلامان ـ وكان خالد ابن خال عمر ـ ، فكسر خالد ساق عمر ، فعولجت وجبرت ، وكان ذلك سبب العداوة بينهما»[٢]، ففي هذه الرواية انقطاع بين الشعبي والحادثة ، ثم إن هذه الرواية ذكرت سبب العداوة بين الاثنين ، ولم تذكر أن تلك العداوة هي سبب عزل عمر رضي الله عنه لخالد رضي الله عنه عن قيادة الجيش الإسلامي في الشام .

ثم إننا لو فرضنا صحتها ، وأنها صرحت بأن العداوة بينهما هي سبب العزل فهل يمكن في حياة الأسوياء من عامة الناس ـ دع عنك خاصتهم ـ أن يبقى أثر واقعة بين صبيين في صغرهما إلى حياتهما بعد بلوغهما سن الرجولة ، فكيف إذا كانت قد وقعت من صبيين في جاهلية ما قبل الإسلام ـ كما تنص الرواية ـ فهل سيبقى أثرها في نفوس من انقلبت حياتهم بالإسلام ، وتأدبوا بأخلاقه في حال الكبر ، ثم هل يمكن أن يصدر مثل هذا التصرف التافه من رجل عظيم كعمر رضي الله عنه في حق رجل عظيم كخالد رضي الله عنه[٣].

---

(١) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٤٣٦ ؛ ابن كثير : خلافة عمر ، ص ٥٠ ، حاشية ٢ ؛ عبد السلام بن محسن آل عيسى : دراسة نقدية في المرويات الواردة في شخصية عمر بن الخطاب رضي الله عنه وسياسته الإدارية ، جـ ١ ، ص ٥٣٥ ، حاشية ١ ، جـ ٢ ، ص ٧٣٢ - ٧٣٣ . ورغم أن ابن إسحاق في هذه الرواية قال: لوقعته بابن نويرة فإن بعض المؤرخين المحدثين الذين أحالوا إليه ـ عبروا عنها بقولهم لقتله ابن نويرة ، وزواجه من امرأته (خطاب : قادة فتح العراق ، ص ١٥٧ ؛ عفاف صبرة والحناوي : دراسات في تاريخ الخلفاء الراشدين ، ص ١٤٤) وفرق واضح بين العبارتين . راجع ابن حجر : الإصابة ، جـ ٢ ، ص ٢٥٥ . ومن المؤرخين من أحال إلى رواية ابن إسحاق هذه التي نقلها ابن الأثير ، وذكر أن الكلام الذي كان خالد رضي الله عنه قاله هو دعوته إلى تولية علي بن أبي طالب رضي الله عنه الخلافة بعد وفاة النبي ﷺ (الشامي : الخلفاء الراشدون ، ص ٢٠٧) وهذا لا يوجد كما ترى في رواية ابن إسحاق ، ولا حتى عند ابن الأثير .

(٢) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق ، جـ ١٦ ، ص ٢٦٧ ؛ ابن العديم : بغية الطلب في تاريخ حلب ، تحقيق سهيل زكار ، جـ ٧ ، ص ٣١٦١ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ ٧ ، ص ١١٥ . وسند الرواية « الأصمعي عن سلمة بن بلال عن مجالد بن سعيد عن الشعبي » .

(٣) راجع صادق عرجون : خالد بن الوليد ، ص ٢٧٦ . وقال بعضهم « تواردت آراء كثيرة للمؤرخين القدامى تجمع [كذا] على أن هناك عداوة قديمة بين عمر بن الخطاب وخالد بن الوليد ، ويذكر ابن عساكر في ذلك (أن السبب في هذا البغض هو تصارعهما وهما غلامان ، وكسر خالد ساق عمر ، وأن البغض ما زال بينهما حتى تولى عمر فعزله)» (صبرة والحناوي : دراسات في تاريخ الخلفاء الراشدين ، ص ١٤٤ . قارن ـ خطاب : قادة فتح العراق ، ص ١٥٦) وقد أحال هذا الأخير بجانب تاريخ ابن عساكر إلى السيرة الحلبية دون أن يذكر ما جاء فيهما بالنص . ورواية ابن عساكر التي نقلنا نصها في المتن على ما فيها من ضعف تذكر فقط أن عداوة بينهما ، وأن سببها تلك الحادثة التي وقعت لهما في الصغر ، ولكنها لم تذكر أنها سبب عزل عمر رضي الله عنه لخالد رضي الله عنه . راجع أيضاً نص ما ذكره الحلبي : السيرة الحلبية ، جـ ٣ ، ص ٢١٣ .

وبالإضافة إلى ما مضى مما صح في تعليل عزل عمر ﷺ لخالد ﷺ فإن لدينا آراء مقبولة لبعض المؤرخين المحدثين في هذه المسألة [١]؛ لعل من أجودها .

أن الأسلوب العسكري الذي تعود عليه خالد ﷺ ، وقاد به الجيوش في عهد أبي بكر ﷺ كان يعتمد في أثناء المواجهة مع الأعداء على حرية البت في الأمور العسكرية ، واغتنام الفرص المتاحة دون مراجعة للخليفة مع تحمل المسؤولية كاملة تجاه ذلك ـ وهذا الأسلوب لم يكن محل إقرار من قبل عمر ﷺ ، ولذا فإنه بمجرد أن تولى الخلافة وضع منهجاً في العمل العسكري معه يقوم على وجوب مراجعة القادة له قبل الإقدام على أي أمر عسكري أو مالي في جبهات القتال ، ومثل هذا المنهج لم يكن ليتوافق مع طبيعة خالد ﷺ ، ولذا فإن من المصلحة عزله عن القيادة وتوليه غيره .

بين دمشق وفحل : وبعد انتهينا من قضية عزل خالد ﷺ وملابساتها نرجع إلى سير حركة الفتح الإسلامي بالشام بعد أصبح أبو عبيدة بن الجراح ﷺ القائد العام لجيوش المسلمين ، فقد كانت خطة المسلمين العودة إلى دمشق التي كانوا قد تركوا حصارها واشتبكوا مع الروم في مرج الصفر [٢] .

ولكن وصلت الأخبار بأن الروم تجمعوا في فحل بالأردن بين طبرية وبيسان ، وأن هرقل أرسل مدداً لأهل دمشق ، وحينئذ تردد أبو عبيدة ﷺ بأيهما يبدأ ، فكتب إلى عمر ﷺ ، فرد عليه «أما بعد ؛ فابدأوا بدمشق ، فانهدوا لها ، فإنها حصن الشام وبيت مملكتهم ، واشغلوا عنكم أهل فحل بخيل تكون بإزائهم في نحورهم وأهل فلسطين وأهل حمص، فإن فتحها الله قبل دمشق فذاك الذي نحب ، وإن تأخر فتحها حتى يفتح الله

---

(١) عرجون : خالد بن الوليد ، ص ٣١٥ - ٣٢٦ ؛ خطاب : قادة فتح العراق ، ص ١٥٧ — ١٥٨ ؛ كمال : الطريق إلى المدائن ، ص ٣٦٠ . اجتهد بعض العلماء المتقدمين في تعليل عزل خالد ﷺ . راجع ابن تيمية : مجموع فتاوى شيخ الإسلام ، جـ ٢٨ ، ص ٢٥٦ — ٢٥٧ ؛ ابن كثير : خلافة أبي بكر ، ص ١١٠ ؛ ابن حجر : الإصابة ، جـ٢ ، ص ٢٥٥ . وقد جمع أحد الكتاب آراء العلماء والمؤرخين في تعليل عزل خالد ﷺ وحصرها في ثلاثة أسباب ؛ الأول : شدة خالد ﷺ ، الثاني : إنفاقه أموال الغنائم دون الرجوع إلى الخليفة ، الثالث : خشية عمر ﷺ افتتان الناس به ، وقد تناول هذه الأسباب بالشرح (إبراهيم بن محمد الحقيل : لماذا عزل عمر خالداً رضي الله عنهما ، مجلة البيان ، ع ١٩٨ ، ص ١٠٢- ١٠٦) وثمة آراء ساقطة في تعليل عزل خالد ﷺ كقول أحدهم بأن عمر ﷺ عزل خالداً ﷺ لحسده على انتصاراته الواسعة .

(٢) البلاذري : فتوح البلدان ، ق ١ ، ص ١٤٤ .

دمشق فلينزل بدمشق من يمسك بها ودعوها ، وانطلق أنت وسائر الأمراء حتى تغيروا على فحل ، فإن فتح الله عليكم فانصرف أنت وخالد إلى حمص ، ودع شرحبيل وعمراً وأخلهما بالأردن وفلسطين ... »[١].

فبدأ أبو عبيدة ﷺ بتنفيذ أوامر الخليفة ، حيث سرح عشرة من القادة إلى فحل شرقي نهر الأردن إلى الجنوب من بحيرة طبرية ، بينما سار هو بالجيش الإسلامي إلى دمشق ، وعلى مقدمته خالد بن الوليد ﷺ ، وكان قبيل مسيره إليها قد أرسل جنوداً لينزلوا إلى الشمال منها على طريق حمص حتى يمنعوا وصول إمدادات هرقل إليها ، كما أرسل آخرين ليحولوا بينها وبين ما قد يصلها من إمدادات من فلسطين[٢].

والذي يظهر أن أبا عبيدة ﷺ لما وصل دمشق بجيشه ، وشرع بحصارها جاءه كتاب بتكاثر الجموع الرومية في الأردن وفلسطين ، كما وردت أخبار مدد من هرقل في أنطاكية إلى بعلبك ، فسير أبو عبيدة ﷺ خالد بن الوليد ﷺ لضرب هذا المدد ، ولكنه لما وصل بعلبك وجد أن ذلك المدد قد تحرك إلى بيسان (شمال غربي فحل إلى الغرب من نهر الأردن) بناء على أوامر هرقل بعد أن التحق به جمع كبير من أهل بعلبك وحمص ، الأمر الذي جعل خالداً ﷺ يعود إلى أبي عبيدة ﷺ ، فاتفق المسلمون أن يسير بهم أبو عبيدة إلى التجمع الرومي في الأردن على أن يبقى يزيد بن أبي سفيان ﷺ بمن معه حول دمشق[٣] .

معركة فحل كان الروم قد تجمعوا في بيسان ، وقد بلغ عددهم خمسين ألفاً في رواية[٤]، وثمانين ألفاً في رواية أخرى[٥]، فلما تكامل وصول الجيش الإسلامي ، وعسكر بإزائهم في فحل عمدوا إلى تفجير المياه في الأراضي التي تفصل بينهم وبينه ، فاستحالت إلى مستنقعات ومسطحات موحلة ، ولذا فإن أبا عبيدة ﷺ رأى عدم المخاطرة باقتحام تلك الأراضي فصرف جنوده إلى الإغارة على القرى والمناطق التي يعتمد عليها أهل بيسان في تموينهم .

---

(١) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٤٣٧ - ٤٣٨ .
(٢) ابن كثير : خلافة عمر ، ص ٥١ - ٥٢ .
(٣) كمال : الطريق إلى دمشق ، ص ٣٠٧ - ٣١٣ .
(٤) الأزدي : تاريخ فتوح الشام ، ص ١٣١ .
(٥) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٤٤٢ .

وفي أثناء ذلك كتب الروم إلى أبي عبيدة ﷺ يطلبون منه الخروج عن بلادهم ، فرد عليهم بأن البلاد بلاد الله ، والعباد عباد الله ، وأن الله يؤتي ملكه من يشاء .

ثم طلبوا منه أن يرسل إليهم رجلاً من أصحابه يسألونه ، فأرسل معاذ بن جبل ﷺ ، فجرى بينه وبينهم حوار طويل بعد أن وصل إليهم يمسك بزمام فرسه ، ثم أبى الجلوس معهم على فرشهم ، فكان من ضمن ما طرحوه عليه إلى أي شيء يدعو المسلمون ، وماذا يطلبون ، ولماذا خرجوا لقتالهم وتركوا الحبشة وفارس ، وكيف يجرؤون على قتال الروم رغم كثرة عددهم وعدتهم ، وكيف يستحلون قتالهم مع أنهم يؤمنون بالمسيح مثلهم .

فبين معاذ ﷺ حقيقة دعوة المسلمين ، ووضح أن سبب توجه المسلمين لقتالهم يكمن في كونهم أقرب الناس إليهم ، وأن المسلمين خرجوا أيضاً إلى بلاد فارس ، وأن المسلمين لا ترهبهم كثرة الأعداء ، لأنهم يستعينون بالله ويتوكلون عليه ، فالأمور كلها إليه ، ثم كشف الفرق بين اعتقاد المسلمين بالمسيح واعتقاد النصارى .

وقبل أن يغادرهم عرضوا عليه أن يعطوا المسلمين أرض البلقاء وسواد الأردن مقابل أن يعودوا إلى بلادهم ، ولكن معاذ ﷺ رد عليهم ألا مساومة على الخصال الثلاث المعروفة ، إما الإسلام أو الجزية أو القتال .

ولما لم يصلوا إلى شيء مع معاذ ﷺ أرسلوا من قبلهم رجلاً لمفاوضة المسلمين ، فوفد على معسكر الجيش الإسلامي ، ولم يعرف قائدهم أبا عبيدة ﷺ من بين من معه من المسلمين ، وأبدى عجبه عندما لم يرَ فرقاً بينه وجنده ، فشرح له أبو عبيدة ﷺ ما تعجب منه ، ثم عرض الرجل الرومي على أبي عبيدة ﷺ أن يرجع المسلمون مقابل إعطائهم المال والثياب ، أو منحهم أرض البلقاء وسواد الأردن .

فحمد أبو عبيدة ﷺ الله تعالى وأثنى عليه ، ثم ذكر أن الله بعث محمداً ﷺ ، وأنزل عليه الكتاب ، وأمره بدعوة الناس إلى عبادة ربهم ، وأن الرسول ﷺ أمر المسلمين إذا أتوا المشركين أن يدعوهم إلى الإيمان بالله وبرسوله ﷺ ، فإن لم يستجيبوا فالجزية ، فإن أبوا فالقتال ، ثم قال « فإن قبلتم ما سمعتم مني فهو لكم ، وإن أبيتم فابرزا إلينا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين»، فانصرف الرومي يقول « اللهم إنا قد انصفناهم ، فأبوا

علينا ، اللهم انصرنا عليهم !»[١].

وبرجوع المبعوث الرومي إلى قومه استعد الطرفان للقتال ، فأمر أبو عبيدة رضي الله عنه المسلمين أن يصبحوا تحت راياتهم ، ويصفوا صفوفهم . وكان خلال ذلك قد كتب إلى عمر رضي الله عنه يطلعه على حال المسلمين مع الروم ، وما دار بينهم من مراسلات ، فرد عليه عمر رضي الله عنه يؤيده على كل ما فعل ، ويحثه والمسلمين على الثبات والصبر والاستعانة بالله ، ثم يدعو لهم بالنصر على عدوهم[٢] .

قدم أبو عبيدة رضي الله عنه خيل المسلمين بقيادة خالد بن الوليد رضي الله عنه للتصدي لفرسان الروم الذين خرجوا من بيسان ، حيث جرت اشتباكات بين الجانبين صمد فيها المسلمون أولاً ، ثم أوقعوا الهزيمة بالروم مما اضطرهم إلى الانسحاب من ميدان المعركة .

وفي الثلث الأخير من ليلة اليوم التالي نهض أبو عبيدة رضي الله عنه يعبيء جيشه ، ويرتب صفوفه ، فلما وجب الفجر صلى بالناس في غلس ، ثم وزع القادة ؛ كل في مكانه ، وراح يستعرض الصفوف ، فكان كلما مر على صف من المجاهدين المسلمين ذكرهم ووعظهم وحرضهم على القتال[٣].

أما قائد الروم سقلار بن مخراق (سكلاريوس) فقد خرج بجيشه من بيسان متجهاً إلى معسكر المسلمين في فحل ليبيتهم وهم نيام ، وتجاوز منطقة الأوحال ، فلما اقترب من المسلمين وجدهم قد استعدوا للقائه ، فوقع الصدام بين الطرفين[٤].

وقد ركز المسلمون على جناحي الجيش الرومي الذي كان غالبه من المشاة ، فاحدثوا فيهما مقتلة عظيمة ، فلما هب أصحاب الخيل الذين كثفهم سقلار في قلب جيشه لمساعدة مشاة الجناحين ، وانكشف القلب انقض المسلمون عليه[٥]، فاضطرب الروم وقتل قائدهم سقلار ، وبحلول الليل انهزم الجيش الرومي الكبير وتشتت جموعه ،

---

(١) الأزدي : تاريخ فتوح الشام ، ص ١١١ - ١٢٤ ؛ الكلاعي : الإكتفاء ، جـ ٣ ، ص ١٩٠ - ١٩٧ .
(٢) الأزدي : تاريخ فتوح الشام ، ص ١٢٥- ١٢٨ ؛ الكلاعي : الإكتفاء ، جـ ٣ ، ص ١٩٧- ١٩٩ .
(٣) الأزدي : تاريخ فتوح الشام ، ص ١٢٨- ١٣١ ؛ الكلاعي : الإكتفاء ، جـ ٣ ، ص ١٩٩ - ٢٠١ .
(٤) كمال : الطريق إلى دمشق ، ص ٣٣٣ .
(٥) انظر التفاصيل في الأزدي : تاريخ فتوح الشام ، ص ١٣١- ١٣٨ ؛ الكلاعي : الإكتفاء ، جـ ٣ ، ص ٢٠١- ٢٠٦ .

فلم ينجُ منه إلا القليل ، حيث وقع أفراده بين قتيل في ساحة المعركة ، وقتيل في الوحل الذي كانوا قد أُعد للمسلمين ، فصار ذلك الوحل الذي كرهه المسلمون معيناً لهم على النصر[١].

وقد كان ذلك في شهر ذي القعدة من سنة ١٣ هـ[٢] ، وكان من نتائج هذه المعركة أن غلب المسلمون على سواد الأردن ، فصالحهم أهل فحل وغيرهم[٣].

فتح مدينة دمشق : ترك أبو عبيدة ﷺ الأردن وعاد بجيوش المسلمين إلى دمشق كما حقق ذلك أحمد عادل كمال[٤]، فلما وصلها قسم الجيش على أبوابها الرئيسة.

فنزل هو بمن معه على باب الجابية ، ونزل خالد بن الوليد ﷺ بفرقة ثانية على الباب الشرقي ، ونزل شرحبيل بن حسنة ﷺ بثالثة على باب الفراديس ، ونزل عمرو بن العاص ﷺ برابعة على باب توما ، ونزل يزيد بن أبي سفيان ﷺ بخامسة على الباب الصغير (باب كيسان)[٥].

ولقد قاوم أهل دمشق المسلمين مقاومة عنيفة ، ولكن المسلمين استمروا في حصارهم للمدينة قيل سبعين يوماً ، وقيل أربعة أشهر ، وقيل ستة أشهر حتى انشغل أهلها في إحدى الليالي بوليمة أعدها قائدهم نسطاس نسطورس بمناسبة مولود له جديد[٦]، فانتهز خالد بن الوليد ﷺ مع بعض أصحابه الفرصة ، واجتازوا حاجزاً مائياً إلى أسوار المدينة على حين غفلة من أهلها ، ثم تسلقوا السور بالحبال[٧]، ونزلوا إلى

---

(١) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٤٤٣ .

(٢) البلاذري : فتوح البلدان ، ق ١ ، ص ١٣٥ .

(٣) الأزدي : تاريخ فتوح الشام ، ص ١٣٩ ، ١٤٠ ؛ البلاذري : فتوح البلدان ، ق ١ ، ص ١٣٥ ؛ الكلاعي : الإكتفاء ، جـ ٣ ، ص ٢٠٧ ، ٢٠٨ .

(٤) الطريق إلى دمشق ، ص ٣٦٣ ، ٢٨٧ ، ٢٨٩ . ويقول ابن كثير عن وقعة فحل « وقد ذكرها كثير من علماء السير قبل فتح دمشق ، وذكرها الإمام أبو جعفر ابن جرير بعد فتح دمشق ، وتبع في ذلك سياق سيف بن عمر » (خلافة عمر ، ص ٦٠) .

(٥) البلاذري : فتوح البلدان ، ق ١ ، ص ١٤٤ .

(٦) ابن كثير : خلافة عمر ، ص ٥٢ – ٥٣ .

(٧) يذكر البلاذري في رواية له أن صلة قد انعقدت بين خالد بن الوليد ﷺ وأسقف المدينة ، فكان هذا الأسقف يأتي خالداً ﷺ ويسلم عليه ويحادثه ، « فقال له ذات يوم : يا أبا سليمان إن أمركم مقبل ، ولي عليك عِدة ، فصالحني عن هذه المدينة ، فدعا خالد بدواة وقرطاس ، فكتب : بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أعطى خالد بن الوليد أهل دمشق ـ إذا دخلها ـ أعطاهم أماناً على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم ، وسور مدينتهم لا يهدم ، ولا يسكن =

المدينة واشتبكوا مع بعض الجند الروم ، ثم تمكنوا من فتح باب الجهة التي تسلقوا منها ، فدخل بقية جنود خالد ﷺ المدينة منه ، فسُقِطَ في أيدي الروم ، وهرعوا إلى الأبواب الأخرى يطلبون الصلح من قائد المسلمين أبي عبيدة ﷺ، فوافق على ذلك قبل أن يعلم بما حدث من دخول خالد ﷺ المدينة عنوة من الجهة الأخرى ، ومع ذلك فإنه بعد علمه بما جرى بينهم وبين خالد ﷺ أمضى الصلح وجعله يسرى على المدينة كلها [١]. وقد كان دخول المسلمين دمشق ـ على قول الجمهور ـ في رجب سنة ١٤ هـ [٢].

وهكذا تم للمسلمين فتح دمشق هذه المرة ، وكانوا من قبل قد طرقوا أسوارها عدة مرات بغية فتحها ، ولكن ظروف المواجهة مع الروم كانت تصرفهم عن ذلك . فقد قصدها خالد بن الوليد ﷺ بعد مجيئه من العراق وفتحه بصرى ، ثم تركها واشتبك مع الروم في أجنادين ، ثم عاد يحاصرها [٣]، ثم تركها ليواجه الروم في مرج الصفر ، ثم عاد المسلمون تحت قيادة أبي عبيدة ﷺ يحاصرونها في مطلع خلافة عمر ﷺ ثم انسحب أبوعبيدة ﷺ بأكثر الجيش الإسلامي من حولها ليواجه الروم في فحل ، ثم رجع إليها وحاصرها الحصار الأخير الذي جرى على إثره فتحها .

لقد كان لدخول دمشق في حوزة المسلمين أثر على مدن الشام عموماً ، إذ فت ذلك في عضد أهلها ، وأصبحوا على خوف من المسلمين ، وتهيأ كثير منهم للدخول في صلح مع المسلمين بالشروط التي رضي بها أهل دمشق .

فتح مدينة حمص : استخلف أبو عبيدة ﷺ يزيد بن أبي سفيان ﷺ على دمشق ، وشرحبيل بن حسنة ﷺ على الأردن ، وعمرو بن العاص ﷺ على فلسطين [٤]، ثم قاد

= شيء من دورهم ، لهم بذلك عهد الله وذمة رسول الله ﷺ والخلفاء والمؤمنين ، لا يُعرض لهم إلا بخير إذا أَعْطوا الجزية» . ولذا فإن أحد أصحاب هذا الأسقف أخبر خالداً ﷺ بخبر الاحتفال (فتوح البلدان ، ق ١ ، ص ١٤٤- ١٤٥) . وقد جاء في رواية أن هذا الكتاب كتب في رجب سنة ١٤ هـ (ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق ، جـ٢ ، ص ١١٧- ١١٨) راجع في معرفة ملابسات هذه الكتاب (كمال : الطريق إلى دمشق ، ص ٣٧٣ ، ٣٧٧- ٣٧٨) .

(١) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٤٣٩- ٤٤٠ ؛ ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق ، جـ ٢ ، ص ١٢٩ - ١٣١ ؛ ابن الأثير : الكامل ، جـ ٢ ، ص ٤٢٨ - ٤٢٩ ؛ الذهبي : عهد الخلفاء الراشدين ، ص ١٢٥ .

(٢) ابن كثير : خلافة عمر ، ص ٥٣ - ٥٤ .

(٣) كمال : الطريق إلى دمشق ، ص ٣٦٣ .

(٤) البلاذري : فتوح البلدان ، ق ١ ، ص ١٥٦ .

قسماً من الجيش الإسلامي وتوجه به شمالاً شطر مدينة حمص ، وجعل على مقدمته خالد بن الوليد ﷺ .

وبينما المسلمون في طريقهم إلى حمص أرسل هرقل لعرقلة حركتهم جيشين ، الأول بقيادة توذر البطريق ، والآخر بقيادة شَنَش ، فوصلا إلى مرج الروم غرب دمشق ، ثم سار توذر يطلب دمشق ، فأمر أبو عبيدة ﷺ خالداً ﷺ أن يلحق به ، كما خرج إليه يزيد بن أبي سفيان ﷺ من دمشق ، فأصبح الجيش الرومي بين جيشي خالد ويزيد رضي الله عنهما ، فأوقعا به وشتتا شمله ، فلم يفلت منه إلا الشريد . أما جيش الروم الآخر فقد قاتله أبو عبيدة ﷺ نفسه بمن معه من المسلمين ، فلم يرجع خالد ﷺ إليهم إلا وقد قضوا عليه ، وقتلوا قائده شنش[(١)] .

استأنف أبو عبيدة ﷺ مسيرته نحو حمص ، وعند اقترابه منها اعترضه جيش كبير من أهلها ، فرماهم بخالد بن الوليد ﷺ الذي شن عليهم هجوماً عنيفاً فولوا منهزمين إلى مدينتهم ، وعندئذ ضرب المسلمون عليهم الحصار ، فكانت تحدث مناوشات بين الجانبين في بعض الأيام ، وقد ورد في رواية أن أبا عبيدة ﷺ عسكر حول حمص ثماني عشرة ليلة[(٢)] ، بينما ورد في رواية أخرى أنه حاصرها طوال الشتاء ، فلقي « المسلمون برداً شديداً والروم حصاراً طويلاً » [(٣)] حتى انتهى الأمر بطلب أهل المدينة الصلح ، فكتب لهم أبو عبيدة ﷺ الأمان على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم ، وفرض على أرضهم مائة وسبعين ألف دينار ، واشترط عليهم عدداً من الشروط ، ففتحوا باب المدينة ودخلها المسلمون[(٤)] ، وكان ذلك في أواخر سنة ١٤ هـ ، وقيل في سنة ١٥ هـ[(١)] .

---

(١) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٥٩٨ - ٥٩٩ ؛ ابن الأثير : الكامل ، جـ ٢ ، ص ٤٩٠ - ٤٩١ .

(٢) الأزدي : تاريخ فتوح الشام ، ص ١٤٤-١٤٥ ، ١٤٩ .

(٣) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٥٩٩ ؛ ابن الأثير : الكامل ، جـ ٢ ، ص ٤٩١ .

(٤) الأزدي : تاريخ فتوح الشام ، ص ١٤٦ ؛ خليفة بن خياط : تاريخه ، ص ١٣٠ ؛ البلاذري : فتوح البلدان ، ق١ ، ص ١٥٥ . وقد ورد أن أهل حمص أجابوا إلى الصلح بعد أن كبر المسلمون تكبيرات زلزلت معها المدينة ، وتصدعت الحيطان (الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٦٠٠ ؛ ابن كثير : خلافة عمر ، ص ٦٢) ولقد ذكر بعض المؤرخين المحدثين أن حصار حمص انتهى بحيلة دبرها خالد بن الوليد ﷺ ؛ حيث تظاهر أمام أهلها بالانسحاب ، ثم كر عليهم ، وجرت معركة شديدة بين الجانبين ، هزم فيها أهل حمص ، وقتل فيها قائدهم ، فاضطر قساوسة المدينة إلى طلب الصلح (الشامي : الخلفاء الراشدون ، ص ٢١٨ ؛ العمري : الفتوح الإسلامية، ص ١٣٦) وبالعودة إلى المصادر نجد أن مصدر هذه الرواية هو كتاب فتوح الشام المنسوب للواقدي،=

فتح مدن شامية أخرى : بعد فتح حمص بادر عدد من أهل المدن الشامية إلى طلب الصلح مع المسلمين بعد مسيرة أبي عبيدة ﷺ إليهم ، مثل حماة وشيزر ومعرة النعمان . أما اللاذقية فقد قاتل أهلها المسلمين ، فلجأ أبو عبيدة ﷺ إلى استخدام الحيلة معهم ، حيث تظاهر في النهار بالانسحاب ، فلما جن الليل عاد بجيشه واستتر بحفر حول المدينة ، وبمجرد أن فتح أهل المدينة الأبواب في الصباح معتقدين ابتعاد الجيش الإسلامي عنهم إذا بالمسلمين يفاجئونهم ويدخلون مدينتهم عنوة ، ولذا طلبوا الأمان ، فأمنهم أبو عبيدة ﷺ وصالحهم[٢] .

ومن ناحية أخرى أرسل أبو عبيدة ﷺ جيشاً بقيادة خالد بن الوليد ﷺ إلى قنسرين (شمال حمص) ، فاصطدم قبل وصوله إليها بجيش من الروم ، فهزمهم خالد ﷺ وقتل قائدهم ، وأكمل مسيره حتى نزل على قنسرين ، فاعتصم أهلها بحصونهم ، وحين لمس خالد ﷺ عزمهم على المقاومة خاطبهم بقوله « إنكم لو كنتم في السحاب لحملنا الله إليكم ، أو لأنزلكم إلينا»، فهو لن يدعهم حتى يمكنه الله ـ القادر على كل شيء ـ منهم ، فكان هذا نوعاً من الحرب النفسية التي أثرت فيهم ، إذ سرعان ما نظروا في أمرهم ، ورأوا ما لقي غيرهم من أهل المدن الشامية ، ففتحوا أبواب مدينتهم للمسلمين ، وصالحوا على ما صالح غيرهم[٣] . كما فتحت بيسان أبوابها للمسلمين صلحاً أيضاً بعد أن زحف إليها شرحبيل بن حسنة ﷺ بعد ذلك[٤] .

معركة اليرموك: كان عمر ﷺ قد كتب إلى أبي عبيدة ﷺ بعد فتح مدينة حمص

= جـ ١ ، ص ٩٤) ومثل هذا الكتاب لا يعتد به ، إذ أنه كتاب قصصي ، يغرق في التفصيلات والوصف الخيالي ، ركيك العبارة ، يكثر فيه السجع المتكلف ، وترد فيه أشعار ضعيفة البناء منسوبة إلى الفاتحين ، وتأتي فيه أخبار أبطال غير معروفين ، كما أن رواته مجهولون لم تترجم لهم كتاب الرجال ، وقد خلص الباحثون إلى أنه لا يمكن أن يكون مؤلفه هو الواقدي ، فأسلوب الواقدي والعصر الذي عاش فيه يختلف تماماً عن عبارات هذا الكتاب وسياقته وأسلوبه (السلمي : منهج كتابة التاريخ ، ص ٣٥٧ ، حاشية ٣ ؛ عبد العزيز بن سليمان السلومي : الواقدي وكتابه المغازي ، جـ ١ ، ص ٩٣) . راجع أيضاً عن كتاب فتوح الشام (أحمد عادل كمال : الطريق إلى دمشق ، ص ٧٧ -٨٣) .

(١) الذهبي : عهد الخلفاء ، ص ١٢٨ .

(٢) البلاذري : فتوح البلدان ، ق ١ ، ص ١٥٦ ، ١٥٧ ؛ ابن الأثير : الكامل ، جـ ٢ ، ص ٤٩٢ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٢ ، ص ٤٩٣ ؛ ابن العديم : بغية الطلب ، جـ ١ ، ص ٥٧٨ ؛ ابن كثير : خلافة عمر ، ص ٦٢-٦٣ .

(٤) البلاذري : فتوح البلدان ، ق ١ ، ص ١٣٩ ؛ ابن كثير : خلافة عمر ، ص ٦١ .

يأمره بوقف عملية الفتح بالشام في ذلك العام (١٥ هـ) ، فمما جاء في رسالته إليه «وذكرت أنك وجهت الخيول نحو البلاد التي فيها ملك الروم وجموعهم ، فلا تفعل ! ابعث إلى خيلك فأضممها إليك ، وأقم حتى يمضي هذا الحول ونرى من رأينا ، ونستعين الله ذا الجلال والإكرام على جميع أمرنا ، والسلام »[1]. ولعل السبب في أمر عمر رضي الله عنه وقتذاك بوقف حركة الفتح بالشام هو انشغاله بالحشود الفارسية المتدافعة التي أخذت تزحف للقاء المسلمين في القادسية[2].

وفي الوقت الذي شرع فيه أبو عبيدة رضي الله عنه في ترتيب شؤون المدن المفتوحة ، وتشكيل حاميات من جند المسلمين فيها [3]- وردت أنباء تفيد بتحرك جموع كثيفة من الروم وحلفائهم بقيادة باهان لحرب المسلمين في الشام استجابة لنداء هرقل الذي دعا عماله في مملكته إلى تجنيد كل قادر على حمل السلاح ممن أدرك الحلم فما فوق إلى الشيخ الفاني ، واستغاث بروما (الإمبراطورية الرومانية الغربية)[4]، وقد تفاوتت الروايات في تقدير أعداد تلك الجموع ما بين مائة ألف (١٠٠٠٠٠) إلى أربعمائة ألف (٤٠٠٠٠٠)[5].

في ظل هذا التصعيد الرومي الخطير أخلى المسلمون ما فتحوا من مدن ، بعد أن رأى غالبهم هذا الرأي ، وقد كتب أبو عبيدة رضي الله عنه إلى عمر رضي الله عنه بذلك[6]، ثم انسحب بالمسلمين إلى الجابية[7](جنوب دمشق) . وقد وافاه فيها بعد ذلك عمرو بن العاص رضي الله عنه منسحباً من فلسطين بمن معه من المسلمين[8].

ومما يذكر هنا أن أبا عبيدة رضي الله عنه لما انسحب من دمشق وحمص رد على أهلهما الجزية[9]، وقد روى البلاذري[10] أن المسلمين قالوا لأهل حمص لما ردوا عليهم ما

(١) الأزدي : تاريخ فتوح الشام ، ص ١٤٧ ؛ الكلاعي : الإكتفاء ، جـ ٣ ، ص ٢١٤ .
(٢) كمال : الطريق إلى دمشق ، ص ٤٠١ .
(٣) الأزدي : تاريخ فتوح الشام ، ص ١٤٨ .
(٤) الأزدي : تاريخ فتوح الشام ، ص ١٥٢ .
(٥) كمال : الطريق إلى دمشق ، ص ٤٠٤ .
(٦) الأزدي : تاريخ فتوح الشام ، ص ١٥٣-١٥٧ .
(٧) الأزدي : تاريخ فتوح الشام ، ص ١٦١ .
(٨) الأزدي : تاريخ فتوح الشام ، ص ١٦٨ .
(٩) الأزدي : تاريخ فتوح الشام ، ص ١٥٥ ، ١٦٠ .
(١٠) فتوح البلدان ، ق ١ ، ص ١٦٢ . وقد ورد في رواية للأزدي أن أهل حمص قالوا « ردكم الله إلينا ، ولعن الله الذين كانوا يملوكننا من الروم ، ولكن والله لو كانوا هم ما ردوا علينا ؛ بل غصبونا وأخذوا مع ما قدروا عليه من أموالنا » (تاريخ فتوح الشام ، ص ١٥٦) .

أخذوا منهم « قد شغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم ، فأنتم على أمركم . فقال أهل حمص: لَولايتُكم وعدلُكم أحبُّ إلينا مما كنا فيه من الظلم والغشم ، ولندفعن جند هرقل عن المدينة مع عاملكم .

ونهض اليهود فقالوا : والتوراة لا يدخل عامل هرقل مدينة حمص إلا أن نُغْلب ونُجْهَد ، فأغلقوا الأبواب وحرسوها . وكذلك فعل أهل المدن التي صولحت من النصارى واليهود ، وقالوا : إن ظهر الروم وأتباعهم على المسلمين صرنا إلى ما كنا عليه ، وإلا فإنا على أمرنا ما بقي للمسلمين عدد » .

قدمت الجحافل الرومية الكثيفة من الشمال بقيادة باهان ، فكانت تسير على إثر الجيش الإسلامي المنسحب حتى نزلت في اليرموك[1] ، وبالتحديد على نهر الرقاد [أحد روافد اليرموك] ومرج الجولان ، وحينما بلغ ذلك المسلمين وهم معسكرون في الجابية تشاوروا فيما بينهم ، ورأوا أن ينسحبوا إلى أذرعات (جبال درعا) خلف اليرموك حتى لا يفصل الروم بينهم وبين عاصمتهم المدينة ، وكان هذا رأي أبي سفيان بن حرب رضي الله عنه[2] .

وفي الوقت عينه كتب أبو عبيدة رضي الله عنه إلى عمر رضي الله عنه يطلعه على التطورات الجديدة ، فلما وصل الكتاب إلى المدينة جزع المهاجرون والأنصار وأشفقوا على المسلمين ، ونادى بعضهم بمسير عمر رضي الله عنه إليهم .

ثم أجمعوا على أن يمدهم سريعاً ويبقى ردءاً لهم في المدينة ، ثم بعث عمر رضي الله عنه برسالة إلى أبي عبيدة رضي الله عنه يأمره بأن يقرأها على الناس دعا فيها المجاهدين المسلمين ألا يهابوا كثرة الروم ، وأن لا يستوحشوا هم من قلة العدد ، لأن الله معهم ، ثم يحثهم على الصبر والثبات ، ويذكرهم بما أعد الله للشهداء ، ويبشرهم بمشيئة الله بالنصر إن هم أخلصوا وصابروا وصبروا [3] .

---

(١) الأزدي : تاريخ فتوح الشام ، ص ١٧٢ .

(٢) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق ، جـ ٢ ، ص ١٤٥-١٤٦ ؛ ابن منظور : مختصر تاريخ دمشق ، جـ ١ ، ص٢١٣ .

(٣) الأزدي : تاريخ فتوح الشام ، ص ١٨٠-١٨٣ ؛ الكلاعي : الإكتفاء ، جـ ٣ ، ص ٢٤١-٢٤٣ . فمما جاء في كتاب عمر رضي الله عنه إلى أبي عبيدة رضي الله عنه قوله «أما بعد فقد قدم علينا أخو ثمالة بكتابك تخبرني فيه بنفير الروم إلى المسلمين براً وبحراً ، وبما جاشوا به عليكم من أساقفتهم ورهبانهم ... فلا تهولنك كثرة من جاءك منهم ، =

وكان قبيل ذلك قد بعث إليهم بمدد من المدينة ألف رجل أو ألفين بقيادة سعيد بن عامر بن حِذيم ﷺ ، وقد وافق وصول هذا المدد للمسلمين وصول رسالة عمر ﷺ إليهم ، فقرئت عليهم ، فسروا بذلك ، ورجوا النصر على الأعداء[١] .

وبوصول هذا المدد قدر العدد الإجمالي للجيش الإسلامي بستة وثلاثين ألفاً (٣٦٠٠٠) في رواية[٢]، وستة وأربعين ألفاً (٤٦٠٠٠) في رواية أخرى[٣]، كان فيهم ألف رجل من أصحاب رسول الله ﷺ ، بينهم نحو مائة من أهل بدر[٤] .

استقر الجيش الرومي في المكان الذي نزل فيه ، وأخذ يجهز وحداته استعداداً للمواجهة مع المسلمين ، حيث اختار قادته موضعاً « واسع العَطَن ، واسع المطَّرَد ، ضيق المهرَب» كما أوصاهم بذلك هرقل[٥] . وقد وقف عليه بعض العسكريين المحدثين وسموه بـ «سهل اليرموك»، ووصفوه بأنه سهل مفتوح من ناحيتيه الشمالية والشرقية ، بينما ينتهي حداه الجنوبي والغربي بمنحدرات عميقة وشديدة ، حيث يجري في المنحدرات الجنوبية نهر اليرموك نفسه الذي يبتديء من حوران شرقاً ويصب في وادي الأردن ، أما المنحدرات الغربية فيجري فيها نهر الرقاد الذي يأتي من الشمال الشرقي ويصب في نهر اليرموك بعد أن يلتقي به في الجنوب قرب الواقوصة .

= فإن الله منهم بريء ، ومن بريء الله منه كان قَمِناً أن لا تنفعه كثرته ، وأن يكله الله إلى نفسه ويخذله ، ولا توحشنك قلة المسلمين فإن الله معك ، وليس قليلا من كان الله معه ... وقد فهمت مقالتك : احتسب أنفس المسلمين إن هم أقاموا ، ودينهم إن هم تفرقوا ، فقد جاءهم ما لا قبل لهم به إلا أن يمدهم الله بملائكته ، أو يأتيهم بغياث من قبله . وأيم الله لولا استثناؤك بهذا لقد كنت أسأت ... فأما قولك إنه قد جاءهم ما لا قبل لهم به فإن لا يكن لكم بهم قبل فإن لله بهم قبلاً ، ولم يزل ربنا عليهم مقتدراً ، ولو كنا والله إنما نقاتل الناس بحولنا وقوتنا وكثرتنا لهيهات ما قد أبادونا وأهلكونا ، ولكننا نتوكل على الله ربنا ، ونبرأ إليه من الحول والقوة ، ونسأله النصر والرحمة ، وإنكم منصورون إن شاء الله على كل حال ، فأخلصوا لله نياتكم ، وارفعوا إليه رغبتكم ، واصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون »(الأزدي : تاريخ فتوح الشام ، ص ١٨٢-١٨٣) .

(١) الأزدي : تاريخ فتوح الشام ، ص ١٥٨ ، ١٨٥ ، ١٨٦ .

(٢) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٣٩٤ . ويروي البلاذري أن عدد المسلمين في اليرموك كان أربعة وعشرين ألفاً (فتوح البلدان ، ق ١ ، ص ١٦٠) .

(٣) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٣٩٥ .

(٤) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٣٩٧ ؛ ابن منظور : مختصر تاريخ دمشق ، جـ ١ ، ص ٢١٢ .

(٥) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٣٩٣ .

وفي نهاية الجهة الشرقية من هذا السهل تقع جبال أذرعات[١] التي انسحب إليها المسلمون ، حيث يقع بالقرب منها الطريق الرئيس بين شمال الشام وجنوبه ، وهو مضيق بين جبال درعا البركانية واليرموك ، وقد سماها بعض العسكريين حديثاً بفجوة درعا[٢].

انتقل المسلمون من معسكرهم الذي اجتمعوا فيه ، فنزلوا بحذاء الجيش الرومي ، فقال عمرو بن العاص ﷺ « أيها الناس ، أبشروا ! حُصِرتْ ـ والله ـ الروم ، وقلما جاء محصور بخير »[٣]. وحصر الروم جاء بإرادتهم بين منحدرات نهر اليرموك من الجنوب وبين منحدرات رافده نهر الرقاد من الغرب ، وقد وزع القائد الرومي جنوده على عشرين صفاً يمتد كل صف عدة أميال[٤]، وجعل وجوههم تجاه الشرق ، فجاء الجيش الإسلامي فصار في مواجهتهم في مكان أكثر ارتفاعاً من مكانهم ، مستفيداً من انحدار سهل اليرموك من الشرق إلى الغرب ، فضلاً عن كون ما خَلْفه ساحة مفتوحة يتلقى عبرها الإمدادات ، أو يتراجع من خلالها إذا لزم الأمر[٥] .

وحين رأي أبو عبيدة ﷺ كثرة جموع الروم استشار المسلمين في قتالهم ، فكان آخر من تكلم منهم خالد بن الوليد ﷺ الذي طلب منه أن يسند إليه قيادة المعركة ، فقال لأبي عبيدة ﷺ « خلني والناس ، ودعني والأمر ، وولني ما وراء بابك ، فأنا أكفك بإذن الله أمر هذا العدو . فقال له أبو عبيدة : شأنك بالناس . فخلاه وإياهم » .

ولذا طلب خالد ﷺ من أبي عبيدة ﷺ أن يأمر الجيش بطاعته ، فأمر أبو عبيدة ﷺ الضحاك بن قيس أن ينادي في الناس بقوله « إن أميركم أبا عبيدة يأمركم بطاعة خالد بن الوليد فيما أمركم به ، فقال الناس : سمعنا وأطعنا »[٦]. وبهذا فوض أبو عبيدة ﷺ خالداً ﷺ بالقيادة الميدانية للمعركة المرتقبة ، بينما اكتفى هو بالإشراف العام على الجيش ، أو

---

(١) الجنرال أ. أكرم : سيف الله خالد بن الوليد ، ترجمة العميد الركن صبحي الجابي ، ص ٤٦٠ – ٤٦١ .

(٢) غلوب : الفتوحات العربية ، ص ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٣٠٤ ؛ محمد أحمد باشميل : حروب الإسلام في الشام في عهود الخلفاء الراشدين ، ص ١٣٦ .

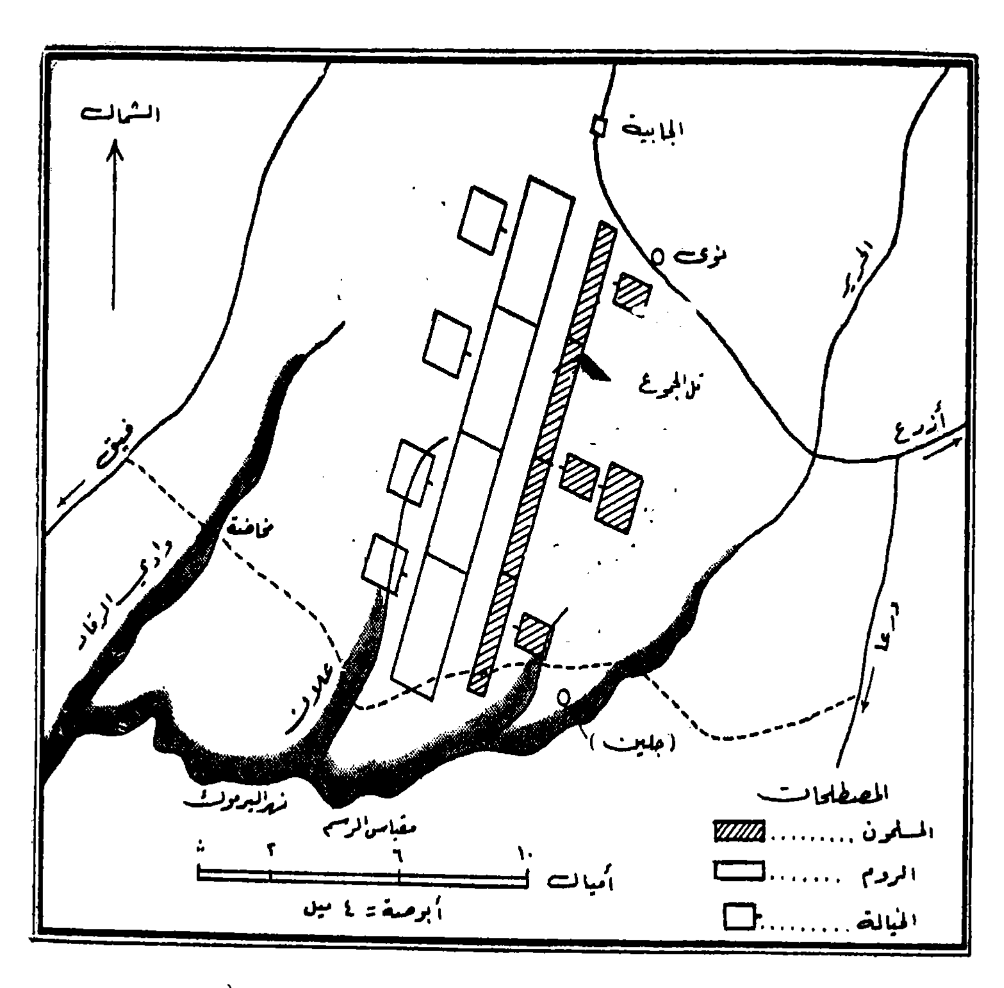
(٣) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٣٩٣ ؛ ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق ، جـ ٢ ، ص ١٦٢ .

(٤) أكرم : سيف الله خالد بن الوليد ، ص ٤٦٢ ؛ كمال : الطريق إلى دمشق ، ص ٤٧١ .

(٥) محمود شاكر : ميدان معركة اليرموك ، ص ٢٦ ، ٢٨ .

(٦) الأزدي : تاريخ فتوح الشام ، ص ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٧٠ ؛ الكلاعي : الإكتفاء ، جـ ٣ ، ص ٢٤٥ ، ٢٤٦ .

ما يمكن أن يسمى بالقيادة العامة العليا .



مواقع جيشي المسلمين والروم قبيل القتال في اليرموك (أكرم : سيف الله خالد بن الوليد ، ص ٤٦٦ بتصرف يسير)

انهمك خالد ﷺ مع أبي عبيدة ﷺ وبقية القادة في تعبئة الجيش الإسلامي وترتيبه ، فوزعه أولاً على كراديس (كتائب) ، فبلغ ما بين ستة وثلاثين إلى أربعين كردوساً ، وجعل لكل كردوس قائداً [١] ، وألف من كل تسعة كراديس لواء يقوده قائد عام ، وقد شكل تلك الألوية على أساس القبيلة[٢] .

---

(١) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٣٩٦ .

(٢) أكرم : سيف الله خالد بن الوليد ، ص ٤٦٤ .

ثم قسم الجيش التقسيم المعروف إلى قلب وميمنة وميسرة [١]، وبالرجوع إلى أبي عبيدة ﷺ والتشاور معه جعل على الميمنة : معاذ بن جبل ﷺ ، وعلى الميسرة : قباث بن أشيم ﷺ ، وعلى الرجالة : هاشم بن عتبة بن أبي وقاص ومعه أبو عبيدة ﷺ القائد العام للجيش ، أما الخيل فقد تولاها خالد بن الوليد ﷺ بنفسه[٢] .

وعلى صعيد آخر ، يذكر الرواة أن خالداً ﷺ صف جيش المسلمين ثلاثة صفوف[٣]، ومن الواضح أنه أراد بذلك أن يستوعب صفوف الروم الممتدة مسافة بعيدة كما سبق[٤]؛ إذ كان عدد الجيش الإسلامي لا يمثل سوى خمس الجيش الرومي .

عقب هذا الترتيب خرج خالد ﷺ يمر على الصفوف ، يقف عند أهل كل راية يعظهم ويحضهم ويرغبهم ، ثم تقدم بخيل المسلمين نحو الروم الذين استعدوا للمواجهة ، وقدموا أمامهم خيلاً عظيمة ، فجرت بين الطرفين مبارزة سريعة انكشفت فيها خيل الروم ، وتراجعت إلى صفوفهم[٥] .

وبانتهاء هذه الجولة رأي باهان قائد الجيش الرومي أن يتفاوض مع المسلمين ، فأرسل رجلاً من عظمائهم اسمه «جرجة» إلى أبي عبيدة ﷺ يسأله أن يبعث إليه قائد المسلمين السابق في الشام ، ويقصد خالد بن الوليد ﷺ ، فدعا أبو عبيدة ﷺ خالداً ﷺ للذهاب إلى باهان ، وأوصاه بأن يدعوهم إلى الإسلام .

وبينما كان جرجة في وسط الجيش الإسلامي راح يراقب أعمال المسلمين وتصرفاتهم ، فأعجب بهم ، ووجه إليهم أسئلة انتهت باعتناقه الإسلام .

أما خالد بن الوليد ﷺ فقد التقى باهان ، فأثنى هذا الأخير على عقل خالد ﷺ ، ثم أخذ يتحدث عن قومه الروم وقوتهم وتمكنهم من البلاد ، وضعف العرب وحاجتهم إلى الروم في الماضي القريب ، ثم عرض على خالد ﷺ المال مقابل تخليهم عن الحرب.

فرد عليه خالد ﷺ معترفاً بما قاله عن حال الروم والعرب ، ولكنه أكد بأن العرب

---

(١) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٣٩٦ .
(٢) الأزدي : تاريخ فتوح الشام ، ص ١٨٨ - ١٨٩ .
(٣) الأزدي : تاريخ فتوح الشام ، ص ١٨٨ .
(٤) أكرم : سيف الله خالد بن الوليد ، ص ٤٦٥ .
(٥) الأزدي : تاريخ فتوح الشام ، ص ١٩٠ - ١٩٤ ؛ الكلاعي : الإكتفاء ، جـ ٣ ، ص ٢٤٦ - ٢٤٨ .

تغيرت أحوالهم منذ أن اتبعوا دعوة التوحيد التي بعث بها محمد ﷺ ، وقد أمرهم بتبليغها إلى الناس كافة ، ثم دعا خالد ﷺ باهان ومن معه إلى الإسلام ، ثم قال « فإن فعلتم فأنتم إخواننا في الإسلام ، لكم ما لنا وعليكم ما علينا ، فإن أبيتم فإنا نعرض عليكم أن تعطوا الجزية عن يد وأنتم صاغرون ، فإن فعلتم قبلنا منكم ، وكففنا عنكم ، وإن أبيتم أن تفعلوا فقد والله جاءكم قوم ، وهم أحرص على الموت منكم على الحياة ، فاخرجوا بنا على اسم الله حتى نحاكمكم إلى الله ، فإنما الأرض لله يورثها من يشاء من عباده ، والعاقبة للمتقين » . فأبى باهان إلا القتال ، فعاد خالد ﷺ وأخبر أبا عبيدة ﷺ بما جرى بينه وبين قائد الروم ، ودعا المسلمين أن يتأهبوا للقتال[١].

وضمن إجراءات التأهب للقتال دس كل طرف عيونه (جواسيسه) لمعرفة الطرف الآخر ، فأرسل الروم رجلاً عربياً نصرانياً ، وبات في عسكر المسلمين ليلة ، فعاد يقول للقائد الرومي « جئتك من عند قوم يقومون الليل كله يصلون ، ويصومون النهار ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، رهبان بالليل ، وأُسْد بالنهار ، لو سرق ملكهم لقطعوا يده ، ولو زنى لرجموه ، لإيثارهم الحق ، واتباعهم إياه على الهوى . فقال : لئن كان هؤلاء القوم كما تزعم ، وكما ذكرت لبطن الأرض خير - لمن يريد قتالهم ولقاءهم - من ظهرها». كما تسلل رجال يكتمون إسلامهم كانوا من نصارى العرب إلى جيش الروم ، فاقبلوا ينذرون أبا عبيدة ﷺ بهجوم وشيك من قبل الروم ، لأنهم أخذوا في تعبئة أنفسهم[٢].

وفي يوم الاثنين ٥ رجب سنة ١٥ هـ[٣] تحرك الروم بالأساقفة والقسيسين والرهبان والبطارقة والفرسان نحو الجيش الإسلامي ، وزحفوا إليه يزفون زفاً ، لهم دوي كدوي الرعد ، وقد تبايع عظماؤهم على الموت ، وربط ثلاثون ألفا منهم أنفسهم بالسلاسل ، كل عشرة في سلسلة لئلا يفروا[٤].

فأخذ أبو عبيدة ﷺ والقادة يحرضون المسلمين على القتال ، ويحثونهم على الصبر

---

(١) الأزدي : تاريخ فتوح الشام ، ص ١٩٤ - ٢٠٧ ؛ الكلاعي : الإكتفاء ، جـ ٣ ، ص ٢٤٨ - ٢٥٧ .
(٢) الأزدي : تاريخ فتوح الشام ، ص ٢١١ - ٢١٢ .
(٣) المصدر نفسه ، ص ٢٧٢ .
(٤) المصدر نفسه ، ص ٢٢٠ .

والثبات ، حيث سار أبو عبيدة ﷺ في الناس يقول « يا عباد الله ! انصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ، فإن وعد الله حق ، يا معشر المسلمين ! اصبروا ، فإن الصبر منجاة من الكفر ، ومرضاة للرب ، ومدحضة للعار ـ أي مفشلة ـ ، فلا تبرحوا مصافكم ، ولا تخطوا إليهم خطوة ، ولا تبدأوهم بقتال ، واشرعوا الرماح ، واستتروا بالدرق ، والزموا الصمت إلا من ذكر الله حتى آمركم إن شاء الله » .

وأخذ معاذ بن جبل ﷺ وعمرو بن العاص ﷺ يعظان الناس ، وكذلك راح أبو سفيان بن حرب ﷺ يتنقل بين رايات الجيش يحرض على القتال ، وأقبل خالد بن الوليد ﷺ على نساء المسلمين ـ وهن على تل مرتفع في العسكر ـ فقال : يا نساء المسلمين أيما رجل أدركتنه منهزماً فاقتلنه »[١].

ولمواجهة تفوق الروم العددي قسم خالد ﷺ الفرسان بينه وبين قيس بن هبيرة ، وقرر أن يبقوا مع قوة من المشاة بقيادة أبي عبيدة ﷺ خلف صفوف المسلمين ، وأن لا يباشروا القتال في أول المعركة ، فإن دعت الحاجة إليهم تدخلوا بعد أن تكون صفوف الروم قد تضعضعت ، وأصاب خيلهم الإعياء[٢].

بدأ الروم بهجوم شامل وعنيف على الجيش الإسلامي ، فانكشف المسلمون في الميمنة والميسرة كلتيهما ، وفي الوقت الذي حدث فيه اختراق لهما من قبل الروم حتى تدفقت قواتهم خلف الجيش الإسلامي كان المسلمون في القلب قد ثبتوا . ورغم ما حصل للمسلمين من انكسار فإنهم أظهروا من ضروب الشجاعة والإخلاص والفداء ما جعلهم يصمدون في القتال.

فهذا معاذ بن جبل ﷺ في الميمنة أخذ يحث المسلمين على الصبر ، ثم تخلى عن فرسه لمن يريد أن يقاتل عليه ، فأخذه ابنه عبد الرحمن رغم حداثة سنه ، فقاتل معاذ وابنه قتالاً ما قاتل كثير من المسلمين مثله ، وكان معاذ ﷺ أيضاً يدعو بقوله «اللهم زلزل أقدامهم ، وأرعب قلوبهم ، وأنزل علينا السكينة ، وألزمنا كلمة التقوى ، وحبب إلينا اللقاء ، ورضنا بالقضاء » .

(١) المصدر نفسه ، ص ٢١٨- ٢٢٠ .
(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٢١ .

وفي الميمنة نفسها كان أبو هريرة ﷺ يذكر بفضل الاستشهاد في سبيل الله والصبر ، فسمع يقول « تزينوا للحور العين ، وارغبوا في جوار ربكم في جنات النعيم ، فما أنتم إلى ربكم في موطن من مواطن الخير أحب إليه منكم في هذا الموطن ، ألا وإن للصابرين فضلهم » ، فلما سمعت به الأزد أطافت به[١].

وفي تلك اللحظات العصيبة قال عكرمة بن أبي جهل ﷺ «قاتلت رسول الله في كل موطن ، وأفر منكم اليوم ! ثم نادى : من يبايع على الموت ؟ فبايعه الحارث بن هشام ، وضرار بن الأزور ، في أربعمائة من وجوه المسلمين وفرسانهم ، فقاتلوا قُدّام فسطاط خالد حتى أُثبتوا جميعاً جراحاً ، وقتلوا إلا من برأ ، ومنهم ضرار بن الأزور»[٢].

كما قاتل جرجة الرومي الذي أسلم قبيل المعركة ، فقتل مع المسلمين[٣] .

ولقد كان لشجاعة سعيد بن زيد ﷺ وشدة قتاله ، ومعه شرحبيل بن حسنة ﷺ أثر كبير في ثبات المسلمين في القلب منذ أول المعركة[٤].

كما أن الزبير بن العوام ﷺ أبلى بلاء حسناً يومئذ ، إذ صح أن أصحاب النبي ﷺ قالوا له « **ألا تشد فنشد معك ؟ فحمل عليهم ، فضربوه ضربتين على عاتقه** ... »[٥].

وقد روي أن النساء شاركن في القتال يومذاك ، قال البلاذري[٦]«وقاتل يوم اليرموك نساء من نساء المسلمين قتالاً شديداً ، وجعلت هند بنت عتبة ـ أم معاوية بن أبي سفيان ـ تقول : عضدوا الغلفان بسيوفكم » .

ولقد ظل كثير من المسلمين يقاومون المهاجمين ويقاتلونهم بشجاعة وإقدام إلى

---

(١) الأزدي : تاريخ فتوح الشام ، ص ٢٢٢- ٢٢٥ .
(٢) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٤٠٠ . قال ابن كثير « وقد ذكر الواقدي وغيره انهم لما صرعوا من الجراح استسقوا ماء فجيء اليهم بشربة ماء ، فلما اقتربت إلى أحدهم نظر إليه الآخر فقال : ادفعها إليه ، فلما دفعت إليه نظر إليه الآخر فقال : ادفعها إليه فتدافعوها كلهم من واحد إلى واحد حتى ماتوا جميعاً ، ولم يشربها أحد منهم رضى ﷺ أجمعين » (خلافة أبي بكر ، ص ١٧٠) ويظهر أن ابن كثير نقل هذا النص من غير كتاب فتوح الشام المطبوع الآن المنسوب إلى الواقدي ، إذ لا يوجد شيء من هذا النص في هذا الكتاب .
(٣) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٤٠٠ .
(٤) الأزدي : تاريخ فتوح الشام ، ص ٢٢٨ ، ٢٢٩ .
(٥) البخاري : الصحيح ، جـ ٣ ، ص ١٣٦٣ .
(٦) فتوح البلدان ، ق ١ ، ص ١٦٠ . راجع الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٤٠١ ، ٥٧١ ؛ ابن حجر : الإصابة ، جـ ٧ ، ص ٤٩٨ ، جـ ٨ ، ٣١٤ .

درجة أنهم صلوا الظهر والعصر في ذلك اليوم إيماء ، وكان خالد بن الوليد ﷺ وقيس بن هبيرة قد نزلا الميدان للقتال بالخيل بعد أن اختلط الروم بالمسلمين ، واضطربت صفوفهم ، وتفرق فرسانهم ، وظهر عليهم التعب ، فحمل خالد ﷺ على ميسرة الروم حتى أزالها عن مكانها ، وقتل منهم ستة آلاف ، ثم عمد إلى قلب الجيش الرومي ، فقضى على الرجالة منهم ، وطارد فرسانهم[١].

لقد كانت خطة خالد ﷺ البدء بالدفاع لكسر موجة هجوم العدو الذي نزل بكل ثقله إلى الميدان ، فكان المطلوب من الجنود المسلمين أن يثبتوا ثبات المستميتين ، ثم الزج في أتون المعركة بالقوات الاحتياطية المكونة من مجموعتين ،

الأولى : ــ وهي الأهم ـ جميع فرسان المسلمين الذين جعلهم خلف الميمنة والميسرة.

والثانية : قوة المشاة التي كانت تقف خلف القلب[٢].

وقد أثمرت هذه الخطة في إرباك العدو ، وتقطيع أوصال قواته ، وساعتئذ استعاد المسلمون قوتهم ونظامهم وزحفوا ، فتراجع الروم أمامهم حتى أشرفوا ـ وقد حل الظلام ـ على أهوية (منحدرات) سحيقة ، وهي منحدرات نهر الرقاد (الواقوصة) ، فصاروا يتساقطون فيها ، فجعل الذين تسلسلوا في سلسلة واحدة يسحب بعضهم بعضاً ، وقد قدر الرواة عدد من سقط في تلك الأهوية منهم بحوالى ثمانين ألفاً .

ثم قام المسلمون بعملية مطاردة للروم ، ففر منهم تحت جنح الظلام وقبل ذلك أعداد كبيرة ، بينما قتل منهم في ميدان المعركة حوالي خمسين ألفاً [٣]. وقد كان على رأس هؤلاء القتلى باهان قائدهم[٤].

---

(١) الأزدي : تاريخ فتوح الشام ، ص ٢٢٩ - ٢٣٠ ، ابن كثير : خلافة أبي بكر ، ص ١٧١ .

(٢) كمال : الطريق إلى دمشق ، ص ٥٠١ - ٥٠٢ .

(٣) الأزدي : تاريخ فتوح الشام ، ص ٢٣٠ - ٢٣١ . ومنحدرات نهر الرقاد اكتسبت اسم الواقوصة منذ ذلك اليوم ، لأن الروم وقصوا فيها وما فطنوا (المصدر نفسه ، ص ٢٣١) .

(٤) الأزدي : تاريخ فتوح الشام ، ص ٢٣٦ . ومما يذكر أن جبلة بن الأيهم زعيم الغساسنة في الشام شارك مع النصارى العرب في القتال ضد المسلمين يوم اليرموك ، ويروي أنه انحاز إلى الأنصار ، وأظهر الإسلام ، « فلما قدم عمر بن الخطاب ﷺ الشام ... لاحى جبلة رجلاً من مزينة ، فلطم عينه ، فأمره عمر بالاقتصاص منه ، فقال : أوعينه مثل عيني؟ والله لا أقيم ببلد علي به سلطان ، فدخل بلاد الروم مرتداً... (البلاذري : فتوح البلدان، ق١=

أما المسلمون فقد استشهد منهم حوالي ثلاثة آلاف ، يأتي في مقدمتهم عكرمة بن أبي جهل ، وابنه عمرو ، وعمه الحارث بن هشام ، وعمرو بن الطفيل بن عمرو ، وهشام بن العاص أخو عمرو بن العاص رضي الله عن الجميع[١] .

حول تاريخ وقعة اليرموك: اختلف الرواة والمؤرخون في تاريخ حدوث هذه المعركة ، ففريق يرى أن أحداثها وقعت سنة ١٣ هـ في آخر عهد أبي بكر ﷺ وأول عهد عمر ﷺ ، منهم سيف بن عمر ، وتبعه ابن جرير الطبري ، وابن الأثير وغيرهم[٢] . وفريق يرى أنها حدثت سنة ١٥ هـ بعد سنتين من ولاية عمر ﷺ ، منهم محمد بن إسحاق[٣]، وخليفة بن خياط[٤]، والأزدي[٥]، والبلاذري[٦]، وقد نقل ابن عساكر[٧] عن جماعة من الرواة كيزيد بن أبي عبيدة ، والوليد بن مسلم ، وابن لهيعة ، والليث بن سعد ، وأبي معشر ، والواقدي ، وابن الكلبي ـ أنها في سنة ١٥ هـ ، ثم قال «وهذه الأقوال هي المحفوظة في تاريخ اليرموك»، وبعدها قال « وقد ذكر سيف بن عمر أنها كانت ... في أول خلافة عمر سنة ثلاث عشرة ولم يتابع على ذلك » . وقال ابن منظور[٨] «تواترت الروايات أن وقعة اليرموك في سنة خمس عشرة».

ويرى المستشرق الهولندي ميخائيل دي غويه أن سبب الاختلاف في تحديد تاريخ معركة اليرموك أن لدينا معركتين تسميان اليرموك خلط بينهما الرواة .

الأولى : أجنادين التي جرت سنة ١٣ هـ ، حيث أن المصادر لم تحدد موقعها

= ص ١٦١ ؛ ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق ، جـ ٥٧ ، ص ٣٦٨) وهناك الرواية المشهورة ، وملخصها أن جبلة أسلم ثم خرج إلى الحج مع عمر ﷺ ، فوطيء إزاره خطأ رجل من فزارة فانحل ، فلطمه جبلة ، ولما أراد عمر ﷺ أن يقيد منه فر إلى القسطنطينية وتنصر (الأصفهاني : الأغاني ، جـ ١٥ ، ص ١٦٢-١٦٣ ، الصفدي : الوافي بالوفيات ، تحقيق شكري فيصل ، جـ ١١ ، ص ٥٣) .

(١) الأزدي : تاريخ فتوح الشام ، ص ٢٢٤ ؛ الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٤٠١ ، ٤٠٢ .
(٢) ابن كثير : خلافة أبي بكر ، ص ١٥٦ .
(٣) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٤٤١ .
(٤) تاريخ خليفة بن خياط ، ص ١٣٠ .
(٥) تاريخ فتوح الشام ، ص ٢٧٢ .
(٦) فتوح البلدان ، ق ١ ، ص ١٦٢ .
(٧) تاريخ مدينة دمشق ، جـ ٢ ، ص ١٤١-١٤٢ .
(٨) مختصر تاريخ دمشق ، جـ ١ ، ص ٢١٢ .

بالضبط ، وفي محيط المدن الفلسطينية التي فيها أجنادين ثمة مدينة قديمة اسمها يرموث أو يرموتثا ، فربما نسبت معركة أجنادين أيضاً إلى هذه المدينة فقيل معركة يرموث (اليرموك).

الثانية : معركة اليرموك التي اكتسبت اسمها من نهر اليرموك ، وقد جرت سنة ١٥هـ . وعلى هذا وقع الخطأ في عدم التفريق بين أخبار المعركتين في رواية سيف بن عمر ، أي أنه عرف حدوث معركة اسمها اليرموك ، ولكنه لم يميز بينها وبين سابقتها يرموث ، فروى أخبار يرموث معتقداً أنها اليرموك الشهيرة [١].

وحديثاً درس المستشرق الألماني نولدكه ما كُتِبَ بالسريانية عن هذه الوقعة من قبل أحد الرهبان الذي يحتمل أنه شهدها ، فوجد أن تاريخها حسب ما دونه هذا الراهب ٢٠ أغسطس سنة ٦٣٦ م ، وهذا التاريخ يوافق ١٢ رجب سنة ١٥ هـ[٢] . وفي دراسته المفصلة عن فتح المسلمين الشام ـ وبناء على ترتيب موثق للأحداث ، وتتبع مستوعب لأقوال الرواة ـ اختار أحمد عادل كمال[٣] الرواية التي تقول بأن معركة اليرموك وقعت في ٥ رجب سنة ١٥ هـ .

يبقى عندنا الإشكال الذي يورده بعضهم وهو أن خالد بن الوليد ﷺ قاد معركة اليرموك بإجماع المصادر ، وأن عمر ﷺ في غرة عهده (منتصف سنة ١٣ هـ) قد عزل خالداً ﷺ عن قيادة جيوش المسلمين في الشام وولى أبا عبيدة ﷺ ، فإذ كانت معركة اليرموك حدثت سنة ١٥ هـ ، فكيف قادها خالد ﷺ ؟ والرد على هذا الإشكال أن نتذكر ما عرضناه من قبل طبقاً لما ورد في المصادر ، وهو أن خالد بن الوليد ﷺ كان قد طلب من أبي عبيدة ﷺ أن يوليه قيادة الجيش في اليرموك سنة ١٥ هـ ، فوافق أبو عبيدة ﷺ على ذلك ، فصارت القيادة الميدانية لخالد ﷺ ، بينما القيادة العليا العامة كانت لأبي عبيدة ﷺ .

ومهما يكن من أمر فقد كانت معركة اليرموك معركة فاصلة في تاريخ المسلمين

(١) باشميل : حروب الإسلام في الشام ، ص ١٣٢ - ١٣٣ .
(٢) الشامي : الخلفاء الراشدين ، ص ٢٢٢ - ٢٢٣ .
(٣) الطريق إلى دمشق ، ص ٤٧١ .

والروم ، إذ انكسرت بها شوكة الروم ، فلم تقم لهم بعدها في بلاد الشام راية[١] ، وقد روي أن هرقل لما بلغته هزيمة جنوده في اليرموك - وهو في أنطاكيا - هرب منها نحو عاصمته القسطنطينية[٢] ، وقال عند خروجه من الشام «سلام عليك يا سورية ، سلام مودع ، لا يرى أن يرجع إليك أبداً »[٣].

أما المسلمون فقد انفتحت لهم بعدها أبواب الشام ، فانتشرت قواتهم بدون مقاومة تذكر تعيد ما كانت قد فُتِحَ من قبل ، وتفتح مدناً جديدة .

فقد استمر خالد ﷺ بمطاردة المنهزمين من الروم حتى انتهى إلى دمشق ، فاستقبله أهلها ، وقالوا « نحن على العهد الذي كان بيننا وبينكم »، ثم انتهى إلى حمص ، فخرج أهلها إليه ، وقالوا له أيضاً مثل ما قال أهل دمشق[٤]، ثم وصل إلى قنسرين فدخلها.

وبعدها سار نحو حلب ، فامتنع عليه أهلها ، وتحصنوا بحصونهم حتى قدم أبو عبيدة ﷺ ونزل عليهم ، فطلبوا منه الصلح والأمان ، فقبل منهم ، فصالحهم وكتب لهم أماناً [٥].

ثم سار أبو عبيدة ﷺ إلى أنطاكية فاصطدم قبل وصوله إليها بجيش خرج للدفاع عنها ، فانهزم هذا الجيش أمامه ، وفرت فلوله معتصمة بالمدينة ، فحاصرها المسلمون حتى طلب أهلها الصلح على الجزية والجلاء ، فصالحهم أبو عبيدة ﷺ ، فجلا بعضهم وأقام بعضهم الآخر[٦].

ثم راح أبو عبيدة ﷺ يطهر شمال الشام من بقايا الروم ، ففتح عدداً من القرى والحصون[٧]، وبعد ذلك كان عليه أن يعود جنوباً للنظر في أمر إيلياء (القدس) ، فأمر

---

(١) ابن العديم : بغية الطلب ، جـ ١ ، ص ٧٩ .

(٢) البلاذري : فتوح البلدان ، ق ١ ، ص ١٦٢ .

(٣) الأزدي : تاريخ فتوح الشام ، ص ٢٣٦ ؛ ياقوت : معجم البلدان ، جـ ٣ ، ص ٢٨٠ ؛ ابن العديم : بغية الطلب ، جـ ١ ، ص ٥٧٤ . وجاء في رواية عند الطبري أنه قال «عليك السلام يا سورية ، سلاماً لا اجتماع بعده ، ولا يعود إليك رومي أبداً إلا خائفاً ، حتى يولد المولود المشؤوم ، ويا ليته لا يولد ، فما أحلى فعله ، وأَمَرّ عاقبته على الروم»(تاريخ الأمم و الملوك ، جـ ٣ ، ص ٦٠٣) .

(٤) الأزدي : تاريخ فتوح الشام ، ص ٢٣١ .

(٥) الأزدي : تاريخ فتوح الشام ، ص ٢٣٧ . راجع البلاذري : فتوح البلدان ، ق ١ ، ص ١٧٢ ، ١٧٤ .

(٦) البلاذري : فتوح البلدان ، ق ١ ، ص ١٧٤ . راجع خليفة بن خياط : تاريخه ، ص ١٣٤- ١٣٥ .

(٧) البلاذري : فتوح البلدان ، ق ١ ، ص ١٧٦- ١٧٨ .

مناديه بالرحيل إليها ، وجعل على مقدمته خالد بن الوليد ﷺ ، فمر في طريقه بقنسرين وحمص ودمشق متفقداً شؤون كل منها [١].

فتح بيت المقدس (إيلياء) [٢] : كان عمرو بن العاص ﷺ قد ولي أمر الفتح في فلسطين ، وقد انسحب بجيشه كما سبق إلى اليرموك ، ولما انتصر المسلمون في تلك المعركة عاد إليها مجدداً ، حيث استعاد ما كان قد فتحه من قبل ، ثم فتح مدناً جديدة ، منها سبسطية ونابلس واللد وعسقلان وغزة ورفح وغيرها ، فلم يبق من فلسطين سوى قيسارية وإيلياء (بيت المقدس) [٣].

وكان عمر ﷺ قد أمر عمراً ﷺ بمصادمة الأرطبون القائد الرومي في فلسطين ، ولكن حين توجه عمرو ﷺ إليه وجده قد جمع جنداً عظيماً وزعه بين الرملة وبيت المقدس ، فكتب بذلك إلى عمر ﷺ فرد بقوله « قد رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب فانظروا عما تنفرج » .

ثم أمر أمراء الأجناد بالشام بإمداد عمرو ﷺ وإشغال الروم عنه ، ويروى أن عمراً ﷺ قصد بنفسه لقاء الأرطبون ، فدخل عليه كأنه رسول ، وأبلغه ما يريد ، ورصد حصونه ، فأحس الأرطبون أنه عمرو ﷺ أو من يأخذ عمرو ﷺ برأيه ، فأوعز لبعض حرسه أن يقتلوه إذا خرج من عنده ، ولكن عمراً ﷺ فطن لذلك ، فأخبر الأرطبون أنه واحد من عشرة يثق برأيهم عمرو بن العاص ، وعرض عليه أن يعود ليأتيه بهم ، فانخدع الأرطبون بهذا الكلام ، وأرسل إلى الذي كان قد أمره بقتله أن لا يفعل طمعاً بقتل العشرة إذا قدموا عليه . ثم جرى قتال بين المسلمين بقيادة عمرو ﷺ والروم بقيادة الأرطبون في أجنادين ، وقد هُزم فيها الروم هزيمة منكرة [٤].

---

(١) الأزدي : تاريخ فتوح الشام ، ص ٢٤٢ .

(٢) لبيت المقدس أسماء عدة ، وهي حسب تسلسلها التاريخي : أورسالم ـ مدينة يبوس ـ مدينة داود ـ مدينة أورشليم ـ إيلياء (إيلياء كابيتولينا) ـ بيت المقدس ـ القدس . وكان العرب قبيل الفتح يعرفونها باسم إيلياء ، ثم صاروا يسمونها القدس وبيت المقدس ، وهذه التسمية الأخيرة هي الأكثر وروداً في المصادر (شفيق جاسر أحمد محمود : تاريخ القدس ، ص ١٧-٢٠) .

(٣) البلاذري : فتوح البلدان ، ق ١ ، ص ١٦٤ ، ١٦٦ . راجع كمال : الطريق إلى دمشق ، ص ٥٢٣ .

(٤) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٦٠٥ - ٦٠٦ . ويسميها أحد المؤرخين العسكريين أجنادين الثانية ، فأجنادين الأولى حسب رأيه هي المشهورة التي وقعت سنة ١٣ هـ في عهد أبي بكر ﷺ ، أما هذه الثانية فقد وقعت في سنة ١٥ هـ (ياسين سويد : أجنادين نصر إسلامي ساحق على الروم ، مجلة الحرس الوطني ، الرياض ، محرم ١٤١٠ هـ ، ص ٧٧ ، ٨١) ويرى أحمد كمال أن هذه الوقعة لم تكن في أجنادين ، وإنما كانت موضعها في حصار عمرو ﷺ لبيت المقدس (الطريق إلى دمشق ، ص ٥٢٤ ، حاشية ١) .

وكان أبو عبيدة ﷺ قد وصل بجيشه من شمالي الشام إلى الأردن ، فكتب إلى أهل بيت المقدس يدعوهم إلى الإسلام أو الصلح ، فلما لم يستجيبوا سار إليهم ، ونزل على مدينتهم ، وحاصرها حصاراً شديداً ، وضيق عليهم ، فكانوا يخرجون ويقاتلون المسلمين ويقاتلهم المسلمون ، ثم يعودون للاحتماء بحصونهم[١].

وحين رأوا أن أبا عبيدة ﷺ مصمم على مواصلة قتالهم وفتح مدينتهم ، وأن لاطاقة لهم بمقاومته ومطاولة حربه ـ فاتحوه بالصلح على أن يكون أمير المؤمنين عمر ﷺ هو الذي يصالحهم ، ويعطيهم العهد ، ويكتب لهم الأمان ، فقبل أبو عبيدة ﷺ ذلك منهم[٢]، ولكن أشار عليه معاذ بن جبل ﷺ إلا يبعث إلى أمير المؤمنين حتى يأخذ عليهم العهود المغلظة بتنفيذ ما وعدوا به ، وعندما أخذ عليهم ما أشار به معاذ ﷺ كتب إلى عمر ﷺ كتاباً بذلك ، وأرسله مع وفد من المسلمين وبصحبته وفد أيضاً من الروم ، وحال وصولهم صاروا يسألون عن عمر ﷺ ، فتعجب الروم ، وقالوا « بهذا غَلَبَ الأُمَمَ» ، ثم زاد تعجبهم حين وجدوه نائماً قد غشاه الحر[٣].

استشار عمر ﷺ الصحابة في خروجه إلى الشام ، فكان رأي عثمان ﷺ أن لا يذهب ، فالروم في بيت المقدس ـ حسب رأيه ـ يزدادون ضعفاً ورعباً ، وعدم مسيره إليهم سيرونه استخفافاً بأمرهم ، فلا يلبثون إلا قليلاً حتى ينزلوا على الحكم ، ويعطوا الجزية .

أما علي ﷺ فقد خالف رأي عثمان ﷺ ، فرأي أن طلبهم هذا فيه ذل وصغار عليهم، وهو فتح وعز للمسلمين ، وأن في الخروج إليهم فوق ما فيه من الأجر له ـ فإن فيه الأمن والعافية والصلاح والفتح ، وأنه لا يؤمن إن يئسوا من قبوله الصلح أن يستمسكوا بحصونهم ، فيأتيهم مدد ، وتطول الحرب بينهم وبين المسلمين ، فيصاب

---

(١) نقل بعضهم عن فتوح الشام المنسوب للواقدي وصفاً للحرب التي جرت بين المسلمين والروم تحت أسوار بيت المقدس ، وأنها استمرت أربعة أشهر (الشامي : الخلفاء الراشدون ، ص ٢٣٦) راجع فتوح الشام ، جـ ١ ، ص١٤٥ ، ١٤٦ . وقد روى ابن أعثم أن الحرب دامت بين الطرفين « أياماً كثيرة » (الفتوح ، جـ ١ ، ص٢٩٠) .

(٢) الأزدي : تاريخ فتوح الشام ، ص ٢٤٢ - ٢٤٣ ، ٢٤٤ - ٢٤٥ ، ٢٤٧ - ٢٤٨ .

(٣) مجير الدين الحنبلي : الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، م ١ ، ص ٣٧٢ - ٣٧٣ .

المسلمون . فقال عمر ﷺ « قد أحسن عثمان في مكيدة العدو ، وأحسن علي النظر لأهل الإسلام ... سيروا على اسم الله ، فإني معسكر وسائر ». فعسكر العباس بن عبد المطلب ﷺ بالناس خارج المدينة ، ولما تكامل جمعهم ـ وقد بلغوا نحو أربعة آلاف ـ سار بهم عمر ﷺ بعد أن استخلف على المدينة علياً ﷺ .

وقد توجه إلى الجابية بالشام[(١)]، فاستقبله أبا عبيدة ﷺ والمسلمون ، ثم ما لبث أن قدم عليه فيها وفد أهل إيلياء (بيت المقدس) ، فكتب لهم كتاباً أمنهم فيه على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم ، وأن لا يكرهوا على ترك دينهم ، وأن الخيار لهم في أن يبقوا في ذمة المسلمين ، أو أن يلحقوا بالروم ، وأن من خرج منهم فهو آمن حتى يبلغ مأمنه ، وأن يدفعوا الجزية ، وقد اشترط عليهم أن يخرجوا من مدينتهم الروم واللصوص ، واشترطوا هم في المقابل ألا يسكن معهم فيها أحد من اليهود ، وقد كتب سنة ١٥ هـ[(٢)]. وثمة روايات يفهم منها أن عمر ﷺ كتب هذا الأمان لأهل بيت المقدس بعد وصوله مدينتهم من الجابية ، وكان الذي أبرم الصلح مع عمر ﷺ صفرونيوس بطريرك المدينة[(٣)]، وقد فر قائدها العسكري الأرطبون إلى مصر[(٤)].

وبعد أن تم الصلح دخل عمر ﷺ ومن معه من المسلمين بيت المقدس ، واتجه إلى المسجد ودخله من الباب الذي دخل منه الرسول ﷺ ليلة الإسراء ، فصلى فيه تحية المسجد بمحراب داود ، وصلى بالمسلمين فيه صلاة الغداة من الغد ، فقرأ في الأولى بسورة (ص) وسجد فيها ، وفي الثانية بسورة بني إسرائيل (الإسراء) . ثم سأل عن

---

(١) ذكر أن عمر ﷺ في الطريق إلى الشام كان يقوم في الناس كل غداة ويقول « الحمد الذي أعزنا بالإسلام ، وأكرمنا بالإيمان وأكرمنا بمحمد ﷺ ، فهدانا به من الضلالة ، وجمعنا به من الفرقة ، وألف بين قلوبنا ، ونصرنا على الأعداء ، ومكن لنا به في البلاد ، وجعلنا به إخواناً متحابين ، فاحمدوا الله عباد الله على هذه النعم ، وسلوه المزيد منها ، والشكر عليها ، وتمام ما أصبحتم تقلبون فيها منها ، فإن الله يزيد الرغبة إليه ، ويتم نعمته على الشاكرين » (الأزدي : تاريخ فتوح الشام ، ص ٢٥٠-٢٥١)

(٢) نص المعاهدة رواها الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٦٠٩ . ويذكر عبد الله التل أن وثيقة الأمان التي عرفت بالعهدة العمرية لم تزل في بطريركية الروم الأرثوذكس في القدس الشريف (خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية ، ص ١٣٠) .

(٣) مجير الدين الحنبلي : الأنس الجليل ، م ١ ، ص ٣٧٩ . وجاء اسمه « العوام » عند الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٦٠٨ .

(٤) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٦٠٨ .

الصخرة ، ولما تحقق من مكانها أزال ما كان عليها من الكُناسة ، ثم استشار كعب الأحبار الذي أسلم في تلك الأيام أين يضع المسجد ، فأشار عليه أن يجعله خلف الصخرة ، فخالفه عمر ﷺ وأمر بإقامته أمام الصخرة [١]، وذلك في قبلي المسجد الأقصى، أي في جهته الجنوبية من ناحية الغرب[٢].

وكانت إقامته ﷺ في بيت المقدس قد امتدت من يوم الاثنين إلى يوم الجمعة ، ثم عاد إلى المدينة[٣]. وقد اختلف في تاريخ فتح بيت المقدس ، فقيل في سنة ١٥ هـ ، وقيل في ربيع الآخر سنة ١٦ هـ[٤]، وذكر البلاذري[٥] إنه في سنة ١٧ هـ .

وقبل أن نغادر فتح بيت المقدس نشير إلى أن المصادر روت جملة من المواقف والقصص التي حصلت لعمر ﷺ خلال رحلته لهذا الفتح ، منها ما رواه الحاكم[٦] وصححه عن طارق بن شهاب قال «خرج عمر بن الخطاب إلى الشام ، ومعنا أبو عبيدة بن الجراح ، فأتوا على مخاضة وعمر على ناقة له ، فنزل عنها وخلع خفيه ، فوضعهما على عاتقه ، وأخذ بزمام ناقته فخاض بها المخاضة ، فقال أبو عبيدة :

---

(١) ابن كثير : خلافة عمر ، ص ٧٢ - ٧٣ . وورد بإسناد حسن عن عبيد بن آدم « قال : سمعت عمر بن الخطاب ﷺ يقول لكعب : أين ترى أن أصلي ؟ فقال : إن أخذت عنى صليتَ خلف الصخرة ، فكانت القدس كلها بين يديك ، فقال عمر ﷺ : ضاهيت اليهودية ! لا ، ولكن أصلي حيث صلى رسول الله ﷺ فتقدم إلى القبلة فصلى ، ثم جاء فبسط رداءه ، فكنس الكناسة في ردائه ، وكنس الناس » (أحمد : المسند ، تحقيق أحمد شاكر ، جـ ١ ، ص ٢٦٨ - ٢٦٩ ؛ ضياء الدين المقدسي : الأحاديث المختارة ، جـ ١ ، ص ٣٥٠ - ٣٥١ ؛ ابن كثير تفسير القرآن العظيم ، جـ ، ص ؛ الهيثمي : مجمع الزوائد ، جـ ٤ ، ص ٦) . راجع الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٦١١ .

(٢) محمد محمد حسن شراب : بيت المقدس والمسجد الأقصى ، ص ٣٤٤ . راجع ابن تيمية : مجموع فتاوى شيخ الإسلام ، جـ ٢٧ ، ص ١١- ١٣ ، ١٣٥-١٣٦ ، ثم راجع شراب : المرجع السابق ، ص ٣٢٢ - ٣٢٣ .

(٣) الأزدي : تاريخ فتوح الشام ، ص ٢٥٩ ، ٢٦٢ .

(٤) ابن كثير : خلافة عمر ، ص ٧٤ . فيما يتعلق بالاختلاف بين سنة ١٥ و ١٦ هـ يمكن أن يوفق بينهما بالقول بأن كتابة الصلح وقعت بالجابية سنة ١٥ هـ ، ثم كان فتح أبواب بيت المقدس في ربيع سنة ١٦ هـ .

(٥) فتوح البلدان ، ق ١ ، ص ١٦٤ ، ١٦٥ .

(٦) المستدرك ، جـ ١ ، ص ٩٠ ؛ الألباني : سلسلة الأحاديث الصحيحة ، جـ ١ ، ص ٨٠ . والظاهر أن ذلك حدث له في الطريق من الجابية إلى بيت المقدس (الأزدي : تاريخ فتوح الشام ، ص ٢٥٢) . وفي رواية أن أبا عبيدة ﷺ قال لعمر ﷺ « لقد صنعت اليوم صنعاً عظيماً عند أهل الأرض ، فصكه عمر في صدره وقال له : لو غيرك يقولها يا أبا عبيدة ، إنكم كنتم أذل الناس ، وأحقر الناس ، وأقل الناس فأعزكم الله بالإسلام ، ومهما تطلبوا العز بغيره يذلكم الله تعالى » (مجير الدين الحنبلي : الأنس الجليل ، م ١ ، ص ٣٧٦) .

يا أمير المؤمنين أنت تفعل هذا ! تخلع خفيك ، وتضعهما على عاتقك ، وتأخذ بزمام ناقتك ، وتخوض بها المخاضة ، ما يسرني أن أهل البلد استشرفوك ! فقال عمر :

أوه [لو] يقل ذا غيرك أبا عبيدة جعلته نكالاً لأمة محمد ﷺ ، إنا كنا أذل قوم فأعزنا الله بالإسلام ، فمهما نطلب العز بغير ما أعزنا الله به أذلنا الله » .

وفي رواية إنه لما جاز المخاضة أتوا ببرذون وثياب بيض وقالوا « يا أمير المؤمنين، اركب هذا البرذون ، فإنه أجمل بك ، وأهون عليك في ركوبك ، ولا نحب أن يراك أهل الذمة في مثل هذه الهيئة التي نراك فيها » ، فنزل عمر ﷺ من ناقته ، وركب البرذون «فلما هملج به [أي سار به بتبختر] نزل عنه وقال : خذوا هذا عني ، فإنه شيطان ! وأخاف أن يغير علي قلبي ، فقالوا : يا أمير المؤمنين لو لبست هذه الثياب البيض ، وركبت هذا البرذون لكان أجمل في المروءة ، وأحسن في الذكر ، وخيراً في الجهاد ، فقال عمر ﷺ : ويحكم لا تعتزوا بغير ما أعزكم الله به فتذلوا » [١].

ومما ذكره بعض الرواة أن عمر ﷺ لما دخل بيت المقدس طلب من البطريرك صفرونيوس أن يدله على محراب داود (الصخرة) ، فأخذه هذا البطريرك إلى كنيسة القمامة (التي يسميها النصارى : القيامة) ، فخطأه عمر ﷺ ، ثم أخذه إلى كنيسة يقال لها صهيون ، فخطأه أيضاً عمر ﷺ[٢].

---

(١) الأزدي : تاريخ فتوح الشام ، ص ٢٥٢-٢٥٣ ؛ الكلاعي : الإكتفاء ، جـ ٣ ، ص ٢٩٤ . ويروي ابن عساكر عن سيف بن عمر عن أبي عمر عن زيد بن أسلم عن أبيه قال « لما دنا عمر من الشام وأخذ طريق أيلة تنحى وتنحى معه غلامه ، فلما أراد الركوب عمد إلى مركب غلامه ، وأن عليه لفرو مقلوب ، فركب وحول غلامه على رحل نفسه ، وهو على جمل أحمر ، وعمر يومئذ متزر بإزار ، ومرتد بعمامة على حقيبة تحته فرو ، وأن العباس لبين يديه على عتيق يتقذى به ، وكان رجلاً جميلاً ، فجعلت البطارقة يسلمون عليه ، ويشير أني لست به وأنه ذاك ، فيسلمون عليه ويرجعون معه ، حتى انتهى إلى أيلة والجابية ، وتوافى إليه بها المسلمون وأهل الذمة ... وركب عمر من الجابية يريد الأردن بعدما قضى ما أراد ، وقد توافى إليه الناس ووقف له المسلمون وأهل الذمة ، فخرج عليهم على حمار ، وأمامه العباس على فرس ، فلما رآه أهل الكتاب سجدوا له ، فقال لا تسجدوا للبشر ، واسجدوا لله ، ومضى في مسيره ، وقال القسيسون والرهبان : ما رأينا أحداً قط أشبه بما يوصف من الحواريين من هذا الرجل ، ثم دخل الأردن على بعيره » (تاريخ مدينة دمشق جـ ٢٦ ، ص ٢٧٥) . وهناك رواية نصرانية تحكي مسيرة عمر إلى بيت المقدس . راجع عبد الله التل : خطر اليهودية العالمية ، ص ١٢٧-١٣٠ .

(٢) مجير الدين الحنبلي : الأنس الجليل ، م ١ ، ص ٣٨٠ . ينقل بعضهم إن عمر ﷺ صلى في كنيسة المهد ببيت لحم (الوكيل : جولة تاريخية في عصر الخلفاء الراشدين ، ص ٢٠٥ . قارن المنهاجي السيوطي : إتحاف الأخصا بفضائل المسجد الأقصى ، تحقيق أحمد رمضان أحمد ، ق ١ ، ص ٢١٣) لكن صلاته ﷺ في هذه الكنيسة يحتاج إلى تثبت ، لأن الذي روى ذلك المؤرخ النصراني ابن البطريق (شفيق جاسر : تاريخ القدس ، ص ١٢٢) وراجع ياقوت : معجم البلدان ، جـ ١ ، ص ٥٢١- ٥٢٢.

ومما يذكر في هذه الرحلة أن عمر ﷺ في آخر يوم من إقامته في الشام قام خطيباً في الناس ، فلما حضرت الصلاة طلب من بلال بن رباح ﷺ أن يؤذن ، «فقال بلال : يا أمير المؤمنين ، أما والله ما أردت أن أؤذن لأحد بعد رسول الله ﷺ ، ولكن سأطيعك اليوم إذ أمرتني في هذه الصلاة وحدها ، فلما أذن بلال ، وسمعت الصحابة صوته ، ذكروا نبيهم ﷺ ، فبكوا بكاءً شديداً ، ولم يكن من المسلمين يومئذ أحد أطول بكاء من أبي عبيدة بن الجراح ، ومعاذ بن جبل رضي الله عنهما حتى قال لهما عمر ﷺ حسبكما رحمكما الله »[1]. ويظهر أن ذلك كان في الجابية بعد رجوع عمر ﷺ إليها قبل عودته إلى المدينة[2].

طاعون عَمَواس واستكمال فتح الشام : عاد أبو عبيدة ﷺ بعد فتح بيت المقدس لاستكمال السيطرة على بلاد الشام ، ونشر الدين الإسلامي فيها ، وفي أثناء إقامته في حمص سنة ١٧ هـ تحركت نحوه جموع من الروم بدعم وتشجيع من أهل بلاد الجزيرة ومن حولهم ، وعزمت على حصاره ، فطلب من خالد بن الوليد ﷺ الذي كان في قنسرين أن يقدم عليه ، وكتب إلى عمر ﷺ يطلب منه المدد ، فبعث عمر ﷺ إلى سعد بن أبي وقاص ﷺ في العراق يأمره بإمداد أبي عبيدة ﷺ أولاً ، وبمهاجمة الجزيرة ثانياً ، فوجه سعد ﷺ على جناح السرعة إلى حمص أربعة آلاف بقيادة القعقاع بن عمرو ، وبعث بجيش آخر لمهاجمة الجزيرة .

وحين علم أهل الجزيرة المحاصرون لحمص مع الروم بتحرك الجيش الإسلامي تجاه بلادهم كروا راجعين إليها ، فبقي الروم وحدهم حول حمص ، فوهنت عزائمهم ، ثم اشتد عليهم الأمر بعد سماعهم أن خليفة المسلمين بصدد التحرك لمساعدة المسلمين في هذه المدينة ، وفي تلك الظروف خرج أبو عبيدة ﷺ واشتبك مع الروم ، فهزمهم هزيمة منكرة ، وشتت شملهم قبل أن يصله المدد بثلاثة أيام .

وفي ذلك الوقت انتشر وباء في الشام ، عرف بطاعون عَمَواس نسبة إلى بلدة صغيرة في فلسطين ظهر فيها هذا الوباء أولاً ، ثم عم بلاد الشام بعد ذلك كلها ، وكان

---

(١) الأزدي : تاريخ فتوح الشام ، ص ٢٥٦ ؛ الكلاعي : الإكتفاء ، جـ ٣ ، ص ٢٩٦ .
(٢) الذهبي : سير أعلام النبلاء ، جـ ١ ، ص ٣٥٧ ؛ مجير الدين الحنبلي : الأنس الجليل ، م ١ ، ص ٣٨٢ .

ذلك في سنة ١٨ هـ عند جمهرة المؤرخين ، وفيه هلك خلق كثير ، وقد قدر بعض الرواة عدد المسلمين الذين قضوا نحبهم في ذلك الوباء بخمسة وعشرين ألفاً ، فكان منهم أبوعبيدة ومعاذ بن جبل وشرحبيل بن حسنة ﷺ[1] .

ولما توفي أبو عبيدة ﷺ قلد عمر ﷺ يزيد بن أبي سفيان ﷺ قيادة الجيش الإسلامي في الشام ، وكتب إليه بالسير إلى قيسارية من فلسطين (على البحر) لفتحها ، ومما جاء في كتابه إليه « أما بعد فقد وليتك أجناد الشام كله ... فاخرج فعسكر بالمسلمين ، ثم سر بهم إلى قيسارية ، فانزل عليها ، ثم لا تفارقها حتى يفتحها الله عليك ؛ فإنه لا ينبغي افتتاح ما افتتحتم من أرض الشام مع مقام أهل قيسارية فيها ، وهم عدوكم وإلى جانبكم ، وإنه لا يزال قيصر طامعاً في الشام ما بقي فيها أحد من أهل طاعته [ممتنعاً] ، ولو قد افتتحتموها قطع الله رجاءه من جميع الشام ، والله عز وجل فاعل ذلك وصانع للمسلمين إن شاء الله »[2] .

فنهض إليها في سبعة عشر ألفاً [3]، فلما دنا منها اشتبك حبيب بن مسلمة بمقدمة الجيش مع فرسانها والمدافعين ، فأجبروه على التراجع ، ثم ضرب عليها المسلمون الحصار ، فكان الروم يخرجون ويقاتلون المسلمين ثم يعودون إلى الاعتصام في مدينتهم ، ومع أن المسلمين أوقعوا بهم أكثر من مرة إلا أنهم لم يستطيعوا دخول المدينة ، وخلال الحصار مرض قائد المسلمين يزيد ﷺ ، فأسند قيادة الجيش لأخيه معاوية بن أبي سفيان ﷺ، وعاد إلى دمشق فلم يمكث إلا يسيراً حتى توفي ، أما معاوية ﷺ فقد استمر في محاصرة قيسارية حتى فتحها الله على يديه[4] .

ثم إن عمر ﷺ كتب إلى معاوية ﷺ يأمره بتتبع ما بقي من فلسطين ، ففتح

---

(١) الأزدي : تاريخ فتوح الشام ، ص ٢٦٧ - ٢٧٢ ؛ الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ، ص ٦٠ - ٦٣ ؛ ياقوت : معجم البلدان ، جـ ٤ ، ص ١٥٧-١٥٨ ؛ ابن كثير : خلافة عمر ، ص ٣٥- ٣٦ . والطاعون ليس المقصود به مرض الطاعون المعروف ، وإنما المقصود به الوباء أياً كان نوعه (كمال : الطريق إلى دمشق ، ص٥٢٩) والملاحظ أن بعض المصادر وصفت هذا الوباء ، فأوضحت أنه أتى على شكل بثور (الذهبي : عهد الخلفاء الراشدين ، ص ١٧٤) .

(٢) الأزدي : تاريخ فتوح الشام ، ص ٢٧٤ ، ٢٧٦ ؛ الكلاعي : الإكتفاء ، جـ ٣ ، ٣١٢ .

(٣) البلاذري : فتوح البلدان ، ق ١ ، ص ١٦٧ .

(٤) الأزدي : تاريخ فتوح الشام ، ص ٢٨٠- ٢٨٣ .

عسقلان صلحاً ، ويقال إن عمرو بن العاص ﷺ كان فتحها ، ثم انتقض أهلها ، وأمدهم الروم ، ففتحها معاوية ﷺ ، وخصص لها حامية لحفظها ، وأسكنها الروابط[١] . وكان ذلك في سنة ١٩ هـ[٢] . وقد واصل معاوية ﷺ غزو بلاد الروم بقية عهد عمر ﷺ[٣] .

جـ ـ فتح الجزيرة الفراتية[٤] : كان الجيش الإسلامي الذي توجه إلى بلاد الجزيرة قد سار بقيادة عياض بن غنم ﷺ ، وكان بصحبته أبو موسى الأشعري ﷺ ، وعمر بن سعد بن أبي وقاص ـ وهو غلام صغير السن ـ ، وعثمان بن أبي العاص ، فنزل الرها فصالحه أهلها على الجزية ، كما صالحته حران على مثل ذلك .

ثم بعث أبا موسى ﷺ إلى نصيبين ، وعمر بن سعد إلى رأس العين ، وسار بنفسه إلى دارا ، فتم افتتاح هذه المدن كلها .

أما عثمان بن أبي العاص فقد بعثه إلى أرمينية ، فجرى بينه وبين أهلها شيء من القتال ، ثم صالحهم على الجزية ، وقد اختلف المؤرخون في السنة التي جرى فيها فتح الجزيرة ، فقيل في سنة ١٧ هـ ، وقيل في سنة ١٩ هـ[٥] ، ولكن من المشهور أنها فتحت كلها في عهد عمر ﷺ ، قال الزهري « لم يبق بالجزيرة موضع قدم إلا فتح على عهد عمر ابن الخطاب ﷺ على يد عياض بن غنم ؛ فتح حران والرها والرقة وقرقيسيا ونصيبين وسنجار »[٦] .

---

(١) البلاذري : فتوح البلدان ، ق ١ ، ص ١٦٩ .
(٢) خليفة بن خياط : تاريخه ، ص ١٤١ .
(٣) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٣ ، ص ٣٨ ، ٧٧ .
(٤) سميت الجزيرة لأنها تقع بين دجلة والفرات ، وتسمى جزيرة أَقُور ، وتشتمل على ديار مضر وديار بكر ، بها مدن جليلة ، وحصون وقلاع كثيرة ، ومن أمهات مدنها حران والرها والرقة ورأس عين ونصيبين وسنجار والخابور وماردين وآمد وميافارقين والموصل وغير ذلك (ياقوت : معجم البلدان ، جـ ٢ ،ص ١٣٤) وهي اليوم تتوزع بين دول ثلاث : العراق وتركيا وسوريا (صلاح الدين المنجد : معجم أماكن الفتوح ، ملحق بكتاب فتوح البلدان ، ص ٧٠٦) .
(٥) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٢ ، ص ٥٣٣ ؛ ابن كثير : خلافة عمر ، ص ٧٦- ٧٧ . وقد وردت روايات عديدة تفصل في فتح بلاد الجزيرة . راجع البلاذري : فتوح البلدان ، ق ٢ ، ص ٢٠٤ - ٢١٢ ؛ ابن الأثير : الكامل ، جـ ٢ ، ص ٥٣٢ - ٥٣٥ . ويحسن التنبيه إلى أن عبد العزيز فياض جرفوش نشر كتاباً بعنوان « تاريخ فتوح الجزيرة والخابور وديار بكر والعراق » تأليف الواقدي . والناظر فيه يتبين له أن هذا الكتاب ماهو إلا قطعة مستلة من كتاب فتوح الشام المنسوب إلى الواقدي ، جـ ٢ ، من ص ٥٩ - ١١٤ . وسبق أن بينا حال هذا الكتاب .
(٦) البلاذري : فتوح البلدان ، ق ١ ، ص ٢٠٧ .

د. فتح مصر وبرقة : كان عمرو بن العاص ﷺ قد دخل مصر في الجاهلية - فيما يبدو - للتجارة ، فعرف طرقها ، وسبر أحوالها السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، وحين قدم عمر ﷺ في سنة ١٨ هـ الجابية من الشام - وهذا غير قدومه الأول لفتح بيت المقدس - فاتحه عمرو ﷺ بفتح مصر ، واستأذنه في ذلك(١) ، لاسيما بعد أن استكمل المسلمون فتح الشام ، يقول الرواة إن عمراً ﷺ قال لعمر ﷺ

« يا أمير المؤمنين ائذن لي أن أسير إلى مصر ، وحرضه عليها ، وقال : إنك إن فتحتها كانت قوة للمسلمين ، وعوناً لهم ، وهي أكثر الأرض أموالاً ، وأعجزها عن القتال والحرب . فتخوف عمر بن الخطاب على المسلمين ، وكره ذلك ، فلم يزل عمرو يعظم أمرها عند عمر بن الخطاب ، ويخبره بحالها ، ويهون عليه فتحها ، حتى ركن لذلك عمر »(٢) .

ولا ريب أن دوافع المسلمين لفتح مصر كانت متوافرة ، فهم يريدون نشر عقيدتهم ، والتمكين لها في كل مكان ، ومن الطبيعي أن يتجه المسلمون لفتح مصر بعد فتح الشام - لا سيما فلسطين - نظراً للصلة القوية بينهما ، ثم إن المسلمين لن يأمنوا على أنفسهم في الشام ما دامت مصر تحت سيطرة الروم ، ففي مصر جيوش ومسالح كثيرة للروم ، وفي سواحلها مراكز انطلاق لأسطولهم البحري الكبير الذي كان يجوب البحر المتوسط بغير منافس .

ثم إن مصر كانت في ذلك الحين مصدر تموين كبير للدولة الرومية ، وسيطرة المسلمين عليها - فوق أنه أمان لحكمهم في الشام - فهو إضعاف لتلك الدولة عموماً ، وضرب لمركز إدارة حكمها في المنطقة كافة على وجه الخصوص(٣) .

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ، تحقيق علي محمد عمر ، ص ٧٤ .

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ، ص ٧٧ . ولقد أكد بعض المؤرخين المحدثين بأن عمراً ﷺ حين استأذن عمر ﷺ في فتح مصر أوضح له أن استيلاء المسلمين عليها معناه تثبيت فتوحهم في الشام ، وتأمينها من ناحية الجنوب ، وأن بقاءها في يد الروم يهدد السيادة الإسلامية في الشام (حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام ، جـ١ ، ص ٢٣٤ ؛ العمري : الفتوح الإسلامية ، ص ١٤١ - ١٤٢) والملاحظ أن المصادر لم تصرح بأن عمراً ﷺ قد أفضى بشيء من هذا لعمر ﷺ ، ولكن مثل هذا الإيضاح وغيره جائز أن يكون عمرو ﷺ تحدث فيه مع عمر ﷺ .

(٣) شكري فيصل : حركة الفتح الإسلامي في القرن الأول ، ص ١١٤ - ١١٧ ؛ العمري : عصر الخلافة الراشدة ، ص ٣٤٣ .

ومثلما مر قبل قليل مازال عمرو ﷺ يراجع عمرَ ﷺ في فتح مصر حتى اقتنع عمر ﷺ بذلك[١]، فعقد لـه على أربعة آلاف رجل، وقيل على ثلاثة آلاف وخمسمائة، فسار عمرو ﷺ بهم نحو مصر في سنة ٢٠ هـ، ودخل من طريق الساحل عبر رفح ثم العريش[٢]، ومنها إلى الفرما أحد المواقع العسكرية للروم شرقي مصر، فكان أول موضع وقع فيه قتال بين عمرو ﷺ والروم، حيث قاتلوه قتالاً شديداً نحواً من شهر، ولكن المسلمين في النهاية تمكنوا من هزيمتهم ودخول الفرما.

ثم توجه إلى بلبيس[٣]، وبعد حوالي شهر من القتال مع الروم ـ أيضاً ـ استطاع المسلمون فتح تلك المدينة. ثم تقدم المسلمون قاصدين حصن بابليون (معقل الروم الرئيس في مصر)، وفي طريقهم إليه اعترضهم الروم عند أم دنين (قرية تندونياس)، ولكن المسلمين هزموهم بعد قتال شديد، واستمروا في تقدمهم حتى وصلوا بابليون[٤]،

---

(١) وردت في بعض المصادر وتبعتها كثير من المراجع الحديثة أن عمر ﷺ أذن لعمرو بن العاص ﷺ بالمسير إلى مصر، وأخبره أنه سيستخير، وسيبعث إليه كتاباً يحدد فيه موقفه فيما بعد، وإن عمر ﷺ ما نشب أن بعث بكتاب إلى عمرو ﷺ بعد مسيره إلى مصر يوجهه بأن يرجع أن لم يكن دخل أرض مصر، وإن كان دخلها فليستمر، ولما جاء الكتاب إلى عمرو ﷺ استبطأ في فتح الكتاب حتى دخل أرض مصر. كما جاءت رواية أخرى تحكي أن عمر ﷺ كتب كتابه هذا على إثر تخويف عثمان ﷺ من تسرع عمرو ﷺ بفتح مصر (ابن عبد الحكم : فتوح مصر، ص٧٧، ٧٩) ولاجرم أن مثل هذا التصرف يدل على تردد وحيرة، وعدم تحرٍ ودراسة، وكل ذلك لا يتوافق مع شخصية عمر بن الخطاب ﷺ، ولا مع منهجه السياسي والعسكري. ثم إنَّ عمراً ﷺ كان قد عرض على عمر ﷺ فتح مصر سنة ١٨ هـ، ولم يأذن لـه إلا في سنة ٢٠ هـ، بمعنى أن التخطيط لفتح مصر أخذ حوالى سنتين.

(٢) يذهب أحمد كمال إلى أن وصول عمرو بن العاص ﷺ العريش كان في آخر سنة ١٩هـ، حيث أدركه عيد النحر فيها (الفتح الإ سلامي لمصر، ص ٢٥٩).

(٣) سار عمرو ﷺ من الفرما إلى مجدل في الصحراء على مقربة من ساحل البحر إلى الجهة المعروفة بالقنطرة الواقعة في قناة السويس الحالية، ثم أخذ في السير إلى الصالحية، فوادي الطليمات بقرب التل الكبير، وإنما اختار عمرو ﷺ هذا الطريق لخلوه من المستنقعات، بخلاف الطريق الآخر الذي يسلكه معظم الفاتحين (حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام، جـ ١، ص ٢٣٥)

(٤) ابن عبد الحكم : فتوح مصر، ص ٧٧، ٨٠- ٨١. يذكر بعض المراجع الحديثة نقلاً عن مصادر قديمة غير عربية أن تيودور قائد الروم خرج في عشرين ألفاً لملاقاة عمرو ﷺ في عين شمس (هليوبوليس)، فوضع لـه عمرو ﷺ كميناً في الجبل الأحمر شرقي العباسية، وآخر على النيل قرب أم دنين، وقابله ببقية الجيش، ولما نشب القتال انقض الكمين الأول على الروم، فعرجوا على أم دنين فقابلهم الكمين الثاني المعسكر بها، وعندئذ صاروا بين فرق المسلمين الثلاث، فقتل كثير منهم، والتجأ من بقي منهم إلى حصن بابليون (ألفرد ج. بتلر : فتح العرب لمصر، تعريب محمد فريد أبو حديد، ص٢٠١-٢٠٥ ؛ حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام، جـ ١، ص٢٣٦) وتذكر المصادر العربية القديمة معركة عين شمس بين المسلمين والروم، ولكن في سياق آخر، وتجعل نتيجتها الصلح بين المسلمين والروم (الطبري : تاريخ الأمم والملوك، جـ ٤، ص ١٠٨ – ١١١ ؛ ابن كثير : خلافة عمر، ص ٨١)

وكان هذا المعقل حصناً منيعاً ، حيث يقع على رأس الدلتا ، فيحف به من جهته الغربية نهر النيل ، أما باقي جهاته فقد حفر حولها خندق يملأ بالماء عند الخطر ، وفوق ذلك كانت تحيط به أسوار عظيمة ، وصروح عالية[١].

حاصر عمرو ﷺ بمن معه من المسلمين حصن بابليون ، فكانت المناوشات تقع بين الجانبين صباحاً ومساءً ، وبمرور الوقت شعر عمرو ﷺ أنه بحاجة إلى عدد أكبر من الرجال لمواصلة الحصار ، فطلب من عمر ﷺ المدد ، فأمده بأربعة آلاف رجل ، وكتب إليه «أني قد أمددتك بأربعة آلاف رجل ، على كل ألف رجلٍ منهم رجلٌ مقام الألف ، الزبير بن العوام ، والمقداد بن عمرو ، وعبادة بن الصامت ، ومسلمة بن مخلد »[٢].

وبوصول هذا المدد كثر جمع المسلمين ، وانتشروا حول الحصن ، وشددوا محاصرته ، وقاتلوا أهله بعزم وإصرار ، فلما استمروا على ذلك مدة رأى المقوقس[٣] ـ قائد الروم ـ أنه لا طاقة له في حربهم ، فخرج من بابليون هو وجماعة من قومه ، ولحقوا بجزيرة في وسط نهر النيل ، ثم أرسل رسلاً إلى عمرو ﷺ وحملهم كتاباً يهدد به المسلمين بقوات رومية كثيفة تقضي عليهم ، ولكن عمراً ﷺ حبس هؤلاء الرسل عنده يومين ليروا حال المسلمين ، ثم أطلق سراحهم ، وحين عادوا إلى المقوقس وسألهم عن المسلمين قالوا

«رأينا قوماً الموتُ أحبُّ إلى أحدهم من الحياة ، والتواضعُ أحب إليهم من الرِفْعة ،

---

(١) بتلر : فتح العرب لمصر ، جـ١ ، ص ١٩١ ، ٢١٠ ، ٢١٨ . راجع حسين مؤنس : أطلس تاريخ الإسلام ، ص١٣٣ .

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ، ص ٨٢- ٨٣ .

(٣) المقوقس لم يكن اسماً لرجل ، وإنما كان لقباً أو مسمى لمن يحكم مصر قبل الفتح الإسلامي ، ومعناه باليونانية المفخم أو المبجل ، وكان المقوقس زمن الفتح كما ورد في المصادر اسمه « قيرس » أو « فيرس » ، وينطق سيروس cyrus ، وهو الحاكم الروماني من قبل هرقل على مصر ، وكان يشغل في الوقت عينه منصب البطريرك الملكاني لكنيسة الإسكندرية ، فاجتمعت في يده السلطتان ، وجدير بالذكر أن هذا المقوقس غير الذي كتب إليه الرسول ﷺ (أحمد عادل كمال : الفتح الإسلامي لمصر ، ص ٨٣ . راجع بتلر : فتح العرب لمصر ، جـ١ ، ص ١٢٢ ، ٢١٩) ويرفض حسين مؤنس أن يكون قيرس هو المقوقس ، لأن قيرس ـ كما يراه ـ رجل دين من فلسطين ندبه هرقل ليتولى إدخال المصريين قسراً في مذهب الروم ، فكان المصريون يكرهونه ، بينما كان المقوقس يتزعم المصريين القبط ، وقد دلل على ما ذهب إليه بمخاطبة الرسول ﷺ له بعظيم القبط (أطلس تاريخ الإسلام ، ص ١٣٣) لكن مر معنا أن المقوقس زمن الفتح غير المقوقس الذي كتب إليه الرسول ﷺ .

ليس لأحدهم في الدنيا رَغبة ولا نَهْمة ، إنما جلوسهم على التراب ، وأكلهم على ركبهم ، وأميرهم كواحد منهم ، ما يُعرف رفيعهم من وضيعهم ، ولا السيد فيهم من العبد ، وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم أحد ، يغسلون أطرافهم بالماء ، ويتخشعون في صلاتهم . فقال عند ذلك المقوقس :

والذي يُحلف به ، لو أن هؤلاء استقبلوا الجبال لأزالوها ، ولا يقوى على قتال هؤلاء أحد »، ثم رأى اغتنام مصالحتهم ، وأرسل إلى عمرو ﷺ أن يبعث إليه من عنده رجالاً يكلمهم ، فأرسل إليه عشرة نفر ، رئيسهم عبادة بن الصامت ﷺ ، ولما دخلوا على المقوقس هاب عبادة ﷺ ، ثم تكلم عبادة ﷺ فأوضح أن رغبة المسلمين وهمهم الجهاد في سبيل الله ، وأن الدنيا لا تهمهم ، إذ نعيمها ليس بنعيم ، ورخاؤها ليس برخاء ، وإنما النعيم والرخاء في الآخرة .

ثم رد المقوقس بكلام تضمن ترهيباً للمسلمين وترغيباً ، ولكن عبادة ﷺ أخذ يبين له أن المسلمين لا يخوفهم ترهيبه ، فإنما هي إحدى الحسنيين النصر أو الشهادة ، ثم قال « وما منا رجل إلا وهو يدعو ربه صباحاً ومساءً أن يرزقه الشهادة ، وألا يرده إلى بلده ولا إلى أرضه ولا إلى أهله وولده ، وليس لأحد منا هَمٌّ فيما خلفه ، وقد استودع كل واحد منا ربه أهلَه وولده ، وإنما همنا ما أمامنا » ، ثم عرض عليه الإسلام أوالجزية أوالقتال .

فتساءل المقوقس إن كانوا يرضون بغير هذه الثلاث ، ولكن عبادة ﷺ رفع يديه قائلاً «لا ، ورب هذه السماء ورب هذه الأرض ورب كل شيء ـ ما لكم عندنا خصلة غيرها ، فاختاروا لأنفسكم » .

ثم قام عبادة ﷺ وأصحابه راجعين بينما بقي المقوقس يقنع كبار قومه بقبول أخف تلك الأمور الثلاثة ، وهو إعطاء الجزية للمسلمين ، ولكنهم رفضوا ذلك بتاتاً ، فرجع المسلمون من جديد إلى محاصرة بابليون ، وتابعوا قتال الروم فيه[١]، فلما مر عليهم سبعة أشهر وهم على تلك الحال دون أن يقتحموا الحصن تطوع الزبير بن العوام ﷺ وقال «إني أهب نفسي لله ، ارجو أن يفتح الله بذلك على المسلمين»، فوضع له سلماً إلى

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ، ص ٨٦ - ٩٢ .

جانب الحصن[١]، وذلك من ناحيته الشمالية الشرقية ، وكان ارتفاع أسواره يقدر بثمانية عشر متراً[٢]، ثم صعد وأمر المسلمين إذا سمعوا تكبيره أن يجيبوه جميعاً ، فما شعروا إلا والزبير ﷺ على رأس الحصن يكبر ، وتكاثر الناس على السلم يصعدون حتى نهاهم عمرو ﷺ خوفاً أن ينكسر[٣].

كذلك في الجانب الآخر من الحصن ، في جهته الجنوبية الشرقية حدث تصرف مماثل[٤]، حيث نصب سلم آخر لشرحبيل بن حُجَيّة المرادي على سور الحصن ، وصعد عليه مع رجال معه[٥]، ويظهر أن تسلق الزبير ﷺ الحصن كان في ليلة الجمعة ٢٩ من ذي الحجة سنة ٢٠ هـ ، ٧ ديسمبر ٦٤١ م ، حيث كان الظلام دامساً لعدم وجود الهلال في آخر الشهر ، فضلاً عن كون الجو بارداً[٦]، إذ يوافق ذلك أوائل فصل الشتاء ، فجنود الروم المحاصرين لابد أنهم كانوا ينشدون الدفء ، فلا يحرصون على الخروج .

على أي حال فبعد صعود الزبير ﷺ ومن معه من شجعان المسلمين الأسوار ، وتكبيرهم من فوقها ـ لم يشك أهل حصن بابليون بأن الجيش الإسلامي اقتحم عليهم ، فاضطرب أمرهم ، فهبط الزبير ﷺ وأصحابه إلى الداخل ، وعمدوا إلى فتح أبواب الحصن ، فدخل بقية الجيش ، ففر الروم من أمامه ، وعرض المقوقس على المسلمين الصلح ، فرفضوه بداية حتى ذكرهم عمرو ﷺ بوصية الخليفة في مثل هذه الحالة ، فاجتمع عمرو ﷺ بالمقوقس ، فكتب له ولمن تحت حكمه الأمان ، وفرض عليهم الجزية ، مقدارها ديناران عن كل نفس شريفهم ووضيعهم من بلغ الحلم منهم ، دون الشيخ الفاني والصغير والنساء[٧].

---

(١) المصدر نفسه ، ص ٨٥ ؛ ياقوت : معجم البلدان ، جـ ٤ ، ص ٢٦٢ . ويروى عن هشام بن عروة أن الزبير بن العوام ﷺ قيل له لما بعث إلى مصر «إن بها الطعن والطاعون ، فقال : إنما جئنا للطعن والطاعون » (البلاذري : فتوح البلدان ، ق ١ ، ص ٢٥٠) .
(٢) كمال : الفتح الإسلامي لمصر ، ص ٢٩٨ .
(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ، ص ٨٥ ، ٨٦ .
(٤) كمال : الفتح الإسلامي لمصر ، ص٢٩٨ .
(٥) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ، ص ٨٦ .
(٦) كمال : الفتح الإسلامي لمصر ، ص ٢٩٨ .
(٧) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ، ص ٨٥ ، ٩٢ - ٩٣ . راجع كتاب الصلح في الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ٤ ، ص ١٠٩ .

لقد كان حصن بابليون القاعدة العسكرية الكبرى للروم في الداخل ، وقد شحنوه بالجنود لإحكام سيطرتهم على البلاد ، وضمان طاعة أهلها لهم[١] ، وبسقوطه في أيدي المسلمين صار الباب مفتوحاً أمامهم للانسياح بسهولة في أراضي مصر السفلى والعليا [٢] .

فقد وجه عمرو ﷺ طائفة من القادة لفتح المدن والقرى المصرية القريبة[٣] ، ثم سار على رأس جيشه نحو الإسكندرية شمالاً ، وقد غدا له القبط أعواناً ، حيث أصلحوا للجيش الإسلامي الطرق ، وأقاموا له الجسور ، ففتح في طريقة عدداً من الحصون ، فكان من أبرزها حصن الكِرْيَون الذي كان آخر حلقة الحصون الرومية الممتدة بين بابليون والإسكندرية ، وقد تحصن فيه القائد الرومي تيودور (الأرطبون) الفار من بابليون ، فقاتل المسلمين قتالاً شديداً ، ولما دارت عليه الدائرة ، وانتصر عليه المسلمون انقلب على عقبيه إلى الإسكندرية ، واحتمى بها مع فلوله المنهزمة[٤] . وقد قدرت المدة التي قضاها المسلمون في تلك المواجهات مع الروم منذ انطلاقهم من بابليون بستة أشهر[٥] .

كانت الإسكندرية ذات سورين محكمين ، فيهما عدة أبراج فوقها منجنيقات ، ويحيط بها خندق يملأ بالماء عند الخطر ، وكانت أبوابها ثلاث طبقات من الحديد[٦] ، فكانت بذلك من أشد المدن حصانة ، فهي على حد تعبير ابن عبد الحكم[٧] «حصون مبنية لا ترام ، حصن دون حصن »، وكانت في الوقت ذاته مفتوحة على البحر مما يمنح المتحصنين فيها الإمدادات إن احتاجوا إلى ذلك ، وفرصة الهرب منها في حالة اقتحام المسلمين لها ، لاسيما في هذه المرحلة المبكرة من تاريخ المسلمين ، أي قبل أن يكون لهم

---

(١) حسين مؤنس : أطلس تاريخ الإسلام ، ص ١٣٣ . راجع كمال : الفتح الإسلامي لمصر ، ص ٢٦٣ .
(٢) شكري فيصل : حركة الفتح الإسلامي ، ص ١٢٢ .
(٣) البلاذري : فتوح البلدان ، ق ٣ ، ص ٢٥٤ .
(٤) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ، ص ٩٦-٩٧ ؛ بتلر : فتح العرب لمصر ، جـ ١ ، ص ٢٥٠-٢٥٣ ؛ حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام ، جـ ١ ، ص ٢٣٨ .
(٥) كمال : الفتح الإسلامي لمصر ، ص ٣١٣ .
(٦) الشامي : الخلفاء الراشدون ، ص ٢٤٦ .
(٧) فتوح مصر ، ص ٩٧ .

أسطول حربي مشارك في البحر المتوسط .

إذن وصلت الفلول الرومية المنهزمة إلى الإسكندرية التي كانت قد استعدت لمقاومة المسلمين بعد أن بعث إليها الإمبراطور الرومي هرقل بجند من قبله[١]، فبلغت حاميتها عندئذ خمسين ألفاً حسب تقدير بعض المصادر غير العربية[٢].

أما المسلمون فقد تابعوا زحفهم حتى وصلوا الإسكندرية ، حيث نزلوا عند أسوارها الشرقية والجنوبية الشرقية ، وهي المنطقة الخالية من البحيرات والترع[٣]، وكان عددهم فيما يبدو اثني عشر ألفاً[٤]، فضربوا عليها الحصار ، فدارت بينهم وبين الروم المحاصرين اشتباكات متفرقة دون نتائج حاسمة[٥]، ولما طال وقوف المسلمين أمام الإسكندرية قيل ثلاثة أشهر[٦]، وقيل ستة أشهر[٧]، وقيل أربعة عشر شهراً[٨](سنة وشهران) ـ قال عمر بن الخطاب ﷺ « ما أبطأوا بفتحها إلا لما أحدثوا » .

وقد كتب إلى عمرو ﷺ « أما بعد ، فقد عجبت لإبطائكم عن فتح مصر ، إنكم تقاتلونهم منذ سنتين ، وما ذلك إلا لما أحدثتم وأحببتم من الدنيا ما أحب عدوكم ، وإن الله تبارك وتعالى لا ينصر قوماً إلا بصدق نياتهم ، وقد كنت وجهت إليك أربعة نفر ،

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ، ص ٩٩ . كانت الإسكندرية بالنسبة للروم العاصمة الثانية بعد القسطنطينية (الشامي : الخلفاء الراشدون ، ص ٢٤٥) تدل على ذلك تصريحات هرقل لما سمع باقتراب المسلمين منها ، حيث يقول « لئن ظهرت العرب على الإسكندرية ، إن ذلك انقطاع ملك الروم وهلاكهم ، لأنه ليس للروم كنائس أعظم من كنائس الإسكندرية ويقول أيضاً « لئن غلبونا على الإسكندرية لقد هلكت الروم ، وانقطع ملكها » ، وقال كذلك « ما بقاء الروم بعد الإسكندرية ؟ » (ابن عبد الحكم : فتوح مصر ، جـ ١ ، ص ٩٩) .

(٢) بتلر : فتح العرب لمصر ، جـ ١ ، ص ٢٥٥ .

(٣) شكري فيصل : حركة الفتح الإسلامي ، ص ١٢٤ .

(٤) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام ، جـ ١، ص ٢٣٨ ؛ الشامي : الخلفاء الراشدون ، ص ٢٤٦ .

(٥) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ، ص ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٠ .

(٦) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ، ص ٩٥ ؛ البلاذري : فتوح البلدان ، ق ١ ، ص ٢٥٩ ، ابن الأثير : الكامل ، جـ٢ ، ص ٥٦٧ . ويذكر بعض الكتاب المحدثين أن مدة الحصار كانت أربعة أشهر (العمري : الفتوح الإسلامية ، ص ١٤٥) .

(٧) المقريزي : المواعظ والاعتبار ، جـ ١ ، ص ١٦٥ .

(٨) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ، ص ١٠٣ . ومما يروى أن المقوقس في أثناء الحصار قام بمحاولة لعقد هدنة مع المسلمين ، ولكن عمراً ﷺ رفض ذلك ، ثم لجأ إلى طلب الصلح ، فسخط عليه هرقل لما استشاره في ذلك ، كما غضب عليه الروم في الإسكندرية (المصدر نفسه ، ص ٩٣-٩٤ ، ٩٥- ٩٦ ؛ البلاذري : فتوح البلدان ، ق ١ ، ص ٢٥٦ ، ٢٥٩ ؛ ابن الأثير : الكامل ، جـ ٢ ، ص ٥٦٧)

وأعلمتك أن الرجل منهم مقام ألف رجل على ما كنت أعرف ، إلا أن يكونوا غيَّرهم ما غيَّر غيرهم ، فإذا أتاك كتابي هذا فاخطب الناس ، وحضهم على قتال عدوهم ، ورغبهم في الصبر والنية ، وقدم أولئك الأربعة في صدور الناس ، ومر الناس جميعاً أن يكون لهم صدمة كصدمة رجل واحد ، وليكن ذلك عند الزوال يوم الجمعة ، فإنها ساعة تنزل فيها الرحمة ووقت الإجابة ، وليعج الناس إلى الله ، ويسألوه النصر على عدوهم » .

فلما أتى عمرو ﷺ الكتاب ، قرأه على الناس ، وفي يوم جمعة دعا أولئك الأربعة فقدمهم ، وأمر الناس بالصلاة والإلحاح بالدعاء لله عز وجل ، وجعل اللواء بيد عبادة بن الصامت ﷺ أحد أولئك الأربعة ، فخاض المسلمون معركة عنيفة مع الروم تمكنوا بعدها من فتح المدينة[١]، وكان ذلك ـ في أظهر الأقوال ـ سنة ٢١ هـ[٢]، ويقدر أحد الدارسين فتحها في ٢٩ رمضان من تلك السنة[٣].

وبفتح الإسكندرية[٤] يكون المسلمون قد أكملوا فتح البلاد المصرية ، وبسطوا سيطرتهم عليها ، إذ كانوا خلال حصارهم الطويل لها ـ فيما يظهر ـ تنطلق قواتهم هنا

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ، ص ١٠٢- ١٠٣ .

(٢) المقريزي : المواعظ والاعتبار ، جـ ١ ، ص ١٦٥ .

(٣) كمال : الفتح الإسلامي لمصر ، ص ٣٢٨ . ولعله من المناسب أن نذكر لقاء معاوية بن حديج لعمر ﷺ في المدينة حين ذهب رسولاً من عمرو بن العاص ﷺ يخبره بفتح الإسكندرية ، إذ فيه كشف لجوانب من منهج وحياة عمر ﷺ خليفة المسلمين آنذاك ، فلقد ذكر معاوية بن حديج أنه لما وصل المدينة في وقت الظهيرة دخل المسجد ، فرأته جارية لعمر ﷺ ، فلما علمت أنه رسول عمرو بن العاص ﷺ أخبرت عمر ﷺ ، فاستدعاه إلى منزله ، ويحكي معاوية أنه عندما دخل على عمر ﷺ قال « ما عندك ؟ فقلت : خير يا أمير المؤمنين ، فتح الله الإسكندرية ، فخرج معي إلى المسجد ، فقال للمؤذن : أذن في الناس ، الصلاة جامعة ، فاجتمع الناس ، ثم قال لي : قم فأخبر أصحابك ، فقمت فأخبرتهم ، ثم صلى ودخل منزله واستقبل القبلة فدعا بدعوات ، ثم جلس فقال : يا جارية ! هل من طعام ؟ فأتت بخبز وزيت ، فقال : كُلْ ، فأكلتُ على حياء ، ثم قال : كُلْ ، فإن المسافر يحب الطعام ، فلو كنت آكلا لأكلت معك ، فأصبت على حياء ، ثم قال : يا جارية ! هل من تمر ؟ فأتت بتمر في طبق ، فقال : كُلْ ، فأكلت على حياء ، ثم قال : ماذا قلت يا معاوية حين أتيت المسجد ؟ قلت إن أمير المؤمنين قائل [أي تيقنت أن أمير المؤمنين نائم في وقت القيلولة] ، قال : بئس ما قلت ، أو بئس ما ظننت ! لئن نمت النهار لأُضَيعنّ الرعيةَ ، ولئن نمت الليل لأضيعن نفسي ، فكيف بالنوم مع هذين يا معاوية ؟ »(ابن عبد الحكم : فتوح مصر ، ص١٠٥) .

(٤) اتهم بعض المؤرخين القدامي المتأخرين عمرو بن العاص ﷺ بأمر من عمر ﷺ بإحراق مكتبة الإسكندرية ، وقد ناقش عدد من الكتاب المحدثين هذه التهمة ، وأثبتوا بطلانها بأدلة مقنعة (عباس محمود العقاد : عبقرية عمر ـ المجموعة الكاملة لمؤلفات العقاد ـ م ١ ، ص ٥٨٤- ٥٩٢ ؛ حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام ، جـ ١ ، ص٢٤١-٢٤٦ ؛ صبرة والحناوي : دراسات في تاريخ الخلفاء الراشدين ، ص ١٦١- ١٦٢) .

وهناك لفتح القرى والمدن القريبة ، فكانت مصر حسب تعبير أحد الرواة ((كلها صلح إلا الإسكندرية فإنها فتحت عنوة »[١].

لقد مثل فتح مصر قفزة مهمة للمسلمين نحو قارة جديدة (إفريقيا) ، إذ ربطت مصر بينهم وبين هذه القارة ، ودفعتهم لمتابعة افتتاح بقية ولايات الإمبراطورية الرومية في الشمال الإفريقي ، ووسعت من مساحة أراضيهم المطلة على البحر المتوسط ، وكان فتحها عاملاً مؤثراً بعد ذلك في صياغة البحرية الإسلامية وتأسيسها[٢].

ونظراً لكون ولاية برقة التي تشمل لوبية ومراقية ـ تعد امتداداً لمصر في تلك الحقبة ، أو بتعبير الرواة القدامى أنهما « كورتان من كور مصر الغربية »ـ فقد سار إليها عمرو بن العاص ﷺ على رأس فرسانه بعد استكماله فتح مصر[٣]، وقد كانت وقتئذ ولاية شبه مستقلة عن الدولة البيزنطية ، وكان يسكنها بطون من قبيلة لواته (من البربر البتر)[٤]، فلما وصلها لم يلقَ حرباً ، فصالح أهلها على الجزية[٥].

وبعد ذلك عزم على فتح إقليم طرابلس المتصل ببرقة ، فكان عليه أن يجهز جيشين ، الأول يسير بحذاء الساحل لفتح طرابلس المدينة تحت قيادته ، والآخر يتجه نحو الواحات الداخلية لتأمين خط رجعته بقيادة عقبة بن نافع[٦]، فسار عقبة عبر الصحراء ، ففتح فزان ، ثم زويلة ، ومن ثم أصبحت المنطقة بين برقة وزويلة مأمونة الجانب .

أما عمرو ﷺ فقد زحف بجيشه عبر الساحل ، ففتح عدة مواضع حتى وصل إلى مدينة طرابلس التي كانت محاطة بأسوار منيعة من سائر جهاتها ما عدا جهتها الشمالية المطلة على البحر ، فضرب عليها الحصار لمدة شهر إلى أن يسر الله لبعض جنوده النفاذ إليها من جهة البحر بعد إن انحسرت مياهه ، فدخلوها مكبرين ، ففزع من بها من الروم ، وانطلقوا بسفنهم هاربين ، فدخلها بقية الجيش الإسلامي ، وكان ذلك في سنة

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ، ص ١٠٩ .
(٢) شكري فيصل : حركة الفتح الإسلامي ، ص ١٣١- ١٣٢ .
(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ، ص ١٩٧ .
(٤) السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المغرب في العصر الإسلامي ، ص ٥٧.
(٥) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ، ص ١٩٧ ؛ البلاذري : فتوح البلدان ، ق ١ ، ص ٢٦٤ .
(٦) سالم : تاريخ المغرب ، ص ٥٨ .

٢٢ هـ في رواية ، أو في سنة ٢٣ هـ في رواية أخرى(١) .

وبعد فتح طرابلس كتب عمرو ﷺ إلى عمر ﷺ يبشره بذلك ويستأذنه بالمسير إلى إفريقية (تونس الحالية) ، فقال في كتابه إليه « إن الله قد فتح علينا أطرابلس [طرابلس] ، وليس بينها وبين إفريقية إلا تسعة أيام ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يغزوها ، ويفتحها الله على يديه ، فعل»، بيد أن الخليفة عمرَ ﷺ رفض رفضاً قاطعاً غزوها ، فكتب إليه يقول « لا ! إنها ليست بإفريقية ، ولكنها المفرقة ، غادرة مغدور بها ، لايغزوها أحد ما بقيت»(٢) .

فعمر ﷺ في رفضه فكرة فتح إفريقية في تلك الأيام ـ خشي على جنود المسلمين أن يتبعثروا في هذه المناطق الشاسعة ، وهم بعد لم يثبتوا أقدامهم ، ولم يوطدوا سلطانهم في المناطق التي فتحوها سواء في مصر ، بل حتى في الشام قبلها (٣) . وهذا منهج حرص عمر ﷺ على تطبيقه في كافة الجبهات التي كان المسلمون يجاهدون فيها .

وبأمر عمر ﷺ وقف القتال على حدود إفريقية في هذه المرحلة يكون المسلمون قد دحروا الإمبراطورية الرومية في عدد من المعارك الحاسمة ، وانتزعوا منها ولايتين من أعز أملاكها ـ الشام ومصر ـ اللتين لم تمكثا أن تحولتا بعد زمن وجيز إلى الإسلام ، وغلبت اللغة العربية فيهما على اللغات الأخرى ، فتحولتا إلى بلاد عربية .

ثانياً .إنشاء ديوان(٤) العطاء: لم يكن على عهد رسول الله ﷺ بيت مال للمسلمين ، إذ كان ﷺ إذا أتاه فيء قسمه في يومه ، وقد ظل الوضع على ذلك في عهد أبي بكر ﷺ . وفي خلافة عمر ﷺ تدفقت الأموال بسبب كثرة الفتوح ، كما زادت نفقات الدولة الإسلامية ، فاحتاج الأمر إلى الاحتفاظ بفائض المال ، وتنظيم الواردات

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ، ص ١٩٧- ١٩٩ ؛ البلاذري : فتوح البلدان ، ق ١ ، ص ٢٦٤- ٢٦٥ .
(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ، ص ١٩٩- ٢٠٠ . راجع البلاذري : فتوح البلدان ، ق ١ ، ص ٢٦٦ .
(٣) أحمد مختار العبادي : في تاريخ المغرب والأندلس ، ص ٣٨ .
(٤) كلمة الديوان كلمة فارسية معناها سجل أو دفتر ، وأطلق اسم الديوان من باب المجاز على المكان الذي يحفظ فيه الديوان (حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام ، جـ ١ ، ص ٤٤٤) وكذلك أطلق على مكان جلوس العمال المباشرين له (ابن خلدون : المقدمة ، نشر خليل شحادة ، ص ٣٠٢) وقيل في أصل التسمية أن كسرى اطلع على كتابه فرآهم يحسبون مع أنفسهم ، فقال : ديوانه ، أي مجانين ، أو شياطين لحذقهم بالأمور ، ثم حذفت الهاء بكثرة الاستعمال (الماوردي : الأحكام السلطانية ، ص ١٩٩ ؛ ابن خلدون : المقدمة ، ص ٣٠٢)

والمصروفات ، فاستحدث عمر ﷺ بيت المال في العاصمة المدينة ، كما أُستحدثت أيضاً بيوت الأموال في الأمصار .

وحين أراد ﷺ توزيع الأموال التي صارت ترد بكثرة إلى بيت المال أشير عليه بإنشاء الديوان ، وهو كتابة أسماء المستحقين للعطاء ، سواء من المجاهدين المشاركين في الفتوحات ، أو من غيرهم من المسلمين ، وبجانب ذلك تسجيل مقدار أعطياتهم[١] .

وقد ذكر أن الذين أشاروا على عمر ﷺ بالديوان هم بعض الصحابة بناء على ما شهدوه في بلاد الفرس والروم[٢] ، وقيل الذي عرض فكرة الديوان القائد الفارسي الهرمزان الذين كان المسلمون قد أسروه في تستر ، وقدموا به إلى المدينة[٣] .

ومن المرجح أن تدوين الديوان قد بدأ العمل فيه في حدود سنة ١٧ هـ[٤] ، ولعل إنجازه كاملاً وبشكل دقيق لم يتم إلا في سنة ٢٠ هـ ، وذلك بعد إن استقرت الأوضاع ، واتضحت أبعاد الفتوح ، وبنيت القواعد الإسلامية في البلاد المفتوحة ، وتحددت موارد الدولة المالية[٥] .

أما ترتيب الديوان فقد جعله عمر ﷺ يرتكز على أساسين .

الأول : القرابة من النبي ﷺ .

والثاني : السابقة إلى الإسلام[٦] .

وقد كلف عمر ﷺ عقيل بن أبي طالب ، ومخرمة بن نوفل ، وجبير بن مطعم بكتابته[٧] ، « وكانوا من نساب قريش»[٨] .

---

(١) العمري : عصر الخلافة الراشدة ، ص ٢٠٨ ، ٢١٠ ، ٢١٢ ، ٢١٣ .
(٢) الماوردي : الأحكام السلطانية ، ص ١٩٩ ، ٢٠٠ . يلاحظ أن عمر ﷺ نقل فكرة الديوان من الفرس والروم الذين كانوا في صراع عنيف مع المسلمين وقتها ، لأن مثل هذه التنظيمات العملية تصب في مصلحة المسلمين وقوتهم ، ولا تتعارض مع شيء من دينهم . راجع (بلتاجي : منهج عمر بن الخطاب في التشريع ، ص ٣٢٩) .
(٣) العمري : عصر الخلافة الراشدة ، ص ٢١٢ – ٢١٣ . وانظر رأي محمد ضياء الدين الريس : الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية ، ص ١٣٩ ، حاشية ١ .
(٤) العمري : عصر الخلافة الراشدة ، ص ٢١٢ . ومما يذكره المؤرخون سبباً مباشراً لإنشاء الديوان المال الذي قدم به أبو هريرة ﷺ من البحرين إلى المدينة ، وكان مقداره خمسمائة ألف (البلاذري : فتوح البلدان ، ق ٣ ، ص٥٥٤) .
(٥) عبد العزيز عبد الله السلومي : ديوان الجند ، ص ١٠١ .
(٦) الماوردي : الأحكام السلطانية ، ص ٢٠٠ . راجع قلعه جي : موسوعة فقه عمر ، ص ٥٣٧ .
(٧) البلاذري : فتوح البلدان ، ق ٣ ، ص ٥٤٩ .
(٨) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ، ص ٢٠٩ - ٢١٠ .

وعلى حسب الترتيب الذي قرره عمر ﷺ فقد ابتديء بالحسن والحسين.

ثم الأقرب فالأقرب . ثم قدم المهاجرين الأولين ، فبدأ بأهل بدر منهم ، ثم أحد ... الخ .

وكان مما قاله حينذاك «ومن أسرع في الهجرة أسرع به العطاء ، ومن أبطأ في الهجرة أبطأ به العطاء ، فلا يلومن رجل إلا مناخ راحلته ».

ومما صح ـ على سبيل التمثيل ـ أن زوجات النبي ﷺ وصل كل واحدة منهن من العطاء في عهد عمر ﷺ عشرة آلاف درهم في السنة ، ثم زيد إلى اثني عشر ألفاً ، وقد وصل المهاجرين والأنصار من العطاء لكل واحد منهم في السنة أربعة آلاف درهم ، ثم زاد المهاجرين بعد ذلك ، فصار للواحد منهم خمسة آلاف درهم . وفرض لكل مولود مائة درهم . أما الموالي فقد فرض لأشرافهم المسلمين ألفي درهم[1] .

ولعل سياسة التفضيل في العطاء القائمة على القرب من الرسول ﷺ والسابقة في الإسلام قصد منها عمر ﷺ دعم تلك الفئة التي قامت على أكتافها صرح الدولة الإسلامية ، زد على ذلك كونها أكثر فقهاً والتزاماً بالشرع ومقاصده ، وأكثر ورعاً وصلاحاً في التعامل مع المال من حيث الكسب والإنفاق . « ودعم هذه الفئة اقتصادياً يقوي نفوذها في المجتمع ، ويجعلها أقدر على القيام بالمعروف والنهي عن المنكر ، ويحقق مقصد الحديث (اليد العليا خير من اليد السفلى) »[2].

ويبدو أن سياسة التفضيل في العطاء حققت مقاصدها في آخر حياة عمر ﷺ ، فأراد العدول عنها إلى المساواة ، إذ نقل عنه بسند صحيح قوله « لئن عشت إلى هذا العام المقبل لألحقن آخر الناس بأولهم ، حتى يكونوا ببّاناً واحداً » [3].

وليضمن ـ بعد الله سبحانه ـ استمرار العطاء للمسلمين ، ويوفر مصدراً ثابتاً لبيت المال ـ فقد تدارس عمر ﷺ مع الصحابة ﷺ ملكية الأراضي المفتوحة مبدياً رأيه في بقائها

---

(١) العمري : عصر الخلافة الراشدة ، ص ٢١٣ - ٢١٥ .

(٢) العمري : عصر الخلافة الراشدة ، ص ٢١٦ .

(٣) ابن زنجويه : الأموال ، جـ ٢ ، ص ٥٧٦ . وقوله بباناً واحداً : أي شيئاً واحداً (المصدر نفسه ، جـ ١ ، ص١٩٠ حاشية)

تحت نظر الدولة ، وعدم قسمتها بين الفاتحين ، حيث ورد بسند حسن عن زيد بن أسلم عن أبيه أسلم قال «سمعت عمر ﷺ يقول : اجتمعوا لهذا المال ، فانظروا لمن ترونه ، ثم قال لهم : إني أمرتكم أن تجتمعوا لهذا المال فتنظروا لمن ترونه ، وإني قد قرأتُ آياتِ من كتاب الله ؛ سمعت الله يقول:

﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴿٨﴾ ﴾ (الحشر ، آية ٧ ، ٨) .

والله ما هو لهؤلاء وحدهم ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ (الحشر ، آية ٩) .

والله ما هو لهؤلاء وحدهم ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ ﴾ الآية (الحشر، آية ١٠).

والله ما من أحد من المسلمين إلا وله حق في هذا المال ، أعطي منه أو منع حتى راعٍ بعدن»[(١)].

ولاريب أن هذا الإجراء بجانب توفيره مصدر دائم للعطاء فقد مكن الدولة الإسلامية من تجهيز الجيوش الكبيرة لمواصلة الفتوحات ، وكذلك القيام بالإصلاحات

---

(١) البيهقي : السنن الكبرى ، جـ ٦ ، ص ٣٥١ ؛ محمد ناصر الدين الألباني : أرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل ، جـ ٥ ، ص ٨٤-٨٥ . يقول ابن زنجويه «الخيار في أرض العنوة إلى الإمام ؛ إن شاء جعلها غنيمة ، فخمس وقسم ، وإن شاء جعلها فيئاً عاماً للمسلمين ، ولم يخمس ولم يقسم » (الأموال ، جـ ١ ، ص ١٩٦) ففعل النبي ﷺ في خيبر كان طبقاً لآية الغنيمة في قوله تعالى ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ ... الآية ﴾ (الأنفال ، آية ٤١) بينما فعل عمر ﷺ كان طبقاً لآية الفيء المذكورة أعلاه ، فهما آيتان فيما يناله المسلمون من أموال الكفار (قلعه جي : موسوعة فقه عمر ، ص ٦٣) وقد ناقش محمد بلتاجي هذه المسألة مناقشة مفصلة ، وتوصل إلى أن حكم الغنيمة الوارد في سورة الأنفال كان مطبقاً بوضوح منذ أيام الرسول ﷺ على الأموال المنقولة من ذهب وفضة وجوهر ومتاع وسلاح ، أما الأرض المفتوحة فلم يكن الأمر فيها بمثل هذه الوضوح ، فالرسول ﷺ قسم أرض بني قريظة ، وترك أرض مكة ، وأقر أهل خيبر ووادي القرى على نصف الثمر، وذلك بعد أن نقل أصل مالكيتها للمحاربين ، وكل هذه الأراضي فتحت بعد قتال ، ويدلل بلتاجي صحة هذا الرأي أن كبار الصحابة ﷺ من الذين هم أعلم الناس بأفعال الرسول ﷺ كانوا في أثناء الفتوحات يقسمون الأموال المنقولة حسب ما جاء في آية الغنيمة دون الرجوع إلى الخليفة بينما كانوا يتوقفون في قسمة الأرض بين المحاربين ليسألوه في شأنها . وقد خلص في النهاية إلى أن ملكية الأرض المفتوحة كانت من القضايا التي أحيلت إلى الإجتهاد (منهج عمر بن الخطاب في التشريع ، ص ١١٣-١٤٧) .

المتنوعة التي تخدم المسلمين ، كما صرف أفراد الجيش الإسلامي عن الانشغال بتلك الإراضي ، وركز همهم للعمل العسكري ، وفي المقابل ربط الفلاحين القدامي بأرضهم ، واستفاد من خبرتهم في استمرار الزراعة وازدهارها في البلاد المفتوحة[١] .

ثالثاً ـ وضع التقويم الإسلامي (الهجري) : لم يكن للعرب قبل الإسلام تقويم محدد يؤرخون فيه ، فكانت إذا وقعت واقعة كبيرة اتخذوها أساساً لحساب الأيام بعدها كما في حادثة الفيل ، وحرب الفِجار ، وحرب البسوس وداحس والغبراء وغيرها [٢] .

ولقد كان المسلمون في عصر الرسول ﷺ وصاحبه أبي بكر ﷺ يؤرخون كل سنة باسم الحادثة التي وقعت فيها ، فسميت السنة الأولى من سني مقام النبي ﷺ بالمدينة «الإذن بالرحيل» أي من مكة إلى المدينة ، والثانية «سنة الأمر بالقتال»، والثالثة « سنة التمحيص»، وهكذا [٣] .

فلم يصلوا في التأريخ بهذه الطريقة إلى وضع تقويم ثابت يعتمد عليه في تدوين الحوادث والأخبار ، أو تحديد تأريخ الكتب والمراسلات .

وفي عهد عمر ﷺ توسعت الدولة الإسلامية ، فكثرت المراسلات مع عمال الأمصار[٤] ، وتكررت قسمة الأموال ، فظهرت الحاجة إلى ضبط ذلك بتحديد تأريخ ثابت يعتمده الجميع[٥] .

وقد روى المؤرخون أن السبب المباشر الذي جعل عمر ﷺ يجمع الصحابة ، ويتداول معهم الرأي والمشورة لوضع تقويم معتبر للمسلمين هو ما كتبه أبو موسى الأشعري ﷺ ـ وهو والٍ في العراق ـ إليه « إنه تأتينا منك كتب ليس لها تأريخ » . وقيل في رواية أخرى إنه «رفع إلى عمرﷺ صك محله شعبان ، فقال : أي شعبان ؟ الذي هو آت ، أو الذي نحن فيه ؟ »[٦] .

---

(١) العمري : عصر الخلافة الراشدة ، ص ١٧٩ .

(٢) السخاوي : الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ ، تحقيق فرانز روزنثال ، ص ١٣٣ ، ١٣٧ ؛ المقريزي : الخطط ، جـ ١ ، ص ٢٨٤ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ١٣٥ .

(٤) الملاح : الوسيط في السيرة ، ص ٣٩٣ .

(٥) السخاوي : الإعلان بالتوبيخ ، ص ١٣٤ .

(٦) الطبري : تاريخ الأمم ، جـ ٢ ، ص ٣٨٨ .

كما روي أن يعلى بن أمية كتب من اليمن كتاباً مؤرخاً ، فاستحسنه عمر ﷺ [١].
وقيل إن رجلاً قدم من اليمن فقال لعمر « رأيت باليمن شيئاً يسمونه التأريخ ، يكتبون من عام كذا ، وشهر كذا ، فقال عمر : إن هذا لحسن ! »[٢].

ومهما كان السبب فقد جمع عمر ﷺ المهاجرين والأنصار واستشارهم في الأمر ، حيث ورد أن بعضهم عرض التأريخ بتقويم الروم ، وعرض آخرون أن يؤرخوا بتأريخ الفرس ، فكره ذلك عمر ﷺ [٣].

وارتفعت أصوات تنادي بالتأريخ بمولد النبي ﷺ ، وأخرى بمبعثه ، وثالثة تقول بوفاته ، فلم تجد هذه الأراء قبولاً لدى عمر . فقال علي بن أبي طالب ﷺ : من حين خرج مهاجراً ، فوافق عمر على ذلك[٤]. ولقد ثبت قول سهل بن سعد ﷺ «ما عدوا من مبعث النبي ﷺ ، ولا من وفاته ، ما عدوا إلا من مقدمه المدينة »[٥]. ثم وقفوا عند أي شهر يبدأون هل برجب أم برمضان ، فقال عثمان ﷺ «أرخوا من المحرم ، فإنه شهر حرام ، وهو أول السنة ، ومنصرف الناس من الحج » . فاتفقوا على المحرم[٦] . وقد تم ذلك سنة ١٦ هـ[٧].

إن رفض عمر الموافقة على الأخذ بتقاويم الأمم المجاورة لما عرضت عليه ، وكرهه أن تكون تقويماً للمسلمين ، رغم أن تلك الأمم عرفت في ذلك الزمان بتقدمها في المجالات المادية ، والخبرات المدنية ـ ليؤكد وعيه ﷺ العميق ، وإدراكه التام بوجوب تميز الأمة الإسلامية في شخصيتها عن غيرها من الأمم ، فالتقويم ـ كما هو معلوم ـ يحتاجه الحاكم والمحكوم ، ويستخدم في الأمور الكبيرة والحقيرة حضراً وسفراً ، سواء في المعاملات المالية والتجارية ، أو في الكتابات والمراسلات وما إلى ذلك ، فهو مصاحب

---

(١) السخاوي : الإعلان بالتوبيخ ، ص ١٣٢ .
(٢) السيوطي : الشماريخ في علم التاريخ ، تحقيق محمد بن إبراهيم الشيباني ، ص ٢٣ . وقد روى أن الهرمزان قد شرح لعمر ﷺ التأريخ عند الفرس الذي كان ينطقونه « ماه روز » (السخاوي : الإعلان بالتوبيخ ، ص ١٣٤) .
(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ٢ ، ص ٢٠٦ ، جـ ٧ ، ص ٧٤ .
(٤) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٢ ، ص ٣٨٩ ، ٣٩١ ، جـ ٤ ، ٣٩ .
(٥) البخاري : الصحيح ، جـ ٣ ، ص ١٤٣١ .
(٦) السخاوي : الإعلان بالتوبيخ ، ص ١٣٣ .
(٧) ابن سعد : الطبقات الكبرى ، جـ ٣ ، ص ٢٨١ ؛ الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ، ص ٣٨ .

للمسلمين في مناحي حياتهم كلها ، فكانت الحاجة ماسة لأن يكون لهم تقويم يختص بهم لا يماثلهم فيه أحد ، ويميزهم عن غيرهم .

ويلاحظ أن عمر ﷺ لم يستحسن ما عرض عليه من أن يبتديء التقويم الإسلامي بمولد النبي ﷺ ولا بمبعثه ولا بوفاته رغم أنها أحداث عظام ، ولكنه أستصوب فقط حدث هجرة ﷺ من مكة إلى المدينة ، واعتمده تقويماً للمسلمين ، فبالهجرة تبدلت حياتهم من ضعف إلى قوة ، ومن ذلة إلى عزة ، وقامت لهم في المدينة دولة ، وصارت لهم هيبة وشوكة . يقول السخاوي[١] « واتفقوا على أن يجعلوا تاريخ دولة الإسلام من لدن هجرة النبي ﷺ من مكة إلى المدينة ، لأن وقت الهجرة لم يختلف فيه أحد ، بخلاف وقت مبعثه فإنه مختلف فيه ، وكذا وقت ولادته ليلةً وسنةً . أما وقت وفاته فهو وإن كان معيناً فلا يحسن عقلاً أن يجعل الأصل لمبدأ التاريخ[٢] . وأيضاً فوقت الهجرة وقت استقامة ملة الإسلام ، وترادف الوفود ، واستيلاء المسلمين ، فهو مما يتبرك به ، ويعظم وقعه في النفوس » .

رابعاً - إخراج اليهود والنصارى من جزيرة العرب : كان الرسول ﷺ قد أوصى في أواخر حياته بإخراج اليهود والنصارى من الجزيرة العربية ، فلقد ثبت - من رواية عمر ﷺ نفسه - أنه ﷺ قال « لئن عشت لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب ، حتى لا أترك فيها إلا مسلماً »[٣] . بل صح عنه النص على إخراج يهود الحجاز ونصارى نجران ، فقال « أخرجوا يهود أهل الحجاز ، وأهل نجران من جزيرة العرب ، واعلموا أن شرار الناس الذين اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد »[٤] .

وقالت عائشة رضي الله عنها « آخر ما عهد رسول الله ﷺ أن قال : لا يترك بجزيرة العرب دينان »[٥] . هذه وصية رسول الله ﷺ بأن تكون الجزيرة العربية خالصة

---

(١) الإعلان بالتوبيخ ، ص ١٣٥ ؛ السيوطي : الشماريخ ، ص٢٤ .
(٢) من الغريب أن الكتب المطبوعة بليبيا في السنوات الأخيرة تؤرخ بوفاة النبي ﷺ بدلاً من هجرته ، ويرمز لهذا التاريخ بـ« و. ر » .
(٣) الألباني : سلسلة الأحاديث الصحيحة ، جـ ٣ ، ص ١٢٥ .
(٤) الألباني : سلسلة الأحاديث الصحيحة ، جـ ٣ ، ص ١٢٤ .
(٥) ابن هشام : السيرة ، جـ ٤ ، ص ٤٢٠ .

للمسلمين ، لا يزاحمهم في سكناها أهل دين آخر ، وليتحقق ذلك لابد أن يُخرج اليهود والنصارى منها ، وبالذات من المناطق التي يكثرون فيها كالحجاز ونجران .

ولقد تهيأ لعمر ﷺ الظروف أن ينفذ هذه الوصية ، إذ اجتمعت معها أسباب تدعو إلى إخراجهم ، فبالنسبة لليهود فقد بدر منهم ما يعجل بطردهم ، إذ أنهم كانوا قد عدوا على أحد المسلمين وقتلوه(١) ، كما اعتدوا على عبد الله بن عمر ﷺ ، ففدعوا يديه ورجليه(٢) . ولذلك فإن عمر ﷺ لما أخبر المسلمين بما حصل لابنه على أيدي اليهود قال «هم عدونا وتهمتنا ، وقد رأيت إجلاءهم »(٣) .

ويضاف إلى الأسباب المسوغة لإجلائهم أيضاً كون المسلمين في زمن عمر ﷺ قد كثر لديهم الخدم الذين يقوون على العمل بالأراضي التي صولح عليها اليهود ، وقد كان النبي ﷺ قد اشترط عليهم لما صالحهم أن يخرجهم متى شاء(٤) . وعلى أي حال فقد نفاهم عمر ﷺ إلى أريحا وسوريا(٥) .

أما بالنسبة لنصارى نجران فقد وقع منهم ما جعل عمر ﷺ يبادر بتنفيذ وصية النبي ﷺ بإجلائهم ، فلقد أكلوا الربا ، وتعاملوا به ، فأخلوا بالشرط الذي كان النبي ﷺ قد أخذه عليهم بعدم أكلهم الربا حين صالحهم(٦) . هذا سبب ، وسبب آخر قيل فيه إن عمر ﷺ خافهم على المسلمين(٧) ، إذ تكاثر عددهم في عهده حتى بلغوا أربعين ألف مقاتل ، وقد أتوا إليه طالبين السماح بالانسياح خارج الجزيرة العربية ، فأذن لهم بذلك(٨) . ومهما كان السبب فقد أجلاهم عمر ﷺ إلى العراق والشام ، وكتب إلى عماله هناك أن يسكنوهم في أراض بور غير مملوكة(٩) .

---

(١) ابن هشام : السيرة ، جـ ٣ ، ص ٤٩٣ .
(٢) الفدع : زوال المفصل (ابن حجر : فتح الباري ، جـ ٥ ، ص ٣٢٨) .
(٣) البخاري : الصحيح ، جـ ٢ ، ص ٩٧٣ .
(٤) ابن حجر : فتح الباري ، جـ ٥ ، ص ٣٢٨ .
(٥) صالح موسى درادكة : العلاقات العربية اليهودية حتى نهاية عهد الخلفاء الراشدين ، ص ٣٩٣ .
(٦) ابن زنجويه : الأموال ، جـ ٢ ، ص ٤٥٠ ؛ البلاذري : فتوح البلدان ، ق ١ ، ص ٧٨ .
(٧) أبو يوسف : الخراج ، ص ١٦١ .
(٨) ابن زنجويه : الأموال ، جـ ١ ، ص ٢٧٦ ؛ البلاذري : فتوح البلدان ، ق ١ ، ص ٧٩ .
(٩) ابن زنجويه : الأموال ، جـ ٢ ، ص ٤٥٠ ؛ قدامة بن جعفر : الخراج وصناعة الكتابة ، ص ٢٧٣ .

وخلاصة القول أن عمرﷺ نفذ وصية النبي ﷺ بإخراج اليهود والنصارى من الجزيرة العربية ، فلم يعد لهم وجود ظاهر فيها . ولا غرو أن حرص الرسول ﷺ على ألا يجتمع في جزيرة العرب مع الإسلام دين آخر ، وأن يخرج اليهود والنصارى منها كان الهدف منه ضمان سلامتها ـ بصفتها مركز الإسلام ـ من كل ما يهددها ، ويضعف شخصيتها ، سواء من الناحية العقدية أو الفكرية أو الاجتماعية[1] ، ولعل حكايته ﷺ لمسلك عقدي منحرف كان عليه اليهود والنصارى خلال وصيته بإخراجهم من الجزيرة ، وهو اتخاذهم قبور أنبيائهم مساجد ـ لعل حكايته ذلك قصد منه التنبيه على شيء من خطر عيشهم بجانب المسلمين . وقد رأينا أن عمرﷺ عجل بإخراجهم بعد أن ارتكبوا ما يعكر الأمن في هذا المركز كغدر اليهود بالمسلمين ، أو ما يفسد الاقتصاد فيه كتعامل النصارى بالربا .

خامساً . توسعة وعمارة المسجدين الحرام والنبوي : قام عمر ﷺ بتوسعة الحرم المكي ، كما أجرى فيه بعض الإصلاحات ، ففي سنة ١٧ هـ تعرض المسجد الحرام لسيل عارم ، فاقتلع حجر المقام من مكانه ، وذهب به إلى أسفل مكة ، ثم أُتي به وألصق بالكعبة ، فقدم عمر ﷺ مكة معتمراً في رمضان تلك السنة ، وتحرى بدقة مكان حجر المقام ، فأعاده إليه بإحكام[2]، ثم عمل عليه

(١) انظر أبو الحسن الندوي : الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية ، ص ١٨ ، كيف ينظر المسلمون إلى الحجاز وجزيرة العرب ، ص ٧٧ ، ٨٠ ؛ بكر أبو زيد : خصائص جزيرة العرب ، ص ٧٩ ، ٨٣ ، ٨٤ ؛ بلتاجي : منهج عمر بن الخطاب في التشريع ، ص ٢٩٨ ؛ محمود شيت خطاب : الفاروق القائد ، ص ١٨١-١٨٢ .

(٢) ابن فهد : إتحاف الورى بأخبار أم القرى ، جـ ٢ ، ص ٧ – ٨ ؛ القطبي : إعلام العلماء الأعلام ببناء المسجد الحرام ، ص ٦٧ ـ ٦٨ . ويقال إن حجر المقام كان ملصقاً بالكعبة حتى زمن عمر ﷺ ، وقد تحدث عمر ﷺ أن قريشاً هي التي ألصقته بالبيت خوفاً عليه من السيل ، وتمنى لو عرف موضعه بالضبط ليضعه فيه ، فأخبره أحدهم بذلك ، فقام بنقله إلى مكانه الآن (ابن المبرد : محض الصواب ، جـ ١ ، ص ٣١٧) وذكر ابن حجر أن حجر المقام كان ملتصقاً بالبيت قبل عهد عمر ﷺ منذ زمن إبراهيم عليه السلام ، وكان كذلك في زمن النبي ﷺ وأبي بكر ﷺ ، فكان أول من حوله عن مكانه عمر ﷺ ، وأن السيل الذي حصل في مكة ، وجرف حجر المقام عن مكانه قد حدث بعد نقل عمر ﷺ له من عند الكعبة . قال ابن حجر « وكان المقام من عهد إبراهيم لزق البيت إلى أن أخره عمر ﷺ إلى المكان الذي هو فيه الآن ، أخرجه عبد الرزاق في مصنفة بسند صحيح عن عطاء وغيره ، وعن مجاهد أيضاً . وأخرج البيهقي عن عائشة مثله بسند قوي ، ولفظه (أن المقام كان في زمن النبي ﷺ وفي زمن أبي بكر ملتصقاً بالبيت ثم أخره عمر) . وأخرج بن مردويه بسند ضعيف عن مجاهد أن النبي ﷺ هو الذي حوله . والأول أصح . وقد أخرج بن أبي حاتم بسند صحيح عن ابن عيينة قال (كان المقام في سقف البيت =

مقصورة[١] . ومن ناحية أخرى فقد وسع عمر رضي الله عنه المسجد الحرام ، إذ اشترى الدور المحيطة به وهدمها ، وزاد في مساحته . وبعد ذلك أقام حوله جداراً قصيراً دون القامة ، فكانت المصابيح توضع عليه[٢] .

أما الكعبة فقد كساها القباطي[٣] ، وهي أقمشة مصنوعة من الكتان أو الصوف أو الحرير أو خليط منه[٤] .

أما المسجد النبوي فقد كان أبو بكر رضي الله عنه جدد بناءه بالمواد التي بني منها في عهد رسول الله ﷺ ، وهي اللبن وجذوع النخل والجريد[٥] ، وفي عهد عمر رضي الله عنه زاد عدد المسلمين في المدينة[٦] ، فقام أيضاً في سنة ١٧ هـ بتوسعته وعمارته من جديد[٧] . حيث اشترى ما حول المسجد من الدور ، فلم يبقَ سوى بيوت النبي ﷺ في الجهة الشرقية من المسجد ، ودار العباس بن عبد المطلب الذي تبرع بها للمسلمين[٨] .

وجدير بالذكر أن دار أبي بكر رضي الله عنه الواقعة في الجهة الغربية من المسجد كان من جملة الدور التي أدخلت في التوسعة الجديدة[٩] .

وقد بلغت مساحة هذه التوسعة من جهة الجنوب (القبلة) عشرة أذرع ، ومن

= في عهد رسول الله ﷺ فحوله عمر فجاء سيل فذهب به فرده عمر إليه) ، قال سفيان : (لا أدرى أكان لاصقا بالبيت أم لا) انتهى . ولم تنكر الصحابة فعل عمر ولا من جاء بعدهم فصار إجماعاً ، وكان عمر رأى أن إبقاءه يلزم منه التضييق على الطائفين أو على المصلين فوضعه في مكان يرتفع به الحرج » (فتح الباري جـ ٨ ص ١٦٩) .

(١) ابن حجر : فتح الباري ، جـ ٨ ، ص ١٦٩ .

(٢) البلاذري : فتوح البلدان ، ق ١ ، ص ٥٣ ، الأزرقي : أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار ، جـ ٢ ، ص ٦٩ ، الفاكهي : أخبار مكة ، جـ ٢ ، ص ١٥٨ . وانظر : فوزية حسين مطر : تاريخ عمارة الحرم المكي الشريف ، ص٨٨ .

(٣) الأزرقي : أخبار مكة ، جـ ١ ، ص ٢٥٣ .

(٤) فوزية مطر : تاريخ عمارة الحرم المكي ، ص ٨٩ ، حاشية ٤ .

(٥) البيهقي : دلائل النبوة ، جـ ٢ ، ص ٥٤١ ؛ السمهودي : خلاصة الوفاء ، ص ٢٥٦ .

(٦) ابن سعد : الطبقات ، جـ ٣ ، ص ٢٨٣ ، جـ ٤ ، ص ٢١ ؛ المراغي : تحقيق النصرة بتلخيص معالم دار الهجرة ، ص ٧١ .

(٧) السمهودي : خلاصة الوفاء ، ص ٢٥٦ .

(٨) ابن سعد : الطبقات ، جـ ٤ ، ص ٢١ ؛ ابن النجار : الدرة الثمينة في أخبار المدينة ، ص ٢١٢-٢١٤ .

(٩) محمد إلياس عبد الغني : تاريخ المسجد النبوي الشريف ، ص ١٤٤ .

الغرب عشرين ذراعاً ، ومن الشمال سبعين ذراعاً [١]، وقيل ثلاثين ذراعاً . أما جهة الشرق فقد كانت تحده بيوت النبي ﷺ ، فلم يتعرض لها عمر ﷺ ، فصارت بذلك مساحته الكلية بالأذرعة مائة وأربعين طولاً ، ومائة وعشرين عرضاً [٢]. وعند عمارة المسجد جعل أساسه من الحجارة[٣] ، وبناه باللبن ، وجعل أعمدته من الخشب ، وسقفه بالجريد ، وقال : « أكن (أي استر) الناس من المطر »[٤] ، وفرش أرضه بحصباء جلبت من وادي العقيق[٥] .

سادساً .إنشاء مدن إسلامية جديدة في البلاد المفتوحة : أمر عمر ﷺ بإنشاء قواعد عسكرية للمسلمين في البلاد المفتوحة ، فاستحدثت في العراق البصرة والكوفة ، وفي مصر الفسطاط . ولا شك إن إقامة مثل هذه القواعد قد ظهرت الحاجة إليها في عهد عمر ﷺ ، فخطوط المواصلات بين ميادين القتال التي يجاهد فيها المسلمون وبين عاصمتهم المدينة قد طالت مسافاتها [٦]، ولاستكمال الفتوحات بجد ونشاط في تلك البلاد وما بعدها ، ثم إدارة شؤونها بعد ذلك كان لابد للمسلمين من مراكز يأوون إليها ، وينطلقون منها ، وفي الوقت نفسه يحصلون فيها على الخدمات الضرورية والمؤن ، وتوفر لهم الراحة والسكن ، بحيث تتوافق في تخطيطها مع أمزجتهم وطبائعهم وثقافتهم ، وتحميهم من التأثر بأخلاق أهل تلك البلاد وترفهم .

وقد نبه عمر ﷺ عند تأسيس هذه المراكز أن تكون على طرف الصحراء ، وبقرب الماء والمحتطب والمرعى ، وأن لا يفصلها عن المدينة بحر ولا ماء . وقد أراد عمر ﷺ في البداية أن تكون هذه المراكز معسكرات فحسب ، يكتفى فيها بالخيام والفساطيط ، لكن الناس ما لبثوا أن كتبوا إليه يستأذنونه في البناء بالقصب ، فوافق على مضض ، إذ كان يرى في البناء ما يوحي بالاستنامة إلى حياة المدن التي قد تهبط بالقوى ، وتغري

---

(١) العمري : عصر الخلافة الراشدة ، ص ٢٢٧ .
(٢) السمهودي : خلاصة الوفاء ، ص ٢٥٨
(٣) المراغي : تحقيق النصرة بتلخيص معالم دار الهجرة ، ص ٧٢ ؛ السمهودي : خلاصة الوفاء ، ص ٢٥٨ .
(٤) البخاري : الصحيح ، جـ ١ ، ص ١٧١ .
(٥) ابن سعد : الطبقات ، جـ ٣ ، ص ٢٨٤ ، ابن المبرد : محض الصواب ، جـ ١ ، ص ٣٢٠ ، ٣٢١ .
(٦) العمري : عصر الخلافة الراشدة ، ص ٢٢٨ .

بالدعة[١] .

ولقد قيل إن المسلمين ظلوا يقوضون ذلك القصب إذا أرادوا الغزو ، ويحفظونه في مكانه ، فإذا ما رجعوا أعادوا بناءه مرة أخرى . ولكن سرعان ما رأى سكان هذه المعسكرات خطورة هذا القصب بعد أن شبت النار فيه ، فاستأذنوا في البناء باللبن والطين ، فأذن لهم عمر ﷺ مضطراً ، ولكن بشروط ، إذ قال «افعلوا ، ولا يزيدن أحدكم عن ثلاثة أبيات ، ولا تطاولوا في البنيان ، والزموا السنة تلزمكم الدولة »[٢] .

فكان البناء بهذه الصفة الأخيرة هو الخطوة الأولى نحو الاستقرار وتحويل تلك المراكز الثلاث ؛ البصرة والكوفة والفسطاط من معسكرات حربية إلى مدن مستقرة عامرة[٣]. والملاحظ أن أول شيء وضع في هذه القواعد عقب نزول المسلمين فيها هو المسجد ، ثم دار الإمارة .

ثم جاء التخطيط فيها جميعاً عند البناء على الطبيعة القبلية ، فقسمت كل منها إلى خطط تساوى عدد القبائل القاطنة فيها ، فصارت خطط البصرة خمساً ، والكوفة سبعاً ، والفسطاط أربعاً [٤].

ولقد نشأت البصرة أولاً ، حيث نزلها عتبة بن غزوان ﷺ سنة ١٤ هـ[٥]حين جاء الأمر من عمر ﷺ باختيار معسكر للمسلمين في جنوبي العراق ، فكان موقعها على شط العرب ، على مقربة من الأبلة ، عند ملتقى نهري دجلة والفرات[٦] . أما شوارعها فقد جعل عرض أكبرها ستين ذراعاً ، ثم تأتي سائر الشوارع بعرض عشرين ذراعاً ، ثم الأزقة بعرض سبعة أذرع [٧].

أما الكوفة فكان إنشاؤها على يد سعد بن أبي وقاص ﷺ الذي كتب إليه عمر ﷺ لاختيار معسكر للمسلمين الذين أقاموا في المدائن بعد فتحها ، فوقع اختياره على

(١) أحمد إبراهيم الشريف : دور الحجاز في الحياة السياسية العامة في القرنين الأول والثاني للهجرة ، ص ٢٠٦ .
(٢) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ، ص ٤٤ .
(٣) الخربوطلي : الحضارة العربية الإسلامية ، ص ٢٨٠ .
(٤) الشريف : دور الحجاز في الحياة السياسية ، ص ٢٠٧ ، ٢٠٦ ، ٢٠٨ .
(٥) طاهر مظفر العميد : تخطيط المدن العربية الإسلامية ، ص ١٢٧ .
(٦) الخربوطلي : الحضارة العربية الإسلامية ، ص ٢٨١ .
(٧) الخربوطلي : الحضارة العربية الإسلامية ، ص ٢٨١ ، ٢٨٢ .

مكانها، وذلك قرب أنقاض بابل القديمة على الشاطيء الغربي لنهر الفرات إلى الجنوب من الحيرة ، على بعد ثلاثة أميال منها [١]. وقد تم بناؤها في سنة ١٧ هـ ، حيث خططها أبو الهياج السلمي وفق توجهات الخليفة ، فجعل عرض طرقها الرئيسة أربعين ذراعاً ، وما يليها ثلاثين ذراعاً ، وما بينهما عشرين ذراعاً ، والأزقة سبعة أذرع [٢].

أما فيما يتعلق بالفسطاط فقد أنشئت على يد عمرو بن العاص ﷺ ، ذاك أنه حين فتح الإسكندرية استأذن الخليفة في اتخاذها قاعدة للمسلمين في مصر ، فأبى الخليفة عليه ذلك بحجة أنه لا يريد أن يحول بينه وبين المسلمين الماء ، وعندئذ قفل عمرو من الإسكندرية إلى معسكره المواجه لحصن بابليون في آخر سنة ٢٠ هـ [٣] ، فاختار مكان ذلك المعسكر قاعدة للمسلمين في مصر ، إذ كان قريباً من البحر الأحمر ، وفي الوقت عينه يتوسط القطر المصري ، فهو يقع إلى الشمال الشرقي من حصن بابليون الحصن الرومي ، ويحده من الغرب نهر النيل [٤] . وتدل أوصاف خطط الفسطاط القديمة أنها كانت تشغل مسطحاً طوله من الشمال إلى الجنوب نحو خمسة آلاف متر ، وعرضه من الشرق إلى الغرب لا يزيد عن ألف متر [٥] .

سابعاً - تنظيم القضاء : كان الخليفة أبو بكر ﷺ يقضي بنفسه بين الناس في المدينة ، وقد يوكل هذه المهمة أحياناً إلى عمر ﷺ ، وكان الولاة في عهده هم المسؤولين عن القضاء في الأمصار [٦] ، فلم يكن القضاء بذلك وظيفة مستقلة عن غيرها من المهام . ولما تولى عمر ﷺ الخلافة ، وتوسعت الدولة الإسلامية ، وانشغل بعض الولاة في البلدان المفتوحة بكثير من الأعمال تطلب الأمر إلى تعيين أشخاص يتفرغون لشؤون القضاء في تلك البلدان ، فكان عمر ﷺ بهذا الإجراء أول من استقضى القضاة في الأمصار ، وفصل السلطة القضائية عن سلطة الولاة [٧] .

---

(١) الخربوطلي : الحضارة العربية الإسلامية ، ص ٢٨٤ .
(٢) العمري : عصر الخلافة الراشدة ، ص ٢٢٩ .
(٣) السيوطي : حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، جـ ١ ، ص ١٣٠ .
(٤) الخربوطلي : الحضارة ، ص ٢٨٦ .
(٥) محمد عبد الله عنان : مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية ، ص ١٣-١٤ .
(٦) العمري : عصر الخلافة ، ص ١٤٢ .
(٧) الملاح : الوسيط في السيرة النبوية والخلافة الراشدة ، ص ٣٩٤-٣٩٥ .

ولقد تمكن أحد الباحثين من الوقوف على أسماء عشرة من فقهاء الصحابة وغيرهم الذين عينهم عمر ﷺ قضاة في الأقاليم المفتوحة[١] ، وقد كان من أشهرهم أبو موسى الأشعري ﷺ الذي بعث إليه عمر ﷺ رسالة حين ولاه القضاء على البصرة ، ضمنها بعض المباديء والأحكام والأصول التي يجب أن يعتمدها ، ويسير عليها في قضائه وحكمه بين الناس . وهي رسالة استفاض ذكرها من عهد عمر ﷺ إلى يومنا هذا ، فتناقلها الأئمة والعلماء ، ودونوها في مصنفاتهم المختلفة ، وشرحوها شروحات متكاثرة[٢] .

ملامح من سيرة عمر ﷺ ومنهجه في الحكم : شهد الصحابة بأن عمر ﷺ أقدرهم على تحمل مسؤولية الحكم في الدولة الإسلامية الناشئة ، حيث كان علي بن أبي طالب ﷺ يقول عنه «هذا والله القوي الأمين »[٣]، وكان عمر ﷺ يعرف ذلك في نفسه ، فلم تزده قوته إلا تفانياً في خدمة المسلمين[٤] .

ـ كان عمر ﷺ كثير الأخذ بالشورى[٥]، وقد صح أن القراء كانوا «أصحاب مجلس عمر ومشاورته ؛ كهولاً كانوا أو شباناً »[٦]، وقد روي عن الزهري قوله « كان مجلس عمر مغتصاً من القراء ؛ شباباً كانوا أو كهولاً ، فربما استشارهم فيقول : لايمنع أحداً منكم حداثة سنه أن يشير برأيه ، فإن العلم ليس على حداثة السن ولا قدمه ، ولكن الله يضعه حيث شاء »[٧]. وقد مر فيما مضى استشارته في كثير من القضايا التي واجهته في ميدان الفتوحات الإسلامية[٨] .

---

(١) أحمد سحنون : رسالة القضاء لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ ، ص ٧٣-٧٧ ، ٤٦٦ .
(٢) أحمد سحنون : رسالة القضاء ، ص ٥ . أثبت أحمد سحنون في كتابه هذا اتصال أسانيد رسالة عمر ﷺ إلى أبي موسى ﷺ وصحتها ، وذلك بعد تقصى دقيق لرواياتها وطرقها في كافة المصادر . وانظر أيضاً أحمد بن عمر بازمول : رسالة عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري في القضاء وآدابه رواية ودراية ، ص ١٩-٢٥ .
(٣) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ، ص ٢٠١ ؛ ابن الأثير : الكامل ، جـ٣ ، ص ٥٦ .
(٤) الشامي : الخلفاء الراشدين ، ص ٢٦٥ .
(٥) قلعه جي : موسوعة فقه عمر ، ص ١١٣ .
(٦) البخاري : الصحيح ، جـ ٦ ، ص ٢٦٥٧ .
(٧) عبد الرزاق : مصنف عبد الرزاق ، جـ ١١ ، ص ٤٤٠ . لمعرفة طريقة عمر ﷺ في العمل بالشورى انظر (شبلي النعماني : حكومة عمر بن الخطاب ، ص ١٩-٢٢) .
(٨) راجع محمود شيت خطاب : الفاروق القائد ، ص ١٠٣-١٠٥ .

ـ كان يدقق في اختيار عماله ، وكان يفرض عليهم شروطاً يُلزمهم التقيد بها خلال مباشرتهم العمل في ولاياتهم ، فقد نقل ـ بإسناد لابأس به ـ عن خزيمة بن ثابت ﷺ قوله « كان عمر إذا استعمل عاملاً كتب له عهداً ، وأشهد عليه رهطاً من المهاجرين والأنصار : أن لا يركب برذوناً ، ولا يأكل نَقِيًّا [وهو نوع من الخبز] ، ولا يلبس رقيقاً ، ولا يُغلق بابه دون ذوي الحاجات ، فإن فعل فقد حلت عليه العقوبة »(١).

وكان يرى أن المهمة الأولى للعامل في ولايته تعليم الناس الدين والسنة ، وكان يتعهد بالاقتصاص ممن يظلم من ولاته ، وكان يحذر الولاة من ارتكاب أي شيء يضر بالمسلمين ومصالحهم ، فقد ورد بسند حسن عن أبي فراس أن عمر ﷺ خطب ذات يوم فكان مما قاله

« ألا أني والله ما أرسل عمالي إليكم ليضربوا أبشاركم ، ولا ليأخذوا أموالكم ، ولكن أرسلهم إليكم ليعلموكم دينكم وسنتكم ، فمن فعل به شيء سوى ذلك فليرفعه إلي ، فوالذي نفسي بيده إذن لأُقِصَّنَّه منه ، فوثب عمرو بن العاص فقال:

يا أمير المؤمنين أَوَ رَأيتَ إن كان رجل من المسلمين على رعية ، فأدب بعض رعيته أئنك لمقتصه منه ؟ قال : أي والذي نفس عمر بيده إذن لأقصنه منه ، وقد رأيت رسول الله ﷺ يقص من نفسه . إلا لا تضربوا المسلمين فتذلوهم ، ولا تجمروهم [تحبسوهم في الثغور] فتفتنوهم ، ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم ، ولا تنزلوهم الغياض فتضيعوهم»(٢).

كان عمر ﷺ يفرض على عمال الأقاليم أن يوافوه في موسم الحج ليطمئن على أحوال رعايا تلك الأقاليم البعيدة ، ويطلع عن كثب على سير عمل أولئك العمال ، ويناقشهم فيما بلغه عنهم من أخبار(٣).

---

(١) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ، ص ٢٠٧-٢٠٨ ؛ ابن عساكر : عمر بن الخطاب ، ص ٢٣٥ ؛ الذهبي : عهد الخلفاء الراشدين ، ص ٢٦٦ ؛ ابن كثير : خلافة عمر ، ص ١٥ ؛ السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ١١٩ .

(٢) ابن أبي شيبة : المصنف ، جـ ٦ ، ص ٤٦١ ؛ أحمد : المسند ، تحقيق شاكر ، جـ ١ ، ص ٢٧٩ ؛ الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ، ص ٢٠٤ ؛ ابن عساكر : عمر بن الخطاب ، ص ٢٣٧ . راجع ابن سعد : الطبقات ، جـ٣ ، ص ٢٨١ .

(٣) ابن سعد : الطبقات ، جـ ٣ ، ص ٢٩٣ ؛ ابن أبي شبة : أخبار المدينة ، جـ ٢ ، ص ١٥ . انظر قائمة ولاة عمر ﷺ في (شبلي النعماني : حكومة عمر ، ص ٤٣-٤٧) .

كما أوجد ما يشبه ديوان المحاسبة لعماله ، فكان لا يصدر قراراً بمعاقبة أحد منهم إلا بعد تحقيق دقيق ، ذاك أنه إذا وصلته شكوى تتصل بهم كان يرسل بعض من يثق بنزاهتهم وقدرتهم على بحث الأمور ، ومن أبرز هؤلاء محمد بن مسلمة ، ليحقق في موضوع الشكوى ، ويتتبع أطرافها ، ويدقق في جوانبها ، ثم يرفع ذلك كله إليه ، بيد أن عمر لا يفصل في القضية إلا بعد مواجهة العامل وصاحب الشكوى ، واستجوابهما ومناقشتهما[١] . والأمثلة على ذلك عديدة ، منها شكوى أهل الكوفة ضد سعد بن أبي وقاص [٢]، وشكوى الغلام القبطي ضد عمرو بن العاص التي قال فيها عمر كلمته المشهورة « يا عمرو متى استعبدتم الناس ، وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟ »[٣] .

حرص على الالتزام في نفسه وأهله بما يقول ويأمر ، فكان إذا نهى الناس عن شيء جمع أهله ، وقال لهم «إني نهيت الناس عن كذا وكذا ، وإن الناس ينظرون إليكم نظر الطير إلى اللحم ، وأقسم بالله لا أجد أحداً منكم فعله إلا أضعفت عليه العقوبة »[٤]، وفي رواية » فإن هبتم هاب الناس ، وإن وقعتم وقع الناس ، وإنه والله لا يقع أحد منكم في أمر قد نهيت الناس عنه إلا ضاعفت له العذاب ؛ لمكانكم مني »[٥] .

كان دائم النظر في أحوال الرعية ، يجلس لهم في المدينة ، ويسأل عن أخبارهم ، ويستقبل كل من لديه حاجة منهم ، وقد ورد بإسناد جيد عن ابن عباس أن عمر كان « كلما صلى صلاة جلس للناس ، فمن كانت له حاجة نظر فيها ... »[٦] .

---

(١) الشامي : الخلفاء الراشدون ، ص ٢٦٠-٢٦١ .

(٢) البلاذري : فتوح البلدان ، ق ٢ ، ص ٣٤١ ؛ ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق ، جـ ٥٥ ، ص ٢٧٩ ؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء ، جـ ٢ ، ص ٣٧٢ ؛ ابن حجر : الإصابة ، جـ ٦ ، ص ٣٤ .

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ، ص ١٩٥ ؛ ابن الجوزي : تاريخ عمر بن الخطاب ، ص ٩٤-٩٥ . راجع تخريج قصة عمرو مع القبطي في (أر ـ كي ـ نور محمد بن أر ـ كي ـ محيي الدين : أقضية الخلفاء الراشدين ، جـ ٢ ، ص ١١٤٤-١١٤٥) انظر قصص مجموعة من الشكاوي التي رفعت إلى عمر ضد ولاته في (علي وناجي الطنطاوي : أخبار عمر وأخبار عبد الله بن عمر ، ص ١٢٤ ، ١٣٩-١٥٨ ، ٢٣٢-٢٣٣ .

(٤) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ، ص ٢٠٧ ؛ ابن الأثير : الكامل ، جـ ٣ ، ص ٥٨ .

(٥) ابن أبي شبه : أخبار المدينة ، جـ ١ ، ٣٩٩ . انظر روايات بألفاظ أخرى في (ابن عساكر : عمر بن الخطاب ، ص ٢٢٨-٢٢٩ .

(٦) ابن سعد : الطبقات ، جـ ٣ ، ص ٢٨٨ ؛ البسوي : المعرفة والتاريخ ، جـ ١ ، ص ٥٢١ ؛ الهيثمي : مجمع الزوائد ، جـ ١٠ ، ص ٢٤٢ ؛ عبد السلام آل عيسى : دراسة نقدية في المرويات الواردة في شخصية عمر ، جـ٢ ، ص ٥٨٥ .

أما الذين خارج المدينة فقد كان يستخبر عنهم ، ويجتهد في التعرف على أحوالهم ، ويصلح ما يسعه إصلاحه من قضاياهم ، وقد عزم أن يتفقد بنفسه أهل تلك البلاد ، فقد روى الحسن أن عمر ﷺ قال « لئن عشت إن شاء الله لأسيرن في الرعية حولاً ، فإني أعلم أن للناس حوائجَ تقطع دوني ، أما عمالهم فلا يرفعونها إلي ، وأما هم فلا يصلون إلي ؛ فأسير إلى الشأم ، فأقيم بها شهرين ، ثم أسير إلى الجزيرة ، فأقيم بها شهرين ، ثم أسير إلى مصر ، فأقيم بها شهرين ، ثم أسير إلى البحرين ، فأقيم بها شهرين ، ثم أسير إلى الكوفة ، فأقيم بها شهرين ، ثم أسير إلى البصرة ، فأقيم بها شهرين ، والله لنعم الحَوْل هذا»[1].

بل لقد صح أنه قبل طعنه بأربعة أيام قال ـ بعد تحققه من عدم تحميل أراضي الخراج فوق ما تحتمل ـ «لئن سلمني الله لأَدَعَنَّ أرامل أهل العراق لا يَحْتَجْنَ إلى رجل بعدي أبداً »[2].

ـ شارك عمر ﷺ المسلمين فيما حل بهم من ضنك عيش عام ١٨ هـ الذي سمي بعام الرمادة ، فأخذ على نفسه حينها ألا يذوق سمناً ولا لبناً ولا لحماً حتى تتحسن أوضاع الناس ، وكان يأبي أن يأكل شيئاً من ذلك ويقول « كيف يعنيني شأن الرعية إذا لم يمسني ما مسهم »[3] .

وقد عني ﷺ بأمر الناس الذين قدموا في ذلك العام إلى المدينة من كل ناحية بسبب الجوع ، فكتب إلى عماله في العراق والشام ومصر يطلب منهم الغوث[4]، وفي المدينة أمر رجالاً كل يوم بإطعام أولئك الوافدين ، وقد أحصي من يتعشي معه في ليلة من تلك

(١) ابن أبي شبة : أخبار المدينة ، جـ ٢ ، ص ٢٤ ؛ الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ، ص ٢٠١-٢٠٢ ؛ ابن الأثير : الكامل ، جـ ٣ ، ص ٥٦ .

(٢) البخاري : الصحيح ، جـ ٣ ، ص ١٣٥٤ ؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء ، جـ ٢ ، ص ٣٢٢ .

(٣) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ، ص ٩٨ .

(٤) ابن أبي شبة : أخبار المدينة ، جـ ١ ، ص ٣٩٤ ، ٣٩٥ . يؤكد البلاذري أن كتابة عمر ﷺ إلى مصر كانت في سنة ٢١ هـ ، قال «وكتب عمر بن الخطاب في سنة إحدى وعشرين إلى عمرو بن العاصى يعلمه ما فيه أهل المدينة من الجهد ، ويأمره أن يحمل ما يفيض من الطعام في الخراج إلى المدينة في البحر ... »(فتوح البلدان ، ق ١ ، ص٢٥٣) وهذا يتوافق مع الأحداث ، ذلك عام الرمادة ١٨ هـ لم تكن مصر فتحت بعد على رأي جمهور المؤرخين . ويمكن الخروج من هذا الإشكال بالقول : إن أهل المدينة بالذات ظلوا يعانون من آثار الرمادة حتى سنة ٢١ هـ .

الليالي فوجدوهم سبعة آلاف ، ثم زاد عددهم إلى عشرة آلاف[١].

وقد رؤي عمر ﷺ في تلك الأيام يحمل جرابين على ظهره ، ويمسك بيده عكة زيت ، وكان يعتقب ذلك مع غلامه أسلم ، فتوجه قريباً من المدينة لاطعام عشرين بيتاً من محارب ، فقام بنفسه يطبخ لهم حتى شبعوا [٢]. وقد ذكر أن عمر ﷺ ما أكل «في بيت أحد من ولده ، ولا بيت أحد من نسائه ذواقاً ـ زمان الرمادة ـ إلا ما يتعشى مع الناس حتى أحيا الله الناس...»[٣].

ومن ناحية أخرى فقد أثرت هذه المجاعة على جسم عمر ﷺ ، «فشَحَبَ ، وصخِب بطنه ، وضعفت قوته» بسبب إلزام نفسه بأكل الخشن من الطعام كما وصف ذلك ابنه عبد الله ﷺ[٤]، كذلك بلغ به الهم حيال أمر المسلمين حينئذ مبلغاً عظيماً ، فقد روي عن أسلم أنه قال « كنا نقول لو لم يرفع الله المحل عام الرمادة لظننا أن عمر يموت هماً بأمر المسلمين »[٥].

وقد كان يدعو في جوف الليل أن يرفع الله المجاعة عن المسلمين ، فقد روى السائب بن يزيد عن أبيه أنه قال « رأيت عمر بن الخطاب يصلي في جوف الليل في مسجد رسول الله ﷺ زمان الرمادة ، وهو يقول : اللهم لا تهلكنا بالسنين ، وارفع عنا البلاء ، يردد هذه الكلمة »[٦]. كما استغاث وأمر الناس بالإستغاثة حتى استجاب الله دعاءهم وأغاثهم[٧]. وبنزول الغيث وانكشاف الغمة أمر بتزويد أهل البوادي بالمؤن ، وإعادتهم إلى البادية مرة أخرى[٨].

كان عمر ﷺ يبدي تخوفاً من انفتاح الدنيا على المسلمين ، ويرى أن كثرة الأموال في أيديهم تفتح بينهم أبواب العداوة والبغضاء ، فلقد بكى ﷺ يوم أن رأى كثرة الأموال

(١) ابن سعد : الطبقات ، جـ ٣ ، ص ٣١٦-٣١٧ ؛ ابن عساكر : عمر بن الخطاب ، ص ٢٩٧ .
(٢) ابن سعد : الطبقات ، جـ ٣ ، ص ٣١٤ ؛ ابن عساكر : عمر بن الخطاب ، ص ٢٩٦ .
(٣) ابن سعد : الطبقات ، جـ ٣ ، ص ٣١٧ ؛ ابن عساكر : عمر بن الخطاب ، ص ٢٩٧ .
(٤) ابن عساكر : عمر بن الخطاب ، ص ٢٩٦ .
(٥) ابن سعد : الطبقات ، جـ ٣ ، ص ٣١٥ ؛ ابن عساكر : عمر بن الخطاب ، ص ٢٩٨ .
(٦) ابن سعد : الطبقات ، جـ ٣ ، ص ٣١٩ .
(٧) المصدر نفسه ، جـ ٣ ، ص ٣٢٠-٣٢٢ .
(٨) الذهبي : عهد الخلفاء الراشدين ، ص ٢٧٣ .

الواردة من الفتوحات في فارس وقال ـ كما سبق ـ « تالله ما أعطى الله هذا قوماً إلا تحاسدوا وتباغضوا ، ولا تحاسدوا إلا أُلقِيَ بأسهم بينهم »[(١)].

وإذا كان عمر ﷺ لم يستطع الامتناع عن إظهار الفرح بوفرة الأموال بصفتها إحدى النعم التي زينها الله لعباده ، فإنه كان يرى أن مهمته الحفاظ عليها ، ومن ثم إنفاقها في حقها المشروع ، فلقد ورد أنه حين عرض عليه مال من غنائم جلولاء قال

«اللهم إنك ذكرت هذا المال ، فقلت: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ ﴾ (آل عمران ، آية : ١٤) .

اللهم وقلت: ﴿ لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡ ﴾ (الحديد ، آية : ٢٣) اللهم إنا لا نستطيع إلا أن نفرح بما زينت لنا ، اللهم إني أسألك أن تضعه في حقه ، وأعوذ بك من شره »[(٢)]. وكان يقول « إن الله جعلني خازناً لهذا المال ، وقاسماً له ... »[(٣)].

ولذا كان حريصاً على حفظ أموال المسلمين غاية الحفظ ، فقد روي عن علي بن أبي طالب ﷺ أنه قال «رأيت عمر بن الخطاب على قَتَب يعدو ، فقلت : يا أمير المؤمنين أين تذهب ؟ فقال : بعير نَدّ من إبل الصدقة أطلبه . فقلت : لقد أذللت الخلفاء بعدك!، فقال : لا تلمني يا أبا الحسن ، فوالذي بعث محمداً بالنبوة ، لو أن عناقاً ذهبت بشاطيء الفرات لأخذ بها عمر يوم القيامة »[(٤)].

ـ كان عمر ﷺ شديد الورع تجاه مال الأمة العام ، حيث كان يقول « أن أخبركم بما استحل من مال الله ؛ حلة الشتاء والقيظ ، وما أحج عليه واعتمر من الظهر ، وقوت

(١) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ، ص ٣٠ . راجع ابن عساكر : عمر بن الخطاب ، ص ٢٨٨ ، ٢٨٩ ؛ ابن الجوزي : تاريخ عمر بن الخطاب ، ص ١٥٠ ، ١٥١ .
(٢) ابن أبي شيبة : المصنف ، تحقيق حمد الجمعة ومحمد اللحيدان ، جـ ١١ ، ص ٥٣٨ ؛ ابن أبي شبة : أخبار المدينة ، جـ ١ ، ص ٣٧١ ؛ ابن الجوزي : تاريخ عمر بن الخطاب ، ص ١٠١ . وفي رواية ابن عساكر « اللهم فاجعلني أنفقه في الحق ، وأعذني من شره » (عمر بن الخطاب ، ص ٢٧٧) .
(٣) البسوي : المعرفة والتاريخ ، جـ ١ ، ص ٤٦٣ ؛ الهيثمي : مجمع الزوائد ، جـ ٦ ، ص ٣ .
(٤) ابن الجوزي : تاريخ عمر بن الخطاب ، ص ١٤٨ . وقد وردت بألفاظ أخرى راجع المصدر نفسه ، ص ١٤٧ ، ١٤٨ . كذلك راجع الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ، ص ٢٠٢-٢٠٣ . وفي رواية أن علياً ﷺ قال « قد اتعبت الخلفاء من بعدك »(ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ ٧ ، ص ١٣٦)

أهلي كرجل من قريش ، ليس بأغناهم ولا بأفقرهم . أنا رجل من المسلمين يصيبني ما يصيبهم » . ويقول أيضاً « اللهم إنك تعلم أني لا آكل إلا وجبتي ، ولا ألبس إلا حلتي ، ولا آخذ إلا حصتي » . ويقول « إني أنزلت مال الله مني بمنزلة مال اليتيم ، من كان غنياً فليستعفف ، ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف » (١).

وقد ضرب عمر ﷺ أجل الأمثلة في إبعاد نفسه وأهله عن الأكل من أموال المسلمين ، فقد روي أن غلامه سقاه ذات يوم لبناً من غير ناقته التي كان يسقيه منها في العادة ، فأنكره وقال «ويحك من أين هذا اللبن ؟ فقال : يا أمير المؤمنين إن الناقة انفلت عليها ولدها ، فشرب لبنها ، فحلبت لك ناقة من مال الله ، فقال له عمر : ويحك سقيتني ناراً ... »(٢).

وذكر أن ابناً لعمر ﷺ تناول تمرة من تمر الصدقة فوضعها في فيه ، فقام عمر ﷺ فانتزعها منه ، ووضعها في تمر الصدقة(٣).

وشهد ابنه عبد الله ﷺ وقعة جلولاء في فارس ، فاشترى من المغنم بقيمة أربعين ألف درهم ، فلما قدم المدينة وعلم بذلك عمر ﷺ قال له ـ كما يروي عبد الله بن عمر ﷺ نفسه ـ « أرأيت لو عرضت علي النار فقيل لك : افتده أكنت مفتدي به ؟ قلت :

والله ما من شيء يؤذيك إلا كنت مفتديك منه ، قال : كأني شاهد الناس حين تبايعوا فقالوا : عبد الله بن عمر ، صاحب رسول الله ﷺ ، وابن أمير المؤمنين ، وأحب الناس إليه ، وأنت كذلك ، فكان أن يرخصوا عليك أحب إليهم من أن يغلوا عليك ، وإني قاسم مسئول ، وأنا معطيك أكثر ما ربح تاجر من قريش ، لك ربح درهم ، قال : ثم دعا التجار فابتاعوه منه بأربعمائة ألف درهم ، فدفع إلي ثمانين ألفاً ، وبعث بالباقي إلى سعد بن أبي وقاص ليقسمه »(٤). وقد روى ابن سيرين أن صهراً لعمر بن الخطاب

---

(١) العمري : عصر الخلافة ، ص ٢١٧-٢١٨ .

(٢) ابن أبي شبة : أخبار المدينة ، جـ ١ ، ص ٣٧٢ ؛ ابن أبي الدنيا : الورع ، ص ٩١ . راجع الغزالي : إحياء علوم الدين ، جـ ٢ ، ص ٩١ ؛ صبحي محمصاني : تراث الخلفاء الراشدين ، ص ١٤١ ؛ آل عيسى : دراسة نقدية في المرويات الواردة في شخصية عمر ، جـ ١ ، ص ٣٣١-٣٣٢ .

(٣) ابن أبي شبة : أخبار المدينة ، جـ ١ ، ص ٣٧٢ .

(٤) ابن عساكر : عمر بن الخطاب ، ص ٢٧٥-٢٧٦ ؛ ابن الجوزي : تاريخ عمر بن الخطاب ، ص ١٤٥ ؛ الذهبي : عهد الخلفاء الراشدين ، ص ٢٧٠-٢٧١ .

ﷺ سأله « أن يعطيه من بيت المال ، فانتهره ... وقال : أردت أن ألقى الله ملكاً خائناً »[١].

تعود عمر ﷺ على مزاولة مهمة العسس في المدينة ، فكان يطوف ليلاً في أرجائها بغية الاطمئنان على المسلمين وسبر أحوالهم ، وقد وصل عن طريق هذا الأسلوب إلى المحتاجين والمتظلمين[٢] ، وله قصص في هذا الميدان مشهورة ذكرتها كتب التاريخ وغيرها[٣] . وقد يقوم أحياناً خلال مزاولته تلك المهمة بمهمة حراسة قوافل المسلمين التجارية النازلة في المدينة ، فعن ابن عمر ﷺ قال « قدمت رفقة من التجار ، فنزلوا المصلى ، فقال عمر لعبد الرحمن بن عوف : هل لك أن نحرسهم الليلة من السَّرَق ؟ فباتا يحرسانهم ، ويصليان ما كتب الله لهما »[٤] .

استشهاد عمر ﷺ: كان عمر ﷺ يمنع البالغين من السبي من دخول المدينة حتى كتب له المغيرة بن شعبة ﷺ عامله على الكوفة يذكر له غلاماً من سبي نهاوند ـ اسمه فيروز ويكنى أبا لؤلؤة ـ عنده صنعة ، ويستأذنه في إرساله للعمل في المدينة ، إذ كان يتقن أعمالاً كثيرة فيها منافع للناس ، فأذن له بذلك[٥].

مرت الأيام فجاء أبو لؤلؤة إلى عمر ﷺ يشكو سيده المغيرة ، ويتظلم من الخراج الذي فرضه عليه ، ومقداره درهمان في اليوم ، أو أربعة دراهم ، أو وسط بين ذلك ، مائة درهم في الشهر على اختلاف الروايات[٦].

وقد سأله عمر ﷺ عما يجيده من صناعة ، فأجابه بأنه «نجار ، نقاش ، حداد ، فقال : فما أرى خراجك بكثير على ما تصنع من الأعمال ! »[٧].

---

(١) ابن سعد : الطبقات ، جـ ٣ ، ص ٣٠٣-٣٠٤ ؛ الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ، ص ٢٠٣ ؛ ابن عساكر: عمر بن الخطاب ، ص ٢٨٢ ؛ الذهبي : عهد الخلفاء الراشدين ، ص٢٧١ .
(٢) غالب عبد الكافي القرشي : أوليات الفاروق السياسية ، ص ٧٩ - ٨٥ .
(٣) انظر أمثلة في الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٢٠٥-٢٠٦ ؛ ابن الجوزي : تاريخ عمر بن الخطاب ، ص ٧٩-٨٦ ؛ ابن عساكر : عمر بن الخطاب ، ص ٣٠١-٣٠٣ ؛ ابن كثير : خلافة عمر ، ص ١٨-١٩ .
(٤) ابن سعد : الطبقات ، جـ ٣ ، ص ٣٠١ ؛ ابن عساكر : عمر بن الخطاب ، ص ٣٠٣ ؛ ابن كثير : خلافة عمر ، ص ١٨ .
(٥) ابن سعد : الطبقات ، جـ ٣ ، ص ٣٤٥ ؛ ابن حجر : فتح الباري ، جـ ٧ ، ص ٦٢-٦٣ .
(٦) سليمان بن حمد العودة : عبد الله بن سبأ وأثره في أحداث الفتنة في صدر الإسلام ، ص ٢٧-٢٨ .
(٧) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ، ص ١٩١ .

وفي رواية أن عمر ﷺ رد عليه « اتق الله ، وأحسن إلى مولاك ، ومن نيه عمر أن يلقى المغيرة فيكلمه يخفف عنه ، فغضب العبد وقال : وسع الناس كلهم عدله غيري ، فأضمر على قتله »(١) . ويبدو أن عمر ﷺ أراد الإصلاح بين السيد وغلامه ، فهو وإن لم يستجب لمطلب الغلام ظاهراً - إقناعاً وترويضاً - إلا أنه كان ينوي تكليم المغيرة بالتخفيف عنه(٢) .

ولقد وردت قصة استشهاد عمر ﷺ في صلاة الفجر على يد أبي لؤلؤة في الصحيح ، وقد رواها عمرو بن ميمون ﷺ بالتفصيل ، وملخصها : أن من عادة عمر ﷺ أن يدعو إلى تسوية الصفوف قبل أن يحرم بالصلاة ، وكان يقرأ في صلاة الفجر في الركعة الأولى بطوال السور مثل يوسف والنحل ، ليجتمع الناس ، وفي غداة استشهاده ما أن كبر حتى سُمع يقول : قتلني أو أكلني الكلب ، فطار العلج بسكين ذات طرفين ، لا يمر على أحد يميناً وشمالاً إلا طعنه ، حتى طعن ثلاثة عشر رجلاً ، مات منهم سبعة . فلما رأى ذلك رجل من المسلمين طرح بُرْنساً ، فلما أيقن العلج أنه مأخوذ نَحَرَ نفسه .

أما عمر ﷺ فقد تناول يد عبد الرحمن بن عوف ﷺ فقدمه ليصلي بالناس ، ولم يدرِ من كان في نواحي المسجد ما جرى ، فصلى عبد الرحمن بالناس صلاة خفيفة(٣)، ولما انتهت الصلاة طلب عمر ﷺ من ابن عباس ﷺ أن ينظر في قاتله ، فجال ثم رجع ، وقال : غلام المغيرة ، فسأله عمر : الصَّنَعُ ، قال : نعم ، فقال : قاتله الله ، لقد أمرت به معروفاً ، ثم تابع عمر كلامه بالقول « الحمد الله الذي لم يجعل منيتي على يد رجل يدعي الإسلام » .

حمل عمر ﷺ إلى بيته ، فأتي بنبيذ [وهو عند أهل الحجاز : الماء المحلى بالتمر] فشربه ، فخرج من جرحه ، ثم أتي بلبن فشربه فخرج من جرحه ، فعندئذ عرفوا أنه

(١) ابن عساكر : عمر بن الخطاب ، ص ٣٥٠-٣٥١ ؛ الذهبي : عهد الخلفاء الراشدين ، ص ٢٧٨ ؛ ابن حجر : فتح الباري ، جـ ٧ ، ص ٦٣ .

(٢) العودة : عبد الله بن سبأ ، ص ٢٨ . بل في رواية الصحيح في قصة مقتله لما علم عمر ﷺ بأن الذي طعنه هو أبو لؤلؤة قال «قاتله الله ! لقد أمرت به معروفاً » (البخاري : الصحيح ، جـ٣ ، ص ١٣٥٣) وهذا يؤكد أنه كلم المغيرة ﷺ في التخفيف عنه .

(٣) يقول ابن حجر « في رواية أبي إسحاق بأقصر سورتين في القرآن : إنا أعطيناك الكوثر ، وإذا جاء نصر الله والفتح» (فتح الباري ، جـ ٧ ، ص ٦٤) .

ميت ، فجعل الناس يدخلون ، ويثنون عليه خيراً . أما عمر ﷺ نفسه فقد طلب من ابنه عبد الله ﷺ أن يحصي ما عليه من الدين ، فوجده ستة وثمانين ألفاً أو نحوها ، فأمره أن تسدد عنه ، ثم سأله ـ أيضاً ـ أن يذهب إلى أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ليستأذنها في دفنه مع صاحبه ، فأذنت له بذلك[١].

طعن عمر ﷺ صبيحة الأربعاء ٢٦ أو ٢٧ من ذي الحجة ، وبقي جريحاً حتى توفي في يوم الأحد غرة المحرم سنة ٢٤ هـ ، ودفن بجوار قبر أبي بكر الصديق ﷺ الذي يلي قبر النبي ﷺ ، وكان عمره ثلاثة وستين سنة ، وقد دامت خلافته عشر أعوام ، وستة أشهر ، وأربعة أوثمانية أيام[٢].

وفي الأخير نشير إلى أن بعض المؤرخين رجحوا أن مقتل عمر ﷺ بهذه الكيفية قد تم بمؤامرة دبرها الموالي من الفرس وشاركهم فيها غيرهم من النصارى واليهود ، وأن أبا لؤلؤة نفذ هذه الجريمة[٣] ، حيث ورد أنه كان لا يلقى صغيراً من سبي نهاوند في المدينة إلا مسح رأسه وبكى ، وردد قوله « أكل عمر كبدي »[٤].

وصية عمر ﷺ عند موته : وثبت ـ أيضاً ـ في الصحيح أنه بعد أن أذنت عائشة رضي الله عنها لعمر بن الخطاب ﷺ بدفنه في حجرتها بجوار صاحبيه ، واستمر الناس في الدخول على عمر ﷺ يعودونه « قالوا : أوص يا أمير المؤمنين استخلف ؟ قال[٥]: ما أجد أحداً أحق بهذا الأمر من هؤلاء النفر أو الرهط الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم

---

(١) البخاري : الصحيح ، جـ ٣ ، ص ١٣٥٤ - ١٣٥٥ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٣ ، ص ٥٢ ، ٥٣ ؛ ابن كثير : خلافة عمر ، ص ٢١، ٢٢ ، ٢٦ .

(٣) راجع عبد الوهاب النجار : الخلفاء الراشدون ، ص ٢٤٩- ٢٥٠ ؛ جميل المصري : أثر أهل الكتاب في الفتن والحروب الأهلية في القرن الأول الهجري ، ص ٢٣٧- ٢٤٢ ؛ محمد السيد الوكيل : جولة تاريخية في عصر الخلفاء الراشدين ، ص ٢٨٣- ٢٨٦ .

(٤) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ، ص ١٣٦ . يذكر السيد حسين الموسوي أن في مدينة كاشان الإيرانية في منطقة تسمى (باغي فين) مشهداً على غرار الجندي المجهول ، فيه قبر وهمي لأبي لؤلؤة المجوسي ، يُعرف بـ «مرقد بابا شجاع الدين » ، وقد أُطلق عليه هذا اللقب لقتله عمر ﷺ ، وهذا المشهد يزار من قبل الإيرانيين ، وتلقى فيه الأموال والتبرعات ، وقد قامت وزارة الإرشاد الإيرانية بتوسعته وتجديده ، وقد طبعت صور المشهد على طوابع بريدية (لله ثم للتاريخ ـ كشف الأسرار وتبرئة الأئمة الأطهار ، ص ٨٨) .

(٥) روى بعض الأخباريين أن عمر ﷺ قال حين سئل أن يستخلف « فإن استخلفتُ فقد استخلف من هو خير مني ، وإن اترك فقد ترك من هو خير مني » (الطبري : تاريخ الأمم ، جـ ٤ ، ص ٢٢٨) .

راض، فسمى علياً ، وعثمان ، والزبير ، وطلحة ، وسعداً [ابن أبي وقاص] ، وعبد الرحمن [ابن عوف] [١]، وقال : يشهدكم عبد الله بن عمر ، وليس له من الأمر شيء ، كهيئة التعزية له[٢]، فإن أصابت الإمرة سعداً فهو ذاك ، وإلا فليستعن به أيكم ما أُمِّر ، فإني لم أعزله عن عجز ولا خيانة ... » ، ثم أوصى خيراً بالمهاجرين الأولين ، ثم بالأنصار ، ثم بأهل الأمصار ، ثم بالأعراب ، ثم بأهل الذمة [٣].

---

(١) قال ابن كثير «ومن تمام ورعه لم يذكر في الشورى سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل ، لأنه ابن عمه ، خشي أن يراعى فيولى ، لكونه ابن عمه ، فلذلك تركه ـ وهو أحد العشرة المشهود لهم بالجنة ـ ، بل جاء في رواية المدائني عن شيوخه ، أنه استثناه من بينهم ، وقال : لست مدخله فيهم » (خلافة عثمان ، ص ٢٧) .

(٢) في رواية بعض المؤرخين أن الغرض من إشراك عبد الله ﷺ هو الترجيح إذا احتاج الأمر إلى ذلك ، حيث قال عمر ﷺ « فإن رضي ثلاثة رجلاً منهم ، وثلاثة رجلاً منهم ، فحكموا عبد الله بن عمر ، فأي الفريقين حكم له فليختاروا رجلاً منهم » (الطبري : تاريخ الأمم ، جـ ٤ ، ص ٢٢٩) .

(٣) البخاري : الصحيح ، جـ ٣ ، ص ١٣٥٥ - ١٣٥٦ .

الفصل الثالث

الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه

الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه

اسمه ونسبه ولقبه : هو عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس ابن عبد مناف بن قصي بن كلاب . يلتقي نسبه بنسب النبي ﷺ في عبد مناف[١]، الجد الرابع للنبي ﷺ . وينتمي عثمان رضي الله عنه إلى الأمويين ، نسبة إلى أمية بن عبد شمس[٢] ، وبنو أمية من البطون القرشية المشهورة في الجاهلية ثم في الإسلام .

يكنى في الجاهلية بأبي عمرو ، ولما ولد له من رقية بنت النبي ﷺ غلام ، سماه عبد الله ، فاكتنى به ، فكان المسلمون يكنونه بأبي عبد الله ، وقد توفي عبد الله هذا بعد بلوغه ست سنوات[٣] .

ويلقب بذي النورين ، لأنه تزوج بنتي النبي ﷺ رقية ثم أم كلثوم رضي الله عنهما ، واحدة بعد الأخرى ، فقد تزوج رقية في مكة بعد فراقها لابن عمها عتبة بن أبي لهب ، وعقب وفاتها أثناء غزوة بدر زوجه النبي ﷺ أم كلثوم التي كان قد فارقها ابن عمها الآخر عتيبة بن أبي لهب ، وقد بقيت مع عثمان رضي الله عنه حتى وفاتها في شعبان سنة ٧ هـ ، وقد قيل: لم يجمع أحد بين بنتي نبي إلا عثمان رضي الله عنه[٤].

مولده ونشأته : ولد عثمان رضي الله عنه بعد عام الفيل بست سنوات على الصحيح[٥] ، وكان ذلك في الطائف[٦]. وقد عاش في مكة ، وكان والده عفان من تجار قريش ، وقد توفي في الشام أثناء خروجه للتجارة هناك[٧] ، فورث عنه عثمان مالاً ، فاتجر به وربح[٨]، حيث صار كوالده من ضمن الذين كانوا يرحلون من مكة للتجارة في الشام[٩] ، وقد

---

(١) المالقي : التمهيد والبيان في مقتل الشهيد عثمان رضي الله عنه ، تحقيق كرم حلمي فرحات أحمد ، ص ١١٩ .

(٢) المحب الطبري : الرياض النضرة ، جـ ٣ ، ص ٥ .

(٣) ابن سعد : الطبقات ، جـ ٣ ، ص ٥٣ - ٥٤ .

(٤) المالقي : التمهيد ، ص ١٢٠ - ١٢١ .

(٥) ابن حجر : الإصابة ، جـ ٤ ، ص ٤٥٦ .

(٦) الديار بكري : تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس ، جـ ٢ ، ص ٢٤٥ .

(٧) ابن قتيبة : المعارف ، ص ١٩١ .

(٨) محمود شاكر : التاريخ الإسلامي ، جـ ٣ ، ص ٢٠٢ .

(٩) ابن سعد : الطبقات ، جـ ٣ ، ص ٥٥ ، ٦٠ ؛ المالقي : التمهيد والبيان ، ص ١٢٢ .

كان يشارك بعض القرشيين في التجارة[١].

ومن جانب آخر فقد نشأ عثمان ﷺ على الأخلاق الكريمة عند العرب ، فكان بمنأى عن الموبقات التي كان يمارسها كثير من أهل الجاهلية ، فلم يقارف الزنا ، ولم يسفك الدماء[٢] ، ولم يسرق مال أحد[٣]. وكان محبوباً في قومه حتى أمسى قائلهم يقول :

أحبك والرحمـــــنْ حبَّ قريش عثمانْ [٤]

صفته الخَلْقية : أخرج ابن عساكر من طرق : « أن عثمان كان رجلاً ربعة ، ليس بالقصير ، ولا بالطويل ، حسن الوجه ، أبيض مشرباً حمرة ، بوجهه نمشات جدري ، كثير اللحية ، عظيم الكراديس ، بعيد ما بين المنكبين ، خدل الساقين ، طويل الذراعين ، شعره قد كسا ذراعيه ، جعد الرأس أصلع ، أحسن الناس ثغراً ، جمته أسفل من أذنيه ، يخضب بالصفرة ، وكان قد شد أسنانه بالذهب»[٥].

أولاده وزوجاته : كان عثمان ﷺ قد تزوج بعدد من النساء ، وولد له منهن أحد عشر ذكراً ، وسبع من البنات.

فقد تزوج رقية ، ثم أم كلثوم ابنتي الرسول ﷺ ، فولدت رقية: عبد الله.

وولدت له فاختة بنت غزوان : عبد الله الأصغر.

وولد له من أم عمرو بنت جندب الدوسية : عمرو ، وخالد ، وأبان ، وعمر ، ومريم.

ومن فاطمة بنت الوليد بن المغيرة المخزومية ولد له : الوليد ، وسعيد، وأم سعيد.

وولدت له أم البنين بنت عيينة بن حصن الفزارية : عبد الملك ، وعتبة.

ومن رملة بنت شيبة بن ربيعة ولدت له: عائشة ، وأم أبان، وأم عمرو.

---

(١) ابن الأثير : أسد الغابة في تميز الصحابة ، جـ ٢ ، ص ٢٥٩ .

(٢) أحمد : المسند ، جـ ١ ، ص ٣٤٨ ، ٣٦٣ ؛ المالقي : التمهيد ، ص ٣٢٨ .

(٣) الذهبي : تاريخ الإسلام ، عهد الخلفاء الراشدين ، ص ٤٦٩ .

(٤) ابن قتيبة : المعارف ، ص ١٩٢ .

(٥) السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ١٣٧ . والكراديس : المفاصل (ابن منظور : لسان العرب ، جـ ٣ ، ص ٢٤٠) وخدل الساقين : أي ممتليء الساقين (المصدر نفسه ، جـ ١ ، ص ٨٠٠) . راجع روايات في صفة عثمان ﷺ ابن عساكر : عثمان بن عفان ، ص ١٣-١٧ .

ومن نائلة بنت الفرافصة الكلبية ولدت لـه : مريم ، وعنبسة وأم البنين[١].

إسلامه : كان عثمان ﷺ من السابقين الأولين إلى الإسلام ، فقيل إنه أول الناس إسلاماً بعد أبي بكر وعلي وزيد رضي الله عنهم ، حيث أسلم على يدي أبي بكر الصديق ﷺ.

فمما روي في قصة إسلامه أنه مر على خالته سعدى بنت كريز ، وكانت امرأة تتكهن ، فخبرته بكلام مسجوع ببعثة النبي ﷺ ، فوقع كلامها في نفسه ، ثم رآه أبو بكر ﷺ مفكراً فسأله ، فأخبره بما سمعه من خالته ، فقال له

« ويحك يا عثمان ، والله إنك لرجل حازم ما يخفى عليك الحق من الباطل ، هذه الأوثان التي يعبدها قومك أليست حجارة صماً ، لا تسمع ولا تبصر ، ولا تضر ولا تنفع ؟ . قال عثمان ، فقلت : بلى والله إنها لكذلك.

قال : والله لقد صدقتك خالتك ، هذا محمد بن عبد الله قد بعثه الله برسالته إلى جميع خلقه ، فهل لك أن تأتيه وتسمع منه . فقلت : نعم فوالله ما كان بأسرع من أن مر رسول الله ، ومعه علي بن أبي طالب ... فلما رآه أبو بكر قام إليه فساره في أذنه ، فجاء رسول الله فقعد ، ثم أقبل عليّ فقال:

يا عثمان أجب الله إلى جنته ، فإني رسول الله إليك وإلى جميع خلقه.

قال : فوالله ما تمالكت حين سمعت قوله أن أسلمت ، وشهدت أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله »[٢].

ومما روي في إسلامه أنه في طريق عودته من الشام سمع هاتفاً يناديه ومن معه يخبرهم ببعثة النبي ﷺ في مكة ، فلما وصل مكة دخل هو وطلحة بن عبيد الله ﷺ على النبي ﷺ ، فعرض عليهما الإسلام ، فآمنا وصدقا [٣].

جهوده في سبيل الإسلام قبل خلافته : جسد عثمان ﷺ مواقفه في سبيل دينه في حياة النبي ﷺ ثم في عصر الخليفتين من بعده بكلمات موجزة ، فقال ـ كما في الصحيح ـ

---

(١) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ، ص ٤٢٠-٤٢١ ؛ ابن الأثير : الكامل ، جـ ٣ ، ص ١٨٥-١٨٦ .
(٢) ابن حجر : الإصابة ، جـ ٧ ، ص ٦٩٨ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ ٧ ، ص ٢٠٠ .
(٣) ابن سعد : الطبقات ، جـ ٣ ، ص ٥٥ ، المالقي : التمهيد ، ص ١٢٢ .

«إن الله قد بعث محمداً ﷺ بالحق وأنزل عليه الكتاب ، وكنت ممن استجاب لله ورسوله ﷺ ، وآمنت بما بعث به محمد ﷺ ، وهاجرت الهجرتين الأوليين ... وصحبت رسول الله ﷺ وبايعته ، والله ما عصيته ولا غششته حتى توفاه الله ، ثم استخلف الله أبا بكر ، فوالله ما عصيته ولا غششته ، ثم أُستخلف عمرُ ، فوالله ما عصيته ولا غششته »[(١)].

فعثمان ﷺ كغيره من المسلمين تعرض للأذى بعد إسلامه ، إذ عذبه عمه الحكم بن أبي العاص فأخذه ـ كما روي ـ وأوثقه رباطاً ، «وقال : أترغب عن ملة آبائك إلى دين محدث ، والله لا أحلك أبداً حتى تدع ما أنت عليه من هذا الدين . فقال عثمان : والله لا أدعه أبداً ، ولا أفارقه . فلما رأى الحكم صلابته في دينه تركه»[(٢)].

ولقد صار ﷺ بعد إسلامه في مكة يلازم النبي ﷺ ، فكان من أوائل من كتب الوحي له ، إذ ثبت عن عثمان ﷺ نفسه قوله عن يده «أما والله إنها لأول كفٍ خطتْ المُفَصَّل »[(٣)].

وحينما ندب النبي ﷺ أصحابه للهجرة إلى الحبشة في السنة الخامسة من البعثة بادر عثمان ﷺ بالهجرة إليها ، ومعه زوجه رقية رضي الله عنها ، فكان أول المهاجرين المسلمين إلى الحبشة ، وقد ورد بسند موصول إلى أنس ﷺ أن خبر عثمان ورقية رضي الله عنهما أبطأ على النبي ﷺ ، فقالت امرأة للنبي ﷺ : « لقد رأيتهما ، وقد حمل عثمان امرأته على حمار . فقال : صحبهما الله إن عثمان أول من هاجر بأهله بعد لوط »[(٤)].

كما هاجر ﷺ وبصحبته زوجه رقية رضي الله عنها الهجرة الثانية إلى الحبشة[(٥)]. ثم عاد إلى مكة وهاجر إلى المدينة إما قبل هجرة النبي ﷺ إليها ، وإما بعد ذلك ولكن قبل غزوة بدر الكبرى[(٦)] . وقد نزل في المدينة على أوس بن ثابت أخو حسان بن ثابت رضي

---

(١) البخاري : الصحيح ، جـ ٣ ، ص ١٤٠٥ .
(٢) ابن سعد : الطبقات ، جـ ٣ ، ص ٥٥ .
(٣) خليفة بن خياط : تاريخه ، ص ١٧٤ . وانظر تخريج الخبر في العمري : عصر الخلافة الراشدة ، ص ٣٩٠ ، حاشية ١ ؛ أحمد الخروف : شهيد الدار عثمان بن عفان ﷺ ، ص ١٣٣ .
(٤) ابن حجر : فتح الباري ، جـ ٧ ، ص ١٨٨ . وانظر : ابن أبي عاصم : السنة ، جـ ٢ ، ص ٥٩٦ ؛ البيهقي : دلائل النبوة ، جـ ٢ ، ص ٢٩٧ ، والمحب الطبري : الرياض النضرة ، جـ ٣ ، ص ٩ - ١٠ .
(٥) المالقي : التمهيد ، ص ١٢٣ .
(٦) المحب الطبري : الرياض النضرة ، جـ ٣ ، ص ١٠ .

الله عنهما حتى أقطع النبي ﷺ المهاجرين دوراً يسكون فيها [١].

عثمان في المدينة : ظل عثمان ﷺ حول النبي ﷺ في المدينة ، فكان قريباً منه ، يحضر مجالسه ، ويشهد مشاهده ، فكان الصحابة يرون أن مرتبته في الفضل فيهم تأتي مباشرة في زمن الرسول ﷺ بعد أبي بكر وعمر رضي الله عنهما [٢].

وقد استمر يكتب الوحي إذا نزل على النبي ﷺ ، فمما يروى عن عائشة رضي الله عنها في هذا الصدد أنها قالت : لقد رأيت رسول الله ﷺ ، وهو مسند فخذه إلى عثمان ، وإني لأمسح العرق من جبين رسول الله ﷺ ، وإن الوحي لينزل عليه ، وإنه ليقول « اكتب يا عثيم ... » [٣].

ولقد داوم على حضور الغزوات مع النبي ﷺ بعد غزوة بدر الكبرى التي لم يتمكن من حضورها لكونه اضطر للبقاء في المدينة لانشغاله بتمريض زوجته رقية رضي الله عنها ، إذ اشتد آنذاك عليها مرضها الذي توفيت فيه[٤]، فضلاً أن النبي ﷺ لم يكن عزم على جميع أصحابه للخروج إلى هذه الغزوة ، حيث ثبت أنه خرج طلباً لإدراك عير أبي سفيان ، فكان مما قاله للصحابة « فمن كان ظهره [راحلته] حاضراً فليركب معنا »، وقد أبى على من أراد منهم أن يأتوا برواحلهم من عوالي المدينة [٥].

وفي غزوة الحديبية ، حينما عسكر المسلمون على حدود مكة بعد أن منعتهم قريش من العمرة ـ أرسل النبي ﷺ عثمان ﷺ من بين أصحابه إليها ليخبرها أنه لم يأتِ لحرب ، وإنما جاء زائراً لهذا البيت ، معظماً لحرمته ، فانطلق عثمان ﷺ إلى هدفه ، والتقى رؤساء قريش ، وبلغهم رسالة النبي ﷺ على أتم وجه ، وقد عرضوا عليه الطواف بالبيت إن شاء ، بيد أنه رد عليهم رداً حاسماً بقوله «ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ»[٦].

---

(١) المالقي : التمهيد ، ص ١٢٣ .

(٢) البخاري : الصحيح ، جـ ٣ ، ص ١٣٥٢ ؛ عبد الله بن أحمد بن حنبل : فضائل عثمان بن عفان ، تحقيق أبي مصعب طلعت الحلواني ، ص ٦٨ .

(٣) المحب الطبري : الرياض النضرة ، جـ ٣ ، ص ٢٦ ؛ ابن كثير : خلافة عثمان ، ص ١٩ .

(٤) البخاري : الصحيح ، جـ ٣ ، ص ١١٣٩ ، ١٣٥٣ ؛ ابن الأثير : أسد الغابة ، جـ ٣ ، ص ٥٧٩ .

(٥) مسلم : الصحيح ، جـ ٣ ، ص ١٥١٠ .

(٦) ابن هشام : السيرة النبوية ، جـ ٣ ، ص ٤٣٦-٤٣٧ .

ولعل قوله هذا جعل قريشاً تغضب منه ، وتحتجزه عندها ، فأشيع أن عثمان قد قتل ، فدعا النبي ﷺ أصحابه أن يبايعوه على ألا يبرحوا المكان حتى يناجزوا القوم ، فتمت تلك البيعة التي عرفت ببيعة الشجرة (الرضوان)[١]، وقد بايع ﷺ عن عثمان ﷺ ، إذ ضرب إحدى يديه على الأخرى ، وقال « هذه لعثمان »[٢].

فعثمان ﷺ كلفه الرسول ﷺ بتبليغ رسالته إلى قريش ، وقد قام بمهمته ، ثم صار احتجاز قريش له سبباً لبيعة الرضوان التي كانت عاملاً مهماً في دفع القرشيين إلى صلح الحديبية ، فضلاً عما جاء فيها من فضل ومنزلة في تاريخ المسلمين . ومن ناحية أخرى فقد استخلفه الرسول ﷺ على حكم المدينة حال غيابه عنها في مناسبتين ، الأولى في غزوته ﷺ إلى ذات الرقاع ، والثانية في غزوته إلى غطفان بذي أَمَرّ بنجد[٣].

ومن الظواهر الملفتة في حياة عثمان ﷺ في زمن النبي ﷺ وبالأخص في العهد المدني بذله السخي لماله في خدمة الإسلام ، ففي غزوة تبوك حينما حث النبي ﷺ على النفقة كان عثمان ﷺ أكثر المسلمين إنفاقاً ، إذ ثبت من أقوال بعض الصحابة ، ومن أقواله ﷺ أنه جهز الجيش (جيش العسرة) إجمالاً[٤]، فكانت نفقته كبيرة ، لأن عدد ذلك الجيش كان كبيراً ، وقد صح أنه أتى بألف دينار فصبها في حجر الرسول ﷺ[٥].

وروي عن عبد الرحمن بن خباب السلمي أنه قال «خرج رسول الله ﷺ فحث على جيش العسرة فقال عثمان بن عفان : **عليّ مائة بعير بأحلاسها وأقتابها** . قال : ثم حث ، فقال عثمان : **عليّ مائة أخرى بأحلاسها وأقتابها** . قال : ثم نزل مرقاة من المنبر ، ثم حث فقال : عثمان بن عفان : **عليّ مائة أخرى بأحلاسها وأقتابها** ... »[٦]. وروي أن

(١) المصدر نفسه ، ص ٤٣٧ .
(٢) البخاري : الصحيح ، جـ ٣ ، ص ١٣٥٣ .
(٣) ابن سعد : الطبقات ، جـ ٣ ، ص ٥٦ – ٥٧ .
(٤) انظر مهدي رزق الله أحمد : السيرة النبوية ، ص ٦١٥ .
(٥) أحمد : فضائل الصحابة ، جـ ١ ، ص ٤٥٧ – ٤٥٨ ؛ المحب الطبري : الرياض النضرة ، جـ ٣ ، ص ١٧ .
(٦) أحمد : المسند ، جـ ٤ ، ص ١٠٦ ؛ ابن كثير : السيرة ، جـ ٤ ، ص ٧ . وقد أخرج الترمذي هذا الحديث ولكن باختلاف في اللفظ ، إذ قال عثمان في المرة الأولى أن عليه مائة بعير ، وفي الثانية مائتا بعير ، وفي الثالثة ثلاثمائة بعير (الترمذي : السنن المطبوع مع تحفة الأحوذي ، جـ ١٠ ، ص ١٨٢ ـ ١٨٣ ؛ السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص١٣٨) .

عثمان ﷺ حمل في تلك الغزاة على تسعمائة بعير ، ومائة فرس ، وجهزهم حتى لم يفقدوا عقالاً ولا شكالاً (١).

ومن أمثلة بذله لماله أيام الرسول ﷺ ما صح من دفعه لثمن توسعة المسجد النبوي ، ذاك أن المسجد ضاق بأهله ، فقال رسول الله ﷺ «من يشتري بقعة آل فلان ، فيزيدها في المسجد بخير له منها في الجنة ؟ » ، فاشتراها عثمان ﷺ من صلب ماله(٢).

وقد ورد أنه اشتراها ﷺ بعشرين ألفاً أو بخمسة وعشرين ألفاً (٣). وكان ذلك بعد عودة النبي ﷺ من غزوة خيبر في السنة السابعة من الهجرة ، وقدرت هذه التوسعة من جهة عرضه (نحو الغرب) بأربعين ذراعاً ، ومن جهة طوله (نحو الشمال) بثلاثين ذراعاً ، فأصبح المسجد بتلك الزيادة مربعاً ، مائة ذراع في مائة ذراع(٤).

ومن نفقات عثمان ﷺ في حياة النبي ﷺ شراؤه لبئر رُومَة الواقعة في عقيق المدينة(٥)، فالمدينة حينما نزلها النبي ﷺ والمهاجرون لم يكن فيها ماء يستعذب غير ماء هذه البئر ، فكان صاحبها ـ وهو رجل من بني غفار(٦) ـ يبيع منها القربة بمد ، فسعى النبي ﷺ إلى شرائها ، وحث المسلمين على ذلك ، فاشتراها عثمان ﷺ بخمسة وثلاثين ألف درهم ، ثم جاء فخبر النبي ﷺ بذلك ، فقال ﷺ «اجعلها سقاية للمسلمين وأجرها لك»(٧).

مما سبق عرفنا حال عثمان ﷺ مع النبي ﷺ ، فقد أسلم مبكراً بجهود أبي بكر ﷺ ، ثم تعرض للأذى في سبيل دينه ، وهاجر الهجرتين إلى الحبشة مع زوجه رقية رضي الله عنها ، ثم هاجر إلى المدينة ولازم الرسول ﷺ ، وحضر المشاهد معه .

---

(١) ابن عبد البر : الدرر في اختصار المغازي والسير ، ص ٢٨٧ . والشكال : ما تشد به القوائم ، أما العقال فهو ما يشد به الذراع مع الساعد . انظر أقوال العلماء في مقدار نفقة عثمان ﷺ في ؛ المحب الطبري : الرياض ، جـ ٣ ، ص ١٨ ؛ ابن حجر : فتح الباري ، جـ ٥ ، ص ٤٠٨ ، جـ ٧ ، ص ٥٤؛ الصفوري : مختصر المحاسن المجتمعة ، ص ١٤٨ ؛ السندي : الذهب المسبوك ، ص ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٨ .
(٢) الترمذي : السنن المطبوع مع تحفة الأحوذي ، جـ ١٠ ، ص١٨٦ ؛ النسائي : السنن ، جـ ٦ ، ص ٥٤٥ .
(٣) النسائي : السنن ، جـ ٦ ، ص ٣٥٤ ، ٥٤٤ ؛ ابن حجر : فتح الباري ، جـ ٥ ، ص ٤٠٨ .
(٤) محمد إلياس عبد الغني :تاريخ المسجد النبوي الشريف ، ص ٤٢ .
(٥) ياقوت : معجم البلدان ، جـ ١ ، ص ٢٩٩ .
(٦) وفي رواية أنه كان يهودياً (المحب الطبري : الرياض النضرة ، جـ ٣ ، ص ١٨)
(٧) الترمذي : السنن المطبوع مع تحفة الأحوذي ، جـ ١٠ ، ص١٨٦ ؛ النسائي : السنن ، جـ ٦ ، ص ٥٤٤ .

وقد برز ﷺ في الجانب الدبلوماسي ، إذ اعتمده ﷺ سفيراً إلى قريش في غزوة الحديبية ، وكذلك في الجانب الإداري ، إذ نوبه ﷺ في حكم المدينة في بعض غزواته .

وهناك شيء تميز به عثمان ﷺ في حياة النبي ﷺ وهو إنفاقه كثيراً من أمواله في سبيل الله سواء في الميدان العسكري كنفقته في غزوة تبوك ، أو في الميدان العمراني كدفعه ثمن زيادة المسجد النبوي ، أو في الميدان الاجتماعي كشرائه بئر رومة .

حاله مع الخليفتين قبله : لما بويع لأبي بكر ﷺ بالخلافة أمسى عثمان ﷺ قريباً منه ، فكان أحد الذين يستعين بهم ويستشيرهم في تسيير شؤون الدولة الإسلامية الوليدة ، ومما يذكر في هذا الصدد أن أبا بكر ﷺ حين جمع كبار الصحابة ليعرض عليهم رأيه ويستشيرهم في توجيه الجيوش لفتح الشام قام عثمان ﷺ وأيد إمضاء هذا المشروع الجهادي[١] .

ومن ناحية أخرى فقد صار عثمان ﷺ أخص الكتاب في عهد أبي بكر ﷺ ، إذ أمره بكتابة عهده لعمر ﷺ بالخلافة من بعده ، ثم طلب منه أن يختمه ويخرج به إلى الناس لبيعة عمر ﷺ[٢] .

ولقد استمر عثمان ﷺ سخي اليد ، كريم النفس في بذل المال في مصالح المسلمين، ومما يروي في هذا المضمار أن شدة حلت بأهل المدينة في زمن أبي بكر ﷺ ، فقدمت من الشام مائة راحلة لعثمان ﷺ محملة بالبر ، فساومه التجار لشرائها منه ، وزادوه في الربح ، فكان يقول لهم :

قد زادوني ، فسألوه في الأخير «من ذا الذي زادك ؟ فقال :

زادني الله عز وجل بكل درهم عشرة ، أعندكم زيادة ؟ قالوا : اللهم لا .

قال : فإني أشهد الله أني قد جعلت هذا الطعام صدقة على فقراء المسلمين »[٣] .

وقد بقي عثمان ﷺ حول أبي بكر ﷺ يسانده ويشد أزره ، بل لوحظ أن عثمان ﷺ كان

---

(١) الأزدي : تاريخ فتوح الشام ، ص ٣ ؛ الكلاعي : الإكتفاء ، جـ ٣ ، ص ١١٢ .
(٢) ابن سعد : الطبقات ، جـ ٣ ، ص ٢٠٠ ؛ السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ٧٧ .
(٣) الآجري : كتاب الشريعة ، جـ ٤ ، ص ٢٠١٣ ؛ المالقي : التمهيد ، ص ٤٣٠ – ٤٣١ .

من بين الصحابة جميعاً ألزمهم له في مرضه الذي توفي فيه(١).

ولما تولى عمر ﷺ الخلافة ظل عثمان ﷺ بجواره ، فكان من ضمن الذين يعرضون آرائهم ، ويطرحون أفكارهم في مختلف القضايا التي تهم المسلمين ، من ذلك عندما واجه عمر ﷺ مشكلة الكتب التي تصدر منه ، أو تأتيه من عماله وليس عليها تاريخ ، وجمع الصحابة لتداول المشورة معهم لوضع تأريخ خاص بالمسلمين ـ كغيرهم من الأمم ، ثم توصلوا إلى أن تكون هجرة الرسول ﷺ حدثاً معتمداً للتقويم الإسلامي .

وعادوا يتشاورون في أي الشهور يبدأون به السنة الهجرية ـ اقترح عثمان ﷺ أن يؤرخوا من شهر الله المحرم ، وعلل ذلك بأن هذا الشهر منصرف الناس من الحج ، وهو أول السنة ، فأخذوا برأيه ، وصار محرم أول شهر تبتديء به السنة الهجرية(٢).

ولقد كان عثمان ﷺ يتابع باهتمام بالغ كغيره من الصحابة أخبار تحركات المجاهدين المسلمين على جبهات القتال خارج الجزيرة العربية في خلافة عمر ﷺ فلما جاء كتاب قائد المسلمين في الشام أبي عبيدة بن الجراح ﷺ يحمل عرض أهل بيت المقدس بتسليم مدينتهم للمسلمين مشروطاً بقدوم أمير المؤمنين بنفسه إليهم ـ كان من رأي عثمان ﷺ بعد استشارته مع جمع من الصحابة ، أن لا يخرج عمر ﷺ إليهم ، لأن المسلمين قد فتحوا بلادهم ، وضيقوا عليهم ، وفي عدم الاستجابة لاقتراحهم استخفاف بهم ، واحتقار لشأنهم ، فهم لن يلبثوا إلا يسيراً حتى ينزلوا على حكم المسلمين(٣).

وحين رأى عمر ﷺ أن استجابته لعرض الروم أجدى مصلحة للمسلمين بناء على رأي بعض الصحابة خرج إلى الشام ، فكان عثمان ﷺ من ضمن الذين صحبوه(٤).

من فضائل عثمان ﷺ وعلمه : لقد ورد على لسان رسول الله ﷺ كلمات وأقوال في مناسبات متعددة تتعلق بعثمان ﷺ تزكي شخصيته ، وتحكي فضائله ، منها أنه من أشبه الصحابة خُلقاً به ﷺ فقد روى أبو هريرة ﷺ ـ بإسناد صحيح ـ قال «دخلتُ على رقية ابنة رسول الله ﷺ امرأة عثمان بن عفان ، وفي يدها مشط ، فقالت : خرج من عندي

(١) ابن سعد : الطبقات ، جـ ٣ ، ص ٢٠٢ .
(٢) السخاوي : الإعلان بالتوبيخ ، ص ١٣٣ .
(٣) الأزدي : تاريخ فتوح الشام ، ص ٢٤٩ .
(٤) الذهبي : عهد الخلفاء الراشدين ، ص ٤٦٧ ، ١٦٢ ، ٢٦٩ ، ٢٧٥ .

رسول الله ﷺ آنفا رجلتُ رأسه ، فقال : كيف تجدين أبا عبد الله ؟ قلت : كخير الرجال . قال : أكرميه ، فإنه من أشبه أصحابي بي خُلُقاً »[١].

ومنها استحياء الملائكة منه ، إذ ثبت عن عائشة رضي الله عنها قالت « كان رسول الله ﷺ مضطجعاً في بيتي ، كاشفاً عن فخذيه أو ساقيه ، فاستأذن أبو بكر ، فأذن له وهو على تلك الحال ، فتحدث ، ثم استأذن عمر ، فأذن له وهو كذلك ، فتحدث ، ثم استأذن عثمان فجلس رسول الله ﷺ وسوى ثيابه ، ... فدخل فتحدث ، فلما خرج قالت عائشة : دخل أبو بكر فلم تهتش له ولم تباله ، ثم دخل عمر فلم تهتش له ولم تباله ، ثم دخل عثمان فجلست وسويت ثيابك . فقال «**ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة**»[٢].

ومنها مغفرة الله تعالى لذنوبه ، فقد ذكر عبد الرحمن بن سمرة ﷺ أنه لما جاء عثمان ﷺ بألف دينار وصبها في حجر النبي ﷺ حين تجهيز جيش العسرة ، جعل النبي ﷺ يقلبها ، وهو يقول « **ما ضر بن عفان ما عمل بعد اليوم** » يردد ذلك مراراً [٣].

أما بالنسبة لعلمه فقد كان عثمان ﷺ من الصحابة الذين جمعوا القرآن حفظاً على عهد رسول الله ﷺ [٤]، بل روى عن الشعبي قوله « لم يجمع القرآن أحد من الخلفاء من الصحابة غير عثمان ، ولقد فارق علي الدنيا وما جمعه »[٥].

ولقد كان مبرزاً بالمناسك ، قال ابن سيرين « كان أعلمهم بالمناسك عثمان ، وبعده ابن عمر»[٦].

كما كان عالماً بالفرائض ، فيروى عن الزهري قوله « لو هلك عثمان بن عفان، وزيد بن ثابت في بعض الزمان لهلك علم الفرائض إلى يوم القيامة ، ولقد جاء على الناس زمان وما يعلمها غيرهما»[٧].

---

(١) أحمد : فضائل الصحابة ، جـ ١ ، ص ٥١٠ ، ٥١٤ ؛
(٢) مسلم : الصحيح ، جـ ٤ ، ص ١٨٦٦ ؛ ابن بلبان : صحيح ابن حبان ، جـ ١٥ ، ص ٣٣٦ .
(٣) أحمد : فضائل الصحابة ، جـ ١ ، ص ٤٥٧ – ٤٥٨ ؛ المحب الطبري : الرياض النضرة ، جـ ٣ ، ص ١٧ .
(٤) اليمني : الرياض المستطابة في جملة من روى في الصحيحين من الصحابة ، ص ١٤ .
(٥) الذهبي : عهد الخلفاء الراشدين ، ص ٤٧٤ .
(٦) المصدر نفسه ، الصفحة نفسها .
(٧) أحمد : فضائل الصحابة ، جـ ١ ، ص ٤٦١ ؛ عبد الله بن أحمد : فضائل عثمان ، ص ٧٨ .

وقد رُوي لـه من الأحاديث عن رسول الله ﷺ مـائة وسـتة وأربعـون حـديثاً [١].

يقول عنه عبد الرحمن بن حاطب «ما رأيت أحـداً مـن أصـحاب رسـول الله ﷺ كـان إذا حدث أتم حديثاً ، ولا أحسن من عثمان بن عفان ، إلا أنه كان رجلاً يهاب الحديث»[٢].

البيعة لعثمان ﷺ بالخلافة : ثبت في الصحيح أنه بعد فـراغ المسلمين مـن دفـن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ بجوار صاحبيه في حجرة عائشة رضي الله عنها ـ اجتمع الرهط الستة الذين جعل عمر ﷺ الخلافة فيهم[٣]، وهم عثمان، وعلي، وعبد الرحمن بن عوف، والزبير بن العوام، وطلحة بن عبيد الله، وسعد بن أبي وقـاص رضـي الله عـنهم فتشاوروا فيما بينهم[٤] ، ويبدو أنهم لم يصلوا إلى شـيء « فقـال : عبـد الـرحمن اجعلـوا أمركم إلى ثلاثة منكم ، فقال الزبير : قد جعلت أمري إلى علي .

فقال طلحة : قد جعلت أمري إلى عثمان .

وقال سعد : قد جعلت أمري إلى عبد الرحمن بن عوف .

فقال عبد الرحمن : أيكما تبرأ من هذا الأمر فنجعلـه إليـه ، واللهُ عليـه والإسـلامُ لينظُرَنَّ أفضلَهم في نفسه ؟ فأسكت الشيخان [أي عثمان وعلي] فقـال عبـد الـرحمن : أفتجعلونه إلي ، والله علي أن لا آلو عن أفضلكم . قالا : نعم » [٥].

---

(١) السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ١٣٦ .

(٢) ابن سعد : الطبقات الكبرى ، جـ ٣ ، ص ٥٧ ؛ السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ١٣٦ .

(٣) البخاري : الصحيح ، جـ ٣ ، ص ١٣٥٦ . كان من الاحتياطات التي قيل إن عمـر ﷺ أمـر بهـا لتهيئـة الظـروف المناسبة لاختيار خليفة للمسلمين من هؤلاء الستة أن أوكل بجمعهم المقداد ﷺ ، وشكل لحمايتهم خمسين رجلاً من الأنصار عليهم أبو طلحة ﷺ ، وقد حدد مدة الاختيار بثلاثة أيام فقط ، وقد أوصـى أن يـصلي بالنـاس في تلـك المدة صهيب ﷺ (الطبري : تاريخ الأمم ، جـ ٤ ، ص ٢٢٩ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ ٧ ، ص ١٤٥)

(٤) البخاري : الصحيح ، جـ ٦ ، ص ٢٦٣٤ . ونقل ابن حجر عن الطبري قوله « لم يكن في أهل الإسلام أحد لـه من المنزلة في الدين والهجرة والسابقة والعقل والعلم والمعرفة بالسياسة ما للستة الذين جعـل عمـر الأمـر شـورى بينهم » (فتح الباري ، جـ ١٣ ، ص ١٩٨) . قال الطبري « أن عمر كـان مـن مذهبـه أن أحـق النـاس بالإمامـة وأولاهم بعقد الخلافة أفضلهم ديناً ، وأنه لا حق للمفضول فيها مع الفاضل ، ولذلك جعلها غير خارجة من بعد مضيه لسبيله في النفر الستة الذين سماهم الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راض ؛ إذ لم يكن فـيمن ينـسب إلى الإسلام يومئذ بعده أحد لـه منزلتهم من الدين ، في الهجرة والسابقة والفـضل والعلـم والمعرفـة بـسياسة الأمـة . وعلى ذلك من المنهاج مضى مـن كـان قبلـه وخلفـه الراشـدون مـن الأئمـة بعـده » (تهـذيب الآثـار ، جـ ٢ ، ص٩٢٥) .

(٥) البخاري : الصحيح ، جـ ٣ ، ص ١٣٥٦ .

فهؤلاء الصحابة قيل إن اجتماعهم كان في بيت المال ، وقيل في حجرة عائشة رضي الله عنها ، وقيل في بيت المسور بن مخرمة ﷺ ، وقيل في بيت فاطمة بنت قيس رضي الله عنها [١].

ولما تداولوا الأمر بينهم ، ولم يصلوا إلى نتيجة ، اقترح عليهم ـ كما هو ظاهر ـ عبد الرحمن بن عوف ﷺ لتضييق مساحة الاختيار بينهم أن يتنازل عن الخلافة نصفهم ، فتخلى عنها سعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام رضي الله عنهم.

فبقيت الخلافة في الثلاثة الباقين عثمان وعلي وعبد الرحمن رضي الله عنهم.

ثم عاد عبد الرحمن ﷺ يعرض رأياً يخرج به واحد منهم من الأمر لتبقى الخلافة في اثنين فقط على أن يقوم هذا المتنازل بالاجتهاد في المفاضلة بين الاثنين ، ويكون رائده في ذلك الإخلاص لله ثم للمسلمين ، فسكت عثمان وعلي رضي الله عنهما [٢]، وعندئذ عرض عليهما أن ينهض هو بهذه المهمة بكل ما أوتي من طاقة ، فوافقاه على ذلك .

طفق عبد الرحمن ﷺ تلك الأيام يلقى الصحابة ومن وافى المدينة من أمراء الأجناد ، وأشراف الناس ينظر رأيهم في الرجلين[٣] ، قال ابن كثير[٤] « نهض عبد الرحمن بن عوف ﷺ يستشير الناس فيهما ، ويجمع رأي المسلمين برأي رؤوس الناس وأقيادهم جميعاً وأشتاتاً ، مثنى وفرادى ومجتمعين ، سراً وجهراً ، حتى خلص إلى النساء المخدرات في حجابهن ، وحتى سأل الولدان في المكاتب ، وحتى سأل من يرد من الركبان والأعراب إلى المدينة في مدة ثلاثة أيام بلياليها فلم يجد اثنين يختلفان في تقدم عثمان بن عفان ... ».

وندع المسور بن مخرمة ﷺ ابن أخت عبد الرحمن بن عوف ﷺ ـ وقد عايش

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ ٧ ، ص ١٤٥ . وانظر الطبري : تاريخ الأمم ، جـ ٤ ، ص ٢٣٠ .
(٢) سكت عثمان وعلي رضي الله عنهما لأن كلاً منهما يرى نفسه جديراً بالخلافة ، خليقاً بأن يتولى أمر المسلمين (الشامي : الخلفاء الراشدون ، ص ٢٧٢) فالمسؤولية متعينة عليهما ، مناطة بهما أكثر من غيرهما .
(٣) الطبري : تاريخ الأمم ، جـ ٤ ، ص ٢٣١ .
(٤) البداية والنهاية ، جـ ٧ ، ص ١٤٦ . وجاء عند بعضهم أن عبد الرحمن ﷺ «خرج يتلقى الناس في أنقاب المدينة متلثماً لا يعرفه أحد ، فما ترك أحداً من المهاجرين والأنصار وغيرهم من ضعفاء الناس ورعاعهم إلا سألهم واستشارهم . أما أهل الرأي فأتاهم مستشيراً ، وتلقى غيرهم سائلاً ، يقول : من ترى الخليفة بعد عمر ، فلم يلقَ أحداً يستشيره ، ولا يسأله إلا ويقول : عثمان» (الإمامة والسياسة ، جـ ١ ، ص ٣٠) .

الحدث ، إذ كانت بيته مكان الاجتماع حسب أحد الأقوال ـ ندعه يحدثنا عما جرى بعد موافقة عثمان وعلي رضي الله عنهما على اقتراح عبد الرحمن ﷺ ، يقول المسور ـ كما في الصحيح ـ

« فلما ولوا عبد الرحمن أمرهم مال الناس على عبد الرحمن ، حتى ما أرى أحداً من الناس يتبع أولئك الرهط ، ولا يطأ عقبه ، ومال الناس على عبد الرحمن يشاورونه تلك الليالي[1] ، حتى إذا كانت الليلة التي أصبحنا منها فبايعنا عثمان ، قال المسور:

طرقني عبد الرحمن بعد هَجْع من الليل [قطعة من الليل] ، فضرب الباب حتى استيقظت ، فقال : أراك نائماً ، فوالله ما اكتحلتُ هذه الثلاث بكبير نوم ، انطلق فادع الزبير وسعداً ، فدعوتهما له ، فشاورهما ، ثم دعاني ، فقال : ادع لي علياً ، فدعوته ، فناجاه حتى ابْهَارَّ الليل [انتصاف الليل] ، ثم قام علي من عنده ...

ثم قال : ادع لي عثمان ، فدعوته ، فناجاه حتى فرق بينهما المؤذن بالصبح ، فلما صلى للناس الصبح ، واجتمع أولئك الرهط عند المنبر ، فأرسل إلى من كان حاضراً من المهاجرين والأنصار ، وأرسل إلى أمراء الأجناد ـ وكانوا وافوا تلك الحجة مع عمر ـ فلما اجتمعوا تشهد عبد الرحمن ، ثم قال :

أما بعد يا علي ، إني قد نظرت في أمر الناس فلم أرهم يعدلون بعثمان ، فلا تجعلن على نفسك سبيلاً ، فقال : أبايعك على سنة الله ورسوله والخليفتين من بعده، فبايعه عبد الرحمن، وبايعه الناس: المهاجرون والأنصار وأمراء الأجناد والمسلمون»[2] .

وهكذا كشف لنا المسور بن مخرمة ﷺ بوضوح أن عبد الرحمن بن عوف ﷺ استطلع خلال ثلاثة أيام آراء الناس في المرشحَين (عثمان وعلي) ، وقد أجهد نفسه ، واهتم بالأمر لحد أنه لم يتمتع بكبير نوم في ليالي تلك الأيام.

ثم في الليلة التي في صباحها تمت البيعة اجتمع بهذين المرشحَين ، وقبلهما بالزبير وسعد ، وبعد ذلك تعمد عقب صلاة الصبح في المسجد من اليوم الرابع أن يجمع

---

(١) في رواية للزهري «يشاورونه ويناجونه تلك الليالي ، لا يخلو به رجل ذو رأي ، يعدل بعثمان أحداً». (ابن حجر: فتح الباري ، جـ ١٣ ، ص ١٩٦) .

(٢) البخاري : الصحيح ، جـ ٦ ، ص ٢٦٣٤-٢٦٣٥ ، ابن حجر : فتح الباري ، جـ ١٣ ، ص ١٩٣-١٩٧ .

الحاضرين من المهاجرين والأنصار ، وكذلك أمراء الأجناد الذين كانوا قد قدموا إلى عمر ﷺ في حج ذلك العام ـ كما هي العادة في كل عام ـ ، وأن يعلن أمامهم بشكل صريح جداً نتيجة ما توصل إليه من كون الناس يفضلون عثمان ، فكان عبد الرحمن ﷺ بفعله هذا غاية في الوضوح بالعمل ، والنزاهة في القصد ، والوفاء بالوعد الذي قطعه على نفسه حينما تولى عملية الانتخاب ، ورضي به الاثنان لاستطلاع الرأي فيهما ، إذ كان بإمكان أي أحد من المسلمين ـ في ظل هذا الجو من حرية الرأي ـ أن يعترض على كلامه الذي قاله أمام الملأ في شأن عثمان ﷺ ، ولما لم يحدث ذلك تقدم بمبايعة عثمان بالخلافة ، ثم تبعه بالبيعة له الحاضرون كلهم أجمعون ، وقد روي أن علياً ﷺ كان المبايع الثاني مباشرة لعثمان ﷺ بعد عبد الرحمن ﷺ [١] .

ومن ناحية أخرى فقد ورد ـ بسند حسن ـ أن عبد الله بن مسعود ﷺ قدم الكوفة بعد استخلاف عثمان ﷺ بأيام ، فقال لأهلها ، بعد أن حمد الله وأثنى عليه : «أما بعد فإن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب مات ، فلم يُر يوم أكثر نشيجاً من يومئذ ، وإنا اجتمعنا أصحاب محمد فلم نألُ عن خيرنا ذي فُوق [ذي فضل] ، فبايعنا أمير المؤمنين عثمان ، فبايعوه »[٢] .

ولقد أحسن الإمام أحمد التعبير في قوله عن البيعة لعثمان ﷺ « لم يجتمعوا على بيعة أحد ما اجتمعوا على البيعة لعثمان»[٣] . وقد تم ذلك ـ طبقاً لما حكاه طائفة من المؤرخين ـ في آخر ذي الحجة سنة ٢٣هـ، أو في غرة المحرم أو في أوائله من سنة ٢٤هـ[٤] . فأصبح عثمان ﷺ الخليفة الثالث للمسلمين .

خطبته ﷺ عقب تسلمه الخلافة : ومما يروى أن عثمان ﷺ لما بويع له بالخلافة أتى

---

(١) ابن سعد : الطبقات ، جـ ٣ ، ص ٦٢ .

(٢) أحمد : فضائل الصحابة ، جـ ١ ، ص ٤٦٧ ؛ عبد الله بن أحمد : فضائل عثمان ، ص ٩١ ؛ المالقي : التمهيد ، ص١٣١ .

(٣) ابن تيمية : منهاج السنة ، جـ ٦ ، ص ١٥٤ . هناك أقوال واهية أوردها بعض الإخباريين زعموا أن عمر ﷺ قالها عند وصيته بشأن الخلافة ، أو أن علياً ﷺ قالها عند البيعة لعثمان ﷺ . انظر الرد عليها في ابن تيمية : منهاج السنة ، جـ ٦ ، ص ١٧٣ ؛ ابن كثير : خلافة عثمان ، ص ٣٠ ؛ اليحيى : مرويات أبي مخنف ، ص ١٧٥-١٧٧ .

(٤) الطبري : تاريخ الأمم ، جـ ٤ ، ص ٢٤٢ ؛ ابن كثير : خلافة عثمان ، ص ٣٢-٣٣ ؛ ابن حجر : الإصابة ، جـ٤ ، ص ٤٥٨-٤٥٩ .

منبر رسول الله ﷺ ـ وهو أشدهم كآبة ـ فخطب الناس ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على النبي ﷺ وقال « إنكم في دار قُلْعَة [أي تحول] ، وفي بقية أعمار ، فبادروا آجالكم بخير ما تقدرون عليه ، فلقد أُتيتم ، صُبحتم أو مسيتم . ألا وإن الدنيا طويت على الغرور ، فلا تغرنكم الحياة الدنيا ، ولا يغرنكم بالله الغرور . اعتبروا بمن مضى ، ثم جدوا ولا تغفلوا ، فإنه لا يُغْفَل عنكم ، أين أبناء الدنيا وإخوانها الذين أثاروها وعمروها ، ومتعوا بها طويلاً ؟ ألم تلفظهم ؟ . ارموا بالدنيا حيث رمى الله بها ، واطلبوا الآخرة ، فإن الله قد ضرب لها مثلاً ، وللذي هو خير ، فقال عز وجل: ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ (الكهف ، آية ٤٥ - ٤٦) »[١] .

أما ما يُذكر أن عثمان ﷺ لما خطب أول خطبة أُرْتِجَ عليه [أي استغلق عليه الكلام] ، فقال : « أيها الناس ، إن أول كل مركب صعب ، وإن أعش فستأتيكم الخطب على وجهها ، وسيجعل الله بعد عسر يسراً »[٢]، فيقول عنه ابن كثير[٣] أنه «شيء يذكره صاحب العقد [الفريد] وغيره ممن يَذكر طُرف الفوائد ، ولكن لم أرَ هذا بإسناد تسكن النفس إليه » .

المنجزات في عهد عثمان ﷺ : في خضم أحداث الفتنة التي جرت في آخر أيام عثمان ﷺ يغفل كثيرون عن المنجزات العظيمة التي شهدتها الدولة الإسلامية في عهده ، رغم أن في بعض هذه المنجزات ما نَقَلَ المسلمين نقلة نوعية بعيدة في ميدان المواجهة العسكرية مع الأعداء ، وبعضها بقي أثره مستمراً في حياة المسلمين حتى هذا الزمان . ومنجزات عثمان ﷺ التي سنتحدث عنها بالتفصيل في الصفحات التالية هي :

ـ استكمال الفتوحات الإسلامية .

---

(١) الطبري : تاريخ الأمم ، جـ ٤ ، ص ٢٤٣ ؛ ابن كثير : خلافة عثمان ، ص ٣٣-٣٤ .

(٢) ابن عبد ربه : العقد الفريد ، تحقيق العريان ، جـ ٤ ، ص ١٣٣ ، ٢٠٢ . وانظر ابن سعد : الطبقات ، جـ ٣ ، ص٦٢ . فيه ألفاظ الخطبة مختلفة ، وليس فيه أنه أُرْتج عليه .

(٣) خلافة عثمان ، ص ٣٤ . انظر روايات هذه الخطبة وطرقها في كتاب مشهور حسن سلمان : قصص لا تثبت ، جـ٢ ، ص ٦٧-٧٤ .

- إنشاء الأسطول الإسلامي والفتوحات البحرية .
- نسخ القرآن في مصحف واحد .
- توسعة المسجدالحرام وعمارته .
- توسعة المسجد النبوي وعمارته .

أولاً .استكمال الفتوحات الإسلامية : كانت الجيوش الإسلامية في عهد عمر بن الخطاب ﷺ ـ كما سلف ـ قد هزمت في آن واحد جيوش الفرس والروم في معارك فاصلة، ومواقف حاسمة ، فقوضت أركان الدولة الفارسية ، وسيطرت على جل أملاكها، بينما انتزعت من دولة الروم أهم أرضيها ، فسيطرت على الشام ومصر وما جاورهما، وحين وفاة عمر ﷺ لم يكن سلطان المسلمين في تلك البلاد المفتوحة حديثاً قد استقر، ولا الإسلام فيها قد انتشر ، بل كان أصحاب السلطان البائد في تلك البلاد يتربصون بالمسلمين الدوائر ، ويترقبون الفرص للخروج عليهم .

ولذا فبمجرد أن ذاع خبر استشهاده ﷺ سارعت عدد من الأقاليم التابعة سابقاً للدولة الفارسية وما حولها ـ إلى نبذ طاعة المسلمين ، كما انقلبت على المسلمين ـ بأثر من الروم ـ الإسكندرية وبعض موانيء الشام ، فانبرى الخليفة الجديد عثمان ﷺ إلى الوقوف بكل حزم وقوة تجاه تلك الحركات المناوئة ، فكان « كفؤاً لها بالعزم والرأي والسرعة في تصريف الأمور ، وتسيير النجدات ، وإسناد كل عمل إلى من يحسنه ، ويسد فيه أحسن سداد »[١].

ولقد كان الجهاد في أوائل عهده «أحوج إلى التوجيه الناجز ، والتصريف الذي لا يعني الاجمال فيه عن التفصيل ، على حسب الأطوار المتجددة والطواريء المتقلبة ـ لامتداد خطوط القتال ، وتعدد الفتن ، وتباعد المسافات بين البلدان ، وتكاثر العناصر والأجناس في جيوش المسلمين .

فقام الخليفة ... بأعبائه الجسام على أحسن ما يقام بها في تلك المحنة الجائحة ، وكان له ولا شك أكبر الفضل في تثبيت مهابة الدولة الجديدة بعد ما أصابها من ...

(١) عباس محمود العقاد : عثمان بن عفان ذو النورين ، ص ١٣١ .

التخلخل عند مقتل عمر [ﷺ] ، فوقر في أخلاد الأمم المحيطة بها أنهم ينازلون قوماً لا يقدح في قوتهم موت خليفة ، أو تبديل قائد ، وأنهم منتصرون مستميتون في سبيل النصر على اختلاف القادة والرؤساء»[١] .

ولقد واصل عثمان ﷺ مشروع الفتح الإسلامي ، فحشد لهذا الهدف الجيوش ، وانتخب القادة الأكفياء ، وتجاوب مع المستجدات ، فأثمر ذلك عن تثبيت لأقدام المسلمين في البلاد المفتوحة قبل عهده ، وفتح لبلاد جديدة ، وخوض بخطوات واثقة وجريئة لميدان الغزو البحري . وفيما يلي نقف عند هذه الأعمال بشيء من التفصيل .

١ ـ إخضاع البلاد الفارسية المتمردة وفتح أراضٍ جديدة : بعد أن نشأت البصرة والكوفة في عهد عمر بن الخطاب ﷺ صار لكل واحدة منهما واليها الخاص ، وجيشها المنفرد ، فكانت الجيوش الإسلامية تنطلق منهما لفتح البلاد الفارسية ، سواء التقت مع بعضها بعضاً ، واتحدت تحت لواء واحد ، أو أخذ كل جيش منهما وجهته التي وجه إليها ، وذلك حسب الأوامر الصادرة من خليفة المسلمين . ولقد كان لولاة هاتين المدينتين في عهد عثمان ﷺ جهودهم في توطيد الحكم الإسلامي فيما فتح سابقاً من البلاد الفارسية ، أو في فتح مدن جديدة فيها أو فيما جاورها من بلدان[٢] .

ففيما يتعلق بالبصرة فقد سار واليها أبو موسى الأشعري نحو مدينة الري [شمال وسط إيران] التي كان الحكم الإسلامي فيها مضطرباً ، وقد أعلنت عصيانها في أوائل عهد عثمان ﷺ ، واستطاع أبو موسى ﷺ أن يفتتحها مرة أخرى[٣] ، ومن يومها استقامت طاعتها للمسلمين[٤] .

ولقد كان لعبد الله بن عامر بن كريز الذي خلف أبا موسى ﷺ على ولاية البصرة سنة ٢٩ هـ ، وضم إليه عثمان ﷺ معها ولاية فارس[٥] في غربي إيران ـ كان له جهوده الموفقة في ضرب المتمردين على الحكم الإسلامي في البلاد الفارسية ، وتحويل الغارات

---

(١) العقاد : عثمان ، ص ١٣٣ - ١٣٤ .
(٢) راجع العمري : الفتوح الإسلامية ، ص ١٥٦ ؛ حسين مؤنس : أطلس تاريخ الإسلام ، ص ١٢٩ .
(٣) خليفة بن خياط : تاريخه ، ص ١٥٧ ؛ ابن كثير : خلافة عثمان ، ص ٥٥ .
(٤) البلاذري : فتوح البلدان ، ق ٢ ، ص ٣٩١ .
(٥) خليفة بن خياط : تاريخه ، ص ١٦١ .

السريعة والضربات الخاطفة فيها إلى فتح دائم مستقر[(١)].

ففي السنة التي قدم فيها البصرة ثار أهل إقليم فارس ثورة عارمة على عاملهم عبيد الله بن معمر، وتجمعت جموعهم لقتاله، ثم اشتبكت معه قرب إصطخر، وتمكنت من هزيمته وقتله، فحينئذ استنفر عبد الله بن عامر أهل البصرة للجهاد، ثم خرج بهم والتقى بأهل إصطخر في معركة شرسة انتهت بهزيمتهم، ودخوله المدينة عنوة.

ثم توجه بعد ذلك إلى المدن الأخرى المتمردة في الإقليم، ففتح مدينة دارابجرد، ثم فتح مدينة جور، وحين انشغاله بذلك عاد أهل إصطخر إلى الثورة مرة أخرى، فرجع إليهم وقاتلهم قتالاً عنيفاً، وضرب مدينتهم بالمجنيق، وتمكن من دخول المدينة بالقوة بعد أن قتل خلقاً من أهلها[(٢)]. وبإخماد حركة أهل إصطخر أحكم المسلمون سيطرتهم على إقليم فارس، وتحولت حاضرته إصطخر إلى قاعدة إسلامية[(٣)].

ومن جهة أخرى فقد كان من ضمن البلاد التي انتقضت على المسلمين بعد وفاة عمر بن الخطاب ﷺ كَرْمان [جنوب شرقي إيران] وسِجِستان [شرقي إيران] وخُراسان [شمال غربي إيران]، ولذا فقد كلف عثمان ﷺ واليه على البصرة عبد الله بن عامر بإعادة الحكم الإسلامي إلى تلك البلاد، فجهز جيشاً كبيراً، وخرج به من قاعدته البصرة عام ٣١ هـ، وجعل وجهته الأساسية خراسان، وفي طريقه إليها بعث قسماً من جيشه إلى كرمان، وقسماً آخر إلى سجستان، فنجحا في إعادة الحكم الإسلامي إلى هذين الإقليمين.

بينما استمر هو ببقية الجيش نحو خراسان، وحين حل بهذا الإقليم أخذ يوجه السرايا إلى مدنه وقراه، فبادرت بالتسليم والطاعة، ثم وصل إلى مشارف مدينة نيسابور، واستولى على عدد من أعمالها كباخرز وجوين وبيهق وبشت، ثم وصل نيسابور نفسها وتسمى أَبْرَشَهْر، وضرب عليها الحصار لمدة شهر، فطلب أهلها الأمان، فصالحهم على ألف ألف درهم (مليون درهم). ثم وجه ابن عامر قادته إلى باقي مدن

---

(١) حسين مؤنس : أطلس تاريخ الإسلام، ص ١٣٠ .
(٢) البلاذري : فتوح البلدان، ق ٢، ص ٤٧٩-٤٨٠ ؛ ابن الأثير : الكامل، جـ ٣، ص ١٠١ .
(٣) حسين مؤنس : أطلس تاريخ الإسلام، ص ١٣٠ .

خراسان : نَسَا وسَرَخْس وطُوس وهَرَاة ومَرْو ، فتمكنوا من إخضاعها جميعاً [١].

وبعد أن أخضع عبد الله بن عامر خراسان ، وأعادها إلى رواق الدولة الإسلامية ـ سير الأحنف بن قيس إلى المناطق المجاورة لها من الشرق بلاد الترك الهياطلة[٢]، فدخل الأحنف طخارستان التي اجتمع مع أهلها أهل الجوزجان والطالقان والفارياب ومن حولهم ، فبلغوا ثلاثين ألفا ، والتحق بهم أهل الصغانيان [على الجانب الشرقي لنهر جيحون] ، فاشتبك معهم الأحنف الذي كان في خمسة آلاف فقط ، وتمكن من هزيمتهم ، ورجع إلى مرو الروذ.

في حين سار الأقرع بن حابس التميمي إلى الجوزجان التي لحق بها بعض العدو ، فالتقى بهم هناك وهزمهم ، وفتح الجوزجان عنوة . ثم لم ينشب الأحنف بن قيس أن انطلق بجيشه من مرو إلى مدينة بَلْخ ، فافتتحها صلحاً ، ثم سار نحو خوارزم على نهر جيحون فلم يقدر عليها[٣].

أما فيما يتصل بالكوفة فقد سار واليها من قبل عثمان ﷺ الوليد بن عقبة في أربعين ألف رجل سنة ٢٤ هـ نحو أذربيجان [شمال غربي إيران] التي نقضت الصلح مع المسلمين بعد وفاة عمر ﷺ بقليل ، فلما حل بها وأيقن أهلها أنهم غير قادرين على مواجهة المسلمين سألوه الصلح ، فصالحهم على ما كانوا قد صالحوا عليه من قبل ، ثم أرسل سرايا إلى البلاد المجاورة ، فنجحت في مهامها [٤].

ومن الكوفة غزا سعيد بن العاص الذي خلف الوليد بن عقبة ـ طبرستان [جنوب بحر قزوين] ؛ حيث خرج إليها سنة ٣٠ هـ بجيش يضم عدداً من الصحابة ، على رأسهم حذيفة بن اليمان ، والحسن والحسين إبنا علي بن أبي طالب ، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وعبد الله بن الزبير رضي الله عنهم جميعاً ، فلما نزل بأرض طبرستان لم يمر على بلد فيها إلا خضع له ، وأقر بدفع

---

(١) البلاذري : فتوح البلدان ، ق ٣ ، ص ٤٩٩ – ٥٠١ ؛ ابن الأثير : الكامل ، جـ ٣ ، ص ١٢٣ – ١٢٥ .
(٢) مؤنس : أطلس تاريخ الإسلام ، ص ١٣٠ .
(٣) البلاذري : فتوح البلدان ، ق ٣ ، ص ٥٠٢ – ٥٠٤ ؛ ابن الأثير : الكامل ، جـ ٣ ، ص ١٢٥ – ١٢٧ .
(٤) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ، ص ٢٤٧ ؛ ابن كثير : خلافة عثمان ، ص ٥٥ .

الجزيـــة[١].

ثم زحف من طبرستان إلى جرجان الكائنة بينها وبين خراسان ، فقاتله أهلها قتالاً شديداً عند مدينة يقال لها طَمِيسة حتى صلى بجيشه صلاة الخوف ، وقد صمد سعيد ومن معه من المسلمين في القتال ، وحاصروا تلك المدينة إلى أن طلب أهلها الأمان والصلح ، فسارع سعيد بإجابتهم إلى طلبهم ، وفرض عليهم جزية سنوية ما بين مائة ألف وثلاثمائة ألف دينار[٢].

٣ ـ مقتل آخر حكام الفرس يزدجرد الثالث : كان يزدجرد قد فر هارباً من قصره في المدائن خائفاً على نفسه حين سمع بعبور المسلمين دجلة ، وتوجههم لفتح المدائن سنة ١٦ هـ ، ثم عاد وجمع قومه الفرس لمقاتلة المسلمين في نهاوند سنة ٢١ هـ ، لكن انتصار المسلمين الحاسم في هذه المعركة ، ودخولهم نهاوند زاده هلعاً وخوفاً ، فلم يقر له بعدها قرار ، فظل يتنقل من مدينة إلى أخرى ، ومن بلد إلى آخر مدة عشر سنوات ، والمسلمون من جانبهم يتتبعون أثره ويطاردونه.

وخلال تلك السنوات توسل إلى بعض عماله من ولاة الأقاليم الفارسية فلم يخلصوا له ، وطلب نصرة جيرانه الترك فلم يُقدموا على نصرته بالشكل المطلوب ، وانتهى به المطاف أن اختلف مع مرزبان مرو ، فاستعان هذا الأخير بالترك وقاتله ، فانهزم يزدجرد ، وقُتل أصحابه ، ونُهب عسكره ، وعُقر فرسه ، فهرب من ميدان المعركة ناجياً بنفسه ، ماشياً على قدميه ، هائماً على وجهه حتى أوى في الليل إلى بيت رجل ينقر الأرحية ، أو بيت طحان على نهر المرغاب ، فقيل إن هذا الطحان قتله طمعاً بما معه من الذهب والحلي ، وقيل قتله غيره ، وكان ذلك في سنة ٣١ هـ .

وقد صورت الروايات شيئاً من البؤس الذي عاشه في أيامه الأخيرة ، فذكرت أنه كان يستجدي من حوله طالباً الأكل والشرب لسد رمقه[٣]. فسبحان الذي لا يزول

---

(١) ابن كثير : خلافة عثمان ، ص ٥٦ .

(٢) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ، ص ٢٦٩ – ٢٧١ ؛ ابن الأثير : الكامل ، جـ ٣ ، ص ١٠٩ – ١١١ . انظر البلاذري : فتوح البلدان ، ق ٢ ، ص ٤١١ .

(٣) البلاذري : فتوح البلدان ، ق ٢ ، ص ٣٨٧ – ٣٨٨ ؛ الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ، ص ٣٩٣ – ٣٠٠؛ ابن الأثير : الكامل ، جـ ٣ ، ص ١١٩ – ١٢٣ . يزدجرد الذي بلغ به البؤس والجوع والخوف هذا =

ملكه، ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (آل عمران ، آية ٢٦).

قال ابن كثير[1] «وكان مُلك يزدجر عشرين سنة ، منها أربع سنين في دَعَة ، وباقي ذلك هارباً من بلد إلى بلد خوفاً من الإسلام وأهله . وهو آخر ملوك الفرس في الدنيا على الإطلاق لقول رسول الله ﷺ (**إذا هلك قيصر فلا قيصر بعده وإذا هلك كسرى فلا كسرى بعده ، والذي نفسي بيده لتنفق كنوزهما في سبيل الله**) رواه البخاري ، وثبت في الحديث الصحيح أنه لما جاء كتاب النبي ﷺ مزقه كسرى ، فدعا عليه النبي ﷺ أن يُمَزق ملكه كل ممزق ، فوقع الأمر كذلك».

٣ ـ فتح أَرْمِيْنَيِة والقوقاز وغزو بلاد الخزر : تقع أرمينية جنوب القوقاز ، في الشمال الشرقي من هضبة الأناضول[2] ، ويحدها من الشرق بحر الخزر وأذربيجان[3] ، ومن الجنوب أقليم الجزيرة الفراتية شمالي العراق[4] . ويقسمها الجغرافيون القدامى إلى أربعة أقسام تبتديء من الشرق وتنتهي في الغرب ، فيقسمونها إلى أرمينية الأولى ، ثم الثانية ، ثم الثالثة ، ثم الرابعة[5] .

بدأ دخول المسلمين الأراضي الأرمينية عقب فتحهم الجزيرة الفراتية في عهد عمر ابن الخطاب ﷺ ، وكان ذلك على شكل سرايا قادها عياض بن غُنْم وعثمان بن أبي العاص ، وقد انطلقت تلك السرايا غالباً من مدينة الرها ، وتوجهت إلى القسم الغربي

= المبلغ كان قبل سنوات يحكم دولة مترامية الأطراف ، متوافرة الجيوش ، مرهوبة الجانب ، وكان يأمر فيها وينهى فلا يعصى ، ويتقلب في نعيم الدنيا حيث شاء ، وكان إذا جلس على كرسيه في أيوانه وضع رأسه تحت تاج من الذهب زنته ٩١ كغم معلق بسلسلة من الذهب أيضاً طولها سبعون ذراعاً ، وكان إذا أذن بدخول أحد عليه من رعاياه سحب من كمه ، وكمم فمه حتى لا تلوث أنفاسه الذات الملكية ، فإذا اقترب ارتمى أمام كسرى ، فلا يقف حتى يؤذن له بذلك ، فإذا دعي للحديث بدأ بعبارة « أنوشك بويد » يعني خلدك الله . وكان هناك رجل مهمته ـ إذا جلس كسرى في مجلسه قبل أن ترفع الستارة ـ يردد عبارة تقول « يا لسان أحفظ رأسك ، فإنك تجالس ملك الملوك»، فلا يجترىء أحد أن يحرك لسانه حتى ترفع الستارة . راجع (كمال : سقوط المدائن ، ص ٥٤ - ٥٥)

(١) خلافة عثمان ، ص ٥٧ .

(٢) محمود شيث خطاب : قادة الفتح الإسلامي في أرمينية ، ص ٢١ .

(٣) سترك : إرمينية ـ دائرة المعارف الإسلامية ـ جـ ١ ، ص ٦٣٧ .

(٤) خطاب : قادة الفتح الإسلامي في أرمينية ، ص ٤٦ .

(٥) البلاذري : فتوح البلدان ، ق ١ ، ص ٢٣٣ ؛ ياقوت : معجم البلدان ، جـ ١ ، ص ١٦٠ . راجع خارطة أرمينية في خطاب : قادة الفتح الإسلامي في أرمينية ، ص ٢٣ .

من أرمينية ، وهو ما يسمى بأرمينية الرابعة كما سلف ، وقد فتحت بعض مدنها ، وعقد الصلح مع أهلها[١] .

على أن الفتح الإسلامي المنظم لكامل أراضي أرمينية لم يحصل إلا في خلافة عثمان ﷺ ، فقد كتب عثمان ﷺ لحبيب بن مسلمة الفهري الذي كان ذا أثر جميل في جهاد الروم ـ يأمره بغزو أرمينية ، فنهد في ستة آلاف (٦٠٠٠) ، ويقال في ثمانية آلاف (٨٠٠٠) رجل من أهل الشام والجزيرة الفراتية وغزا بهم أرمينية الرابعة (الغربية) ، فأتى مدينة «قالِيْقَلا»[٢] الواقعة قرب الحدود الشرقية للدولة البيزنطية[٣] ، ويبدو أنها كانت حاضرة المنطقة ، فلما نزل بساحتها خرج أهلها إليه ، فقاتلهم حتى انهزموا إلى مدينتهم وتحصنوا بها ، ثم طلبوا منه الأمان على الجلاء والجزية ، فوافق على ذلك ، ودخل المسلمون المدينة بعد أن تركها كثيرمن أهلها ولحقوا ببلاد الروم[٤] ، وكان ذلك في سنة ٢٥ هـ[٥] .

وبعد مرور عدة أشهر من إقامة المسلمين في قاليقلا جاءت الأخبار إلى حبيب بن مسلمة تفيد بأن المَوْريان حاكم أرميناقُس[٦] شرع بالاستعداد لقتال المسلمين ، فجمع جموعاً كبيرة من الروم وأهل أرمينية ومجاوريهم من اللان والخزر[٧] ، وقد بلغت تلك الحشود ثمانين ألفاً[٨] .

وعندئذ كتب حبيب لأمير المؤمنين عثمان ﷺ يسأله المدد ، فكتب عثمان ﷺ إلى معاوية ﷺ عامله على الشام يأمره بندب من يرغبون بالجهاد في سبيل الله من أهل الشام والجزيرة ، فبعث إليه بألفي رجل .

كما كتب عثمان ﷺ أيضاً إلى عامله على الكوفة سعيد بن العاص ﷺ يأمره بإمداد

(١) البلاذري : فتوح البلدان ، ق ١ ، ص ٢٠٨ ، ٢٠٩ ؛ ابن الأثير : الكامل ، جـ ٣ ، ص ٥٣٣ ، ٥٣٤ ، ٥٣٥ .
(٢) البلاذري : فتوح البلدان ، ق ١ ، ص ٢٣٤ .
(٣) خطاب : قادة الفتح الإسلامي في أرمينية ، ص ٤٠ .
(٤) البلاذري : فتوح البلدان ، ق ١ ، ص ٢٣٤ ؛ ابن الأثير : الكامل ، جـ ٣ ، ص ٨٤ .
(٥) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٣ ، ص ٨١ .
(٦) يذكر ابن الأثير أن المَوْريان كان يحكم آسيا الصغرى المجاورة لأرمينية من الغرب (الكامل ، جـ ٣ ، ص ٨٤) .
(٧) البلاذري : فتوح البلدان ، ق ١ ، ص ٢٣٤ .
(٨) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ،ص ٢٤٨ ؛ ابن الأثير : الكامل ، جـ ٣ ، ص ٨٤ .

حبيب بجيش من أهل الكوفة يقوده سلمان بن ربيعة الباهلي ، فجهز جيشاً قوامه ستة آلاف رجل ، وسار بهم سلمان نحو أرمينية[١] .

بيد أن جيش المَوْريان أقبل على المسلمين في أرمينية قبل وصول تلك الإمدادات ، ولذا عزم حبيب بن مسلمة على الاشتباك مع ذلك الجيش ، فبيته بمن معه من المسلمين ، ونجحوا في اختراق صفوفه ، وتمزيقه شر ممزق بعد الخلوص إلى قائده الموريان وقتله .

ومما يذكر هنا أن أم عبد الله بنت يزيد الكلبية زوجة حبيب شاركت في هذه المعركة مشاركة فعالة ، فحين سمعت ما قرره زوجها من تبيت القوم سألته «فأين موعدك؟ قال : سرادق الموريان أو الجنة» ، فلما جرت المعركة وانهزم العدو ، أتى السرادق ، فوجد امرأته قد سبقته[٢] .

وعند فراغ المسلمين من عدوهم وصلت الإمدادات ، فأسكن حبيب المدد القادم من الشام والجزيرة في مدينة قاليقلا ، وجعلهم بها مرابطة[٣] ، ثم تقاسم مع جيش الكوفة الذي كان يقوده سلمان لفتح بقية أرمينية ، فسار حبيب يفتح مناطقها الغربية ، فكان من أبرز المدن التي أخضعت له خِلاط ودَبِيْل والنَّشَوَى[٤] ، ثم تجاوز أرمينية شمالاً ودخل أراضي بعض الدويلات الصغرى في بلاد القوقاز ، مثل جُرْزان وباب اللان والصَّنّارية والدوْدَانية[٥] .

بينما سار سلمان يفتح الجهات الشرقية من أرمينية ، وهي ما يعرف بأرمينية الأولى ، ففتح مدينة بَرْذَعة وغيرها من المدن[٦] ، ثم تعدى ذلك شمالاً صوب البلاد القوقازية ، فأخضع وصالح عدداً من سكان وحكام تلك البلاد ، مثل شكن وخيزان وشروان وغيرهم[٧] .

---

(١) البلاذري : فتوح البلدان ، ق ١ ، ص ٢٣٤ .

(٢) البلاذري : فتوح البلدان ، ق ١ ، ص ٢٣٤ ؛ الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ، ص ٢٤٨ ؛ ابن الأثير : الكامل ، جـ ٣ ، ص ٨٤ .

(٣) البلاذري : فتوح البلدان ، ق ١ ، ص ٢٣٤ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ٢٣٦- ٢٣٧ .

(٥) محمد بن سليمان الراجحي : المسلمون والخزر ، ص ٦١ - ٦٤ .

(٦) البلاذري : فتوح البلدان ، ق ١ ، ص ٢٤٠ ؛ ابن الأثير : الكامل ، جـ ٣ ، ص ٨٥ .

(٧) الراجحي : المسلمون والخزر ، ص ٦٤ - ٦٥ .

ومن ناحية أخرى فقد كان لعبد الرحمن بن ربيعة الباهلي ـ أخي سلمان ـ أثر في الجهاد في هذه البلاد ، إذ كان على مقدمة الجيش التي توجه في الأعوام الأخيرة من عهد عمر ﷺ إلى باب الأبواب الواقعة على مقربة من الساحل الغربي لبحر قزوين ، ثم قاد سرية استطلاعية تجاوزت إلى بَلَنْجَر في بلاد الخزر(١) ، وفي عهد عثمان ﷺ كانت غزوته المنظمة إلى هذه البلاد ، حيث ترأس سنة ٣٢ هـ جيشاً ، وسار به حتى حاصر مدينة بلنجر ، ولكن الخزر ما لبثوا أن برزوا إليه وقاتلوه بمساعدة الترك قتالاً عنيفاً ، فكانت النتيجة استشهاد عبد الرحمن نفسه ، وافتراق جيشه إلى فرقتين ، فرقة تراجعت إلى باب الأبواب والتحقت بأخيه سلمان بن ربيعة ، والأخرى التي كان فيها بعض كبار الصحابة كسلمان الفارسي ﷺ وأبي هريرة ﷺ ـ سلكت طريق جيلان وجرجان(٢) .

وهكذا نجح المسلمون في عهد عثمان ﷺ في فتح أرمينية ، وكذلك في بسط سلطانهم داخل بلاد القوقاز التي تتميز بموقعها الاستراتيجي التي كان قديماً منطقة تنافس بين الروم والفرس والخزر ، بل وفوق ذلك غدوا في مواجهة مباشرة مع مملكة الخزر(٣) .

٤ ـ استعادة المدن الساحلية الشامية المتمردة وغزو بلاد الروم: هاجم الروم البيزنطيون في أواخر أيام عمر ﷺ أو أول خلافة عثمان ﷺ سواحل الشام ، وتغلبوا على بعضها ، لكن معاوية بن أبي سفيان ﷺ والي الشام سارع باستعادها بعد أن طرد الروم منها ، ثم قرر فتح مدينة طرابلس التي مازالت حتى ذلك الحين تحت الحكم الرومي البيزنطي(٤) ، ويبدو أن لها أثراً كبيراً في الهجوم الرومي السابق على سواحل الشام ، فوجه إليها سفيان بن مجيب الأزدي الذي عمد إلى حصارها بقطع المؤن والإمدادات عنها من جهة البر والبحر جميعاً .

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٣ ، ص ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٣ ، ص ١٣١ - ١٣٢ . ينسب البلاذري هذه الحملة إلى سلمان بن ربيعة الباهلي أخي عبد الرحمن الذي سردنا حملته في المتن ، حيث يقول بعد أن ذكر فتحه لعدد من المدن ((ولقيه خاقان في خيوله خلف نهر البلنجر ، فقتل رحمه الله في أربعة آلاف من المسلمين)) (فتوح البلدان ، ق ١ ، ص ٢٤٠-٢٤١) وقد تابع ذلك عدد من المصادر (اليعقوبي : تاريخه ، جـ ٢ ، ص ١٦٨ ؛ ابن أعثم : الفتوح ، جـ٢ ، ص ١١٣ - ١١٤ ؛ ياقوت : معجم البلدان ، جـ ١ ، ص ٣٠٥ ، ٤٨٩) راجع في مناقشة هذه الرواية (الراجحي : المسلمون والخزر ، ص ٦٧ - ٧١) .

(٣) الراجحي : المسلمون والخزر ، ص ٧٤ .

(٤) البلاذري : فتوح البلدان ، ق ١ ، ص ١٥٠ .

وفي سبيل إحكام الحصار حولها والإصرار على فتحها قام ببناء حصن قريب منها عرف باسمه ، فسمي حصن سفيان ، فكان يبيت فيه ليلاً مع أصحابه ، ثم يغدو في النهار منه للتضييق على أهل المدينة وضرب مصالحهم ، الأمر الذي جعلهم يجتمعون في واحد من حصونهم الثلاثة ، ويكاتبون الإمبراطور البيزنطي طالبين منه إما إمدادهم بقوة عسكرية ، أو بمراكب يهربون عليها ، فبعث إليهم بمراكب كثيرة ركبوها في الليل وأخلوا المدينة ، فغدا سفيان عليها في الصباح فوجدها خالية فدخلها ، ثم كتب إلى معاوية ﷺ بالفتح ، فاسكنها جماعات من اليهود[1] ، وكان فتح مدينة طرابلس فيما يظهر سنة ٢٦هـ[2] .

وعلى صعيد آخر فقد غزا معاوية ﷺ بلاد الروم أكثر من مرة في عهد عثمان ﷺ ، منها أنه خرج في سنة ٢٥ هـ نحو عمورية ، فلما سمع به الروم أخلوا ما بين أنطاكية وطرسوس ، فجعل عندها جماعة من أهل الشام والجزيرة حتى انصرف من غزوته . وبعد ذلك بسنة أو سنتين أغزى يزيد بن الحر العبسي أنطاكية[3] . وفي سنة ٣١ هـ غزا معاوية ﷺ ناحية المصيصة[4] ، وبعد ذلك بسنتين قام بحملة نحو نواحي ملطية[5] .

٥ ـ استعادة الإسكندرية : كانت مدينة الإسكندرية إحدى المدن التي نبذت طاعة المسلمين في عهد عثمان ﷺ ، فقيل في رواية إن الروم البيزنطيين كاتبوا إخوانهم من الروم المقيمين فيها وزينوا لهم اشعال الثورة على المسلمين ، فوافقوا على ذلك ، لا سيما بعد أن تأكدوا من تسيير قسطنطين بن هرقل جيشاً كبيراً نحو الإسكندرية بقيادة مانويل الخصي[6] ، وقيل في رواية أخرى إن المبادرة كانت من الروم المقيمين في الإسكندرية ، إذ

(١) البلاذري : فتوح البلدان ، ق ١ ، ص ١٥٠ - ١٥١ . وفي تعليل إسكان اليهود في طرابلس راجع عبد العزيز سالم: طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي ، ص ٣٦ .
(٢) أحمد مختار العبادي وعبد العزيز سالم : تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام ، ص ١٩ .
(٣) البلاذري : فتوح البلدان ، ق ١ ، ص ١٩٥ ؛ ابن الأثير : الكامل ، جـ ٣ ، ص ٨٦ .
(٤) البلاذري : فتوح البلدان ، ق ١ ، ص ١٩٥ .
(٥) خليفة بن خياط : تاريخه ، ص ١٦٧ ؛ ابن الأثير : الكامل ، جـ ٣ ، ص ١٣٧ . وقد ذكر الطبري عن أبي معشر والواقدي أنه في سنة ٣٢ هـ كانت غزوة معاوية ﷺ مضيق القسطنطينية ، ومعه زوجته عاتكة أوفاختة بنت قرظة (تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ، ص ٣٠٤ ؛ ابن كثير : خلافة عثمان ، ص ٦٨) راجع صابر محمد دياب : دراسات في التاريخ الإسلامي ، ص ٢٥ - ٢٦ .
(٦) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٣ ، ص ٨١ .

هم الذين كتبوا إلى قسطنطين يخبرونه بقلة من عندهم ، وفي الوقت نفسه يصفون له ما حل بهم من هوان في ظل الحكم الجديد ، ويطلبون نجدته ، فأرسل إليهم قائده مانويل الخصي[١] .

على أي حال فقد قدم الجيش الرومي البيزنطي عن طريق البحر في أسطول ضخم ، وتمكن سنة ٢٥ هـ من دخول الإسكندرية بمساعدة مَنْ بها من الروم[٢] ، ثم تجاوزها إلى ما حولها من قرى ، فقام بسلبها ونهبها .

وبينما كان هذا الجيش يستعد للزحف جنوباً تحرك المسلمون في مصر سريعاً بقيادة عمرو بن العاص ﷺ للتصدي له ، فتقابل الجمعان عند أحد الحصون على نهر النيل ، ووقع قتال ضارٍ بينهما أسفر في النهاية على هزيمة منكرة للجيش الرومي ، ثم ولت فلوله مدبرة إلى الإسكندرية معتصمة بها ، فتبعهم المسلمون واقتحموا عليهم المدينة بعد ضرب لأسوارها بالمجانيق ، فقتلوا المقاتلة ، وسبوا الذرية ، وقد أفلت بعض الجند الروم من أيدي المسلمين دون قائدهم مانويل الذي كان من ضمن القتلى[٣] . وبهذا الفتح يكون المسلمون قد استعادوا الإسكندرية مرة ثانية إلى حوزتهم ، وقضوا على الوجود الرومي فيها .

٦ . فتح إفريقية : كان عبد الله بن سعد بن أبي سرح ﷺ الذي خلف عمرو بن العاص ﷺ في مصر قد استمر في إرسال السرايا من الخيل إلى أطراف إفريقية كما كان يفعل قبله عمرو ﷺ ، فيصيب المسلمون منها ويغنمون[٤] ، ثم كتب إلى عثمان ﷺ عن نتائج تلك السرايا ، فأخبره بقرب إفريقية «من حرز المسلمين ، ويستأذنه في غزوها»[٥] .

ولا شك أن عبد الله بن سعد ﷺ حين بعث السرايا إلى حدود تلك البلاد كان هدفه في الأساس هو الاستكشاف ، وجس نبض العدو ، والتعرف على قدراته

---

(١) البلاذري : فتوح البلدان ، ق ١ ، ص ٢٦٠ .
(٢) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٣ ، ص ٨١ .
(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ، ص ٢٠٢- ٢٠٣ ؛ البلاذري : فتوح البلدان ، ق ١ ، ص ٢٦٠ .
(٤) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ، ص ٢١٠ ؛ البلاذري : فتوح البلدان ، ق ١ ، ص ٢٦٧ ؛ المالكي : رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية ، جـ ١ ، ص ١٤ ؛ ابن عذاري : البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، جـ ١ ، ص ٩ .
(٥) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ، ص ٢١٠ .

العسكرية ، ويبدو أنه أبلغ الخليفة عثمان ﷺ حقيقة الموقف بدقة ، وأن الظروف أضحت مواتية لفتحها [١].

ولذا نرى عثمان ﷺ الذي كان « متوقفاً عن غزوها»[٢] يبحث مع الصحابة في المدينة مسألة فتحها ، ويستشيرهم في ذلك ، فلما وجد تأييداً من جمهورهم أذن لعبد الله بن سعد بالتوجه إليها [٣]، ثم ندب الناس للغزو ، وفتح بيوت السلاح ، وأعان بألف بعير من ماله الخاص ، يحمل عليها فقراء المجاهدين[٤].

فلما اجتمعوا وتجهزوا قام فيهم خطيباً ، فكان مما قاله بعد تنويهه بعبد الله بن سعد ﷺ ، ووصيته له بالمسلمين «وأوصيكم وإياه أن لا يهولنكم كثرة العدو ، وقد علمتم ما أنزل الله عليكم ، حيث يقول ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾، أما علمتم أن أول هذه الأمة ما نصروا إلا بكثرة الصبر وقوة اليقين ؟ ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، استودعكم الله وهو خير الحافظين ، سيروا على بركة الله ، وعليه فتوكلوا ، وبه فاتقوا »[٥].

---

(١) سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربي ، جـ ١ ، ص ١٤٧ .

(٢) البلاذري : فتوح البلدان ، ق ١ ، ص ٢٦٧ .

(٣) أبو العرب بن تميم : طبقات علماء إفريقية ، ص ١٢- ١٣ ؛ المالكي : رياض النفوس ، جـ ١ ، ص ١٤- ١٥ .
ونورد فيما يلي تفاصيل الرواية التي علمنا من خلالها مشاورة عثمان ﷺ للصحابة في فتح إفريقية ، إذ فيها تصوير دقيق لجانب من طبيعة حياة خليفة المسلمين وقتذاك ، وأسلوبه في الحكم . «عن المسور بن مخرمة بن نوفل الزهري قال : خرجت من منزلي بليل طويل أريد المسجد ، فإذا بعثمان ﷺ في مصلى النبي ﷺ يصلي ، فصليت خلفه ، ثم جلس فدعا ليلاً طويلاً ، حتى أذن المؤذن ، ثم قام منصرفاً إلى بيته ، فقمت في وجهه فسلمت عليه ، فقال : يا ابن مخرمة ـ واتكأ على يدي ـ إني استخرت الله تعالى في ليلتي هذه في بعث الجيوش إلى إفريقية ، وقد كتب إلي عبد الله بن سعد يخبر بخبره مع المشركين وغلبهم ، وقرب حوزتهم من المسلمين ، فقلت : خار الله لأمير المسلمين ، قال : فما رأيك يا ابن مخرمة ؟ قلت : اغزهم ، قال : اجمع اليوم الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ واستشيرهم ، فما أجمعوا عليه فعلته ، أو ما أجمع عليه أكثرهم فعلته ، فكن أنت رسولي إليهم ، واحضر معهم ، فقلت : لِمَ قلت لي اجمع ولم تسمِ لي من أجمع ؟ فقال : إيت علياً وطلحة والزبير والعباس ، وذكر رجالاً ، فخلا بكل واحد منهم في المسجد ، ثم دعا أبا الأعور سعيد بن زيد ، فقال له عثمان : ما كرهت يا أبا الأعور من بعثة الجيوش إلى إفريقية ؟ فقال له : سمعت عمر يقول : لاأغزيها أحداً من المسلمين ما حملت عيناي الماء ، فلا أرى لك خلاف عمر ... فلم يختلف أحد ممن شاوره غيره »(المالكي : رياض النفوس ، جـ ١ ، ص ١٤- ١٥)

(٤) ابن عذاري : البيان المغرب ، جـ ١ ، ص ٩ .

(٥) عبيد الله بن صالح : نص جديد عن فتح العرب للمغرب ، صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد ، م ٢ ، ص ٢١٥- ٢١٦ .

وكان قد خرج في هذا المدد جمع من الصحابة كعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن عباس ، وعبد الله بن عمرو ، وعبد الله بن الزبير ، والمسور بن مخرمة رضي الله عنهم أجمعين ، فلما وصلوا إلى مصر انضموا إلى الجيش الإسلامي في مصر ، فصار عدده حينئذ عشرين ألف رجل[١].

خرج عبد الله بن سعد ﷺ بجيشه من الفسطاط سنة ٢٧ هـ نحو الغرب ، فمر ببرقة ، ثم بعث بسرية تقدمت عليه إلى طرابلس التي كانت قد خرجت عن طاعة المسلمين ، فاشتبكت هذه السرية مع بعض أهلها ، ولما أقبل ابن سعد بالجيش تحصنوا داخل أسوارهم ، فحاول اقتحام المدينة ، ولكنه لم ينشب ـ حين استعصت عليه ـ أن تركها خلف ظهره[٢].

كما ترك مدينة قابس بعدها ، حيث أشار عليه من معه من المسلمين بعدم الانشغال بالحصون قبل ملاقاة جموع الروم ، فاستمر في سيره حتى حل بإفريقية[٣]. فهو لم يشأ أن يقف عند تلك المدن لكي لا ينهك جيشه بحصارها ، فضلاً عن أن الوقوف عندها يعطله كثيراً عن هدفه الأساس ، غزو إفريقية[٤].

كانت إفريقية أيامذاك قاعدة البطريق جريجوريوس الذي يسميه العرب جرجير أو جرجيس ، وكان قد استقل عن الإمبراطورية البيزنطية ، وامتدت مناطق حكمه من طرابلس شرقاً إلى طنجة غرباً [٥]، وقد اتخذ مدينة سبيطلة في إفريقية عاصمة له[٦]، وكان تقع جنوب غرب الموضع الذي أسس فيه المسلمون فيما بعد مدينة القيروان[٧]، على بعد سبعين ميلاً منه[٨].

---

(١) المالكي : رياض النفوس ، جـ ١ ، ص ١٥ ، ١٦ ، ١٧ .
(٢) المصدر نفسه ، ص ١٧ .
(٣) عبيد الله بن صالح : نص جديد عن فتح العرب ، ص ٢١٦ .
(٤) سالم : تاريخ المغرب ، ص ٧٠ .
(٥) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ، ص ٢١٠ . راجع سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب ، جـ ١ ، ص ١٥٢ ؛ حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب ، ص ٤٥ - ٤٧ ، ٧٤ - ٧٦ .
(٦) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٣ ، ص ٨٩ .
(٧) أحمد مختار العبادي : في تاريخ المغرب والأندلس ، ص ٣٨ .
(٨) خليفة بن خياط : تاريخه ، ص ١٥٩ .

واصل عبد الله بن سعد ﷺ زحفه حتى وصل إلى بلدة قمونية القريبة من سبيطلة ، فاتخذها معسكراً لجيشه[١] ، وأخذ يبث منها السرايا هنا وهناك في أرجاء إفريقية ، وعندئذ خرج جريجوريوس من سبيطلة على رأس جيش قوامه مائة وعشرون ألف رجل[٢] ، فراسله عبد الله بن سعد ﷺ ، وعرض عليه الإسلام أو الجزية ، فأبى إلا القتال[٣] .

فالتقى الطرفان في سهل عقوبة بالقرب من سبيطلة[٤] ، ونشب القتال بينهما أياماً دون أن ترجح كفة أحدهما على الآخر ، وحيث أن القتال كان على مدار تلك الأيام يبدأ من الصباح وينتهي عند الظهر ـ فقد باغت ابن سعد ﷺ في اليوم الأخير الرومَ بالهجوم عليهم بعد الظهر ، وكانوا قد أخلدوا إلى الراحة والاسترخاء عقب قتال الصباح ، واستطاع بعض المسلمين ـ في مقدمتهم عبد الله بن الزبير ﷺ ـ أن يخترقوا الجيش الرومي ، ويصلوا إلى جريجوريوس في مخيمه ويقتلوه . وبقتله انهزم جيشه هزيمة نكراء ، وحال المسلمون بين فلوله المنهزمة وبين الاعتصام بمدينة سبيطلة ، ثم بادروا بمحاصرتها حتى تمكنوا من دخولها[٥] .

ثم قام ابن سعد ﷺ بعد ذلك ببث فرق من جيشه في البلاد ، ففتحت عدة مدن ، فلما رأي أمراء إفريقية أنه لا قِبَل لهم بالمسلمين ركنوا إلى الصلح ، وطلبوا من ابن سعد ﷺ أن ينسحب بجيشه مقابل جزية سنوية قدرت في رواية بثلاثمائة قنطار من الذهب[٦] ، وفي رواية أخرى بمليونين وخمسمائة ألف دينار (ألفي ألف دينار وخمسمائة ألف دينار) . فوافق على ذلك ، ثم عاد بجيشه إلى مصر محملاً بالغنائم تاركاً إفريقية خلفه . وقد استغرقت هذه الحملة سنة وثلاثة أشهر[٧] .

---

(١) المالكي : رياض النفوس ، جـ ١ ، ص ٢٠ .
(٢) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٣ ، ص ٨٩ . وقد ورد عند المالكي نقلاً عن خليفة بن خياط أن عدد جيش جرجير كانوا مائة ألف (رياض النفوس ، جـ ١ ، ص ١٩) وفي المطبوع من تاريخ خليفة بن خياط (ص ١٥٩) أنهم كانوا مائتي ألف .
(٣) المالكي : رياض النفوس ، جـ١ ، ص ١٧ ؛ ابن الأثير : الكامل ، جـ ٣ ، ص ٨٩ .
(٤) البلاذري : فتوح البلدان ، ق ١ ، ص ٢٦٩ .
(٥) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٣ ، ص ٨٩ - ٩٠ .
(٦) المالكي : رياض النفوس ، جـ ١ ، ص ٢٠ ؛ ابن عذاري : البيان ، جـ ١ ، ص ١٢ .
(٧) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٣ ، ص ٩١ . ويرى سعد زغلول عبد الحميد أن التواريخ المختلفة في حملة سبيطلة بين ٢٧ هـ و٢٨ هـ و٢٩ هـ يمكن التوفيق بينها بالقول بأن «خروج عبد الله بن سعد من مصر قد حدث في أواخر سنة ٢٧ هـ ، واستغرقت الحملة سنة ٢٨ هـ ، وعادت في أوائل سنة ٢٩ هـ» (تاريخ المغرب ، جـ ١ ، ص١٦٢) .

وهكذا انتصر عبد الله بن سعد ﷺ على جريجوريوس حاكم إفريقية ، فقتله وحطم جيشه الكبير ، فكان في ذلك بداية قوية لمرحلة جديدة من الفتوحات الإسلامية دخل فيه المسلمون ميداناً جديداً في عهد عثمان ﷺ لم تصل إليه قواتهم من قبل ، ونعني به بلاد المغرب .

٧ـ فتح النوبة : كانت النوبة ـ كما ورد في كتب الجغرافية الإسلامية ـ بلاداً واسعة في جنوبي مصر ، تبتدي أرضيها من بعد جنوب أسوان ، وعاصمتها مدينة دُمْقُلَة على نهر النيل[(١)]. ويلاحظ مدى التداخل بين أهل مصر وأهل النوبة من خلال المعاهدة التي كتبها عمرو بن العاص ﷺ للمصريين ، إذ ورد فيها ذكر النوبة عدة مرات[(٢)].

كان المسلمون في عهد عمر بن الخطاب ﷺ أيام ولاية عمرو بن العاص ﷺ على مصر قد غزوا بلاد النوبة ، ولكن أهلها قاتلوهم قتالاً شديداً ، واستخدموا مهارتهم العالية في دقة الرمي ، فسددوا نبالهم إلى أعين المسلمين ، ولذلك انصرف المسلمون بجراحات كثيرة ، وحدق مفقوءة ، دون أن يتمكنوا من فتح تلك البلاد[(٣)].

بيد أن خضوع بلاد النوبة للمسلمين قد جرى في عهد عثمان ﷺ أيام ولاية عبد الله بن سعد بن أبي سرح ﷺ على مصر ، ذاك أن النوبيين قد أكثروا من غاراتهم على الصعيد ، فأخربوا وأفسدوا ، فغزاهم عبد الله بن سعد ﷺ عام ٣١ هـ ، وتوغل في بلادهم حتى وصل إلى عاصمتهم دمقلة ، فحاصرها حصاراً شديداً ، ولما رماهم بالمجنيق خافوا على أنفسهم ، فخرج حاكمهم مذعناً بالصلح ، فتلقاه ابن أبي سرح ، وكتب بينهما معاهدة في رمضان من تلك السنة.

وكان من أبرز شروطها أن يتكفل النوبة بدفع ثلاثمائة وستين رأساً من الرقيق ، وقد وعدهم عبد الله بن سعد بأن يبعث إليهم قمحاً وشعيراً وعدساً وثياباً وخيلاً[(٤)].

---

(١) ياقوت :معجم البلدان ، جـ ٥ ، ص ٣٠٩ . راجع خارطة ٦٥ في (حسين مؤنس : أطلس تاريخ الإسلام ، ص١١٩)

(٢) فهمي سعد : انتشار الإسلام في إفريقيا في العصور الوسطى ، ص ٢٣ .

(٣) البلاذري : فتوح البلدان ، ق ١ ، ص ٢٨٠ .

(٤) المقريزي : المواعظ والاعتبار ، جـ ١ ، ص ٢٠٠ . راجع ابن عبد الحكم : فتوح مصر ، ص ٢١٥ ، ٢١٦ ؛ البلاذري : فتوح البلدان ، ق ١ ، ص ٢٨٠ ، ٢٨١ ؛ الكندي : ولاة مصر ، ص ٣٦ ؛ ابن الأثير : الكامل ، جـ٢ ، ص ٥٦٧ .

وقد عرفت هذه المعاهدة بمعاهدة «البقط»، ورغم أنها تعرضت فيما بعد لبعض الخروقات[١] إلا أن العمل بها ظل سارياً زمناً طويلاً وصل إلى ستة قرون[٢].

ثانياً - إنشاء الأسطول الإسلامي والفتوحات البحرية :

أ. إنشاء الأسطول[٣] الإسلامي : رغم أن عرب الحجاز ومن حولهم من العرب كانوا قبل الإسلام يعرفون البحر، ويخوضون غماره ـ وإن كان على نطاق محدود ـ في التجارة، وفي التنقل غير البعيد لأهل السواحل منهم ـ إلا أن استخدامهم له في المجال الحربي يكاد يكون معدوماً لعدم حاجتهم إليه، ولذلك فإنه لما ظهر الإسلام فيهم، وحملوه خارج الجزيرة العربية، وفتحوا بلاد الشام ومصر وجدوا أنفسهم في سنوات معدودات أمام قوة عسكرية بحرية جبارة، ونعني بها الأساطيل الرومية (البيزنطية) التي كانت تمخر عباب البحر المتوسط، وتستأثر بالسيطرة عليه منذ أمد بعيد، لدرجة أن هذا البحر لم يعد يعرفه الناس حينها إلا ببحر الروم.

إزاء هذا الواقع الجديد انتهج المسلمون سياسة بحرية واقعية بعيدة عن الارتجال؛ ففيما يتعلق بفتح المدن الساحلية وجدوا أن خير طريقة للاستيلاء علي أي منها هو تشديد حلقة الحصار عليها من جميع جهاتها البرية، وانتهاز الفرص المواتية لاقتحام أسوارها[٤]. وبعد الفتح كانوا يبادرون بوضع حاميات قوية في تلك المدن، يقول أحد الرواة « كان المسلمون كلما فتحوا مدينة ظاهرة أو عند ساحل رتبوا فيها قدر من يحتاج لها إليه من المسلمين، فإن حدث في شيء منها حدث من قبل العدو سربوا إليها الإمداد»[٥].

ونظراً للمعاناة التي لقيها المسلمون من قبل أسطول الروم عند فتحهم المدن الساحلية في الشام ومصر، ثم ما عايشوه من هجماته بعد فتحها فقد أدركوا ـ وعلى رأسهم معاوية بن أبي سفيان ﷺ والي الشام حيذاك ـ أن احتفاظهم بتلك المدن، بل

---

(١) فهمي سعد : انتشار الإسلام، ص ٢٥ .
(٢) الأمين عوض الله : الخلفاء الرشدون، ص ١٠١ ؛ العمري : الفتوح الإسلامية، ص ١٥٠ .
(٣) الأسطول كلمة يونانية stoles، وتعني مجموعة السفن (الخربوطلي : الحضارة، ص ٦٠)
(٤) إبراهيم العدوي : قوات البحرية العربية، ص ١٦ .
(٥) البلاذري : فتوح البلدان، ق ١، ص ١٥٢ .

بقاءهم في هذه البلاد بصورة أعم مرهون بالاستيلاء على جزر البحر المتوسط الرومية التي كانت في حقيقتها قواعد بحرية كانت تمد المدن الساحلية عشية فتحها ، ثم صارت بعد الفتح مراكز انطلاق للهجوم عليها [١].

ولذلك خاطب معاوية ﷺ أمير المؤمنين عمر ﷺ يستأذنه بفتح جزيرة قبرص ، وأوحى إليه بقربها من الشام[٢] ، ولكن عمر ﷺ تريث في الرد عليه ، واستشار القادة المسلمين ، فكتب إلى عمرو بن العاص ﷺ في هذا الأمر ، فوصف له عمرو ﷺ خطورة ركوب البحر في رسالة مشهورة[٣] ، وعندئذ رفض عمر ﷺ طلب معاوية ﷺ ، وقال «تالله لمسلم أحب إلي مما حوت الروم ، فإياك أن تعرض لي»[٤] .

ولعل عمر ﷺ في ذلك الوقت رأي أن استعدادات المسلمين وخبرتهم غير مؤهلة لمثل تلك العمليات البحرية ، وأن الظروف العسكرية غير مواتية للدخول في مواجهات جديدة ، ولذا نراه يأمر معاوية ﷺ بإصلاح السواحل ، والتيقظ لغارات الأعداء ؛ حيث كتب إليه « في مرمة [ترميم] حصونها ، وترتيب المقاتلة فيها ، وإقامة الحرس على مناظرها ، واتخاذ المواقيد لها»[٥] . طفق معاوية ﷺ في تنفيذ أمر الخليفة ، فقام بمزيد من التحصين للمدن الساحلية ، وزودها بالمقاتلين ، وشجع المجاهدين على اتخاذها رباطاً ، فانتهى الأمر إلى تأمين السواحل من الهجمات المعادية أولاً ، وتمهيد العمل لتأسيس قواعد إسلامية للهجوم البحري ثانياً [٦] .

---

(١) العدوي : قوات البحرية ، ص ١٨ .

(٢) قال معاوية ﷺ في رسالته « يا أمير المؤمنين ، إن بالشام قرية يسمع أهلها نباح كلاب الروم ، وصياح ديوكهم ، وهم تلقاء ساحل من سواحل حمص » (الطبري : تاريخ الأمم ، جـ ٤ ، ص ٢٥٩) ويرى العقاد أن مقصودة جزيرة أرواد (عثمان بن عفان ذو النورين ، ص ١٣٥)

(٣) قال فيها « إني رأيت خلقاً كبيراً ، يركبه خلق صغير ، إن ركن خرق القلوب ، وإن تحرك أزاغ العقول ، يزداد فيه اليقين قلة ، والشك كثرة ، هم فيه كدود على عود ، إن مال غرق ، وإن نجا برق» وهناك رواية أخري ، وكلا الروايتين عن طريق سيف بن عمر (الطبري : تاريخ الأمم ، جـ ٤ ، ص ٢٥٨) . لو صحت هذه الرسالة فلا ينبغي أن يتصور أن عمر ﷺ لا يعرف البحر ، لأن قريشاً قبل الإسلام كانت تعرف البحر ، وجاء في القرآن ذكره في عدة آيات ، ولكن يحمل سؤال عمر ﷺ لعمرو ﷺ عن البحر ، ومن ثم وصف عمرو ﷺ للبحر بهذه العبارات بأنه أراد أن يعرف رأيه عن ركوبه في الحقل الحربي .

(٤) الطبري : تاريخ الأمم ، جـ ٤ ، ص ٢٥٩

(٥) البلاذري : فتوح البلدان ، ص ١٥٢ .

(٦) العدوي : قوات البحرية ، ص ٢٠-٢١ .

ولما تولى عثمان ﷺ الخلافة أخذت السواحل من عنايته مكانها ، فاتخذ خطوة جديدة ، فبجانب الأمر بمواصلة تحصينها ، وشحنها بالمجاهدين ، فقد صدر توجيهه إلى معاوية ﷺ بمنح الراغبين في نزولها إقطاعات من الأرض للبناء فيها واستثمارها [١] .

وقد ترتب على ذلك أن زاد العمران بالسواحل ، وانثال الناس عليها من كل جهة للتمتع بامتيازات الإقامة بها ، وبمرور الأيام تعودوا على التعامل مع البحر ، وتنامت فيهم ملكة ركوبه[٢] .

ثم لا ننسى أن معاوية ﷺ واصل فتوحاته لبقية مدن الشام الساحلية[٣]، ولما تم فتح المدن الساحلية ـ سواء هذه أو التي فتحت قبلاً ـ كان من الطبيعي أن يهيمن المسلمون على دور الصناعة بها ، وأن يستولوا على ما تركه الروم من سفن حربية جاهزة أو في سبيلها إلى التجهيز ، أو سفن تجارية يمكن استغلالها في نقل الجنود أو العتاد ، وأن يسخروا الملاحين والصناع في تلك المدن ، ويستفيدوا منهم في الميدان البحري[٤] .

وفي فتح مدينة طرابلس الشام في أوائل عهد عثمان ﷺ ما يلهم أن المسلمين غدوا يملكون سفناً ، فقد ورد أن معاوية ﷺ حين وجه إليها سفيان بن مجيب « قطع المادة عن أهلها من البحر وغيره ، وحاصرهم » [٥]، ولا يمكن أن يحاصروها بهذه الصورة من دون أن تكون لهم سفن يتحكمون فيها .

وإذا كان ما سبق من أمر عثمان ﷺ لمعاوية ﷺ بتحصين السواحل ، وتشجيع المسلمين على السكنى في المدن الساحلية بإقطاعهم الأراضي فيها كان تأسيساً لقواعد الأسطول الإسلامي ، وحشداً منظماً لرجاله وآلاته فإن الخطوة الأخيرة في انطلاق نشاط هذا الأسطول ، وقدرته على المواجهة العسكرية ضد الأسطول الرومي العتيد ، والتحرك

---

(١) البلاذري : فتوح البلدان ، ق ١ ، ص ١٥٢ .
(٢) العدوي : قوات البحرية ، ص ٢١ .
(٣) البلاذري : فتوح البلدان ، ق ١ ، ص ١٥٠ ، ١٩٥ .
(٤) أرشيبالد لويس : القوى البحرية والتجارية ، ص ٩٠ ؛ حسن محمود : الإسلام في حوض البحر المتوسط ، ص٣٨ .
(٥) البلاذري : فتوح البلدان ، ق ١ ، ص ١٥٠ .

بقوة وعزم وثقة لفتح جزر البحر المتوسط ـ حدثت حين أذن عثمان ﷺ بركوب المسلمين البحر للغزو ، حيث كتب إلى معاوية ﷺ في هذا الشأن ، وقال له «لا تنتخب الناس ، ولا تُقرع بينهم . خيِّرهم ، فمن اختار الغزو طائعاً فاحمله وأعنه »[١].

فاشترط عثمان ﷺ بأن يكون ركوب البحر للغزو تطوعاً ، فلا يُرغَم أحد من المسلمين على ذلك ، وأن تتولى الدولة الإسلامية الإعداد للغزو في البحر، وأن تجهز المجاهدين وتعينهم في مهمتهم . وليمنح عثمان ﷺ رجال البحر المسلمين الثقة والثبات ـ وهم في بداية الطريق ـ اشترط على معاوية ﷺ بأن يشارك بنفسه وزوجه في غزو البحر . فكتب إليه مؤكداً عليه « فإن ركبت البحر ومعك امرأتك ، فأركبه مأذوناً لك ، وإلا فلا»[٢].

ولاستكمال بناء الأسطول الإسلامي والمحافظة عليه بعد الأذن بغزو البحر أصدر عثمان ﷺ مرسوماً إلى معاوية ﷺ ـ بصفته مسؤولاً عن سواحل الشام كلها ـ يأمره فيه «أن يُعِد في السواحل إذا غزا أو أغزى جيوشاً سوى من فيها من الرتب ، وأن يقطع الرتب أرضين ، ويعطيهم ما جلا عنه أهله من المنازل ، ويبني المساجد ، ويُكبِّر ما كان ابتنى منها قبل خلافته»[٣].

فهذا المرسوم ينص على ثلاثة أمور .

الأول : أن تقام في الموانيء جيوش بديلة عن الجيوش الغازية في حالة غيبتها ، ليضمن ـ بعد الله ـ سلامة سفن الأسطول ورجاله ، ويحمي خط رجعته ، ويحافظ على سلامة الموانيء من هجمات غادرة تدمره ، وتدمر ما فيها من مكتسبات .

الثاني : أن يمنح المنتظمون في سلك الأسطول (الرتب : الجند النظامي) الأراضي على الساحل، ويكافؤون فوق ذلك بإعطائهم منازل الجالين من تلك السواحل .

الثالث : أن تبنى في تلك الموانيء مساجد جديدة ، وأن توسع المساجد التي بنيت هناك قبل خلافة عثمان ﷺ . **وفائدة** وجود المساجد والتوسع فيها في هذه الثغور لاتخفى،

---

(١) الطبري : تاريخ الأمم ، جـ ٤ ، ص ٢٦٠ .
(٢) البلاذري : فتوح البلدان ، ق ١ ، ص ١٨١ .
(٣) البلاذري : فتوح البلدان ، ق ١ ، ص ١٥٢ .

إذ ستكون أمكنة للعبادة والعلم ، ومراكز تجمع للمجاهدين وحشد لهم .

وهكذا كان لأمير المؤمنين عثمان بن عفان ﷺ الأثر المشهود في تأسيس الأسطول الإسلامي ، وبناء قدراته ، إذ أصدر قراره أولاً بالتشجيع على السكنى عند البحر ، وقد تمثل بمنح إقطاعات على السواحل ، ثم أذن ثانياً بالغزو البحري بشروط تضمن التحرك في البحر بعيداً عن الارتجال والمغامرات ، ثم توج ذلك كله بإجراءات تأمن سلامة الأسطول ورجاله ، وتكفل حماية الموانيء ، وتساعد على استمرار ازدهارها .

ب .فتح جزيرة قبرص : تحتل جزيرة قبرص موقعاً مميزاً في الزاوية الشمالية الشرقية من البحر المتوسط ، وهي أشبه بـ (مسدس) فوهته مصوبة إلى إقليم الشام القريب منها ، وقد ارتبط مصيرها بأحوال القوى التي ظهرت بهذا الإقليم ، ومن المؤكد أن معاوية بن أبي سفيان ﷺ قد أدرك أهمية هذه الجزيرة ، وضرورة فتحها بعد سيطرة المسلمين على الشام ، إذ كانت نقطةَ انطلاق للروم في الهجوم على الشام ، ومحطةَ تموين لهم ، وملجأً يعتصمون به عند تراجعهم أمام المسلمين[١] .

ولذا فقد طلب معاوية ﷺ من عمر ﷺ الإذن بفتحها ، فرفض كما سبق أن عرفنا ، فلما ولي عثمان ﷺ الخلافة بادر بطلب الإذن بفتحها ، ولكن عثمان ﷺ رد عليه بعدم الموافقة ، حيث كتب إليه « أن قد شهدتُ ما رد عليك عمر رحمه الله ، حين استأمرتَه في غزو البحر »[٢] .

وكما مر قبل قليل فقد اجتهد معاوية ﷺ في العمل على تهيئة المسلمين في الشام لركوب البحر ، ثم جاءت أوامر عثمان ﷺ تدعم هذا المشروع ، وبعد حوالي ثلاث سنوات، أي في سنة ٢٧ هـ ، عاود معاوية ﷺ طلبه من عثمان ﷺ الأذن بفتح جزيرة قبرص، مهوناً عليه ركوب البحر ، فوافق عثمان ﷺ هذه المرة ، ولكن اشترط عليه أن يخرج هو وزوجه على رأس الغزاة المبحرين إلى تلك الجزيرة أولاً[٣]، وأن لا يَرْكَبَ معه أحدٌ من المسلمين إلا عن رغبة وطواعية دون إكراه ثانياً[٤] .

---

(١) العدوي : قوات البحرية ، ص ٢٩ ، ٣٠ .
(٢) البلاذري : فتوح البلدان ، ق ١ ، ص ١٨١ .
(٣) البلاذري : فتوح البلدان ، ق ١ ، ص ١٨١ .
(٤) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ، ص ٢٦٠ .

وبناء على هذا التوجيه من عثمان ﷺ انطلق معاوية ﷺ ومعه امرأته فاختة بنت قرظة من ميناء عكا في سفن كثيرة ، وذلك عقب انحسار شتاء سنة ٢٨ هـ ، وقيل سنة ٢٩ هـ، وقد صحبه عدد من الصحابة ، منهم أبو أيوب الأنصاري ، وأبو الدرداء ، وأبو ذر، وعبادة بن الصامت ، وفضالة بن عبيد ، وعمير بن سعد ، وواثلة بن الأسقع ، وشداد بن أوس ، والمقداد رضي الله عنهم أجمعين[١]. ولا ريب أن ركوب أعلام الصحابة ـ بمثل هذا الجمع ـ البحر للمشاركة في فتح جزيرة ، مثل جزيرة قبرص ـ له أثره الفاعل في تشجيع بقية المسلمين على الدخول إلى هذا المضمار ، والمشاركة فيه بفعالية ونشاط .

ولقد شارك الأسطول الإسلامي المصري في هذه الغزوة ، ففي الوقت الذي أبحر فيه معاوية ﷺ بالمسلمين من الشام كان عبد الله بن سعد بن أبي سرح ﷺ قد أبحر بالمسلمين من مصر ، وعند لقائهما صار معاوية ﷺ على المسلمين جميعاً[٢]، أما القيادة الحربية الميدانية للأسطول فقد أسندها معاوية ﷺ لعبد الله بن قيس الفزاري[٣].

وصل المسلمون جزيرة قبرص ، ونزلوا على ساحلها ، فاشتبكوا مع أهلها في قتال عنيف ، فقتل المسلمون منهم «خلقاً كثيراً ، وسبوا سبايا كثيرة ، وغنموا مالاً جزيلاً»[٤]، وعلى إثر ذلك خضع بقية أهلها ، فبعث حاكمها (أركونها) يطلب الصلح[٥]، فصالحه

---

(١) البلاذري : فتوح البلدان ، ق ١ ، ص ١٨١ ، ١٨٢ .

(٢) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ، ص ٢٦٢ ؛ ابن الأثير : الكامل ، جـ ٣ ، ص ٩٦ ؛ ابن كثير : خلافة عثمان ، ص ٦٦ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٣ ، ص ٩٦ .

(٤) ابن كثير : خلافة غثمان ، ص ٦٦ . ولقد فصّل العدوي في أحداث فتح قبرص ، فأشار إلى أن المسلمين لما نزلوا بعدتهم وعتادهم بالجزيرة أخبروا أهلها بأهدافهم ، لكن أهل الجزيرة تحت ضغط الروم أبوا المفاوضات ، واعتصموا بأسوار مدنهم ، فتقدم المسلمون نحو العاصمة قنسطنطينا التي كانت غاصة بالسكان ، وبها ثروات الجزيرة وذخائرها ، وبعد حصار قصير اقتحم المسلمون المدينة ، واستولوا على كنوزها ، وأخذوا كثيراً من الأسرى ، واضطر حاكم العاصمة إلى عقد الصلح (قوات البحرية العربية ، ص ٣٢) .

(٥) البلاذري : فتوح البلدان ، ق ١ ، ص ١٨١ . ولقد ورد بإسناد صحيح عن جبير بن نفير قال « لما سبيناهم نظرت إلى أبي الدرداء يبكي ، فقلت له : ما يبكيك في يوم أعز الله فيه الإسلام وأهله ، وأذل فيه الكفر وأهله ؟ قال : فضرب بيده على منكبي ، وقال : ثكلتك أمك يا جبير ! ما أهون الخلق على الله إذا تركوا أمره ، بينا هي أمة ظاهرة قاهرة للناس ، لهم الملك ؛ إذ تركوا أمر الله ، فصاروا إلى ما ترى ، فسلط عليهم السباء ، وإذا سلط السباء على قوم فليس لله فيهم حاجة » (الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، الطبري جـ ٤ ، ص ٢٦٢ ؛ ابن كثير : خلافة عثمان ، ص ٦٦) .

معاوية ﷺ على شروط ، من أهمها : جزية سنوية مقدارها سبعة آلاف دينار ، النصيحة للمسلمين ، إنذار المسلمين بأي تحرك رومي (بيزنطي) ضدهم[١].

وعليه فبموجب هذه المعاهدة فقد صار على القبارصة الإلتزام بالحياد التام حال النزاع بين المسلمين والروم[٢]، ولذا كان المسلمون بعد ذلك « إذا ركبوا البحر لم يعرضوا لهم ، ولم ينصرهم أهل قبرص ، ولم ينصروا عليهم »[٣].

ومما يذكر هنا أن النساء المسلمات شاركن في هذه الغزوة البحرية ، فبجانب فاختة بنت قرظة زوجة معاوية ﷺ فقد شاركت أيضاً أم حرام بنت مِلْحَان رضي الله عنها امرأة عبادة بن الصامت ﷺ التي بشرها النبي ﷺ بأنها ستغزو البحر مع المسلمين ، فقد ثبت عن أنس ﷺ قال «**دخل رسول الله ﷺ على ابنة ملحان ، فاتكأ عندها ، ثم ضحك ، فقالت : لِمَ تضحكُ يا رسول الله ؟ فقال : ناس من أمتي يركبون البحر الأخضر في سبيل الله ، مَثَلُهُم مَثَلُ الملوك على الأَسِرَّة ، فقالت : يا رسول الله ، ادع الله أن يجعلني منهم ، قال : اللهم اجعلها منهم . ثم عاد فضحك فقالت له مثل ... ذلك ، فقال لها مثل ذلك ، فقالت : ادع الله أن يجعلني منهم ، قال : أنت من الأولين ، ولست من الآخرين . قال : قال أنس : فتزوجتْ عبادةَ بن الصامت ، فركبت البحر مع بنت قرظه ، فلما قفلت ركبت دابتها ، فوقصت بها [رمت بها] ، فسقطت عنها ، فماتت**»[٤].

على أي حال فلم تمر سوى سنوات معدودات حتى خرق أهل قبرص المعاهدة التي بينهم وبين المسلمين ، إذ أعانوا الروم (البيزنطيين) بمراكب استخدمت ضد المجاهدين المسلمين في البحر ، الأمر الذي جعل معاوية ﷺ يتوجه إليهم سنة ٣٣ هـ -

---

(١) أبو عبيد : كتاب الأموال ، ص ١٦٢ . وانظر : الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ، ص ٢٦٢ ؛ البلاذري : فتوح البلدان ، ق ١ ، ص ١٨١ ، ١٨٣ .

(٢) العدوي : قوات البحرية ، ص ٣٢ .

(٣) البلاذري : فتوح البلدان ، ق ١ ، ص ١٨١ . يذكر المؤرخون البيزنطيون أن معاوية ﷺ في طريق عودته إلى الشام بعد فتح جزيرة قبرص ـ هاجم جزيرة أرواد محاولاً فتحها ، ولكنه لم يفلح ، ثم عاد في سنة ٢٩ هـ وكرر هجومه عليها ، فتمكن من الاستيلاء عليها (دياب : دراسات في التاريخ الإسلامي ، ص ٢٣) .

(٤) البخاري : الصحيح ، جـ ٣ ، ص ١٠٥٥ . انظر روايات أخرى في البخاري : الصحيح ، جـ ٣ ، ص ١٠٢٧ جـ٥ ، ص ٢٣١٦ ، جـ ٦ ، ص ٢٥٧٠ ؛ مسلم : الصحيح ، جـ ٣ ، ص ١٥١٨ - ١٥١٩ . راجع أيضاً ابن حجر : فتح الباري ، جـ ١١ ، ص ٧٥ - ٧٦ .

وقيل سنة ٣٥ هـ ـ في خمسمائة سفينة ، ففتح قبرص عنوة ، ثم اتخذ خطوات لإبقائها تحت السيادة الإسلامية ، فبنى فيها مدينة ومساجد ، وأسكن فيها جماعات من أهل الشام ، ووضع فيها قوات نظامية ، بلغ عددها اثني عشر ألفاً [١]، وذلك من أجل أن تدافع عن الجزيرة إذا لزم الأمر ، وتحمي ظهور المجاهدين المسلمين الذين كانوا يمخرون عباب البحر[٢].

لقد كان فتح جزيرة قبرص في عهد عثمان ﷺ حدثاً مؤثراً ، ومنعطفاً كبيراً في حركة الفتوحات الإسلامية ، إذ أمست تلك الجزيرة قاعدة رئيسة من قواعد الأسطول الإسلامي في البحر المتوسط ، فأسطولها أمن شواطيء المسلمين في الشام ومصر من مباغتة أساطيل الروم ، وفي الوقت ذاته منح المسلمين فرصة الحركة في البحر لفتح الجزر البحرية الأخرى .

ج ـ معركة ذات الصواري : تكاد تتفق المصادر الإسلامية القديمة أن سببها هو تحرك الأسطول الرومي البيزنطي ضد المسلمين بغية استعادة مدينة الإسكندرية التي كان الروم يرونها مدينتهم الكبرى[٣]، أو التعويض عن الهزائم المتوالية التي حاقت بهم أمام المسلمين في إفريقية ؛ حيث خرج قسطنطين الإمبراطور البيزنطي نفسه بسفن كثيرة[٤]، اختلف في عددها ما بين ٥٠٠ – ١٠٠٠ سفينة[٥]، فلما سمع المسلمون بذلك استعدوا لمواجهتها ، فتحرك في وقت واحد أسطول الشام وعليه معاوية بن أبي سفيان ﷺ ، وأسطول مصر وعليه عبد الله بن سعد بن أبي سرح ﷺ[٦]، فانتظما في عرض البحر في أسطول واحد تحت قيادة عبد الله بن سعد بن أبي سرح ﷺ ، فكان مجموع السفن الإسلامية كلها ٢٠٠ سفينة ونيف.

---

(١) البلاذري : فتوح البلدان ، ق ١ ، ص ١٨١ – ١٨٢ .
(٢) العدوي : قوات البحرية ، ص ٣٤ .
(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ، ص ٢١٩ ؛ المقريزي : المواعظ والاعتبار ، جـ ١ ، ص ١٦٩ .
(٤) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ، ص ٢٩٠ ؛ ابن الأثير : الكامل ، جـ ٣ ، ص ١١٧ ؛ ابن كثير : خلافة عثمان ، ص ٦٧
(٥) جاء في روايات عند الطبري أن عدد سفن الروم مرة ٥٠٠ ومرة أخرى ٦٠٠ (تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ، ص٢٩٠ ، ٢٩١) وورد عند ابن عبد الحكم أنها ١٠٠٠ (فتوح مصر ، ص ٢١٧ ، ٢١٩) .
(٦) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٣ ، ص ١١٨ .

وقد ورد أن عبد الله بن سعد بن أبي سرح ﷺ سأل المسلمين أن يشيروا عليه بعد أن رأى كثرة سفن الروم ، فلم يتكلم أحد ، ولما كرر ذلك ثلاثاً قام رجل من أهل المدينة فقال « أيها الأمير ! إن الله جل ثناؤه يقول ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ (البقرة ، آية ٢٤٩) ، فقال عبد الله : اركبوا بسم الله ، فركبوا »[١] ، وكان ذلك سنة ٣١ هـ في رواية ، وسنة ٣٤ هـ في رواية أخرى ، وسنة ٣٥ هـ في رواية ثالثة[٢] .

التقى الأسطول الإسلامي بقيادة ابن أبي سرح ﷺ والأسطول الرومي بقيادة الإمبراطور قسطنطين في البحر المتوسط في مكان قريب من الساحل كما يفهم من المصادر العربية[٣] ، وقد حددته المصادر غير العربية بثغر فوينكة الكائن بالضبط حسب الأبحاث الحديثة غرب الإسكندرية بالقرب من مرسى مطروح[٤] ؛ ففي هذا المكان أخذ كل فريق يستعد لقتال الآخر ، فبات المسلمون في ليلة المعركة « يقرأون القرآن ، ويصلون ويدعون ، والروم يضربون بالنواقيس »[٥] .

وفي الصباح اقترب بعضهم من بعض ، وبدأ القتال بينهم بتبادل الرمي بالنبال ، ثم باستخدام الحجارة ، ثم عمد المسلمون إلى ربط سفنهم بسفن الروم ، وتجالدوا بالسيوف والخناجر[٦] ، فاستحر القتل بالجانبين ، ويُنقل عن أحد الذين شهدوا الوقعة

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ، ص ٢١٧ - ٢١٨ .
(٢) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ، ص ٢٨٨ ، ٤٤١ ؛ ابن الأثير : الكامل ، جـ ٣ ، ص ١١٧ ، ١٩٩ .
(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ، ص ٢١٧ ؛ الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ، ص ٢٩٠ .
(٤) سعاد ماهر : البحرية في مصر الإسلامية وآثارها الباقية ، ص ٨٤ ؛ شوقي أبو خليل : ذات الصواري ، ص ٦٤ .
ولقد حدد بعض الكتاب المحدثين مكان الوقعة وسط البحر المتوسط في منطقة تقع إلى الشمال من الإسكندرية وإلى الغرب من بلاد الشام ، وقد أحال إلى مصادر لا تحدد المكان بهذا التحديد المذكور (العمري : الفتوح الإسلامية ، ص ١٥٥) وثمة من يرى وقوعها على سواحل تونس أو المغرب (عمر سليمان العقيلي : خلافة معاوية بن أبي سفيان ﷺ ، ص ١٠٣) وهناك فئة من الكتاب المحدثين رجحوا أن تكون أحداث ذات الصواري وقعت قرب خليج فوينكس على ساحل ليكيا lycia في آسيا الصغرى ، أي في جنوب غرب تركيا الحالية ، باعتبار أن معاوية ﷺ قد جرد حملة بحرية بالتعاون مع مصر للوصول إلى القسطنطينية ، فواجهه الروم بهذا المكان (العدوي : قوات البحرية ، ص ٤٦ . راجع العبادي : في تاريخ المغرب والأندلس ، ص ٣٩ ؛ دياب : دراسات في التاريخ الإسلامي ، ص ٢٧ ؛ علي فهمي : القوة البحرية الإسلامية في شرق البحر المتوسط ، ضمن كتاب « تاريخ البحرية المصرية » ، ص ٢٨٧ ، حاشية ٢) .
(٥) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٣ ، ص ١١٨ .
(٦) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ، ص ٢١٨ .

قوله «رأيت الساحل حيث تضرب الريح الموج ، وإن عليه لمثل الظَّرِب [الحجارة البارزة أوالتل] العظيم من جثث الرجال ، وإن الدم لغالب على الماء ، ولقد قتل يومئذ من المسلمين بشر كثير ، وقتل من الكفار ما لا يحصى ، وصبروا يومئذ صبراً لم يصبروا في موطن قط مثله »(١).

ويذكر أن قائد المسلمين ابن سعد كان في أثناء المعركة يأمر الناس بقراءة القرآن ، ويحثهم على الصبر(٢)، فحاول الروم سحب سفينته بسلسلة إليهم قاصدين قتله ، ولكن أحد شجعان المسلمين قطع تلك السلسلة ، فكان ذلك سبب نجاته بعد الله تعالى(٣)، وقد استمر القتال إلى أن انكشف الروم ، وحاقت الهزيمة بهم ، وفر زعيمهم قسطنطين من ميدان المعركة بعد أن اثخنته الجراح ، والتجأ مع فلول المنهزمين من أسطوله إلى جزيرة صقلية ، ثم لم يمكث أن قُتل على أيدي بعض جنده الذين حملوه مسؤولية هزيمتهم(٤).

لقد كان نصر المسلمين على دولة الروم البيزنطيين في وقعة ذات الصواري(٥) البحرية إبان عهد عثمان ﷺ يمثل نقلة كبرى في صراعهم آنذاك مع الروم ، فقد انهت هذه الوقعة عصر السيادة الرومية البيزنطية في شرقي البحر المتوسط ، وجعلت الروم يفقدون الأمل في استرداد الشام ومصر من أيدي المسلمين ، وفتحت المجال بخطى ثابته حثيثة لتحويل البحر المتوسط من بحر رومي إلى بحر إسلامي .

ومن المذهل أن المؤرخين البيزنطين القدامي أدركوا فداحة خسارتهم في ذات الصواري حين شبهوها بوقعة اليرموك(٦)، وهذا هو الواقع ؛ إذ اليرموك حسمت الصراع في المنطقة بينهم وبين المسلمين في البر ، وذات الصواري حسمته بين الطرفين في البحر .

وهكذا عبر ما مضى من صفحات تتبعنا نشاط الجيوش الإسلامية في ميدان الفتوحات أيام عثمان ﷺ فرأيناه ابتدأ بتثبيت أقدام المسلمين في البلاد المفتوحة من قبل ،

---

(١) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ، ص ٢٩٠- ٢٩١ .
(٢) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ، ص ٢٩٢ .
(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ، ص ٢١٨ ؛ المقريزي : المواعظ والاعتبار ، جـ ١ ، ص ١٦٩ .
(٤) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٣ ، ص ١١٨ - ١١٩ .
(٥) سميت ذات الصواري لكثرة صواري المراكب واجتماعها (الكندي : ولاة مصر ، ص ٣٧) راجع شوقي أبو خليل : ذات الصواري ، ص ٦١ ، حاشية ١ ؛ دياب : دراسات في التاريخ الإسلامي ، ص ٢٩ .
(٦) علي فهمي : القوة البحرية الإسلامية ، ص ٢٨٨ ؛ دياب : دراسات في التاريخ الإسلامي ، ص ٢٩ .

واقتضى ذلك القضاء على الحركات المناهضة للحكم الإسلامي فيها.

ثم كانت الانطلاقة منها إلى بلاد جديدة مجاورة لاستكمال مشروع الفتح الإسلامي ، فدخلت الجيوش الإسلامية بلاد الترك والخزر والأرمن والنوبة والبربر.

وفي أيام عثمان ﷺ انتهت الإمبراطورية الفارسية الساسانية إلى الأبد بمقتل آخر حكامها يزدجرد الثالث بعد تضييق المسلمين عليه الخناق ، ومطاردته مطاردة مستمرة في كل بلد حل بها .

كما خاض المسلمون في عهد عثمان ﷺ مجال الغزو البحري بعد تأسيس أسطول لهم في الشام ومصر ، فغزوا جزر البحر المتوسط الشرقية ، ففتحوا جزيرة قبرص ، واشتبكوا مع الأسطول البيزنطي المهيمن على البحر المتوسط منذ قرون ، ونجحوا في هزيمته في ذات الصواري .

ثالثاً . نسخ (كتابة) القرآن في مصحف واحد : من فرائد أمير المؤمنين عثمان ﷺ في التاريخ الإسلامي ، ومن أجل أعماله وأبقاها أثراً في ماضي الأمة الإسلامية وحاضرها ومستقبلها جمعه المسلمين على مصحف واحد[١]. وعمله ﷺ هذا «ماثل معلوم ، حيث يُقرأ المصحف ، وحيث يقال : هذا مصحف عثمان ، وكل مصحف اليوم هو مصحف عثمان»[٢].

وكان عثمان ﷺ قد اضطلع بهذا العمل بعد استشعاره خطورة اختلاف الأمة في قراءة القرآن الكريم ، ذاك أن القرآن كان قد أُنزل على سبع لغات (لهجات) أو قراءات[٣]، كما ثبت ذلك عن رسول الله ﷺ بقوله «**إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف ، فاقرؤوا ما تيسر منه** »[٤].

حيث أنزل أولاً بلسان قريش ، ثم سهل على الأمة أن يقرؤوه بغير لسان قريش ، وذلك بعد أن كثر دخول العرب في الإسلام[٥]، فكان ﷺ « يقريء أمته القرآن في زمانه

---

(١) صادق عرجون : عثمان بن عفان ، ص ١٦٨ .
(٢) العقاد : عثمان بن عفان ، ص ١٥٧ .
(٣) فتح الباري ، جـ ٩ ، ص ٢٤ .
(٤) البخاري : الصحيح ، جـ ٤ ، ص ١٩١٠ .
(٥) ابن حجر : فتح الباري ، جـ ٩ ، ص ٢٨ .

على أحرف متعددة ، تيسيراً على الأمة لحفظه وتعلمه ، حيث كان فيهم العجوز والشيخ الكبير ، والغلام والجارية ، والرجل الذي لم يقرأ كتاباً قط »[١]. ولما انتشرت كلمة الإسلام في الأقطار ، وتفرق المسلمون في البلدان ، صار كل فريق منهم يقرأ القرآن على الحرف الذي وصل إليه ، فاختلفوا حينئذ اختلافاً كثيراً[٢].

وفي عهد عثمان ﷺ استفحل ذلك الاختلاف بينهم بشكل لافت في أماكن مختلفة ، فلقد ثبت في الصحيح أن حذيفة بن اليمان ﷺ قدم المدينة ، وحدث عثمان ﷺ بما شهده من اختلاف المسلمين في قراءتهم القرآن ، حيث كان « يغازي أهل الشام في فتح إرمينية وأذربيجان مع أهل العراق ، فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة ، فقال حذيفة لعثمان : يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى».

وقد ورد في رواية أخرى أن حذيفة ﷺ لما قدم المدينة من الغزو «لم يدخل بيته حتى أتى عثمان ، فقال : يا أمير المؤمنين أدرك الناس ! قال : وما ذاك ؟ قال : غزوت فرج أرمينية ، فإذا أهل الشام يقرؤون بقراءة أبى بن كعب ، فيأتون بما لم يسمع أهل العراق ، وإذا أهل العراق يقرؤون بقراءة عبد الله بن مسعود ، فيأتون بما لم يسمع أهل الشام ، فيكفر بعضهم بعضاً »[٣].

ولدينا روايات أخرى تبين أن ذلك الاختلاف في القراءة قد بدا في الإقليم الواحد ، فقد لاحظ حذيفة ﷺ قبل غزوته مع أهل الشام وأهل العراق ـ فيما يظهر ـ أن أهل الكوفة يقرؤون بقراءة عبد الله بن مسعود ﷺ ، وأهل البصرة يقرؤون بقراءة أبي موسى الأشعري ﷺ .

بل رأى اختلاف القراء في المسجد الواحد من مساجد العراق ، «فكأنه لما رأى الاختلاف أيضا بين أهل الشام والعراق اشتد خوفه فركب إلى عثمان ، وصادف أن عثمان ـ أيضاً ـ كان وقع له نحو ذلك »[٤]، فأخرج ابن أبى داود[١] من طريق أبى قلابة

---

(١) ابن رجب : الرد على من اتبع غير المذاهب الأربعة (رسالة ضمن مجموع رسائل الحافظ ابن رجب الحنبلي) ، جـ ٢ ، ص ٦٢٠ .
(٢) المصدر نفسه ، الصفحة نفسها .
(٣) البخاري : الصحيح ، جـ ٤ ، ص ١٩٠٨ .
(٤) ابن حجر : فتح الباري ، جـ ٩ ، ص ١٨ . راجع ابن أبي داود : المصاحف ، جـ ١ ، ص ١٧٩-١٨١ .

قال «لما كان في خلافة عثمان جعل المعلم يعلم قراءة الرجل ، والمعلم يعلم قراءة الرجل ، فجعل الغلمان يلتقون فيختلفون ، حتى ارتفع ذلك إلى المعلمين ، ... حتى كفر بعضهم بقراءة بعض ، فبلغ ذلك عثمان ، فقام خطيباً ، فقال : أنتم عندي تختلفون وتلحنون ، فمن نأى عني من الأمصار أشد فيه اختلافاً وأشد لحناً ... »، « فكأنه والله أعلم ـ كما يقول ابن حجر[٢] ـ لما جاءه حذيفة ، وأعلمه باختلاف أهل الأمصار تحقق عنده ما ظنه من ذلك » .

مما مضى يتلخص أن ظاهرة الاختلاف بين المسلمين في قراءتهم القرآن بدت زمن عثمان ﷺ على مستويات ثلاثة.

الأول : بين المعلمين في المسجد الواحد كما لاحظه عثمان ﷺ عنده في المدينة النبوية.

الثاني بين القراء في المدينة الواحدة والإقليم الواحد كما لاحظ ذلك حذيفة بن اليمان ﷺ في العراق.

الثالث بين أهل كل إقليم وآخر مثلما شهده حذيفة ﷺ عند خروجه غازياً إلى أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق من جهة وأهل الشام من جهة أخرى .

ولا ريب أن الذي أقلق حذيفة ﷺ وأفزعه كثيراً هو الاختلاف بين المجاهدين المسلمين على جبهة المواجهة مع الأعداء ، إذ التنازع بينهم في هذا الموطن يذهب ريحهم ، ويفضي بهم إلى الفشل ، ويحل بهم الهزيمة ، ويصرفهم عن نشر دينهم بين الناس .

على أي حال فإن عثمان ﷺ حين أحس بتفاقم مشكلة اختلاف المسلمين في القراءة بما رآه بنفسه ، وبما نقله حذيفة ﷺ ـ وربما ما نقله غيره ــ جمع كبار الصحابة ، وعرض عليهم تلك المشكلة ، وقدم رأيه في حلها ، حيث قال لهم ــ كما ورد بسند صحيح «ما تقولون في هذه القراءة ؟ فقد بلغني أن بعضهم يقول : إن قراءتي خير من قراءتك ، وهذا يكاد يكون كفراً ، فقالوا : فما ترى ؟

قال : نرى أن يُجمع الناس على مصحف واحد ، فلا تكون فرقة ، ولا يكون

---

(١) المصاحف ، جـ ١ ، ص ٢٠٣-٢٠٤ .
(٢) فتح الباري ، جـ ٩ ، ص ١٨ .

اختلاف . فقالوا : نعم ما رأيت »[١] . وقد كان ذلك في أواخر سنة ٢٤ هـ ، وأوائل سنة ٢٥ هـ ، وهو الوقت الذي وقع فيه فتح أرمينية[٢] التي شارك فيه حذيفة ﷺ ، وجاء على أثره إلى عثمان ﷺ يحذره من اختلاف المسلمين في قراءة القرآن .

ولتنفيذ هذا المشروع بعث عثمان ﷺ إلى أم المؤمنين حفصة بنت عمر رضي الله عنهما ـ كما ثبت ـ « أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ، ثم نردها إليك ، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان ، فأمر زيد بن ثابت ، وعبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، فنسخوها في المصاحف ، وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة : إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش ، فإنما نزل بلسانهم ، ففعلوا »[٣] .

وفي رواية أن عثمان ﷺ أمر أن يملي سعيد بن العاص ﷺ الذي كان من أعرب الناس وأفصحهم ، وأن يكتب زيد بن ثابت ﷺ الذي كان من أكتب الناس حينذاك ، وكان من قبل كاتب رسول الله ﷺ[٤] . وقد روي أن عثمان ﷺ كلف اثني عشر رجلاً من قريش والأنصار للقيام بنسخ القرآن[٥] .

ولا يبدو تعارض بين هذه الروايات ، إذ يمكن أن يقال ، كان الأمر في البداية « لزيد وسعيد للمعنى المذكور فيهما ... ثم احتاجوا إلى من يساعد في الكتابة بحسب الحاجة إلى عدد المصاحف التي ترسل إلى الآفاق فأضافوا إلى زيد من ذكر ... »[٦] .

وقد نهض هؤلاء بالمهمة التي أنيطت بهم ، ولما نسخوا «الصحف في المصاحف ، رد عثمان الصحف إلى حفصة ، وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا ، وأمر بما سواه

---

(١) ابن أبي داود : المصاحف ، جـ ١ ، ص ٢٠٦ ؛ السيوطي الإتقان في علوم القرآن : ، جـ ١ ، ص ٧٩ .
(٢) ابن حجر : فتح الباري ، جـ ٩ ، ص ١٧ .
(٣) البخاري : الصحيح ، جـ ٤ ، ص ١٩٠٨ .
(٤) ابن أبي داود : المصاحف ، جـ ١ ، ص ٢٠٦ ، ٢٠٩ .
(٥) ابن أبي داود : المصاحف ، جـ ١ ، ص ٢١٣-٢١٤ . والاثنا عشر هم الأربعة المذكورون أعلاه ، وثمانية آخرون جاءت أسماؤهم في روايات أخرى ، وهم : أبي بن كعب ، وكثير بن أفلح ، ومالك بن أبي عامر ، وأنس بن مالك ، وعبد الله بن عباس (ابن حجر : فتح الباري ، جـ ٩ ، ص ١٩) ونافع بن طريف ، وعبد الله بن الوليد الخزاعي ، وعبد الرحمن بن أبي لبابة (صفوان داوودي : زيد بن ثابت ، ص ١١٤-١١٥)
(٦) ابن حجر : فتح الباري ، جـ ٩ ، ص ١٩ .

من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق »[(١)].

فكان الذي كتب في المصحف أيام عثمان ﷺ هو الذي تم جمعه في عهد الصديق أبي بكر ﷺ ، وهو المنزل على النبي ﷺ ، المقطوع به ، المكتوب بأمره . قال البغوي في شرح السنة «المصحف الذي استقر عليه الأمر هو آخر العرضات على رسول الله ﷺ ، فأمر عثمان بنسخة في المصاحف ، وجمع الناس عليه ، وأذهب ما سوى ذلك قطعاً لمادة الخلاف ، فصار ما يخالف خط المصحف في حكم المنسوخ والمرفوع ، كسائر ما نسخ ورفع ، فليس لأحد أن يعدو في اللفظ إلى ما هو خارج عن الرسم »[(٢)].

أما نُسخ المصاحف التي كتبت آنذاك فقد اختلف في عددها ، فقيل أربعة ، وقيل خمسة . وروي أنها كانت سبعة ، فحبس واحداً منها في المدينة ، أما الستة الباقية فقد أرسلت إلى مكة واليمن والبحرين والبصرة والكوفة والشام[(٣)] ، أي أن ثلاثة منها وزعت داخل الجزيرة العربية ، وثلاثة وزعت خارجها .

رابعاً . توسعة المسجد الحرام وعمارته : قدم أمير المؤمنين عثمان ﷺ مكة في سنة ٢٦ هـ للعمرة ، فطاف بالبيت ، وسعى بين الصفا والمروة ، ولعله لاحظ أثناء تأديته العمرة ضيق المسجد الحرام بمن فيه ، بسبب زيادة عدد الوافدين إليه من الأقطار الإسلامية ، ولذا أمر بتوسعته بعد شرائه الدور المجاورة له[(٤)] .

(١) البخاري : الصحيح ، جـ ٤ ، ص ١٩٠٨ .

(٢) ابن حجر : فتح الباري ، جـ ٩ ، ص ٣٠ . وهنا تساؤل : هل يشتمل هذا المصحف العثماني على الأحرف السبعة كلها الوارد ذكرها في الحديث أم على بعضها ؟ اشهر ما قيل في ذلك قولان ، الأول : أن هذا المصحف قد اشتمل على جميع الحروف السبعة المنزل عليها القرآن ، وأن خطه محتمل لجميعها . الثاني : وهو ما ذهب إليه كثير من أهل العلم ، أن هذا المصحف مشتمل لبعض تلك الحروف السبعة ، وليس كلها ، وأن هذا المصحف المجمع عليه قد منع من القراءة بكل ما لا يحتمله خطه ، حيث رأى الصحابة أن الاقتصار عليه فيه صلاح للأمة عقب الاختلاف الذي حدث في عهد عثمان ﷺ . أما القراءة المستعملة فيشترط فيها ثلاثة أشياء : ١- موافقة خط المصحف . ٢- كونها غير خارجة عن لسان العرب . ٣- ثبوتها بالنقل الصحيح (ابن عمار المهدوي : بيان السبب الموجب لاختلاف القراءات وكثرة الطرق والروايات منشور ضمن كتاب نصوص محققه عن القرآن الكريم ، تحقيق حاتم الضامن ، ص ٢٤٣ ، ٢٤٥) وانظر ابن تيمية : الفتاوى ، جـ ١٣ ، ص ٣٨٩-٤٠٣ .

(٣) ابن أبي داود : المصاحف ، جـ ١ ، ص ٢٣٨-٢٣٩ ، ابن حجر : فتح الباري ، جـ ٩ ، ص ٢٠ .

(٤) خليفة بن خياط : تاريخه ، ص ١٥٩ ، الذهبي : تاريخ الخلفاء ، ص ٣١٥ ، ابن فهد : إتحاف الورى بأخبار أم القرى ، جـ ٢ ، ص ١٩ .

ويقال إن عثمان ﷺ وضع الأروقة[1] لأول مرة في المسجد الحرام[2]، ولقد كان الناس قبل ذلك يجلسون حول الكعبة في العراء ، فلما عملت تلك الأروقة صاروا يتظللون بها من حرارة الشمس صيفاً ، ويتقون بها من المطر شتاء[3] .

وبجانب ذلك كسا عثمان ﷺ الكعبة المشرفة بالقباطي المصرية ، وكساها أيضاً بالبرود اليمنية . ويذكر أنه أول من ظاهر بين كسوتين للكعبة ، وقد حيكت تلك الكسوة في مصر[4] .

ومما يحسن ذكره هنا أن عثمان ﷺ لما ولي الخلافة أمر عبد الرحمن بن عوف ﷺ بتجديد أنصاب الحرم ، فكلف عبد الرحمن جماعة من الصحابة بتجديدها ، فكانوا يقومون بهذا العمل بعد ذلك كل سنة[5]. كما أن عثمان ﷺ قام بتحويل الميناء على الساحل من الشعيبة إلى جدة التي كانت أوسع من سابقتها ، وأقرب إلى مكة[6].

خامساً . توسعة المسجد النبوي وعمارته : شكى الناس في عهد عثمان ﷺ ضيق المسجد النبوي بهم ، لاسيما يوم الجمع ، حتى أنهم ليصلون في الرحاب ، فشاور ﷺ أهل الرأي من الصحابة في ذلك ، فاتفقوا على أن يهدمه ويزيد فيه . فخطب بالناس في المسجد ، وقال ـ بعد أن حمد الله وأثنى عليه ـ

« أيها الناس ، إني قد أردت أن أهدم مسجد رسول الله ﷺ ، وأزيد فيه ، وأشهد أني سمعت رسول الله ﷺ يقول (من بنى لله مسجداً بنى الله له بيتاً في الجنة) ، وقد كان لي فيه سلف وإمام سبقني ؛ عمر بن الخطاب ، وقد شاورت أهل الرأي من أصحاب رسول الله ﷺ ، فأجمعوا على هدمه وبنائه وتوسعته » . ولما أصبح عثمان ﷺ دعا العمال لتنفيذ المشروع ، وقد بدأوا العمل فيه في شهر ربيع الأول سنة ٢٩ هـ[7].

---

(١) الأروقة جمع رِواق بالكسر ، ويقصد به الجزء الواقع بين جدار المسجد الخارجي وصحنه ، ويكون سقفاً محمولاً على مجموعة من الأعمدة أو الدعامات (سامي محمد نوار : الكامل في مصطلحات العمارة الإسلامية ، ص٨٤)

(٢) النهرواني : الإعلام بأعلام بيت الله الحرام ، ص ١١٥ .

(٣) فوزية حسين مطر ، تاريخ عمارة الحرم المكي الشريف ، ص ٩٦

(٤) المرجع نفسه ، الصفحة نفسها .

(٥) الأزرقي : أخبار مكة ، جـ ٢ ، ص١٢٩.

(٦) ابن فهد : إتحاف الورى بأخبار أم القرى ، جـ ٢ ، ص٢٠ .

(٧) السمهودي : خلاصة الوفاء ، ص ٢٦٠-٣٦١ .

ولقد ثبت في الصحيح أن عثمان ﷺ زاد في المسجد النبوي « زيادة كثيرة ، وبنى جداره بالحجارة المنقوشة والقَصة [الجص] ، وجعل عمده من حجارة منقوشة ، وسَقَفه بالساج »[١].

وقد وردت تفصيلات وشرح لبعض ما أجمل في هذا الخبر في المصادر التاريخية ، ففيما يتعلق بالزيادة المشار إليها ذكرت تلك المصادر أنها كانت من جهاته الثلاث ؛ الجنوبية (القبلة) والشمالية والغربية ، حيث قدرت الزيادة في كل جهة من تلك الجهات بمقدار عشرة أذرع . وقد احتيج للتوسعة من ناحية القبلة إلى بيت أم المؤمنين حفصة بنت عمر رضي الله عنهما ، فعوضها عثمان ﷺ ببيت أوسع منه[٢]، فانتهت الزيادة حينئذ من هذه الناحية عند نهاية الروضة ، فلم يدخل فيها ما هو أمام الحجرة الشريفة اليوم[٣]، وقيل إنها تجاوزت الروضة ، وأصبحت منتهى الزيادات في هذه الجهة الجنوبية (القبلية) حتى الآن[٤] .

فصار طول المسجد النبوي بعد هذه الزيادة مائة وستين ذراعاً ، وعرضه مائة وخمسين ذراعاً [٥]. وقد قدر بعض المعاصرين مساحته بـ ٥٥٢٤ متراً مربعاً ، أي أن طوله بالأمتار كان ٨٥ م ، بينما كان عرضه ٦٥ م [٦].

أما ما يتصل بالبناء فقد بنى عثمان ﷺ جدره بالحجارة المنقوشة والقَصة ، وجعل عمده من حجارة محفورة ، حُشيت بأعمدة الحديد والرصاص ، وقام بسقفه بالساج[٧] ، وهو نوع من الخشب كان يجلب من الهند[٨] ، كما استخدم أيضاً في البناء خشب النخيل وجريده ، وبالإضافة إلى ذلك فقد بيض البناء بالقصة[٩]. أما أبواب المسجد فظلت ستة

---

(١) البخاري : الصحيح ، جـ ١ ، ص ١٧١ .
(٢) السمهودي : خلاصة الوفاء ، ص ٢٦٣ .
(٣) الخياري : تاريخ معالم المدينة المنورة قديماً وحديثاً ، ص ٥٦-٥٧ ، وحاشية ١ .
(٤) عبد القدوس الأنصاري : آثار المدينة المنورة ، ص ١٠٠ ؛ عبد الغني : تاريخ المسجد النبوي ، ص ٤٥ .
(٥) السمهوري : خلاصة الوفاء ، ص ٢٦٣ .
(٦) محمد السيد الوكيل : جولة تاريخية في تاريخ الخلفاء ، ص ٣٧٢ .
(٧) ابن النجار : الدرة الثمينة ، ص ٢١٥ ، ٢١٦ ؛ المرجاني : بهجة النفوس والأسرار في تاريخ دار هجرة النبي المختار ، جـ ١ ، ص ٢١٥ ؛ المراغي : تحقيق النصرة ، ص ٧٤ .
(٨) ابن حجر : فتح الباري ، جـ ١ ، ص ٥٤٠ .
(٩) ابن النجار : الدرة الثمينة ، ص ٢١٦ ؛ السمهوري : خلاصة الوفاء ، ص ٢٦٢ .

أبواب كما كانت في عهد عمر ﷺ(١).

ومما يجدر ذكره هنا أن عثمان ﷺ كان يشرف على العمل بنفسه فقد رُوي عن عبد الرحمن بن سفينة أنه قال « رأيت القَصة تحمل إلى عثمان ـ وهو يبني المسجد ـ من بطن نخل [الحنيكة حالياً] ، ورأيته يقوم على رجليه ، والعمال يعملون فيه حتى تأتي الصلاة فيصلي بهم ، وربما نام في المسجد »(٢). وقد فرغ منه في محرم سنة ٣٠ هـ ، فكان عمله عشرة أشهر(٣).

بقي أن نشير هنا إلى بعض الكُتَّاب قد فهم بأن بناء عثمان ﷺ مسجد النبي ﷺ بهذا الشكل يعد تحسيناً وتزييناً لا يتوافق مع السنة في بناء المساجد(٤)، وربما يؤيد هذا الفهم ما ورد عند مسلم(٥) عن محمود بن لبيد ﷺ «أن عثمان بن عفان أراد بناء المسجد ، فكره الناس ذلك ، وأحبوا أن يدعه على هيئته . فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : من بنى مسجداً لله ، بنى الله لـه في الجنة مثله».

ولكشف هذا الإشكال نوضح أن كلمة (منقوشة) الموصوف بها الحجارة التي بنى بها عثمان ﷺ مسجد رسول الله ﷺ لا تقتضي بالضرورة الزخرفة أو التزيين ، إذ أن المنقوشة عند العرب هي الشجة التي تنقش منها العظام ، أي تستخرج . ونَقَشَ الرَّحى إذا نقرها(٦).

ثم إنه لما شرح ابن حجر(٧) حديث بناء عثمان ﷺ المسجد النبوي بالحجارة المنقوشة والقصة ، وتسقيفه بالساج ، نقل عن بعض الشراح قولهم «هذا يدل على أن السنة في بنيان المسجد القصد ، وترك الغلو في تحسينه ، فقد كان عمر مع كثرة الفتوح في أيامه وسعة المال عنده لم يغير المسجد عما كان عليه ، وإنما احتاج إلى تجديده ، لأن جريد

(١) الطبري : تاريخ الأمم ، جـ ٤ ، ص ٢٦٧ .
(٢) ابن النجار : الدرة الثمينة ، ص ٢١٦-٢١٧ .
(٣) السمهوري : خلاصة الوفاء ، ص ٢٦١ . ذكر بعض المؤرخين أن عثمان ﷺ اتخذ مقصورة للصلاة فيها بعد الذي حدث لعمر ﷺ ، ولكن الإمام مالك رد على من قال بذلك ، وبين أن أول من اتخذ المقصورة في المسجد النبوي هو مروان بن الحكم (المصدر نفسه ، ص ٢٦٤) .
(٤) الوكيل : جولة تاريخية ، ص ٣٧١ .
(٥) الصحيح ، جـ ٤ ، ص ٢٢٨٧ .
(٦) الزبيدي : تاج العروس ، جـ ٩ ، ص ٢١٣ ، ٢١٤ .
(٧) فتح الباري ، جـ ١ ، ص ٥٤٠ .

النخل كان قد نخر في أيامه ، ثم كان عثمان والمال في زمانه أكثر فحسنه بما لا يقتضي الزخرفة».

أما كراهية بعض الصحابة ما قام به عثمان ﷺ فمرده أنهم أرادوا ـ كما ورد في النص ـ أن يدعه على هيئته ، بمعنى يبقيه على هيئته في زمن النبي ﷺ [(١)]، «أي بجذوع النخل واللبن كما فعل عمر ﷺ »[(٢)]، وبذلك نعرف السبب الذي جعل عثمان ﷺ يخاطب الناس ليوضح حسن مقصده ، وبديع فعله ، ببنائه مسجد الرسول ﷺ على تلك الهيئة ، فقال في رواية أخرى في الصحيحين «إنكم قد أكثرتم ، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : من بنى مسجداً ـ قال بكير : حسبت أنه قال ـ يبتغي به وجه الله ، بنى الله له مثله في الجنة » [(٣)].

ملامح من سيرة عثمان ﷺ ومنهجه في الحكم: ـ ظل عثمان ﷺ ـ وهو خليفة ـ كأحد أفراد المسلمين، فعن الحسن قال «رأيت عثمان بن عفان يقيل في المسجد ، وهو يومئذ خليفة، قال : ويقوم وأثر الحصى بجنبه ، قال : فيقال : هذا أمير المؤمنين ! هذا أمير المؤمنين![(٤)].

وفي رواية أخرى قوله «رأيت عثمان نائماً في المسجد ، ورداؤه تحت رأسه، فيجيء الرجل فيجلس إليه ، ثم يجيء الرجل فيجلس إليه ، ثم يجيء الرجل فيجلس إليه، كأنه أحدهم»[(٥)].

وروى أحدهم أنه رأى عثمان ﷺ «وهو على بغلة وخلفه عليها غلامه نائل، وهو خليفة».

ثم إن عثمان ﷺ قد تمر عليه بعض الأيام يطعم الناس الطعام الجيد ، بينما يطعم نفسه طعاماً متواضعاً ، فعن شرحبيل بن مسلم «أن عثمان كان يطعم الناس طعام

---

(١) المصدر نفسه ، ص ٥٤٤ .
(٢) السمهودي : خلاصة الوفاء ، ص ٢٦٠ .
(٣) البخاري : الصحيح ، جـ ١ ، ص ١٧٢-١٧٣ ؛ مسلم : الصحيح ، جـ ٤ ، ص ٢٢٨٧ .
(٤) أبو نعيم الأصفهاني : حلية الأولياء ، جـ ١ ، ص ٦٠ .
(٥) ابن الجوزي : المنتظم ، جـ ٤ ، ص ٣٣٨ .

الإمارة ، ويدخل بيته فيأكل الخل والزيت»[١] .

كان ﷺ يتقبل من يقدم لـه النصيحة حتى من عوام رعيته ، فعـن أبـي قلابـة «أن رجلاً من حمص يقال لـه كريب بن سيف ـ أو سيف بن كريب ـ جاء إلى عثمان ، فقال : ما جاء بك ؟ أبإذن جئتَ أم عاصٍ ؟ قـال : بـل نـصيحة أمـير المـؤمنين ، قـال : ومـا نصيحتك ؟ قال : لا تكل المؤمن إلى إيمانه حتى تعطيه من المال ما يـصلحه ـ أو قـال مـا يعيشه ـ، ولا تكل ذا الأمانة إلى أمانته حتى تطالعـه في عملـك ، ولا ترسـل الـسقيم إلى البريء ليبريه ، فإن الله يبرىء السقيم ، وقد يُسقم السقيمُ البريءَ ، قـال : مـا أردت إلا الخير»[٢] .

كان يعطف على من تحت يده من الخدم ، فلا يكلفهـم بالعمـل وقـت راحـتهم ، فعن عبد الله الرومي قال «كان عثمان يلي وضوء الليل بنفسه ، قـال : فقيـل لــه : لـو أمرت بعض الخدم فكفوك ، فقال : لهم الليل يستريحون فيه»[٣] .

وكان ﷺ أثناء خلافته لا يأخذ من بيت مال المسلمين شيئاً مقابل تصريفه لـشؤون الدولة الإسلامية ؛ يقول السرخسي[٤] «أما عثمان ﷺ فكان لا يأخذ شيئاً من بيت المـال لثروته ويساره»، فهو ينفق على نفسه وأهل بيته من ماله الخاص ، وعلى هذا فـإن عملـه في الخلافة يعد من باب الاحتساب .

كان عثمان ﷺ يباشر بنفسه القضاء بين الناس في المدينة ، وكان يستشير الـصحابة فيما يعرض لـه من مسائل قضائية ، فيروى أن عثمان ﷺ إذا جلس في المسجد للقضاء ، وجاءه الخصمان «قال لهذا : اذهب ادعُ علياً ، وللآخر : فادعُ طلحة بن عبيد الله والزبير وعبد الرحمن [ونفراً من أصحاب النبي ﷺ] ، فجاءوا ، فجلسوا ، فقال لهمـا : تكلمـا ، ثم يقبل عليهم [أي على الصحابة] فيقول : أشيروا علي ؛ فـإن قـالوا مـا يوافـق رأيـه

(١) أبو نعيم الأصفهاني : حلية الأولياء ، جـ ١ ، ص ٦٠ .
(٢) عبد الرزاق الصنعاني : مصنف عبد الرزاق ، جـ ١١ ، ص ٣٣٤ ؛ محمد رواس قلعه جي : موسوعة فقه عثمان ، ص ٨٠ .
(٣) ابن الجوزي : المنتظم ، جـ ٤ ، ص ٣٣٨ .
(٤) المبسوط ، جـ ٣ ، ص ١٩ ؛ قلعه جي : موسوعة فقه عثمان ، ص ٧٦ ، ٢٧٢ .

أمضاه عليهما ، وإلا نظر ، فيقومون مُسَلِّمين »[١].

وكان ديدنه استشارة الصحابة ﷺ في شؤون الدولة وأمور المسلمين ، مثل استشارتهم في قضية عبيد الله بن عمر بن الخطاب لما أقدم على قتل من اتهمهم بقتل والده[٢]، واستشارتهم في نسخ القرآن[٣]، وأخذ رأيهم في الإقدام على فتح إفريقية[٤].

وكان يلزم جميع عماله من أمراء الأقاليم وغيرهم أن يوافوه هم ومن يشكون منهم من الرعية في موسم الحج ، وكان يذكرهم دوماً أن يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر ، وكان يؤكد عليهم أنه مع الضعيف علي القوي ما دام الضعيف مظلوماً [٥].

وكان لا يتوانى في إقامة الحدود على عماله كغيرهم من الناس ، فلا تأخذه في الله لومة لائم ، فحين ثبت لديه أن أخاه من أمه ، وواليه على الكوفة الوليد بن عقبة شرب الخمر أقام عليه الحد ، حيث أمر علي بن أبي طالب ﷺ بجلده ، فانتدب عليٌّ ﷺ عبدَ الله بن جعفر لجلده بعد اعتذار ابنه الحسن ﷺ ، فجلده ابن جعفر وعلي ﷺ يعد[٦]، ثم عزله عثمان ﷺ عن الكوفة وولى بعده سعيد بن العاص[٧].

وكان عثمان ﷺ حريصاً على تفقد أحوال الناس ، والسؤال عن أخبارهم ، فعن موسى بن طلحة قال «رأيت عثمان يخرج يوم الجمعة ، عليه ثوبان أصفران ، فيجلس على المنبر ، فيؤذن المؤذن ـ وهو يتحدث ، يسأل عن أسعارهم ، وعن قُدّامهم ، وعن مرضاهم ، ثم إذا سكت المؤذن قام يتوكأ على عصا عقفاء ، فيخطب وهي في يده ...»[٨].

وكان يحض المسلمين أن يكفوا أنفسهم ، وأن يعينوا من يملكون من العبيد والإماء ، وكان ينهى أن يفرض أحد عليهم جعلاً إن لم يكن لهم كسب أو حرفة ، فكان

---

(١) وكيع : أخبار القضاة ، جـ ١ ، ص ١١٠ . راجع البيهقي :السنن الكبرى ، جـ ١٠ ، ١١٢ .
(٢) ابن سعد : الطبقات ، جـ ٣ ، ص ٣٥٦ ؛ اليحيى : الخلافة الراشدة والدولة الأموية من فتح الباري ، ص٤٢٨ .
(٣) ابن أبي داود : المصاحف ، جـ ١ ، ص ٢٠٦ ؛ السيوطي : الإتقان ، جـ ١ ، ص ٧٩ .
(٤) المالكي : رياض النفوس ، جـ ١ ، ص ١٤– ١٥ .
(٥) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ، ص ٣٩٧ ؛ ابن الأثير : الكامل ، جـ ٣ ، ص ١٨١ .
(٦) مسلم : الصحيح ، جـ ٣ ، ص ١٣٣١ ؛ أحمد : المسند ، تحقيق شاكر ، جـ ٢ ، ص ٤٩ .
(٧) ابن شبة : أخبار المدينة ، جـ ٢ ، ص ١٠٧ ؛ ابن حجر : فتح الباري ، جـ ٧ ، ص ٥٧ .
(٨) ابن سعد : الطبقات ، جـ ٣ ، ص ٥٩ ؛ ابن شبة : أخبار المدينة ، جـ ٢ ، ص ٩٩ .

من توجيهاته في هذا الشأن «أعينوا إماءكم ، وكفوا أنفسكم ، فإن المؤمن يكف نفسه ، ويعين إماءه ... ولا تكلفوا الغلام غير الصانع الخراج ، فإنه إذا لم يجد خراجه سرق ، ولا تكلفوا الأمة غير الصانع خراجاً ، فإنها إذا لم تجد شيئاً التمسته بفرجها»[١].

ومما يذكر لعثمان ﷺ أنه زاد في أعطيات الناس ، وكان عمر ﷺ قبله يفرض لهم في كل يوم من رمضان دراهم من الفيء ، فأقر ذلك عثمان ﷺ وزاد فوضع طعام رمضان في المسجد ، وذلك للمتعبدين والفقراء وأبناء السبيل[٢].

وقد عاش المسلمون في عهد عثمان ﷺ في سعة من الرزق ، روي بسند حسن عن المبارك بن فضالة قال «سمعت الحسن يقول : أدركت عثمان وأنا يومئذ قد راهقت الحلم ... وقال : وما من يوم إلا وهم يقتسمون فيه خيراً ، فيقال :

يا معشر المسلمين ! اغدوا علي أرزاقكم ، فيغدون فيأخذونها وافرة.

يا معشر المسلمين ! اغدوا على كسوتكم ، فيجاء بالحلل فتقسم بينهم ،

قال الحسن : حتى والله سمع أذناي ، يا معشر المسلمين ! اغدوا على السمن والعسل.

قال الحسن : والعدو منفى ، والأعطيات والعطيات دائرة ، وذات البين حسن ، والخير كثير ، ما على الأرض مؤمن يخاف مؤمناً ، مَنْ لقي مِن أي الأجناد كان أخاه ومؤدبه وإلفته ، ونصرته أن يسل عليه سيفاً »[٣].

كان من سياسة عثمان ﷺ بعد ولايته الخلافة الأذن لكبار الصحابة بالخروج إن شاءوا إلى الأمصار بعد أن كان عمر ﷺ يحظر عليهم ذلك[٤]، ولعل عثمان ﷺ رأى في نزولهم في تلك الأمصار بالزيارة أو السكنى ما يفيد أهلها ، فهؤلاء الصفوة من الصحابة

(١) عبد الرزاق : مصنف عبد الرزاق ، جـ ٢ ، ص ٤٨ .
(٢) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ، ص ٢٤٥- ٢٤٦ .
(٣) اللالكائي : اعتقاد أهل السنة ، جـ ٨ ، ص ١٣٥٦ . راجع ابن عبد البر : الاستيعاب ، ق ٣ ، ص ١٠٤١ ؛ ابن كثير : خلافة عثمان ، ص ٥٠ ،٥١ حاشية ١ . ومما يذكر أنه لما كثرت الأموال في زمان عثمان ﷺ ، وعلم أن في تتبعها زيادة ضرر بأربابها رأى أن من المصلحة تفويضهم في أداء زكاتها ، وكان ذلك بإجماع الصحابة ، فجعل أرباب الأموال كالوكلاء عن الإمام في دفع الزكاة إلى مستحقيها (قلعه جي : موسوعة فقه عثمان ، ص ١٩٢) راجع السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ١٤٨ ؛ صبرة والحناوي : دراسات في تاريخ الخلفاء الراشدين ، ص ٢١٤ .
(٤) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ، ص ٣٩٧ .

أسلموا قديماً ، وعاشوا مع النبي ﷺ في مكة والمدينة حتى وفاته ، فتوفر لهم من السمت بهدي الإسلام ، والعلم بأحكامه وآدابه ما لم يتوفر لغيرهم ، فهم بمجرد وصولهم إلى تلك البلدان صاروا ـ بلا ريب ـ مقصداً للناس يأخذون من علمهم ، ويقتبسون من أخلاقهم ، ويتعلمون من هديهم .

فتنة الخروج على عثمان ﷺ واستشهاده : كانت فتنة الخروج على الخليفة الراشدي عثمان بن عفان ﷺ ومن ثم استشهاده ـ كانت «أول فتنة ... في الإسلام»[١] ، أو بتعبير آخر «أول الفتن وأعظمها»[٢]، وقد انفتح بها مسلسل الخلاف والفتن بين المسلمين ، فجرى على أثرها بتخطيط ماكر من أعدائهم وقائع مسلحة هزت كيانهم ، ومزقت وحدتهم ، وأذهبت ريحهم ، فجرت في أوقات متقاربة بُعَيْدَها وقعة الجمل ، ثم وقعة صفين ، ثم وقعة النهروان[٣]، وقد تمخض عن ذلك اختلافات سياسية وعقدية ، فظهرت ما سمي بالفرق الإسلامية من خوارج وشيعة ومرجئة وغيرها[٤]، ثم استمرت تداعيات هذه الفتنة وانشقاقاتها السياسية والعقدية تنخر في جسم الأمة الإسلامية حتى زماننا هذا .

الأسس والضوابط الواجب مراعاتها عند دراسة الفتنة : ونظراً لكون فتنة الخروج على عثمان ﷺ ، وما تبع ذلك من وقائع مسلحة في الجمل وصفين ـ سيرد فيها ذكر لبعض الصحابة الكرام فمن الواجب أن نُذكر بأهم الأسس والضوابط التي ينبغي مراعاتها عند تناول مثل تلك الأحداث ، نوردها في النقاط التالية :

١ - أن نعتقد أن الصحابة ﷺ خير القرون ، لأن الله عز وجل زكاهم ، من ذلك قوله: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ (التوبة ، آية ١٠٠) . كما زكاهم الرسول ﷺ في أحاديث منها أنه « سُئِل : أي الناس

(١) ابن تيمية : منهاج السنة ، جـ ٦ ، ص ٣٦٤ .
(٢) المصدر نفسه ، جـ ٤ ، ص ٥٤٥ .
(٣) ابن حجر : الإصابة ، جـ ٤ ، ص ٥٧٠ ، فتح الباري ، جـ ١٣ ، ص ١٣ .
(٤) ابن تيمية : منهاج السنة ، جـ ١ ، ص ٣٠٦ ؛ أمحزون : تحقيق مواقف الصحابة ، جـ ٢ ، ص ٢٣٩ ؛ جعيط : الفتنة ، ص ٥ ، ١١٩ ، ١٢٦ .

خير؟» فقال (قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ...) متفق عليه [١].

٢- إن الكلام عما شجر بين الصحابة ليس هو الأصل في معتقد أهل السنة والجماعة ؛ بل الأصل فيه هو الكف والإمساك عما شجر بينهم ، ليسلم المسلم من الوقوع فيهم أو انتقاصهم . قال علي ﷺ «حدثوا الناس بما يعرفون ، أتحبون أن يُكذب الله ورسوله » .

٣- إذا دعت الحاجة إلى ذكر شيء مما شجر بينهم فلابد من التحقيق والتثبت في الروايات المذكورة ، ذاك أن تلك الروايات دخلها الكذب والتحريف فوجب معرفة صحيحها من ضعيفها ، وصادقها من باطلها . قال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ﴾ (الحجرات ، آية ٦) .

٤- إذا صحت الرواية في ميزان الجرح والتعديل في شأن ما حدث بين الصحابة ، وكان ظاهرها القدح فيهم فليحمل ذلك على أحسن المحامل ، وليلتمس لهم أحسن المخارج ، قال ابن أبي زيد القيرواني في حق الصحابة أنهم « أحق الناس أن يلتمس لهم أحسن المخارج ، ويظن بهم أحسن المذاهب » .

٥- ثم إن ما ثبت في ميزان النقد العلمي أنه شجر بينهم فهم مجتهدون فيه ، ذلك أن القضايا كانت مشتبهة ، ولشدة اشتباهها تباينت اجتهاداتهم على ثلاثة أقسام :

أ ـ قسم ظهر لهم بالاجتهاد أن الحق مع هذا الطرف ، فيجب نصرته على من خالفه وبغى عليه .

ب ـ قسم ثانٍ عكس القسم الأول ظهر لهم أيضاً بالاجتهاد أن الحق مع الطرف الآخر فيجب نصرته والوقوف معه .

ج ـ قسم ثالث رأى أن ما يحدث إنما هو فتنة ينبغي عليهم أن ينأوا بأنفسهم عنها ، فاعتزلوا الفريقين .

إذن هم متأولون مجتهدون فيما حصل بينهم ، لكل طائفة شبهة اعتقدت تصويب

---

(١) البخاري : الصحيح ، جـ ٦ ، ص ٢٤٥٢ ؛ مسلم : الصحيح ، جـ ٤ ، ص ١٩٦٣ .

نفسها، وهذا لا يخرجهم من العدالة ، بل هم في حكم المجتهدين ، فلا يلزم نقص أحد منهم، إنما هم بين أجر وأجرين . ثم لـيُعلم أن جمهور الصحابة وجمهور أفاضلهم ما دخلوا في الفتنة ، عن محمد بن سيرين قال « هاجت الفتنة وأصحاب رسول الله ﷺ عشرة آلاف فما حضرها منهم مائة ، بل لم يبلغوا ثلاثين » .

٦- إن الصحابة مع اجتهادهم في شأن الفتنة وتأولهم فقد حزنوا حزناً شديداً ، وندموا أشد الندم على ما حدث ؛ إذ لم يخطر ببال أحدهم أن تصل الأمور إلى ما وصلت إليه . يقول علي ﷺ مخاطباً ابنه الحسن « يا حسن يا حسن ما ظن أبوك أن الأمر يبلغ إلى هذا ، ود أبوك لو مات قبل هذا بعشرين سنة».

٧- ورغم ما حصل بينهم فإنهم لم يكفروا بعضهم بعضاً ، بل كان بعضهم يترحم على بعض ، ويثنون على بعض ، ويلتمسون المعاذير لبعض ، بل يأخذون العلم من بعض . فمعاوية ﷺ لما جاءه خبر قتل علي ﷺ جعل يبكي ، ويقول «إنا لله وإنا إليه راجعون ، فقالت امرأته : أنت بالأمس تقاتله واليوم تبكيه ؟ فقال ويحك ، إنما أبكي لما فقد الناس من علمه وحلمه وفضله وسوابقه وخيره » .

٨- أخيراً فإن كل واحد من الصحابة ليس معصوماً من كبائر الذنوب وصغائرها حسب اعتقاد أهل السنة والجماعة ، بل تجوز عليهم الذنوب في الجملة ، ولكن لهم من السوابق والفضائل ما يوجب مغفرة ما قد يصدر منهم .

ثم إذا صدر من أحدهم ذنب فيكون إما قد تاب منه ، أو أتى بحسنات تمحوه ، أو غفر له بسابقته ، فإذا كانت هذه بالذنوب المحققة فكيف بالأمور التي اجتهدوا فيها ؟ فالخطأ في تلك الحال ـ لا ريب ـ مغفور . ثم إن ما قد يُنكر من فعل بعضهم فهو قليل مغفور في جنب فضائلهم ومحاسنهم . يقول الذهبي «فالقوم لهم سوابق وأعمال مكفرة لما وقع بينهم ، وجهاد محّاء ، وعبادة ممحصة » [1].

---

(١) الوهيبي : اعتقاد أهل السنة في الصحابة ، ص ٧٧-٩٢ .

أبرز رواة أخبار فتنة الخروج على عثمان ﷺ في المصادر التاريخية :

كتب قديماً عن هذه الفتنة عدد من الرواة الأخباريين ، فأفردوا في الحديث عنها - بتفصيل - مصنفات خاصة ، وإذا كانت مصنفاتهم تلك لم تسلم من عوادي الدهر فإن المؤرخين الذين جاءوا من بعدهم كالبلاذري (ت ٢٧٩ هـ) ، والطبري (ت٣١٠هـ) ، وابن عساكر (ت ٥٧١ هـ) وغيرهم - احتفظوا في كتبهم بكثير مما دونه أولئك الإخباريون عنها ، على أننا إذا دققنا النظر قي مثل هذه المصادر التاريخية فإننا لا نظفر بروايات متكاملة أو شبه متكاملة عن فتنة الخروج على عثمان ﷺ **إلا لثلاثة من أبرز الإخباريين القدامي** ، أولهم : أبو مخنف لوط بن يحيى (ت ١٥٧ هـ) الذي اشتهر بالتشيع[١] ، وهو حين يروي أحداث هذه الفتنة يظهر عثمان ﷺ بمظهر الخليفة الذي كثرت سقطاته ، فاستحق ما جرى له ، كما نجده يبرز طلحة بن عبيد الله ﷺ في عداد المؤلبين على عثمان ﷺ ، الثائرين عليه ، بينما يظهر علياً ﷺ بمظهر من يعطف على عثمان ﷺ ، ويدافع عنه مع غضبه من أفعاله وأقواله[٢].

وثانيهم : محمد بن عمر الواقدي (٢٠٧ هـ / ٨٢٢ م) - وقد عرف عند جمع من المحدثين بالضعف والكذب[٣]، وفي روايته لأحداث الفتنة نراه يشنع على عثمان ﷺ ويطعن فيه ، حتى إن الطبري تورع عن نقل قسم من رواياته لبشاعتها[٤]، ثم إنه يصور الصحابة بصورة المتآمرين على عثمان ﷺ ، ويخص بالذكر منهم طلحة بن عبيد الله ﷺ ،

---

(١) سبق أن عرفنا حاله عند حديثنا عن موقف سعد بن عبادة ﷺ من البيعة لأبي بكر ﷺ .

(٢) العش : الدولة الأموية والأحداث التي سبقتها ومهدت ، ص ٣٤ . انظر أمثلة من روايات أبي مخنف عن موقف الصحابة في الفتنة (البلاذري : جمل من أنساب الأشراف ، جـ ٦ ، ص ١٧٧ - ١٨٠ ، ١٨١ - ١٨٢ ، ١٨٨ ، ١٩٧) .

(٣) الواقدي : هو محمد بن عمر بن واقد الأسلمي ، ولد بالمدينة سنة ١٣٠ هـ ، طلب العلم في بلده ، ثم رحل للسماع من العلماء في الحجاز والعراق والشام ، واستقر أخيراً في بغداد ، فولي القضاء بها حتى وفاته في آخر سنة ٢٠٧ هـ (ابن سعد : الطبقات ، جـ ٧ ، ص ٣٣٤ - ٣٣٥ ؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء ، جـ ٩ ، ص ٤٥٤ - ٤٥٥) صنف من المؤلفات في حدود ثلاثين مصنفاً ، منها : المغازي ، الردة ، الجمل ، صفين ، الدار ، مقتل الحسين ، فتوح الشام ، فتوح العراق (ابن النديم : الفهرست ، ص ١٤٤ -١٤٥) قال الذهبي عنه « انعقد الإجماع اليوم على أنه ليس بحجة ، وأن حديثه في عداد الواهي » (سير أعلام النبلاء ، جـ ٩ ، ص ٤٥٥ - ٤٦٩) .

(٤) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ، ص ٣٥٦ .

كما يظهر علياً ﷺ بأنه مخالف لعثمان ﷺ حانق منه [١].

أما ثالث هؤلاء الإخباريين الذين وصلتنا رواياتهم كاملة عن الفتنة فهو سيف بن عمر التميمي[٢] (ت حوالي ١٨٠ هـ) الذي قال عنه ابن حجر[٣] «ضعيف في الحديث، عمدة في التاريخ» ، وروايته عن فتنة استشهاد عثمان ﷺ يعرضها بتسلسل تاريخي مرتب ، لايتهم في فصول أحداثها أحد من الصحابة ، بل يتضمن حديثه بشكل عام عنها تبرئة لهم[٤].

أسباب فتنة الخروج على عثمان ﷺ: ساقت المصادر القديمة أسباب الخروج على عثمان ﷺ في أواخر عهده ، ومن ثم قتله ظلماً وعدواناً ، كما توقف عند تلك الأسباب كثير من المؤرخين والكتاب المحدثين ، وتناولوها بالشرح والدراسة والتحليل . وعند التأمل فيما كتب ـ قديماً وحديثاً ـ في هذا الباب نجده يتركز في **اتجاهات ثلاثة** ، نذكرها فيما يلي باختصار :

الاتجاه الأول : ما جاء من تأكيد على أن المتمردين على أمير المؤمنين عثمان ﷺ عتبوا عليه عدة أمور صدرت منه أو وقعت في عصره ، فكانت هي أسباب القيام عليه ، وبحصر هذه الأسباب ، ومن ثم تحقيقها تحقيقاً علمياً يمكن تصنيفها إلى ثلاثة أقسام[٥]، هي كالتالي :

١ - أمور صح ـ حديثياً ـ أنها صدرت منه ﷺ ، وصح أن هؤلاء المتمردين أثاروها في عتابهم له ، ومن ثم سوغوا بها الخروج عليه ، وهي : تغيبه عن بدر ، وفراره مع الفارين يوم أحد ، وعدم شهوده بيعة الرضوان (الشجرة) ، وحمايته الحمى ، وكتابة

---

(١) العش : الدولة الأموية ، ص ٣٥ . انظر أمثلة من روايات الواقدي عن موقف الصحابة في الفتنة (الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ، ص ٣٥٦ - ٣٦٦ ، ٣٧٢ - ٣٨٠ ؛ البلاذري :جمل من أنساب الأشراف ، جـ ٦ ، ص ١٧٤ - ١٧٧ ، ١٨٠ - ١٨١ ، ١٨٢ - ١٨٣ ، ٢٠٢ ، ٢١٩) .

(٢) سبق أن تعرفنا على سيف بن عمر خلال مناقشة قتل خالد بن الوليد ﷺ لمالك بن نويرة في خلافة أبي بكر الصديق ﷺ .

(٣) تقريب التهذيب ، ص ٤٢٨ .

(٤) العش : الدولة الأموية ، ص ٣٥ .

(٥) الغبان : فتنة مقتل عثمان بن عفان ﷺ ، جـ ١ ، ص ٥٩.

المصحف[(١)].

ويلاحظ أن الثلاثة الأولى قد حدثت لعثمان ﷺ في حياة النبي ﷺ، ولم تكن قادحة في شخصيته، فالصحابة رضي الله عنهم نظروا إليه في منزلة بعد عمر بن الخطاب ﷺ، فبايعوه خليفة لهم من بعده؛ لأن علموا ـ كما بين ذلك عبد الله بن عمر ﷺ في حديث رواه البخاري ـ أن تغيبه عن بدر حصل بسبب بقائه يمرض زوجه رقية بنت النبي ﷺ، وكان بأمره ﷺ، وقد جعل أجره كمن حضرها، وأسهم لـه منها.

أما فراره يوم أحد مع الفارين فقد عفا الله عنهم جميعاً بنص القرآن.

شهوده بيعة الرضوان لأنها ما وقعت إلا بسببه، إذ كان النبي ﷺ قد أرسله من الحديبية إلى مشركي مكة فاحتجزوه، فدعا الرسول ﷺ إلى تلك البيعة، وفوق ذلك عده النبي ﷺ ممن حضرها، حيث ضرب بيده ﷺ على الأخرى وقال «هذه لعثمان»[(٢)].

أما القضيتان الأخيرتان وهما حماية الحمى وكتابة المصحف.

فالأولى لم تكن وليدة عهده، إذ أن الرسول ﷺ حمى النَّقِيع، ثم إن عمر ﷺ قبله حمى الشَّرَف والرَّبَذَة[(٣)]، وقد رد عثمان ﷺ على من أثار هذا الموضوع بقوله ـ كما صح في رواية أبي سعيد مولى أبي أسيد الساعدي الأنصاري[(٤)]ـ «وأما الحمى فإن عمر حمى الحمى قبلي لإبل الصدقة، فلما وليت زادت إبل الصدقة فزدت في الحمى لما زاد في إبل الصدقة ... »[(٥)].

أما الثانية ونعني بها كتابة المصحف التي تعد القضية الوحيدة من بين جميع القضايا التي أثارها المتمردون حدثت في عهده ﷺ دون سابقة فهي تعد ـ كما يقول ابن كثير[(٦)] ـ «من مناقبه الكبار، وحسناته العظيمة»، بل إن هذا العمل الجليل قد اتفق الصحابة

---

(١) انظر عرض هذه القضايا، وتخريج رواياتها، والرد عليها بالتفصيل في محمد بن عبد الله الغبان: فتنة مقتل عثمان بن عفان ﷺ، جـ ١، ص ٦١ - ٨٤.

(٢) البخاري: الصحيح، جـ ٣، ص ١٣٥٢، جـ ٤، ص ١٤٩١؛ أحمد: المسند، تحقيق أحمد شاكر، جـ ٨، ص١٠١ - ١٠٢.

(٣) البخاري: الصحيح، جـ ٢، ص ٨٣٥.

(٤) العش: الدولة الأموية، ص ٤١، ٤٢.

(٥) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٤، ص ٣٥٤.

(٦) البداية والنهاية، جـ ٧، ص ٢١٧.

عليه ، كما صح ذلك عن علي رضي الله عنه[١] .

٢ - أمور صح أنها وقعت من عثمان رضي الله عنه ، ولكن لم يصح أن المتمردين عاتبوه بها ، وبالتالي جعلها ذريعة للقيام عليه ، مثل إتمامه الصلاة بمنى ، وضياع خاتم النبي ﷺ ، وعدم قصاصه من عبيد الله بن عمر بن الخطاب الذي قتل الهرمزان وبنت أبي لؤلؤة وجفينة النصراني المتهمين بالتآمر مع أبي لؤلؤة المجوسي لقتل أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه[٢] .

٣ - أمور لم يثبت أصلاً أنها وقعت من عثمان رضي الله عنه ، فضلاً أن يكون أولئك المتمردون قد اتخذوها مسوغات للتمرد عليه ، مثل سكنى أبي ذر الغفاري رضي الله عنه الربذة ، ورد الحكم بن أبي العاص وابنه مروان من منفاهما ، وضرب عمار بن ياسر رضي الله عنه[٣] .

وجدير بالإشارة أن ما مضى ذكره من أشياء قيلت عن أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه مما لم يصح أن المتآمرين أثاروها وسوغوا بها تمردهم عليه ـ وهي ما أوردنا له أمثلة في القسمين الثاني والثالث سواء ما صح صدوره منه رضي الله عنه أولم يصح ـ جهدت عدد من المصادر المتأخرة في حشدها لتفسر بها أسباب التمرد على عثمان رضي الله عنه دون أن تلقي بالاً لحقيقة أمرها ، كما أن كتب الرافضة المتأخرين راحت أيضاً ترددها واحداً بعد الآخر بقصد التشنيع على هذا الخليفة الراشدي وتجريحه والطعن فيه .

الاتجاه الثاني : ما جاء عند الإخباري سيف بن عمر التميمي[٤] (ت حوالي ١٨٠ هـ) من أن مدبر الفتنة ومحركها هو عبد الله بن سبأ ، وملخص ما ورد في شأنه أنه كان يهودياً من صنعاء ، أسلم في زمن عثمان رضي الله عنه ، ثم حل في الحجاز ، ثم انتقل إلى البصرة ، ثم إلى الكوفة ، ثم انتقل إلى الشام ، وبعدها استقر في مصر.

---

(١) ابن أبي داود : كتاب المصاحف ، جـ ١ ، ص ٢٠٦ .

(٢) راجع تفصيل ذلك وشرحه وتحقيقه في الغبان : فتنة مقتل عثمان ، جـ ١ ، ص ٨٥ - ٨٩ ، ٩٥ - ١٠٠ ، ١٠١ - ١٠٢ . حيث ثبت في الصحيح إتمام عثمان رضي الله عنه للصلاة في منى (البخاري : الصحيح ، جـ ١ ، ص ٣٦٧ ، ٣٦٨ ، جـ ٢ ، ص ٥٩٦ ؛ مسلم : الصحيح ، جـ ١ ، ص ٤٨٢ ، ٤٨٣) وسقوط خاتم النبي ﷺ في بئر أريس (البخاري: الصحيح ، جـ ٥ ، ص ٢٢٠٢ ، ٢٢٠٤ ، ٢٢٠٥ ؛ مسلم : الصحيح ، جـ ٣ ، ص ١٦٥٦) كما اشتهر أنه رضي الله عنه أنه ترك القود من عبيد الله بن عمر لما في قضيته من ملابسات (ابن تيمية : منهاج السنة ، جـ ٥ ، ص٥١٥ ، جـ٦ ، ٢٨١) .

(٣) راجع تحقيق هذه القضايا في الغبان : فتنة مقتل عثمان ، جـ ١ ، ص ٩٠ - ٩٤ ، ١٠٢ - ١٠٧ .

(٤) كتاب الردة والفتوح وكتاب الجمل ومسير عائشة وعلي ، ص ١٣٩ ، وانظر أيضاً ص ٥٧ ، ٩٤ ، ١٠٥ ، ١٢١ ، ١٢٦ ، ١٦٢ .

وفي البداية بث في الأماكن التي نزل فيها أفكاراً فاسدة كرجعة النبي ﷺ ، والوصية لعلي ﷺ[١]، وكان هدفه من الثانية إظهار الخليفة عثمان ﷺ بمظهر المتعدي على حق علي ﷺ في الخلافة ، فضلاً عن الخليفتين السابقين[٢].

حيث أطلق دعوى ظلم من لم يجز وصيته ﷺ ، ووثب على وصيه ، وعقب ذلك أخذ مع أعوانه يشوهون عثمان ﷺ وعماله[٣]، وبعدها دفع أتباعه ومن انخدعوا بدعاياته إلى التحرك نحو المدينة[٤].

بيد أن جماعة من المستشرقين وتبعهم فئة من الكتاب المنتمين إلى أهل السنة وشريحة واسعة من كتاب الشيعة ـ أثاروا في العصر الحديث شكوكاً حول أثر ابن سبأ في أحداث الفتنة[٥]، بل وصل الأمر ببعضهم إلى إنكار وجود ابن سبأ تماماً من الأساس ، واعتبروه شخصية وهمية أسطورية[٦]، بحجة أن سيف بن عمر الذي ضعفه جمع من العلماء[٧] انفرد بإثباته .

والحقيقة أن من يستقري المصادر القديمة والمتأخرة سواء عند السنة أو الشيعة يتأكد لديه بما لا يدع مجالاً للشك «أن عبد الله ابن سبأ شخصية تاريخية واقعة»[٨]، حيث تفيض بذكره كتب العقائد والحديث والتاريخ والأنساب والرجال والطبقات والأدب[٩].

ثم إنه ليس صحيحاً أن سيفاً انفرد بذكره ، فلقد ورد خبره في عدد من المصادر السنية والشيعية ، وذلك عن طريق جمع غفير من الرواة المتقدمين على سيف في الزمن[١٠].

(١) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ، ص ٣٤٠ ؛ ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق ، جـ ٢٩ ، ص ٣ ، ٤ .
(٢) الغيث : استشهاد عثمان ، ص ٨٤ .
(٣) سيف بن عمر : الردة والفتوح ، ص ١٤٠ .
(٤) المصدر نفسه ، ص ١٥٤ .
(٥) العودة : عبد الله بن سبأ ، ص ١٠٣ – ١٠٤ .
(٦) العودة : عبد الله بن سبأ ، ص ٧٤ ، ٧٩ ، ٨٧ ؛ الهاشمي : ابن سبأ ، ، ص ١٧ . ويقول هشام جعيط عن ابن سبأ « إنما هو من صنع الخيال » (الفتنة ـ جدلية الدين والسياسة في الإسلام المبكر ـ ، ص ١٦٤) .
(٧) الغبان : فتنة مقتل عثمان ، جـ ١ ، ص ١١٩ .
(٨) العودة : عبد الله بن سبأ ، ص ١١٠ .
(٩) الغبان : فتنة مقتل عثمان ، جـ ١ ، ص ١١٨ ، ١٢٠ ؛ أمحزون : تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة ، جـ ١ ، ص٢٨٤ ، ٣١٧ .
(١٠) الغيث : استشهاد عثمان ، ص ٧٦ ، ٨٠ .

ثم إن تضعيف بعض العلماء لسيف بن عمر إنما ينسحب عليه فقط عند روايته الأحاديث النبوية وليس عند روايته للأخبار التاريخية[١].

وإضافة إلى ذلك فإن ما رواه سيف عن دور ابن سبأ في الفتنة لا يتعارض مع الروايات الصحيحة ، بل يسير معها في اتجاه واحد ، بل ويحل ـ في تعيينه لفعل ابن سبأ وأعوانه في أحداث الفتنه ـ إشكالية الأيدي الخفية المحركة للفتنة التي رسمت هيكلها الروايات الصحيحة ولم توضح هوية أفرادها[٢].

الاتجاه الثالث : ما طرحته الدراسات الحديثة من أن العوامل الأساسية المحركة للفتنة في ذلك العصر تعود إلى ما طرأ على المجتمع الإسلامي من تغيرات اجتماعية واقتصادية ؛ حيث امتدت حدود الدولة الإسلامية ، فشملت مناطق متعددة ، وشعوباً متفرقة ، كما أن جماعات كثيرة من قبائل العرب خرجت من الجزيرة العربية وسكنت في البلاد المفتوحة.

ونتيجة لاختلاط تلك القبائل بعضها ببعض من ناحية ومع الشعوب الأخرى من ناحية أخرى نشأت أجيال جديدة اختلفت على الجيل الأول من الصحابة الذين حملوا على أكتافهم عبء تأسيس الدولة وإقامتها .

كذلك فإن الأموال والغنائم والسبايا تدفقت على الناس في ذلك العصر نتيجة الفتوحات الواسعة ، فحل بينهم الرخاء ، وظهرت فيهم بوادر الترف ، وأقبلت جماعات منهم على الدنيا وافتتنوا بها ، فوقع بينهم التنافس والتحاسد ، وانغمسوا في الشغب والفتن[٣] .

هذه هي مجمل اتجاهات العلماء والمؤرخين والكتاب القدامى والمحدثين في تفسير أسباب الفتنة الحادثة في أواخر عهد عثمان ﷺ . والواقع أننا إذا تأملنا كل اتجاه منها نخاله لا يتعارض مع الاتجاه الآخر ، بل أن الأسباب المذكورة في تلك الاتجاهات بمجموعها ينبني بعضها على بعض ، وإن اختلف كل واحد منها عن الآخر في القوة والأثر ،

(١) الغيث : استشهاد عثمان ، ص ٧٩ .
(٢) العش : الدولة الأموية ، ص ٦٥ ، ٦٧ .
(٣) العمري : عصر الخلافة الراشدة ، ص ٣٨٢ .

وتفصيل ذلك أن الجماعات التي حملت لواء التمرد والخروج على أمير المؤمنين عثمان ﷺ كانت من البصرة والكوفة والفسطاط[١]، وهذه المدن مدن إسلامية نشأت حديثاً في عهد عمر بن الخطاب ﷺ [٢]، فضمت عناصر عربية من قبائل شتى وعناصر غير عربية ، فكان عدم التجانس وقلة حظهم من العلم بالدين الإسلامي هو الغالب بينهم بعيد زمن وجيز من نشأة مدنهم.

وفي مثل هذه الأجواء وجد أعداء الإسلام المتمثلين بابن سبأ اليهودي وأعوانه فرصتهم ، فأخذوا يكيدون للمسلمين ودولتهم الناشئة ، فادعوا وقوع مظالم من عمال عثمان ﷺ ، وضخموا ما ادعوه وأشاعوه بين الناس ، كما تعرضوا لشخص عثمان ﷺ فأثاروا حوله التهم .

ومن العجيب أن الأمور التي ثبت صحة أثارتها للطعن في عثمان ﷺ كان بعضها ـ كما سبق ـ قد وقعت له في حياة النبي ﷺ وتبينت حقيقتها في حينها ، وبعضها وقع في عهده ولكنه إما أنها مما لا يعاب عليه ، أو أنها من حسناته ـ إن تلك الأمور لما أُثيرت من قبل ابن سبأ وعصبته وجدت آذاناً صاغية عند هذا الجيل الجديد من المسلمين في تلك الديار ، فهم أناس لا يعرفون قدر خليفتهم عثمان ﷺ ولا سابقته في الإسلام .

استشهاد عثمان ﷺ: مثلما ذكرت المصادر التاريخية القديمة ـ وفي مقدمتها سيف ابن عمر ـ أنه بعدما أثار السبئيون الناس في أقطار الدولة الإسلامية على الخليفة عثمان ابن عفان ﷺ ، واحفظوا النفوس عليه ، وعظموا بعض الأخطاء الصادرة من بعض عماله تحركت فئام من أهل الأمصار نحو المدينة ، وقد نصت تلك المصادر بالتحديد على وفود أهل مصر والبصرة والكوفة.

وكانت أعداد كل وفد منهم تتراوح بين ٦٠٠ ـ ١٠٠٠ رجل ، وقد خرجوا بصفتهم حجاجاً في أواخر سنة ٣٥ هـ ، بحيث لا يفطن لهم ، فلما اقتربوا من المدينة توقفوا بعد أن خافهم أهلها ، فبادر أفراد منهم للدخول إليها ، فذهب رؤساء الوفد

---

(١) سيف بن عمر : الردة والفتوح ، ص ١٥٣ ؛ الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ، ص ٣٤٥ ، ٣٤٨ - ٣٤٩ ..

(٢) ابن تيمية : الخلافة والملك ، ص ٤٥ ؛ الملاح ، الوسيط في السيرة والخلافة الراشدة ، ص ٣٩٣ .

المصري إلى علي ﷺ ، ورؤساء الوفد البصري إلى طلحة ﷺ ، ورؤساء الوفد الكوفي إلى الزبير ﷺ ، ولكن هؤلاء الصحابة لم يصغوا لهم ، بل طردوهم .

وبعد أن تظاهرت تلك الوفود بالقفول إلى بلدانهم وقطعوا مسافة وتفرق أهل المدينة كانت المفاجأة بعودتهم مرة أخرى واقتحامهم جميعاً المدينة ، وعند سؤالهم عن سبب رجوعهم رد المصريون بأنهم امسكوا ببريد معه كتاب من الخليفة يأمر بقتلهم ، فسأل علي ﷺ الوفدين البصري والكوفي كيف علموا بما لقي أهل مصر وعادوا مثلهم وقد ساروا مراحل من المدينة ؟ ، ولم يكن ردهم عليه إلا بقولهم « فضعوه على ما شئم لا حاجة لنا في الرجل ليعتزلنا».

وتركوا عثمان ﷺ يصلي بهم وهم يصلون خلفه ، ويغشاه من شاء ، وكانوا لا يمنعون أحداً من الكلام ، على أنهم توزعوا زمراً في المدينة ليمنعوا الناس من الاجتماع ، ثم ما لبثوا أن حاصروه في داره حتى انتهى الأمر بانتهاك حرمته وقتله في داره[(١)] .

هذه قصة استشهاد عثمان ﷺ باختصار كما رواها الإخباري سيف بن عمر التميمي ، بيد أن لدينا روايات صحيحة الإسناد تحكي أيضاً قصة استشهاده ﷺ ، لعلنا نذكر شيئاً منها ، فلقد ورد بإسناد حسن عن أبي سعيد مولى أبي أسيد الأنصاري[(٢)] أن عثمان ﷺ سمع بقدوم وفد أهل مصر فاستقبلهم خارج المدينة ، فدعوا بالمصحف وأخذوا يفتحون على آيات منه ، ويواجهون بها عثمان ﷺ ، فسألوه أولاً عن الحمى.

فبين لهم أن عمر ﷺ قبله حمى لإبل الصدقة ، وأنها زادت ـ لما ولي ـ فزاد في الحمى ، فجعلوا يأخذونه بالآية تلو الآية فيوضح أنها نزلت في كذا وكذا ، ثم أخذوه بأشياء فاستغفر منها ، وبعد ذلك كتبوا عليه بعض الشروط[(٣)] .

---

(١) الطبري : تاريخ الأمم الملوك ، جـ ٤ ، ص ٣٤٨-٢٥٤ .

(٢) الهيثمي : مجمع الزوائد ، جـ ٧ ، ص ٢٢٩ ؛ العش : الدولة الأموية ، ص ٤١ ؛ الغبان : فتنة مقتل عثمان ، جـ١ ، ص ٣٣٢ .

(٣) في هذه الرواية التي نعرضها لم يصرح بهذه الشروط . ولقد نصت رواية أخرى على بعض الشروط ، وهي قول محمد بن سيرين «واشترطوا عليه أن المنفي يقلب ، والمحروم يعطى ، ويفر الفيء ، ويعدل في القسم ، ويستعمل ذو القوة والأمانة » (خليفة بن خياط : تاريخه خليفة بن خياط ، ص ١٦٩ – ١٧٠ ؛ ابن عساكر : عثمان بن عفان ، ص ٣٢٨) وهذه الرواية صحيحة السند إلى محمد بن سيرين ، بيد أن محمد بن سيرين لم يدرك الفتنة ، إذ أن مولده كان سنة ٣٣ هـ . (العش : الدولة الأموية ، ص ٤٣ ، الغبان : فتنة مقتل عثمان ، جـ ١ ، ص ١٢٩ ، حاشية ١ ، ٤٣٠)

وبالمقابل أخذ عليهم ألا يشقوا عصا الطاعة ، ولا يفارقوا الجماعة ما قام بشروطهم ، وبعدها طلبوا منه أن ألا يأخذ أهل المدينة عطاءً ، فأنكر عليهم طلبهم ، وشرح لهم أن العطاء يستحقه من قاتل عليه ، وكذلك أصحاب النبي ﷺ ، فأظهروا الرضا ودخلوا المدينة معه ، ثم قام خطيباً وأثنى عليهم خيراً .

ثم طالب المتجمهرين بالرجوع إلى مواضعهم ، ثم عاد ليؤكد أمام الجميع تعيين الفئة المستحقة للعطاء ، فرجع المصريون إلى بلادهم مظهرين رضاهم ، فبينما هم في الطريق إذا براكب يتعرض لهم ثم يفارقهم ، وكرر ذلك مراراً فأمسكوا به وسألوه عن شأنه ، فادعى أنه رسول أمير المؤمنين إلى عامله في مصر ، ففتشوه ووجدوا معه كتاباً على لسان عثمان ﷺ وعليه خاتمه ، وفيه «أن يصلبهم أو يقتلهم أو يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف».

فرجعوا إلى المدينة ، وأتوا علياً ﷺ ، وشكوا أن الخليفة كتب فيهم بكذا وكذا ، وأنه قد حل دمه بذلك ، وطلبوا من علي ﷺ أن يقوم معهم ، فلما أنكر عليهم قولهم وطلبهم قالوا له :«لم كتبت إلينا ؟ فقال : والله ما كتبت إليكم كتاباً قط». وعندئذ تركوه وانطلقوا حتى دخلوا على عثمان ﷺ فقالوا : « كتبت فينا بكذا وكذا ... فقال :

إنما هما اثنتان أن تقيموا علي رجلين من المسلمين ، أو يميني بالله الذي لا إله إلا هو ما كتبت ولا أمللت ولا علمت ، قال :

وقد تعلمون أن الكتاب يكتب على لسان الرجل ، وقد ينقش الخاتم على الخاتم ... فقالوا : فقد والله أحل الله دمك ، ونقضت العهد والميثاق ...»[1].

ويفهم من رواية صحيحة رواها الأحنف بن قيس[2] أن أولئك المتمردين لم يشددوا على عثمان ﷺ في الأيام الأولى ، فكان بمقدوره أن يصلي بالناس ، ويتحدث إليهم ، فقد ذكر الأحنف بن قيس في روايته هذه أنه لما قدم حاجاً في جماعة من أصحابه في ذلك العام ـ سمعوا بتجمع الناس في مسجد النبي ﷺ ، فقصدوا المسجد وجلسوا مع الناس وفيهم عدد من كبار الصحابة ، فدخل عثمان ﷺ فقال

(١) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ، ص ٣٥٤ - ٣٥٦ .
(٢) العش : الدولة الأموية ، ص ٥٤ .

« أهاهنا علي ؟ ، قالوا : نعم. قال : أهاهنا الزبير ؟ ، قالوا : نعم . قال : أهاهنا طلحة ؟ ، قالوا : نعم . قال : أنشدكم بالله الذي لا إله إلا هو ، أتعلمون أن رسول الله قال من يبتع مربد بني فلان غفر الله له ، فابتعته بعشرين أو بخمسة وعشرين ألفاً ، فأتيت النبي ﷺ فقلت : يا رسول الله قد ابتعته ، قال : اجعله في مسجدنا ، وأجره لك . قالوا : اللهم نعم . وذكر أشياء من هذا النوع »[١].

على أن المتمردين لم يمكثوا أن حاصروا عثمان ﷺ في داره ، وأقدموا على إجراءات مشددة تجاهه ، فمنعوه من الخروج ، وقطعوا عنه الماء العذب كما جاء على لسان عثمان ﷺ نفسه في رواية صحيحة[٢]، بل بلغ بهم الأمر أن حرموه من الصلاة في المسجد النبوى حسبما تلهم رواية وردت في الصحيح[٣].

وفي تلك الأثناء عرضوا عليه ـ كما جاء في رواية صحيحة[٤]ـ إما أن يخلع نفسه من الخلافة ، أو يقص من نفسه ، فإن أبى ذلك فسيكون مصيره القتل ، فاعتذر عن ذلك بأنه لم يمكن أن يخلع سربالاً سربله الله أياه ، ويترك أمة محمد ﷺ بلا خليفة ، وأنه بدنه لا يقوى على القصاص ، أما القتل فلم يكن يتصور أن يقدموا عليه ، لما فيه من خطر على وحدة الأمة ، فضلاً عن كونه ارتكب أعمالاً يستحل بها دمه ، حيث قال

« وأما أن يقتلوني ؛ فوالله لأن قتلوني لا يتحابون بعدي أبداً ، ولا يصلون بعدي جميعاً أبداً ، ولا يقاتلون بعدي عدواً جميعاً أبداً ... »[٥].

وقال في رواية صحيحة«ولمَ يقتلونني ، وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول : لا يحل دم امرئ مسلم إلا في إحدى ثلاث : رجل كفر بعد إيمانه ، أو زنى بعد إحصانه ، أو قتل نفساً بغير نفس . فو الله ما زنيت في جاهلية ولا في إسلام قط ، ولا تمنيت أن لي بديني بَدَلاً منذ هداني الله ، ولا قتلت نفساً ، ففيم يقتلونني ؟ »[٦].

---

(١) الطبري : تاريخ الأمم ، جـ ٤ ، ص ٤٩٧ .
(٢) العمري : عصر الخلافة الراشدة ، ص ٣٨٥ .
(٣) البخاري : الصحيح ، جـ ١ ، ص ٢٤٦ .
(٤) الهيثمي : مجمع الزوائد ، جـ ٧ ، ص ٢٣١ ؛ الغبان : فتنة مقتل عثمان ، جـ ١ ، ص ٤٢٦ .
(٥) ابن أبي شيبة : المصنف ، جـ ٧ ، ص ٤٤١ ؛ ابن عساكر : عثمان بن عفان ، ص ٤١٠ . وانظر ابن سعد : الطبقات ، جـ ٣ ، ص ٧٢ - ٧٣ ؛ خليفة بن خياط : تاريخه ، ص ١٧٠ .
(٦) ابن سعد : الطبقات ، جـ ٣ ، ص ٦٧ ؛ أحمد : المسند ، تحقيق شاكر ، جـ ١ ، ص ٣٤٨ ، ٣٦٣ ؛ =

وفي الوقت الذي شدد فيه هؤلاء المتمردون الخناق على أمير المؤمنين عثمان ﷺ ظهر الصحابة بجانبه ، فبذلوا لـه المشورة ، ومن أشهره ما وقع في تلك الأيام أنـه حينما أشار عليه بعضهم في التخلي عن الخلافة نصحه عبد الله بن عمر ﷺ بأن لا يفعل.

فقد روي بسند حسن عن نافع[١] أن ابن عمر دخل « على عثمـان وعنـده المغـيرة ابن الأخنس ، فقال : انظر ما يقول هؤلاء ، ... يقولون : اخلعها ولا تقتل نفسك ، فقال ابن عمر : إذا خلعتها أمخلد أنت في الدنيا ؟ قال : لا ، قال : فإن لم تخلعهـا هـل يزيـدون على أن يقتلوك ؟ قال : لا ، قال : فهل يملكون لك جنة ونـاراً ؟ قـال : لا ، قـال : فـلا أرى لك أن تخلعها ، ولا أرى أن تخلع قميصاً قمصكه الله ، فتكون سنة ، كلما كره قوم إمامهم أو خليفتهم خلعوه »[٢].

كما ظهر الصحابة بجانب عثمان ﷺ في تلك المحنة عندما عزموا علـى الـدفاع عنـه بالسلاح ، والقتال دونه ، بيد أن عثمان ﷺ كان منذ البداية قـد اتخـذ مـن القتـال موقفـاً واضحاً لم يتراجع عنه مطلقاً ، فكان يقول كما صح عنه «فوالله إني لأرجو أن ألقـى الله ولم أهرق محجمة من دم المؤمنين »[٣].

وحين طلب عبد الله بن الزبير ﷺ ـ بعد أن أمَّره علـى الـدار ـ أن يقاتلـهم ، لأن الله أحل قتالهم ، رد عليه عثمان ﷺ ـ كما ورد بإسـناد صـحيح[٤] ـ بقولـه «لا ، والله لا أقاتلهم أبداً »[٥].

وروي أنه لما جاءه المغيرة بن شعبة ﷺ ، واقترح عليه مقاتلة هؤلاء المعتدين ، قـال لـه عثـمان ﷺ « لن أكون أول من يخلف رسول الله ﷺ في أمته بسفك الدماء»[٦].

= فضائل الصحابة ، جـ ١ ، ص ٤٦٥ ، ٥٠٨ ؛ ابن شبة : أخبار المدينة ، جـ ٢ ، ص ٢٣٠ ؛ عبد الله بن أحمد : فضائل عثمان بن عفان ، ص ٨٧ ، ٨٨ ؛ الحاكم : المستدرك على الصحيحين ، جـ ٨ ، ص ٢٨٥٥ ؛ المقدسي : الأحاديث المختارة ، جـ ١ ، ص ٤٤٢ - ٤٤٤ .

(١) الغبان : فتنة مقتل عثمان ، جـ ١ ، ص ٣١٩ - ٣٢٠ ؛ العمري : عصر الخلافة ، ص ٣٨٨ ، حاشة ٣ .

(٢) ابن عساكر : عثمان بن عفان ، ص ٣٥٩ . وانظر خليفة بن خياط : تاريخه ، ص ١٧٠ .

(٣) ابن عساكر : عثمان بن عفان ، ص ٤٣٣ ؛ العش : الدولة الأموية ، ص ٤٩ ، وحاشية ٤٧ .

(٤) العمري : عصر الخلافة ، ص ٣٨٦ .

(٥) ابن سعد : الطبقات ، جـ ٣ ، ص ٧٠ ؛ ابن عساكر : عثمان بن عفان ، ص ٣٩٩ - ٤٠٠ .

(٦) أحمد : المسند ، تحقيق شاكر ، جـ ١ ، ص ٣٦٩ .

ويمكن أن نقسم الصحابة في دفاعهم بالسلاح عن عثمان ﷺ إلى فريقين ؛ فريق كانوا خارج الدار ، وقد عرضوا على عثمان ﷺ القتال دونه ، ولكنه لم يأذن لهم بذلك ، منهم الزبير بن العوام ﷺ ومعه رجال من بني عمرو بن عوف من الأنصار[1] ، وزيد بن ثابت ﷺ ومعه جماعة من الأنصار[2] ،

وحارثة بن النعمان ﷺ ومعه أيضاً جماعة من الأنصار[3] . أما الفريق الثاني فقد كانوا معه داخل الدار ، وقد استعدوا للدفاع عن عثمان ﷺ ، وجندوا أنفسهم للقتال دونه ، وكانوا جماعة من الصحابة وأبناء الصحابة وغيرهم ، ويأتي في مقدمة هؤلاء : عبد الله بن عمر ، وأبوهريرة ، والحسن بن علي بن أبي طالب ، وعبد الله بن الزبير ، ومحمد بن حاطب ، وأبو أمامة بن سهل بن حنيف ، ومروان بن الحكم ، ورجال من بني عدي دخلوا مع ابن عمر كابن سراقة وابن مطيع[4] .

ورغم أن عثمان ﷺ شدد على هؤلاء بعدم القتال حتى قال ـ كما ثبت بإسناد صحيح[5] ـ « اعزم على كل من رأى أن لي عليه سمعاً وطاعة إلا كف يده وسلاحه ، فإن أفضلكم عني غناء من كف يده وسلاحه »[6] .

ورغم ذلك فإن أفراداً منهم حملوا السلاح ، ودافعوا عنه بقدر ما يستطيعون وقت اقتحام المجرمين عليه الدار ، وقد رأى أحد شهود العيان أربعة منهم ملطخين بالدماء ، محمولين ، وهم الحسن بن علي ، وعبد الله بن الزبير ، ومحمد بن حاطب ، ومروان بن الحكم[7] .

استمر المعتدون البغاة يحاصرون الخليفة عثمان ﷺ حتى يوم الجمعة الثاني عشر

---

(١) أحمد : فضائل الصحابة ، جـ ١ ، ص ٥١١ - ٥١٢ ؛ اللالكائي : اعتقاد أهل السنة ، جـ ٧ ، ص ١٣٤٩ ؛ ابن عساكر : عثمان بن عفان ، ص ٣٧٤ .
(٢) نعيم بن حماد : الفتن ، ص ١١١ ؛ ابن سعد : الطبقات ، جـ ٣ ، ص ٧٠ ؛ ابن أبي شيبة : المصنف ، جـ ٧ ، ص٤٤٢ ، ٥١٦ .
(٣) البخاري : التاريخ الأوسط ، جـ ١ ، ص ٧٦ ؛ ابن عساكر : عثمان بن عفان ، ص ٤٠٢ .
(٤) خليفة بن خياط : تاريخه ، ص ١٧٣ .
(٥) الغبان : فتنة مقتل عثمان ، جـ ١ ، ص ٢٩١ ؛ العمري : عصر الخلافة ، ص ٣٨٦ ، حاشية ٢ .
(٦) نعيم بن حماد : الفتن ، ص ١٠٨ .
(٧) ابن عبد البر : الاستيعاب ، ق ٣ ، ص ١٠٤٦ .

من شهر ذي الحجة ـ على أصح الأقوال ـ سنة ٣٥ هـ[١]، وذلك بعد مرور أربعين يوماً على دخولهم المدينة[٢]. وفي ذلك اليوم أصبح ﷺ يحدث الناس ـ كما جاء بإسناد صحيح ـ أنه رأى النبي ﷺ وصاحبيه أبا بكر وعمر رضي الله عنهما في المنام فقالوا له «اصبر فإنك تفطر عندنا القابلة»[٣].

وفي تلك الساعات استطاع عثمان ﷺ أن يقنع من معه في الدار من الصحابة وغيرهم الذين كانوا قد جندوا أنفسهم للدفاع عنه وحمايته ـ وكان عددهم غفيراً ـ بالخروج من الدار، وتركه يواجه وجهاً لوجه المتمردين، فلم يبق ساعتئذ في الدار إلا هو ﷺ مع أهله وقلة من الذين أصروا على الدفاع عنه[٤].

ثم فتح الباب ـ كما ورد بسند حسن ـ «ووضع المصحف بين يديه، فدخل عليه رجل، فقال: بيني وبينك كتاب الله، فخرج وتركه، ثم دخل عليه آخر، فقال: بيني وبينك كتاب الله، فأهوى إليه بالسيف، فاتقاه بيده، فقطعها، فلا أدري أبانها، أم قطعها ولم يبنها. فقال: أما والله إنها لأول كف خطت المفصل»[٥].

وفي رواية أنه لما ضرب «بالسيف على يده وقعت على: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ ...»[٦]. وثمة روايات تؤكد أن التجيبي ضربه بمشقص[٧] [سهم فيه نصل عريض]، ورومان اليماني ضربه بصولجان[٨] [وهو العصا المعوج]، كما

---

(١) حقق ذلك الغبان: فتنة مقتل عثمان، جـ ١، ص ١٩٨، ٢٠٠؛ وانظر الغيث: استشهاد عثمان، ص ١٣١-١٣٢.

(٢) المالقي: مقتل الشهيد عثمان، ص ٢٥٩ – ٢٦٠.

(٣) أحمد: المسند، تحقيق أحمد شاكر، جـ ١، ص ٣٨٩؛ ابن عساكر: عثمان بن عفان، ص ٣٩٣؛ الهيثمي: مجمع الزوائد، جـ ٧، ص ٢٣٢، جـ ٩، ص ٩٦.

(٤) الغبان: فتنة مقتل عثمان، جـ ١، ص ١٨٥ – ١٨٨.

(٥) ابن أبي شيبة: المصنف، جـ ٧، ص ٥٢١؛ خليفة بن خياط: تاريخه، ص ١٧٤؛ أحمد: فضائل الصحابة، جـ١، ص ٤٧٢؛ ابن شبة: أخبار المدينة، جـ ٢، ص ٢٨٩؛ عبد الله بن أحمد: فضائل عثمان، ص ١٠٤، ١٠٦؛ الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٤، ص ٣٨٤.

(٦) ابن عساكر: عثمان بن عفان، ص ٤١٩.

(٧) ابن أبي شيبة: المصنف، جـ ٧، ص ٥٢١؛ خليفة بن خياط: تاريخه، ص ١٧٥؛ أحمد: فضائل الصحابة، جـ١، ص ٤٧٢؛ ابن شبة: أخبار المدينة، جـ ٢، ص ٢٨٩؛ عبد الله بن أحمد: فضائل عثمان، ص ١٠٥؛ الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٤، ص ٣٨٤؛ ابن بلبان: صحيح ابن حبان، جـ ١٥، ص ٣٦٠.

(٨) خليفة بن خياط: تاريخه، ص ١٧٥؛ ابن شبة: أخبار المدينة، جـ ٢، ص ٣٠٢.

ورد أن الموت الأسود خنقه قبل ضربه بالسيف[١] .

وهكذا استشهد الخليفة الراشدي عثمان ﷺ صابراً محتسباً في صبيحة ذلك اليوم ، وكان وقتذاك في الثانية والثمانين من عمره على أشهر الأقوال ، وقد ورد في روايات ضعيفة يتقوى بعضها ببعض أنه صلي عليه ، وحملت جنازته ، ودفن في بستان اسمه حش كوكب يقع بالقرب من بقيع الغرقد[٢] . وقد دامت خلافته اثنتي عشرة سنة إلا اثني عشر يوماً ، وقيل: إلا ثمانية أيام[٣] .

وقبل أن ندع هذا الحدث الجلل الذي أصيب به المسلمون لابد من الوقوف عند سؤال طالما طرحه كثيرون ، **وهو كيف قُتل عثمان ﷺ في المدينة رغم وجود الصحابة ؟** والجواب على السؤال يمكن تلخيصه في النقاط التالية :

١ - إن هؤلاء المتمردين قدموا إلى المدينة بدعوى مناقشة الخليفة ، وهذا حق متاح لهم كغيرهم من المسلمين في عصر الخلفاء الراشدين ، ولذا فالصحابة أو قُل كثير منهم لم يروا في قدوم القوم المدينة ، ولقائهم بالخليفة بأساً ولا حرجاً .

٢ - يقول الآجري[٤] « وقد خاطب علي ... وطلحة والزبير ﷺ وكثير من الصحابة هؤلاء القوم بمخاطبة شديدة ... فلما أحسوا أن أصحاب رسول الله قد أنكروا عليهم أظهرت كل فرقة منهم أنهم يتولون الصحابة ، فلزمت فرقة منهم باب علي ... وزعمت أنها تتولاه ، ... ومنعوه الخروج [أي فرضوا عليه ما يمكن أن يسمى في عصرنا بالإقامة الجبرية].

ولزمت فرقة منهم باب طلحة ، وزعموا أنهم يتولونه ، ...

ولزمت فرقة منهم باب الزبير ، وزعموا أنهم يتولونه ... ، وإنما أرادوا أن يشغلوا الصحابة عن الانتصار لعثمان ﷺ ، ولبّسوا على أهل المدينة أمرهم ... » .

---

(١) ابن أبي شيبة : المصنف ، جـ ٧ ، ص ٥٢١ ؛ خليفة بن خياط : تاريخه ، ص ١٧٤- ١٧٥ ؛ أحمد : فضائل الصحابة ، جـ ١ ، ص ٤٧٢ ؛ ابن شبة : أخبار المدينة ، جـ ٢ ، ص ٢٨٩ ؛ عبد الله بن أحمد : فضائل عثمان ، ص ١٠٤ - ١٠٥ .

(٢) الغبان : فتنة مقتل عثمان ، جـ ١ ، ص ٢٠٢ ، ٢٠٤ ، ٢١١ - ٢١٢ .

(٣) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ، ص ٤١٦ ، ٤١٧ ؛ ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ص ١٧٩ .

(٤) الشريعة ، جـ ٤ ، ص ١٩٨٠ .

٣ - ثم إن كثيراً من الصحابة ـ كما يقول ابن كثير[١] ـ « بل أكثرهم أوكلهم لم يكن يظن أنه يبلغ الأمر إلى قتله ، فإن أولئك الأحزاب لم يكونوا يحاولون قتله عيناً ، ... فما كان يظن أحد ... أن هؤلاء يجترؤون عليه إلى ما هذا حده ، حتى وقع ما وقع».

٤- وفوق ذلك فإن الصحابة ﷺ قد ظهروا ـ كما سبق ـ حول عثمان ﷺ أثناء محنته في تقديمهم المشورة المخلصة له . ثم في عزمهم على حمل السلاح للدفاع عنه وحمايته حين ضيق المتمردون عليه الحصار ، لكن عثمان ﷺ قد اتخذ من البداية حتى النهاية موقفاً واضحاً وصريحاً ـ لم يتزحزح عنه ـ بالبعد عن أي حركة يراق فيها دم مسلم.

يقول الآجري[٢] عن الصحابة في موقفهم هذا إنهم «كانوا أصحاب طاعة ، وفقهم الله للصواب من القول والعمل ، فقد فعلوا ما يجب عليهم من الإنكار بقلوبهم وألسنتهم ، وعرضوا أنفسهم لنصرته على حسب طاقتهم ، فلما منعهم عثمان ﷺ من نصرته علموا أن الواجب عليهم السمع والطاعة له ، وأنهم إن خالفوه لم يسعهم ذلك ، وكان الحق عندهم في ما رآه عثمان ﷺ » .

٥ - ومع ذلك فإن بعض أبناء الصحابة وغيرهم لما دخل هؤلاء المتمردون الدار حين أمر عثمان ﷺ بفتح بابها حملوا السلاح ، واشتبكوا معهم ، وقد سبق أن سردنا رواية تذكر أسماء من أخرجوا من الدار مضرجين بالدماء .

٦ ـ ثم أن فتح عثمان ﷺ باب الدار في صبيحة يوم استشهاده قد يفهم منه احتمال التفاوض والمناقشة بينه وبين هؤلاء المتمردين ، بينما الاعتداء عليه بتلك السرعة قد لا يكون محتملاً عند كثيرين ، فقد ورد أن علياً ﷺ قد هب لنجدته حين خاف المسلمون عليه من القتل ، ولكن ما أن تحرك من بيته جاءه الخبر باستشهاده ، ففي رواية عن محمد ابن الحنفية بسند صحيح ، قال

«كنت مع علي ـ وعثمان محصور ـ قال : فأتاه رجل فقال : إن أمير المؤمنين مقتول ، ثم جاء آخر فقال : إن أمير المؤمنين مقتول الساعة ، قال : فقام علي ، قال

(١) خلافة عثمان ، ص ١٠٧ .
(٢) الشريعة ، جـ ٤ ، ص ١٩٨٢ .

محمد: فأخذت بوسطه تخوفاً عليه ، فقال : خل لا أم لك ! قال : فأتى علي الدار ، وقد قتل الرجل ، فأتى داره فدخلها ، وأغلق عليه بابه ... »[١] .

٧ - وأخيراً إن هؤلاء المجرمين استغلوا غيبة عديد من الصحابة في أيام الحج خاصة ، وخروج كثير منهم عن المدينة للسكنى في الأقاليم الإسلامية أو للجهاد في الثغور عامة ، فضلاً عمن اعتزل الفتنة في المدينة نفسها ـ استغلوا ذلك فاجترؤوا على قتله[٢] .

(١) أحمد : فضائل الصحابة ، جـ ٢ ، ص ٥٧٣ ؛ ابن شبة : أخبار المدينة ، جـ ٢ ، ص ٢٥٣ .
(٢) ابن كثير : خلافة عثمان ، ص ١٠٧ .

الفصل الرابع

الخليفة علي بن أبي طالب
رضي الله عنه

الخليفة علي بن أبي طالب ﷺ[١]

اسمه ونسبه وألقابه وكناه : هو علي بن أبي طالب [واسم أبي طالب : عبد مناف] بن عبد المطلب بن هاشم ابن عبد مناف بن قصي بن كلاب ، يلتقي في نسبه مع النبي ﷺ في جده الأول عبد المطلب ، فهو مباشرة ابن عم النبي ﷺ ، فالنبي ﷺ : ابن عبد الله بن عبد المطلب ، وعلي : ابن أبي طالب بن عبد المطلب ، زد على ذلك أن أبا طالب كان الأخ الشقيق لعبد الله والد النبي ﷺ . ثم إن والدة علي ﷺ هي فاطمة بنت أسد بن هاشم ، وهاشم هذا هو الجد الثاني للنبي ﷺ . إذن فنسب علي ﷺ من ناحية أبيه وأمه - من أعرق الأنساب وأشهرها .

من أسماء علي ﷺ التي عرف بها حيدرة ، وقد صح أن علياً ﷺ صرح به في غزوة خيبر حينما قال مرتجزاً :

أنا الذي سمتني أمي حَيْدَرَهْ كَلَيْثِ غَابَاتٍ كَرِيهِ الْمَنْظَرَهْ

أُوفِيهِمُ بالصاع كيلَ السَّنْدَرَهْ[٢]

وحيدرة اسم من أسماء الأسد ، فقيل إن أباه كان غائباً حين ولدته أمه فسمته أسداً باسم أبيها ، فلما رجع أبوه سماه علياً . وأراد بقوله حيدرة أنها سمته أسداً ، وقيل بل سمته من الأصل حيدرة[٣] .

وكان يكنى بأبي الحسن ، وبأبي تراب ، وهذا الكنية الأخيرة صح أن النبي ﷺ كناه بها ، إذ وجده بالمسجد مضطجعاً وقد أصاب التراب شقه ، فجعل يمسحه ويقول « قم أبا تراب »[٤] .

---

(١) دأب بعض الكتاب عند ذكر علي ﷺ أن يقول «كرم الله وجهه » ، وتخصيص علي ﷺ بهذا الدعاء دون غيره من الصحابة الكرام مما لا ينبغي ، لأن ذلك من غلو الشيعة فيه ، أما ما يقال إن تكريم وجه علي ﷺ لأجل أنه لم يطلع على عورة أحد أصلاً ، أو لأنه لم يسجد لصنم قط - فهذا ليس خاصاً به ، بل يشاركه غيره من الصحابة الذين ولدوا في الإسلام (فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء ، جـ ٣ ، ص ٢٨٩) .

(٢) ابن سعد : الطبقات الكبرى ، جـ ٢ ، ص ١٢٢ ؛ أحمد : فضائل الصحابة ، جـ ٢ ، ص ٦٠٦ ؛ مسلم : الصحيح ، جـ ٣ ، ص ١٤٤١ . والسندرة مكيال واسع (مسلم : الصحيح ، جـ ٣ ، ص ١٤٤١ ، حاشية ٥) .

(٣) ابن الأثير : النهاية في غريب الحديث ، جـ ١ ، ص ٣٥٤ .

(٤) البخاري : الصحيح ، جـ ١ ، ص ١٦٩ ، جـ ٥ ، ص ٢٣١٦ ؛ مسلم : الصحيح ، جـ ٤ ، ص ١٨٧٥ .

مولده ونشأته وإسلامه : ولد علي ﷺ في مكة ، وأكد الحاكم[١] أن الأخبار تواترت بولادته في جوف الكعبة ، وقد اختلف في تحديد سنة ولادته قبل البعثة ـ بناء على الروايات التي حددت عمره حين أسلم ـ على أقوال متعددة ، أقلها خمس سنوات وأكثرها ست عشرة سنة . لكن الراجح حسب رأي ابن حجر[٢] أنه «ولد قبل البعثة بعشر سنين».

ترعرع علي ﷺ في بيت النبي ﷺ ، والسبب في ذلك أن أزمة شديدة أصابت قريشاً ، وكان أبو طالب كثير العيال ، فأخذ النبي ﷺ علياً ، وضمه إليه ليعين عمه ، ويخفف عنه ، فكان هذا من نعمة الله على علي ﷺ ، إذ عاش طفولته في حجر النبي ﷺ[٣].

بادر علي ﷺ باعتناق الإسلام بعد نزول الوحي على النبي ﷺ ، فقد روى ابن إسحاق ـ بدون سند ـ أن علياً ﷺ دخل على النبي ﷺ وخديجة رضي الله عنها فوجدهما يصليان ، فسأل النبي ﷺ عن ذلك ، فأخبره بما نزل عليه من الحق ، ودعاه إلى الإسلام ، فآثر علي ﷺ أن يستشير والده أبا طالب في الأمر ، فعندئذ خشي ﷺ من إفشاء سره ، فقال له «إذا لم تُسلم فاكتم»، لكنه مكث تلك الليلة وعاد في صبيحتها وأسلم دون أن يراجع والده[٤].

وقد جعله بعض الرواة أول الناس إسلاماً ، وعارضهم آخرون بأسبقية خديجة وأبي بكر وزيد بن حارثة ﷺ إلى الإسلام ، ولذا فالأورع «أن يقال : أول من أسلم من الرجال الأحرار أبو بكر ، ومن الصبيان أو الأحداث علي ، ومن النساء خديجة ، ومن

---

(١) المستدرك ، جـ ٦ ، ص ٢١٨٧ .

(٢) فتح الباري ، جـ ٧ ، ص ٧١ . وقال في مصنف آخر أنه ولد قبل البعثة بعشر سنين على الصحيح (الإصابة ، جـ٤ ، ص ٥٦٤) وقد عرض عبد الحميد بن علي فقيهي الأقوال في مولد علي ﷺ ، فذكر خمسة أقوال ، قبل البعثة بخمس سنوات ، بثمان ، بعشر ، بخمس عشرة ، بست عشرة ، وقد مال في الأخير إلى القول بأن ولادته كانت قبل البعثة بخمس سنوات ، لأنه قول أبي جعفر الباقر ، ولما صح من قول ابن عباس ﷺ بأن الرسول ﷺ دفع الراية يوم بدر لعلي ﷺ ، وهو ابن عشرين سنة ، وكانت بدر في السنة الثانية من الهجرة (خلافة علي بن أبي طالب ﷺ ، ص ١٩- ٢٠) .

(٣) ابن هشام : السيرة النبوية ، جـ ١ ، ص ٣١٣ .

(٤) ابن إسحاق : سيرة ابن إسحاق ، ص ١١٨ ؛ الذهبي : السيرة النبوية ، ص ١٣٥ ؛ ابن كثير : السيرة النبوية ، جـ١ ، ص ٤٢٨ .

الموالي زيد بن حارثة ، ومن العبيد بلال»[١] .

وكما سبقت الإشارة إلى الاختلاف في تحديد سنة ولادته ﷺ بناء على اختلاف الرواة في تحديدهم عمره حين أسلم ، والقول الذي يميل إليه المحققون أن علياً ﷺ يوم أسلم كان في العاشرة من عمره ، قال ابن حجر[٢]« فإن الأصح في سن علي حين المبعث كان عشر سنين » . ولكونه اعتنق الإسلام في هذه السن المبكرة فالمظنون ألا يكون قبل إسلامه قد تلبس بعبادة الأوثان التي كانت منتشرة في الجاهلية بمكة ، وقد جزم بعضهم بأنه «لم يعبد الأوثان قط لصغره »[٣] .

صفته الخَلْقية : وصف كثيرون هيئة علي ﷺ بأوصاف متفرقة[٤] جمعها ابن كثير[٥] بقوله «كان رجلاً آدم ، شديد الأدمة ، أشكل العينين [حمرة ببياض] ، عظيمهما ، ذو بطن ، أصلع ، وهو إلى القصر أقرب ، وكان عظيم اللحية ، قد ملأت صدره ومنكبيه ، أبيضها ، وكان كثير شعر الصدر والكتفين ، حسن الوجه ، ضحوك السن ، خفيف المشي على الأرض » .

أولاده وزوجاته : كان علي ﷺ في حياته قد تزوج بعدة نساء بعد وفاة فاطمة بنت الرسول ﷺ ، كما تسرى بعدة سبايا ، وقد ولد له خمسة عشر من البنين ، وتسع عشرة من البنات.

فمن فاطمة رضي الله عنها ولد له منها الحسن ، والحسين ، وذكر ابن ثالث ـ توفي صغيراً ـ اسمه محسن ، وزينب الكبرىز

وأم كلثوم الكبرى . ومن أم البنين بنت حرام الكلابية ولد العباس ، وجعفر ، وعبد الله ، وعثمان .

---

(١) ابن الصلاح : مقدمة ابن الصلاح في الحديث ، ص ١٥٠ . راجع النووي : تهذيب الأسماء ، جـ ١ ، ص ٣١٦ ؛ ابن كثير: السيرة ، جـ ١ ، ص ٤٢٨- ٤٣٢ .

(٢) فتح الباري ، جـ ٧ ، ص ١٧٤ . راجع البيهقي : السنن الكبرى ، جـ ٦ ، ص ٢٠٦ - ٢٠٧ ؛ مهدي رزق الله أحمد : السيرة النبوية ، ص ١٥٧ .

(٣) ابن سعد : الطبقات ، جـ ٣ ، ص ٢١ ؛ السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ١٤٩ .

(٤) ابن سعد : الطبقات ، جـ ٣ ، ص ٢٥- ٢٧ .

(٥) خلافة علي بن أبي طالب ، ص ١٠ .

وولدت لـه ليلي بنت مسعود النهشلية التميمية : عبيد الله ، وأبا بكر .

ومن أسماء بنت عميس ولد لـه : محمد الأصغر ، ويحيي ، وعون . وولدت لـه الصهباء بنت ربيعة التغلبية ـ وهي من سبي عين التمر ـ رقية ، وعُمَر الذي بلغ عمره خمساً وثمانين فحاز نصف ميراث علي ﷺ ومات بينبع .

ومن أمامة بنت أبي العاص بن الربيع ـ وهي بنت زينب بنت الرسول ﷺ ولد لـه محمد الأوسط.

ومن خولة بنت جعفر من بني حنيفة ولد لـه محمد المعروف بابن الحنفية .

وولدت لـه أم سعيد ابنة عروة بن مسعود الثقفية ثلاث بنات هن : أم الحسن ، ورملة الكبرى ، وأم كلثوم .

كما ولد لـه من أمهات أولاد عددٌ من البنات ، منهن : أم هانئ ، وميمونة ، وزينب الصغرى ، ورملة الصغرى ، وأم كلثوم الصغرى ، وفاطمة ، وأمامة ، وخديجة ، وأم الكرام ، وأم سلمة ، وأم جعفر ، وجمانة ، ونفيسة(١) .

جهوده في سبيل الإسلام قبل خلافته :

ـ مواقفه مع النبي ﷺ : مثلما سبق كان علي ﷺ يعيش في كنف النبي ﷺ قبل البعثة ، وبإسلامه ارتبط به أكثر ، فصار ملازماً لـه على الدوام ، وقد سجلت المصادر عدداً من المواقف لعلي ﷺ مع النبي ﷺ سواء في مكة ، أو في المدينة لما استقر بها بعد هجرته إليها ، وفيما يلي نذكر هذه المواقف

في العهد المكي : ظهر علي ﷺ بعد إسلامه مع النبي ﷺ في مكة في عدد من المواقف ، فلقد شوهد يصلي مع الرسول ﷺ ، كما صح ذلك عن عُفَيِّف بن عمرو أخي الأشعث بن قيس لأمه ، حيث رأى علياً ﷺ ـ وهو غلام ـ في مكة أو منى حين قام يصلي مع النبي ﷺ وزوجته خديجة بن خويلد رضي الله عنها في أيام الإسلام الأولى(٢) .

---

(١) الطبري : تاريخ الأمم والملزك ، جـ ٥ ، ص ١٥٣-١٥٥ ؛ ابن الأثير : الكامل ، جـ ٣ ، ص ٣٩٧-٣٩٨ .

(٢) الألباني : صحيح السيرة النبوية للحافظ ابن كثير ، ص١٥- ١٧ ؛ سلمان بن فهد العودة : الغرباء الأولون ، ص١١٩- ١٢٣ ؛ مهدي رزق الله أحمد : السيرة النبوية ، ص ١٥٧ حاشية ٢٨٢ . وقد روي عن عبد الله بن مسعود ﷺ أنه رأى علياً ﷺ جاء بصحبة الرسول ﷺ وخديجة رضي الله عنها إلى المسجد الحرام ، فصار على يمين الرسول ﷺ وهو يطوف بالكعبة ، ثم قام يصلى معه وخديجة رضي الله عنها خلفهما (الطبراني : المعجم الكبير ، جـ١٠، ص ١٨٣ ؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء ، جـ ١، ص ٤٦٣ ؛ الهيثمي : مجمع الزوائد ، جـ ٩ ، ص٢٢٢).

كما روي أن علياً رضي الله عنه بادر بالاستجابة إلى مبايعة الرسول ﷺ من بين بني عبد المطلب الذين جمعهم ﷺ طالباً منهم بيعته بعد البعثة ، وكان علي رضي الله عنه في ذلك اليوم أصغر القوم[١] .

وقد برز علي رضي الله عنه عند هجرة النبي ﷺ ، إذ أسند إليه ﷺ حين عزم الهجرة إلى المدينة مهمة رد الأمانات التي كانت عنده لأهل مكة[٢] .

كما روي أنه ﷺ صحبه إلى الكعبة ليلة الهجرة ، وأمره النبي ﷺ أن يصعد على منكبيه لكسر تمثال من نحاس أو صفر فوق الكعبة ، فتمكن علي رضي الله عنه من إسقاطه وكسره ، ثم انطلقا الاثنان دون أن يراهما أحد[٣] .

وفي ليلة الهجرة نفسها بات علي رضي الله عنه في فراش النبي ﷺ ، حيث روي أن النبي ﷺ حين رأى المشركين يرصدون بيته في تلك الليلة قال لعلي رضي الله عنه « نُمْ على فراشي ، وتسجَ ببردي هذا الحضرمي الأخضر ، فنم فيه ، فإنه لن يخلص إليك شيء تكرهه منهم »[٤] .

وقد ورد بسند حسن أن علياً رضي الله عنه لبس ثوب النبي ﷺ ثم نام مكانه « وكان المشركون يرمون رسول الله ﷺ ... وجعل علي يُرْمَى بالحجارة كما كان يرمى نبي الله ، وهو يتضور ، قد لف رأسه في الثوب لا يخرجه حتى أصبح ، ثم كشف عن رأسه ، فقالوا : إنك للئيم ! ، كان صاحبك نرميه فلا يتضور ، وأنت تتضور ، وقد استنكرنا ذلك »[٥] .

---

(١) صحح إسناده أحمد شاكر (أحمد : المسند ، جـ ٢ ، ص ٣٥٢ - ٣٥٣ ، ١٦٥ - ١٦٦) بينما قال عنه أحمد ميرين البلوشي بعد دراسة مفصله لإسناده « إسناده ضعيف ، والمتن منكر » (النسائي : خصائص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، ص ٨٤ حاشية ١٨٢) .

(٢) رواه ابن إسحاق بدون إسناد (ابن هشام : السيرة النبوية ، جـ ٢ ، ص ١٤٢ ؛ مهدي رزق الله أحمد : السيرة النبوية ، ص ٢٦٨) .

(٣) إسناده ضعيف (النسائي : خصائص أمير المؤمنين علي ، ص ١٣٤ - ١٣٦ ، وحاشية ٣١٨ ؛ العمري : السيرة النبوية ، جـ ١ ، ص ٢١٠ ، حاشية ٢ ؛ مهدي رزق الله أحمد : السيرة النبوية ، ص ٢٦٩ - ٢٧٠) .

(٤) وقد رواه ابن إسحاق بسند منقطع (ابن هشام : السيرة النبوية ، جـ ٢ ، ص ١٣٩ ؛ مهدي رزق الله أحمد : السيرة النبوية ، ص ٢٦٨) .

(٥) أحمد : المسند ، تحقيق شاكر ، جـ ٥ ، ص ٢٦-٢٧ ؛ الحاكم : المستدرك ، جـ ٥ ، ص ١٥٩٩ ، ١٧٥١ ؛ العمري: السيرة النبوية الصحيحة ، جـ ١ ، ص ٢١٠ . راجع سليمان بن علي السعود : أحاديث الهجرة ، ص ١٠٩ ، ١١٣ - ١١٤ أما ما يذكر أن المشركين أخذوا علياً رضي الله عنه في الصباح وضربوه ؛ فهو مما أورده المنصورفوري في كتابه رحمة العالمين دون أن يحيل على مصدر (مهدي رزق الله أحمد : السيرة النبوية ، ص ٢٧٢ ، حاشية ٧٣) .

في العهد المدني : هاجر علي ﷺ إلى المدينة عقب هجرة النبي ﷺ ، فظل حوله ﷺ طوال حياته في المدينة[١]، وقد دونت المصادر عدداً من المواقف المشهودة لعلي ﷺ في العهد المدني ، فلقد كان على رأس المشاركين في بناء المسجد النبوي ، فكان يقول :

لا يستوي من يعمر المساجدا يدأب فيها قائماً وقاعدا

ومن يرى عن التراب حائدا[٢]

وقد شارك علي ﷺ في الغزوات النبوية إلا غزوة تبوك ، كما أسند إليه النبي ﷺ عدداً من المهام العسكرية والدعوية ، ففي ميدان الغزوات النبوية ذكر لـه الرواة في كثير منها مواقف عديدة ، منها أنه خرج مع النبي ﷺ إلى غزوة بدر سنة ٢ هـ ، فكان في أثناء مسيره إليها يعتقب مع النبي ﷺ وأبي لبابة ﷺ ثم مرثد بن أبي مرثد الغنوي ﷺ بعيراً[٣].

وصح أن علياً ومعه الزبير وسعد بن أبي وقاص ﷺ قد بعثهم النبي ﷺ لما نزل ببدر لتقصي أخبار المشركين ، فقبضوا على رجلين قدما معلومات مهمة للمسلمين عن مكان عدوهم وعدده[٤].

وقد شارك علي ﷺ بالقتال في بدر ، إذ ثبت أنه كان أحد الذين أمرهم النبي ﷺ بمبارزة الرجال الثلاثة الذين خرجوا من جيش المشركين طالبين المبارزة في أول المعركة بعد رفضهم مبارزة من خرج إليهم من الأنصار ، وقد تمكن علي ﷺ من التغلب على

---

(١) روي ابن إسحاق بدون إسناد أن رسول الله ﷺ لما آخى بين المهاجرين والأنصار أخذ بيد علي ﷺ فقال : هذا أخي (ابن هشام : السيرة النبوية ، جـ ٢ ، ص ١٧٢ ؛ مهدي رزق الله أحمد : السيرة النبوية ، ص ٣٠٣ ، حاشية ٥٤) قال ابن تيمية «وأما المؤاخاة بين المهاجرين كما يقال : أنه آخى بين أبي بكر وعمر ، وأنه آخى علياً ونحو ذلك ـ فهذا كله باطل ، وإن كان بعض الناس ذكر أنه فعل بمكة ، وبعضهم ذكر أنه فعل بالمدينة ، وذلك نقل ضعيف ؛ إما منقطع ، وإما بإسناد ضعيف » (مجموع فتاوى ابن تيمية ، جـ ١١ ، ص ١٠٠) وقال في موضع آخر « وأما ما يذكر بعض المصنفين في السيرة من أن النبي آخى بين علي وأبي بكر ونحو ذلك فهذا باطل باتفاق أهل المعرفة بحديثه ، فإنه لم يؤاخ بين مهاجر ومهاجر ، وأنصاري وأنصاري ، وإنما آخى بين المهاجرين والأنصار» (مجموع فتاوى ابن تيمية ، جـ ٣٥ ، ص ٩٣) راجع أيضاً (منهاج السنة ، جـ ٥ ، ص ٧١ ، جـ ٧ ، ص ٢٧٩ ، ٣٦٣) . وراجع كذلك (إلهام بنت محمد البابطين : مؤاخاة الرسول ﷺ بين أصحابه من أهل مكة قبل الهجرة وبعدها ، مجلة الدارة ، ع ٤ ، ص ١٥- ١٦ ، ٢٥- ٢٧) .

(٢) ابن حجر : فتح الباري ، جـ ٧ ، ص ٢٤٧ .

(٣) مهدي رزق الله أحمد : السيرة النبوية ، ص ٣٣٨ .

(٤) ابن هشام : السيرة النبوية ، جـ ٢ ، ص ٣٠٧- ٣٠٨ . وقد أخرجها مسلم باختصار واختلاف يسير (الصحيح ، جـ ٣ ، ص ١٤٠٤) .

خصمه (شيبة أو الوليد) ، وقتله سريعاً [(١)]، وفي أثناء القتال كان علي ﷺ بالقرب من الرسول ﷺ ، وقد أمره أن يناولـه كفاً من حصى ليرمي به المشركين[(٢)].

وبعد المعركة كلفه رسول الله ﷺ في طريق العودة إلى المدينة بقتل النضر بن الحارث الذي أسره المسلمون[(٣)]، وكان من قبل شديد العداوة والأذى للرسول ﷺ .

وفي غزوة أُحد سنة ٣ هـ روي أن علياً ﷺ بارز قبل التحام الجيشين طلحة بن عثمان حامل لواء المشركين ، فتمكن من قتله[(٤)]، ثم إنه من ناحية أخرى حمل لواء المسلمين خلال المعركة ، وذلك حين أعطاه النبي ﷺ إياه بعد استشهاد حامله مصعب بن عمير ﷺ[(٥)]، وقد روي أن النبي ﷺ عند نهاية القتال أرسله لاستطلاع حركة جيش المشركين نحو المدينة أو مكة ، فتبين لـه أنهم انطلقوا نحو مكة[(٦)].

وفي غزوة الأحزاب (الخندق) سنة ٥ هـ كان علي ﷺ أحد الذين تصدوا لفرسان المشركين الذين تخطوا الخندق ، فبارز عمرو بن عبد وُد الذي رآه غير كفؤٍ لـه ، ولكنّ علياً ﷺ أقدم على منازلـه ، واستطاع قتله ، فكرت بقية خيلهم منهزمة[(٧)].

ولقد تولى علي ﷺ كتابة صلح الحديبية سنة ٦ هـ بين المسلمين ومشركي قريش ، حيث دعاه رسول الله ﷺ لما جرى الاتفاق على عقد الصلح ، فقال لـه «اكتب الشرط بيننا ... »[(٨)].

ولقد كان لعلي ﷺ أثر كبير في فتح خيبر سنة ٧ هـ ، فحين استعصى على

---

(١) في رواية لعلي ﷺ صحيحة أخرجها أبو داود أنه بارز شيبة (ابن حجر : فتح الباري ، جـ ٧ ، ص ٢٩٨) وعند ابن إسحاق أنه بارز الوليد (ابن هشام : السيرة النبوية ، جـ ٢ ، ص ٣١٩) على إن ابن حجر بعد نقله رواية أبي داود الصحيحة عقب عليها قائلاً « لكن الذي في السير من أن الذي بارزه علي هو الوليد هو المشهور ، وهو اللائق بالمقام ، لأن عبيدة وشيبة كانا شيخين كعتبة وحمزة ، بخلاف على والوليد فكانا شابين » (فتح الباري ، جـ٧ ، ص ٢٩٨) .

(٢) مهدي رزق الله أحمد : السيرة النبوية ، ص ٣٥١ .

(٣) ابن هشام : السيرة النبوية ، جـ ٢ ، ص ٣٤٧ .

(٤) العمري : السيرة النبوية ، جـ ٢ ، ص ٣٨٤ .

(٥) خليفة بن خياط : تاريخه ، ص ٦٧ .

(٦) ابن هشام : السيرة النبوية ، جـ ٣ ، ص ١٣٦ - ١٣٧ .

(٧) ابن هشام : السيرة النبوية ، جـ ٣ ، ص ٣١٣ . راجع العمري : السيرة النبوية ، جـ ٢ ، ص ٤٢٩ ، حاشية ١ .

(٨) مسلم : الصحيح ، جـ ٣ ، ص ١٤١٠ . انظر ابن هشام : السيرة النبوية ، جـ ٣ ، ص ٤٤٠ .

المسلمين حصن ناعم ـ أهم حصون اليهود ، وأكثرها منعة ـ بعد محاولات عدة لفتحه[١]، وعد رسول الله ﷺ أن يعطي الراية غداً رجلاً من أصحابه يفتح الله على يديه ، فلما أصبح دفعها إلى علي ﷺ ، فتوجه صوب الحصن فتمكن من فتحه[٢]، وقد بارز مرحباً اليهودي قائد هذا الحصن وقتله[٣]، فكان قتل مرحب واقتحام حصنه سبباً في تحطيم معنويات اليهود ، ومن ثم هزيمتهم وفتح بقية حصونهم واحداً تلو الآخر .

وفي غزوة حنين بعد فتح مكة سنة ٨ هـ ظهر علي ﷺ في النفر الذين ثبتوا مع الرسول ﷺ بعد أن ولى كثير من جيش المسلمين مدبرين في بداية المعركة[٤]، وقد أصيب ﷺ بجراح من جراء ذلك[٥].

ولقد قاد علي ﷺ سريتين عسكريتين في حياة النبي ﷺ ، الأولى قيادته سرية مكونة من مائة رجل في شعبان سنة ٦ هـ ، حيث بعثه النبي ﷺ إلى بني سعد بن بكر الذين تجمعوا في فَدَك [شمال خيبر] وعزموا على أن يعرضوا على يهود خيبر المساعدة مقابل حصة من التمر ، فتوجه إليهم علي ﷺ ، فكان يسير بالليل ويكمن بالنهار ، وقد عرف مكان تجمعهم من خلال رسولهم إلى اليهود الذي قبض عليه في الهَمَج بين خيبر وفدك ، وقد أغار عليهم ففرق جمعهم ، وغنم خمسمائة بعير وألفي شاة ، ثم عاد إلى المدينة[٦].

كما قاد علي ﷺ سنة ٩ هـ سرية أخرى ـ قوامها مائة وخمسون رجلاً ـ إلى صنم اسمه الفُلْس في محلة حاتم الطائي من بلاد طيء ، فأغار عليه وهدمه ، وغنم ما به من

---

(١) أحمد : المسند ، إعداد الطويل ، جـ ٥ ، ص ٤٤٠ ؛ العمري : السيرة النبوية ، جـ ١ ، ص ٣٢٢ ؛ مهدى رزق الله أحمد : السيرة النبوية ، ص ٥٠١ .

(٢) مسلم : الصحيح ، جـ ٤ ، ص ١٨٧١ ، ١٨٧٢ ، ١٨٧٣ . وفي إحدى روايات الصحيح هذه أن علياً ﷺ كان قد تخلف عن غزوة خيبر في بدايتها بسبب رمد عينيه ، ثم لحق بالرسول ﷺ .

(٣) مسلم : الصحيح ، جـ ٣ ، ص ١٤٤١ . وثمة روايات تحكي أن علياً ﷺ أخذ باباً ، وترس به عندما أسقط يهودى ترسه من يده وقت اقتحامه الحصن ، وأن هذا الباب كان عظيماً إلى درجة أن رجالاً عددهم ثمانية في رواية ، وأربعون في رواية ثانية ، وسبعون في رواية ثالثة ـ لم يستطيعوا بعد ذلك أن يقلبوه . وهذه كلها روايات ضعيفة (العمري : السيرة النبوية ، جـ ١ ، ص ٣٢٤ ؛ مهدي رزق الله أحمد : السيرة النبوية ، ص ٥٠٢-٥٠٣) .

(٤) ابن أبي شيبة : المصنف ، جـ ٧ ، ص ٤١٧ ؛ ابن حجر : فتح الباري ، جـ ٨ ، ص ٢٩ .

(٥) إبراهيم بن إبراهيم قريبي : مرويات غزوة حنين وحصار الطائف ، جـ ١ ، ص ٢٢٤ ، ٢٤٤ .

(٦) الواقدي : المغازي ، جـ ٢ ، ص ٥٦٢-٥٦٣ ؛ ابن سعد : الطبقات ، جـ ٢ ، ص ٨٩-٩٠ ؛ الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٢ ، ص ٦٤٢ .

سلاح ، واستاق ما حوله من سبي وأنعام ، ثم رجع إلى المدينة[١] .

ولقد كان علي ﷺ أحد المصدقين (عمال الصدقة) الذين بعثهم الرسول ﷺ في تلك السنة إلى أنحاء الجزيرة لجمع الصدقات ، حيث كلفه ﷺ بالتوجه إلى أهل نجران «ليجمع صدقتهم ، ويَقْدَم عليه بجزْيَتهم» . ثم إنه بعثه بعد ذلك إلى اليمن ليحل محل خالد بن الوليد ﷺ[٢] الذي كان قد ذهب إلى هذه البلاد من قبل بتكليف من الرسول ﷺ ، وقد نجح علي ﷺ في استقطاب همدان إلى الإسلام ، فأعلنت إسلامها ، فكتب إلى النبي ﷺ يبشره بذلك ، ثم ما لبث إن عاد إلى المدينة . وبعد ذلك بعثه ﷺ مرة أخرى إلى اليمن قاضياً ، فمكث هناك إلى أن قدم مكة حاجاً ، فوافى رسول الله ﷺ في حجة الوداع .

وثمة مهمتان كلفه الرسول ﷺ بهما ، الأولى عند خروجه إلى غزوة تبوك سنة ٩هـ ، إذ خلفه في المدينة ، إما على أهله ﷺ في المدينة ، وإما على إمارة المدينة ، أو عليهما جميعاً[٣] .

---

(١) الواقدي : المغازي ، جـ ٣ ، ص ٩٨٤ ، ٩٨٨ ؛ ابن سعد : الطبقات ، جـ ٢ ، ص ١٦٤ ؛ الذهبي : المغازي (من تاريخ الإسلام)، ص ٦٢٤ .

(٢) وفي حادثة سابقة كان الرسول ﷺ قد بعث خالد بن الوليد ﷺ إلى بني جذيمة عقب فتح مكة سنة ٨ هـ ، فقتلهم خطأً ، فأرسل علياً ﷺ على إثره بعد أن تبرأ من عمله ، وقال لعلي ﷺ « يا على اخرج إلى هؤلاء القوم ، وانظر في أمرهم ، واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك » ، فخرج إليهم ومعه مال ، فلم يبق منه رجل إلا وداه (ابن حبان: السيرة ، ص ٣٤١-٣٢٤ ؛ ابن حجر : فتح الباري ، جـ ٨ ، ص ٥٧- ٥٨) .

(٣) جاء في مصادر السيرة أن النبي ﷺ خلف علياً ﷺ على أهله بالمدينة ، أما إمارة المدينة فقد كانت لمحمد بن مسلمة ، قال ابن إسحاق « وخلف رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب رضوان الله عليه على أهله ، وأمره بالإقامة فيهم ، فأرجف به المنافقون ، وقالوا : ما خلفه إلا استثقالاً لـه ، وتخففاً منه ، فلما قال ذلك المنافقون : أخذ علي بن أبي طالب رضوان الله عليه سلاحه ، ثم خرج حتى أتى رسول الله ﷺ وهو نازل بالجرف فقال : يا نبي الله زعم المنافقون أنك إنما خلفتني أنك استثقلتني وتخففت مني ، فقال : كذبوا ؛ ولكني خلفتك لما تركت ورائي ، فارجع فاخلفني في أهلي وأهلك ، أفلا ترضى يا علي أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى ، إلا أنه لا نبي بعدي ، فرجع علي إلى المدينة ، ومضى رسول الله ﷺ على سفره » (ابن هشام : السيرة النبوية ، جـ ٤ ، ص ٢٢١) . وقال ابن حجر«في رواية عطاء بن أبي رباح مرسلا عند الحاكم في الإكليل ، فقال : يا علي اخلفني في أهلي ، واضرب وخذ وعظ ، ثم دعا نساءه ، فقال : اسمعن لعلي وأطعن قوله » (فتح الباري ، جـ ٨ ، ص١١٢) ويميل ابن قيم إلى هذا الفهم ، قال بعد ذكر تخليف الرسول ﷺ لعلي ﷺ في المدينة « ولكن هذه كانت خلافة خاصة على أهله ﷺ ، وأما الاستخلاف العام فكان لمحمد بن مسلمة الأنصاري ، ويدل على هذا أن المنافقين لما أرجفوا به وقالوا : خلفه استثقالاً أخذ سلاحه ، ثم لحق بالنبي ﷺ فأخبره فقال : كذبوا ، ولكن خلفتك لما تركت ورائي ، فارجع فاخلفني في أهلي وأهلك » (زاد المعاد ، جـ ٣ ، ص ٥٦٠) ويرى أحد الباحثين أن =

أما الثانية فقد بعثه الرسول ﷺ إلى مكة بصدر سورة براءة التي نزلت عليه في أيام الحج ، وأمره أن يلحق بأبي بكر رضي الله عنه الذي حج بالناس في ذلك العام (٩ هـ) ، ويعلن ذلك على أهل الموسم يوم النحر ، فقام علي رضي الله عنه بالمهمة خير قيام[١].

. **مواقفه رضي الله عنه مع الخلفاء الراشدين الثلاثة قبله :** كان لعلي رضي الله عنه في عهد الخلفاء الراشدين الذين تولوا الخلافة قبله ـ حضور كبير ، فقد كان قريباً منهم ، يبادر بطاعتهم ، وتنفيذ أوامرهم ، ويباشر ما يكلفونه به من أعمال ومهام ، ويسدي لهم النصح ، وكانوا هم من جانبهم يثقون برأيه ، ويستعينون به ويستشيرونه فيما يعن لهم من قضايا ومشكلات ، ولذلك فإن أكثر اجتهاداته تبلورت في أنظمة الدولة الإسلامية[٢].

ففيما يتصل بأبي بكر الصديق رضي الله عنه فقد ذكرنا ـ سابقاً ـ أن علياً رضي الله عنه بايعه بالخلافة في اليوم الأول أو الثاني ، فكان حوله منذ الأيام الأولى من خلافته ، وقد كلفه الصديق رضي الله عنه بحراسة أحد أنقاب المدينة لحمايتها من المرتدين ، ثم صحبه عند خروجه للإيقاع بالقبائل التي تجمعت لمهاجمة المسلمين ، وبعد وفاة زوجته فاطمة رضي الله عنها جدد البيعة لأبي بكر رضي الله عنه ، ثم ظل مخلصاً لأبي بكر رضي الله عنه الطاعة حتى وفاته سنة ١٣ هـ .

ولقد صار علي رضي الله عنه أحد النفر القريبين من الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فظهر

= النبي ﷺ خلف علياً رضي الله عنه على إمارة المدينة بناء على الحديث الوارد في البخاري (أن رسول الله ﷺ خرج إلى تبوك واستخلف علياً ، فقال : أتخلفني في الصبيان والنساء ؟ قال : ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى ؟ إلا أنه ليس نبي بعدي» (البخاري : الصحيح ، جـ ٤ ، ص ١٦٠٢) ، حيث أن علياً رضي الله عنه ـ حسب رأيه ـ قصد أن المؤمنين جميعهم خرجوا استجابة للرسول ﷺ ، فلم يتخلف فيها إلا أصحاب الأعذار والمنافقين ، وفي قول الرسول ﷺ له ما يحل الإشكال ، إذ أن موسى عليه السلام لم يخلف أخاه في أهله ، وإنما خلفه في بني إسرائيل (فقيهي : خلافة علي ، ص ٤٧- ٤٨) وهناك من يرى أن النبي ﷺ استخلف علياً رضي الله عنه على المدينة وعلى أهله معاً (الزرقاني : شرح المواهب اللدنية ، جـ ٤ ، ص ٧٩-٨١) .

(١) البخاري : الصحيح ، جـ ٤ ، ص ١٧٠٩ ، ١٧١٠ ؛ الحاكم : المستدرك ، جـ ٥ ، ص ١٦٥٢ - ١٦٥٣ ، جـ ٧ ، ص ٢٦٢٦ ؛ ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ، جـ ٣ ، ص ٣٤٩- ٣٥٢ ؛ ابن حجر : فتح الباري ، جـ ٨ ، ص ٨٣ ، ٣١٨ - ٣٢٠ . قال البغوي « ذكر العلماء أن رسول الله لم يعزل أبا بكر رضي الله عنه ، وكان هو الأمير ، وإنما بعث علياً رضي الله عنه لينادي بهذه الآيات ، وكان السبب فيه : أن العرب تعارفوا فيما بينهم في عقد العهود ونقضها أن لا يتولى ذلك إلا سيدهم ، أو رجل من رهطه ، فبعث علياً رضي الله عنه إزاحة للعلة ، لئلا يقولوا : هذا خلاف ما نعرفه فينافي نقض العهد » (معالم التنزيل ، جـ٢ ، ص ٢٦٧) راجع ابن تيمية : منهاج السنة ، جـ ٨ ، ص ٣٩٥ ، مجموع الفتاوى ، جـ ٤ ، ص ٤١٧ .

(٢) محمد رواس قلعه جي : موسوعة فقه علي بن أبي طالب ، ص ٩ .

برأيه ومشورته في كثير من المواقف التي عرضت لعمر ﷺ خلال ولايته الخلافة ، ففي ميدان المواجهات مع جيوش الفرس والروم أبدى علي ﷺ ـ على سبيل المثال ـ اعتراضه على الرأي المؤيد لخروج عمر ﷺ بنفسه لمواجهة الحشود الفارسية المتجمعة في نهاوند ، مبيناً خطر ذلك على المسلمين ودولتهم.

بينما رأى أهمية خروج عمر ﷺ لاستلام بيت المقدس من النصارى بعد أن اشترطوا حضوره ، ورأى أن في استجابته لطلبهم فتحاً وعزاً للمسلمين ، وفي كلا الحالتين أخذ عمر ﷺ برأيه ، وقد خلفه في المدينة حينما خرج إلى الشام لفتح بيت المقدس.

أما على مستوى التنظيمات الإدارية والمالية فهو الذي أشار على عمر ﷺ لما ناقش تحديد التأريخ للمسلمين ـ أشار عليه أن تكون بدايته من هجرة الرسول ﷺ من بلد الشرك إلى بلد الإسلام .

كما أشار عليه عند مناقشته مع الصحابة في مسألة الأراضي المفتوحة ببقائها تحت نظر الدولة ، بحيث لا توزع على الفاتحين ، موافقاً بذلك رأي عمر ﷺ في ذلك[١].

وكان عمر ﷺ يستعين بعلي ﷺ أحياناً في القضاء بالمدينة ، فقد يشركه في بحث القضية التي يدرسها ، أوقد يحيل إليه بعض القضايا ليقضي بها[٢]، وقد روي عن سعيد بن المسيب قولـه « كان عمر يتعوذ بالله من معضلة ليس فيها أبو حسن »[٣].

وبقي علي ﷺ حول عمر ﷺ حتى جعله أحد الستة الذين حددهم لاختيار خليفة من بعده بعد أن طعنه أبو لؤلؤة المجوسي طعنة قاتلة سنة ٢٣ هـ .

ولقد بايع علي ﷺ عثمان ﷺ بالخلافة بعد أن وقع الاختيار عليه خليفة للمسلمين بعد عمر ﷺ ، وذلك على إثر التحريات التي قام بها عبد الرحمن بن عوف ﷺ في هذا الشأن ، فصار علي ﷺ من أبرز من يطمئن إليهم عثمان ﷺ ويعتد بآرائهم من الصحابة ،

---

(١) ابن زنجويه : الأموال ، جـ ١ ، ص ١٥٩ ؛ ابن حجر : فتح الباري ، جـ ٦ ، ص ٢٢٤ .
(٢) ناصر بن عقيل الطريفي : القضاء في عهد عمر بن الخطاب ، جـ ١ ، ص ١٦٩ .
(٣) ابن سعد : الطبقات ، جـ ٢ ، ٣٣٩ ؛ أحمد : فضائل الصحابة ، جـ ٢ ، ص ٦٤٧ ؛ ابن حجر : فتح الباري ، جـ ١٣ ، ص ٣٤٣ .

فحينما كتب عبد الله بن سعد بن أبي سرح إلى عثمان ﷺ يستأذنه في فتح إفريقية ـ كان علي ﷺ أحد الذين استشارهم عثمان ﷺ ، وقد رأى الموافقة على فتحها[١].

كما أن علياً ﷺ شهد مجلس عثمان ﷺ الذي جمع فيه الصحابة ليعرض عليهم مشروع نسخ القرآن الكريم في مصحف واحد ، وقد أخبر علي ﷺ عما نفذه عثمان ﷺ في شأن المصاحف فقال « فوالله ما فعل الذي فعل في المصاحف إلا عن ملأ منا جميعاً»[٢].

وكان علي ﷺ أحياناً ينفذ الحدود الشرعية بأمر من عثمان ﷺ ، كتكليفه بإقامة حد شرب الخمر على الوليد بن عقبة .

ولم يبتعد علي ﷺ عن عثمان ﷺ في محنته التي قتل فيها ، فقد كان ـ كما سبق ـ أحد الذين صدقوا كلام عثمان ﷺ عند ذكره بعض خدماته السابقة في سبيل الإسلام أمام المتمردين عليه من أهل الأمصار ، ثم إنه أمر ابنه الحسن ﷺ بحمل سلاحه والتوجه إلى دار عثمان ﷺ للدفاع عنه ، بل إنه لما أيقن بالخطر على عثمان ﷺ أخذ سلاحه وانطلق بنفسه للقتال دونه ، بيد أن المجرمين كانوا قد خلصوا من عثمان ﷺ وقتلوه قبل وصوله .

شيء من فضائله وعلمه : قال الإمام أحمد وغيره « لم يرد في حق أحد من الصحابة بالأسانيد الجياد أكثر مما جاء في علي ، وكأن السبب في ذلك أنه تأخر ، ووقع الاختلاف في زمانه وخروج من خرج عليه ، فكان ذلك سبباً لانتشار مناقبه ، مِنْ كَثْرَةِ مَنْ كان بَيَّنَها من الصحابة رداً على مَن خالفه » ، حيث صار «الناس في حق علي ثلاثة ؛ أهل السنة ، والمبتدعة من الخوارج ، والمحاربين لـه من بني أمية واتباعهم ، فاحتاج أهل السنة إلى بث فضائله ، فكثر الناقل لذلك لكثرة من يخالف ذلك ، وإلا فالذي في نفس الأمر أن لكل من الأربعة من الفضائل ـ إذا حرر بميزان العدل ـ لا يخرج عن قول أهل السنة والجماعة أصلاً »[٣].

---

(١) المالكي : رياض النفوس ، جـ ١ ، ص ١٤- ١٥ .
(٢) ابن أبي داود : كتاب المصاحف ، جـ ١ ، ص ٢٠٦ .
(٣) ابن حجر : فتح الباري ، جـ ٧ ، ص ٧١ .

فمن فضائله ﷺ ما ثبت على لسان سعد بن أبي وقاص ﷺ حين قيل لـه « ما منعك أن تسب أبا التراب ؟ [يعني علياً ﷺ] فقال : أمَّا ما ذكرتُ ثلاثاً قالهن لـه رسول الله ﷺ فلن أسبه ، لأن تكون لي واحدة منهن أحبُّ إلي من حُمْر النعم ، سمعت رسول الله ﷺ يقول لـه ؛ **خلّفه في بعض مغازيه** [يعني غزوة تبوك]، فقال لـه علي : يا رسول الله خَلَّفْتَني مع النساء والصبيان ؟ فقال لـه رسول الله ﷺ (**أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى ، إلا أنه لا نبوة بعدي**)[1].

وسمعته يقول يوم خيبر (**لأعطين الراية رجلاً يحبُّ اللهَ ورسولَه ، ويحبُّه اللهُ ورسولُه**)، قال فتطاولنا لها ، فقال (**ادعوا لي علياً**) ، فأُتِيَ به أَرْمَدَ ، فبصق في عينه ، ودفع الراية إليه ، ففتح الله عليه[2]. ولما نزلت هذه الآية: ﴿ **فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَآءَنَا**

---

(١) وقد صح أيضاً عن سعد بن أبي وقاص ﷺ في رواية أخرى «أن رسول الله ﷺ خرج إلى تبوك واستخلف علياً ، فقال : أتخلفني في الصبيان والنساء ؟ قال : ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى ؟ إلا أنه ليس نبي بعدي» (البخاري : الصحيح ، جـ ٤ ، ص ١٦٠٢ ؛ مسلم : الصحيح ، جـ ٤ ، ص ١٨٧١ ؛ الحاكم : المستدرك ، جـ ٥ ، ص ١٧٢٢) . ولقد تعلق الرافضة بقول النبي ﷺ لعلي ﷺ « ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى ؟ إلا أنه ليس نبي بعدي » وحملوه فوق ما يحتمل ، وأخذه بعضهم دليلاً على أن علياً ﷺ هو الأحق بالخلافة بعد الرسول ﷺ ، لكن فهمهم هذا لايستقيم مع لفظ الحديث ، ولا مع واقع الأحداث ، قال ابن تيمية « وأما قوله : أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى ، قاله فى غزوة تبوك لما استخلفه على المدينة ، ... وكان النبى إذا غزا استخلف رجلاً من أمته ، وكان بالمدينة رجال من المؤمنين القادرين ، وفى غزوة تبوك لم يأذن لأحد ، فلم يتخلف أحد إلا لعذر أو عاص ، فكان ذلك الاستخلاف ضعيفاً ، فطعن به المنافقون بهذا السبب ، فبين لـه أنى لم استخلفك لنقص عندى ، فإن موسى استخلف هارون ، وهو شريكه فى الرسالة ، أفما ترضى بذلك ؟ ومعلوم أنه استخلف غيره قبله ، وكانوا منه بهذه المنزلة ، فلم يكن هذا من خصائصه ، ولو كان هذا الاستخلاف أفضل من غيره لم يخف على علي ولحقه يبكى . ومما بين ذلك أنه بعد هذا أمَّر عليه أبا بكر سنة تسع ... فلما أمر أبا بكر بعد قوله : أما ترضى .. الخ علمنا أنه لا دلالة فيه على أنه بمنزلة هارون من كل وجه ، وإنما شبهه به فى الاستخلاف خاصة ، وذلك ليس من خصائصه ، وقد شبه النبى أبا بكر بإبراهيم وعيسى ، وشبه عمر بنوح وموسى عليهم الصلاة والسلام ـ لما أشارا فى الأسرى ، وهذا أعظم من تشبيه على بهارون ، ولم يوجب ذلك أن يكونا بمنزلة أولئك الرسل ، وتشبيه الشيء بالشيء لمشابهته فى بعض الوجوه كثير فى الكتاب والسنة وكلام العرب» (مجموع الفتاوى ، جـ ٤ ، ص ٤١٦-٤١٧) راجع أيضاً ابن تيمية : منهاج السنة ، جـ ٥ ، ٣٤- ٣٥ ، ٦٧- ٦٩ ، ٤٩٤ ، جـ ٧ ، ص ٣٣٠ - ٣٣٨ ؛ وراجع كذلك ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل ، جـ ٤ ، ص ١٥٩- ١٦٠ ؛ القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ، جـ ٧ ، ص ٢٤٥- ٢٤٦ ، ابن حجر : فتح الباري ، جـ ٧ ، ٧٤) .

(٢) وخبر علي ﷺ في غزوة خيبر رواه أيضاً عدد من الصحابة كأبي هريرة وسهل بن سعد وسلمة بن الأكوع ﷺ ، وقد ورد بألفاظ مختلفة (البخاري : الصحيح ، جـ ٣ ، ص ١٣٥٧ - ١٣٥٨ ، جـ ٤ ، ص ١٥٤٢ ؛ مسلم : الصحيح ، جـ ٤ ، ص ١٨٧١-١٨٧٣) .

﴿ وَأَبْنَآءَكُمْ ﴾ (آل عمران ، آية ٦١) دعا رسول الله علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً ، فقال (**اللهم هؤلاء أهلي**»[١]. ومن فضائله ﷺ أن النبي ﷺ ـ حين مرجعه من حجة الوداع ، في مكان قريب من الجُحفة يسمى غدير خُم ـ قال فيه كما صح عنه (**من كنت مولاه فعلي مولاه**)[٢].

أما عن علمه فقد نشأ علي ﷺ في الإسلام ، وبقي قريباً من الرسول ﷺ سواء في مكة أو المدينة ، ولكونه يعرف الكتابة والقراءة فقد كان يكتب لرسول الله ﷺ أحياناً ككتابته للصلح مع قريش في الحديبية ، وكما سبق فقد أرسله ﷺ إلى اليمن قاضياً ، وقد صح عنه ﷺ قوله «بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن ، فقلت : إنك بعثتني إلى قوم ـ وهم أسن مني ـ لأقضي بينهم ، فقال : (**اذهب فإن الله عز وجل سيهدي قلبك ، ويثبت لسانك**)»[٣].

وبجانب ذلك فقد وهبه الله تعالى عقلاً وذكاءً وحفظاً وقدرة على الاستيعاب والفهم ، كما تميز برجاحة العقل ، والحرص على العلم ، ولذا صار من كبار علماء الصحابة وفقهائهم ، فكانوا يحيلون إليه إذا أشكلت عليهم المسائل ، فقد جاء رجل إلى

---

(١) مسلم : الصحيح ، جـ ٤ ، ص ١٨٧١ .

(٢) أحمد : فضائل الصحابة ، جـ ٢ ، ص ٧٠٥ ، ٥٦٣ ؛ النسائي : خصائص أمير المؤمنين علي ، ص ٩٩ . راجع الألباني : سلسلة الأحاديث الصحيحة ، جـ ٤ ، ص ٣٣٣- ٣٤٤ . قال ابن كثير « وفي بعض الروايات (اللهم وال من والاه ، وعادِ من عاداه ، وأخذل من خذله) ... والمحفوظ الأول » (خلافة علي ، ص ١٥- ١٦) ونقل ابن كثير عن شيخه الذهبي قوله « وصدر الحديث متواتر أتيقن أن رسول الله قاله ، وأما (اللهم وال من والاه) فزيادة قوية الاسناد » (السيرة النبوية ، جـ ٤ ، ص ٤٢٦) . وكان النبي ﷺ قد خطب الناس في غدير خُم ، وأوصاهم بكتاب الله وبأهل بيته (مسلم : الصحيح ، جـ ٤ ، ص ١٨٧١) فضلاً عما قاله في حق علي ﷺ خاصة الذي أوردناه في المتن ، قال ابن كثير عن خطبته ﷺ في غدير خم « فبين فيها فضل علي بن أبي طالب وبراءة عرضه مما كان تكلم فيه بعضُ من كان معه بأرض اليمن ، بسبب ما كان صدر منه إليهم من المَعْدَلة التي ظنها بعضهم جوراً وتضييقاً وبخلاً ، والصواب كان معه في ذلك » (السيرة النبوية ، جـ ٤ ، ص ٤١٤) . قال الألباني « وأما ما يذكره الشيعة في هذا الحديث وغيره أن النبي ﷺ قال في علي ﷺ : (إنه خليفتي من بعدي) فلا يصح بوجه من الوجوه ؛ بل هو من أباطيلهم الكثيرة التي دل الواقع التاريخي على كذبها ، لأنه لو فرض أن النبي ﷺ قاله لوقع كما قال ، لأنه وحي يوحى ، والله سبحانه لا يخلف وعده » (سلسلة الأحاديث الصحيحة ، جـ ٤ ، ص ٣٤٤) .

(٣) أحمد : فضائل الصحابة ، جـ ٢ ، ص ٧٠٩-٧١٠ ؛ النسائي : خصائص علي ، ص ٥٨ . وقد جاء هذا الخبر بعدة روايات .

عمر ﷺ يسأله ، فقال لـه «ائت علياً فاسأله »[١]، وكان عمر ﷺ يقول «علي أقضانا »[٢].

وسئلت عائشة رضي الله عنها عن المسح على الخفين فقالت للسائل «ائت علياً فإنه أعلم بذلك مني »[٣]، وكانت تقول عنه « أما إنه أعلم من بقي بالسنة »[٤]، وجاء رجل إلى معاوية ﷺ «فسأله عن مسألة ، فقال : سل عنها علياً »[٥]، وسئل ابن عباس ﷺ عن علي ﷺ فقال «مليء عزماً وحزماً وعلماً ونجدة »[٦]. ومن ناحية أخرى فقد روى لـه عن الرسول ﷺ خمسمائة وستة وثمانون حديثاً [٧]. وقد قيل إنه هو الذي وضع قواعد النحو[٨].

البيعة له بالخلافة : باستشهاد الخليفة الراشدي الثالث عثمان بن عفان ﷺ في المدينة أضحت الدولة الإسلامية بلا خليفة ، فشغر منصب الخلافة التي اعتاد المسلمون ألا يتولاه سوى كبار أصحاب النبي ﷺ ، فأحس المتمردون بحرج الموقف ، وخطورة الوضع فراحوا يعرضون البيعة بالخلافة على كبار الصحابة ، فعرضوها ـ فيما يبدو ـ أولاً على علي بن أبي طالب ﷺ ، فرفض بحجة أنه لا يريد بيعة من تورطوا في قتل الخليفة عثمان ﷺ ، فشؤون البيعة لا يتولاها سوى أصحاب النبي ﷺ وأهل المدينة ، يقول ﷺ مصوراً تلك اللحظات

« ولقد طاش عقلي يوم قتل عثمان ، وأنكرتُ نفسي ، وجاءوني للبيعة ، فقلت : والله إني لأستحيي من الله أن أبايع قوماً قتلوا رجلاً قال لـه رسول الله ﷺ : ألا أستحيي ممن تستحيي منه الملائكة ، وإني لأستحيي من الله أن أبايع وعثمان قتيل على الأرض لم يدفن بعد ، فانصرفوا »[٩].

---

(١) ابن عبد البر : الاستذكار ، جـ ٤ ، ص٤٠ ؛ ابن حجر : تلخيص الحبير ، جـ ٢ ، ص ٢٢٨ .
(٢) ابن سعد : الطبقات ، جـ ٢ ، ص ٣٣٩ ؛ ابن أبي شيبة : المصنف ، جـ ٦ ، ص ١٣٨ ؛ الحاكم : المستدرك ، جـ٥ ، ص ١٩٧٤ .
(٣) مسلم : الصحيح ، جـ ١ ، ص ٢٣٢ . وانظر أحمد : فضائل الصحابة ، جـ ٢ ، ص ٦٧٢ ، ٧٠٢ ؛ ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق ، جـ ٢٣ ، ص ٦٥ .
(٤) ابن عساكر : تاريخ دمشق ، جـ ٤٢ ، ص ٤٠٨ .
(٥) ابن حجر : فتح الباري ، جـ ١٣ ، ص ٣٤٣ .
(٦) السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ١١٣ .
(٧) المصدر نفسه ، ص ١٥٠ .
(٨) المصدر نفسه ، ص ١٦٠ .
(٩) الحاكم : المستدرك ، جـ ٣ ، ص ١٠١ ، ١١١ ؛ ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق ، جـ ٣٩ ، ص ٤٥٠ . وقال الحاكم عنه «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ، ولم يخرجاه » .

وبهذا الموقف الصلب رد علي ﷺ على هؤلاء المتمردين ، وعندئذ طفقوا يعرضونها على غيره من كبار الصحابة ، فمما صح أن البيعة عرضت على عبد الله بن عمر ﷺ فأبي أشد الإباء حتى بعد تهديده بالقتل ، قال الحسن البصري « لما كان من عثمان ما كان ، واختلاط الناس ، أتوا عبد الله بن عمر ، فقالوا : أنت سيدنا ، وابن سيدنا ، اخرج يبايعك الناس ، وكلهم بك راضٍ ، فقال : لا ، والله لا يهراق في سببي محجمة من دم ـ ما كان فيّ روح ـ . ثم عادوا إليه فخوفوه ، فقالوا : لتخرجن أو لتُقتلن على فراشك ، فقال مثلها . فأُطمع وأُخيف . قال : فوالله ما استقلوا منه بشيء حتى لحق بالله عز وجل »[١].

ولقد روي أن المتمردين «بعثوا إلى سعد بن أبي وقاص وقالوا : إنك من أهل الشورى ، فرأينا فيك مجتمع ، فاقدم نبايعك ، فبعث إليهم : إني وابن عمر خرجنا منها ، فلا حاجة لي فيها على حال»[٢].

وقد ورد أن الناس مالوا إلى طلحة بن عبيد الله ﷺ قبيل البيعة لعلي ﷺ[٣]. وحينها بقي هؤلاء المعتدون حيارى في المدينة لا يدرون ما يصنعون ، فأدركوا «أن أمر الخلافة بيد أهل المدينة من المهاجرين والأنصار من أهل بدر ، وأن الناس تبع لهم في ذلك»[٤].

في ظل هذا الوضع المحير ، وبعد دفن عثمان ﷺ تحرك الناس في المدينة ـ ومن المؤكد أن الصحابة من المهاجرين والأنصار كانوا في مقدمتهم ـ لتدارك الأمر ، وحسم القضية فتوجهوا إلى علي ﷺ في بيته ـ كما ورد بسند صحيح ـ » فضربوا عليه الباب ، فدخلوا عليه ، فقالوا : إن هذا الرجل قد قتل ، ولا بد للناس من خليفة ، ولا نعلم أحداً أحق بها منك . فقال لهم علي : لا تريدوني ! فإني لكم وزير خير مني لكم أمير . فقالوا: لا، والله ما نعلم أحداً أحق بها منك .

قال : «فإن أبيتم علي فإن بيعتي لا تكون سراً ، ولكن أخرج إلى المسجد فمن شاء

---

(١) أحمد : فضائل الصحابة ، جـ ٢ ، ص ٨٩٥ .

(٢) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ، ص ٤٣٢ . رواية سيف بن عمر التميمي .

(٣) أحمد : فضائل الصحابة ، جـ ٢ ، ص ٥٧٤ .

(٤) عبد الحميد علي ناصر فقيه : خلافة علي بن أبي طالب ، ص ٩٢ .

أن يبايعني بايعني ... فـخرج إلى المسجد فبايعه الناس »[١]. فالناس في المدينة قصدوا علياً ﷺ، ودخلوا عليه في بيته ، وجعلوه أمام الأمر الواقع ، فخليفة المسلمين عثمان ﷺ قد قتل، «والخلق بعده مفتقرون إلى خليفة مفروض عليهم النظر فيه» ـ كما عبر ابن العربي[٢] ـ .

ولا أحد بعد عثمان ﷺ أحق بالخلافة منه إذا رجعنا إلى نتيجة الاستفتاء الذي جرى بشفافية قبل ثنتي عشرة سنة مضت ، حين انحصرت الخلافة بينه وبين عثمان ﷺ في المجلس الشوري المكون من قبل عمر ﷺ من الستة الباقين الذين توفي الرسول ﷺ وهو عنهم راضٍ ، وعلي ﷺ لم يغير ولم يبدل ، فهو المستحق لها بعد عثمان ﷺ[٣].

بيد أن علياً ﷺ أبدى زهداً فيها ، وعرض أن يكون وزيراً للمؤمنين خير من أن يكون لهم أميراً ، لكنهم أكدوا لـه مرة أخرى أنهم لا يعلمون أحداً أحق بالخلافة منه ، وعندئذ رضخ ﷺ لإلحاحهم ، وقد جاء في رواية أخرى أنه قال وقتها « اللهم أني مشفق مما أقدم عليه ، ثم جاءت عزيمة فبايعت »[٤].

ولما وافق على ترشيح نفسه قرر أن لا تكون البيعة لـه بالخلافة في بيته بالسر ، بل لابد أن تكون علانية يشهدها المسلمون جميعاً في المسجد النبوي الذي جرت فيه بيعة من قبله من الخلفاء الراشدين ، ليكون الخيار مفتوحاً أمام من يرغب من المسلمين في البيعة لـه ، وبمجرد أن خرج إلى المسجد بادر الناس ببيعته ، وببيعته في مسجد الرسول ﷺ من قبل جمهور الصحابة من المهاجرين والأنصار ومن تبعهم من الناس في المدينة عاصمة الدولة الإسلامية آنذاك صار خليفة للمسلمين ، فمراسيم البيعة لـه من حيث أنها تمت في المسجد النبوي ، وأنها بدأت أولاً بأهل المدينة عاصمة الدولة طابقت ما حصل لأسلافه أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم في ولايتهم الخلافة ، ووفقاً لتلك المراسم التي تواضع عليها المسلمون ، وساروا عليها من قبل ـ أصبح علي ﷺ الخليفة

---

(١) أحمد : فضائل الصحابة ، جـ ٢ ، ٥٧٣ .
(٢) العواصم ، ص ١٤٦ .
(٣) انظر القاضي عبد الجبار : المغني في أبواب التوحيد والعدل ، جـ ٢٠ (في الإمامة) ، ق ٢ ، ص ٦٣ ؛ ابن تيمية : منهاج السنة ، جـ ٦ ، ص ٣٢٨-٣٢٩ .
(٤) الحاكم : المستدرك ، جـ ٣ ، ص ١٠١ .

الراشدي الرابع . وقد تمت البيعة لـه يوم الجمعة الخامس والعشرين من ذي الحجة سنة ٣٥ هـ[١].

حال المسلمين عقب ولاية علي ﷺ : عقب استشهاد عثمان ﷺ ومبايعة علي ﷺ بالخلافة من بعده دخل المسلمون في أزمة جديدة ، وقد تمثلت هذه الأزمة في الموقف من قتلة عثمان ﷺ ؛ فالصحابة جميعاً ومن تابعهم متفقون على وجوب تعقب هؤلاء القتلة الذين انتهكوا حرمة مدينة الرسول ﷺ ، وتجرأوا على سفك دم الخليفة ، لكنهم تباينوا في آرائهم ، واختلفوا في اجتهاداتهم حول الوقت الأمثل ، والأسلوب الأفضل للاقتصاص من أولئك القتلة ، فتشكل عندئذ اتجاهان.

الأول يرى أن أول عمل يجب على الخليفة الجديد علي ﷺ مباشرته هو إيقاع القصاص بهؤلاء المجرمين الذين قتلوا الخليفة الشهيد عثمان ﷺ ، وهذا الاتجاه يمثله منذ البداية جماعة من الصحابة كمعاوية بن أبي سفيان ، وعبادة بن الصامت ، وأبي الدرداء ، وأبي أمامة ، وعمرو بن عَبَسَة رضي الله عنهم أجمعين ، وجماعة من التابعين كأبي مسلم الخولاني ، وعبد الرحمن بن غَنْم ، وشَريك بن خُباشة[٢] .

أما الاتجاه الثاني فيرى أن العمل الأول الذي ينبغي أن توجـه لـه الجهود هو توحيد كلمة المسلمين ، وتأليف قلوبهم ، ورص صفوفهم ، وتوطيد الأمن الذي كاد أن يفقد ، ثم يأتي بعد ذلك النظر في تنفيذ القصاص من أولئك القتلة ، لأن الأمر يحتاج إلى تحقيق دقيق ، فالقتلة غير معروفين بأعيانهم ، وبعضهم قد هرب من المدينة عقب قتل الخليفة مباشرة ، فالاستعجال حينئذ في تنفيذ القصاص ـ والحالة هذه ـ سيؤدى لا محالة إلى حرب طاحنة يذهب فيها كثير من الأبرياء[٣] ، ويمثل هذا الاتجاه خليفة المسلمين الجديد علي بن أبي طالب ﷺ وشطر كبير من أهل الأمصار[٤].

وبعد مضي حوالي أربعة أشهر نشأ تياران آخران.

الأول ينادي بالإصلاح بين المسلمين ، ويرى أن من أهم مقومات هذا الإصلاح

---

(١) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ، ص ٤٣٦ .
(٢) ابن كثير : خلافة علي ، ص ٥٤ .
(٣) محمد أمحزون : تحقيق مواقف الصحابة ، جـ ٢ ، ص ١٣٧ .
(٤) خالد بن محمد الغيث : استشهاد عثمان ، ص ١٥٨ .

القيام بمعاقبة قتلة عثمان ﷺ ، وكان يقود هذا التيار أم المؤمنين عائشة والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله رضي الله عنهم أجمعين[١].

أما التيار الآخر فقد رأى أن ما يحصل بين المسلمين فتنة ، فآثر اعتزالها ، وعدم الدخول في شيء من تبعاتها ، وهذا التيار كانت نشأته ـ فيما يبدو ـ في الأيام الأولى من خلافة علي ﷺ ، لكن حضوره في الساحة لم يصبح ظاهراً إلا حينما تطور الاختلاف بين المختلفين إلى المواجهة الكلامية ، ومن ثم الانزلاق إلى الحلول غير السلمية ، وتيار المعتزلين هذا تبناه قطاع واسع من الصحابة رضي الله عنهم[٢]، فقد روي ـ بإسناد صحيح ـ عن محمد بن سيرين ـ كما مر ذكره ـ أنه قال «هاجت الفتنة وأصحاب رسول الله ﷺ عشرات الألـوف فلم يحضرها منهم مائة ، بل لم يـبلغوا ثلاثين »[٣].

ومن أشهر الصحابة الذين تبنوا هذا الموقف سعد بن أبي وقاص ، وعبد الله بن عمر ، ومحمد بن مسلمة ، وأسامة بن زيد ، وأبو بكرة[٤]، وأبو موسى الأشعري ، وأبو مسعود البدري[٥]، وأُهبان بن صيفي رضي الله عن الجميع[٦].

أحـداث عهـده ﷺ : لم يمكث علي ﷺ إلا قليلاً في المدينة النبوية بعد البيعة لـه بالخلافة ، فقد خرج منها إلى العراق ولم يعد إليها ، وخلال خلافته التي لم تبلغ خمسة أعوام شغل ﷺ بمعالجة المشكلات التي تفجرت عن فتنة مقتل سلفه الخليفة عثمان ﷺ ، فخاض ملاحم حربية ثلاث ؛ هي الجمل وصفين والنهروان ، كما عالج مشكلة الغلاة من الشيعة . وبجانب ذلك نرى جماعات من المجاهدين المسلمين قاموا إبان عهده بعمليات فتح متفرقة . وفيما يلي عرض لهذه الأحداث

أولاً : وقعة الجمل :

سميت وقعة الجمل بهذا الاسم نسبة إلى جمل أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها

---

(١) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ، ص ٤٥٢ ، ٤٦٢ . وسيأتي تحقيق ذلك بالتفصيل فيما بعد إن شاء الله تعالى .

(٢) ابن تيمية : منهاج السنة ، جـ ٦ ، ص ٢٣٦ ، ٣٣٣ .

(٣) ابن كثير : خلافة علي ، ص ٨٤ . قارن ابن تيمية : منهاج السنة ، جـ ٦ ، ص ٢٣٦ .

(٤) ابن حجر : فتح الباري ، جـ ١٢ ، ص ٣١ ، ٣٣ ، ٦٧ .

(٥) الحاكم : المستدرك ، جـ ٥ ، ص ١٧٣٢ .

(٦) المباركفوري : تحفة الأحوذي ، جـ ٦ ، ص ٤٤٦ . وانظر عثمان الخميس : حقبة من التاريخ ، ص ٨٣ .

الذي كان يحمل هودجها ، وكان اسمه عسكر[١]. وهذه الوقعة يحلو لبعض المؤرخين أن يقسمها إلى وقعتين :

وقعة الجمل الأولى[٢]، وقد حصلت بعيد وصول أم المؤمنين عائشة، والزبير بن العوام، وطلحة بن عبيد الله رضي الله عنهم وأتباعهم إلى البصرة ، حيث تهجمت عليهم فرقة من أهل البصرة ممن شارك في حصار عثمان ﷺ وقتله ، فوقع قتال بين الجانبين ، وانتهى بهزيمة البصريين .

أما الثانية فهي وقعة الجمل المشهورة عند الناس ، وقد حدثت بين أتباع أم المؤمنين عائشة والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله ﷺ من طرف وأتباع الخليفة علي بن أبي طالب ﷺ من طرف آخر ، وكان ذلك في العاشر من جمادى الآخرة سنة ٣٦ هـ[٣].

أهم مصادر وقعة الجمل : اعتمد غالب المؤرخين والكتاب المحدثين في الكتابة عن هذه الوقعة على مصادر تاريخية قديمة كأنساب الأشراف للبلاذري ، وتاريخ الأمم والملوك للطبري ، وتاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ، وهذه المصادر نقلت بدورها عن إخباريين أفردوا كتباً خاصة لهذه الوقعة ، من أبرزهم أبو مخنف لوط بن يحيى ، ومحمد بن عمر الواقدي ، وسيف بن عمر التميمي الذين سبق أن عرفنا حالهم في ميزان الجرح والتعديل .

ولعلنا نشير هنا إلى أن الطبري الذي اعتمد عليه كبار المؤرخين كابن الأثير في كتابه الكامل في التاريخ ، وابن كثير في كتابه البداية والنهاية وغيرهما ـ يكاد يستقي معلوماته كاملة عن هذه الوقعة من سيف بن عمر[٤]، فبلغت رواياته عنها تسعاً وسبعين رواية[٥]، بينما ساق عن الوقعة نفسها ـ مع مقدماتها أيضاً ـ تسع روايات لأبي مخنف[١]،

(١) ابن كثير : خلافة علي ، ص ٥٧ ؛ ابن حجر : فتح الباري ، جـ ١٣ ، ص ٥٥ ؛ العيني : عمدة القاري ، جـ١٥ ، ص ٥١ .

(٢) ويسمى مهذب البداية والنهاية هذه المعركة « الجمل الصغرى » (ابن كثير : خلافة علي ، ص ٦١) وقد وقعت في ٢٥ من ربيع الآخر سنة ٣٦ هـ (ابن الأثير : الكامل ، جـ ٣ ، ص ٢٢٠) .

(٣) خليفة بن خياط : تاريخه ، ص ١٨٠-١٨٦ . قيل إن الجمل حدثت في جمادى الأولى من هذه السنة (خليفة بن خياط : الطبقات ، ص ٢٣٣ ؛ ابن حجر : الإصابة ، جـ ٢ ، ص ٥٥٧ ، جـ ٣ ، ص ٥٣٣)

(٤) العش : الدولة الأموية ، ص ٨١ ، ٩٨ .

(٥) الغيث : استشهاد عثمان ، ص ١٤ .

وثلاث روايات للواقدي[٢].

وجدير بالتنبيه أن بعض المؤرخين الذين شهروا بالتحقيق لم تخلُ كتبهم من روايات أبي مخنف عند حديثهم عن وقعة الجمل[٣]، وهذا يعني أن الكتابة عن هذه الوقعة يحتاج إلى مزيد من الاحتياط والتمحيص والجهد والتحقيق[٤].

أحداث وقعة الجمل على ضوء الروايات الصحيحة : لم يكن خروج أم المؤمنين عائشة والزبير وطلحة ﷺ من مكة إلى البصرة بمجرد أن بويع لعلي ﷺ بالخلافة ، ولكن خروجهم جرى بعد مضي أربعة أشهر من استشهاد عثمان ﷺ[٥] ، حيث كان طلحة والزبير رضي الله عنهما قد نزلا بمكة بعد تركهما المدينة النبوية ـ كما فعل فئام من المسلمين ـ فالتقيا بأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها هناك ، وبعد تشاور مع بعضهم بعضاً وجماعة من المسلمين تبلور لديهم مشروع ارتأوا أنه كفيل بتطويق هذا الخلاف ، وإعادة الأمة إلى سابق وحدتها ، ويقوم هذا المشروع على إصلاح ما بين المسلمين ، وقد رأوا أن أول خطوات نجاحه هو السعي لإقامة القصاص على قتلة الشهيد عثمان ﷺ الذين هم سبب ذلك الخلاف[٦].

ثم رأوا أن تنفيذه مثل هذا المشروع يتطلب الخروج من مكة إلى البلدان التي حل فيها الخلاف بين المسلمين ، وفي الطريق إلى البصرة تبين مقصدهم هذا واضحاً ، فقد روى بسند صحيح عن قيس بن أبي حازم قال « لما أقبلت عائشة مرت ببعض مياه بني عامر ، طرقتهم ليلاً ، فسمعت نُباح الكلاب ، فقالت : أيُّ ماء هذا ؟ قالوا : ماء الحَوْأَب ، قالت : ما أظنني إلا راجعة ، قالوا : مهلاً يرحمك الله ! ، تقدمين فيراك

---

(١) اليحيى : مرويات أبي مخنف ، ص ٢٥٥ ، عدنان ملحم : المؤرخون العرب والفتنة ، ص ٧٠ .

(٢) عدنان ملحم : المؤرخون العرب والفتنة ، ص ٧٦ .

(٣) اليحيى : مرويات أبي مخنف ، ص ٢٦٠ ، ٢٦٢ ، ٢٧٠ .

(٤) راجع كتابنا : حقيقة الخلاف بين أمير المؤمنين علي ﷺ وعائشة والزبير وطلحة ﷺ عام الجمل .

(٥) البلاذري : جمل من أنساب الأشراف ، جـ ٣ ، ص ١٩ ؛ الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ، ص ٤٥٢ .

(٦) جاء ذلك في رواية للأحنف بن قيس صحيحة السند أن عائشة وطلحة والزبير ﷺ أرسلوا إليه حين وصلوا البصرة يستنصرونه على دم عثمان ﷺ (الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ، ص ٤٩٨ ؛ يوسف العش : الدولة الأموية ، ص ٥٤ - ٥٥) .

المسلمون ، فيصلح الله بك ... »[١].

ومن المهم هنا التأكيد على أن أصحاب الجمل ﷺ سلكوا طريق البصرة المعتاد ، وساروا إليها علانية[٢] ، كما أن علياً ﷺ في خروجه إلى العراق لم يتعقبهم ، ولم يخرج في أثرهم ، وإنما قصد الكوفة ، وسلك في مسيره إليها طريقها المعتاد[٣].

وبهذا نعلم أن علياً ﷺ كان قد تفهم هدف خروج عائشة والزبير وطلحة ﷺ إلى العراق ، إذ لم يرَ فيه بأساً ، لأنه لا يخرج في نظره ـ فيما يظهر ـ عن الغَيرة على دين الله ، والغضب لانتهاك حرماته تجاه أولئك المفسدين القتلة الذين تجرؤوا على سفك دم خليفة المسلمين ، وانتهكوا حرمة المدينة النبوية ، وحرمة الخلافة .

لما وصل أصحاب الجمل البصرة وجدوها تموج بالاضطرابات ، وقد استمر وضعها كذلك بعد وصولهم ، إذ يحكي أبو رجاء العطاردي ذلك الوضع بقوله «أتيت طلحة بن عبيد الله وقد غشيه الناس ، وهو على دابته ، فجعل يقول : يا أيها الناس ، أتنصتون ؟ فجعلوا يركبونه ولا ينصتون ، فقال : أفٍ ، أفٍ ، فراش نار ، وذبان طمع»[٤].

وهذا الوضع المضطرب هو الذي حدا بعلي ﷺ أن يترك طريق الكوفة ويتوجه إلى البصرة لإصلاح الأوضاع فيها[٥]، وكان قبل وصوله إليها قد بعث بالقعقاع بن عمرو للقاء عائشة والزبير وطلحة ﷺ ، وقد وفق القعقاع ـ كما في رواية لسيف[٦]ـ إلى الاتفاق معهم على إصلاح الأمر ، ونبذ الخلاف ، لأنهم في الأصل قد خرجوا ﷺ ـ بما لهم من قدر ومنزلة ومرجعية بين المسلمين ـ لحشد الرأي العام ضد أولئك القتلة المعتدين ، والسعي لإيقاع القصاص فيهم .

---

(١) ابن بلبان : صحيح ابن حبان ، جـ ١٥ ، ص ١٢٦ ؛ ابن حجر : فتح الباري ، جـ ١٣ ، ص ٥٥ . وماء الحوأب من مياه أبي بكر بن كلاب على طريق البصرة (ياقوت : معجم البلدان ، جـ ٢ ، ص ٣١٤) .
(٢) انظر تفصيل ذلك في الغيث : استشهاد عثمان ، ص ١٦٧-١٦٨ .
(٣) الغيث : استشهاد عثمان ، ص ١٨٣-١٨٤ .
(٤) خليفة بن خياط : تاريخه ، ص ١٨٢ ، ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق ، جـ ٢٥ ، ص ١٠٩ . ورجاله سنده عند الذهبي ثقات (سير أعلام النبلاء ، جـ ١ ، ص ٣٥ ، حاشية ٣) .
(٥) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ٤ ، ص ٤٨٧ .
(٦) الجمل ومسير عائشة وعلي ، ص ٣١٤ ؛ الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ٤ ، ص ٤٨٨ .

غير أنهم اكتشفوا بعد وصولهم إلى البصرة ، ومعالجتهم للواقع فيها أن المسألة ليست بتلك السهولة التي كانوا يتصورونها حتى كاد أحدهم ـ وهو الزبير ﷺ ـ بعد ما رأى في البصرة من اختلاف ونزاع ـ أن يوقن بأنهم صاروا يعايشون الفتنة التي حذر منها الله سبحانه المؤمنين في القرآن ، فقد ورد بسند صحيح أنه قال لمطرف بن عبد الله لما سأله عن مجيئه إلى البصرة « إنا قرأنا على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان ﷺ ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗ ﴾ (الأنفال ، الآية ٢٥) ، لم نكن نحسب أنا أهلها ، حتى وقعت منا حيث وقعت »[١].

ذاك أن جماعات السبئية التي أحدثت الفتنة في المدينة وغيرها كانت موجودة أيضاً في البصرة ، وهي لا تألوا جهداً في مواصلة إذكاء نار الفتنة ، وهدم البنيان الإسلامي من أساسه[٢].

وأمام هذه الحقيقة تشكلت لدى أصحاب الجمل قناعة بأن أفضل السبل للوقوف في وجه هؤلاء المتآمرين هو الترتيب مع خليفة المسلمين علي ﷺ الذي كان أيضاً منذ البداية ينشد الإصلاح ، ويسعى إليه[٣]. قال ابن حزم[٤]

«ولم يكن نهوض علي إلى البصرة لقتالهم ، لكن موافقاً لهم على ذلك ليقوى بهم ، وتجتمع الكلمة على قتلة عثمان ﷺ». ثم إنه لما وصل البصرة بعث عبد الله بن عباس ﷺ إلى طلحة والزبير رضي الله عنهما قبل وقعة الجمل ، فلما التقى بهما ـ كما ورد بإسناد صحيح ـ قال « إن أخاكما يقرئكما السلام ، ويقول لكما : هل وجدتما عليَّ حيفاً في حكم ، أو استئثاراً بفيء ، أو بكذا أو بكذا ، قال : فقال الزبير : ولا في واحدة »[٥].

فإذا كانت هذه الرواية الصحيحة تجسد ما أصبح يسود بين علي ﷺ وأصحاب الجمل من تقارب وإلفة ، فإن في إجابة الزبير ﷺ على سؤال علي ﷺ ما يتضمن رضاه

---

(١) أحمد : المسند ، تحقيق شاكر ، جـ ٣ ، ص ٩ ؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء ، جـ ١ ، ص ٥٧ ، عهد الخلفاء الراشدين ، ص ٥٠٤ ؛ ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ، جـ ٣ ، ص ٢٩١ ؛ ابن حجر : فتح الباري ، جـ ١٣ ، ص ٤ .

(٢) أسماء زيادة : دور المرأة السياسي ، ص ٤٤٣ .

(٣) سيف بن عمر : الجمل ومسير عائشة وعلي ، ص ٣٠٢ ؛ الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ، ص ٤٧٩ .

(٤) الفصل في الملل والأهواء والنحل ، جـ ٤ ، ص ٢٣٨-٢٣٩ .

(٥) أحمد : فضائل الصحابة ، جـ ٢ ، ص ٥٩٦ ؛ ابن أبي شيبة : المصنف ، جـ ٧ ، ص ٥٣٨ .

عن تسيير دفة الخلافة التي لم تكن صحة ولايته لها موضع خلاف عنده ، وهذا يسقط ما يردده بعض الكتاب من أن خروج عائشة والزبير وطلحة ﷺ إلى البصرة كان اعتراضاً على خلافة علي ﷺ ، أو خلعاً لطاعته .

ويبدو أن لقاء ابن عباس ﷺ هذا مهد لاجتماع علي ﷺ بالزبير وطلحة رضي الله عنهما في وسط معسكر الطرفين ، فقد أخرج بن أبي شيبة[1] ـ بسند صحيح ـ عن عبد خير قولـه « ضُرب فسطاطٌ بين العسكرين يوم الجمل[2]، ثلاثة أيام ، فكان علي والزبير وطلحة يأتونه ، فيذكرون فيه ما شاء الله حتى إذا كان يوم الثالث عند زوال الشمس رفع علي جانب الفسطاط ، ثم أمر بالقتال ... » . فيفهم من هذه الرواية أن علياً ﷺ هو الذي نصب ذلك الفسطاط [الخيمة] لمدة ثلاثة أيام ، فغدا محلاً للقائه مع الزبير وطلحة ﷺ ، فصاروا يأتونه ويتناقشون فيه ، ومن المؤكد أن نقاشهم ـ وإن لم تصرح به الرواية ـ قد انصب على القصاص من قتلة عثمان ﷺ فهو أصل الاختلاف بين الطرفين.

وبينما لا تكشف هذه الرواية الصحيحة سبب هذا التحول المفاجيء الذي قلب بسرعة اللقاء الودي إلى إلتحام عسكري فإن الروايات التاريخية الأخرى وبخاصة رواية الإخباري سيف بن عمر التميمي قد كشفت ذلك كشفاً جلياً ، فوضحت أن اندلاع القتال بين الطرفين جرى بتدبير خبيث من السبئية ، ذاك أنهم حين اصطلح علي ﷺ مع أصحاب الجمل « بات الذين أثاروا أمر عثمان ـ كما يقول سيف[3] ـ بِشَرِ ليلة باتوها قط ، قد أشرفوا على الهَلَكة ، وجعلوا يَسْرُون ليلتهم كلها ، حتى اجتمعوا على إنشاب

(١) المصنف ، جـ ٧ ، ص ٥٣٧ . وسنده :حدثنا يحيى بن آدم حدثنا أبو الأحوص عن خالد بن علقمة عن عبد خير . وعبد خير الهمداني ، صاحب علي ﷺ ، ثقة (ابن أبي حاتم : الجرح والتعديل ، جـ ٦ ، ص ٣٧ ؛ ابن حجر : تهذيب التهذيب ، جـ ٦ ، ص ١١٣) وخالد بن علقمة الهمداني ، ثقة ، يروى عن عبد خير (ابن أبي حاتم : الجرح والتعديل ، جـ ٣ ، ص ٣٤٣ ، ابن حجر : تهذيب التهذيب ، جـ ٢ ، ص ٩٣) وأبو الأحوص هو سلام بن سليم أخرج لـه البخاري ، ويروى عن خالد بن علقمة (الباجي : التعديل والتجريح ، جـ ٣ ، ص١١٤٠ ؛ ، ابن حجر : تهذيب التهذيب ، جـ ٤ ، ص ٢٤٨) ويحيى بن آدم الأموي ، ثقة ، ويروى عن أبي الأحوص ، وروى عنه ابن أبي شيبة (ابن حجر : تهذيب التهذيب ، جـ ١١ ، ص ١٥٤) . فالسند متصل ، ورجاله ثقات .

(٢) يعبر باليوم عن الزمان ، فيقال مثلاً يوم بعاث ، ويوم الجمل ، ويعنون بذلك الأيام التي قبلها أو بعدها . انظر (العيني : عمدة القاري ، جـ ١٠ ، ص ٨٣) .

(٣) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ، ص ٥٠٦ .

الحرب في السر ، واستسروا بذلك خشية أن يُفطن لهم ».

وقد شرح سيف خطتهم القائمة على تبييت السبئية في جيش الكوفة الهجوم غدراً على جيش البصرة ، فنفذوا خطتهم في الصباح ، فقام أهل البصرة بالدفاع عن أنفسهم ، فرد عليهم جيش الكوفة ، فكانت مناوشات في البداية ، ثم اشتعلت الحرب بين الطرفين[١]. فكانت « كل طائفة تظن ولا تشك أن الأخرى بدأتها بالقتال ، فاختلط الأمر اختلاطاً لم يقدر أحد على أكثر من الدفاع عن نفسه.

والفسقة من قتلة عثمان ـ لعنهم الله ـ لا يفترون من شب الحرب وإضرامها ، فكلتا الطائفتين مُصيبة في غرضها ومقصدها ، مدافعة عن نفسها »[٢]. وعلى أي حال فإن أثر السبئية في نشوب القتال يوم الجمل مما يكاد يجمع عليه العلماء[٣].

ومن المهم هنا التنبه إلى أن ما اندلع من قتال في الجمل كان بغير اختيار من علي ﷺ من جهة وعائشة والزبير وطلحة ﷺ من جهة أخرى[٤] ، فقد كان « فخاً وقع فيه الفريقان معاً ، ومن التشويه للحقيقة أن تسمى هذه الحادثة حرباً بين علي ومن معه ، وعائشة ومن معها ، فهم لم يريدوها ، ولم يبتدئوها »[٥] .

فمواقف هؤلاء الأربعة من القتال يوم الجمل واضحة ، فقد ثبت أن الزبير ﷺ قال لابنه عبد الله بعد أن نشب القتال يوم الجمل «يا بني إنه لا يُقتل اليوم إلا ظالم أو مظلوم ، وإني لا أراني إلا سأُقْتَلُ اليوم مظلوماً »[٦].

وتشير رواية أخرى أن الزبير ﷺ حين خرج يشق الصفوف معلناً إعراضه عن القتال ، قال لـه ولده عبد الله : «وللقتال جئت ؟ إنما جئت لتصلح بين الناس ، ويصلح الله هذا الأمر بك »، فوقف حتى إذا اختلف أمر الناس ذهب على فرسه ، وترك

(١) سيف بن عمر : الجمل ومسير عائشة وعلي ، ص ٣٢٨ ؛ الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ٤ ، ص ٥٠٦-٥٠٧ .
(٢) ابن حزم : الفصل ، جـ ٤ ، ص ٢٣٩ . وانظر ما قاله ابن تيمية : منهاج السنة ، جـ ٤ ، ص ٣١٦-٣١٧ ، جـ٦ ، ص ٣٦٣ .
(٣) سليمان العودة : عبد الله بن سبأ ، ص ١٩٤ .
(٤) ابن تيمية : منهاج السنة ، جـ ٤ ، ص ٣١٦ .
(٥) أسماء زيادة : دور المرأة السياسي ، ص ٤٤٠ .
(٦) البخاري : الصحيح ، جـ ٣ ، ص ١١٣٨ .

الميدان[١]، وذلك قبل أن تقع المعركة ، ثم لحقه عمرو بن جرموز ، فقتله في وادي السباع[٢] على سبعة فراسخ من البصرة [٣].

أما طلحة ﷺ فقد قتل في أول المعركة ، حيث ورد بسند صحيح عن الأحنف بن قيس قولـه «ثم التقى القوم فكان أول قتيل طلحة بن عبيد الله ﷺ »[٤].

أما أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها فكانت تأمر بالبعد عن القتال ، فقد روي أن محمد بن طلحة ﷺ سألها يومئذ فقال « يا أماه : ما تأمريني ؟ قالت : أرى أن تكون كخير ابني آدم ، أن تكف يدك ، فكف يده ، فقتله رجل من بني أسد بن خزيمة » [٥].

ولما نشب القتال نراها رضي الله عنها تجتهد لإيقافه ، فقد صح أن قاضي البصرة كعب بن سور خرج « ناشراً مصحفه ، يذكر هؤلاء ، ويذكر هؤلاء حتى أتاه سهم فقتله»[٦]، وفي رواية أنه قام « معه المصحف ينشره بين الفريقين ، وينشدهم الله والإسلام في دمائهم ، فما زال بذلك المنزل حتى قتل » [٧]. ويروي سيف[٨] أن عائشة رضي الله عنها هي التي أمرت كعباً بالقيام بهذه المهمة ، حيث كانت بعيدة عن ميدان القتال ، فجاء كعب إليها ، وقال لها : « أدركي ! فقد أبى القوم إلا القتال ، لعل الله يصلح بك»، فركبت الجمل بعد أن ألبسوا هودجها الأدراع ، ودخلت الميدان ، فلما رأت ما رأت من القتال قالت لكعب «خل يا كعب عن البعير ، وتقدم بكتاب الله ، فادعهم إليه ، ودفعت إليه مصحفاً.

---

(١) الحاكم : المستدرك ، جـ ٦ ، ص ٢٠٤٨ - ٢٠٤٩ .
(٢) ابن سعد : الطبقات ، جـ ٣ ، ص ١١٠- ١١٢ ؛ الحاكم : المستدرك ، جـ ٦ ، ص ٢٠٤٧ ، ٢٠٤٨ ؛ ابن حجر: فتح الباري ، جـ ٦ ، ص ٢٢٩ ، جـ ٧ ، ص ٨٢ .
(٣) الذهبي : عهد الخلفاء ، ص ٥٠٧ .
(٤) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ، ص ٤٩٨ ؛ ابن أبي شيبة : المصنف ، جـ ٦ ، ص ١٩٧ ، جـ ٧ ، ص٥٤١ ؛ ابن حجر : فتح الباري ، جـ ١٣ ، ص ٤٣ ؛ العش : الدولة الأموية ، ص ٥٤ .
(٥) الحاكم : المستدرك ، جـ ٦ ، ص ٢٠٥٨ - ٢٠٥٩ ؛ ابن أبي شيبة : المصنف ، جـ ٧ ، ص ٥٤٤ ؛ ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق ، جـ ٢٣ ، ص ٣-٤ .
(٦) ابن سعد : الطبقات ، جـ ٧ ، ص ٩٢ ، الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ، ص ٤٩٨ ؛ العش : الدولة الأموية ، ص ٥٤ .
(٧) البخاري : التاريخ الأوسط ، جـ ١ ، ص ٧٥ .
(٨) الجمل ومسير عائشة وعلي ، ص ٣٢٩ ؛ الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ، ص ٥٠٧ .

وأقبل القوم ، وأمامهم السبئية ، يخافون أن يجري الصلح ، فاستقبلهم كعب بالمصحف ... فلما دعاهم كعب رشقوه رشقاً واحداً فقتلوه ، ثم رموا أم المؤمنين في هودجها ، فجعلت تنادي : يا بني ! البقية ، البقية ، ويعلو صوتها كثرة ؛ الله ، الله ، اذكروا الله والحساب ، ويأبون إلا إقداماً ، فكان أول شيء أخذته حين أبوا ، أن قالت أيها الناس : العنوا قتلةَ عثمان وأشياعَهم ، وأقبلتْ تدعو »[١].

فعائشة رضي الله عنها في سبيل الدعوة إلى منع القتال خاطرت بنفسها في أتون المعركة حتى تعرض هودجها للقصف بالسهام ، يقول أحد الذين شهدوا الوقعة وهو أبو رجاء العطاردي ـ كما ورد بسند صحيح ـ «لقد رأيت الجمل يومئذ كأنه قنفذ من النَّبل»[٢]، فلم ينقطع الهجوم على ذلك الهودج إلا بعقر الجمل الذي كان يحمله[٣].

وثمة شيء ثالث يوضح موقف عائشة رضي الله عنها من القتال يوم الجمل ـ وقد نزلت الميدان ـ هو إدراكها أن المؤمنين المخلصين الذين قتلوا من الطرفين قد وقعوا ضحية مؤامرة دبرت لهم بليل ، فكانت تترحم على أشخاص قتلوا في المعركة تعرفهم بأعيانهم كانوا في جيش علي ﷺ[٤].

أما علي ﷺ فقد كان حريصاً على الكف عن القتال ، فلم يأذن بالقتال يوم الجمل إلا بعد زوال الشمس ، فنشب القتال ـ كما ورد بسند صحيح ـ بعد صلاة الظهر[٥]، رغم أن السبئية في الجيشين قد تسببوا بقتال الطرفين بعضهم بعضاً مع الغلس[٦]، ثم إنه حين وقعت الواقعة ، وتورط الطرفان بقتال بعضهم بعضاً ، نظر علي ﷺ إلى ما يجرى من قتل فأبدى أسفه وتألمه على تلك الحالة ، فعن أبي بكرة ﷺ

« أن علياً ﷺ قال يوم الجمل ـ لما رأى القتلى والرؤوس تندر ـ : يا حسن

---

(١) سيف بن عمر : الجمل ومسير عائشة وعلي ، ص ٣٣١ ؛ الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ٤ ، ص ٥١٣ .
(٢) خليفة بن خياط : تاريخه ، ص ٩١ ؛ العمري : عصر الخلافة ، ص ٤١٢ . وانظر الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ، ص ٥٣٣ ؛ ابن حجر : فتح الباري ، جـ ٨ ، ص ٩١ .
(٣) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ، ص ٥٢٧ .
(٤) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق ، جـ ١٩ ، ص ٤٤٣-٤٤٤ ، ٤٤٥-٤٤٦ ؛ ابن حجر : الإصابة ، جـ ٢ ، ص٦٤٧ ، ٦٤٨ .
(٥) ابن أبي شيبة : المصنف ، جـ ٧ ، ص ٥٤٦ ؛ ابن حجر : فتح الباري ، جـ ١٣ ، ص ٥٧ .
(٦) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ، ص ٥٠٦ .

[يقصد ابنه] ! أي خير يرجى بعد هذا ؟ ... »[١].

بل أنه ﷺ لما اشتد القتال طفق يلوذ بابنه الحسن ﷺ هذا ، ويقول ـ كما جاء بإسناد صحيح ـ « يا حسن ! لوددت أني متُّ قبل هذا بعشرين حجة »[٢].

ثم إنه لما علم بمقتل طلحة والزبير رضي الله عنهما حزن حزناً شديداً أفضى به إلى البكاء ، فقد روى أبو جعفر عبد الله بن المسور قال « لما قتل طلحة والزبير جعل علي وأصحابه يبكون »[٣].

وقد نُقل عن الشعبي قوله « رأى عليٌّ طلحةَ في وادٍ ملقى ، فنزل فمسح التراب عن وجهه ، وقال : عزيز علي أبا محمد بأن أراك مُجَدّلاً في الأودية ، تحت نجوم السماء ، إلى الله أشكو عُجَري وبُجَري . قال الأصمعي : عجري وبجري : سرائري وأحزاني التي تموج في جوفي »[٤].

أما الزبير ﷺ فقد صح عن زر بن حبيش أن علياً ﷺ قال « بَشِّرْ قاتلَ ابنِ صفية بالنار ، ثم قال علي : سمعت رسول الله ﷺ يقول (لكل نبي حواري ، وحواريّ الزبير)»[٥].

ثم أن علياً ﷺ كان حريصاً على سلامة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ، فالذين أنقذوها من وسط السهام المتشابكة ، والرماح المتلاطمة هم ـ بعد الله تعالى ـ من أتباعه ، فلقد ورد بسند جيد أن عبد الله بن بديل ﷺ ، أحد أصحاب علي ﷺ ـ أمر بعقر الجمل ، فلما سقط الجمل حل رباط الهودج الذي كانت فيه عائشة رضي الله عنها ، وتعاون مع أخيها محمد في حمله حتى وضعاه بين يدي علي ﷺ الذي أمر أن تنقل معززة

---

(١) الحاكم : المستدرك ، جـ ٦ ، ص ٢٠٥٤ .
(٢) ابن أبي شيبة : المصنف ، جـ ٧ ، ص ٥٤٦ ؛ نعيم بن حماد : الفتن ، ص ٤٩ ؛ الهيثمي : مجمع الزوائد ، جـ ٩ ، ص ١٥٠ ؛ العمري : عصر الخلافة ، ص ٤١٤ ، حاشية ١ .
(٣) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق ، جـ ٢٥ ، ص ١١٥ . وانظر ابن أبي شيبة : المصنف ، جـ ٧ ، ص ٥٣٦ .
(٤) الذهبي : سير أعلام النبلاء ، جـ ١ ، ص ٣٦ .
(٥) أحمد : فضائل الصحابة ، جـ ٢ ، ص ٧٣٧ ؛ المسند (شاكر) ، جـ ٢ ، ص ٧٩ ، ابن أبي عاصم : السنة ، جـ٢ ، ص ٩٢١ ؛ ابن حجر : فتح الباري ، جـ ٦ ، ص ٢٢٩ . والحواري يعني الناصر كما شرح ذلك سفيان (أحمد : المسند ، جـ ٢ ، ص ٧٩) .

إلى بيت عبد الله بن بديل[١].

وفي رواية لسيف أن علياً ﷺ اطمأن على سلامتها فقال لها «كيف أنتِ يا أمه ؟ قالت: بخير ، قال : يغفر الله لكِ ، قالت : ولك »[٢].

وجدير بالذكر أن علياً ﷺ شارك أم المؤمنين عشية ذلك اليوم بالدعاء على قتلة عثمان ﷺ كما صح عن ابنه محمد بن الحنفية[٣]. ثم أنه بعد ذلك ردها إلى الحجاز معززة مكرمة[٤].

وفي الختام يحسن الإشارة إلى أن غالبية المصادر التاريخية القديمة وتبعتها كثير من المراجع الحديثة أعطت أرقاماً كبيرة لعدد القتلى في معركة الجمل ، فقيل إن قتلى الطرفين فيها زادوا عن ستة آلاف[٥] ، وقيل سبعة آلاف[٦]، وقيل عشرة آلاف[٧]، وقيل ثلاثة عشر ألفاً[٨]، وقيل ثمانية عشر ألفاً[٩]، وقيل عشرون ألفاً[١٠]، بل أوصلهم اليعقوبي[١١] إلى نيف وثلاثين ألفاً .

والمتأمل في تفاصيل مقدمات وقعة الجمل وأحداثها يرى في هذه الأرقام مبالغة كبيرة لا يمكن قبولها على الإطلاق ، وبخاصة الأرقام الأربعة الأخيرة ؛ ذاك أن الجنود المشاركين في هذه المعركة لا ينتظر أن تكون أعدادهم في الأصل كبيرة ، ومن ثم يصبح القتلى منهم بهذه الكثرة التي تروج لها هذه المصادر والمراجع.

فالباحثون الذين حاولوا أن يحددوا عدد جيش علي ﷺ في الجمل ـ مثلاً ـ حددوه

---

(١) ابن أبي شيبة : المصنف ، جـ ٧ ، ص ٥٤٥ ؛ ابن حجر : فتح الباري ، جـ ١٣ ، ص ٥٧ .
(٢) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ، ص ٥٣٤ .
(٣) أحمد : فضائل الصحابة ، جـ ١ ، ص ٤٥٥ ؛ ابن أبي شيبة : المصنف ، جـ ٧ ، ص ٥٣٩ .
(٤) سيف بن عمر : الجمل ومسير عائشة وعلي ، ص ٣٦٨ - ٣٦٩ ؛ الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ، ص٥٤٤ .
(٥) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ، ص ٥٤٥ .
(٦) خليفة بن خياط : تاريخه ، ص ١٨٦ .
(٧) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ، ص ٥٣٩ .
(٨) خليفة بن خياط : تاريخه ، ص ١٨٦ .
(٩) المسعودي : مروج الذهب ، جـ ٢ ، ص ٣٦٠ .
(١٠) خليفة بن خياط : تاريخه ، ص ١٨٦ ؛ البلاذري : جمل من أنساب الأشراف ، جـ ٣ ، ص ٥٩ .
(١١) تاريخ اليعقوبي ، جـ ٢ ، ص ١٨٣ .

من خلال أقوال المؤرخين القدامى عن تجمعات الناس حول علي ﷺ عند أول قدومه إلى العراق[١]، وليس عند حدوث القتال في الجمل ،

وفرق بين الحالتين ، فصحيح أن الناس من أهل العراق توافدوا على علي ﷺ ، وكذلك على أصحاب الجمل ، لكن ما حصل من تطورات قللت نسبة الملتحقين بالجيشين كليهما.

فمن هذه التطورات مساعي الصلح بين الجانبين التي كانت في سبيلها إلى النجاح ، وهذه من شأنها أن تمنح الجند وقتاً من الاسترخاء وعدم المرابطة في الميدان.

ومنها اعتزال بعضهم معسكر الفريقين حينما صار كل واحد في مواجهة الآخر احترازاً وخوفاً من وقوع القتال[٢].

ومنها وقوف بعضهم في وجوه الذين استعدوا للمشاركة في القتال يوم المعركة ، ونصحهم بالكف عن ذلك[٣].

بل إن علياً ﷺ كان من البداية يرحب بعدم مشاركة بعض الأشخاص ومن معهم إذا كانت عدم مشاركتهم ستفيد في كف جموع من الناس عن الانضمام إلى أي من الفريقين ، كما فعل مع الأحنف بن قيس الذي اعتزل ومعه ـ كما صح ـ ستة آلاف رجل[٤] .

ومما يجعلنا نرى أن ما ذكرته تلك المصادر عن القتلى في الجمل مبالغ فيه ـ كون رؤوس المسلمين وقادتهم فيها (علي وعائشة والزبير وطلحة ﷺ) ظلوا ـ كما مر ذكره ـ يسعون لعدم وقوع القتال ، ولما وقع سعوا لإيقافه ، متمثلين بلا ريب حرمة قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق .

ومما نراه مؤشراً على قلة عدد القتلى في هذه المعركة أن القتال لما وقع فيها لم يدم

---

(١) اليحيى : مرويات أبي مخنف ، ص ٢٦٣ ؛ الغيث : استشهاد عثمان ، ص ٢١٣ ؛ فقيهي : خلافة علي ، ص١٤٦ . انظر الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ، ص ٥٠٦ .

(٢) ابن أبي شيبة : المصنف ، جـ ٧ ، ص ٥٤٣ ؛ نعيم بن حماد : الفتن ، ص ٥٦ .

(٣) ابن حجر : فتح الباري ، جـ ١٢ ، ص ١٩٧ ، جـ ١٣ ، ص ٥٦ .

(٤) ابن أبي شيبة : المصنف ، جـ ٦ ، ص ١٩٧ ، جـ ٧ ، ص ٥٤١ ؛ الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ، ص٤٩٨ ، ٥٠٠-٥٠١ ؛ ابن حجر : فتح الباري ، جـ ١٣ ، ص ٣٥ ، ٤٣ .

سوى وقت قصير جداً ، فلم يكن سبعة أيام كما زعمت بعض الروايات[١]، بل كان نصف يوم فقط كما ذكرناه سابقاً ، ولذا فقتال نصف يوم بين جيشين يتحرج كثير من أفراده قتال الآخر ، وفي زمن كانت فيه المعارك الحربية تبدأ بالمبارزة ، فتأخذ المبارزة أكثر وقت القتال ، فلا يبقى للتصادم الجماعي إلا القليل[٢]- لا شك أن القتلى سيكون عددهم قليلاً .

وبناء على ما سبق نرى أن ما عرضه الدكتور يوسف العش[٣]عند مناقشته عدد قتلى الجمل كان موفقاً إلى حد بعيد ، فبعد إشارته إلى الرواية التي تزعم أن قتلى الجمل عشرة آلاف ، نصفهم من أصحاب علي ﷺ ، ونصفهم من أصحاب عائشة رضي الله عنها[٤] ـ قال «ويعنى هذا أن عدد القتلى من أصحاب علي خمسة آلاف ! وانظر إلى الخبر الآتي الذي يدل على عدد الذين نجوا من جيش علي . فإن علياً (لما فرغ من بيعة أهل البصرة ، نظر في بيت المال ، فإذا فيه ستمائة ألف وزيادة ، فقسمها على من شهد معه [معركة الجمل] ، فأصاب كل رجل منهم خمسمائة)[٥]. وكان علي يسوى في العطاء .

وحساب بسيط يدلنا على عدد هؤلاء الناجين ، فهم بالحساب لا يزيدون كثيراً عن ألف ومائتي مقاتل سوى الخدم والعبيد ، فهل يُعقل أن يكون عدد القتلى من المنتصرين خمسة آلاف ، وعدد الناجين منهم ألفاً ومائتين ؟ أنت ترى أن المؤرخين يقدمون أرقاماً وهمية يجب ألا نهتم بها ».

ويرى الدكتور خالد الغيث[٦] أن عدد القتلى في الجمل كان ضئيلاً ، وترجح لديه أنهم لا يتجاوزون المائتين بعد أن برر ذلك بعدة أسباب هي : قصر مدة القتال ، والطبيعة

---

(١) الإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة ، ص ٧٢ .
(٢) العش : الدولة الأموية ، ص ٣٦١ . راجع كتابنا : حقيقة الخلافة بين أمير المؤمنين علي ﷺ وعائشة زالزبير وطلحة ، ص ٧٢-٧٦ .
(٣) الدولة الأموية ، ص ٣٦١ .
(٤) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ، ص ٥٣٩ .
(٥) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ، ص ٥٤١ . ويلاحظ أن كلا الروايتين اللتين استشهد بهما العش هما من رواية سيف عن محمد وطلحة .
(٦) استشهاد عثمان ، ص ٢١٤-٢١٥ .

الدفاعية في قتال كلا الفريقين ، وتحرج كل فريق من القتال لعلمهم بحرمة دم المسلم ، وبقياس عدد قتلى الجمل بما خلفته معارك شرسة وقوية كاليرموك والقادسية من قتلى ، وكون الذين حفظت أسماؤهم من قتلى الجمل يقاربون المائة فقط .

ثانياً . وقعة صفين والتحكيم : لم تمض بضعة أشهر على فاجعة الجمل حتى حدثت فاجعة أخرى أشد منها وأفظع ، وذلك على الحدود العراقية الشامية قرب مدينة الرقة ، في مكان يسمى صفين على الضفاف الغربية لنهر الفرات ، حيث جرى قتال دامٍ بين طائفتين من المسلمين ، الأولى يقودها أمير المؤمنين نفسه علي بن أبي طالب ﷺ ، وكان جيشه من أهل العراق ومن خرج معه من أهل الحجاز .

والطائفة الأخرى تحت قيادة والي الشام معاوية بن أبي سفيان ﷺ ، وكان جل جيشه من أهل الشام . وقد كان محور الخلاف بينهما يدور حول قتلة أمير المؤمنين عثمان ﷺ؛ فمعاوية ﷺ جعل شرط مبايعته لعلي ﷺ أن يدفع إليه القتلة بحجة أنه هو ولي عثمان ﷺ ، بينما كان علي ﷺ يصر على أن يبايع لـه معاوية ﷺ أولاً ، ثم يحاكم القتلة إليه بصفته خليفة للمسلمين .

ولما لم يصلا إلى اتفاق في هذا الأمر فقد سار علي ﷺ حتى نزل بجيشه في صفين ، كما قدم معاوية ﷺ بجيشه فنزل أيضاً بصفين ، وذلك في ذي الحجة من سنة ٣٦ هـ ، فتراسلا فلم يتم بينهما شيء ، وحينئذ وقع بينهما قتال متقطع امتد من ذي الحجة إلى أوائل شهر صفر سنة ٣٧ هـ ، تراوح بين مبارزات فردية ، واشتباكات خفيفة بين بعض الكتائب والفرق ، وقد قدر بعض الرواة ما حدث من اشتباكات في هذه المدة بأكثر من سبعين زحفاً ، وبعد مضي أسبوع من صفر وقع الالتحام الشامل .

وقد بدأ يوم الأربعاء ثم الخميس الذي لم ينقطع القتال فيه عند حلول الليل ، فاستمر طوال ليلة الجمعة حتى الصباح ، وفي الوقت الذي أشرف فيه جيش علي ﷺ على النصر ضحى الجمعة ٢١ صفر ـ طلب معاوية ﷺ تحكيم كتاب الله بعد مقتل خلق كثير من الفريقين ، فوافق علي ﷺ على ذلك.

ولما اختير للتحكيم أبو موسى الأشعري ﷺ ممثلاً عن علي ﷺ وعمرو بن العاص ﷺ ممثلاً عن معاوية ﷺ اجتمعا بعد مدة في دومة الجندل ، وذلك في رمضان من عام ٣٧

هـ ، ولكنهما لم يصلا إلى نتيجة مرضية ، فبقيت قضية الخلاف بينهما معلقة[١].

هذا ملخص ما جرى في وقعة صفين كما حكته كتب التاريخ ، وبالوقوف على أخبار هذه الحادثة في المصادر القديمة ، والاطلاع على ما وقع تحت اليد حولها من دراسات حديثة تجمع لدينا جملة من الحقائق والملحوظات نوردها في النقاط التالية :

أ - مصادر أخبار وقعة صفين :

١ - إن ما جاء من روايات في تاريخ الطبري وكثير من المصادر التاريخية بعده عن خلاف علي رضي الله عنه مع معاوية رضي الله عنه ووقعة صفين ـ يكاد ينحصر على ما رواه الإخباري أبو مخنف لوط بن يحيى[٢]، وهذا الراوي ـ كما سبق ـ معروف بتشيعه[٣].

وثمة مصدر قديم يتحدث بتفصيل عن خلاف علي رضي الله عنه ومعاوية رضي الله عنه ووقعة صفين ونتائجها ـ وقد طبع بعنوان (وقعة صفين) ـ ألفه الإخباري نصر بن مزاحم المنقري (ت ٢١٢ هـ)[٤]، ونصر هذا أيضاً رافضي متعصب[٥]، وقد ضمن كتابه هذا كثيراً من روايات أبي مخنف[٦]، وبالإضافة إلى ذلك فإن في أسانيده الأخرى رواة شيعة ، ويلاحظ أن الكاتب الشيعي ابن أبي حديدة قد نقل عنه كثيراً في كتابه نهج البلاغة[٧].

---

(١) راجع في تفاصيل هذه الوقعة إسماعيل التيمي : الخلفاء الأربعة ، ص ١٨٦-١٩١ ؛ ابن كثير : خلافة علي ، ص٨٥-١٠٨ ؛ ابن حجر : فتح الباري ، جـ ١١ ، ص ١٢٣ ، جـ ١٣ ، ص ٨٥-٨٦ .

(٢) يوسف العش : الدولة الأموية ، ص ١٠١ . وقد خرج الطبري لأبي مخنف عن خلاف علي ومعاوية رضي الله عنهما ١١٦ رواية (ملحم : المؤرخون العرب والفتنة ، ص ٧٠) فبلغ ما خرجه له عن وقعة صفين ٦٤ رواية ، بينما لم يخرج لغيره في الحادثة نفسها سوى ٧ روايات فقط ، وهذه السبع لا تضارع بمجموعها رواية واحدة من روايات أبي مخنف ، فضلاً عن كون كل واحدة منها تتكلم عن أحداث جانبية (اليحيى : مرويات أبي مخنف ، ص ٢٧٩ ، ٤٨٨)

(٣) ولو تركنا تشيع أبي مخنف جانباً فإننا نجد منهجه في سرد مقاطع أحداث صفين يقوم على سوق رواياته من طريق ثم إكمالها من طريق آخر ، مخالفاً منهج الرواية في ذلك العصر القائم على سرد كل رواية على حده . كذلك يلاحظ فيما ذكره عن صفين كثرة الغرائب والمغالطات التاريخية ، وفوق ذلك فإنه بسبب أصله الأزدي ركز في رواياته على قبائل اليمن مشيداً برجالها وبطولاتهم في هذه الوقعة ، غير مكترث بدور القبائل الأخرى حتى نرى نسبة الروايات التي تذكر تلك القبائل إلى قبائل اليمن لا تزيد عن الربع ، بحيث يتصور القارىء أن قبائل اليمن وحدها في الميدان (اليحيى : مرويات أبي مخنف ، ص ٢٨٠ ، ٤٨٩) .

(٤) وقد قسمه مؤلفه إلى ثمانية أجزاء (نصر بن مزاحم ، وقعة صفين ، ص ٦٣٢-٦٣٩) .

(٥) ابن حجر : لسان الميزان ، جـ ٦ ، ص ١٥٧ .

(٦) اليحيى : مرويات أبي مخنف ، ص ٢٨٢ ، ٢٩٥ ، ٣٠٠ ، ٣٠٧ ، ٣١٧ ، ٣٢٧ ، ٣٣٨ ، ٣٧١ ، ٣٧١ ، ٤٠١ .

(٧) عبد العزيز محمد نور ولي : أثر التشيع على الروايات التاريخية في القرن الأول ، ص ٣٤٧-٣٤٨ ، ٣٥٠ .

أما إذا تصفحت الكتابات الحديثة في هذا الموضوع ألفيتها قد اعتمد أصحابها بشكل رئيس ـ إلا ما ندر ـ على ما نقله الطبري من روايات أبي مخنف، أو ما ساقه نصر بن مزاحم في كتابه صفين. ولنا أن نتساءل كيف تؤخذ أخبار معسكر معاوية ﷺ ويقوم موقفه من رواة متحزبين عليه، كارهين لـه ؟.

٢- وبالوقوف على ما أورده ابن أبي شيبة (ت ٢٣٥ هـ) في مصنفه عن وقعة صفين ـ وهو أشهر الذين خصصوا باباً لها في مصنفاتهم الحديثية، بل حسب ما تحت أيدينا من المصادر الحديثية الأولى يكاد يكون الوحيد الذي خُصص فيه بابٌ لوقعة صفين ـ بالوقوف على ما أورده من آثار وأخبار عن هذه الوقعة في ذلك الباب نلاحظ أنه ساق ثلاثة وأربعين حديثاً غالبها تكشف تقريباً عما دار في معسكر علي ﷺ، أما قليلها القليل فيعطي معلومات مشتركة بين المعسكرين، أو يشير إلى شيء غير ذي بال عما دار في معسكر معاوية ﷺ[(١)].

ب. أخبار صحيحة عن صفين والتحكيم: لقد تطرق بعض العلماء والباحثين قديماً وحديثاً للأخبار الواردة في صفين، سواء في كتب السنة أو التاريخ وغيرها، فمحصوا رواياتها، وميزوا صحيحها من ضعيفها، وقد توافر لدينا مجموعة من الأخبار الصحيحة التي ساقها هؤلاء عن هذه الوقعة، نذكر منها ما يلي:

١- ففيما يتعلق بوقعة صفين فإن أصل خلاف معاوية ﷺ مع علي ﷺ ورد بسند جيد أنه «جاء أبو مسلم الخولاني وأناس معه إلى معاوية فقالوا لـه: أنت تنازع علياً، أم أنت مثله ؟! فقال معاوية: لا والله إني لأعلم أن علياً أفضل مني، وإنه لأحق بالأمر مني، ولكن ألستم تعلمون أن عثمان قُتل مظلوماً، وأنا ابن عمه، وإنما أطلب بدم عثمان، فَأْتوه فقولوا لـه؛ فليدفع إلي قتلة عثمان وأسلم لـه، فأتوا علياً فكلموه بذلك، فلم يدفعهم إليه»[(٢)].

وعن التثبت في شرعية القتال ذكر الحاكم خبراً قال عنه صحيح الإسناد[(٣)] «عن

---

(١) ابن أبي شيبة: المصنف، جـ ٧، ص ٥٤٦- ٥٥٢.

(٢) ابن عساكر: تاريخ دمشق، جـ ٥٩، ص ١٣٢؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، جـ ٣، ص ١٤٠؛ ابن حجر: فتح الباري، جـ ١٣، ص ٨٦.

(٣) وقال الذهبي عنه على شرط مسلم: المستدرك، جـ ٥، ص ١٧٢٠. وانظر ابن أبي شيبة: المصنف، جـ ٦، ص ١٩٤، جـ ٧، ص ٥٣٨؛ ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق، جـ ٥٦، ص ٣٨٦.

عمير بن سعيد قال : أراد علي أن يسير إلى الشام ؛ إلى صفين ، واجتمعت النخع حتى دخلوا على الأشتر [النخعي] بيته فقال : هل في البيت إلا نخعي؟ قالوا : لا ، قال : إن هذه الأمة عمدت إلى خير أهلها فقتلوه ، يعني عثمان ، وإنا قاتلنا أهل البصرة ببيعة تأولنا عنه ، وإنكم تسيرون إلى قوم ليس لنا عليهم بيعة ، فلينظر كل امرئ أين يضع سيفه».

وورد أنه أثناء القتال أخذ بعض اتباع علي ﷺ يلعنون خصومهم من أهل الشام ، فأنكر عليهم علي ﷺ ذلك ، فقد جاء بسند صحيح عن عبد الله بن صفوان[١] قال « قال رجل يوم صفين : اللهم العن أهل الشام ، قال ، فقال علي: لا تسب أهل الشام ، جماً غفيراً ، فإن بها الأبدال ، فإن بها الأبدال ، فإن بها الأبدال »[٢]، كما أنكر عمار بن ياسر ﷺ ـ وهو من المتحمسين للقتال ـ من قال بكفر جيش معاوية ﷺ فقد روي عن زياد بن الحارث قال «كنت إلى جانب عمار بن ياسر بصفين ، وركبتي تمس ركبته ، فقال رجل : كفر أهل الشام ! فقال عمار : لا تقولوا ذلك ، نبينا ونبيهم واحد ، وقبلتنا وقبلتهم واحدة ، ولكنهم قوم مفتونون ، جاروا عن الحق ، فحق علينا أن نقاتلهم حتى يرجعوا إليه»[٣].

كما ورد بسند رجاله ثقات عن رباح بن الحارث أن عماراً ﷺ كان يقول «لاتقولوا: كفر أهل الشام ، ولكن قولوا : فسقوا ، ظلموا»[٤].

و عن علاقة المعسكرين المتقاتلين عند توقف المبارزات يقول أبو عبد الرحمن السلمي ـ كما ورد بسند رجال ثقات ـ «وكنا إذا توادعنا دخل هؤلاء في عسكر هؤلاء ، وهؤلاء في عسكر هؤلاء »[٥].

---

(١) فقيهي : خلافة علي ، ص ٢٠٧ ؛ العمري : عصر الخلافة الراشدة ، ص ٤٢٢ .

(٢) عبد الرزاق : المصنف ، جـ ١١ ، ص ٢٤٩ ؛ أحمد : فضائل الصحابة ، جـ ٢ ، ص ٩٠٥ ؛ ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق ، جـ ١ ، ص ٣٨٣ ، ٣٣٩ .

(٣) ابن أبي شيبة : المصنف ، جـ ٧ ، ص ٤٤٨ ، جـ ١٣ ، ص ٨٦ ؛ ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق ، جـ ١ ، ص٣٤٥ ، ٣٤٦ ؛ ابن حجر : فتح الباري ، جـ ١٣ ، ص ٨٦ . وإسناد هذا الخبر حسن لغيره (فقيهي : خلافة علي ، ص ٢١٩ حاشية ٢ ؛ العمري : عصر الخلافة الراشدة ، ص٤٢٣ حاشية ١).

(٤) ابن أبي شيبة : المصنف ، جـ ٧ ، ص ٥٤٧ ؛ المروزي : تعظيم قدر الصلاة ، جـ ٢ ، ص ٥٤٦ ؛ البيهقي : السنن الكبرى ، جـ ٨ ، ص ١٧٤ ؛ ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق ، جـ ١ ، ص ٣٤٦ ، ٣٤٧ ؛ ابن تيمية : منهاج السنة ، جـ ٥ ، ص ٢٤٦ ؛ اليحيى : مرويات أبي مخنف ، ص ٣٢٢ .

(٥) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق ، جـ ٤٣ ، ص ٤١٤ ؛ الهيثمي : مجمع الزوائد ، جـ ٧ ، ص٢٤١ .

وقد ورد ـ بسند صحيح[١] ـ عن رجل شهد صفين، اسمه عتبة أن عمرو بن العاص ﷺ بكى حين مُر عليه برجل من أصحاب علي ﷺ « وقال : لقد كان مجتهداً ...»[٢].

وكان الطرفان كلاهما ـ كما صح عن أبي أمامة رضي الله عنه، وقد شهد صفين ـ « لايجهزون على جريح، ولا يقتلون مولياً، ولا يسلبون قتيلاً »[٣].

وقد صح عن علي ﷺ أنه لم يستحل قتل الأسرى في صفين، وكان يدعوهم إلى بيعته، فعن أبي فاخته قال «حدثني جار لي قال : أتيتُ علياً بأسير يوم صفين، فقال لي: ارسله ! لا أقتله صبراً، إني أخاف الله رب العالمين، أفيك خير ؟ بايع، وقال للذي جاء به : لك سلبه »[٤]. وثبت بإسناد صحيح أن علياً ﷺ يستغفر له ولأهل الشام، فكان يقول « اللهم اغفر لي ولهم»[٥].

٢- وفيما يتصل بوقف القتال في صفين، والركون إلى التحكيم فقد صح خبره عن أبي وائل شقيق بن سلمة قال « ... إنه لما استحر القتل في أهل الشام بصفين اعتصم معاوية وأصحابه بجبل، فقال عمرو بن العاص : ارسل إلى علي بالمصحف، فلا والله لا يرده عليك، قال : فجاء به رجل يحمله ينادي بيننا وبينكم كتاب الله: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ (آل عمران، آية ٢٣)، قال : فقال علي : نعم بيننا وبينكم كتاب الله، أنا أولى به منكم، قال : فجاءت الخوارج، وكنا نسميهم يومئذ القراء، قال : فجاءوا بأسيافهم على عواتقهم، فقالوا :

يا أمير المؤمنين، لا ! نمشي إلى هؤلاء القوم حتى يحكم الله بيننا وبينهم ! فقام

---

(١) فقيهي : خلافة علي، ص ٢٤١، حاشية ٢ .

(٢) البلاذري : جمل من أنساب الأشراف، جـ ٣، ص ١٠٤ .

(٣) ابن أبي شيبة : المصنف، جـ ٦، ص ٤٩٨ ؛ البيهقي : السنن الكبرى، جـ ٨، ص١٨٢ ؛ الحاكم : المستدرك، جـ ٣، ص ١٠٠١ .

(٤) عبد الرزاق : المصنف، جـ ١٠، ص ١٢٤، فقيهي : خلافة علي، ص ٢٢٣ حاشية ٣، العمري : عصر الخلافة، ص ٤٢٤، حاشية ٥ . وروي أنه « كان علي إذا أتي بأسير يوم صفين أخذ دابته، وأخذ سلاحه، وأخذ عليه أن لا يعود، وخلى سبيله » (ابن أبي شيبة : المصنف، جـ٦، ص ٤٩٨، جـ ٧، ص ٥٤٩) .

(٥) ابن أبي شيبة : المصنف، جـ ٧، ص ٥٥٠، فقيهي : خلافة علي، ص ٢٠٧، حاشية ١ .

سهل بن حنيف فقال :

أيها الناس اتهموا أنفسكم ، لقد كنا مع رسول الله ﷺ يوم الحديبية ولو نرى قتالا لقاتلنا ، وذلك في الصلح الذي كان بين رسول الله ﷺ وبين المشركين [وذكر موقف عمر ﷺ] ... فقال علي:

أيها الناس أن هذا فتح ، فقبل علي القضية ورجع ، ورجع الناس ... »[(١)].

ففي هذا الخبر تصريح بأن معاوية ﷺ ـ بناءً على رأي عمرو بن العاص ﷺ ـ أرسل إلى علي ﷺ رجلاً يحمل مصحفاً ، يدعوه إلى تحكيم كتاب الله ، فقبل علي ﷺ ذلك على الفور ، وأوقف القتال ؛ فعارضه القراء الذين في جيشه[(٢)]، ولكنه لم يلتفت إليهم لما دعي إلى كتاب الله تعالى .

وهذا يخالف ما اشتهر في كثير من المراجع الحديثة المعتمدة على روايات أبي مخنف وغيره من الإخباريين التي تزعم أن عموم جيش معاوية ﷺ رفع أفراده المصاحف ، وأن علياً ﷺ لم يرغب في وقف القتال ، ومن ثم التحكيم إلا بعد أن رفض جيشه ـ وبخاصة القراء ـ مواصلة القتال ، فوافق على ما أرادوا مضطراً [(٣)].

---

(١) ابن أبي شيبة : المصنف ، جـ ٧ ، ص ٥٥٨ ؛ أبو يعلى : مسند أبي يعلى ، جـ ١ ، ص ٣٦٥ ؛ الهيثمي : مجمع الزوائد ، جـ ٦ ، ص ٢٣٧- ٢٣٨ . قال الهيثمي : « ورجاله رجال الصحيح » . وقد روي بروايات أخرى تختلف ببعض الألفاظ (أحمد : المسند ، جـ ٣ ، ص ٦٣٨ ؛ النسائي : السنن الكبرى ، جـ ٦ ، ص ٤٦٣) وقد ورد الخبر بالسند نفسه عن أبي وائل في الصحيحين ، ففي البخاري فقط قول رجل (ألم تر الى الذين ... إلخ) ، وموافقة علي ﷺ ، ثم كلام سهل بن حنيف ﷺ عن الحديبية (الصحيح ، جـ ٣ ، ١١٢٦ ، جـ ٤ ، ص ١٨٣٢) وفي مسلم ذكر فقط لقيام سهل بن حنيف وكلامه عن صلح الحديبية (الصحيح ، جـ ٣ ، ص ١٤١١- ١٤١٢) ووردت رواية أخرى لكلام سهل ﷺ ، عن الأعمش قال «سألت أبا وائل ، شهدت صفين ؟ قال : نعم ، فسمعت سهل بن حنيف يقول : اتهموا رأيكم ، رأيتني يوم أبي جندل ولو أستطيع أن أرد أمر النبي ﷺ لرددته ، وما وضعنا أسيافنا على عواتقنا لأمر يفظعنا إلا أسهلن بنا إلى أمر نعرفه ، غير أمرنا هذا » (البخاري : الصحيح جـ ٣ ، ص١١٦١ ؛ مسلم : الصحيح ، جـ ٣ ، ص ١٤١١) .

(٢) يظهر أن هناك صلة بين موقف هؤلاء القراء (الخوارج) المتطرف في رفضهم التحكيم وبين الخوف من نتائجه التي سيكون من بينها معاقبة قتلة عثمان ﷺ ، وبخاصة أن بعض رؤوسهم كانوا ضالعين في ذلك (الملاح : الوسيط في السيرة النبوية والخلافة الراشدة ، ص ٤٥٨) راجع ابن حجر : فتح الباري ، جـ ١٣ ، ص ٥٠٥ .

(٣) أن رواية رفع المصاحف ، وطلب علي ﷺ الاستمرار في القتال ، وإرغام القراء له بوقف القتال وقبول التحكيم ـ غير مقبولة سنداً لأنها كما في المتن من رواية أبي مخنف ومن على شاكلته من الضعفاء والمتروكين (اليحيى : مرويات أبي مخنف ، ص ٣٧٨- ٣٧٩ ، ٤٠٤ ، ٤٠٧ ، ٤١٥) كما أنها غير مقبولة متناً ، فهي لا تستقيم مع الأحداث التالية ، إذ كيف يرغمه القراء على وقف القتال والصلح ، ثم بعد قليل يخرجون عليه ويكفرونه =

وحول مسألة اختيار علي ﷺ لأبي موسى الأشعري ﷺ ، وإقناعه به ممثلاً عنه في التحكيم ورد بسند حسن[١]« أن الأحنف بن قيس قال لعلي ـ حين أراد أن يحكم أبا موسى ـ : إنك تبعث رجلاً من أهل القرى ... فابعثني مكانه ، آخذ لك بالوثيقة ، وأضعك في هذا الأمر بحيث أنت ، فقال ابن عباس : دعنا يا أحنف ، فإنا أعلم بأمرنا منك»[٢]. فهذا الخبر الصحيح يرد ما تصوره الروايات الضعيفة المشتهرة من أن أبا موسى ﷺ فُرِضَ على علي ﷺ فرضاً من قبل جيشه وهو لا يرغب فيه[٣].

ومما صح خبره أن علياً ﷺ لم يمانع في كتابة اسمه مجرداً من لقب أمير المؤمنين في وثيقة الصلح التي تقرر على ضوئها اجتماع الحكمين ، فقد ورد بسند حسن في حديث مناقشة ابن عباس ﷺ للخوارج أنهم أخذوا على علي ﷺ ذلك فقالوا « إنه محا نفسه من أمير المؤمنين » ، وقد صدقهم ابن عباس ﷺ في قولهم ، وبين أن موافقة علي ﷺ على ذلك لا يغير شيئاً من الواقع محتجاً بموافقة الرسول ﷺ للمشركين في الحديبية حينما طالبوه بعدم كتابة « رسول الله » في وثيقة الصلح ، ثم قال « فوالله لرسول الله خير من علي ، وما أخرجه من النبوة حين محا نفسه »[٤].

ج ـ **وقفات عند وقعة صفين** : إن الذين حضروا وقعة صفين من الصحابة كانوا قلة ، فقد صح عن محمد بن سيرين قوله « هاجت الفتنة وأصحاب رسول الله ﷺ عشرات الألوف فلم يحضرها منهم مائة ؛ بل لم يبلغوا ثلاثين »[٥].

ولا ريب أن هذا من كمال فقه الصحابة ﷺ ، إذ فرقوا بين صحة إمامة علي ﷺ

= بسبب قبوله التحكيم ، وهو قد نزل على رأيهم ، ووافقهم على ما يريدون ؟ (فقيهي : خلافة علي ، ص ٢٣١-٢٣٢) ثم إن مسألة رفع عموم جيش معاوية ﷺ مصاحف فيها نظر ، إذ يقتضي عدداً كبيراً من المصاحف ، وهذا لا يتوفر في ذلك الزمن المبكر ، فوسائل الكتابة وموادها محدودة بحيث لا يمكن أن تسمح بكتابة نسخ كثيرة يحملها أكثرية الجيش الشامي (ابن دحية : أعلام النصر المبين في المفاضلة بين أهلي صفين ، ص ١١٢ ، حاشية ١) .

(١) العمري : عصر الخلافة الراشدة ، ص ٤٢٨ ، حاشية ١ .

(٢) البلاذري : جمل من أنساب الأشراف ، جـ ٣ ، ص ١٠٥ .

(٣) فقيهي : خلافة علي ، ص ٢٣٥ ؛ العمري : عصر الخلافة الراشدة ، ص ٤٢٧ .

(٤) البسوي : المعرفة والتاريخ ، جـ ١ ، ص ٥٢٣ – ٥٢٤ ؛ النسائي : خصائص أمير المؤمنين علي ، ص ١٩٩-٢٠٠ ؛ الحاكم : المستدرك ، جـ ٣ ، ص ٩٩٧- ٩٩٨ ؛ ضياء الدين المقدسي : الأحاديث المختارة ، جـ ١٠ ، ص ٤١٤- ٤١٥ ؛ الهيثمي : مجمع الزوائد ، جـ ٦ ، ص ٢٤٠ .

(٥) ابن كثير : خلافة علي ، ص ٨٤ .

ووجوب القتال معه ضد أهل القبلة[١]. وعند تتبع أسماء من شهد صفين من أهل بدر نجد عددهم لا يتجاوز التسعة[٢]، بينما لا يتجاوز عدد الذين شهدوها من غير البدريين العشرين صحابياً [٣].

- من الأحاديث الصحيحة المشهورة المتواترة عن جماعة من الصحابة قول الرسول ﷺ في عمار بن ياسر رضي الله عنه (**تقتله الفئة الباغية**)[٤]، لكن مما ينبغي إدراكه أن هذا الحديث لم يشتهر نصه قبل استشهاد عمار رضي الله عنه في وقعة صفين كما حقق ذلك أحد الباحثين[٥].

ثم أنه لو اشتهر قبل صفين فإن التعبير بالفئة الباغية تعبير مطلق غير واضح السمات ، بحيث يتفق على معرفتها عامة المسلمين ، فالفئة الباغية في حادثة سابقة عرفها المسلمون في حياة النبي ﷺ لا تنطبق تمام الانطباق على ما وقع بين علي رضي الله عنه ومعاوية رضي الله عنه ، كما أن معاوية رضي الله عنه لم يبدأ علياً رضي الله عنه بالقتال . يقول ابن تيمية[٦].

«والقتال يوم الجمل وصفين فيه نزاع : هل هو من باب قتال البغاة المأمور به في القرآن ، أو هو قتال فتنة القاعد فيه خير من القائم ؟ فالقاعدون من الصحابة وجمهور أهل الحديث والسنة وأئمة الفقهاء بعدهم يقولون هو قتال فتنة ، ليس هو قتال البغاة المأمور به في القرآن ؛ فإن الله لم يأمر بقتال المؤمنين البغاة ابتداء لمجرد بغيهم ، بل إنما أمر إذا اقتتل المؤمنون بالإصلاح بينهم . وقوله ﴿ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ ﴾ (الحجرات ، آية ٩) يعود الضمير فيه إلى الطائفتين المقتتلتين من المؤمنين لا يعود إلى طائفة مؤمنة لم تقاتل ، فالتقدير فإن بغت إحدى الطائفتين المؤمنتين المقتتلتين على الأخرى فقاتلوا الباغية حتى تفيء إلى أمر الله ، فمتى كانت طائفة باغية ولم تقاتل لم يكن في الآية أمر بقتالها .

ثم إن كان قوله (فإن بغت إحداهما على الأخرى) بعد الإصلاح فهو أوكد ،

---

(١) ابن دحية : أعلام النصر ، ص ٧١ ، حاشية ٣ .

(٢) فقيهي : خلافة علي ، ص ٢٤٨- ٢٤٩ .

(٣) ابن دحية : أعلام النصر ، ص ٧٣ ، حاشية .

(٤) البخاري : الصحيح ، جـ ١ ، ص ١٧٢ ، جـ ٣ ، ص ١٠٣٥ ؛ مسلم : الصحيح ، جـ ٤ ، ص ٢٢٣٦ . لمعرفة الصحابة الذين رووا الحديث راجع ابن حجر : فتح الباري ، جـ ١ ، ص ٥٤٣ .

(٥) فقيهي : خلافة علي ، ص ٢١١ ، ٢١٦- ٢١٨ .

(٦) منهاج السنة ، جـ ٤ ، ص ٥٠٢ - ٥٠٣ .

وإن كان بعد الاقتتال حصل المقصود . وحينئذ فأصحاب معاوية إن كانوا قد بغوا قبل القتال لكونهم لم يبايعوا علياً فليس في الآية الأمر بقتال من بغى ولم يقاتل ، وإن كان بغيهم بعد الاقتتال والإصلاح وجب قتالهم ، لكن هذا لم يوجد ؛ فإن أحداً لم يصلح بينهما ، ولهذا قالت عائشة رضي الله عنها (هذه الآية ترك الناس العمل بها) يعني إذ ذاك».

ومن ناحية أخرى يمكن القول إن مقتل عمار ﷺ قبل صفين كان في علم الغيب ، فقد يقتل في حرب مع أهل الشام أو مع غيرهم ، وقد يكون في صف علي ﷺ أو صف غيره ، فكل هذا كان وارد الحدوث .

ولذلك فإن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ لما قتل عمار ﷺ ذكر حديث (**تقتله الفئة الباغية**) فقد روي بسند صحيح عن حنظلة بن خويلد العَنَزِي قال « بينما أنا عند معاوية إذ جاءه رجلان يختصمان في رأس عمار ، يقول كل واحد منهما : أنا قتلته ، فقال عبد الله بن عمرو : لِيَطب به أحدكما نفساً لصاحبه ، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول (**تقتله الفئة الباغية**) ، قال معاوية [أي لعبد الله بن عمرو]: فما بالك معنا ؟ قال : إن أبي شكاني إلى رسول الله ﷺ فقال (**أطع أباك ما دام حياً ولا تعصه**) فأنا معكم ، ولست أقاتل»[1].

فعبد الله بن عمرو ﷺ لم يمنعه وجوده في جيش معاوية ﷺ من أن يروي هذا الحديث ، ويظهر أن قتل عمار ﷺ في المعركة لم يتأكد إلا بعد توقف القتال في صفين ، يشهد بذلك ما ورد بسند صحيح في رواية أخرى عن عبد الله بن الحارث قال «إني لأسير مع معاوية في منصرفه من صفين ، بينه وبين عمرو بن العاص ، قال : فقال عبد الله بن عمرو بن العاص : يا أبتِ ! ما سمعت رسول الله ﷺ يقول لعمار (ويحك يا بن سمية ! تقتلك الفئة الباغية) قال : فقال عمرو لمعاوية : ألا تسمع ما يقول هذا ؟ فقال معاوية : لا تزال تأتينا بِهَنَةٍ [أي بالأمر العظيم أو الشديد] ، أنحن قتلناه ؟ إنما قتله الذين جاءوا به »[2].

---

(١) أحمد : المسند ، تحقيق شاكر ، جـ ١٠ ، ص ٤٨ - ٤٩ ؛ الهيثمي : مجمع الزوائد ، جـ ٧ ، ص ٢٤٤ .
(٢) أحمد : المسند ، تحقيق شاكر ، جـ ٩ ، ص ٢٠٩ - ٢١٠ ؛ ابن كثير : خلافة علي ، ص ٩٤ .

- من النصوص النبوية التي ظهر أن معاوية ﷺ عزز بها موقفه حين واجه بجيشه جيش علي ﷺ ما جاء بسند حسن أن النبي ﷺ ذكر الفتنة فقال عن عثمان ﷺ « هذا يومئذ وأصحابه على الحق والهدى »(١)، وفي رواية سندها صحيح قوله « لتخرجن فتنة من تحت قدمي أو من بين رجلي هذا [يعني عثمان] ، هذا يومئذ ومن اتبعه على الهدى»(٢).

وقصة اعتبار معاوية ﷺ هذا الحديث حجة في مواجهته مع علي ﷺ وردت بسند صحيح عن جبير بن نفير قال « كنا معسكرين مع معاوية بعد قتل عثمان ﷺ ، فقام مرة بن كعب البهزي فقال : أنا والله لولا شيئاً سمعته من رسول الله ﷺ ما قمت هذا المقام قال : فلما سمع معاوية ذكر رسول الله ﷺ أجلس الناس ، فقال [مرة] : بينا نحن عند رسول الله ﷺ جلوس إذ مر عثمان مُرَجّلاً ، فقال رسول الله ﷺ (**لتخرجن فتنة من تحت رجلي ، أو من تحت قدمي هذا ، يومئذ ومن معه على الهدى**) ، فقمت حتى أخذت بمنكب عثمان حتى لفته إلى رسول الله ﷺ فقلت : هذا ؟ قال : (نعم ، هذا يومئذ ومن اتبعه على الهدى) ، فقام عبد الله بن حوالة الأزدي من عند المنبر فقال : إنك لصاحب هذا ؟ قال : نعم ، قال : أما والله إني لحاضر ذلك المجلس ، ولو كنت أعلم أن لي في الجيش مصدقاً لكنت أول من تكلم به »(٣). وفي رواية قال «فسُرَّ معاوية ﷺ والناس ، وفرحوا»(٤). فلعل معاوية ﷺ ومن التحق بجيشه رأوا - والله أعلم - أنهم على الحق بناءً على ما جاء في هذا الحديث .

- نقل ابن العربي(٥)(ت ٥٤٣ هـ) عن الدارقطني بسنده إلى حضين بن المنذر أنه «لما عزل عمرو معاوية جاء [أي حضين] فضرب فسطاطه قريباً من فسطاط معاوية ،

---

(١) الغبان : فتنة مقتل عثمان ، جـ ١ ، ص ٢٥٥ .
(٢) الألباني : سلسلة الأحاديث الصحيحة.، جـ ٨ ، ص ١٢٦ .
(٣) أحمد : المسند ، تحقيق شعيب الأرنؤوط ، جـ ٤ ، ص ٣٣٦ ؛ الطبراني : مسند الشاميين ، جـ ٣ ، ص ١٥١-١٥٢ ؛ ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق ، جـ ٣٩ ، ص ٣٧٤ ؛ ابن حجر : الإصابة ، جـ ٨ ، ص ٨٠-٨١ ؛ الهيثمي : مجمع الزوائد ، جـ ٩ ، ص ٨٩ ؛ يحيى علي الحجوري : الرياض المستطابة في صحيح وضعيف مفاريد الصحابة ، ص ٢٢٤ .
(٤) ابن أبي عاصم : الآحاد والمثاني ، جـ ٣ ، ص ٦٦ .
(٥) العواصم من القواصم ، ص ١٨٠ .

فبلغ ثناه معاوية [أي عزله] ، فأرسل إلي [أي أرسل معاوية إلى حضين] فقال : إنه بلغني عن هذا [أي عن عمرو] كذا وكذا ، فاذهب فانظر ما هذا الذي بلغني عنه ، فأتيته فقلت :

أخبرني عن الأمر الذي وليت أنت وأبو موسى كيف صنعتما فيه ؟ قال : قد قال الناس في ذلك ما قالوا ، والله ما كان الأمر على ما قالوا ، ولكن قلت لأبي موسى : ما ترى في هذا الأمر ؟ قال :

أرى أنه في النفر الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راضٍ ، قلت : فأين تجعلني أنا ومعاوية ؟ فقال :

إن يستعن بكما ففيكما معونة ، وإن يستغن عنكما فطالما استغنى أمر الله عنكما ، قال:

فكانت هي التي قتل معاوية منها نفسه ، فأتيته فأخبرته أن الذي بلغه عنه كما بلغه ... » . وهذا الخبر نقله ابن عساكر[1] بسنده إلى حضين بن المنذر أيضاً ، ولكن جاء الكلام في مطلعه مخالفاً لما ورد هنا ، حيث يقول فيه « لما عزل معاوية عمرو بن العاص عن مصر ضرب فسطاطه قريباً من فسطاط معاوية ... »[2]، ثم ذكر حضين خبر إرساله إلى عمرو ﷺ من قبل معاوية ﷺ ، وفرق بين مطلع رواية الدارقطني ومطلع رواية ابن عساكر ، فالأولى تفيد أن عمراً ﷺ عزل معاوية ﷺ ، يعني عن إمارة الشام في إطار تشاوره مع أبي موسى ﷺ للخروج من الأزمة الخطيرة التي كانت تمر بها آنذاك الأمة .

بينما مطلع الرواية الثانية يفيد أن قصة إرسال حضين إلى عمرو ﷺ جرت حين عَزل معاوية ﷺ عمراً ﷺ عن مصر ، ومثل هذا القول فيه نكارة ، إذ لم نسمع أن معاوية ﷺ عَزل عمراً ﷺ عن مصر منذ أن وليها بعد فشل التحكيم في أوائل سنة ٣٨ هـ حتى وفاته سنة ٤٣ هـ[3]. ثم إن عبد الله بن مضارب راوي الخبر عن حضين بن المنذر في كلا الروايتين اختلف العلماء في توثيقه بين موثق ومضعف[4].

---

(١) تاريخ مدينة دمشق ، جـ ٤٦ ، ص ١٧٥ .
(٢) أورد البخاري مطلع هذه الرواية (التاريخ الكبير ، جـ ٥ ، ص ٣٩٨) .
(٣) الكندي : ولاة مصر ، ص ٥٤ – ٥٧ .
(٤) عبد الله بن مضارب أتى اسمه أيضاً مصغراً ، أي عبيد الله ، فذكره ابن أبي حاتم وابن حبان ويعقوب بن سفيان في الثقات (ابن حجر : تهذيب التهذيب ، جـ ٦ ، ص ٣٠) ويقول عنه الذهبي أنه من صغار التابعين « لا يعرف» (لسان الميزان ، جـ ٣ ، ص ٣٦٢) .

وعلى العموم لو صحت هذه الرواية فإنها تعرفنا بكلام عام ما تداوله الحكمان في دومة الجندل ، إذ تشاورا في إبعاد الخصمين المختلفين ، ومن ثم اختيار أحد من بقي من الصحابة الذين توفي النبي ﷺ وهو عنهم راضٍ[١] ، ولكن ما اقترحاه لم يحضَ بالقبول ، ولم يحل الإشكال ، فبقيت القضية معلقة ، لاسيما وقد انشغل علي ﷺ عنها بما انشق عليه من الخوارج الذين أخذوا كثيراً من جهده ووقته وتفكيره .

ويروى أن علياً ﷺ « لما رجع ... من صفين علم أنه لا يملك أبداً ، فتكلم بأشياء كان لا يتكلم بها ، وحدث بأحاديث كان لا يتحدث بها ، فقال فيما يقوله : أيها الناس ! لا تكرهوا إمارة معاوية ، والله لو قد فقدتموه لقد رأيتم الرؤوس تنزو من كواهلها كالحنظل »[٢].

- في الأخير نشير إلى أنه بدا على من شارك من الصحابة في وقعة صفين الندم بعد أن رأوا نتائجها ، فقد ورد عن أبي وائل ﷺ قوله « شهدت صفين ، وبئست صفين !»[٣].

وقد ذكر ابن تيمية[٤] أن علياً ﷺ نفسه « كان يقول ليالي صفين يا حسن ! يا حسن ! ما ظن أبوك أن الأمر يبلغ هذا ، لله در مقام قامه سعد بن مالك وعبد الله بن عمر ، إن كان بِـراً إن أجره لعظيم ، وإن كان إثماً إن خطره ليسير »[٥]. ويروى عن

---

(١) شاع في كثير من المؤلفات الحديثة أن عمرو بن العاص ﷺ تحايل على أبي موسى ﷺ في عزل علي ﷺ ، ثم مكر به وخدعه وثبت صاحبه معاوية ﷺ ، وحكاية التحكيم بهذا السياق إنما هو من رواية الإخباريين الضعفاء والمتروكين والكذابين كالواقدي وأبي مخنف ونصر بن مزاحم ، أو من روايات المحدثين الضعيفة . راجع ذلك مفصلاً في (فقيهي : خلافة علي ، ص ٢٨٢- ٢٨٩ ؛ اليحيى : مرويات أبي مخنف ، ص ٤٠٣-٤٠٧) ثم إن مثل هذا التصرف الذي نسب إلى عمرو ﷺ حسبما حكته تلك الروايات يأبى فعله كثير من عوام المسلمين ، فكيف يفعله رجل من الصحابة البارزين أُمِن على حل قضية خطيرة كقضية التحكيم التي يترتب عليها حاضر المسلمين آنذاك ومستقبلهم ؟ .

(٢) ابن أبي شيبة : المصنف ، تحقيق الجمعة واللحيدان ، جـ ١٤ ، ص ٢٧٣ ؛ ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق ، جـ٥٩ ، ص ١٥٢ . وفي سنده مجالد بن سعيد الهمداني الكوفي ، وهو ضعيف (ابن أبي حاتم : الجرح والتعديل ، جـ ٨ ، ص ٣٦١) .

(٣) البخاري : الصحيح ، جـ ٦ ، ص ٢٦٦٥ .

(٤) منهاج السنة ، جـ ٨ ، ص ١٤٥ . وراجع المصدر نفسه ، جـ ٦ ، ص ٦ ، ص ٢٠٩ ، مجموع الفتاوى ، جـ ٤ ، ص ٤٤٠ .

(٥) ورد في رواية أن علياً ﷺ قال «لله منزل نزله سعد بن مالك وعبد الله بن عمر ، والله لئن كان ذنباً إنه =

أحدهم أنه « سمع عليا يقول يوم صفين ـ وهو عاض على شفته ـ لو علمتُ أن الأمر يكون هكذا ما خرجتُ ... »[(١)].

ثالثاً ـ قتال علي ﷺ الخوارج : رأينا فيما سلف من خلال الرواية الصحيحة أن علياً ﷺ لما عرض عليه معاوية ﷺ في أثناء معركة صفين كتاب الله لتحكيمه فيما شجر بينهما ـ بادر بالقبول ، وأوقف القتال على الفور ، ولكن طائفة من جيشه كرهت ذلك ، ورغبت في الميل على معاوية ﷺ وأصحابه الذين اعتصموا بحبل وقتالهم ، ولما لم يوافقهم على رأيهم بدأوا بالتذمر منه ومخالفته ، وتؤكد المصادر أن علياً ﷺ حين دخل الكوفة عائداً من صفين أعلن هؤلاء المعارضون انحيازهم إلى حروراء[(٢)]، قرية بظاهر الكوفة على بعد حوالي ميلين منها [(٣)]، وفي خبر إسناده صحيح يوضح شاهد عيان ، اسمه عبد الله بن شداد ـ لما سألته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عن قصة علي ﷺ مع هؤلاء ـ يوضح ما جرى بقوله

« ... إن علياً ﷺ لما كاتب معاوية ، وحكم الحكمان خرج عليه ثمانية آلاف من قراء الناس[(٤)]، فنزلوا بأرض يقال لها حروراء ... ، وإنهم عتبوا عليه فقالوا : انسلختَ من قميصٍ ألبسكَهُ اللهُ تعالى ، واسمٍ سماكَ اللهُ تعالى به ، ثم انطلقتَ فحكمتَ في دين الله ، فلا حكم إلا لله تعالى .

فلما أن بلغ علياً ﷺ ما عتبوا عليه ، وفارقوه عليه ، فأمر مُؤَذِّناً فأَذّن ، أن لايدخل على أمير المؤمنين إلا رجل قد حمل القرآن ، فلما أن امتلأت الدار من قراء الناس دعا بمصحفٍ إمامٍ عظيمٍ ، فوضعه بين يديه ، فجعل يصكه بيده ، ويقول :

= لصغير مغفور ، وإن كان حسناً إنه لعظيم مشكور ». وقد عقب عليها الذهبي بقوله « ما أحسنها لولا أنها منقطعة السند » (عهد الخلفاء الراشدين ، ص ٥٥٣) راجع أيضاً ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق ، جـ ٢٠ ، ص ٣٥٧؛ الهيثمي : مجمع الزوائد ، جـ ٧ ، ص ٤٩٣ .

(١) ابن أبي شيبة : المصنف ، تحقيق الجمعة واللحيدان ، جـ ١٤ ، ص ٢٧٢-٢٧٣ .

(٢) ابن أبي شيبة : المصنف ، جـ ١٤ ، ص ٢٩٠ ؛ البلاذري : جمل من أنساب الأشراف ، جت ٣ ، ص ١١٤ ؛ الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٥ ، ص ٦٣ .

(٣) ياقوت : معجم البلدان ، جـ ٢ ، ص ٢٤٥ .

(٤) القراء في زمن الفتنة يراد بهم كما يقول ابن حجر « الذين قاموا على عثمان وأنكروا عليه أشياء اعتذر عن فعلها ، ثم كانوا مع علي ، ثم خرجوا بعد ذلك على علي » (فتح الباري ، جـ ١٣ ، ص ٥٠٥) .

أيها المصحف حدث الناس ! فناداه الناس فقالوا :

يا أمير المؤمنين ! ما تسأل عنه ؟ إنما هو مداد في ورق ، ونحن نتكلم بما روينا منه ، فماذا تريد ؟ قال : أصحابكم هؤلاء الذين خرجوا ، بيني وبينهم كتاب الله ، يقول الله تعالى في كتابه في امرأة ورجل: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ﴾ (النساء ، آية ٣٥) فأمة محمد ﷺ أعظم دماً وحرمة من امرأة ورجل .

ونقموا على أن كاتبت معاوية : كتب علي بن أبي طالب ، وقد جاءنا سهيل بن عمرو ونحن مع رسول الله ﷺ بالحديبية حين صالح قومه قريشاً ، فكتب رسول الله ﷺ بسم الله الرحمن الرحيم ، فقال سهيل : لا تكتب بسم الله الرحمن الرحيم ، فقال : كيف نكتب ؟ فقال : اكتب باسمك اللهم ، فقال رسول الله ﷺ فاكتب محمد رسول الله ، فقال: لو أعلم أنك رسول الله لم أخالفك ، فكتب : هذا ما صالح محمد بن عبد الله قريشاً ، يقول الله تعالى في كتابه: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ ﴾ (الأحزاب ، آية ٢١) ».

وتابع ابن شداد حاكياً ما جرى منهم قائلاً « فبعث إليهم عليٌّ عبدَ الله بن عباس ﷺ ، فخرجت معه حتى إذا توسطنا عسكرهم قام ابن الكواء [عبد الله بن الكواء أحد زعمائهم] يخطب الناس فقال : يا حملة القرآن ! إن هذا عبدُ الله بن عباس ... فمن لم يكن يعرفه فأنا أُعرّفه من كتاب الله ما يعرفه به ؛ هذا ممن نُزل فيه وفي قومه: ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ (الزخرف ، آية ٥٨) فردوه إلى صاحبه ولا تواضعوه كتاب الله .

فقام خطباؤهم فقالوا : والله لنواضعنَّه كتابَ الله فإن جاء بحق نعرفه لنتبعَنَّه ، وإن جاء بباطل لنبكتَنَّه بباطله ، فواضعوا عبدَ الله الكتابَ ثلاثةَ أيام ، فرجع منهم أربعةُ آلاف كلهم تائب ، فيهم ابن الكواء حتى أدخلهم على علي الكوفة.

فبعث علي ﷺ إلى بقيتهم فقال : قد كان من أمرنا وأمر الناس ما قد رأيتم ، فقفوا حيث شئتم حتى تجتمع أمة محمد ﷺ ، بيننا وبينكم أن لا تسفكوا دماً حراماً ، أو تقطعوا سبيلاً ، أو تظلموا ذمة ؛ فإنكم إن فعلتم فقد نبذنا إليكم الحرب على سواء ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا

يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾ (الأنفال ، آية٥٨) ... »[١].

وفيما يتعلق بما وردت الإشارة إليه هنا من مناظرة ابن عباس ﷺ لهؤلاء الجماعة فقد جاء ذلك مفصلاً في خبر ـ سنده حسن ـ ، ملخصه أنه ذهب إليهم في دار لهم ، وطلب منهم أن يعرضوا عليه ما نقموا على علي ﷺ ، فقالوا هن ثلاث:

الأولى : أنه حكم الرجال في أمر الله .

والثانية : أنه قاتل ولم يسبِ ولم يغنم.

والثالثة : أنه محا نفسه من أمير المؤمنين ، فأجابهم ابن عباس ﷺ عن الأولى والثالثة بجواب قريب من جواب علي ﷺ الوارد في الخبر السابق.

وأما عن الثانية فقد رد عليهم متسائلاً «أتسبون أمكم عائشة ؟ ... فإن قلتم إنا نستحل منها ما نستحل من غيرها فقد كفرتم ، وإن قلتم : ليست بأمنا فقد كفرتم ، فأنتم بين ضلالتين فأتوا منها بمخرج ، أفخرجتُ من هذه ؟ قالوا نعم ... »[٢].

من خلال ما سقناه آنفاً يتضح أن الذين اعتزلوا علياً ﷺ وخرجوا عليه كان اختلافهم معه في البداية يقوم على ثلاثة أمور :

الأول : أنه قَبِل التحكيم مع معاوية ﷺ ، وحكم الرجال ، ولا حكم إلا لله حسب فهمهم .

والثاني : أنه محا نفسه من إمرة المؤمنين عند كتابة وثيقة التحكيم.

والثالث : أنه لم يسبِ من قاتلهم ، سواء في الجمل أو صفين . وباعتراضهم عليه بفهم مغلوط ، وحجج واهية ، ومن ثم خروجهم عليه بصفته خليفة المسلمين ـ سموا الخوارج[٣]، وكانوا يسمون من قبل القراء ، وبانحيازهم إلى قرية حروراء عرفوا

---

(١) أحمد : المسند ، تحقيق شاكر ، جـ ٢ ، ص ٦٦- ٦٨ ؛ الضياء المقدسي : الأحاديث المختارة ، جـ ٢ ، ص ٢٢٢- ٢٢٤ ؛ ابن كثير : خلافة علي ، ص ١١١- ١١٢ .

(٢) النسائي : خصائص أمير المؤمنين علي ، ص ١٩٥- ٢٠٠ ؛ الحاكم : المستدرك ، جـ ٣ ، ص ٩٩٧- ٩٩٨ ؛ الضياء المقدسي : الأحاديث المختارة ، جـ ١٠ ، ص ٤١٣- ٤١٥ ؛ الهيثمي : مجمع الزوائد ، جـ ٦ ، ص ٢٣٩- ٢٤١ .

(٣) هناك اجماع أو شبه اجماع بين مصنفي الفرق أن مصطلح أو لفظ الخوارج إذا اطلق فإنه يقصد بـه أولئك الجماعـة التي خرجت على علي ﷺ بسبب قبوله التحكيم ، فانفصلت عن جيشه وكفرته ، ثم استحلت دماء من خالفهـا =

بالحرورية[١]، وباتخاذهم عبارة « لا حكم إلا لله» شعاراً يرددونه سموا المحكمية[٢]، أو المحكمة[٣].

ونلاحظ أن علياً ﷺ بمجرد أن سمع بما أثاره هؤلاء الخوارج عنه من شُبَهٍ جمع الناس وفند تلك الشبه بعلم مستمد من الكتاب والسنة ، و لم يكتفِ بذلك ؛ بل أرسل عبد الله بن عباس ﷺ إليهم في معتزلهم حروراء ليحاورهم فيما اشتبه عليهم ، وقد لبث فيهم ابن عباس ﷺ ثلاثة أيام ، وناظرهم فيما أشكل عليهم حتى رجع إلى الحق منهم أربعة آلاف ، أي نصف عددهم وقتها [٤].

أما الذين بقوا على ضلالتهم فقد بعث إليهم أنه لن يتعرض لهم ما داموا ملتزمين بثلاثة شروط ؛ أن لا يسفكوا دماً حراماً ، ولا يقطعوا سبيلاً ، ولا يظلموا ذمة .

وثمة روايات تشير إلى أن علياً ﷺ أرسل رسلاً غير ابن عباس ﷺ لإقناع أهل

= من المسلمين ، وثمة طائفة من أهل العلم يرجع نشأة الخوارج إلى زمن النبي ﷺ حين اعترض عليه في قسمة قسمها ذو الخويصرة التميمي ، ويطلق ابن كثير على المتمردين على عثمان ﷺ لفظ الخوارج ، ولكن على الرغم من الارتباط القوي بين ذي الخويصرة وبين الخوارج الذين خرجوا على علي ﷺ إلا أن مصطلح الخوارج بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة لم يطلق بداية إلا على الخارجين على علي ﷺ بسبب التحكيم الذين شكلوا جماعة خاصة ، لها اتجاهها السياسي ، وآراؤها العقدية والفكرية ، ثم أصبح يوصم به بعدهم كل من حمل فكرهم ، وتبنى آراءهم (غالب عواجي : الخوارج ، ص ٣٧-٤٧ ؛ فقيهي : خلافة علي ،.ص ٢٩٦-٢٩٧)

أما حديث ذي الخويصر فقد روى أبو سعيد الخدري ﷺ قال «بينما نحن عند رسول الله ﷺ وهو يقسم قسماً أتاه ذو الخويصرة ، وهو رجل من بني تميم ، فقال : **يا رسول الله اعدل ! فقال : (ويلك ، ومن يعدل إذا لم أعدل ؟ قد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل)** ، فقال عمر : يا رسول الله ائذن لي فيه فأضرب عنقه ؟ فقال (**دعه ، فإن له أصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم ، وصيامه مع صيامهم ، يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ... الحديث** » (البخاري : الصحيح ، جـ ٣ ، ص ١٣٢١ ؛ جـ ٥ ، ص ٢٢٨١ ، جـ ٦ ، ص ٢٥٤٠-٢٥٤١ ؛ مسلم الصحيح ، جـ ٢ ، ٧٤١) .

(١) ياقوت : معجم البلدان ، جـ ٢ ، ص٢٤٥ ؛ ابن حجر : فتح الباري ، جـ ١ ، ص١٠٤ ، جـ ٨ ، ص ٤٢٥ ، جـ ١٢ ، ص ٢٨٤ .

(٢) ابن كثير : حلافة علي ، ص ١٠٩ . وقد ذكر أنه حين قرأ الأشعث بن قيس وثيقة التحكيم أبدى عروة بن أُدَية غضبه وصار يقول « أتحكمون في أمر الله الرجال ؟ أشرط أوثق من كتاب الله وشرطه ، أكنتم في شك حين قاتلتم؟ لا حكم إلا لله »(البلاذري : جمل من أنساب الأشراف ، جـ ٣ ، ص ١١٠ ؛ الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٥ ، ص ٥٥) .

(٣) الإسفراييني : التبصير بالدين وتمييز الفرقة الناجية عن فرق الهالكين ، ص ٤٥ . راجع غالب بن علي عواجي : الخوارج تاريخهم وآراؤهم الإعتقادية وموقف الإسلام منها ، ص ٣٥ ؛ ناصر العقل : الخوارج ، ص ٢٩ .

(٤) وقد جاء في الرواية الصحيحة الأخرى أن عددهم حين ذهب إليهم ابن عباس ﷺ كان ستة آلاف ، ولما ناظرهم رجع منهم ألفان فقط (النسائي : خصائص أمير المؤمنين علي ، ص ١٩٦ ، ٢٠٠)

حروراء بالعدول عن أفكارهم ، ولكنهم لم يفلحوا في التأثير عليهم(١). وهناك رواية تحكي أن علياً ﷺ قصد بنفسه هؤلاء الخوارج في حروراء ، واسترضاهم حتى عادوا جميعاً إلى الكوفة ، وبعد يومين أو نحوهما جاءه الأشعث بن قيس يخبره بأنهم يتحدثون أنه رجع عن كفره .

ولذا بادر علي ﷺ من الغد وهو يوم جمعة ، وخطب الناس ، فذكر مفارقته هؤلاء الخوارج ، وعاب عليهم فعلهم ، فتنادوا « من نواحي المسجد : لا حكم إلا لله ، فقال علي : حكم الله انتظر فيكم ... »(٢).

وفي رواية أخرى أنه بينما علي ﷺ على المنبر « إذ جاء رجل فقال : لا حكم إلا لله ، ثم قام آخر فقال : لا حكم إلا لله ، ثم قاموا من نواحي المسجد يُحَكمون الله ، فأشار بيده : اجلسوا ! ، نعم لا حكم إلا لله ؛ كلمة حق يبتغى بها باطل ! حكم الله يُنتظر فيكم ، الآن لكم عندي ثلاث خِلال ـ ما كنتم معنا ـ : لن نمنعكم مساجد الله أن يذكر فيها اسمه ، ولا نمنعكم فيئاً ما كانت أيديكم مع أيدينا ، ولا نقاتلكم حتى تقاتلونا ، ثم أخذ في خطبته »(٣).

وفي الوقت الذي جرى فيه التحكيم ، وانفض الحكمان بلا نتيجة ترضي الطرفين كان الخوارج هؤلاء قد بايعوا عبد الله بن وهب الراسبي أميراً عليهم ، وأخذوا بالتسلل خفية إلى مكان يسمى النهروان(٤)على الضفة الشرقية لنهر يسمى باسمه (النهروان) ، وهو بعيد عن الكوفة ، إذ يقع إلى الشرق من نهر دجلة(٥)، بينما الكوفة تقع على الجهة الغربية لنهر الفرات.

---

(١) ابن أبي شيبة : المصنف ، جـ ١٤ ، ص ٢٩٦ ، ٣٠٣ .

(٢) ابن أبي شيبة : المصنف ، جـ ١٤ ، ص ٢٩٠-٢٩١ .

(٣) ابن أبي شيبة : المصنف ، جـ ١٤ ، ص ٣٠٤-٣٠٥ ؛ البيهقي : السنن الكبرى ، جـ ٨ ، ص ١٨٤ . وفي رواية عبيد الله بن أبي رافع مولى رسول الله ﷺ « أن الحرورية لما خرجت ـ وهو مع علي بن أبي طالب ﷺ قالوا : لا حكم إلا لله ، قال علي : كلمة حق أريد بها باطل » (مسلم : الصحيح جـ ٢ ، ص ٧٤٩) .

(٤) البلاذري : جمل من أنساب الأشراف ، جـ ٣ ، ص ١٣٤ ، ١٣٥ ؛ الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٥ ، ص٧٤، ٧٥ ، ٧٦ .

(٥) النهروان مدينة صغيرة تقع إلى الشرق من بغداد ، على مسافة أربعة فراسخ [١٢ ميل = بريد] من نهر دجلة ، يمر بها نهر كبير منبعه من جبال أرمينية (الحميري : الروض المعطار ، ص ٥٨٢ ؛ محمد بن سليمان الراجحي : معجم بلدان العالم الإسلامي في كتاب الأنساب لأبي سعد السمعاني ، ص ٢٢٨) .

ومن النهروان راح أولئك الخوارج يكفرون مخالفيهم ، ويستبيحون دماءهم وأموالهم ، فأصبحوا يقطعون السبل ، ويروعون الآمنين ، وقد أَسَرُوا ـ كما ورد بسند صحيح ـ عبد الله بن خباب [وهو ابن الصحابي المشهور خباب بن الأرت] ، وسرية لـه (أم ولد) كانت حبلى ، فقتلوه وبقروا بطن سريته[١]. كما اعتدوا على آخرين بالقتل والسلب ، كما قتلوا أحد رجال علي ﷺ الذي ذهب ينظر في أمرهم[٢].

ولذا قصدهم بجيشه الذي يقدر بحوالي ثمانية وستين ألفاً[٣]، فعسكر على الضفة الغربية لنهر النهروان[٤]، وطالبهم بتسليم القتلة ليقتص منهم ، حيث أرسل إليهم ـ كما ورد بسند صحيح ـ «أن أقيدونا بعبد الله بن خباب ، فأرسلوا إليه ، وكيف نُقيدك وكلنا قَتَلَهُ؟»[٥]، وفي لفظ أنهم «قالوا : كيف نقيدك به وكلنا قد شَرَكَ في دمه ؟ »[٦].

وتشير روايات بعض الإخباريين أن علياً ﷺ طالبهم بتسليم قتلة كل من قتلوه ، فردوا عليه قائلين «كلنا قَتَلَتُهم ، وكلنا نستحل دماءهم ودماءكم»[٧].

وقد ورد أن علياً ﷺ ـ وهو في معسكره ـ ظل ثلاثة أيام يدعوهم أن يثوبوا إلى رشدهم ، ولكنهم أبوا قبول دعوته[٨]، بل قتلوا رسوله .

وحينئذ استحل قتالهم[٩]، وأخذ يجهز جيشه[١٠]، ثم طفق يحرض أتباعه على قتالهم

---

(١) أحمد : المسند ، تحقيق شعيب الأرنؤوط ، جـ ٥ ، ص ١١٠ ؛ ابن أبي شيبة : المصنف ، جـ ١٤ ، ص ٢٨٨-٢٨٩؛ الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٥ ، ص ٨١ ؛ ابن حجر : فتح الباري ، جـ ١٢ ، ص ٢٩٧ ؛ الهيثمي: مجمع الزوائد ، جـ ٧ ، ص ٥٩٠ ؛ فقيهي : خلافة علي ، ص ٣٢١ ؛ العمري : عصر الخلافة ، ص ٤٣٤ .

(٢) البلاذري : جمل من أنساب الأشراف ، جـ ٣ ، ص ١٤٢-١٤٣ ؛ الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٥ ، ص٨٢ .

(٣) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٥ ، ص ٨٠ .

(٤) فقيهي : خلافة علي ، ص ٣٢٢ ؛ العمري : عصر الخلافة الراشدة ، ص ٤٣٤ . راجع الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٥ ، ص ٩٢ ؛ ابن حجر : فتح الباري ، جـ ١٢ ، ص ٢٩٧ .

(٥) ابن أبي شيبة : المصنف ، جـ ١٤ ، ص ٢٨٧ ؛ فقيهي : خلافة علي ، ص ٣٢٢ ، حاشية ٢ .

(٦) ابن أبي شية : المصنف ، جـ ١٤ ، ص ٣٠١ .

(٧) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٥ ، ص ٨٣ .

(٨) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، جـ ١ ، ص ١٧٧ ، ٢٠٦ .

(٩) وفي حديث عبد الله بن شداد الذي ورد بسند صحيح لما سألته عائشة رضي الله عنها عن قتال علي ﷺ للخوارج بقولها لـه « يا بن شداد فقد قتلهم ! فقال : والله ما بعث إليهم حتى قطعوا السبيل ، وسفكوا الدم ، واستحلوا أهل الذمة ، فقالت : آلله ؟ قال : آلله الذي لا إله الا هو لقد كان » (أحمد : المسند ، تحقيق الشيخ شاكر ، جـ ٢ ، ص٦٨) .

(١٠) ابن أبي شيبة : المصنف ، جـ ١٤ ، ص ٣٠٤ ؛ الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٥ ، ص ٩٢ . ويلاحظ=

بعد أن ترجح لديه إلى درجة تبلغ اليقين ـ من خلال أحوالهم قولاً وعملاً ـ أنهم هم الخوارج الذين نعتهم الرسول ﷺ لأصحابه ، يقول أحد الذين شهدوا النهروان ـ كما في الصحيح ـ أن علياً ﷺ قال يومذاك

«أيها الناس إني سمعت رسول الله ﷺ يقول يخرج قومٌ من أمتي يقرؤون القرآنَ ليس قراءتُكم إلى قرائتهم بشيء ، ولا صلاتُكم إلى صلاهم بشيء ، ولا صيامُكم إلى صيامهم بشيء ، يقرؤون القرآن يحسبون أنه لهم وهو عليهم ، لا تجاوزُ صلاتُهم تراقِيَهم ، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهمُ من الرَّمِيَّة ، لو يعلم الجيش الذي يصيبوهم ما قُضِيَ لهم على لسان نبيهم ﷺ لاتَّكلوا عن العمل ، وآية ذلك أن فيهم رجلاً لـه عضد ، وليس لـه ذراع ، على رأس عضده مثل حَلَمَةِ الثديِ ، عليه شعرات بيض ، فتذهبون إلى معاوية وأهل الشام وتتركون هؤلاء يخلفونكم في ذراريكم وأموالكم ! ، والله إني لأرجو أن يكونوا هؤلاء القوم ، فإنهم قد سفكوا الدم الحرام ، وأغاروا في سرح الناس ، فسيروا على اسم الله»(١) .

وتذكر الروايات التاريخية أن علياً ﷺ عبأ جيشه ، وعين قيادات على الميمنة والميسرة والرجالة والخيل ، كما فعل الخوارج الشيء نفسه في جيشهم استعداداً للاشتباك ، وقبل بدء القتال أعطي علي ﷺ أبا أيوب الأنصاري ﷺ راية أمان ، وأمره أن ينادي في الخوارج :

من جاء تحت هذه الراية فهو آمن ، ومن انصرف إلى الكوفة أو المدائن فهو آمن ، فقبلت منهم أعداد كثيرة هذا النداء ، ولم يبقَ مع قائدهم عبد الله بن وهب سوى ألفين

= أن بعض الكتاب المحدثين أشاروا أن الخوارج عبروا النهر (نهر النهروان) بعد نزول جيش علي ﷺ في ضفته الغربيه ، وأحالوا إلى مصادر حديثية وتاريخية (فقيهي : خلافة علي ، ص ٣٢٤ ؛ العمري : عصر الخلافة الراشدة ، ص ٤٣٥) ولكن تلك المصادر لا يظهر فيها شيء من ذلك ، بل إن ابن الأثير أكد أن الخوارج لم يعبروا يوم معركة النهروان (الكامل ، جـ ٣ ، ص ٣٤٥) أما عبورهم النهر المشار إليه في تلك المصادر فقد كان قبل قتل عبد الله بن خباب (الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، جـ ١ ، ص ٢٠٥ ؛ ابن الجوزي : المنتظم ، جـ٥ ، ص ١٤٤) .

(١) مسلم : الصحيح ، جـ ٢ ، ص ٧٤٨ .

وثمانمائة رجل في رواية[١]، وألف وثمانمائة في رواية ثانية[٢]، وألف وخمسمائة في رواية ثالثة[٣].

وكان علي ﷺ قد أكد على جيشه أن لا يبدؤوا الخوارج بالقتال، حيث قال «كفوا عنهم حتى يبدؤوكم»، ولذلك بقوا ينتظرون حتى زحف إليهم الخوارج وهم ينادون: الرواحَ، الرواحَ إلى الجنة!، فحمل عليهم أصحاب علي ﷺ، وشدوا عليهم بالرماح والسيوف، فما لبثوا أن قضوا عليهم، أو على حد تعبير أحد الرواة «فأهمدوا في ساعة»[٤]، وقد عثر على أربعمائة منهم في ميدان المعركة وبهم رمق، فأمر علي ﷺ أن يدفعوا إلى عشائرهم[٥]، أما جيش علي ﷺ فلم يقتل منه إلا رجلان حسب رواية الصحيح[٦].

وقد اختلف في تاريخ هذه الوقعة، إذ نقل البلاذري[٧] أنها في التاسع من صفر سنة ٣٨ هـ، بينما نقل خليفة بن خياط[٨] أنها في شعبان من تلك السنة.

ولقد اهتم علي ﷺ بعد المعركة بالمخدج ذي الثدية[٩] الذي كان قد حدث أصحابه به قبل قتالهم الخوارج، فطلب منهم أن يلتمسوه في ميدان القتال، فلما لم يجدوه قام بنفسه يبحث عنه حتى وجده «فكبر، ثم قال: صدق اللهُ، وبَلَّغَ رسولُه»[١٠].

وبالعثور على هذا الرجل بين قتلى الخوارج فوق أنه تصديق للوحي المنزل على

---

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٥، ص ٨٥-٨٦.
(٢) البلاذري: جمل من أنساب الأشراف، جـ ٣، ص ١٤٦؛ ابن الأثير: الكامل، جـ ٣، ص ٣٤٦.
(٣) البلاذري: جمل من أنساب الأشراف، جـ ٣، ص ١٤٦.
(٤) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٥، ص ٨٦.
(٥) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٥، ص ٨٨.
(٦) مسلم: الصحيح، جـ ٢، ص ٧٤٩. ورد في روايات أخرى أن عدد القتلى في جيش علي ﷺ بلغ سبعة (ابن الأثير: الكامل، جـ ٣، ص ٣٤٨) وقيل بلغوا تسعة، وقيل اثني عشر أو ثلاثة عشر (ابن أبي شيبة: المصنف، جـ ١٤، ص ٢٨٨، ٢٩٠).
(٧) جمل من أنساب الأشراف، جـ ٣، ص ١٣٦.
(٨) تاريخه، ص ١٩٧. راجع الذهبي: عهد الخلفاء، ص ٥٨٨. وحين نقل الطبري عن أبي مخنف أنها في سنة ٣٧ هـ عقب على ذلك بقوله «وكان غير أبي مخنف يقول: كانت الوقعة بين علي وأهل النهر سنة ثمان وثلاثين، وهذا القول عليه أكثر أهل السير» (تاريخ الأمم والملوك، جـ ٥، ص ٩١).
(٩) انظر تفاصيل موسعة عن ذي الثدية في فقيهي: خلافة علي، ص ٣٣١ – ٣٣٨.
(١٠) مسلم: الصحيح، جـ ٢، ص ٧٤٩.

رسوله ﷺ فإنه في الوقت نفسه علامة على صحة إجراءات علي ﷺ مع هؤلاء الخارجين عليه.

ويلاحظ أن علياً ﷺ عاملهم معاملة البغاة، فلم يكفرهم، ولم يجهز على جريحهم، ولم يسبهم ويغنم أموالهم، ثم إنه منع جنده من تعقب الفارين منهم[(١)].

وقد تجسد رأيه فيهم فيما روي بسند صحيح عن طارق بن شهاب قال « كنت عند علي فسئل عن أهل النهر؛ أهم مشركون؟ قال: من الشرك فروا، قيل: فمنافقون هم؟ قال: إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلاً، قيل له: فما هم؟ قال: قوم بغوا علينا»[(٢)].

وقبل أن نترك علي ﷺ والخوارج نشير إلى أن قتاله لهم كان فيه خير عظيم، إذ خلص البلاد في ذلك الوقت من شرهم وخطرهم، وحال بينهم وبين نشر فكرهم المنحرف، وحطم قوتهم المتنامية، فلو ترك هؤلاء الخوارج ـ كما يقول ابن كثير[(٣)] ـ «لأفسدوا الأرض كلها عِراقاً وشاماً، ولم يتركوا طفلاً ولا طفلة ولا رجلاً ولا امرأة، لأن الناس عندهم قد فسدوا فساداً لا يصلحهم إلا القتل جملة».

رابعاً ـ محاربة علي ﷺ للشيعة الغلاة: وكما وقف علي ﷺ من الخوارج الذين كفروه وكفروا المسلمين واستباحوا الدماء والأموال ـ وقفة حاسمة، فقاتلهم وفرق شملهم، وكسر شوكتهم، وحارب أفكارهم ـ فقد وقف موقفاً صلباً من الذين تشيعوا له، وأظهروا الغلو في شخصه، يقول ابن تيمية[(٤)]« ولما أحدثت البدع الشيعية في خلافة

---

(١) العمري: عصر الخلافة الراشدة، ص ٤٣٥؛ فقيهي: خلافة علي، ص ٣٤١. وعن رأي العلماء في تكفير الخوارج راجع ابن تيمية: مجموع الفتاوى، جـ ٣، ص ٢٨٢، جـ ٢٨، ص ٥١٨؛ منهاج السنة، جـ ٥، ص ٢٤١ - ٢٤٤، ٢٤٨-٢٤٨، ٢٥٠؛ ابن حجر: فتح الباري، جـ ١٢، ص ٢٩٩- ٣٠٢؛ غالب عواجي: الخوارج، ص ٥٢٧- ٥٤٥.

(٢) ابن أبي شيبة: المصنف، جـ ١٤، ص ٣٠٩؛ ابن كثير: خلافة علي، ص ١٢٧. وفي رواية جاء «حدثنا عبد الرزاق عن معمر عمن سمع الحسن قال: لما قَتل علي رضي ﷺ الحرورية قالوا: من هؤلاء يا أمير المؤمنين؟ أكفار هم؟ قال: من الكفر فروا، قيل: فمنافقين؟ قال: إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلاً، وهؤلاء يذكرون الله كثيراً، قيل: فما هم؟ قال: قوم أصابتهم فتنة فعموا فيها وصموا» (عبد الرزاق: المصنف، جـ ١٠، ص١٥٠) انظر أحكام علي في الخوارج في (قلعه جي: موسوعة فقه علي، ص ٩٢-٩٣، ١٣١-١٣٢، ٤٨٥-٤٨٦.

(٣) ابن كثير: خلافة علي، ص ١٢٤.

(٤) الفتاوى الكبرى، تحقيق حسنين محمد مخلوف، جـ ١، ص ٥٧. قارن مجموع الفتاوى، جـ ٣٥، ص ١٨٤ - ١٨٦. وانظر أيضاً مجموع الفتاوى، جـ ١٣، ص ٣٣-٣٤.

أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ ردها ، وكانت ثلاثة طوائف : غالية وسبابة ومفضلة؛ فأما الغالية فإنه حرقهم بالنار ، [فقد] ... خرج ذات يوم من باب كندة فسجد له أقوام، فقال : ما هذا ؟ فقالوا : أنت هو ! الله ، فاستتابهم ثلاثاً ، فلم يرجعوا ، فأمر في اليوم الثالث بأخاديد فخدت ، وأضرم فيها النار ، ثم قذفهم فيها وقال:

لما رأيت الأمر أمراً منكرا أججت ناري ودعوت قنبرا[١]

وفي صحيح البخاري[٢]أن علياً أتى بزنادقتهم فحرقهم ،فبلغ ذلك ابن عباس فقال: أما أنا فلو كنتُ لم أحرقهم ، لنهي النبي ﷺ أن يعذب بعذاب الله ولضربت أعناقهم لقول النبي ﷺ (**من بدل دينه فاقتلوه**) .

وأما السبابة فإنه لما بلغه أن ابن سبأ يسب أبا بكر وعمر طلب قتله ، فهرب إلى قرقيسيا ، وكلم فيه ، وكان على يداري أمراءه ، لأنه لم يكن متمكناً ولم يكونوا يطيعونه في كل ما يأمرهم به .

وأما المفضلة فقال : لا أوتي بأحد يفضلني على أبي بكر وعمر إلا جلدته حد المفتري، وروي عنه من أكثر من ثمانين وجهاً أنه قال : خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر، وفي صحيح البخاري[٣]عن محمد بن الحنفية أنه قال لأبيه : يا أبت مَن خير الناس بعد رسول الله ﷺ ؟ فقال : يا بني أوما تعرف ؟ قال : لا ، قال : أبو بكر ، قال : ثم من؟ قال : عمر».

خامساً ـ الفتوحات الإسلامية في عهد علي ﷺ : في ظل الفتن الداخلية التي بدأت بالتمرد على أمير المؤمنين عثمان ﷺ ، ومن ثم اغتياله ، ثم ما جرى بعد ولاية علي ﷺ الخلافة من خلافات بين المسلمين ، ومن ثم قتال مفجع بينهم في الجمل وصفين ، ثم ما أحدثه الخوارج من اضطرابات وفوضى .

في ظل ذلك كله كان من الطبيعي أن تنصرف الدولة الإسلامية عن ميدان الفتح والجهاد في سبيل الله ، ولذلك نرى المصادر لا تسجل إلا تحركات وأنشطة محدودة قام

---

(١) ساق ابن حجر هذا الخبر بتفصيل أكثر ، ثم قال « إن سنده حسن » (فتح الباري ، جـ ١٢ ، ص ٢٧٠) . راجع محيي الدين : أقضية الخلفاء الراشدين ، جـ ٢ ، ص ١٠٧٣-١٠٧٧ .

(٢) الصحيح ، جـ ٦، ص ٢٥٣٧ .

(٣) الصحيح ، جـ ٣ ، ص ١٣٤٢ .

بها المسلمون في هذا الميدان إبان عهد علي ﷺ الذي لم يبلغ الخمس سنوات.

ويلاحظ أن ما سجلته تلك المصادر قد اقتصر فقط على ما حدث في الجبهة الشرقية لدولة الإسلام ، أي في البلاد الفارسية وما جاورها من بلدان ، ويمكن حصر تلك التحركات والأنشطة في جوانب ثلاثة :

ـ التصدي بقدر الاستطاعة للاضطرابات التي وقعت في بعض البلاد الفارسية المفتوحة ، من ذلك ما حدث في إقليم فارس (جنوب غربي إيران) ، حيث تمرد أهله سنة ٣٧ هـ على عاملهم سهل بن حنيف ﷺ وأخرجوه ، فوجه علي ﷺ إليهم زياد بن أبيه فصالحوه ، وأدوا إليه الجزية[١].

وقد ذكر أنه لما قدم إلى فارس «بعث إلى رؤسائها ، فوعد من نصره ومناه ، وخوف قوماً وتوعدهم ، وضرب بعضهم ببعض ، ودل بعضهم على عورة بعض ، وهربت طائفة ، وأقامت طائفة ، فقتل بعضهم بعضاً ، وصفت لـه فارس ، فلم يلقَ فيها جمعاً ولا حرباً ... فسكن الناس إلى ذلك ، فاستقامت لـه البلاد »[٢].

كذلك ما حصل في إقليم خراسان (شمال شرقي إيران) ، فقد قدم مرزبان مرو المسمى ماهويه على علي ﷺ في الكوفة ، فكتب معه إلى دهاقين ورؤساء المدن والقرى في خراسان أن يؤدوا إليه الجزية لجمعها فيما يبدو عنده ، ولكنهم ما لبثوا أن انتقضوا على المسلمين ، فبعث علي ﷺ جعدة بن هبيرة المخزومي ليخلف عامله هناك عبد الرحمن بن أبزى ، فامتنعوا على ابن هبيرة ، فبعث علي ﷺ خليد بن قرة اليربوعي فحاصر نيسابور حتى صالحه أهلها ، كما صالحه أهل مرو ، ومع ذلك فقد بقيت الثورة مشتعلة في هذا الإقليم إلى أن قتل علي ﷺ[٣].

ـ تثبيت الإسلام في بعض البلاد المفتوحة ، من ذلك ما حدث في إقليم أذربيجان ، فقد بعث علي ﷺ الأشعث بن قيس إلى هذا الإقليم ، « فلما قدمها وجد أكثرها قد أسلموا وقرؤوا القرآن ، فأنزل أردبيل جماعةً من أهل العطاء والديوان من العرب ،

---

(١) خليفة بن خياط : تاريخه ، ص ١٩٢ ؛ الذهبي : عهد الخلفاء الراشدين ، ص ٥٥٤ .
(٢) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٥ ، ص ١٣٨ ، ابن الأثير : الكامل ، جـ ٣ ، ص ٣٨٢ .
(٣) البلاذري : فتوح البلدان ، ق ٣ ، ص ٥٠٥ ؛ الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ، ص ٥٥٧ ، جـ ٥ ، ص٦٣-٦٤ ، ٩٢ .

ومصرها وبنى مسجدها»[١].

ـ دفع عمليات الفتح الإسلامي ولو بشكل محدود في البلاد المجاورة ، وقد تركز ذلك في منطقتين الأولى الديلم (شمال إيران) ، فقد بعث علي ﷺ الربيع بن خثيم الثوري لغزو هذه المنطقة بعد أن عقد لـه على أربعة آلاف من المجاهدين المسلمين[٢]، وكان علي ﷺ قد فتح الباب للمشاركة في هذا البعث لمن كره القتال معه ضد معاوية ﷺ، فقد روى إسماعيل بن مرة الهمذاني قال : قال علي ﷺ « من كره منكم أن يقاتل معنا معاوية فليأخذ عطاءه وليخرج إلى الديلم فليقاتلهم ، قال : وكنت في النخبة ، فأخذنا أعطياتنا وخرجنا إلى الديلم ، ونحن أربعة آلاف أو خمسة آلاف»[٣].

أما المنطقة التي توجهت إليها قوافل المجاهدين في عهد علي ﷺ فهي ثغر بلاد السند ، مكران وما وراءها (جنوب شرقي إيران) ، ففي آخر سنة ٣٨ هـ وأوائل سنة ٣٩ هـ استأذن الحارث بن مرة العبدي علياً ﷺ في التوجه متطوعاً للجهاد في سبيل الله في هذا الثغر ، فأذن لـه في ذلك[٤]، فجمع جمعاً من المجاهدين الذين أتوه من كل جهة ، فسار بهم نحو مكران ، وجاوزها إلى قندابيل (قصبة ولاية في السند تسمى بهذا الاسم) ، وتوغل في جبل القِيقان ، فحقق انتصارات واسعة ، وغنم مغانم كثيرة ، ولكن العدو في النهاية كمن لـه عند أحد المضائق ، فاستشهد هو ومن معه من المجاهدين ، ولم ينجُ منهم إلا القليل[٥].

ملامح من سيرة علي ﷺ ومنهجه في الحكم : عاش علي ﷺ في أثناء خلافته بين رعيته كواحد منهم مثلما كان إخوانه الخلفاء الراشدين الثلاثة قبله ، وكان متواضعاً ، زاهداً في الدنيا ، فقد روى أحدهم «أنه رأى علياً قد ركب حماراً ، ودلى رجليه إلى موضع واحد ، ثم قال : أنا الذي أهنت الدنيا »[٦].

---

(١) البلاذري : فتوح البلدان ، ق ٢ ، ص ٤٠٤ .
(٢) البلاذري : فتوح البلدان ، ق ٢ ، ص ٣٩٦ .
(٣) البلاذري : فتوح البلدان ، ق ٢ ، ص ٣٩٥ .
(٤) البلاذري : فتوح البلدان ، ق ٣ ، ص ٥٣١ .
(٥) خليفة بن خياط : تاريخه ، ص ١٩١ ، ٢٠٠ ؛ البلاذري : فتوح البلدان ، ق ٣ ، ص ٥٣١ ؛ ابن الأثير : الكامل ، جـ ٣ ، ص ٣٨١ ؛ الذهبي : عهد الخلفاء ، ص ٥٨٣ .
(٦) الذهبي : عهد الخلفاء ، ص ٦٤٥ .

وعاتبه بعضهم في لباسه فقال «مالكم وللباسي ! هو أبعد من الكبر ، وأجدر أن يقتدي بي المسلم »[(١)].

وقد روي عن امرأة قالت «رأيت علياً اشترى تمراً بدرهم فحمله في ملحفته ، فقال رجل : يا أمير المؤمنين ألا نحمله عنك ؟ فقال : أبو العيال أحق بحمله »[(٢)].

ـ كان الناس في عهده لا يتكلفون في الوصول إليه ومخاطبته في حاجاتهم ، فلم يكن عند قصره حجاب يحجزون عنه ، فقد روى أبو راشد السلماني أنه تردى بعير فذبحه ، ثم فرق لحمه بين أهله ، ولكنهم تحرجوا من أكله حتى يسأل علياً ﷺ ــ وهو في الكوفة ـ قال

« فأتيت علياً ، فقمت على باب قصره فقلت : يا أمير المؤمنين ، يا أمير المؤمنين ، فقال : لبيكاه ، لبيكاه ، فأخبرته خبره ، فقال : كُلْ ، وأطعمني عجزه »[(٣)].

وكان ﷺ يجلس للناس ينظر في حوائجهم ، فقد صح عن النزال بن سبرة أنه رأى علياً ﷺ «صلى الظهر ، ثم قعد في حوائج الناس في رحبة [ساحة] الكوفة حتى حضرت صلاة العصر »[(٤)].

وكان ﷺ أحياناً يتولى بنفسه القضاء بين المسلمين في السوق ، فقد روى الشعبي «أن علياً قضى في السوق »[(٥)].

ومن جانب آخر فإن علياً ﷺ لم يستعن بحرس لحمايته حتى بعد أن بلغه في أيامه الأخيرة أن ناساً يريدون الاعتداء عليه ، إذ أنه لما حذر منهم رد بقوله « إن مع كل رجل ملكين يحفظانه مما لم يُقَدّر ، فإذا جاء القدر خَلّيا بينه وبينه ، وإن الأجل جُنَّة حصينة»[(٦)].

---

(١) الذهبي : عهد الخلفاء ، ص ٦٤٧ .

(٢) ابن كثير : خلافة علي ، ص ٢٧ .

(٣)ابن أبي شيبة : المصنف ، جـ ٧ ، ص ١١٨ ؛ ابن حجر : فتح الباري ، جـ ٩ ، ص ٦٣٨ .

(٤) البخاري : الصحيح ، جـ ٥ ، ص ٢١٣٠ . وقصة علي ﷺ مع النصراني في رواية واليهودي في رواية أخرى الذي أخذ درعه ، وخاصمه إلى شريح الذي قضى للنصراني لأن علياً ﷺ لم يقدم بينة ، فكان هذا سبباً لدخوله الإسلام ـ في إسنادها مجهول . راجع (ابن كثير : خلافة علي ، ص ٢٦ ، حاشية ١ ؛ السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ١٦٣) .

(٥) ابن حجر : فتح الباري ، جـ ١٣ ، ص ١٣١ .

(٦) ابن سعد : الطبقات ، جـ ٣ ، ص ٣٥ .

ـ كانت سياسة علي ﷺ في العطاء تقوم على التسوية بين المسلمين[(١)]، والمبادرة بتوزيع الأموال الواردة إلى بيت المال عليهم، فيروى أن علياً ﷺ كان « يَقسم بيت المال في كل جمعة حتى لا يُبْقِي فيه شيئاً، ثم يُفرش لـه ويقيل فيه ... »[(٢)].

وقال أبو حيان التيمي «حدثني مجمع أن علياً كان يكنس بيت المال، ثم يصلي فيه رجاءَ أن يشهد لـه أنه لم يحبس فيه المال عن المسلمين »[(٣)].

ولقد ضرب ﷺ أروع الأمثلة في التعفف عن أموال المسلمين، فقد روى علي بن الأقمر عن أبيه قال «رأيت علي بن أبي طالب يعرض سيفاً لـه في رحبة الكوفة، ويقول: من يشتري مني سيفي هذا ؟ فوالله لقد جلوت به غير كربة عن وجه رسول الله ﷺ، ولو أن عندي ثمن إزار ما بعته »[(٤)].

وروي بإسناد صحيح عن عبد الله بن زُرَيْر الغافقي قال « دخلت على علي يوم الأضحى، فقرب إلينا خَزيرة [قطع لحم صغيرة مخلوطة بدقيق]، فقلت : لو قدمت إلينا من هذا البط ـ يعني الوَز ـ، فإن الله عز وجل قد أكثر الخير، فقال : يا ابن زرير، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول (لا يحل للخليفة من مال الله إلا قصعتان ؛ قصعة يأكلها هو وأهله، وقصعة يضعها بين يدي الناس) »[(٥)].

وعن مروان بن عنترة عن أبيه قال «دخلت على علي بن أبى طالب بالخورنق وعليه قطيفة، وهو يُرعِدُ من البرد، فقلت : يا أمير المؤمنين ! إن الله قد جعل لك ولأهل بيتك نصيباً في هذا المال، وأنت تفعل بنفسك هذا ؟ فقال : إني والله لا أرزأُ [انقص] من مالكم شيئاً، وهذه القطيفة هي التي خرجتُ بها من بيتي، أو قال : من المدينة »[(٦)].

---

(١) أبو عبيد : الأموال، ص ٢٧٨ .

(٢) ابن عبد ربه : العقد الفريد، تحقيق العريان، جـ ٥، ص ٥٩ ؛ الخزاعي : تخريج الدلالات السمعية، ص٥٩١ .

(٣) الذهبي : عهد الخلفاء، ص ٦٤٣ ؛ السيوطي : تاريخ الخلفاء، ص ١٦٠ .

(٤) الطبراني : المعجم الأوسط، جـ ٧، ص ١٧٤ . وانظر ابن كثير : خلافة علي، ص ٢٥ .

(٥) أحمد : المسند، تحقيق شاكر، جـ ٢، ص ٢٦، الذهبي : عهد الخلفاء، ص ٦٤٤، ابن كثير : خلافة علي، ص٢٤ .

(٦) الذهبي : عهد الخلفاء، ص ٦٤٤، ابن كثير : خلافة علي، ص ٢٤- ٢٥ .

ـ وكان يرفض ﷺ أن تكون للقرابة أو الشفاعة أثر في تولية العمال ، والمعيار في الاختيار عنده هو الكفاية والأمانة ، يروى أنه ﷺ قال « لا تقبلن في استعمال عمالك وأمرائك شفاعة إلا شفاعة الكفاية والأمانة »[١].

وكان يوصى عماله بتوخي العدل ، فقد أوصى أحدهم بقوله « لا تضربن رجلاً سوطاً في جباية درهم ، ولا تتبعن لهم رزقاً ولا كسوة شتاءً ولا صيفاً ، ولا دابة يعتملون عليها ، ولا تقيمن رجلاً قائماً في طلب درهم»، فقال « يا أمير المؤمنين إذن أرجع إليك كما ذهبت من عندك ! ، قال : وإن رجعت ويحك ! إنما أُمِرْنا أن نأخذ منهم العفو ـ يعني الفضل ـ »[٢].

ـ وكان علي ﷺ يتفقد الأسواق بنفسه محتسباً ، فقد روي عن جرموز قال « رأيت علياً ، وهو يخرج من القصر ، وعليه ... إزار إلى نصف الساق ، ورداء مشمَّر قريب منه ، ومعه درة لـه يمشي بها في الأسواق ، ويأمرهم بتقوى الله ، وحسن البيع ، ويقول : أوفوا الكيل والميزان ولا تنفخوا اللحم »[٣]. وكان أحياناً يتولى تنفيذ الحدود بنفسه ، فعن الشعبي أن علياً ﷺ حين رجم المرأة يوم الجمعة ، قال « قد رجمتها بسنة رسول الله ﷺ»[٤].

استشهاد علي ﷺ : «كان أمير المؤمنين علي ﷺ قد انتقضت عليه الأمور ، واضطربت عليه الأحوال ، وخالفه جيشه من أهل العراق وغيرهم ، ونكلوا عن القيام معه ، واستفحل أمر أهل الشام ... وكلما ازداد أهل الشام قوة ضعف جأش أهل العراق ووهنوا»[٥].

وأمام هذا الوهن وضعف الطاعة لم يتمكن علي ﷺ من القيام بما يفرضه عليه منصبه ، وتكشف بعض خطبه الأخيرة مدى ما كان يعانيه من الملل ، ويعتصره من الألم ، فقد ورد بسند صحيح[٦] عن عَبِيدة قال « سمعت علياً يخطب يقول : اللهم إني قد

---

(١) صبحي محمصاني : تراث الخلفاء الراشدين ، ص ١٤٤ .
(٢) ابن الأثير : أسد الغابة ، جـ ٤ ، ص٩٨ .
(٣) ابن سعد : الطبقات الكبرى ، جـ ٣ ، ص ٢٨ ؛ الذهبي : عهد الخلفاء ، ص ٦٤٥ ؛ ابن كثير : خلافة علي ، ص٢٥- ٢٦ .
(٤) البخاري : الصحيح ، جـ ٦ ، ص ٢٤٩٨ . راجع فتح الباري ، جـ ١ ، ص ٣٣٨ ، جـ ١٢ ، ص ١١٩ .
(٥) ابن كثير : خلافة علي ، ص ٣٢ .
(٦) العمري : عصر الخلافة الراشدة ، ص ٤٣٧ .

سئمتهم وسئموني ، ومللتهم وملوني ، فأرحني منهم وأرحهم مني ، فما يمنع أشقاكم أن يخضبها بدم ؟ ووضع يده على لحيته »[١]، فكانت مقولته ـ فما يمنع أشقاكم أن يخضبها (يعني لحيته) بدم ـ إشارة إلى أنه قد بلغه من يخطط لقتله ، حيث صح أن رجلاً من مراد جاء إليه ـ وهو يصلي في المسجد فقال لـه « احترس ! فإن ناساً من مُرَاد يريدون قتلك »[٢].

وقصة مقتله باختصار كما رواه المؤرخون أن ثلاثة من الخوارج وهم : عبد الرحمن بن مُلْجِم المُرَادِي ، والبُرَك بن عبد الله التميمي ، وعمرو بن بكر التميمي اجتمعوا بمكة وتعاهدوا على أن يقتلوا علياً ومعاوية وعمرو بن العاص ﷺ ، ويريحوا ـ بزعمهم ـ العباد منهم .

فقال ابن مُلْجِم : أنا لعلي ، وقال البُرَك : أنا لمعاوية ، وقال الأخير : أنا أكفيكم عَمْراً ، فتواثقوا أن لا ينكصوا ، واتعدوا بينهم أن يقع ذلك ليلة سبع عشرة من رمضان.

ثم توجه كل رجل منهم إلى البلد التي بها صاحبه ، فقدم ابن مُلْجِم الكوفة ، فلقي فيها أصحابه من الخوارج فكتم عنهم ما ينوي فعله ، فزار يوماً نفراً من تيم الرباب فرأى قطام بنت شجنة التي قتل علي ﷺ أباها وأخاها يوم النهروان ، فأعجبته فخطبها ، فوافقت بشرط أن يكون مهرها ثلاثة آلاف درهم وقَتْلَ علي ﷺ ، فاتفق معها على ذلك لاسيما وأنه لم يأتِ الكوفة إلا لهذا الغرض ، ثم ندبت معه رجلاً من قومها اسمه وردان ليكون لـه ردءاً ، كما استمال هو من جانبه رجلاً ليساعده في جريمته اسمه شبيب بن بَجَرَة الأشجعي.

وفي ليلة الجمعة المتفق عليها جاء هؤلاء الثلاثة ـ ابن ملجم ووردان وشبيب ـ وهم مشتملون على سيوفهم ، فجلسوا مقابل السدة التي يخرج منها علي ﷺ ، فلما خرج لصلاة الصبح جعل ـ كعادته كل يوم ـ يُنْهِض الناس من النوم ؛ ينادي : أيها الناس الصلاةَ الصلاةَ ، ـ هاجموه وضربه ابن ملجم بالسيف على رأسه ، فسال دمه على لحيته ﷺ ، وهرب وردان أدركه رجل فقتله ، ونجا شبيب بنفسه وفات الناس .

---

(١) عبد الرزاق : المصنف ، جـ ١٠ ، ص ١٥٤ ، جـ ١١ ، ص ٣١٥ .
(٢) العمري : عصر الخلافة الراشدة ، ص ٤٣٧ .

أما ابن ملجم فقد قبض عليه ، ولما أُدخل على علي ﷺ بعد أن صلى جعدة بن هبيرة بن أبي وهب بالناس الغداة [١] ـ قال ﷺ ـ كما روي ابنه محمد بن الحنفية ـ (النفس بالنفس ، إن أنا مِتُّ فاقتلوه كما قتلني ، وإن بقيتُ رأيت فيه رأيي)[٢].

ومكث علي ﷺ الجمعة و السبت ، وتوفي ليلة الأحد وله من العمر ثلاث وستون سنة على المشهور[٣]، وكان قبيل وفاته أوصى أبناءه وصية خاصة ، كما أوصى وصية عامة[٤].

وقد غسله الحسن و الحسين رضي الله عنهما وعبد الله بن جعفر ، وصلى عليه الحسن ﷺ ، ثم دفن على أشهر الأقوال بدار الإمارة بالكوفة ليلاً[٥]، وكانت مدة خلافته أربع سنين وتسعة أشهر وأياماً [٦].

أما قاتله ابن ملجم قبحه الله فقد قتلوه بعد وفاة علي ﷺ[٧].

---

(١) ابن سعد : الطبقات ، جـ ٣ ، ص ٣٥- ٣٧ ؛ الكبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٥ ، ص ١٤٣- ١٤٦ ؛ ابن كثير : خلافة علي ، ٣٢-٣٤ ؛ الذهبي : عهد الخلفاء ، ص ٦٠٧- ٦٠٨ ، ٦٤٩-٦٥٠ ؛ السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ١٥٦ .

(٢) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٥ ، ص ١٤٦ . وفي رواية أن علياً ﷺ قال « إنه أسير ! فأحسنوا نزله ، وأكرموا مثواه ، فإن بقيت قتلت أو عفوت ، وإن مت فاقتلوه قتلي ، ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » (ابن سعد : الطبقات ، جـ ٣ ، ص ٣٥)

(٣) ابن سعد : الطبقات ، جـ ٣ ، ص ٣٧ ، ٣٨ ؛ ابن كثير : خلافة علي ، ص ٣٧ . وبالرجوع إلى التقويم نجد أن يوم الأحد من رمضان سنة ٤٠ هـ هو الذي يوافق يوم السابع عشر (محمد مختار باشا : التوفيقات الإلهامية ، تحقيق محمد عمارة ، جـ ١ ، ص ٧٢) . فهل كانت حادثة الأعتداء على علي ﷺ صبيحة الأحد ، ثم مات في يومه ذلك ؟ .

(٤) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٥ ، ص ١٤٧- ١٤٨ . راجع قلعه جي : موسوعة فقه علي ، ص ٦١٢- ٦١٣ .

(٥) ابن كثير : خلافة علي ، ص ٣٥ ؛ السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ١٥٦ . يقول ابن كثير « وما يعتقده كثير من جهلة الروافض من أن قبره بمشهد النجف فلا دليل على ذلك ولا أصل له ، ويقال : إنما ذاك قبر المغيرة بن شعبة ، وروى الخطيب البغدادي عن أبي نعيم الحافظ عن أبي بكر الطلحي عن محمد بن عبد الله الحضرمي الحافظ ـ مطيّن ـ أنه قال : لو علمت الشيعة قبر هذا الذي يعظمونه بالنجف لرجموه بالحجارة ، هذا قبر المغيرة بن شعبة ! » (خلافة علي ، ص ٣٥-٣٦) والنجف اليوم عند الشيعة مدينة مقدسة ، ومسجدها حرم مقدس ، وما يطلق عليه فيها المرقد الشريف أو الصحن الحيدري أو الحرم العَلَوي يضم بداخله غرفة حصينة تحتوي على كنوز هائلة من الهدايا الثمينة التي تتابع الزائرون عبر العصور على تقديمها حين زيارتهم هذا المرقد (مجلة البيان ، عدد ٢٠٤ ، ص ٤) .

(٦) خليفة بن خياط : تاريخه ، ص ١٩٩ .

(٧) ابن سعد : الطبقات الكبرى ، جـ ٣ ، ص ٣٩ -٤٠ ؛ الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٥ ، ص ١٤٩ . =

ويلاحظ أن جريمة قتل أمير المؤمنين علي ﷺ قد تبناها ابن ملجم متقرباً بها إلى الله باعتقاده الفاسد ، وفكره المنحرف ، حيث زين لـه الشيطان سوء عمله ، وقبيح فعله ، فاندفع مقبلاً لارتكاب هذا الجرم العظيم ، والإثم المبين .

= يقول الذهبي بعد أن ترجم لابن ملجم « وابن ملجم عند الروافض أشقى الخلق في الآخرة ، وهو عندنا أهل السنة ممن نرجو لـه النار ، ونجوز أن الله يتجاوز عنه ، لا كما يقول الخوارج والروافض فيه ، وحكمه حكم قاتل عثمان ، وقاتل الزبير ، وقاتل طلحة ، وقاتل سعيد بن جبير ، وقاتل عمار ، وقاتل خارجة ، وقاتل الحسين . فكل هؤلاء نبرأ منهم ونبغضهم في الله ، ونكل أمورهم إلى الله عز وجل » (عهد الخلفاء ، ص ٦٥٤) . أما البرك بن عبد الله فقد أصاب معاوية ﷺ في إليته ، فنجا من القتل ، وأما عمرو بن بكر فقد قتل خارجة بن حذافة الذي صلى ذلك اليوم بالناس بدلاً من عمرو بن العاص ﷺ الذي لم يخرج للصلاة بسبب وجع في بطنه (الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٥ ، ص ١٤٩) .

الخاتمـة

وهكذا عبر رحلة طويلة تفيأنا في ظلالها سيرة الخلفاء الأربعة الراشدين ، وتعرفنا فيها على أعمالهم الجليلة ، وإنجازاتهم المتميزة ، ولعلنا هنا نشير إلى أهم ما تناولناه ووقفنا عنده وناقشناه :

- ففيما يتصل بأبي بكر ﷺ فقد عرفنا حياته قبل الإسلام وبعده حتى وفاة النبي ﷺ، ثم رأينا كيف اتفق على اختياره جمهور الصحابة خليفة للدولة الإسلامية بعد رسول الله ﷺ، فتصدى بتصميم وقوة لحركات الردة التي انتشرت في أرجاء الجزيرة العربية ، فأرسى دعائم الإسلام ، وأعاد الوحدة إلى المسلمين.

وبعد ذلك وجه الجيوش في وقت واحد ضد القوتين العظميين في ذلك الزمان ، إمبراطوريتي الفرس والروم ، فكانت بداية قوية وشاملة لفتوحات واسعة خارج الجزيرة العربية.

وكان مما وقفنا عنده في عهد أبي بكر ﷺ موقف سعد بن عبادة وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما من البيعة لأبي بكر ﷺ بالخلافة ، فتبين لنا من خلال التحقيق العلمي أن ما شيع عن مقاطعتهما لأبي بكر ﷺ مصدره روايات وأقوال غير موثوقة.

وأن سعداً ﷺ اعترف بخلافة أبي بكر ﷺ ، بل رجح بعضهم أنه بايع له ، ثم إن قومه الأنصار ظلوا سنداً قوياً لأبي بكر ﷺ خلال عهده كما ظهر ذلك في حروب الردة والفتوحات الإسلامية .

أما علي ﷺ فقد ثبت لدينا أنه بايع لأبي بكر ﷺ بالخلافة إما في اليوم الأول أو الثاني ، ثم وقف بجانبه خلال معالجته لحركة الردة القضية الخطيرة التي انشغل بها أبو بكر ﷺ منذ أيام عهده الأولى .

وثمة شيء تناولناه حين حديثنا عن قضاء أبي بكر ﷺ على حركات الردة ، وهو ما أثير حول قتل خالد بن الوليد ﷺ لمالك بن نويرة ، فتبين لنا أن الروايات حول هذه القضية دخلتها الصناعة المتكلفة ، والتلفيق الظاهر ، فكانت أشبه بخيالات الأدباء ، ومخترعات القصاص .

وفي أثناء دراستنا لعهد أبي بكر ﷺ وقفنا وقفة قصيرة عند دوافع المسلمين في خروجهم من الجزيرة العربية فاتحين البلاد المجاورة وما بعدها ، فعرفنا أن الذي حركهم بالدرجة الأولى لفتح تلك البلدان إنما هو الاستجابة لنداء الجهاد في سبيل الله تعالى ، رغبة في إعلاء كلمة الله ، ونشر دينه بين الناس ، فلم تحركهم الدوافع الاقتصادية ، ولا الأهداف القومية ، ولم يكن خروجهم لدفع العدو قبل أن يهاجمهم ، كما أن أبا بكر ﷺ لم يوجههم للتخلص من روح التمرد المتأصلة فيهم .

ـ كذلك تعرفنا على حياة عمر بن الخطاب ﷺ قبل الإسلام وبعده حتى ولايته الخلافة ، ثم رأينا تنوع أعماله بعد أصبح خليفة للمسلمين ، حيث واصل حركة الفتح الإسلامي بهمة عالية ، وتخطيط دقيق ، فقضى المسلمون في عهده على الإمبراطورية الفارسية ، وفتحوا مدناً كبيرة ، وعواصم مهمة في داخل حدود الإمبراطورية الرومية البيزنطية.

وفي أثناء حديثنا عن الفتوحات الإسلامية عرضنا لمسألة عزل عمر ﷺ لخالد بن الوليد ﷺ عن قيادة الجيوش في الشام ، وناقشناها مناقشة علمية ، كما أننا توقفنا عند خلاف المؤرخين في تحديد معركة اليرموك ، وتبين لنا بأدلة مقنعة أنها وقعت سنة ١٥هـ، وقد عرفنا أن قيادة خالد بن الوليد ﷺ للمعركة كانت محصورة في القيادة الميدانية ، أما القيادة العامة فقد كانت لأبي عبيدة بن الجراح ﷺ .

ومما عرفنا في هذه الدراسة أن لعمر ﷺ الدور الأبرز في تثبيت أركان الدولة الإسلامية ، وتأسيس أنظمتها الإدارية والمالية والاقتصادية ، حيث رتب إدارة البلاد ، ووضع التأريخ الإسلامي ، وأسس الدواوين ، ونظم القضاء . وبجانب ذلك أنشأ مدناً جديدة ، ووسع المسجدين الحرام والنبوي .

ـ وفيما يتصل بعثمان ﷺ فقد عرضنا ـ أيضاً ـ لسيرة حياته قبل الإسلام وبعده إلى أن وَلِيَ الخلافة ، ثم تناولنا البيعة له بالخلافة ، فعرفنا أنها آلت إليه بعد عملية انتخابية مميزة جرت أولاً بين الباقين من الصحابة الذين توفي الرسول ﷺ وهو عنهم راضٍ ، ثم استفتاء شعبي واسع ، شمل شرائح المجتمع كلها .

ولقد شاهدنا ما قام به عثمان ﷺ من أعمال بارزة بعد تسلمه مقاليد الأمور في

الدولة ، فتصدى بصرامة لحركات التمرد في البلاد المفتوحة ، وثبت أقدام المسلمين فيها من جديد ، ووجه الجيوش لفتح بلاد جديدة ، ونشر الإسلام بين أهلها .

وقد اختص عهده بمنجزات لم يُسبق إليها ، كإنشاء الأسطول الإسلامي ، وما تبع ذلك من فتوحات بحرية ، وكنسخ المصاحف في مصحف موحد يمثل آخر ما عرض على الرسول ﷺ ، وتوزيع نسخ منه في أرجاء الدولة الإسلامية .

ولقد وقفنا عند الفتنة التي انتهت باستشهاده ﷺ ، فتبين أن الصحابة ﷺ بريئون مما ألصقه بهم الرواة الضعفاء والكذابون من تهمة التعاون مع المتمردين عليه.

وقد رأينا كيف أن هؤلاء المتمردين كانوا قد بيتوا إشعال الفتنة بين المسلمين بقتله، حيث تظاهروا بأن قدموا لمناقشة الخليفة ، فلما ناقشوه وأظهروا الرضا عنه عادوا إلى بلدانهم.

ولكنهم ما ابتعدوا إلا قليلاً عن المدينة حتى كروا راجعين يحملون معهم كتاباً ادعوا أنهم وجدوه مع راكب أرسله الخليفة إلى عامله في مصر لقتلهم.

ومازالوا يحاصرونه ويضيقون عليه الخناق حتى نفذوا جريمتهم النكراء باقتحامهم داره ، ومن ثم سفك دمه الحرام.

وقد تبين لنا أن عثمان ﷺ من البداية اتخذ موقفاً ثابتاً لم يتغير يقضي بعدم رفع السلاح ضد هؤلاء المتمردين مهما كانت الظروف لاعتبارات عدة ، منها رجاؤه أن يلقى الله دون أن يتسبب في إراقة دم مؤمن ، وقد استجاب الصحابة الموجودين في المدينة لأمره ، وكانوا قد عزموا على الدفاع عنه والقتال دونه .

ـ وأما بالنسبة لعلي ﷺ فقد تعرفنا على سيرته قبل ولايته الخلافة ، فاطلعنا على مواقفه مع الرسول ﷺ ، ثم حضوره الكبير بجانب إخوانه الخلفاء الثلاثة قبله.

ثم رأينا كيف بويع له بالخلافة من قبل جمهور الصحابة في المدينة التي كان آثار مقتل الخليفة السابق يخيم على أرجائها .

وقد عرفنا أن الأمة بعد البيعة له دخلت في أزمة خلاف حول قتلة عثمان ﷺ ، حيث افترقت في الأسلوب الأمثل في معالجة قضيتهم ، وعلى إثر ذلك حدث القتال في

وقعة الجمل التي جُرَّ إليها علي ﷺ من ناحية وعائشة والزبير وطلحة ﷺ من ناحية أخرى على غير إرادة منهم.

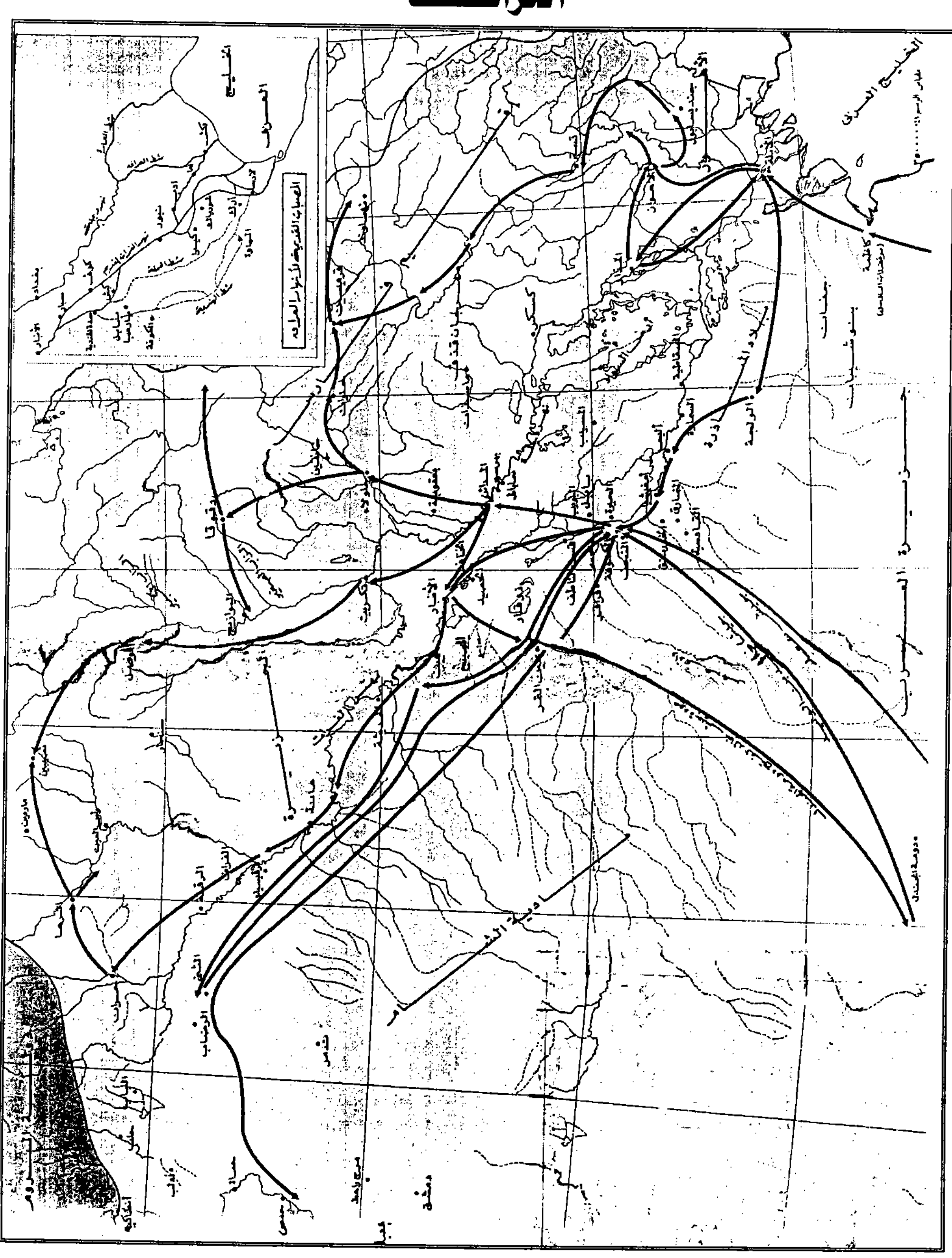
وقد تبين لنا خلال ذلك أن خروج عائشة والزبير وطلحة ﷺ إلى البصرة لم يكن معارضة لخلافة علي ﷺ ، وإنما كان بقصد السعي لإيقاع القصاص بقتلة عثمان ﷺ لتتفق كلمة المسلمين ، وتعود الوحدة إليهم .

ثم جرت وقعة صفين بين علي ﷺ ومعاوية ﷺ ، وانتهت بقبول علي ﷺ التحكيم الذي لم يصل فيه الحكمان إلى اتفاق.

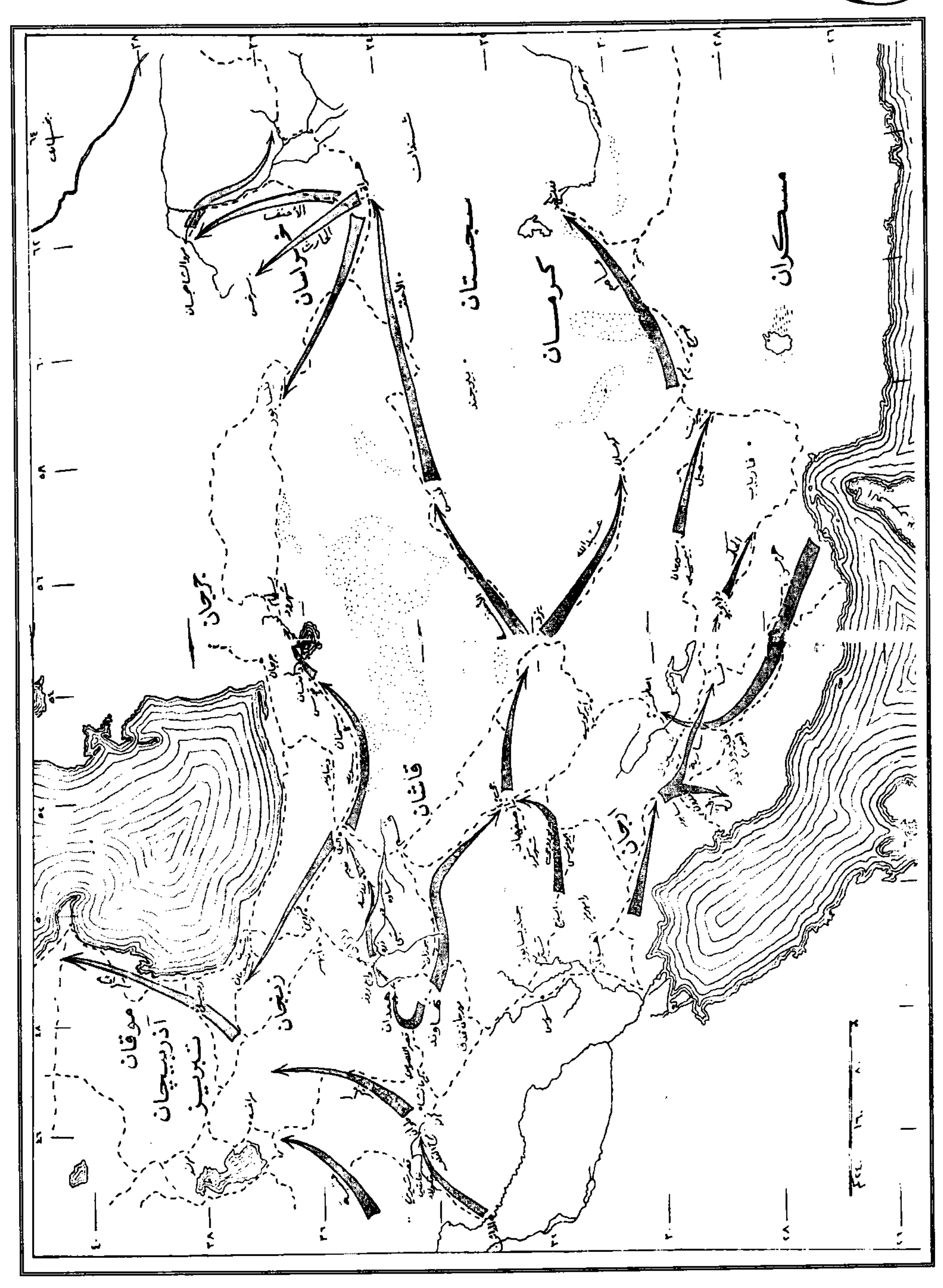
وقد وضح لنا من خلال الروايات الصحيحة في أثناء عرضنا لوقعة صفين أن علياً ﷺ هو الذي وافق على التحكيم لما عرضه عليه معاوية ﷺ ، ولم يرغمه ـ كما هو مشهور في الروايات التاريخية ـ على قبولِ التحكيمِ القراءُ الذين عرفوا بعد ذلك بالخوارج .

ولقد كان لعلي ﷺ جهود في قتال الخوارج ، وخضد شوكتهم ، كما كان له موقف صارم من الذين غلوا فيه من الشيعة ، فحرق بعضهم ، وشرد بعضهم الآخر .
وفي الأخير رأينا أن عهده ﷺ لم يخلُ من فتوحات وإن كانت محدودة ، وقد كان ميدانها فقط في الجناح الشرقي للدولة الإسلامية .

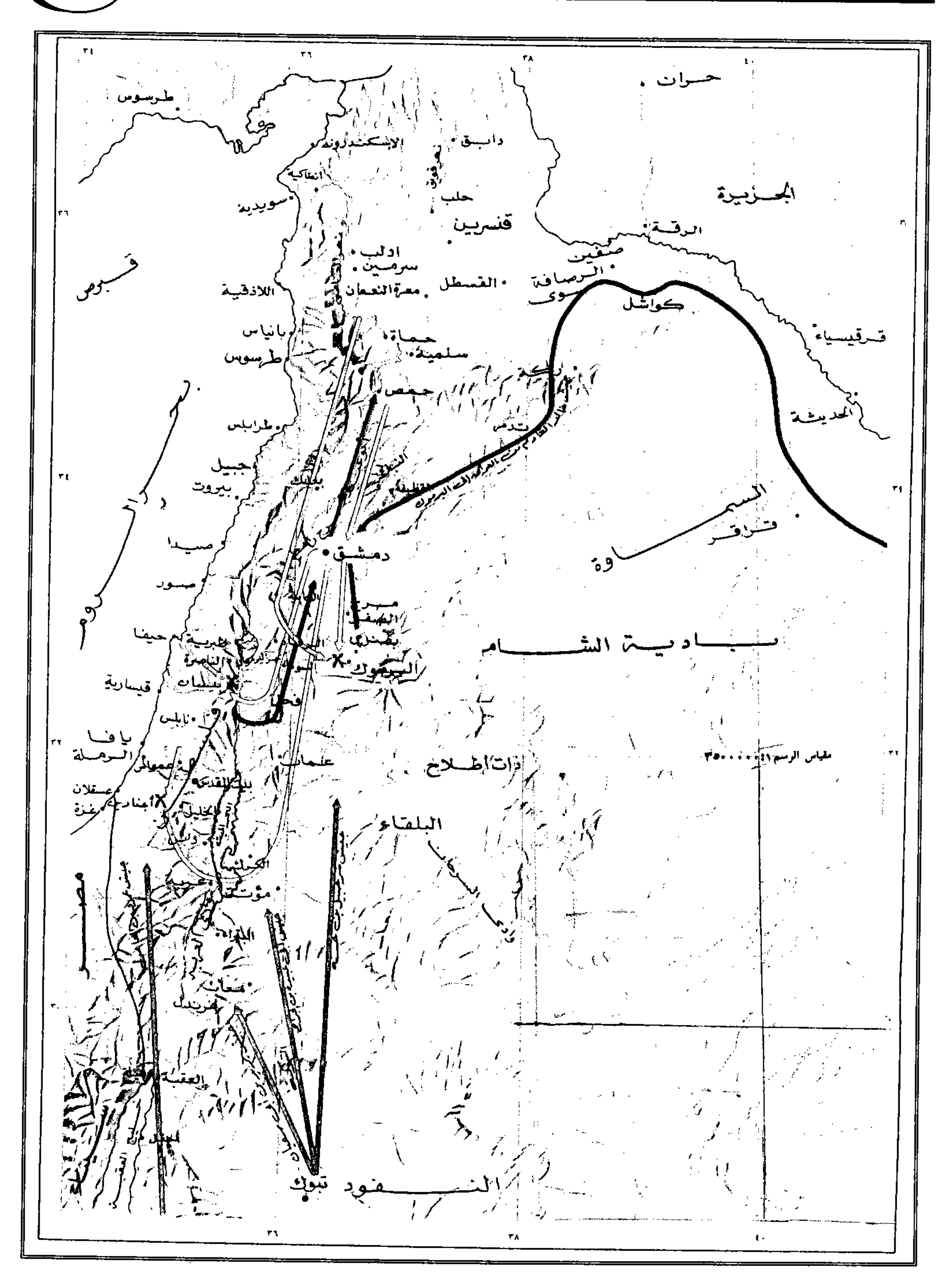
الخرائـــط



خارطة توضح حركة الفتح الإسلامي في العراق وفارس حتى وقعة نهاوند (حسين مؤنس : أطلس تاريخ الإسلام ، ص ١١٤-١١٥)

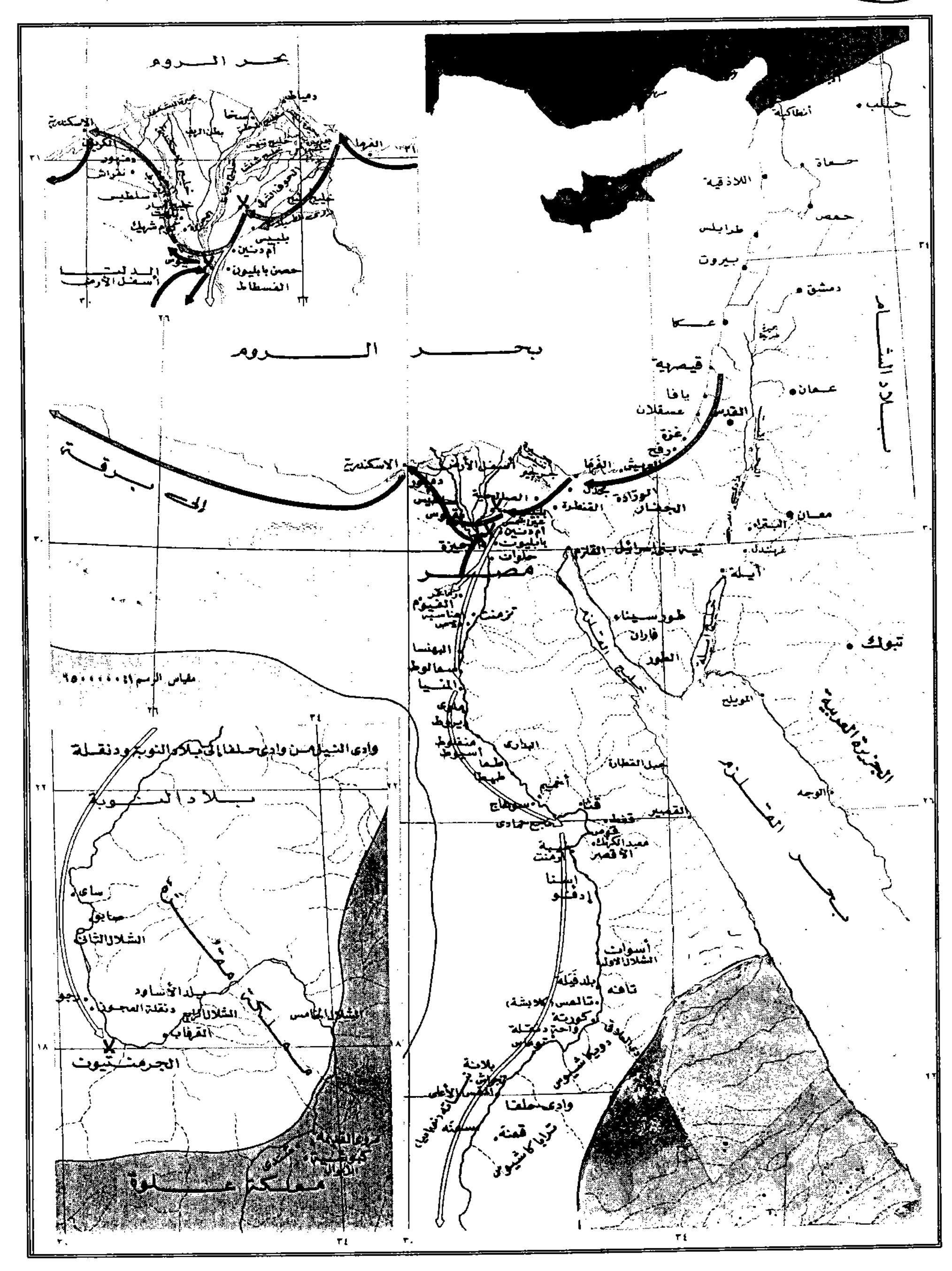


خارطة توضح حركة الفتوحات الإسلامية في البلاد الفارسية بعد نهاوند (أحمد كمال : سقوط المدائن ، ص ٢٨٦-٢٨٧)

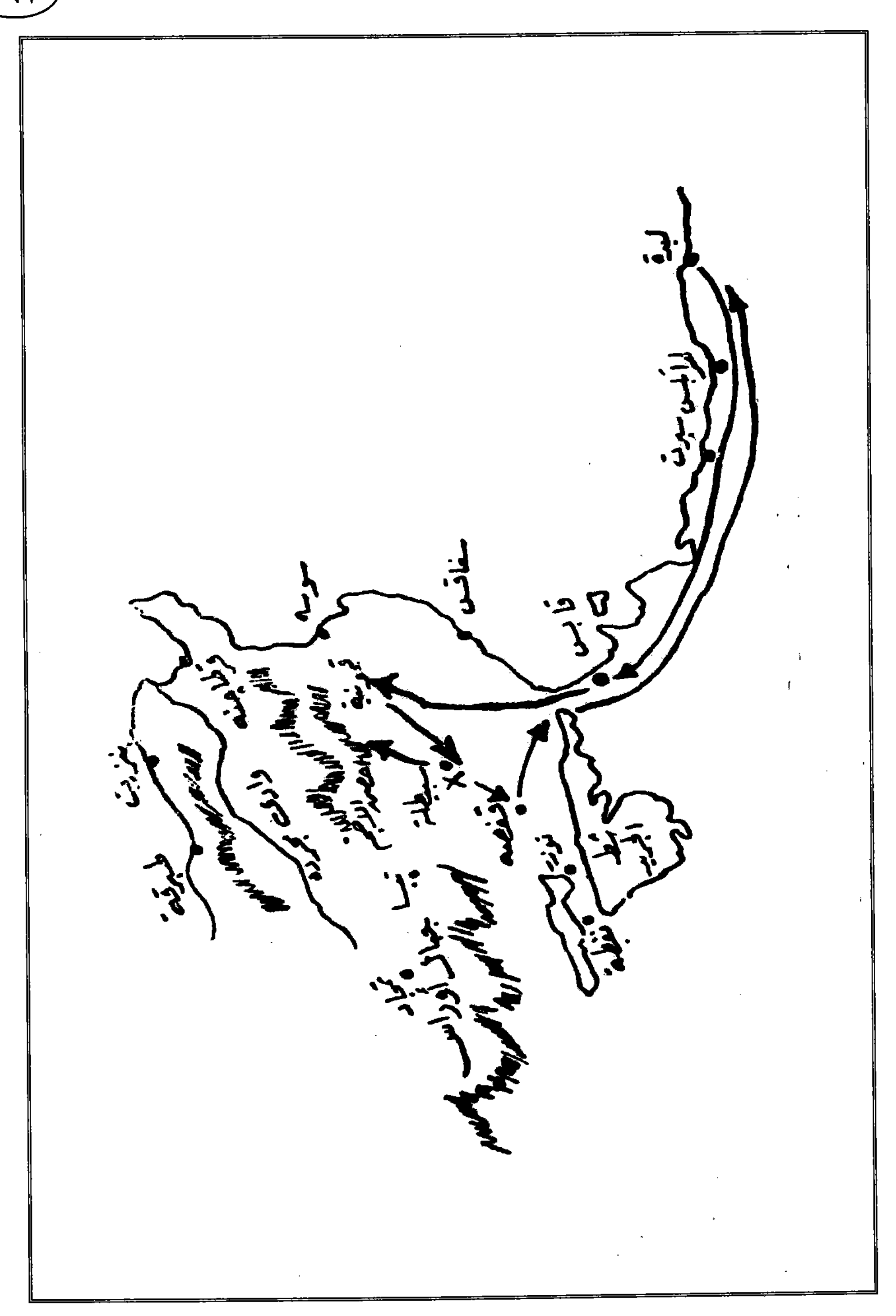


خارطة توضح فتوحات المسلمين في الشام (حسين مؤنس : أطلس تاريخ الإسلام ،

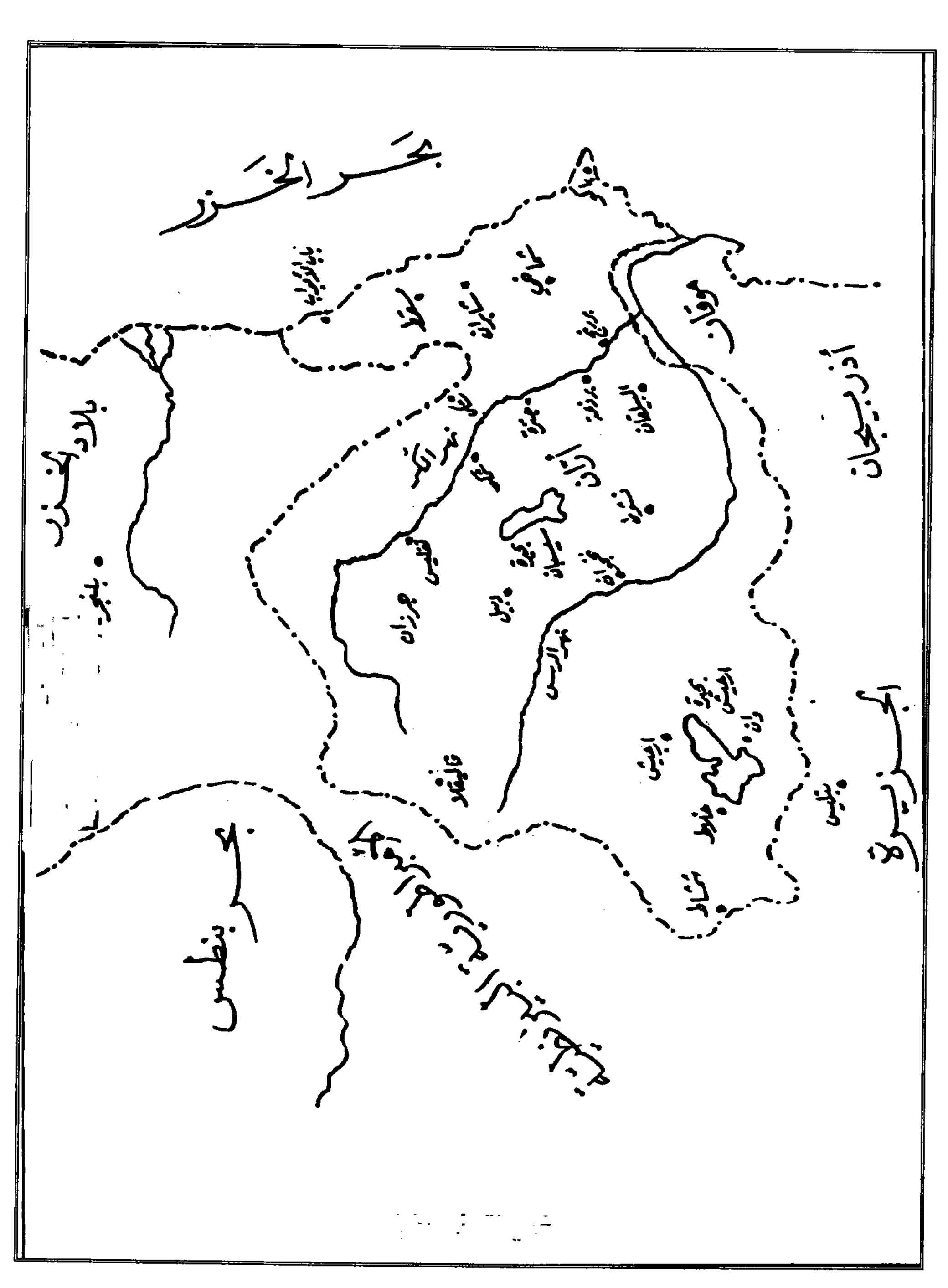
ص١١١)



خارطة الفتح الإسلامي لمصر والنوبة (حسين مؤنس : أطلس التاريخ الإسلامي ، ص ١١٩)



خارطة توضع حملة عبد الله بن سعد بن أبي سرح لفتح إفريقية (عبد العزيز سالم : تاريخ المغرب في العصر الإسلامي ، ص٨٥٣)



خارطة بلاد إرمينية التي فتحت في عهد عثمان ﷺ (محمود شيت خطاب : قادة الفتح الإسلامي في أرمينية ، ص ٢٣)



خارطة تبين الدولة الإسلامية في أقصى اتساع لها في عصر الخلفاء الراشدين (شوقي أبو خليل : أطلس التاريخ العربي الإسلامي ، ص ٣٦ بتصرف)

فهرس المصادر والمراجع

أولاً ـ المصادر :

ـ القرآن الكريم .

الأبشيهي : شهاب الدين محمد بن أحمد (ت ٨٥٠ هـ / ١٤٤٦ م) .

ـ المستطرف في كل فن مستظرف ، ط. دار إحياء التراث العربي ، بيروت .

ابن الأثير : عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم (ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٢ م) .

ـ أسد الغابة في معرفة الصحابة ، تحقيق علي محمد معوض وعادل أحمد عبد الموجود ، ط. الأولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤١٧ هـ / ١٩٩٦ م .

ـ الكامل في التاريخ ، ط. دار صادر ، بيروت ، ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م .

ابن الأثير : مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد (ت ٦٠٦ هـ / ١٢٠٩ م)

ـ النهاية في غريب الحديث والأثر ، تحقيق محمود الطناحي وطاهر الزاوي ، ط. أنصار السنة المحمدية ، لاهور ، باكستان .

الآجري : أبو بكر محمد بن الحسين (ت ٣٦٠ هـ / ٩٧٠ م) .

ـ الشريعة ، تحقيق عبد الله بن عمر الدميجي ، ط. الأولى ، دار الوطن ، الرياض ، ١٤١٨ هـ / ١٩٩٧ م .

أحمد : الإمام أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل (ت ٢٤١ هـ / ٨٥٥ م) .

ـ فضائل الصحابة ، تحقيق وصى الله بن محمد عباس ، ط. الأولى ، جامعة أم القرى ، مكة ، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م .

ـ مسند الإمام أحمد بن حنبل ، إعداد علي حسن الطويل ، إشراف سمير طه المجذوب ، ط. الأولى ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، ١٤١٣ هـ / ١٩٩٣ م . وتحقيق أحمد محمد شاكر ، ط. دار المعارف بمصر ، ١٣٦٩ هـ / ١٩٥٠ م . وتخريج شعيب الأرنؤوط ، ط. مؤسسة قرطبة ، القاهرة .

الأزدي : محمد بن عبد الله (ت . تقريباً ٢٣٠ هـ / ٨٤٤ م) .

- فتوح الشام ، تحقيق عبد المنعم عامر ، ط. مؤسسة سجل العرب ، القاهرة ، ١٩٧٠م .

الأزرقي : أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد (ت. حوالي ٢٤٤ هـ / ٨٥٨ م) .

- أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار ، ط. الرابعة ، مطابع دار الثقافة ، مكة المكرمة ، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م .

ابن إسحاق : محمد بن إسحاق بن يسار (ت ١٥١ هـ / ٧٦٨ م) .

- سيرة ابن إسحاق ، تحقيق محمد حميد الله ، ط. معهد الدراسات والأبحاث ، فاس ، ١٣٩٦ هـ / ١٩٧٦ م .

الإسفراييني : أبو المظفر طاهر بن محمد (ت ٤٧١ هـ / ١٠٧٨ م) .

- التبصير بالدين وتمييز الفرقة الناجية عن فرق الهالكين ، تحقيق كمال يوسف الحوت ، ط. الأولى ، عالم الكتب ، بيروت ، ١٩٨٣ م .

الأصفهاني : أبو نعيم أحمد بن عبد الله (ت ٤٣٠ هـ / ١٠٣٨ م) .

- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، ط. دار الكتب العلمية ، بيروت .

الأصفهاني: أبو الفرج علي بن الحسين (ت ٣٥٦ هـ / ٩٧٦ م) .

- كتاب الأغاني ، ط. دار إحياء التراث العربي ، بيروت .

ابن أعثم الكوفي : أبو محمد أحمد بن أعثم (ت ٣١٤ هـ / ٩٢٦ م) .

- كتاب الفتوح ، ط. دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤٠٦ هـ .

الباجي : أبو الوليد سليمان بن خلف (ت ٤٧٤ هـ / ١٠٨١ م) .

- التعديل والتجريح ، حققه أبولبابة حسين ، ط. الأولى ، دار اللواء ، الرياض ، ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م .

البخاري : أبو عبد الله محمد بن إسماعيل (ت ٢٥٦ هـ / ٨٧٠ م) .

- التاريخ الأوسط ، تحقيق محمود إبراهيم زايد ، ط، الأولى ، دار الوعي ، حلب ، ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧ م .

- التاريخ الكبير ، تحقيق السيد هاشم الندوي ، ط. دار الفكر .
- الصحيح ، تحقيق مصطفى البغا ، ط. الخامسة ، دار ابن كثير ، دمشق ، بيروت ، ١٤١٤ هـ / ١٩٩٣ م .

البسوي : أبو يوسف يعقوب بن سفيان (ت ٢٧٧ هـ / ٨٩٠ م) .
- المعرفة والتاريخ ، تحقيق أكرم ضياء العمري ، ط. الثانية ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٤٠١ هـ / ١٩٨١م .

البغوي : أبو محمد الحسين بن مسعود الفراء (ت ٥١٦ هـ / ١١٢٢ م) .
- معالم التنزيل ، تحقيق خالد العك ومروان سوار ، ط. الثانية ، دار المعرفة ، بيروت ، ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م .

البلاذري : أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩ هـ / ٨٩٢ م) .
- جمل من أنساب الأشراف ، تحقيق سهيل زكار ورياض زركلي ، ط. الأولى ، دار الفكر ، بيروت ، ١٤١٧ هـ / ١٩٩٦ م .
- فتوح البلدان ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، ط. مكتبة النهضة المصرية .

ابن بلبان : الأمير علاء الدين علي بن بلبان (ت ٧٣٩ هـ / ١٣٣٨ م) .
- صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان ، تحقيق شعيب الأرنؤوط ، ط. الثانية ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٤١٤ هـ / ١٩٩٣ م .

ابن بلبان المقدسي : أبو القاسم علي بن بلبان (ت ٦٨٤ هـ / ١٢٨٥ م) .
- تحفة الصديق في فضائل أبي بكر الصديق ، تحقيق محيي الدين مستو ، ط. الأولى ، مكتبة دار التراث ، المدينة ، ١٤١٨ هـ / ١٩٨٨ م .

البيهقي : أبو بكر أحمد بن الحسين (ت ٤٥٨ هـ / ١٠٦٥ م) .
- السنن الكبرى ، تحقيق عبد الغفار سليمان البنداري وسيد كسروي حسن ، ط. الأولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤١١ هـ / ١٩٩١ م .
- دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة ، تحقيق عبد المعطي قلعجي ، ط.

الأولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م .

الترمذي : أبو عيسى محمد بن عيسى (ت ٢٧٩ هـ / ٨٩٢ م) .

- السنن (مطبوع مع تحفة الأحوذي) ، تحقيق علي معوض وعادل عبد الموجود ، ط. الأولى ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ١٤١٩ هـ / ١٩٩٨ م .

- مختصر الشمائل المحمدية ، اختصار وتحقيق محمد ناصر الدين الألباني ، ط. الرابعة ، مكتبة المعارف ، الرياض ، ١٤١٣ هـ .

التيمي : أبو القاسم إسماعيل بن محمد بن الفضل (ت ٥٣٥ هـ) .

- الخلفاء الأربعة ، تحقيق كرم حلمي فرحات أبو صيري ، ط. دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٩٩ م .

ابن تيمية : أبو العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم (ت ٧٢٨ هـ / ١٣٢٨ م) .

- أبو بكر الصديق (مستخرج من كتاب منهاج السنة) ، جمع وتعليق محمد مال الله ، ط. الأولى ، مكتبة ابن تيمية ، ١٤١٠ هـ / ١٩٨٩ م .

- الخلافة والملك ، تحقيق حماد سلامة ، ط. الأولى ، دار المنار ، الأردن ، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م .

- الدليل والبرهان على صرع الجن للإنسان ، تحقيق محمد بن طاهر الزين ، ط. الثانية، مكتبة السندس .

- الصارم المسلول على شاتم الرسول ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، ط. دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م .

- العقيدة الواسطية ، نشرت مع كتاب آداب المشي إلى الصلاة لمحمد بن عبد الوهاب ، ط. دار الإشعاع ، الرياض .

- الفتاوى الكبرى ، تحقيق حسنين محمد مخلوف ، ط. الأولى ، دار المعرفة ، بيروت ، ١٣٨٦ هـ .

- مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ، جمع عبد الرحمن بن محمد بن قاسم ، ط. دار المعارف ، المغرب .

- منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية ، تحقيق محمد رشاد سالم ، ط. الأولى ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، الرياض ، ١٤٠٦ هـ/ ١٩٨٦م .

ابن الجوزي : أبو الفرج عبد الرحمن بن علي (ت ٥٩٧ هـ / ١٢٠٠ م) .

- تاريخ عمر بن الخطاب ، تحقيق عبد البر عباس ، ط. الأولى ، دار المعرفة ، بيروت ، ١٤٢٥ هـ / ٢٠٠٤ م .

- المنتظم في تاريخ الأمم والملوك ، تحقيق محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا ، ط. الأولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤١٢ هـ / ١٩٩٢ م .

ابن أبي حاتم : أبو محمد عبد الرحمن بن محمد (ت ٣٢٧ هـ / ٩٣٨ م) .

- الجرح والتعديل ، ط. الأولى ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ١٣٧١ هـ / ١٩٥٢ م .

الحاكم : أبو عبد الله محمد بن عبد الله النيسابوري (ت ٤٠٥ هـ / ١٠١٤ م) .

- المستدرك على الصحيحين ، تحقيق حمدي الدمرداش محمد ، ط. الأولى ، مكتبة مصطفى الباز ، مكة ، ١٤٢٠ هـ / ٢٠٠٠ م .

ابن حبان : أبو حاتم محمد بن حبان البستي (ت ٣٥٤ هـ / ٩٦٥ م) .

- السيرة النبوية وأخبار الخلفاء (من كتابه الثقات) تحقيق الحافظ السيد عزيز بك وجماعة من العلماء ، ط. الأولى ، مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت ، ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م .

ابن حجر العسقلاني : شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي (ت ٨٥٢ هـ / ١٤٤٩م) .

- الإصابة في تمييز الصحابة ، تحقيق علي محمد البجاوي ، ط. دار الجيل ، بيروت ، ١٤١٢ هـ / ١٩٩٢ م .

- تلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير ، تحقيق السيد عبد الله هاشم اليماني المدني ، ط. دار المعرفة ، بيروت .

- تهذيب التهذيب ، ط. الأولى ، دار الفكر ، بيروت ، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م .

- فتح الباري شرح صحيح البخاري ، ط. دار المعرفة ، بيروت .

ابن حزم : أبو محمد علي بن أحمد (ت ٤٥٦ هـ / ١٠٦٣ م) .

ـ الفِصَل في الملل والأهواء والنحل ، تحقيق محمد إبراهيم نصر وعبد الرحمن عميرة ، ط. دار الجيل ، بيروت ، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥م .

الحلبي : علي بن برهان الدين (ت ١٠٤٤ هـ / ١٦٣٤ م) .

ـ السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون ، ط. دار المعرفة ، بيروت ، ١٤٠٠ هـ .

الحميري : أبو عبد الله محمد بن عبد المنعم (ت حوالي ٧٢٧ هـ / ١٣٢٦ م) .

ـ الروض المعطار في خبر الأقطار ، تحقيق إحسان عباس ، ط. الثانية ، مكتبة لبنان ، بيروت ، ١٩٨٤ م .

ابن حنبل : عبد الله بن أحمد (ت ٢٩٠ هـ / ٩٠٢ م) .

ـ فضائل عثمان بن عفان ﷺ ، تحقيق طلعت بن فؤاد الحلواني ، ط. الأولى ، دار ماجد عسيري ، جدة ، ١٤٢١ هـ / ٢٠٠٠ م .

الخزاعي : أبو الحسن علي بن محمد (ت ٧٨٩ هـ / ١٣٨٧ م) .

ـ تخريج الدلالات السمعية على ما كان في عهد رسول الله ﷺ من الحرف والصنائع والعملات الشرعية ، تحقيق أحمد محمد أبو سلامة ، ط. المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، القاهرة ، ١٤٠١ هـ / ١٩٨٠ م .

ابن خلدون : أبو زيد عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م) .

ـ المقدمة ، تحقيق خليل شحادة ، ط. الأولى ، دار الفكر ، بيروت ، ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م .

الخطيب البغدادي : أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت (ت ٤٦٣ هـ / ١٠٧٠ م) .

ـ تاريخ بغداد ، ط. دار الكتب العلمية ، بيروت .

ـ الكفاية في معرفة أصول علم الرواية ، تحقيق إبراهيم بن مصطفى الدمياطي ، ط. الأولى ، دار الهدى ، ميت غمر ، مصر ، ١٤٢٣ هـ / ٢٠٠٣ م .

خليفة بن خياط : أبو عمرو خليفة بن خياط بن أبي هبيرة العصفري (ت ٢٤٠ هـ / ٨٥٤ م) .

- تاريخ خليفة بن خياط ، تحقيق أكرم ضياء العمري ، ط. الثانية ، دار القلم - مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧ م .

ابن أبي داود : أبو بكر عبد الله بن سليمان بن الأشعث السجستاني (ت ٣١٦ هـ / ٩٢٨ م) .

- كتاب المصاحف ، تحقيق محب الدين عبد السبحان واعظ ، ط. الثانية ، دار البشائر الإسلامية ، بيروت ، ١٤٢٣ هـ / ٢٠٠٢ م .

ابن دحية : أبو الخطاب عمر بن حسن (ت ٦٣٣ هـ / ١٢٣٥ م) .

- أعلام النصر المبين في المفاضلة بين أهلي صفين ، تحقيق محمد أمحزون ، ط. الأولى ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٩٩٨ م .

ابن أبي الدنيا : أبو بكر عبد الله بن محمد (ت ٢٨١ هـ / ٨٩٤ م) .

- الورع ، تحقيق محمد بن حمد الحمود ، ط. الأولى ، الدار السلفية ، الكويت ، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م .

الديار بكري : حسين بن محمد بن الحسن (٩٦٦ هـ / ١٥٥٨ م) .

- تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس ، ط. مؤسسة شعبان ، بيروت .

الدينوري : أبو حنيفة أحمد بن داود (ت ٢٨٢ هـ / ٨٩٥ م) .

- الأخبار الطوال ، تحقيق عبد المنعم عامر ، ط.الأولى ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، ١٩٦٠ م.

الذهبي : شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨ هـ / ١٣٤٨ م) .

- سير أعلام النبلاء ، تحقيق شعيب الأرنؤوط ، ط. الثامنة ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٤١٢ هـ / ١٩٩٢ م .

- السيرة النبوية (تاريخ الإسلام) ، تحقيق عمر عبد السلام تدمري ، ط. الأولى ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م .

- عهد الخلفاء الراشدين (تاريخ الإسلام) ، تحقيق عمر عبد السلام تدمري ، ط. الأولى ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م .

- ميزان الاعتدال في نقد الرجال ، تحقيق علي محمد معوض وعادل أحمد عبد الموجود ، ط. الأولى ، دار الكتب العلمية ، ١٩٩٥م .

ابن رجب : أبو الفرج عبد الرحمن بن أحمد (ت ٧٩٠ هـ / ١٣٨٨ م) .

- الرد على من اتبع غير المذاهب الأربعة (رسالة ضمن مجموع رسائل الحافظ ابن رجب الحنبلي) تحقيق طلعت بن فؤاد الحلواني ، ط. الأولى ، الفاروق الحديثة ، القاهرة ، ١٤٢٣ هـ / ٢٠٠٢ م .

الزبيدي : محب الدين أبو الفيض السيد محمد مرتضى (ت ١٢٠٥ هـ / ١٧٩١ م) .

- تاج العروس ، تحقيق علي شيري ، ط. دار الفكر ، بيروت ، ١٤١٤ هـ / ١٩٩٤م .

الزرقاني : محمد بن عبد الباقي (ت ١١٢٢ هـ / ١٧١٠ م) .

- شرح المواهب اللدنية بالمنح المحمدية ، تحقيق محمد عبد العزيز الخالدي ، ط. الأولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤١٧ هـ / ١٩٩٦ م .

ابن زنجويه : أبو أحمد حميد بن مخلد (ت ٢٥١ هـ / ٨٦٥ م) .

- الأموال ، تحقيق شاكر ذيب فياض ، ط. الأولى ، مركز الملك فيصل ، ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م .

السخاوي : شمس الدين محمد بن عبد الرحمن (ت ٩٠٢ هـ / ١٤٩٧ م) .

- الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ ، تحقيق فرانز روزنثال ، ترجمة صالح أحمد العلي ، ط. الأولى ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٦ م .

السرخسي : شمس الدين أبو بكر محمد بن أحمد (ت ٤٨٣ هـ / ١٠٩٠ م) .

- المبسوط ، ط. دار المعرفة ، بيروت .

ابن سعد : أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع (ت ٢٣٠ هـ / ٨٤٤ م) .

- الطبقات الكبرى ، ط. دار صادر ، بيروت .

السمهودي : علي بن عبد الله بن أحمد (٩٢٢ هـ / ١٥١٦ م) .

- خلاصة الوفاء بأخبار دار المصطفى ، ط. المكتبة العلمية ، المدينة المنورة ، ١٣٩٢ هـ / ١٩٧٢ م .

ابن سيد الناس : أبو الفتح محمد بن محمد (ت ٧٣٤ هـ / ١٣٣٣ م) .

- عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير ، تحقيق محمد الخطراوي ومحيي الدين مستو ، ط. الأولى ، مكتبة دار التراث ، المدينة المنورة ، ١٤١٣ هـ / ١٩٩٢ م .

سيف بن عمر : أبو عبد الله سيف بن عمر الضبي الأسيدي التميمي (ت حوالي ١٨٠هـ / ٧٩٦ م) .

- كتاب الردة والفتوح وكتاب الجمل ومسير عائشة وعلي ، تحقيق قاسم السامرائي ، ط. الثانية ، دار أمية ، الرياض ، ١٤١٨ هـ / ١٩٩٧ م .

السيوطي : جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م) .

- الإتقان في علوم القرآن ، ط. دار المعرفة ، بيروت .

- تاريخ الخلفاء ، تحقيق حمدي الدمرداش محمد ، ط. الأولى ، مكتبة نزار الباز ، مكة المكرمة ، ١٤٢١ هـ / ٢٠٠٠ م .

- حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط. الأولى ، ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م .

- الشماريخ في علم التاريخ ، تحقيق محمد بن إبراهيم الشيباني ، ط. الدار السلفية ، الكويت .

السيوطي : أبو عبد الله محمد بن شهاب الدين أحمد المنهاجي (ت ٨٨٠ هـ / ١٤٧٥ م).

- إتحاف الأخِصّا بفضائل المسجد الأقصى ، تحقيق أحمد رمضان أحمد ، ط. الهيئة المصرية العامة ، ١٩٨٢ م .

ابن شبة : أبو زيد عمر بن شبة النميري البصري (ت ٢٦٢ هـ / ٨٧٥ م) .

- أخبار المدينة النبوية (تاريخ المدينة المنورة) ، تحقيق علي محمد دندل وياسين سعد الدين بيان ، ط. الأولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤١٧ هـ / ١٩٩٦ م .

ابن أبي شيبة : أبو بكر عبد الله بن محمد (ت ٢٣٥ هـ / ٨٤٩ م) .

- المصنف ، تحقيق كمال يوسف الحوت ، ط. الأولى ، مكتبة الرشد ، الرياض ، ١٤٠٩ هـ . وتحقيق حمد بن عبد الله الجمعة ومحمد بن إبراهيم اللحيدان ، ط. الأولى ، مكتبة الرشد ، الرياض ، ١٤٢٥ هـ / ٢٠٠٤ م .
- المغازي ، تحقيق عبد العزيز العمري ، ط. الأولى ، دار إشبيليا ، الرياض ، ١٤٢٠ هـ / ١٩٩٩ م .

الصفدي : صلاح الدين خليل بن أيبك (ت ٧٦٤ هـ / ١٣٦٣ م) .

- الوافي بالوفيات ، ط. الثانية ، فرانز شتايز شتوتغارت ،١٩٩١ م .

الصفوري : أبو هريرة عبد الرحمن بن عبد السلام (ت ٨٩٤ هـ / ١٤٨٩ م) .

- مختصر المحاسن المجتمعة في فضائل الخلفاء الأربعة ، تحقيق محمد خير المقداد ومحمود الأرناؤوط ، ط. الأولى ، دار ابن كثير ، دمشق ، ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م .

ابن الصلاح : أبو عمرو عثمان بن عبد الرحمن (ت ٦٤٢ هـ / ١٢٤٤ م) .

- مقدمة ابن الصلاح في الحديث ، ط. دار الكتب العلمية ، بيروت .

ضياء الدين المقدسي : أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد (ت ٦٤٣ هـ / ١٢٤٥ م) .

- الأحاديث المختارة ، تحقيق عبد الملك بن عبد الله بن دهيش ، ط. الأولى ، مكتبة النهضة الحديثة ، مكة ، ١٤١٠ هـ .

الطبراني : أبو القاسم سليمان بن أحمد (ت ٣٦٠ هـ / ٩٧٠ م) .

- المعجم الأوسط ، تحقيق : طارق بن عوض الله بن محمد وعبد المحسن بن إبراهيم الحسيني ، ط. دار الحرمين ، القاهرة ، ١٤١٥ هـ .
- المعجم الكبير ، تحقيق حمدي بن عبد المجيد السلفي ، ط. الثانية ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٣م .

الطبري : محب الدين أبو جعفر أحمد بن عبد الله (ت ٦٩٤ هـ / ١٢٩٤ م) .

- الرياض النضرة في مناقب العشرة ، ط. الأولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤٠٥ هـ .

ـ الرياض النضرة في مناقب العشرة (في مناقب خليفة رسول الله أبي بكر الصديق ﷺ) تحقيق عيسى بن عبد الله الحميري ، ط. الأولى ، دار الغرب ، بيروت ، ١٩٩٦م .

الطبري : أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ / ٩٢٢ م) .

ـ تاريخ الأمم والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط. دار سويدان ، بيروت .

ـ تهذيب الآثار ، تحقيق محمود محمد شاكر ، ط. مكتبة المدني ، القاهرة .

ابن أبي عاصم : أبو بكر أحمد بن عمرو الشيباني (ت ٢٨٧ هـ / ٩٠٠ م) .

ـ الآحاد والمثاني ، تحقيق باسم فيصل الجوابرة ، ط. الأولى ، دار الراية ، الرياض ، ١٤١١ هـ / ١٩٩١ م .

ـ السنة ، تحقيق باسم بن فيصل الجوابرة ، ط. الأولى ، دار الصميعي ، الرياض ، ١٤١٩ هـ / ١٩٩٨ م .

العامري اليمني : أبو زكريا يحيى بن أبي بكر (ت ٨٩٣ هـ / ١٤٨٨ م) .

ـ الرياض المستطابة في جملة من روى في الصحيحين من الصحابة ، تحقيق عمر الديراوي أبو حجلة ، ط. الثالثة ، مكتبة المعارف ، بيروت .

ابن عبد البر : أبو عمر يوسف بن عبد الله (ت ٤٦٣ هـ / ١٠٧١ م) .

ـ الاستذكار ، تحقيق سالم محمد عطا ومحمد علي معوض ، ط. الأولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ،١٤٢١ هـ / ٢٠٠٠ م .

ـ الاستيعاب في معرفة الأصحاب ، تحقيق علي محمد البجاوي ، ط. دار نهضة مصر ، القاهرة .

ـ الدرر في اختصار المغازي والسير ، تحقيق مصطفى البغا ، ط. الثانية ، مؤسسة علوم القرآن ، دمشق ـ بيروت ، ١٤١٤ هـ / ١٩٨٤ م .

ابن عبد الحكم : عبد الرحمن بن عبد الله (٢٥٧ هـ / ٨٧١ م) .

ـ فتوح مصر والمغرب ، تحقيق على محمد عمر ، ط. مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، ١٤١٥ هـ / ١٩٩٥ م .

ابن عبد ربه : أحمد بن محمد (ت ٣٢٨ هـ / ٩٣٩ م) .

ـ العقد الفريد ، تحقيق محمد سعيد العريان ، ط. دار الفكر ، بيروت .

عبد الرزاق الصنعاني : عبد الرزاق بن همام (ت ٢١١ هـ / ٨٣٥ م) .

ـ مصنف عبد الرزاق ، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي ، ط. الثانية ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، ١٤٠٣ هـ .

أبو عبيد : القاسم بن سلام (٢٢٤ هـ / ٨٣٨ م) .

ـ كتاب الأموال ، تحقيق محمد خليل هراس ، ط. الأولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م .

عبيد الله بن صالح : عبيد الله بن صالح بن عبد الحليم (عاش في ق. الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي) .

ـ نص جديد عن فتح العرب للمغرب ، نشره ليفي بروفنسال ، صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد ، م ٢ ، سنة ١٩٥٤ م .

عثمان بن منصور : عثمان بن عبد العزيز بن منصور التميمي (ت ١٢٨٢ هـ / ١٨٦٥م).

ـ فتح الحميد في شرح التوحيد ، تحقيق سعود العريفي وحسين السعيدي ، ط. الأولى، دار عالم الفوائد ، مكة المكرمة ، ١٤٢٥ هـ .

ابن العديم : كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد (٦٦٠ هـ / ١٢٦١ م) .

ـ بغية الطلب في تاريخ حلب ، تحقيق سهيل زكار ، ط. دار الفكر ، بيروت .

ابن عدي : أبو أحمد بن عدي بن عبد الله (ت ٣٦٥ هـ / ٩٧٥ م) .

ـ الكامل في ضعفاء الرجال ، تحقيق يحيى مختار غزاوي ، ط. الثالثة ، دار الفكر ، بيروت ، ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٨ م .

ابن عِذاري : أبو العباس أحمد بن محمد (ت بعد ٧١٢ هـ / ١٣١٢ م) .

ـ البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، تحقيق كولان وبروفسال ، ط. الثالثة ،

دار الثقافة ، بيروت .

أبو العرب بن تميم : محمد بن أحمد (ت ٣٣٣ هـ / ٩٤٤ م) .

ـ طبقات علماء إفريقية ، ط. دار الكتاب اللبناني ، بيروت .

ابن العربي : أبو بكر محمد بن عبد الله المعافري (ت ٥٤٣ هـ / ١١٤٧ م) .

ـ العواصم من القواصم ، تحقيق محب الدين الخطيب ، وخرج أحاديثه محمود مهدي الإستانبولي ، ط. الأولى ، دار الكتب السلفية ، القاهرة ، ١٤٠٥ هـ .

ابن أبي العز الحنفي : علي بن علي بن محمد (ت ٧٩٢ هـ / ١٣٨٩ م) .

ـ شرح العقيدة الطحاوية ، تحقيق عبد الله التركي وشعيب الأرناؤوط ، ط. الثالثة ، مؤسسة الرسالة ، ١٤١٢ هـ .

ابن عساكر : أبو القاسم علي بن حسن بن هبة الله (ت ٥٧١ هـ / ١١٧٥ م) .

ـ تاريخ مدينة دمشق ، تحقيق عمر بن غرامة العمروي ، ط. دار الفكر ، بيروت ، ١٩٩٥ م .

ـ عثمان بن عفان ﷺ (مستل من تاريخ مدينة دمشق) ، تحقيق سكينة الشهابي ، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق .

ـ عمر بن الخطاب ﷺ (مستل من تاريخ مدينة دمشق) ، تحقيق سكينة الشهابي ، ط. الأولى ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٤١٤ هـ / ١٩٩٤ م .

العيني : بد الدين أبو محمد محمود بن أحمد (ت ٨٥٥ هـ / ١٤٥١ م) .

ـ عمدة القاري شرح صحيح البخاري ، ط. إحياء التراث العربي ، بيروت .

الغزالي : أبو حامد محمد بن محمد (ت ٥٠٥ هـ / ١١١١ م) .

ـ إحياء علوم الدين ، ط. دار المعرفة ، بيروت ، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م .

الفاكهي : أبو عبد الله محمد بن إسحاق (ت أواخر القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي) .

ـ أخبار مكة ، تحقيق عبد الملك بن دهيش ، ط. الثانية ، دار خضر ، بيروت ، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤ م .

ابن فهد : (النجم عمر) محمد بن محمد (ت ٨٨٥ هـ / ١٤٨٠ م) .

- إتحاف الورى بأخبار أم القرى ، تحقيق فهيم محمد شلتوت ، ط. جامعة أم القرى ، مكة المكرمة .

الفيروز آبادي : مجد الدين محمد بن يعقوب (ت ٨١٧ هـ / ١٤١٤م) .

- المغانم المطابة في معالم طابة ، ط. الأولى ، مركز بحوث ودراسات المدينة المنورة ، المدينة ، ١٤٢٣ هـ / ٢٠٠٢ م .

القاضي عبد الجبار : أبو الحسن عبد الجبار الأسدآبادي (ت ٤١٥ هـ / ١٠٢٤ م) .

- المغني في أبواب التوحيد والعدل ، تحقيق محمود محمد قاسم (بدون مكان وسنة الطبع) .

ابن قتيبة : أبو محمد عبد الله بن مسلم (ت ٢٧٦ هـ / ٨٨٩ م) .

- المعارف ، تحقيق ثروت عكاشة ، ط. الرابعة ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨١ م .

ابن قتيبة (منسوب خطأ إليه) :

- الإمامة والسياسة ، تحقيق محمد طه الزيني ، ط. مؤسسة الحلبي .

ابن قدامة : موفق الدين أبو محمد عبد الله بن أحمد (ت ٦٢٠ هـ / ١٢٢٣ م) .

- المغني ، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي وعبد الفتاح محمد الحلو ، ط. الرابعة ، دار عالم الكتب ، الرياض ، ١٤١٩ هـ / ١٩٩٩ م .

قدامة بن جعفر : أبو الفرج قدامة بن جعفر بن قدامة (ت ٣٣٧ هـ / ٩٤٨ م) .

- الخراج وصناعة الكتابة ، تحقيق محمد حسين الزبيدي ، ط. دار الرشيد ، بغداد ، ١٩٨١ م .

القرطبي : أبو العباس أحمد بن عمر (٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م) .

- المُفْهِم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم ، تحقيق محيي الدين مستو ويوسف بديوي وأحمد السيد ومحمود بزال ، ط. الأولى ، دار ابن كثير ، دمشق - بيروت ، ١٤١٧ هـ / ١١٩٩٦ م .

القرطبي : أبو عبد الله محمد بن أحمد (ت ٦٧١ هـ / ١٢٧٣ م) .

- الجامع لأحكام القرآن ، ، تحقيق عبد الرزاق المهدي ، ط. الثالثة ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٤٢١ هـ / ٢٠٠ م .

القطبي : عبد الكريم بن محب الدين (ت ١٠١٤ هـ / ١٦٠٥ م) .

- إعلام العلماء الأعلام ببناء المسجد الحرام ، تحقيق أحمد محمد جمال وعبد العزيز الرفاعي ، ط. الثانية ، دار الرفاعي ، الرياض ، ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م .

ابن قيم الجوزية : شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر (ت ٧٥١ هـ / ١٣٥٠م) .

- زاد المعاد في هدي خير العباد ، تحقيق شعيب الأرنؤوط وعبد القادر الأرنؤوط ، ط. الثانية ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م .

ابن كثير : عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤ هـ / ١٣٧٢ م) .

- البداية والنهاية ، ط. دار المعارف ، بيروت .

- تفسير القرآن العظيم ، تحقيق عبد الرزاق المهدي ، ط. الأولى ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٤٢٢ هـ

- خلافة أبي بكر الصديق ﷺ (من كتاب البداية والنهاية) ترتيب وتهذيب محمد بن صامل السلمي ، ط. الأولى دار الوطن ، الرياض ، ١٤١٨ هـ .

- خلافة عمر بن الخطاب ﷺ (من كتاب البداية والنهاية) ترتيب وتهذيب محمد بن صامل السلمي ، ط. الأولى ، دار الوطن ، الرياض ، ١٤١٨ هـ .

- خلافة عثمان بن عفان ﷺ (من كتاب البداية والنهاية) ترتيب وتهذيب محمد بن صامل السلمي ، ط. الأولى ، دار الوطن ، الرياض ، ١٤١٩ هـ .

- خلافة علي بن أبي طالب ﷺ (من كتاب البداية والنهاية) ترتيب وتهذيب محمد بن صامل السلمي ، ط. الأولى ، دار الوطن ، الرياض ، ١٤٢٢ هـ .

- السيرة النبوية ، تحقيق مصطفى عبد الواحد ، ط. دار المعرفة ، بيروت ، ١٣٩٦ هـ / ١٩٧٦ م .

الكلاعي : أبو الربيع سليمان بن موسى (ت ٦٣٤ هـ / ١٢٣٧ م) .

ـ الإكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء ، تحقيق محمد كمال الدين عز الدين علي ، ط.الأولى ، عالم الكتب ، بيروت ، ١٤١٧ هـ / ١٩٩٧ .

الكندي : أبو عمر محمد بن يوسف (ت ٣٥٠ هـ / ٩٦١ م) .

ـ ولاة مصر ، تحقيق حسين نصار ، ط. دار صادر ، بيروت .

اللالكائي : أبو القاسم هبة الله بن الحسن (ت ٤١٨ هـ / ١٠٢٧ م) .

ـ اعتقاد أهل السنة ، تحقيق أحمد سعد حمدان ،ط. دار طيبة ، الرياض ، ١٤٠٢ هـ .

المالقي : محمد بن يحيى بن أبي بكر (ت ٧٤١ هـ / ١٣٤٠ م) .

ـ التمهيد والبيان في مقتل الشهيد عثمان بن عفان ﷺ ، تحقيق كرم حلمي فرحات أحمد ، ط. الأولى ، دار الأفاق العربية ، القاهرة ، ١٤٢٣ هـ / ٢٠٠٢ م .

المالكي : أبو بكر عبد الله بن محمد (ت بعد سنة ٤٦٤ هـ / ١٠٧١ م) .

ـ رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية ، تحقيق بشير البكوش ، ط. دار الغرب الإسلامي ، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣م .

الماوردي : أبو الحسن علي بن حبيب (ت ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م) .

ـ الأحكام السلطانية ، ط. دار الفكر .

المباركفوري : أبو العلا محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم (ت ١٣٥٣ هـ / ١٩٣٤ م) .

ـ تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي ، تحقيق علي معوض وعادل عبد الموجود ، ط. الأولى ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ١٤١٩ هـ / ١٩٩٨ م .

ابن المبرد : يوسف بن الحسن بن عبد الهادي (ت ٩٠٩ هـ / ١٥٠٣ م) .

ـ محض الصواب في فضائل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، تحقيق عبد العزيز بن محمد الفريح ، ط.الأولى ، مكتبة أضواء السلف ، ١٤٢٠ هـ / ٢٠٠٠ م .

مجير الدين الحنبلي العليمي : عبد الرحمن بن محمد (ت ٩٢٧ هـ / ١٥٢٠ م) .

ـ الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، تحقيق محمود عودة الكعابنة ، ط. الأولى ، مكتبة دنديس ، الخليل ـ عمان ، ١٤٢٠ هـ / ١٩٩٩ م .

المحلي : عبد القادر بن جلال الدين (ت ١٠٣٣ هـ / ١٦٢٣ م) .

ـ تحفة أهل التصديق ببعض فضائل أبي بكر الصديق ، ط. الأولى ، الدار السلفية ، الهند ، ١٤٠٣ هـ .

المراغي : أبو بكر بن الحسين بن عمر (ت ٨١٦ هـ / ١٤١٣ م) .

ـ تحقيق النصرة بتلخيص معالم دار الهجرة ، تحقيق عبد الله عسيلان ، ط. الأولى ، ١٤٢٢ هـ / ٢٠٠٢ م .

المرجاني : عبد الله بن محمد بن عبد الملك (ت ٧٦٩ هـ / ١٣٦٧ م) .

ـ بهجة النفوس والأسرار في تاريخ دار هجرة النبي المختار ، ط. الأولى ، مكتبة نزار مصطفى الباز ، مكة المكرمة ـ الرياض ، ١٤١٨ هـ / ١٩٩٨ م .

المروزي : أبو بكر أحمد بن علي بن سعيد الأموي (ت ٢٩٢ هـ / ٩٠٤ م) .

ـ مسند أبي بكر الصديق ، تحقيق شعيب الأرناؤوط ، ط. الثالثة ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، ١٣٩٩ هـ .

المروزي : أبو عبد الله محمد بن نصر بن الحجاج (ت ٢٩٤ هـ / ٩٠٦ م) .

ـ تعظيم قدر الصلاة ، تحقيق عبد الرحمن عبد الجبار الفريوائي ، ط. الأولى ، مكتبة الدار ، المدينة المنورة ، ١٤٠٦ هـ .

المزي : جمال الدين أبو الحجاج يوسف (ت ٧٤٢ هـ / ١٣٤١ م) .

ـ تهذيب الكمال في أسماء الرجال ، تحقيق بشار عواد معروف ، ط. الأولى ، دار الرسالة ، ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م .

المسعودي : أبو الحسن علي بن الحسين (ت ٣٤٦ هـ / ٩٥٧ م) .

ـ مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، ط. الخامسة ، مكتبة الرياض الحديثة ، الرياض ، ١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣ م .

مسلم : مسلم بن الحجاج النيسابوري (ت ٢٦١ هـ / ٨٧٤ م) .

ـ الصحيح ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، ط. الثانية ، دار إحياء التراث العربي ،

بيروت ، ١٩٧٢ م .

المقدسي : مطهر بن طاهر (ت ٣٥٥ هـ / ٩٦٥ م) .

ـ البدء والتاريخ ، ط. مكتبة الثقافة الدينية ، بور سعيد .

المقريزي : تقي الدين أحمد بن علي (ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤١ م) .

ـ المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، ط. صادر ، بيروت .

ابن منظور : محمد بن مكرم (ت ٧١١ هـ / ١٣١١ م) .

ـ مختصر تاريخ دمشق ، تحقيق رياض عبد الحميد مراد وروحية النحاس ومحمد مطيع الحافظ ، ط. الأولى ، دار الفكر ، دمشق ، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م .

ـ لسان العرب المحيط ، أعاد بناءه على الحرف الأول من الكلمة يوسف خياط ، ط. دار لسان العرب ، بيروت .

المهدوي : أبو العباس أحمد بن عمار (ت في حدود ٤٤٠ هـ / ١٠٤٨ م) .

ـ بيان السبب الموجب لاختلاف القراءات وكثرة الطرق والروايات منشور ضمن كتاب نصوص محققه عن القرآن الكريم ، تحقيق حاتم الضامن ، ط. جامعة بغداد ، ١٤١١ هـ / ١٩٩١ م .

ابن النجار : أبو عبد الله محمد بن محمود البغدادي (ت ٦٤٣ هـ / ١٢٤٥ م) .

ـ الدرة الثمينة في أخبار المدينة ، تحقيق عبد الرزاق المهدي ، ط.الأولى ، مكتبة دار الزمان ، المدينة المنورة ، ١٤٢٤ هـ / ٢٠٠٣ م .

ابن النديم : أبو الفرج محمد بن إسحاق (ت ٤٣٨ هـ / ١٠٤٦ م) .

ـ الفهرست ، ط. دار المعرفة ، بيروت .

النسائي : أبو عبد الله أحمد بن شعيب (ت ٣٠٣ هـ / ٩١٥ م) .

ـ خصائص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ ، تحقيق أحمد ميرين البلوشي ، ط. الأولى ، مكتبة المعلا ، الكويت ، ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م .

ـ السنن الكبرى ، تحقيق البنداري وسيد كسروي ، ط. دار الكتب العلمية ، بيروت ،

١٤١١ هـ .

نصر بن مزاحم المنقري (ت ٢١٢ هـ / ٨٢٧ م) .

ـ وقعة صفين ، جمع وتحقيق عبد السلام هارون ، ط. الثالثة ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م .

نعيم بن حماد : نعيم بن حماد بن معاوية المروزي (ت ٢٢٩ هـ / ٨٤٣ م) .

ـ الفتن ، تحقيق مجدي بن منصور الشوري ، ط. الثالثة ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤٢٤ هـ / ٢٠٠٣ م .

النهرواني : أحمد بن محمد بن محمد (ت ٩٩٠ هـ / ١٥٨٢ م) .

ـ الإعلام بأعلام بيت الله الحرام ، تحقيق هشام عبد العزيز عطا ، ط. الأولى ، المكتبة التجارية ، مكة المكرمة ، ١٤١٦ هـ / ١٩٩٦ م .

النووي : أبو زكريا محيي الدين بن شرف (ت ٦٧٦ هـ / ١٢٧٧ م).

ـ تهذيب الأسماء واللغات ، ط . الأولى ، ١٩٩٦ ، دار الفكر ، بيروت .

ابن هشام : أبو محمد عبد الملك بن هشام (ت ٢١٨ هـ / ٧٣٣ م) .

ـ السيرة النبوية ، تحقيق همام سعيد ومحمد أبو صعيليك ، ط. الأولى ، مكتبة المنار ، الأردن ، ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٨ م .

الهيثمي : شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد (ت ٩٧٤ هـ / ١٥٦٦ م) .

ـ مجمع الزوائد ، ط. دار الريان للتراث ، القاهرة ، ١٤٠٧ هـ .

الواقدي : محمد بن عمر (ت ٢٠٧ هـ / ٨٢٢ م) .

ـ فتوح الشام المنسوب للواقدي ، ط. دار إحياء التراث العربي ، بيروت . ونشر قطعة مستلة منه عبد العزيز فياض جرفوش بعنوان (تاريخ فتوح الجزيرة والخابور وديار بكر والعراق) ط. دار البشائر ، دمشق ، ١٤١٧ هـ / ١٩٩٦ م .

ـ المغازي ، تحقيق مارسدن جونس ، ط. عالم الكتب ، بيروت .

وكيع : محمد بن خلف بن حيان (ت ٣٠٦ هـ / ٩١٨ م) .
ـ أخبار القضاة ، ط. عالم الكتب ، بيروت .
ياقوت الحموي : أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله (ت ٦٢٦ هـ / ١٢٢٨ م) .
ـ معجم البلدان ، ط. دار صادر ، بيروت ، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م .
اليعقوبي : أحمد بن أبي يعقوب (ت ٢٨٤ هـ / ٨٩٧ م) .
ـ تاريخ اليعقوبي ، ط. دار صادر ، بيروت .
أبو يعلى : أحمد بن علي بن المثنى (ت ٣٠٧ هـ / ٩١٩ م) .
ـ مسند أبي يعلى ، تحقيق حسين سليم أسد ، ط. الأولى ، دار المأمون ، دمشق ، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م .

ثانياً . المراجع الحديثة :

أحمد : لبيد إبراهيم (دكتور) وإبراهيم نمير سيف الدين .
ـ عصر النبوة والخلافة الراشدة ، ط. الثالثة ، مكتبة المعارف ، الرباط ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م .
أحمد : مهدي رزق الله (دكتور) .
ـ الثابتون على الإسلام أيام فتنة الردة في عهد الخليفة أبي بكر الصديق ودورهم في إخمادها ، ط. الأولى ، دار طيبة ، الرياض ، ١٤١٧ هـ / ١٩٩٦ م .
ـ السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ، ط. الأولى ، مركز الملك فيصل ، الرياض ، ١٤١٢ هـ / ١٩٩٢ م .
أر ـ كي ـ محيي الدين : أر ـ كي ـ نور محمد (دكتور) .
ـ أقضية الخلفاء الراشدين جمعاً ودراسة ، ط. الأولى ، مكتبة دار السلام ، الرياض ، ١٤٢٣ هـ / ٢٠٠٣ م .
أكرم : الجنرال أ.
ـ سيف الله خالد بن الوليد ، ترجمة العميد الركن صبحي الجابي ، ط. الأولى ،

مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٤٢١ هـ / ٢٠٠١ م .

الألباني : محمد ناصر الدين .

ـ أرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل ، ط. الثانية ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م .

ـ دفاع عن الحديث النبوي والسيرة ، ط. مؤسسة ومكتبة الخافقين ، دمشق .

ـ سلسلة الأحاديث الصحيحة ، ط. الثانية ، مكتبة المعارف ، الرياض ، ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م .

ـ صحيح السيرة النبوية للحافظ ابن كثير ، ط. الأولى ، المكتبة الإسلامية ، عمان ، ١٤٢١ هـ .

أمحزون : محمد (دكتور) .

ـ تحقيق مواقف الصحابة من الفتنة من روايات الإمام الطبري والمحدثين ، ط. الأولى ، دار طيبة ، الرياض ، ١٤١٥ هـ / ١٩٩٤ م .

الأنصاري : عبد القدوس

ـ آثار المدينة المنورة ، ط. الرابعة ، المكتبة العلمية التجارية بالمدينة المنورة ، ١٤٠٦ هـ.

البابطين : إلهام بنت محمد (دكتورة) .

ـ مؤاخاة الرسول ﷺ بين أصحابه من أهل مكة قبل الهجرة وبعدها ، بحث في مجلة الدارة ، ع ٤ ، شوال ١٤٢٤ هـ .

بازمول : أحمد بن عمر

ـ رسالة عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري في القضاء وآدابه رواية ودراية ، ط. الرئاسة العامة لشؤون المسجد الحرام ، ١٤٢٠ هـ .

باشا : محمد مختار .

ـ التوفيقات الإلهامية في مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الإفرنكية والقبطية ، تحقيق محمد عمارة ، ط. الأولى ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م .

باشميل : محمد أحمد .

ـ حروب الإسلام في الشام في عهود الخلفاء الراشدين ، ط. الأولى ، دار الفكر ، ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م .

بتلر: ألفرد ج .

ـ فتح العرب لمصر ، تعريب محمد فريد أبو حديد ، ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٩ م .

بلتاجي : محمد (دكتور) .

ـ منهج عمر بن الخطاب في التشريع ، ط. الأولى ، دار السلام ، القاهرة ، ١٤٢٣ هـ / ٢٠٠٢ م .

البياتي : منير حميد .

ـ الدولة القانونية والنظام السياسي الإسلامي ، ط. الأولى ، الدار العربية ، بغداد ، ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م .

التل : عبد الله .

ـ خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية ، ط. الثالثة ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م .

جعيط : هشام (دكتور) .

ـ الفتنة جدلية الدين والسياسة في الإسلام المبكر ، ط. الثالثة ، دار الطليعة ، ١٩٩٥ .

الحجوري : يحيى علي .

ـ الرياض المستطابة في صحيح وضعيف مفاريد الصحابة ، ط. الأولى ، دار الفاروق الحديثة ، القاهرة ، ١٤٢٥ هـ .

حسن : حسن إبراهيم (دكتور) .

ـ تاريخ الإسلام ، ط. السابعة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٤ م .

حسين : طه .

ـ الفتنة الكبرى (علي وبنوه) ، نشر ضمن كتاب (إسلاميات طه حسين) ، ط. دار العلم للملايين .

الحقيل : إبراهيم بن محمد .

ـ لماذا عزل عمر خالداً رضي الله عنهما ، بحث في مجلة البيان ، ع ١٩٨ .

حميدان : أرشد يوسف (دكتور)

ـ تخطيط الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ لحملة سعد بن أبي وقاص ﷺ إلى العراق ومتابعته لها ، بحث في مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، ع ٣١ ، رجب ١٤٢١ هـ .

الخربوطلي : علي حسني (دكتور) .

ـ الحضارة العربية الإسلامية ، ط. مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٩٧٥ م .

الخروف : أحمد .

ـ شهيد الدار عثمان بن عفان ، ط. الأولى ، دار البيارق ، عمان ، ١٤١٨ هـ / ١٩٩٧ م .

خطاب : محمود شيت (اللواء الركن) .

ـ الفاروق القائد ، ط. الرابعة ، دار الفكر ، ١٣٩١ هـ / ١٩٧١ م .

ـ قادة الفتح الإسلامي في أرمينية ، ط. الأولى ، دار الأندلس الخضراء ، جدة ، ١٤١٩ هـ / ١٩٩٨ م .

ـ قادة فتح بلاد فارس ، ط. الثالثة ، دار الفكر ، بيروت ، ١٣٩٤ هـ / ١٩٧٤ م .

ـ قادة فتح الشام ومصر ، ط. دار الفكر ، بيروت .

ـ قادة فتح العراق والجزيرة ، ط. الثالثة ، دار الفكر ، بيروت ، ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧م .

أبو خليل : شوقي (دكتور) .
- أطلس التاريخ العربي الإسلامي ، ط. الرابعة ، دار الفكر ، دمشق ، ١٤١٥ هـ / ١٩٩٤ م .
- ذات الصواري ، ط. دار الفكر ، دمشق ، ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م .
الخميس : عثمان .
- حقبة من التاريخ ، ط. الأولى ، مركز الثقافة الإسلامية ، الكويت ، ١٤١٩ هـ / ١٩٩٨م .
الخياري : أحمد ياسين .
- تاريخ معالم المدينة المنورة قديماً وحديثاً ، تعليق عبيد الله محمد كردي ، ط. الأولى ، نادي المدينة المنورة الأدبي ، ١٤١٠ هـ / ١٩٩٠ م .
داوودي : صفوان عدنان .
- زيد بن ثابت كاتب الوحي وجامع القرآن ، ط. الأولى ، دار القلم ، دمشق ، ١٤١١ هـ / ١٩٩٠ م .
درادكة : صالح موسى (دكتور) .
- العلاقات العربية اليهودية حتى نهاية عهد الخلفاء الراشدين ، ط. الأولى ، الأهلية للنشر ، عمان ، ١٤١٢ هـ / ١٩٩٢ م .
دياب : صابر محمد (دكتور) .
- دراسات في التاريخ الإسلامي ، ط. دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧ م .
الدويش : أحمد بن عبد الرزاق .
- فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء (جمع وترتيب) ، ط. دار المعارف بالرياض ، ١٤١٢ هـ .

الراجحي : محمد بن سليمان (دكتور) .
- المسلمون والخزر ، ط. الأولى ، ١٤١٨ هـ / ١٩٩٨ م .
- معجم بلدان العالم الإسلامي في كتاب الأنساب لأبي سعد السمعاني ، ط.الأولى ، ١٤٢٦ هـ / ٢٠٠٥ م .
الريس : محمد ضياء الدين (دكتور) .
- الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية ، ط. الرابعة ، دار الأنصار ، القاهرة ، ١٩٧٧ م .
زيادة : أسماء محمد أحمد .
- دور المرأة السياسي في عهد النبي ﷺ والخلفاء الراشدين ، ط. الأولى ، دار السلام ، القاهرة ، ١٤٢١ هـ / ٢٠٠١ م .
أبو زيد : بكر بن عبد الله .
- خصائص جزيرة العرب ، ط. الأولى ، دار ابن الجوزي ، الدمام ، ١٤١٢ هـ / ١٩٩٢ م .
سالم : السيد عبد العزيز (دكتور) .
- تاريخ الدولة العربية ، ط. دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٧١م .
- تاريخ المغرب في العصر الإسلامي ، ط. مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية .
- طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي ، ط. مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية .
سالم : السيد عبد العزيز (دكتور) ود. أحمد مختار العبادي .
- تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام ، ط. دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٨١ م
سترك :
- إرمينية (دائرة المعارف الإسلامية) تعريب أحمد الشنتناوي وإبراهيم زكي خورشيد وعبد الحميد يونس ، ط. دار المعرفة ، بيروت

سحنون : أحمد

- رسالة القضاء لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ ، ط. وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية ، ١٤١٢ هـ / ١٩٩٢ م .

سزكين : فؤاد (دكتور) .

- تاريخ التراث العربي ، عربه محمود فهمي حجازي ، ط. جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، ١٤١١ هـ / ١٩٩١ م .

سعد : فهمي (دكتور)

- انتشار الإسلام في إفريقيا في العصور الوسطى ، ط. الأولى ، عالم الكتب ، بيروت ، ٢٠٠١ م .

السعود : سليمان بن علي (دكتور) .

- أحاديث الهجرة ، ط. الأولى ، مركز الدراسات الإسلامية ، برمنجهام ، ١٤١١ هـ / ١٩٩٠ م .

سلمان : مشهور حسن .

- قصص لا تثبت ، ط. الأولى ، دار الصميعي ، الرياض ، ١٤١٤ هـ / ١٩٩٣ م .

السلمان : علي عبد الله .

- عبد الله بن سبأ وإمامة علي بن أبي طالب ﷺ ، ط. دار الأمل ، القاهرة .

السلمي : محمد بن صامل (دكتور) .

- منهج كتابة التاريخ الإسلامي ، ط. الأولى ، دار طيبة ، الرياض ، ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م .

السلومي : عبد العزيز بن سليمان (دكتور) .

- الواقدي وكتابه المغازي ، ط. الأولى ، الجامعة الإسلامية ، المدينة ، ١٤٢٥ هـ / ٢٠٠٤ م .

السلومي : عبد العزيز بن عبد الله .

ـ ديوان الجند ، نشاته وتطوره في الدولة الإسلامية حتى عصر المأمون ، ط. الأولى ، مكتبة الطالب الجامعي ، مكة المكرمة ، ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م .

السندي : عبد القادر حبيب الله .

ـ الذهب المسبوك في تحقيق روايات غزوة تبوك ، ط. مكتبة المعلا ، الكويت ، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦ م .

سويد : ياسين (العميد الركن) .

ـ أجنادين نصر إسلامي ساحق على الروم ، مقال في مجلة الحرس الوطني ، الرياض ، محرم ١٤١٠ هـ .

شاكر : أحمد محمد .

ـ جمهرة مقالات العلامة الشيخ أحمد محمد شاكر ، جمعها واعتنى بها عبد الرحمن بن عبد العزيز العقل ، ط. الأولى ، دار الرياض ، مصر ، ١٤٢٦ هـ / ٢٠٠٥ م .

شاكر : محمود .

ـ التاريخ الإسلامي ، الخلفاء الراشدون ، ، ط. الأولى ، المكتب الإسلامي ، ١٤٠٠هـ.

ـ ميدان معركة اليرموك ، ط. الأولى ، دار الحرمين ، الدوحة ، ١٤٠٣ هـ .

الشامي أحمد (دكتور) .

ـ الخلفاء الراشدون ، ط. المركز العربي للثقافة ، بيروت .

شراب : محمد محمد حسن .

ـ بيت المقدس والمسجد الأقصى ، ط. الأولى ، دار القلم ، دمشق ، ١٤١٥ هـ / ١٩٩٤ م .

الشريف : أحمد إبراهيم (دكتور) .

ـ دراسات في الحضارة الإسلامية ، ط. الثانية ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٨١م.

- دور الحجاز في الحياة السياسية العامة في القرنين الأول والثاني للهجرة ، ط. دار الفكر العربي ، القاهرة .

- مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ، ط. دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٨٥م .

شفيع : محمد .

- مقام الصحابة وعلم التاريخ ، ترجمة سمير عبد الحميد إبراهيم ، ط. الأولى ، دار هجر ، القاهرة ، ١٤٠٩ هـ .

صالح : محسن محمد (دكتور) .

- الطريق إلى القدس ، ط. الثانية ، لندن ، ١٩٩٧ م .

صبرة : عفاف سيد (دكتورة) ومصطفى محمد الحناوي (دكتور) .

- دراسات في تاريخ الخلفاء الراشدين ، ط. مكتبة الرشد ، الرياض ، ١٤٢٤ هـ / ٢٠٠٣ م .

الطريفي : ناصر بن عقيل (دكتور) .

- القضاء في عهد عمر بن الخطاب ، ط. الأولى ، مكتبة التوبة ، الرياض ، ١٤١٤ هـ / ١٩٩٤ م .

الطنطاوي : علي وناجي .

- أخبار عمر وأخبار عبد الله بن عمر ، ط. الثامنة ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م .

العبادي : أحمد مختار (دكتور) .

- في تاريخ المغرب والأندلس ، ط. مؤسسة الثقافة الجامعية ، الإسكندرية .

عبد الحميد : سعد زغلول (دكتور) .

- تاريخ المغرب العربي ، ط. منشأة المعارف ، الإسكندرية ، ١٩٧٩ م .

عبد الغني : محمد إلياس

ـ تاريخ المسجد النبوي الشريف ، ط. الرابعة ، المدينة المنورة ، ١٤٢٠ هـ / ٢٠٠٠م.

العتوم : علي (دكتور) .

ـ حركة الردة ، ط. الأولى ، مكتبة الرسالة الحديثة ، الأردن ، ١٤٠٧ هـ .

العدوي : إبراهيم (دكتور) .

ـ قوات البحرية العربية في مياه البحر المتوسط ، ط. مكتبة نهضة مصر .

عرجون : صادق إبراهيم .

ـ خالد بن الوليد ، ط. دار الغزالي ، بيروت .

ـ عثمان بن عفان ، ط. الثالثة ، الدار السعودية ، جدة ، ١٤١٠ هـ / ١٩٩٠ م .

عسيلان : عبد الله (دكتور) .

ـ كتاب الإمامة والسياسة في ميزان التحقيق العلمي ، ط. الأولى ، مكتبة الدار بالمدينة المنورة ، ١٤٠٥ هـ .

العش : يوسف (دكتور) .

ـ الدولة الأموية والأحداث التي سبقتها ومهدت لها ، ط. الثانية ، دار الفكر ، دمشق ، ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٥ م .

العقاد : عباس محمود .

ـ عبقرية عمر (المجموعة الكاملة لمؤلفات العقاد) م ١ ، ط. الأولى ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ١٩٧٤ م .

ـ عثمان بن عفان ذو النورين ، ط. المكتبة العصرية ، بيروت .

العقل : ناصر بن عبد الكريم (دكتور) .

ـ الخوارج ، ط. الأولى ، دار الوطن ، الرياض ، ١٤١٤ هـ .

العقيلي : عمر سليمان (دكتور) .

ـ خلافة معاوية بن أبي سفيان ﷺ ، ط. الأولى ، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م .

العلياني : علي بن نفيع (دكتور) .
ـ عقيدة الإمام ابن قتيبة ، ط. الأولى ، مكتبة الصديق ، الطائف ، ١٤١٢ هـ / ١٩٩١م .
عمر : السيد .
ـ الدور السياسي للصفوة في صدر الإسلام ، ط. الأولى ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، القاهرة ، ١٤١٧ هـ / ١٩٩٦ م .
العمري : أكرم ضياء (دكتور) .
ـ عصر الخلافة الراشدة ، ط. الأولى ، مكتبة العلوم والحكم ، المدينة ، ١٤١٤ هـ / ١٩٩٤ م .
ـ السيرة النبوية الصحيحة ، ط. الخامسة ، مكتبة العلوم والحكم ، المدينة ، ١٤١٣ هـ / ١٩٩٣ م .
العمري : عبد العزيز بن إبراهيم (دكتور) .
ـ الفتوح الإسلامية عبر العصور ، ط. الأولى ، دار إشبيليا ، الرياض ، ١٤١٨ هـ / ١٩٩٧ م .
العميد : طاهر مظفر (دكتور) .
ـ تخطيط المدن العربية الإسلامية ، ط. جامعة بغداد ، ١٩٨٦ م .
عنان : محمد عبد الله .
ـ مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية ، ط. مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٩ م .
عواجي : غالب بن علي (دكتور) .
ـ الخوارج تاريخهم وآراؤهم الإعتقادية وموقف الإسلام منها ، ط. الثانية ، المكتبة العصرية ، جدة ، ١٤٢٣ هـ .

عوض الله : الشيخ الأمين (دكتور) .

- الخلفاء الراشدون ، ط. الثالثة ، دار الفلاح ، الكويت ، ١٤١٠ هـ / ١٩٩٠ م .

العودة : سلمان بن فهد .

- الغرباء الأولون ، ط. الأولى ، دار ابن الجوزي ، الدمام ، ١٤١٠ هـ .

العودة : سليمان (دكتور) .

- عبد الله بن سبأ وأثره في أحداث الفتنة في صدر الإسلام ، ط. الأولى ، دار طيبة ، الرياض ، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م .

آل عيسى : عبد السلام بن محيسن .

- دراسة نقدية في المرويات الواردة في شخصية عمر بن الخطاب وسياسته الإدارية ، ط. الأولى ، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ، ١٤٢٣ هـ / ٢٠٠٠ م .

الغبان : محمد بن عبد الله (دكتور) .

- فتنة مقتل عثمان بن عفان ﷺ ، ط. الأولى ، مكتبة العبيكان ، الرياض ، ١٤١٩ هـ / ١٩٩٩ م .

الغزالي : محمد .

- نظرات في القرآن ، ط. الأولى ، نهضة مصر ، ١٩٩٦ م .

غلوب : جون باجوت .

- الفتوحات العربية الكبرى ، تعريب وتعليق خيري حماد ، ط. مكتبة المثنى ، بغداد .

الغيث : خالد بن محمد (دكتور) .

- استشهاد عثمان ﷺ ووقعة الجمل في مرويات سيف بن عمر في تاريخ الطبري ، ط. الأولى ، دار الأندلس الخضراء ، جدة ، ١٤١٨ هـ / ١٩٩٨ م .

فرج : محمد .

- الفتح العربي للعراق وفارس ، ط. درا الفكر العربي ، ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٦ م .

فقيهي : عبد الحميد علي .
- خلافة علي بن أبي طالب ﷺ ، رسالة ماجستي غير منشورة ، الجامعة الإسلامية ، المدينة النبوية ، ١٤١٢ هـ .
فهمي : علي محمد (دكتور) .
- القوة البحرية الإسلامية في شرق البحر المتوسط ، بحث ضمن كتاب (تاريخ البحرية المصرية) ، ط. جامعة الإسكندرية .
فيصل : شكري (دكتور) .
- حركة الفتح الإسلامي ، ط. الرابعة ، دار العلم الملايين ، بيروت .
قادري : عبد الله أحمد (دكتور) .
- الردة عن الإسلام وخطرها على العالم الإسلامي ، ط. الثانية ، مكتبة طيبة ، المدينة المنورة ، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م .
قريبي : إبراهيم بن إبراهيم .
- مرويات غزوة حنين وحصار الطائف ، ط. الجامعة الإسلامية .
قلعه جي : محمد رواس (دكتور) .
- موسوعة فقه أبي بكر الصديق ، ط. الثانية ، دار النفائس ، بيروت ، ١٤١٥ هـ / ١٩٩٤ م .
- موسوعة فقه عمر بن الخطاب ، ط. الثانية ، دار الفلاح ، الكويت ، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م .
- موسوعة فقه عثمان ، ط. الأولى ، جامعة أم القرى ، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٣ م .
- موسوعة فقه علي بن أبي طالب ، ط. الأولى ، دار النفائس ، بيروت ، ١٤١٧ هـ / ١٩٩٦ م .
القرشي : غالب عبد الكافي .
- أوليات الفاروق السياسية ، ط. الأولى ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م .

القضاة : أمين (دكتور) .

- الخلفاء الراشدون ، ط. الأولى ، مكتبة المنار ، الأردن ، ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م .

كريستنسن : أرثر .

- إيران في عهد الساسانيين ، ترجمة يحيى الخشاب ، ط. دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٨٢ م .

كمال : أحمد عادل .

- سقوط المدائن ونهاية الدولة الساسانية ، ط. الأولى ، دار النفائس ، بيروت ، ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م .
- الطريق إلى دمشق ، ط. الثانية ، دار النفائس ، بيروت ، ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م .
- الطريق إلى المدائن ، ط. الرابعة ، دار النفائس ، بيروت ، ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م .
- الفتح الإ سلامي لمصر ، ط. الأولى ، الشركة الدولية للطباعة ، مدينة ٦ أكتوبر ، ١٤٢٣ هـ / ٢٠٠٣ م .
- القادسية ، ط. الخامسة ، دار النفائس ، بيروت ، ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م .

الكوثري : محمد زاهد .

- مقالات الكوثري ، ط. المكتبة التوفيقية ، القاهرة .

لويس : أرشيبالد . ر .

- القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط ، ترجمة أحمد محمد عيسى ، ط. مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة .

ماهر : سعاد (دكتورة) .

- البحرية في مصر الإسلامية وآثارها الباقية ، ط. وزارة الثقافة المصرية .

محمصاني : صبحي (دكتور) .

- تراث الخلفاء الراشدين في الفقه والقضاء ، ط. الأولى ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٨٤ م .

محمود : حسن (دكتور) .
ـ الإسلام في حوض البحر المتوسط ، ط. الأولى ، دار الفكر العربي ، مدينة نصر ، ١٤١٦ هـ / ١٩٩٥ م .
محمود : شفيق جاسر أحمد (دكتور) .
ـ تاريخ القدس ، ط. الأولى ، دار البشير ، عمان ، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م .
المصري : جميل عبد الله (دكتور) .
ـ أثر أهل الكتاب في الفتن والحروب الأهلية في القرن الأول الهجري ، ط. الأولى ، مكتبة الدار بالمدينة المنورة ، ١٤١٠ هـ / ١٩٨٩ م .
مطر : فوزية حسين .
ـ تاريخ عمارة الحرم المكي الشريف ، ط. الأولى ، تهامة ، جدة ، ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢م .
الملاح : هاشم يحيى (دكتور) .
ـ الوسيط في السيرة والخلافة الراشدة ، ط. مطبعة جامعة الموصل ، ١٩٩١ م .
ملحم : عدنان محمد (دكتور) .
ـ المؤرخون العرب والفتنة الكبرى ، ط. الأولى ، دار الطليعة ، بيروت ، ١٩٩٨ م .
المنجد : صلاح الدين (دكتور) .
ـ معجم أماكن الفتوح ، ملحق بكتاب فتوح البلدان ، ط. مكتبة النهضة المصرية .
الموسوي : السيد حسين .
ـ لله ثم للتاريخ ـ كشف الأسرار وتبرئة الأئمة الأطهار .
مؤنس : حسين (دكتور) .
ـ أطلس تاريخ الإسلام ، ط. الأولى ، الزهراء للإعلام العربي ، القاهرة ، ١٤٠٧ هـ/ ١٩٨٧ م .
ـ فتح العرب للمغرب ، ط. مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة .

النبراوي : فتحية (دكتورة) .

- عصر الخلفاء الراشدين ، ط. الثالثة ، الدار السعودية ، جدة ، ١٤١٥ هـ .

النجار : عبد الوهاب .

- الخلفاء الراشدون ، ط. دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م .

الندوي : أبو الحسن .

- ردة ولا أبا بكر لها ، ط.دار المطبوعات الحديثة ، جدة .
- الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية ، ط. الرابعة ، دار القلم ، الكويت ، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م .
- كيف ينظر المسلمون إلى الحجاز وجزيرة العرب ، ط. الثانية ، دار الاعتصام ، القاهرة ، ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م .
- ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، ط. الثالثة عشر ، درا القلم ، الكويت ، ١٤٠٢هـ .

النعماني : شبلي .

- حكومة عمر بن الخطاب ، تحقيق صالح ياسين الأعظمي ، ط. الأولى ، الدار العربية للموسوعات ، ١٤٢٥ هـ / ٢٠٠٤ م .

نوار : سامي محمد (دكتور) .

- الكامل في مصطلحات العمارة الإسلامية من بطون المعجم اللغوية ، ط. دار الوفاء لدنيا النشر ، الإسكندرية .

نور ولي : عبد العزيز محمد (دكتور) .

- أثر التشيع على الروايات التاريخية في القرن الأول الهجري ، ط. الأولى ، دار الخضيري ، المدينة النبوية ، ١٤١٧ هـ .

الهاشمي : سعدي (دكتور) .

- ابن سبأ حقيقة لا خيال ، ط. الأولى ، مكتبة الدار ، المدينة ، ١٤٠٦ هـ .

الوكيل : محمد السيد (دكتور) .

ـ جولة تاريخية في عصر الخلفاء الراشدين ، ، ط. الثانية ، دار المجتمع ، جدة ، ١٤٠٨هـ .

الوهيبي : محمد بن عبد الله .

ـ اعتقاد أهل السنة في الصحابة ، ط. المنتدى الإسلامي بلندن .

اليحيى : يحيى بن إبراهيم (دكتور) .

ـ الخلافة الراشدة والدولة الأموية من فتح الباري ، ط. الأولى ، دار الهجرة ، الرياض ، ١٤١٧ هـ / ١٩٩٦ م .

ـ مرويات أبي مخنف في تاريخ الطبري ، ط. الأولى ، دار العاصمة ، ١٤١٠ هـ .

فهرس الموضوعات